مَسعُود الخوَند

القارّات . المَناطِق . الدّوَل . البُلدان . المُدُن

الموسوعة التاريخية الجغرافية

مَعَالِم . وَثَائِق . مَوضُوعَات . زُعَماء

الجزء الثاني عشر

العالم الاسلامي — العربية السعودية

مقدمة

تفتقر المكتبة العربية، في ما تفتقر إليه، إلى الموسوعات والمعاجم، وكلّ أنواع أدوات البحث على اختلافها ووسائل الايضاح على أشكالها.

ففي اللغات الأجنبية، خاصة الأوروبية الغربية منها، موسوعات عامة، وأخرى للشخصيات السياسية أو العلمية أو للأثنين معًا، وللمواضيع وللفنون وللآداب والعلوم على أنواعها، وقد تكون لعصر من العصور ولبلد من البلدان أو لكل العصور والبلدان، بما فيها البلدان العربية.

فالبلدان العربية، مفردة أو مجتمعة، بالكاد تنتج موسوعة أو قاموسًا، وعادة يأتي هذا الانتاج متخلفًا عن متابعة آخر ما يستجدّ، وبطريقة سريعة ومتسرّعة، وكأنما الكسب المادي هو الهدف والوسيلة في آن معًا.

وما يؤسف له أن العمل الموسوعي يقتضي دعم المؤسسات الحكومية أو الجامعية أو الثقافية أو المؤسسات الاقليمية العربية. ولكن، لا شيء من هذا القبيل قد تحقق أو في طريقه للتحقق، بسبب صراعات المصالح داخل الاوطان العربية، وداخل مؤسسات الجامعة العربية.

وتزداد أهمية نشر الموسوعات، مع قيام أجيال جديدة من الشبان، تفتقر، بسبب مناهجها التربوية، أو طرائق التعليم في مدارسها، إلى الثقافة الواسعة والمعمّقة في آن معًا. ولعلّ انكباب الشبان على البرامج الترفيهية والرياضية ما ساعد على ضحالة ثقافتها وهشاشتها، ناهيك عما تساهم به الأنظمة السياسية من تكبيل للفكر وللروح العلمية والمنهج النقدي وللرؤيا الموضوعية للأمور.

الاتجاه الموسوعي للكتابة، خاصة عن المعارف التاريخية والجغرافية يرقى إلى بداية تكوين الامبراطوريات الكونية في التاريخ، تلك الامبراطوريات التي فرضت حضارتها على أجزاء كبيرة من العالم، خاصة منذ عهد الاسكندر المقدوني، ثم بصورة جليّة في عهد الامبراطورية الرومانية.

هذا الاتجاه إلى التأريخ الكوني اتخذ أبعاده الحقيقية مع انتشار الدين المسيحي الذي كانت رسالته، بعكس الديانات الأخرى، رسالة مسكونية.

وقد حذا الدين الاسلامي حذو المسيحية في توجهه الكوني، وسيطر هذا الاتجاه على الاعمال التأريخية والجغرافية في القرون الوسطى. وقد أعطت الحضارة الاسلامية-العربية في القرن الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر موسوعات جغرافية وتاريخية وادارية شملت ما كان معروفًا في ذلك الزمان، وكانت على قدر كبير من الأهمية كمصدر استعلامات.

انتقل الانتاج الموسوعي من الشرق إلى الغرب، بسبب عصور الانحطاط هنا والنهضة الكبرى هناك، ووصل إلى أوجه مع عصر الموسوعات في القرن الثامن عشر.

كان الاتجاه إلى الموسوعات وليد الرغبة بتنشئة مثال إنساني عالمي متكامل الثقافة السياسية والفكرية والأدبية والفنية والعلمية على الطريقة والأنموذج الأوروبي الغربي. كان هناك شعور بأن الانسان هو الانسان مهما اختلف في الدين والجغرافيا واللون. ولذلك، كان لا بدّ من تهيئة الأجواء لولادة هذا الانسان الكوني عبر إعطائه ثقافة إنسانية شاملة مميزة.

د. الياس القطار

أستاذ التاريخ في الجامعة اللبنانية

ولكن، في الوقت الذي كان فيه الاتجاه الموسوعي يشرق ويتفاعل في أوروبا ويهيء للثورة الفرنسية، كان العلم باكتشافاته وإنجازاته يخترق حجاب المجهول ويُبدع معجزات منذ القرن التاسع عشر.

هذا الجوّ المفعم بالاختراعات خلق مناخًا عامًّا على كل صعد العلوم والأفكار والآداب يدعو إلى التخصص المعمّق في حقل من الحقول وميدان من الميادين. وقد انتشر هذا الاتجاه التخصصي وأصبح القاعدة في الانتاج في أي ميدان من الميادين، ونتج عنه تخصصّات على صعيد التأريخ والجغرافيا في مواضيع محددة وفي زمان ومكان محددين، مما أثمر هذا الانتاج المميز والدقيق والعميق وهذا الكشف عن الحقائق وعن أبسط التفاصيل المتعلقة بحياة الانسان.

هذا الاتجاه التخصصي لا يلغي، إطلاقًا، الحاجة إلى الأعمال الموسوعية. فالتخصص هو الرافد الأساسي للعمل الموسوعي الذي يصبح بدوره الاداة التي تنقل إنتاج الخاصة من العلماء إلى العامة من الناس؛ فهو الوسيلة الفضلى لتعميم المعرفة.

من هذا المنطلق، سعى الاستاذ مسعود الخوند، بعد ما تدرّب على تأليف ونشر المعاجم التاريخية إلى إصدار «الموسوعة التاريخية الجغرافية»، ناقلاً فيها إلى القارئ باللغة العربية آخر ما استجدّ من معلومات عن الوقائع والحدثان والمعالم والموضوعات والاعلام والأماكن والقارات والمناطق والدول والبلدان والمدن...

وهو في موسوعته هذه، يسعى إلى جمع عدة منهجيات لصياغة الموسوعات العالمية في منهجية واحدة، هدفها تحقيق أشمل استقصاء متنوع للمعلومات، وترتيبه في أوجه متنوعة، الغاية منها، دفع القارئ بوسائل عدة إلى التقاط المعلومة التي يبحث عنها. فهو يبدأ بالتعريف بالموضوع ببطاقة معلومات موجزة ثم يتوسع في شرح الوقائع التاريخية بطريقة شاملة موجزة ومعمقة. ولا يكتفي بهذا القدر من الشروحات بل يعود لتقليب المعلومات بطريقة جديدة متوقفًا عند المعالم الجغرافية من دول ومناطق ومدن من النواحي العسكرية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، ثم يضع قاموسًا للاعلام وللمصطلحات وللعديد من المفردات التي ترمز إلى واقعة أو حدث أو صفة مما كان له صدى تاريخي.

الجزء الثاني عشر من هذه الموسوعة يعالج مسائل ومواضيع تخصنا بصورة مباشرة أو غير مباشرة. فموضوعه العالم الاسلامي بجغرافيته ومسائله الفكرية ودوله ومنظماته ومسألة الحوار الاسلامي-المسيحي، كما أن من مواضيعه العالم الثالث والعالم العربي والعراق والمملكة العربية السعودية بتواريخ كل من هذه العوالم وهاتين الدولتين، وهواجسها، ومشاكلها ومعالمها وزعمائها.

وهو في هذا الجزء كما في الأجزاء السابقة ينحت معلوماته من صميم الموسوعات العالمية والمجلات الوثائقية والجرائد والمصنفات التي تعنى باستقصاء الحدث بصورة دقيقة وموضوعية.

لقد عني مسعود الخوند بتقديم مادة موسوعية دقيقة واضحة معمقة موضوعية في أسلوب واضح وبليغ، وهو في ذلك يقدم للقارئ باللغة العربية نتاجًا على مستوى الموسوعات العالمية، حتى أنه يضاهيها في ما يقدمه من معلومات عن دول وبلدان مغمورة لا تحيط بها الموسوعات العالمية بعمق وبفهم لواقعها ولمسائلها الخاصة بها.

فهرست

أقليات

كردستان العراق

معالم تاريخية

مدن ومعالم

زعماء، رجال دولة وسياسة

العربية السعودية، المملكة ٢٦٢

نبذة تاريخية

السعوديون ٢٨٢

زعماء، رجال دولة وسياسة

العالم الاسلامي

المسلمون في العالم
نظرة عامة

التعداد: قدّرت أنسيكلوبيديا بريتانيكا، في ١٩٨٢، عدد المسلمين في العالم بـ٥٨٨ مليونًا. وفي ١٩٩٥، أخذت أغلب المصادر والمراجع، من أجنبية أو عربية أو إسلامية، تقدّر العدد بنحو مليار نسمة، ووصلت أخيرًا (١٩٩٧-١٩٩٨) بتقديره بنحو مليار وربع مليار نسمة، وتشير إلى أنه سيبلغ أكثر من مليارين في العام ٢٠٢٠، أي سيمثل نحو ٢٧٪ من إجمالي سكان العالم الذي سيبلغ نحو ٨،٦ مليار نسمة.

وتتكلم الدراسات على ان متوسط معدّل الولادات في العالم الاسلامي تصل إلى ٢٤ بالألف، وإلى ٣٤ بالألف لدى مسلمي العالم الثالث، وإلى ١٣ بالألف لدى مسلمي البلدان الصناعية.

عن اعتناق الدين الاسلامي، في الوقت الحاضر، أوجز الكتاب السنوي الفرنسي Quid (١٩٩٤) الظاهرة بقوله ان الاسلام لا يزال يتقدم في افريقيا السوداء على حساب المسيحية منذ بدء زوال الاستعمار، وإن اعتناق السود المسيحيين للاسلام ظاهرة متكررة، كما ان الذين يشهرون إسلامهم من أصحاب ا لمعتقدات الإحيائية (أديان أصلية في افريقيا وبعض المناطق الآسيوية كما في عدد من جزر محيط الهادىء وغيرها) هم أكثر من الذين يتحولون إلى المسيحية:

«l'Islam progresse en Afrique Noire, au détriment du Christianisme depuis la décolonisation. Les conversions des Noirs Chrétiens à l'Islam sont fréquents. Les conversions d'Animistes se font plus vers l'Islam que vers le Christianisme».

الأقليات المسلمة في العالم: إذا كان المسلمون يشكلون الأكثريات المتراوحة بين الأكثرية العددية المطلقة التي تبدأ من نسبة ٥١٪ من إجمالي السكان، وبين الأكثرية الساحقة التي تصل إلى ٩٩٪ في الدول العربية والاسلامية، فإنهم يتواجدون ايضًا بصورة اقليات كبيرة أو متوسطة أو صغيرة في معظم دول العالم.

عن هذه الاقليات لمحة موجزة نقدمها استنادًا إلى كتاب «الأقليات المسلمة في العالم» (المملكة العربية السعودية، وزارة الاعلام-الاعلام الخارجي، نشر وتوزيع دار أريجة للنشر والتوزيع، مصدّرًا بكلمة توجيهية من «خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز، الثلاثاء ١١/شوال/١٤١٢هـ جدة)، مع ملاحظة أن الاحصائيات الواردة فيه تعود إلى قبيل انهيار جدار برلين والاتحاد السوفياتي:

الأقليات المسلمة في آسيا: يصل عدد المسلمين في آسيا بما يقرب من ٧٥٢ مليون نسمة منهم ٤٧٠ مليونًا يعيشون في الاقطار الاسلامية أي بنسبة ٦٣٪ تقريبًا من إجمالي عدد المسلمين في آسيا، بينما يقدر عدد المسلمين الذين يعيشون في أقطار غير إسلامية بأكثر من ٢٨٢ مليونًا أي بنسبة ٣٧٪ من مجموع مسلمي آسيا.

– في الهند، يعيش أكثر من ١٢٠ مليون مسلم، أي نحو ١٥٪ من مجموع السكان. وكان انتشار الاسلام في الهند نتيجة الفتح الاسلامي عن طريق بحر العرب إلى البنغال، وفي السواحل انتشر الاسلام نتيجة التجارة والدعوة، ثم تعمق في الداخل أثناء حكم المسلمين للهند وانتقال الدعاة في مناطقها المختلفة. وفي الهند أعداد من الهيئات والجمعيات الاسلامية، وتعتبر الجامعة الاسلامية في «عليكرة» من أهم الجامعات العصرية بالاضافة إلى الجامعة الاسلامية في دلهي.

– في نيبال، نحو ٦٠٠ ألف مسلم، أي ٤٪ من مجموع السكان، وكان الاسلام انتشر فيها ببطء شديد وبمجهودات السلطان شمس الدين حاكم البنغال، بالاضافة إلى البعثات الاسلامية في عهد الامبراطور المغولي المسلم.

– في سري لانكا، نحو مليون و٨٠٠ ألف مسلم (١٠٪ من مجموع السكان). ويطلق على معظم المسلمين فيها إسم «المورز»، وأغلبهم يعمل في فلاحة الارض وزراعتها (راجع «سري لانكا»، ج٩).

– في بورما، نحو ٧ ملايين مسلم (١٧،٣٪ من مجموع السكان). ودخل الاسلام بورما عن طريق التجار المسلمين وخاصة العرب حيث اقاموا محطات تجارية لهم على طول المناطق الساحلية الواقعة في الطريق إلى الصين. ومن المسلمين في بورما جماعة «الروهنجيون» الذين يتعرضون لتصفية منظمة إما بالقتل أو التشريد، وقد فرّ أكثر من ٦٠٠ ألف لاجىء إلى بنغلادش (راجع «بورما»، ج٥).

– في تايلاند، ٧،٧ مليون مسلم من مجموع ٥٥ مليون نسمة. ويتجمع المسلمون في منطقتين رئيسيتين: فطاني وبانكوك. وعرفت تايلاند الاسلام عن طريق التجار العرب الذين أسسوا دولة مستقلة في فطاني (جنوبي تايلاند على حدود ماليزيا). وأدمجت فطاني مع تايلاند في اوائل هذا القرن، وتنشط فيها حركة تحرير اسلامية لإعادة السلطة الاسلامية عليها (راجع، «تايلاند»، ج٦).

– في كمبوديا، أكثر من مليون مسلم (٣،٥٪ من مجموع السكان). قضى الشيوعيون على عدد كبير منهم، كما فرّ قسم منهم إلى مناطق مختلفة في جنوب شرقي آسيا مثل ماليزيا وأندونيسيا، وكادت تخلو من المسلمين. وهدمت الحكومة الشيوعية المساجد عام ١٩٧٠. وعندما استولى الخمير الحمر على السلطة في ١٩٧٥، بدأوا في سلسلة من المذابح للمسلمين. واعترفت وكالة الأنباء الخمبودية في ايلول ١٩٨٠ بأن معظم أبناء الاقلية الاسلامية في كمبوديا قد تعرّضوا للإبادة في ظل حكم بول بوت.

– في فيتنام، كان يسكنها أكثر من مليوني مسلم (نحو ٣٪ من مجموع السكان)، ولكن ضاعت هذه النسبة مع الزمن، «وذلك بفعل وحشية الشيوعية التي كانت بالمرصاد تقف في وجه الاسلام لتحاول القضاء عليه في كل مكان الأمر الذي جعل عددهم يقل مع الأيام في فيتنام حتى انقطعت أخبارهم نهائيًا بعد حوادث القتال والمعارك الدامية المشهورة في فيتنام (المقصود الحرب الفيتنامية الشهيرة) و لم يتبقَ من آثار المسلمين إلا مسجدان أحدهما في هانوي عاصمة الشمال والآخر في سايغون عاصمة الجنوب».

– في سنغافورة، نحو ٥٤١ ألف مسلم (٢٠٪ من مجموع السكان). انتشر الاسلام فيها مع انتشاره في شبه جزيرة الملايو وأندونيسيا. ثمة مشكلة أساسية تتمثل في قلة علماء الدين الاسلامي، وحفظ القرآن قاصر على جهود المجلس الاسلامي بسنغافورة وتدرّس اللغة العربية بجهود بعض المنظمات الاسلامية.

– في الصين، أكثر من ٩٥ مليون مسلم (١٠-١١٪ من مجموع السكان) (راجع «الصين»، ج١١).

– في تايوان، نحو ٥٦ ألف مسلم، ويرجع دخولهم إلى هذه الجزيرة إلى هجرة حوالي ٢٠ ألف مسلم من الصين فارين من الحكم الشيوعي. والمسلمون في تايوان لهم وضع خاص مميز عن بقية البلاد حيث يشارك ٢٧ عضوًا منهم في المجالس التشريعية، ويتمتعون بوضع اقتصادي أفضل من غيرهم.

– في التيبت، نحو ٢٠٠ ألف مسلم (١٠٪ من مجموع السكان).

– في كوريا، جاء دخول الاسلام إليها متأخرًا، وكان على يد فرقة تركية شاركت في القوات الدولية لدعم كوريا الجنوبية في حربها ضد كوريا الشمالية. وكان إمام هذه الفرقة الشيخ عبد الرحمن الذي استطاع ان ينشر الاسلام بين عدد قليل من السكان. وعدد المسلمين في كوريا اليوم نحو ٣٠ ألفًا، تتجمع أغلبيتهم في مدينة سيول العاصمة ولهم فيها مسجد، وساهمت المملكة العربية السعودية في إقامة الجامعة الاسلامية الكورية.

– في الفيليبين، نحو ٧،٥ مليون مسلم (١٢٪ من مجموع السكان). كانت التجارة هي العامل الرئيسي لدخول الاسلام، و لم يأت القرن العاشر إلا وللمسلمين عدة إمارات هناك. قاوموا الاستعمار الاسباني. وفي الحرب العالمية الثانية، قاوموا احتلال اليابان. عُرف المسلمون في الفيليبين باسم «المورو»، ويزداد وجودهم في الجزر الجنوبية من البلاد، ويتكلمون لغتين تعرفان بلغة «المورو» وتكتبان بالاحرف العربية. وتعد العربية اللغة الثانية بعد الانكليزية التي لا تزال اللغة الرسمية في البلاد كلها. وكانت المملكة العربية السعودية ومنظمة المؤتمر الاسلامي في مقدمة الجهات التي كان لها دور إيجابي ومهم في إقناع الحكومة الفيليبينية بضرورة إيجاد حل سياسي يكفل منع استمرار القتال، وشكلت لجنة تسمى اللجنة الرباعية منبثقة من منظمة المؤتمر الاسلامي ضمت كلاً من المملكة العربية السعودية وليبيا والصومال لمتابعة ما يتعلق باتفاقية طرابلس وتنفيذ بنودها لمنح الحكم الذاتي للمسلمين في «مندناو».

– في اليابان، نحو ٧٠ ألف مسلم. وصل الاسلام

إلى اليابان عن طريق رحل تتاري إسمه ابراهيم أرسله السلطان عبد الحميد تنفيذاً لرغبة امبراطور اليابان ليتعرف الشعب الياباني على الاسلام. وعندما وصل ابراهيم التتاري إلى اليابان استدعى بعض التتار الذين يُعانون من اضطهاد الروس المحتلين للبلاد وقرّبهم إليه، وأسلم أول رحل ياباني على يد ابراهيم وإسمه كازاكا. ثم تتابعت جهود الدعاة المسلمين في اليابان وازدهرت الدعوة الاسلامية في أعقاب الحرب العالمية الثانية بعودة الجنود اليابانيين إلى بلادهم، وكان بعضهم قد اعتنق الاسلام من المسلمين في أندونيسيا والملايو والمناطق الأخرى التي احتلتها اليابان.

فرّ عدد من الصينيين إلى اليابان بعد سيطرة الشيوعيين على الصين (١٩٤٩)، ووصل عدد آخر من الدعاة من الهند وباكستان ومن جماعة التبليغ، وكان لهم أكبر الأثر في ازدهار الاسلام في اليابان. وينتشر عدد لا بأس به من الجمعيات الاسلامية والمؤسسات في طوكيو، وكيوتو، ونارتو، وكوتشي. ومن أهم هذه الجمعيات والمؤسسات جمعية المؤتمر الاسلامي في طوكيو، وجمعية مسلمي اليابان والجمعية الخيرية الاسلامية. وبدأ الاهتمام بتعليم اللغة العربية في اليابان، وبخاصة بعد ان اتخذت الدول العربية وعلى رأسها المملكة العربية السعودية مكانة ممتازة في تجارة البترول، ولذلك عملت الشركات اليابانية على فتح فصول لتعليم اللغة العربية لموظفيها.

– في قبرص، نحو ١٢٨ ألف مسلم (١٩٪ من مجموع السكان). وصل الاسلام إلى قبرص عن طريق السواحل الاسلامية، واهتم معاوية بن ابي سفيان بها لتأمين الدول الاسلامية من اعتداءات الروم فأشرك في فتح قبرص عدداً من أصحاب رسول الله، من بينهم أبو ذر الغفاري وأبو الدرداء، ولذلك تضم قبرص قبوراً لبعض الصحابة.

– وفي كشمير، نحو ١٢ مليون مسلم (٧٥٪ من مجموع السكان). دخل الاسلام كشمير في وقت متأخر بعد ان فتحها الشاه أمير عام ١٣٣٩. وبعد احتلال الانكليز للهند سيطروا على كشمير وطردوا حكام كشمير المسلمين، وباعوها إلى إقطاعي كبير هندوسي من منطقة جامو بمبلغ ٧٥ ألف روبية. يعيش مسلمو كشمير في ظروف بائسة وسيئة للغاية نتيجة لاستخدام الهندوس طريقة الإبادة الجماعية لهم.

الأقليات المسلمة في افريقيا: بدأ انتشار الاسلام في افريقيا في المناطق الشرقية عن طريق التجارة والدعوة وإقامة الممالك والامارات الاسلامية على الاجزاء الساحلية الشرقية من القارة.

وعرف عن السفن التجارية قديمًا انها كانت تتنقل بين جنوبي جزيرة العرب وسواحل افريقيا الشرقية. وتمثل الأقليات المسلمة في هذا الجزء أكبر الأقليات، حيث يصل عددها إلى أكثر من ١٧ مليون نسمة وتكون نسبتها أكثر من ٥٥٪ من مجموع الأقليات المسلمة في افريقيا، وتتوزع في خمس دول: كينيا، أوغندا، موزمبيق، مالاوي ومالاغاش (مدغشقر).

وفي وسط افريقيا، انتشر الاسلام بعد قيام دولة ماجد بن سعيد في شرقي افريقيا (القرن الثامن عشر) ونقل عاصمته إلى البر الافريقي في دار السلام بعد ان كانت في جزيرة زنجبار، وأنشأ المسلمون مراكز دائمة للدعوة والتجارة في الداخل بعد ما كانت مراكزهم على السواحل فقط. ثم سرعان ما دخل الاستعمار وسط افريقيا. ويصل عدد المسلمين في هذا الجزء من القارة ما يزيد على ٥ ملايين، أي ما يعادل ١٤٪ من مجموع الاقليات المسلمة في افريقيا، وتتوزع في اربع دول: بوروندي، رواندا، زائير (الكونغو الشعبية) والكونغو (الديمقراطية).

أما في الجزء الغربي من افريقيا، فكان الاسلام قد انتشر عن طريق الدعوة التي قامت بجهود دولة المرابطين التي قامت في المغرب، ثم بجهود الدول التي قامت في منطقة مالي ثم في دولة عثمان دونفديو والحاج عمر اللذان عملا على نشر الاسلام في العصر الحديث. والأقليات المسلمة في هذا الجزء تتوزع في أربع دول: غانا، الغابون، غينيا الاستوائية وليبيريا.

واما في الجنوب، فيقلّ المسلمون هناك، وينتشرون في ثمان دول: أنغولا، زامبيا، زيمبابوي، سوازيلاند، بوتسوانا، ليسوتو، ناميبيا واتحاد جنوب افريقيا.

– في كينيا، يشكل المسلمون نحو ٣٥٪ من مجموع السكان البالغ نحو ٢٣ مليونًا. وتعد المدن الساحلية ذات صبغة إسلامية، وأشهرها مومباسا مالندي.

– في أوغندا، المسلمون نحو ٤ ملايين و ٤٠٠ ألف (نحو ٤٠٪ من مجموع السكان). تزايد انتشار الاسلام بعد تسلّم أحد المسلمين رئاسة الدولة وهو عيدي أمين. لكن بعد سقوطه، وتسلم جوزف عيسى، أحد زعماء التبشير، الحكم، «عمل على قتل أكثر من نصف مليون مسلم، وشرّد مثل ذلك وسكتت أجهزة الاعلام العالمية ووكالات الأنباء على هذه المذابح والفظائع» (راجع «أوغندا»، ج٤).

– في موزمبيق، تصل نسبة المسلمين بين سكانها البالغ عددهم نحو ١٦ مليون نسمة إلى ٣٠٪. وأشهر

العالم الاسلامي (الخريطة موضوعة في اواخر الثمانينات).

ماجد سعيد، سلطان زنجبار، (١٨٦٤)

مدنها الاسلامية «سفالة» التي تحدث عنها ابن بطوطة.

- في مالاوي، يبلغ عدد المسلمين فيها نحو مليون و٧٥٠ ألفًا، أي نحو ٣٥٪ من مجموع السكان.

- في مدغشقر (مالاغاش، نسبة إلى أكبر قبائل الجزيرة)، وفيها نحو مليون و٨٢٠ ألف مسلم (أي نحو ٢٦٪ من مجموع السكان)، لكن بسبب اضطهادهم المستمر اضطربت نفوسهم، «ومـلأت حياتهم الخرافات، وبعدوا عن الدين، وتركوا ديانتهم وعقيدتهم أمام الضغط والقسوة من أعداء الاسلام، وقد يُحسب أولئك المسلمون اليوم ضمن الوثنيين، ومن السهولة ان يعود هؤلاء إلى عقيدتهم لو وجدوا اهتمامًا بتثقيفهم».

- في ليبيريا، نسبة المسلمين ٣٠٪ من مجموع السكان، لكنهم لا يزالون، رغم دستور ١٩٨٠ الجديد الذي ينص على إقامة الجمهورية الثانية على أسس غير طائفية، يعيشون غرباء. إذ إن «الذي يسيطر على الحياة هناك من ينتمي لأعمدة ثلاثة لا غيرهم: المحفل الماسوني والكنيسة وحزب الاحرار «الهويج» ومن ثم لم يكن للمسلمين مكان في هذه التنظيمات الثلاثة».

- في غانا، نحو ٢ مليون مسلم (١٣٪ من مجموع السكان)، ويكثر الاسلام في قبائل الأشانتي.

- في غينيا الاستوائية، يعيش نحو ١٠٥ آلاف مسلم (٣٥٪ من مجموع السكان)، ويقيم أكثرهم في إقليم ريوموني، وينتشر بين أكبر قبائل البلاد وهي قبيلة الغانج.

- في بوروندي، نحو مليون مسلم (٢٥٪ من مجموع السكان). ولم تعرف بوروندي الاسلام إلا في القرن ١٣ الهجري عن طريق العرب العثمانيين الذين جاؤوا من شرقي القارة الافريقية وكانت زنجبار هي صاحبة السلطة في هذه المنطقة (راجع «بوروندي»، ج٥).

- في رواندا، نحو ٢٤٠ ألف مسلم (٦٪ من مجموع السكان) (راجع «رواندا»، ج٨).

- في زائير (الكونغو الشعبية)، نحو ٣،٥ مليون مسلم (١٠٪ من مجموع السكان) (راجع «زائير»، ج٨).

- في الكونغو (الديمقراطية، الكونغو-برازافيل)، نحو ٩٠ ألفًا من المسلمين (٢٥٪ من مجموع السكان). مع الاستقلال، نشطت الدعوة الاسلامية نسبيًا.

- في اثيوبيا، ١٩ مليون مسلم من إجمالي ٥١ مليونًا. وقد تعرض المسلمون في اثيوبيا خلال حكم هيلا سيلاسي ومن بعده مانغستو الماركسي للطرد والتشريد والفقر (راجع «اثيوبيا»، ج١).

- في تنزانيا، نحو ٩ ملايين مسلم (٣٣٪ من مجموع السكان)، ويشكلون معظم أهالي بمبا وزنجبار ودار السلام والمناطق الساحلية (راجع «تنزانيا»، ج٧).

- في ساحل العاج، نحو ٢٠٪ من مجموع السكان البالغ نحو ١٢ مليونًا. أنشئت أول مدرسة عربية في ساحل العاج في ١٩٥٦، وأطلق عليه اسم «مدرسة التهذيب الاسلامي» وأسسها أحمد التيجاني أبو بكر الذي تلقى تعليمه الاسلامي في فرنسا، وعاد إلى بلاده لنشر الدعوة الاسلامية باسلوب علمي جديد. ويصل عدد المساجد إلى ٤٠٠ مسجد وحوالي ١٢٠ مدرسة لتحفيظ القرآن (راجع «ساحل العاج»، ج٩).

– في زامبيا، نحو ١٢٠ ألف مسلم (٢،٤٪ من مجموع السكان) (راجع «زامبيا»، ج٩).

– في زيمبابوي، نحو ٢٠ ألف مسلم (عدد السكان نحو ٦ ملايين) (راجع «زيمبابوي»، ج٩).

– في سوازيلاند، نحو ٢٥ ألف مسلم (٥٪ من مجموع السكان) (راجع «سوازيلاند»، ج٩).

– في ليسوتو، نحو ٥٠ ألف مسلم (٥٪ من مجموع السكان).

– في بوتسوانا، نحو ٣٠ ألف مسلم (٤٪ من مجموع السكان) (راجع «بوتسوانا»، ج٥).

– في أنغولا، نحو ٩٠٠ ألف مسلم (١٥٪ من مجموع السكان) (راجع «أنغولا»، ج٣).

– في ناميبيا، نحو ٢٤٠٠ مسلم.

– في اتحاد جنوب افريقيا، نحو ٤٠٠ ألف مسلم (٢٪ من مجموع السكان) ينتمون إلى الهنود الملونين مع أقليات تنحدر من أصول افريقية (راجع «جنوب افريقيا»، ج٧).

– في جزر آسور، نحو ١٦ ألف مسلم (٥٪).

– في جزر ماديرا، نحو ٣٠ ألف مسلم (١٠٪).

– في جزر كاناري، نحو ٧٠ ألف مسلم (٧٪).

– في جزر الرأس الأخضر، نحو ٢٧ ألف مسلم (١١٪).

– في جزر ساو تومي وبرنسيب، نحو ١٦ ألف مسلم (٢١٪).

– في جزر القديسة هيلانة، ٦٠ مسلم (١٪).

– في جزيرة ريونيون، نحو ١٠٠ ألف مسلم (٢٠٪).

– في جزيرة موريشيوس، نحو ١٢٠ ألف مسلم (٢٠٪). وفيها ثلاث منظمات اسلامية: الدائرة الاسلامية، اتحاد الطلبة المسلمين والبعثة الاسلامية. ويوجد ١٢٥ مسجدًا.

– في جزر الدابرا، لا تزيد نسبة المسلمين فيها على ٢٪.

الأقليات المسلمة في اوروبا: وصل الاسلام إلى اوروبا بعدة طرق وعلى مراحل متعاقبة. فهاجر إليها بعض المسلمين واستقروا بها وساروا إليها من الجنوب الغربي، ومن الجنوب والجنوب الشرقي. وتمّ فتح المسلمين للاندلس، ومن الاندلس كان الاتجاه نحو فرنسا فسيطروا على أكثر من نصفها الجنوبي حيث استوطنوا لمدة نصف قرن، ثم نزحوا، إلى الجنوب الشرقي لفرنسا عام ٨٩٨، ووصلوا إلى شمالي ايطاليا وسويسرا، واستمر وجودهم هناك حتى العام ٩٧٦.

وتمّ فتح مالطا من الجنوب عام ٨٧٠، ثم فتح المسلمون قوصره وصقلية وسردينيا وكورسيكا وجنوبي ايطاليا.

اعتنق الاسلام مجموعات من قبائل البلغار والكوفان والباشغرد الذين كانوا يقيمون في حوض نهر الفولغا الاعلى وهاجروا إلى الجنوب الشرقي من اوروبا، واستقروا هناك وعرفت المناطق باسمهم مثل «بلغاريا». وكان لكل ذلك تأثير واضح على المسيحيين، فنشأت كنيسة خاصة هي «بوغوميل» التي يظهر فيها الأثر الاسلامي واضحًا (عرّف معجم «لو روبير» لأسماء العلم كنيسة البوغوميل Bogomiles بالتالي: «إسم يعود إلى أتباع البوغوميل في بلغاريا. والكلمة تعني «صديق الله»، وهي إسم مؤسس هذه البدعة الدينية ويُعتقد انه أسطوري. اعتبر أتباعه من الهراطقة وقد ظهروا في القرن العاشر في بلغاريا، واستندوا في دعوتهم إلى العقيدة المانوية القائلة بالصراع الثنائي بين النور والظلمة. وتمكنت البوغوميلية من الانتشار في القرن الثاني عشر في البلدان البلقانية وفي الامبراطورية البيزنطية. ويبدو أنها كانت في اساس انتشار بلعة دينية أخرى هي بدعة الكاتار Cathares الذين انتشروا بين ا لقرن الحادي عشر والقرن الثالث عشر في لومبارديا ووسط ايطاليا ورينانيا وكاتالونيا وبورغونيا وجنوبي فرنسا. وهذه البدعة تستند أساسًا إلى العقيدة المانوية وإلى العقيدة المسيحية).

استقر الباشغرد في المجر، وبقي قسم منهم في حوض الفولغا، يعرفون باسم الباشكير وهم من المسلمين ايضًا، وأغلب هذه القبائل ضاع إسلامها.

وعندما فتح المغول اوروبا واستقروا هناك اعتنقوا الاسلام، وعملوا على نشره. ثم نشأت الدولة العثمانية وتوسعت في جنوب شرقي اوروبا، وامتدت فتوحاتها هناك، واستقر بعض الاتراك في هذه المناطق مما كان له أثر في ازدهار الاسلام مرة أخرى.

اتجه المسلمون في العصر الحديث إلى اوروبا طلبًا للعلم أو للعمل، واستقر بعضهم هناك، ثم ظهرت جماعات اسلامية جديدة في معظم دول اوروبا. ويصل عدد المسلمين في اوروبا إلى نحو ١٥ مليونًا أي ما نسبته ٣٪ من مجموع سكان اوروبا.

– في اسبانيا، نحو ٤٥٠ ألف مسلم، وكان

لصدور قانون ١٩٦٧، الذي يعطي كل إنسان حرية كاملة في ممارسة العقيدة التي يعتنقها، أن أشاع لديهم الاطمئنان والأمان (راجع «اسبانيا»، ج١).

– في البرتغال، نحو ١٢٠ ألف مسلم (راجع «البرتغال»، ج٥).

– في فرنسا، أكثر من ٣ ملايين مسلم (٤٪ من مجموع السكان)، معظمهم من الجزائر أصلاً ثم من المغرب وتركيا ويوغوسلافيا وبعض الدول العربية. ويكثر في فرنسا طلاب العلم المسلمون ويتوزعون في مختلف مدنها الكبرى.

– في انكلترا، نحو ٣،٥ مليون مسلم (نحو ٣٪ من مجموع السكان)، معظمهم من شبه جزيرة الهند قبل تقسيمها وخروج انكلترا منها، وقد أسسوا لهم جمعية، وتعد أقدم جمعية اسلامية في دول الغرب. وهناك مسلمون من قبرص وعدن ومن شمال شرقي افريقيا. يصل عدد المساجد في انكلترا إلى ٦١٥ مسجدًا (راجع «بريطانيا»، ج٥).

– في بلجيكا، نحو ٤٠٠ ألف مسلم (٥٪ من مجموع السكان)، معظمهم من العمال المسلمين المهاجرين إلى بلجيكا من الشمال الافريقي، إلى جانب عدد من الطلاب المسلمين. أنشىء في بروكسيل مركز إسلامي ضخم بمساعدة الدول الاسلامية، واعترفت الحكومة البلجيكية مؤخرًا بالاسلام باعتباره الدين الذي يعتنقه بعض السكان بعد المسيحيين من حيث العدد (راجع «بلجيكا»، ج٥).

– في النمسا، نحو ٦٠ ألف مسلم، معظمهم من البوسنة-الهرسك الذين هاجروا قبيل الحرب العالمية الاولى، وأسسوا جمعية تعرف باسم «الجمعية الاسلامية الثقافية». وهناك عدد من طلاب العلم المسلمين.

– في المانيا، نحو ٢،٥ مليون مسلم (نحو ٤٪ من مجموع السكان). عرفت المانيا الاسلام اثناء الحرب العالمية الاولى حيث أنشىء في برلين معسكر للمعتقلين المسلمين، وتمّ إنشاء أول مسجد في تلك الجهات. وفضل بعض الأسرى البقاء في المانيا، كما فرّ إليها بعض التتار من القرم وشرقي روسيا، ثم وفد إليها اثناء الحرب العالمية الثانية عدد من اللاجئين المسلمين من المناطق التي سيطرت عليها روسيا، ثم أعقبهم آخرون من المناطق التي وصلت إليها الشيوعية في بلغاريا ورومانيا ويوغوسلافيا وبولندا، واستقر معظمهم في ميونيخ. وجاء عدد من العمال الاتراك، وأخذت أعدادهم تتزايد (راجع «المانيا»، ج٣).

– في الدانمارك، نحو ٤٥ ألف مسلم يتمركزون في العاصمة كوبنهاغن وبعض المدن الكبرى الصناعية (راجع «الدانمارك»، ج٨).

– في جنوبي اوروبا، في الجزء الذي فتحه المسلمون على طريق البحر المتوسط وتشمل جزر البحر: في كريت، نحو ٣٣ ألف مسلم. في رودوس، نحو ١٠ آلاف مسلم. في مالطا، نحو ٤٠ ألف مسلم (١١٪ من مجموع السكان).

– في ايطاليا، نحو ٧٠ ألف مسلم (راجع «ايطاليا»، ج٤).

– في سويسرا، نحو ١٢٠ ألف مسلم (راجع «سويسرا»، ج١١).

– في اليونان، نحو ٢٥٠ ألف مسلم (٢٪ من مجموع السكان). وعرفت اليونان الاسلام في عهد الدولة الاموية.

– في بلغاريا، نحو مليوني مسلم (١٦٪ من مجموع السكان)، وهم ثلاث مجموعات: الترك، البلغار والغجر (راجع «بلغاريا»، ج٥).

– في رومانيا، نحو ٢٧٠ ألف مسلم، معظمهم من التتار والاتراك (راجع «رومانيا»، ج٨).

– في صربيا، نحو مليون و٤٥٠ ألف مسلم (١٦٪ من مجموع السكان) (راجع «صربيا»، ج١١).

– في كرواتيا، نحو ١٠ آلاف مسلم.

– في البوسنة والهرسك، نحو ١،٤ مليون مسلم (٢٣،٥٪) (راجع «صربيا»، ج١١، و«البوسنة والهرسك» ج٥).

– في مقدونيا، نحو ٣٨٧ ألف مسلم (٢٢،٧٪).

– في الجبل الأسود (مونتينيغرو)، نحو ٧٥ ألف مسلم (١٢،٥٪) (راجع «صربيا»، ج١١).

– في النروج، نحو ٩ آلاف مسلم.

– في السويد، نحو ٢٤ ألف مسلم (راجع «السويد»، ج١١).

– في فنلندا، نحو ٢٥٠٠ مسلم.

– في المجر نحو ٧ آلاف مسلم.

– في بولندا، نحو ١٧ ألف مسلم (راجع «بولندا»، ج٦).

– في تشيكوسلوفاكيا (تشيكيا وسلوفاكيا)، عدة آلاف من المسلمين.

– في روسيا، (راجع «روسيا»، ج٨).

الأقليات المسلمة في أوستراليا: عرفت أوستراليا

الاسلام عن طريق الأفغان الذين استعانت بهم الحكومة الانكليزية لما يملكونه من إبل ليجوبوا الصحاري الاوسترالية ويتعرفوا عليها ويكشفوا ما بها. ثم توالت الاعداد المسلمة تأتي إلى اوستراليا من ألبانيا وتركيا ويوغوسلافيا وماليزيا وأندونيسيا ولبنان وسورية، كما كان للتجارة دور هام في جذب أعداد من التجار المسلمين إلى اوستراليا.

استقر معظم المسلمين في ولاية نيو ساوث ويلز وبها أكثر من ١٢٠ ألفًا، ويستقر بمدينة سيدني ٩٠ ألفًا، ويعيش في ملبورن حوالي ٧٠ ألفًا. ويؤكد كثير من المصادر أن عدد المسلمين في اوستراليا ما بين ٣٥٠ ألفًا و ٤٠٠ ألف. أما أول مسجد فبني في مدينة أدليد منذ نحو ستين عامًا، وانتشرت بعده المساجد والمراكز الاسلامية في معظم المدن الاوسترالية الكبرى.

– في جزر فيجي، نحو ٦٥ ألف مسلم (٨٪ من مجموع السكان)، و٢٥ مسجدًا، و١٣ مدرسة ابتدائية تشرف عليها الهيئة الاسلامية في فيجي. والمسلمون في فيجي من اصل هندي وباكستاني.

– في نيوزيلندا، نحو ٥ آلاف مسلم. وانتشر الاسلام فيها من خلال التجار الذين جاءوا من جنوب شرقي آسيا، ومن ألبانيا وتركيا ويوغوسلافيا.

الأقليات المسلمة في أميركا: قيل إن ألكسندر راسل الذي كان يعمل قنصلاً في الفيليبين هو أول من نشر الاسلام في أميركا حيث استدعاه السلطان عبد الحميد الثاني وكلف عبد الله الجداوي بمقابلته في مدينة مانيلا، وبعد هذا اللقاء أعلن ألكسندر إسلامه واستقال من عمله، وبدأ في نشر الاسلام في أميركا، وأصدر مجلة أسماها العالم الاسلامي كان لها دور هام في التوعية الاسلامية، وأنشأ مسجدًا ومكتبة، وأصبح حديث الناس في نيويورك. وعاد الاسلام مرة أخرى في الانتشار عن طريق الهجرات العديدة من البلاد الاسلامية والباحثة عن العمل والرزق. واكتسب هؤلاء جنسية الدول التي نزلوا بها وبخاصة الولايات المتحدة. ويضاف إلى هؤلاء مَن دخل من الأميركيين الاسلام.

وتذكر المراجع ان حركة المسلمين السود كان لها فضل كبير في نشر الاسلام والتي بدأت بشخص فارود محمد، وهو الذي تأثر بحركة ألكسندر راسل في نيويورك، واستطاع فارود محمد أن يجذب إليه أعدادًا كبيرة من الزنوج الذين كانوا يعانون من التفرقة العنصرية وسوء المعاملة. واقتنع بالاسلام أليجا محمد الذي اصبح زعيمًا لفئة كبيرة من السود، واصبحت لهم مراكز تجمع في معظم مدن اميركا.

يصل عدد المسلمين في اميركا الشمالية إلى نحو ٦ ملايين و٣٥٠ ألفًا، وفي اميركا اللاتينية إلى نحو مليون و٢٠٠ ألف، وفي اميركا الوسطى إلى نحو مائة وألفين.

– في الولايات المتحدة، نحو ٦ ملايين مسلم، وأماكن تجمعهم الأساسية في نيويورك وشيكاغو وتوليدو وديترويت وفيلادلفيا وواشنطن وأنديان باول وسكرمنتو وسان فرنسيسكو ولوس أنجلوس (راجع «الولايات المتحدة الاميركية») في جزء لاحق من الموسوعة).

– في كندا، نحو ٣٥٠ ألف مسلم، معظمهم من لبنان وسورية، وبدأ الاسلام في كندا باربعة افراد: الزوجان جيمس واجنوس لوف من اسكوتلندا وكانا يقطنان أونتاريو، والزوجان جون وهارتا سيمون.

– في المكسيك، نحو ١٥٠٠ مسلم.

– في أميركا الجنوبية، نحو مليون ومائة ألف مسلم موزعين في البرازيل وخاصة في ساو باولو وريو دي جانيرو؛ وفي الارجنتين (٨٠٠ ألف)؛ وفي غويانا (١٥٪ من السكان، وبها ١٢٠ مسجدًا)؛ وفي فنزويلا (١٠ آلاف في العاصمة كاراكاس)؛ وفي غويانا الفرنسية (حيث المسلمون من اصل جزائري ومغربي)؛ وفي اكوادور وكولومبيا وبيرو وبوليفيا، العدد قليل ويفتقرون إلى مؤسسات دينية.

ميزتان عامتان: بعد هذا المسح العام لتعداد الاقليات المسلمة في العالم، والذي اعتمدنا فيه على كتيب صادر عن وزارة الاعلام السعودي (مرجع مذكور آنفًا)، نرى استجماع مميزات المسلمين والاسلام، سواء في الدول الاسلامية (دول الأكثريات المسلمة التي تأخذ بالشريعة الاسلامية في دساتيرها وقوانينها، او التي لا تأخذ بها مثل تركيا الحالية) أو لدى الاقليات المسلمة في اماكن وجودهم أو تجمعهم في الدول غير الاسلامية، بميزتين عامتين نستقيهما من كتاب جاد وعميق، بمؤلفيه وموضوعاته، صادر عن الأونيسكو، وهو:

Les Différents Aspects de la Culture Islamique, Ed. UNESCO, Paris 1994.

وعُمل مؤخرًا على تعريبه وإصدار نسخته المعرّبة من بيروت (١٩٩٧)، وقد شارك مؤلف هذه الموسوعة بتصحيحه ومراجعة ترجمته:

الميزة الاولى: يقول كاتب الفصل ١٦ «الحياة

اليومية في المدينة الاسلامية»، محمد الطالبي، نقلاً عن لويس غارديه: «يكفي ان يكون المرء قد عاش ولو قليلاً في البلاد الاسلامية، وتابع في الماضي والحاضر التظاهرات الجماعية للاسلام كي يلاحظ ملاحظتين: يلاحظ قبل كل شيء الصلة المتينة التي تربط المسلمين بعضهم ببعض وتجعل منهم حقيقة أمة تشعر شعورًا قويًا بذاتيتها (...) إن العقلية شبيهة بانعكاس حياة المجموعة في كل فرد من أفرادها. إنها تستلزم إذن الانتساب إلى مجموعة- أي إلى ثقافة وإلى حضارة-تقبلهما المجموعة وتفتخر بهما عادة. فهي نظرة إلى الكون، نظرة تملي التصرفات اليومية».

الميزة الثانية، من كاتب أكثر من فصل من فصول الكتاب، والمقدمة والخاتمة، عبد الواحد بوحديبة، ويقول في الخاتمة: «(...) فالاسلام كله تقريبًا يدخل في نطاق ما اصطلح على تسميته بالعالم الثالث، أي أنه لا يشارك إلا بالوجود الزمني في المناظرات الكبرى التي يضطرب بها عالمنا».

المدن الاسلامية: تطرق الكثير من الباحثين في دراساتهم إلى الجوانب البنيوية والعمرانية للمدينة الاسلامية من أمثال لويس ماسينيون، ووليم مارسيه، وإدموند بورتي، والمستشرق الانكليزي ستيرن، وغيرهم... وذلك بتصنيف نشأة المدن الاسلامية إلى صنفين متميزين. ويمكن إضافة صنف ثالث لم يتطرق إليه هؤلاء الدارسون:

الأول- الحواضر القديمة: يشمل هذا الصنف المدن التي كانت موجودة أصلاً قبل ظهور الاسلام ثم فتحها المسلمون ونشروا الاسلام فيها بعد ان استقروا فيها مانحين إياها طابعًا إسلاميًا محضًا إلى درجة بدت معه كما لو انها ولدت من جديد كمدن اسلامية لا يربطها أي رابط حضاري أو روحي بتاريخها السابق على الاسلام على رغم ان بعضها، أو بالأحرى أغلبها، من المدن المعروفة سابقًا كمدن وعواصم لامبراطوريات سابقة على الفتح الاسلامي، وانها تمتعت بمكانة مدنية مرموقة أثناء الفترات السابقة كاليونانية والرومانية، كما هو الأمر بالنسبة إلى دمشق وحلب في سورية، والاسكندرية في مصر، واسطنبول في تركيا. ولكن ظلت مبادىء التخطيط العمراني القديم لهذه المدن، ولقرون عديدة، هي الملامح البارزة التي ظهرت من خلال نمط الشوارع المتعامدة، المسارح، الحمامات، والملاعب.

الثاني- الامصار: ويشمل هذا الصنف حصرًا المدن التي أسسها المسلمون بعد الفتوحات الاسلامية أو نتيجة لها أو بسبب استقرار الدول الاسلامية وتوسعها. فهذه المدن ولدت إسلامية منذ الأصل وتطورت بشكل منسجم كليًا مع الحياة الروحية والسياسية التي بشّر بها الدين الاسلامي وتفرضها الشريعة الاسلامية، وكانت، لقرون عديدة، من مراكز الحضارة العالمية. وإلى هذا الصنف تنتمي مدن كثيرة جدًا من بينها البصرة والكوفة وبغداد والقاهرة والقيروان وغيرها.

ويجمع الباحثون على ان إنشاء هذا الصنف من المدن مرّ عبر جملة خطوات تبدأ باختيار الموقع المخصص للجامع، ويشكل قلب المدينة أو المحور الذي تتجه له جميع مداخل وشوارع المدينة. وتلي الجامع الأقسام العمرانية الأخرى كالمرافق الحكومية والاسواق ثم البيوت السكنية. كما يعتبرون مكة المكرمة والمدينة المنورة النماذج الأولى للمدن الاسلامية.

الثالث- «مدن الأضرحة»: وهذا الصنف لم ينل الاهتمام من قبل الباحثين المذكورين في مقدم الكلام عن المدن الاسلامية، وهو لا ينتمي إلى أي من الصنفين الاولين، ولم يكن وجوده (أي «مدن الأضرحة») نتيجة لمتطلبات عسكرية أو اقتصادية أو نتيجة لنمو سكاني، بل بسبب وجود الأضرحة التي تتمثل في جوامع ومراقد أهل البيت. فبفعل وجود هذه الأضرحة راحت هذه المدن تنمو تدريجيًا، فتتحول من مزارات دينية نائية إلى مدن دينية ضخمة تلعب دورًا حضاريًا متزايدًا مع مرور العصور الاسلامية، لأهمية هذه المدن الروحية والثقافية والعمرانية.

ويتركز في العراق عدد من هذه المدن: النجف الأشرف وكربلاء والكاظمية وسامراء الحالية. وفي ايران: مشهد وقم. ويظل العامل الديني وحده السبب الاول والرئيسي في نشأة «مدن الأضرحة» وتطورها إلى حواضر كبيرة، والمحرّك الفعلي في استمرار ازدهارها (المرجع: رؤوف محمد علي، باحث في العمارة الاسلامية من العراق، «عوامل نشوء المدن الاسلامية»، «الحياة»، العدد ١٢٨٢٦ تاريخ ١٦ نيسان ١٩٩٨، ص٢١).

الاسلام إزاء تجربتين أوروبيتين: العلمنة والإندماج
(مناقشة)

إذا كان الإلحاد، الذي عرفته أوروبا الشرقية والاتحاد السوفياتي عقيدةً ونظام حكم، قد فشل فشلاً ذريعًا أمام الاسلام كما أثبتت ذلك أحداث السنوات الأخيرة، وكما لا تزال تثبته أحداث البلقان حيث ينظر المسلمون إلى «اشتراكيي» يوغوسلافيا الاتحادية الحالية (صربيا) بمجرّد نسخة معدّلة تعديلاً طفيفًا عن «القياصرة الشيوعيين»، وكما لا تزال تثبته ايضًا في بقاع خارج اوروبا كما في إقليم كسينجيانغ (تركستان الشرقية) الصيني، فإن تجربتين أخريين، أساسهما، ومسرحهما اوروبا ايضًا، تستمران في تشكيل تحديين كبيرين ومهمين للاسلام والمسلمين من زاوية المبادىء والمفاهيم والشرائع الاسلامية التي لا تزال الدول الاسلامية تأخذ بها وتعمل على هديها؛ والتجربتان هما: العلمنة والاندماج (المقصود إندماج، أو مدى اندماج، الاقليات المسلمة في المجتمعات الاوروبية).

ثمة مقاربتان ننقلهما في هذا الباب: واحدة للعلمنة، كتبها محمد خليفة («الحياة»، العدد ١٢٧٠٠، تاريخ ٧ كانون الاول ١٩٩٧، ص٢٢) بعنوان «ألبانيا وليس تركيا أول دولة إسلامية طبقت العلمانية»، واستند فيها على الدكتور محمد نور الدين في كتابه «قبعة وعمامة»، وعلى كتاب الدكتور محمد موفاكو (وهو مستعرب ألباني) «الثقافة الألبانية في الابجدية العربية» - سلسلة عالم المعرفة، ١٩٨٣.

والمقاربة الثانية للاندماج (بالفرنسية وقد عرّبها المؤلف) كتبها طارق رمضان، استاذ الفلسفة والاسلاميات في معهد جنيف وجامعة فريبورغ (لو موند ديبلوماتيك، عدد نيسان ١٩٩٨، ص١٣) بعنوان «إسلام اوروبا يخرج من العزلة».

العلمنة: ألبانيا وليس تركيا: غالبًا ما يقع الكتّاب العرب، بمن فيهم بعض المتخصصين، في خطأ تاريخي بصدد تطوّر النظام العلماني في العالم الاسلامي. إذ درجوا على وصف تركيا بأنها المهد الاول لهذا النظام الاوروبي الحديث، حيث صارت هذه المعلومة الخاطئة تتكرر كبديهة وحقيقة في كل المناسبات. بينما الصحيح هو ان تركيا هي الدولة الثانية، وألبانيا هي الدولة الاسلامية السباقة إلى تطبيق التجربة العلمانية بفارق عشر سنوات على الأقل.

ألغى مصطفى كمال أتاتورك السلطنة العثمانية قانونيًا في ١٩٢٣، ثم الغى الخلافة في ١٩٢٤، وبنى النظام الجمهوري على انقاضهما. واتبع ذلك بإلغاء الحروف العربية واعتماد الحروف اللاتينية بدلاً منها في الأبجدية التركية العام ١٩٢٨. وخلال هذه الفترة وحتى وفاته في ١٩٣٨ ألغى كل المظاهر الدينية للدولة، وخاض من اجل ذلك ثورات وحروبًا أبرزها حين منع الطرق الصوفية وحظر أنشطتها في ١٩٢٥.

أما ألبانيا فكانت قد أعلنت هذه الخطوة ذاتها في مدة أقصر اعتبارًا من ١٩١٢. ففي أعقاب حرب البلقان الكبرى الأولى والتي أسفرت عن هزيمة السلطنة العثمانية وخسارتها للدول والاراضي التابعة لها في البلقان، احتلت جيوش الدول المتحاربة معظم اراضي ألبانيا الدولة الاسلامية الوحيدة في المنطقة.

غير ان قادة الشعب الألباني أعلنوا استقلال دولتهم من مدينة فلورا التي ظلت وحدها خارج نطاق الاحتلال، وكان ذلك في ٢٨ تشرين الثاني ١٩١٢. وقد دعمت امبراطورية النمسا-المجر إعلان الاستقلال وضغطت على الدول الاوروبية الكبرى للاعتراف به وهو ما حصل في ٢٩ تموز ١٩١٣ حين أقرت الدول الاوروبية بالدولة الجديدة على ان تظل تحت «الرقابة المباشرة والجماعية للدول الكبرى». واشترطت عليها ايضًا ان تقطع كل صلة لها بالسلطنة العثمانية.

وكان من شأن ذلك قيام أول حكومة ألبانية باتباع سياسة مبرمجة لإلغاء كل ما يجمع الدولة بالعثمانيين وبالشرق وبالدين الاسلامي. وفي ٢٢ تشرين الثاني ١٩١٣، سنّت الحكومة «القانون الموقت للادارة المدنية للدولة الألبانية» الذي تضمن تنظيم «المؤسسة الدينية» على أساس قطع ارتباطها السابق بالمشيخة الاسلامية في اسطنبول، وإلغاء الوظائف الدينية للدولة الجديدة واعتبارها جزءًا من النشاطات والحقوق والحريات الفردية للمواطنين.

وفي العام نفسه (١٩١٣) قررت الحكومة استبدال الحروف التي تكتب بها اللغة الألبانية وإحلال اللاتينية بدلاً من العربية.

ولم تمر هذه القرارات «الثورية» بلا ردود فعل في مجتمع ارتبط بالاسلام نحو أربعة قرون، ولعب دورًا رئيسيًا في الامبراطورية العثمانية، وتشكلت هويته وثقافته من الاسلام وما يتصل به من عناصر وخصائص بما في ذلك الكتابة بالحروف العربية التي كانت عنوانًا للارتباط بالشرق

بصفة عامة. ولذلك أحدثت إجراءات الحكومة استياء شعبيًا عارمًا بلغ ذروته في الانتفاضة الواسعة التي حدثت في مطلع ١٩١٤ واستمرت شهورًا عدة واستطاعت ان تفرض مطالبها وشروطها على الحكومة والدول الاوروبية في آن واحد، وفي مقدمها تعين أمير مسلم بدلاً من الامير الألماني الذي عينته الدول الاوروبية، والمحافظة على الأبجدية العربية وإعطاء المفتي الأكبر صفة حكومية رسمية وتمكينه من صلاحياته السابقة للمحافظة على الطابع الاسلامي للدولة. وكان قائد هذه الثورة أحد كبار رجال الدين الشيخ موسى الكاظمي مفتي مدينة تيرانا (العاصمة الحالية).

أحدث انتصار الانتفاضة الشعبية قلقًا في الدول الاوروبية خصوصًا البلقانية المجاورة التي اطلقت على الانتفاضة صفة «الثورة الاسلامية» ووصفتها بالتطرف وقالت إنها تبعث من جديد «الخطر الاسلامي على اوروبا»، واعتبرت ذلك بمثابة مبررات كافية لغزو ألبانيا من جديد. فاجتاحتها الجيوش اليونانية في ١٩١٤. ولما لم تفلح في كسر شوكة الانتفاضة التي شكلت حكومة وطنية في العاصمة السابقة دوروس، قامت الجيوش الصربية في منتصف ١٩١٥ باجتياح ألبانيا من الشمال وأطبقت قوات الدولتين مستفيدتين من ظروف الحرب العالمية الاولى، على العاصمة الألبانية واعتقلت قادة الثورة واعضاء الحكومة. إلا ان النمسا ما لبثت ان شنت هجومًا مضادًا على ألبانيا وطردت الجيوش الصربية من معظم المناطق الألبانية التي احتلتها، وبسطت سيطرتها ونفوذها على البلاد وتجاوبت مع أكثرية المطالب الاسلامية التي اعلنتها الثورة الشعبية وذلك بغرض استمالتها وكسب ولائها إلى جانبها، و لم ترفض منها سوى الكتابة باللغة العربية، لأنها كانت أصلاً أول وأكثر الدول الاوروبية إصرارًا على إلغاء الابجدية الألبانية العربية.

انتهت المعارك على ارض ألبانيا بانتهاء حرب البلقان، ثم الحرب العالمية الاولى. وعندما حلّ السلام كان على ألبانيا حتى تعود إلى الأسرة الدولية القبول بمبادىء النظام الدولي الجديد. وكان في مقدمة تلك المبادىء والشروط بالنسبة إلى ألبانيا بالذات العودة إلى النظام العلماني كما أقر العام ١٩١٢. وقد تبنت الحكومة الألبانية الوطنية هذه الشروط بالكامل منذ الأيام الاولى. وهكذا كانت ألبانيا الدولة الاولى في العالم الاسلامي التي تطبق العلمانية وتلغي كل وظائف الدولة الدينية وتبتر كل صلة لها بالشرق بما في ذلك وعلى رأسه الابجدية العربية التي كتب بها التراث الألباني بين القرنين السادس عشر والعشرين.

الإندماج: كان الوجود الاسلامي في اوروبا (الاندلس) القرون الوسطى أهم عوامل صياغة الفكر العقلاني والعلماني والحديث. ووجود المسلمين اليوم في هذه القارة القديمة لا يرجع إلى أكثر من ستين أو سبعين سنة خلت، وهي مدة قصيرة لقياس التفاعل التاريخي والحضاري. إذ عاشت اوروبا قرونًا من النزاعات والمماحكات بين مختلف اقلياتها الطائفية أو القومية (يهود، كاثوليك، بروتستانت، أورثوذكس، بولنديون، ايطاليون أو برتغاليون... بحسب كل بلد اوروبي) حتى يتسنى لها في الأخير أن تكتسب حقوقها في الدول التي توجد فيها. فكيف يمكن لقضية الاقليات المسلمة في اوروبا ان تجد لها حلولاً في غضون جيلين أو ثلاثة أجيال؟

إن الموجات الاولى من المهاجرين المسلمين كانت مكونة من عمّال شمال افريقيين وأتراك وهنود وباكستانيين. وكان لفقرهم، وانعدام مستواهم التعليمي وإحساسهم بوجودهم الموقت، ان لا يتيح لجيلهم (جيل المهاجرين

فتاة مسلمة فرنسية (١٩٩٨): جيل المهاجرين الثالث.

الاول)، لا لديهم ولا لدى الاوروبيين، تلك المعرفة الاولى والأساسية المتبادلة.

جاءت صدمة الاحداث الدولية الكبرى: الثورة الايرانية (١٩٧٩)، قضية سلمان رشدي، ما يطرحه ويمارسه الطالبان، عمليات العنف في الشرق الاوسط، المذابح اليومية في الجزائر... لتعيد لدى الاوروبيين صياغة إدراك حسي سلبي جدًا إزاء الاسلام، ولتغذّي نوعًا من تشنج زادت منه الأزمة الاجتماعية التي تجتاح اوروبا (زيادة في معدلات البطالة مصحوبة بحركات عنيفة احيانًا في المدن). حتى ان اصواتًا بدأت تتكلم عن «كره الاسلام» Islamophobie، والعبارة جاءت بشكل عنوان في دراسة جادة وضعتها مؤسسة رنّيميد ترست في بريطانيا في ١٩٩٧ Commission sur les musulmans britanniques, présidée par le prof Gordon Conway, Islamophobia: Fact Not Fiction, Runnymede Trust, Oct. 1997. والأكيد ان من حق مثل هذه الصورة عن المسلمين أن تعيق أي تقويم حقيقي وجاد للديناميات التي تعيشها المجموعات المسلمة في اوروبا.

ومع ذلك، يمكن القول إن الجيلين، الثاني والثالث، قاما بلعب دور مقرر في تطور ذهنيات (وسلوكيات) مختلف المجموعات المسلمة في اوروبا. وذلك لسببين يبدوان متناقضين ظاهريًا: إن الممارسة الطقوسية الدينية اليومية لدى الشباب المسلم أصبحت ضعيفة نسبيًا، في حين ان نسبة كبيرة بينهم عبرت حالات الاندماج الاول ودخلت حالة الهضم الكامل لقيم المجتمعات التي تعيش في وسطها: من ٦٠ إلى ٧٠٪ يقولون إنهم يصومون في رمضان، لكن ١٢٪-١٨٪ يصلون يوميًا: ٧٥٪-٨٠٪ لم يعودوا يتكلمون، أو يتكلمون نادرًا وبصورة سيئة، لغتهم الأصلية To Be a European Muslim, Islamic Foundation, Leicester, avril 1998.

وكان لهذه الظاهرة أن أجبرت أئمة المساجد ومسؤولي الاندية والروابط والجمعيات الاسلامية الذين ينتمون إلى الجيل الاول بأن يعدّلوا من أشكال وطرق عملهم ويعيدوا توجيه هيئاتهم الدينية بما يُرضي، إلى حد بعيد، تطلعات الأجيال الشابة.

لكن هذا الوضع نفسه أدّى إلى إنشاء عدد متزايد من الجمعيات الاسلامية التي تضاعف عددها، مرةً أو مرتين، خلال ١٥ سنة. فالشباب، وكذلك الذين تتراوح أعمارهم بين ٣٠ و ٤٠ سنة الذين وُلدوا في اوروبا والذين درسوا وتخرجوا في جامعاتها، أصبحوا هم الذين يمسكون بلغة الأمور ويحرّكون النسيج الاجتماعي للمجموعات المسلمة في اوروبا، وعملهم هذا فرض تغييرات عميقة في ذهنيات هذه المجموعات وسلوكياتها، ذلك انهم يعتبرون أنفسهم «في بيتهم» وعلى ارضهم، ذلك البيت وتلك الارض اللذان يسعى الجيل الثاني والجيل الثالث إلى تثبيت وجوده واعتبار نفسه في إطارهما، خاصة في المجالين، الثقافي والاجتماعي. من هنا، كانت تلك القطيعة الحادة بين الأجيال: الاول من جهة، والثاني والثالث من الجهة المقابلة.

أثارت هذه الظاهرة جدالاً حاميًا داخل المجموعات المسلمة في اوروبا، وخاصة لدى العلماء المسلمين، وبالأخص في موضوع الفقه الاسلامي، حيث وجد هؤلاء العلماء أنفسهم مضطرين على الأخذ بـ«الفتاوى» وبما يتلاءم مع حقائق الحياة الغربية. وثمة جمعيات اسلامية كثيرة تحركت لانتزاع مثل هذه الفتاوى، من أنشطها: «الشباب المسلم» (YM) و«المجتمع الاسلامي في بريطانيا» (ISB)، و«الشباب المسلمون في فرنسا» (JMF et EMF)، و«اتحاد الشباب المسلم» (UJM)، و«رابطة الطلاب الاسلاميين في فرنسا (AEIF).

هكذا، شهدت الثمانينات والتسعينات وعيًا متزايدًا لمسألة «ضرورة تجديد الفكر الاسلامي في اوروبا». ووجد المسلمون الشباب انفسهم، بكونهم أوروبيين، يطرحون، مباشرة أو بصورة غير مباشرة، عددًا من الأسئلة التي تفترض إجابات صريحة وواضحة، لعلّ أخطرها: هل يجب اعتبار اوروبا «دار حرب» (العبارة التي بدأ يعرفها الفقه الاسلامي منذ القرن التاسع) في مقابلة «دار السلام» (حيث المسلمون هم الأكثرية ويمسكون بالسلطة ويفرضون شريعتهم)؟ وهل يمكن العيش في اوروبا؟ وإذا كان الجواب بالايجاب، فكيف تكون علاقة المسلمين بالتشريعات الوطنية الاوروبية؟ وهل يمكن لشاب مسلم ان يكتسب جنسية اوروبية ويكون مواطنًا يتمتع بكامل حقوق المواطنية وواجباتها. إنها اسئلة، من جملة فيض من الاسئلة الأخرى المشابهة، لم يجب العلماء المسلمون عليها بعد بصورة منظمة ومفصلة ومنهجية.

ابتداء من اوائل التسعينات، ازداد عقد الندوات واللقاءات حول الشريعة، وشارك فيها علماء من العالم الاسلامي وعدد من الأئمة والمثقفين المقيمين في اوروبا: اجتمع نحو عشرة من علماء العالم الاسلامي في تموز ١٩٩٢، ثم في تموز ١٩٩٤، في المعهد الاوروبي للعلوم

الانسانية (شاتو-شينون) بهدف رسم إطار تشريعي إسلامي للوجود المسلم في اوروبا. وفي بريطانيا، ضاعفت المؤسسة الاسلامية من مبادراتها في هذا الاتجاه منذ ١٩٩٠، كما شهدت لندن، في ١٩٩٧، إنشاء المجلس الاوروبي لإعداد الآراء القانونية والأبحاث.

ونتيجة لهذه الجهود واللقاءات صدرت خمسة مبادىء حازت على شبه إجماع سواء بين العلماء أو داخل المجموعات المسلمة الاوروبية (مجموعات صغيرة، مثل «التحرير»، و«الموحّدون»، و«المهاجرون» الذين يدعون إلى تطبيقات سلفية للشريعة الاسلامية في اوروبا، هي مجموعات معزولة، حتى ولو احتلت أخبارها احيانًا حيزًا في وسائل الاعلام):

– المبدأ الاول: المسلم، المقيم أو المواطن، يجب ان يعتبر نفسه مرتبطًا بعقد أدبي واجتماعي في آن مع البلد الذي يسكن فيه ويحترم قوانينه.

- المبدأ الثاني: القوانين الاوروبية (وعمليًا، الاطار العلماني) تسمح للمسلمين بممارسة فرائض دينهم.

- المبدأ الثالث: التسمية القديمة «دار الحرب» -التي لا ترد في القرآن ولا تنتمي، تاليًا، إلى التقليد النبوي- معتبرة بحكم الملغيّة. والمفاهيم الأخرى التي جرى طرحها ومناقشتها يجب ترجمتها بصورة إيجابية تخدم وجود المسلمين في اوروبا.

– المبدأ الرابع: على المسلمين اعتبار أنفسهم مواطنين كاملي المواطنية والمساهمة في احترام قيم (التي هي قيمهم) الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية للبلاد التي يقيمون فيها.

– المبدأ الخامس: لا شيء يحول، في مجال القوانين الاوروبية، في ان يختار المسلم، وبحرية تامة، مثله مثل أي مواطن، الخيارات التي تتيحها له القوانين المرعية الإجراء والتي يرى أنها تستجيب لمتطلبات معتقده الديني.

وهناك مؤشر آخر ومهم على رغبة الخروج من العزلة، ويتمثل بازدياد استعمال لغة البلد الاوروبي في المحاضرات وحتى في عظات الجمعة. وفي بريطانيا ينشط أعضاء الجمعيات الشبابية والطلابية المسلمة ضد الهيئات المسلمة الداعية للمحافظة على خصوصيات المجموعات الاسلامية ويعتبرونها من قبيل الدعوات العنصرية وتشجيع الغيتوات.

ويتجه الاسلام الاوروبي لإيجاد طرق ووسائل التمويل الذاتي لمؤسساته الدينية، وتأمين، تاليًا، استقلاله السياسي. صحيح ان العدد الأكبر من المساجد والمعاهد الاسلامية لا يزال مرتبطًا ببعض الحكومات، لكن الصحيح ايضًا أن عددًا متزايدًا من الروابط والجمعيات آخذ في تمويل مراكزه ونشاطاته عبر تبرعات من المجموعات المقيمة.

والمؤشر الأخير على التحول العميق الذي يتم حاليًا يتمثل بتلك النتاجات الثقافية والفنية للمسلمين الاوروبيين. ففي بريطانيا، كما في اسبانيا وفرنسا، مثقفون وفنانون هم الآن في صدد وضع ثقافة إسلامية اوروبية حقيقية. وإذا كان البعض منهم يكتفي بتقليد اعمال سابقة معروفة (منوعات، مسرح،...)، فإن آخرين يعطون الدليل على قدرة حقيقية على إبداع أعمال تسعى إلى احترام القيم الاسلامية وإدخالها، في الوقت نفسه، في إطار احترام العادات والاذواق الوطنية. وهناك أعمال واعدة برسم هوية مسلمة أوروبية مقبولة من الجميع.

لكن حقائق الحياة اليومية لا تزال تعكس، رغم كل هذه الجهود، وضعًا صعبًا يعيشه المسلمون في اوروبا، أساسه التمييز العنصري والنظرة الدونية والحذر والرفض. ومردّ ذلك ليس القوانين الاوروبية ولا الحكومات والأداء الرسمي والاداري على قدر ما هو في الحكم المسبق الذي يختزنه الاوروبي العادي للمسلمين وللإسلام على أنهما «غير قابلين للاندماج».

فمثل هذه الأحكام المسبقة والتبسيطية عن الاسلام تمنع الجمهور الاوروبي العريض عن إدراك حقيقة الامور من جهة، وحقائق الخطوات الاندماجية المحققة فعلاً من جهة أخرى. فمبادرات الحوار المتزايدة يومًا بعد يوم، والجهود التي يبذلها المسلمون أنفسهم، ورغبة بعض وسائل الاعلام الصادقة والحريصة على عدم صبّ الزيت على النار، تفتح الباب، ولو ضيّقًا، على مستقبل واعد بالاحترام المتبادل.

وما يجدر قوله، أخيرًا، إن اندماج المسلمين يجب ان لا يُنظر إليه على انه اندماج سلبي، أو خائف، أو انه من هذا النوع من الخيارات التي لا بد منه لأن لا خيار سواه، بل يجب اعتباره مساهمة من المسلمين في بناء أوروبا. فوجود المسلمين هو إغناء حضاري وروحي في قلب مجتمعات دنيوية. وعلى المسلمين، كذلك، ان ينضموا إلى جميع هؤلاء الذين يسائلون مجتمعهم عن المعنى، عن الأخلاقي وعن العدالة الاجتماعية.

تعقيب على موضوع «الإندماج»، المتعلق خاصة بالكتّاب والمثقفين الأنغلوفونيين، الذي يعكس إلى حدّ كبير حقيقة ودقة ما ورد أعلاه عن الاندماج كحقيقة آخذة في

التحقق من جهة، وعن صعوبته ومعاناته من جهة ثانية.
ويكتفي التعقيب، هنا، بنقل فقرة وردت في الكلمة الرئيسية التي ألقاها في المؤتمر الاقليمي بـ«المجلس البريطاني»، في القاهرة في ٢٣-٢٦ آذار ١٩٩٨، الروائي الفلسطيني-البريطاني طوني حنانيا («الحياة»، العدد ١٢٨١٩، تاريخ ٩ نيسان ١٩٩٨، ص٢٠):

«يعيش الكاتب المهاجر المندمج مثل جاسوس متقاعد، انتهت مهمته منذ وقت بعيد، وسُرّح المسؤولون عن توجيهه منذ وقت بعيد، ولم تبقَ اساليب التخفي التي تدرّب عليها إلا كعادة موروثة. لكن، لا يزال المظهر الخارجي الذي يوحي بحسن الاطلاع يخفي وراءه تلك الشخصية التي تنظر باستغراب إلى العالم كأنها جاءت من كوكب آخر وتعبّر عنه شعريًا. وعلى رغم ان العديد من الروائيين المهاجرين الذين يعملون في بريطانيا، وأبرزهم حنان الشيخ، لا يزالون يكتبون بالعربية، فإن أمثال هؤلاء الرافضين الانغلوفونية يشكلون حاليًا الاستثناء وليس القاعدة، كأن استخدام اللغة العربية كأداة تعبير أساسية أصبح إشكاليًا حتى وسط الاجيال الأولى من المهاجرين».

دولة الاسلام

دولة قريش: المؤسس الاول لقبيلة قريش، قصيّ ابن كلاب، حوّلها من قبيلة مستضعفة تسكن الجبال والشعاب واطراف مكة إلى القبيلة الحاكمة التي تمسك بزمام السلطة والثروة في العاصمة الدينية المقدسة، فأصبحت أشرف قبائل شبه جزيرة العرب، وقد أطلق على افرادها لقب «أهل الحرم».

أما معالم الدولة، دولة قريش، فتوضحت مع هاشم بن عبد المطلب الذي حوّل تجارة مكة إلى الرحاب الواسعة، وعقّد معاهدات مع ملوك فارس والروم واليمن، ووثّق صلاته الداخلية بمصاهرة العديد من القبائل الكبيرة، ومنها الخزرج وخزاعة وصعصعة وثقيف. أما عبد المطلب فلقب بـ«سادن الكعبة» و«سيّد البطحاء»، واستخدم أدوات الدين لتأكيد مكانة قريش لدى جميع العرب.

وبعد عبد المطلب، غابت الشخصية الأسرة على قريش التي خافت أن تفقد إنجازات الأسلاف، فعقدت «حلف الفضول» الذي تألف من بني هاشم وبني تميم وبني أسد وبني زهرة. وكان أول الداعين إلى هذا الحلف الزبير بن عبد المطلب، وقد عقد الاجتماع الاول في منزل عبد الله بن جدعان.

وقبيل ظهور الاسلام (وفي ايام ظهوره) كان على قريش حكومة الملأ (ملأ قريش) التي تشكلت من الارستقراطيين منهم، وتمكنت بثروتها وجاهها ونفوذها من أن تمسك بمقاليد الحكم في المدينة المقدسة. وكان «صناديد قريش»، وهم التجار الكبار والمرابون والنخاسون ومستغلو العبيد والإماء، يعادون الرسول ودعوته للتوحيد ونبذ الشرك وعبادة الاصنام، وللعدالة الاجتماعية والمساواة بين البشر جميعهم (عن عباس صفا في مراجعته لكتاب خليل عبد الكريم، «قريش من القبيلة إلى الدولة المركزية»، سينا للنشر-القاهرة، ومؤسسة الانتشار العربي-بيروت ١٩٩٧، «الحياة»، آذار ١٩٩٨).

دولة الاسلام الاولى (٦٢٢-٦٣٢): هي أول دولة للعرب المسلمين في التاريخ، وكانت السلطة العليا فيها لنبي الله ورسوله محمد بن عبد الله، وفي المدينة (يثرب) مارست هذه الدولة سلطتها ونظمت مجتمعها ووضعت دستورها الاول، وكان ذلك منذ السنة الاولى للهجرة. غير ان عقد تأسيس هذه الدولة يعود تاريخه إلى ما قبل الهجرة بثلاث سنوات. ففي ثلاثة مواسم للحج، متوالية، قبل الهجرة، كان التعاقد على تأسيسها يتم، ويتأكد، ويتزايد العاقدون له والقابلون بتنفيذ بنوده.

ولقد كانت البداية، عندما لقي الرسول، في موسم الحج، في مكة، ستة من سكان يثرب، كلهم من قبيلة الخزرج، فعرض عليهم دينه ودعاهم إلى دعوته فأجابوه، وتعاقدوا معه على الهجرة إلى بلدهم، ودعوة قومهم لدينه،

وقيادتهم في بناء مجتمع جديد يتوحد فيه الانصار، وتعلو فيه كفتهم على كفة اليهود الذين كانوا يمارسون في يثرب وضع الغزاة الذين حوّلوا عربها إلى «موالي»–مواطنين من الدرجة الثانية.

والذي يؤكد هذا الطابع السياسي الذي اشتمل عليه عقد تأسيس هذه الدولة–إلى جانب أمور الدين الخالصة–ان الرسول عندما لقي هؤلاء النفر سألهم: من أنتم؟ قالوا: نفر من الخزرج... قال: أمن موالي يهود؟ قالوا: نعم... قال: أفلا تجلسون أكلمكم؟ قالوا: بلى... فجلسوا معه، فدعاهم إلى الله، وعرض عليهم الاسلام...

وفي موسم الحج التالي، بعد عام، بلغ عدد الأنصار الذين جدّدوا هذا التعاقد وأكدوه إثني عشر رجلاً، فيهم إثنان من قبيلة الأوس والباقون من الخزرج... وبعد عام، ارتفع عدد المبايعين المتعاقدين على تأسيس هذه الدولة في بيعة العقبة الثالثة إلى ثلاثة وسبعين رجلاً وامرأتين، مثّل الأوس فيهم أحد عشر والباقون من الخزرج، وقادهم في عقد البيعة إثنا عشر نقيبًا تسعة منهم من الخزرج وثلاثة من الأوس... أبرموا عقد تأسيس الدولة الاسلامية الأولى، واتفقوا على ان عاصمتها هي المدينة (يثرب) يحكم منها الرسول ويقيم فيها حتى بعد ان يفتح الله عليه مكة التي وُلد ونشأ فيها.

وفي يثرب، بعد الهجرة، بدأت الدولة الجديدة بناء المجتمع الجديد، كما شرعت في اعداد العدة للدفاع عن هذا المجتمع ضد المشركين. وفي التنظيم السياسي لهذا المجتمع كوّنت القبائل المسلمة جماعة مسلمة واحدة، ثم دخلت هذه الجماعة المسلمة في حلف سياسي مع القبائل العربية غير المسلمة ومع القبائل اليهودية، يحمون، بموجبه، جميعًا، يثرب وملحقاتها من غزو مشركي مكة ومَن حالفهم من الأعراب. واستمر هذا الحلف السياسي حتى عمّ الاسلام عرب يثرب وحتى نقضه اليهود أثناء غزوة الاحزاب (والخندق).

ولقد كوّن المهاجرون القرشيون حيًا لقريش في المدينة، فكانوا قبيلة قريش في يثرب، وعقد الرسول بينهم مؤاخاة، ثم ضمتهم والأنصار مؤاخاة تالية تشاركوا جميعًا بموجبها في: ١–الثروة وأمور المعاش؛ ٢–والحق، أي الدين والنصرة فيه؛ ٣– والميراث بعد الموت... ثم نسخ الاشتراك في الميراث، وتخصص بذوي الأرحام وبقيت المؤاخاة بين اعضاء المجتمع الجديد في الثروة والحق.

وكانت قيادة القرشيين المهاجرين لتلك الهيئة التي كانت بمثابة حكومة للرسول، وهي التي اشتهرت باسم «المهاجرين الأولين»، وهم عشرة، أحاطت بيوتهم، مع الرسول، بالمسجد الذي كان دارًا للحكومة، واختصوا بأبواب تربط بين بيوتهم وبين ساحة المسجد. وكانوا في الصلاة يقفون خلف الرسول، وفي القتال يقاتلون أمامه. وفيهم كان تمثيل أهم بطون قبيلة قريش. واشتهر في الاسلام انهم المبشرون بالجنة. وبعد وفاة الرسول ظلت سلطة الخلافة خاصة بهم مقصورة عليهم، وكانوا حريصين على أن ينبهوا الانصار إلى الفرق بينهم عندما قالوا لهم: نحن الأمراء وانتم الوزراء–أي المستشارون–... ولقد بادر إثنان من هذه الهيئة بعقد الخلافة لثالث منها في سقيفة بني ساعدة–عندما عقد عمر وأبو عبيدة لأبي بكر–وشاورهم أبو بكر عندما أراد العهد إلى عمر... وكوّن عمر من بقيتهم الأحياء–وكانوا ستة–مجلس الشورى الذي اختار عثمان بن عفان... فكانت «هيئة المهاجرين الأولين» هي حكومة دولة المسلمين الاولى التي كان الرسول نبيها وحاكمها... وهؤلاء المهاجرون الأولون هم: أبو بكر، وطلحة بن عبيدالله (وهما من تيم)، وعمر بن الخطاب، وسعيد بن زيد (وهما من عدي)، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن ابي وقاص (وهما من زهرة)، وعلي بن ابي طالب (وهو من هاشم)، وعثمان بن عفان (وهو من أمية)، والزبير بن العوام (وهو من أسد)، وأبو عبيدة بن الجراح (وهو من فهر).

ومن المدينة (يثرب)، قاعدة الدولة الجديدة، خرجت القوات التي أمنت للدعوة الجديدة ودولتها الاستمرار والانتشار، والوفود والرسائل إلى القبائل والملوك والرؤساء، حتى تمّ فتح مكة، واعترفت قبائل شبه الجزيرة وحواضرها بالسلطة السياسية الجديدة التي وحّدت العرب تحت راية الاسلام. وبين هذه القبائل، في مضاربها وفي حواضرها، بدأت تتكون وتنمو قسمات جهاز الدولة الجديدة. فكان هناك قضاة، وعمال يجبون الصدقات، إلى ان تأسست قواعد جهاز الدولة وبلغت ذروة نضجها في دولة الخلافة الراشدة، خاصة على عهد خليفتها الثاني عمر بن الخطاب (عن «موسوعة السياسة»، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨١، ج٢، ط١، ص٧٠٧-٧٠٨).

النبي محمد رسول الله (٥٧١–٦٣٣م): محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم، من قريش، من عدنان، من أبناء إسماعيل بن ابراهيم الخليل: النبي العربي، مؤسس الجامعة الاسلامية، وواضع بناء حضارتها، جامع

ألواح تحمل آيات من القرآن الكريم (المكتبة الوطنية، باريس).

شمل العرب، ومجدّد حياتهم السياسية والتشريعية، أبو القاسم.

وُلد بمكة. ونشأ يتيمًا، ربّته أمه آمنة بنت وهب، وماتت وعمره ست سنين، فكفله جدّه عبد المطلب، ومات جده بعد سنتين، فكفله عمه أبو طالب ونشأ شجاعًا عالي الهمة، صادقًا، فاضل الاخلاق، كامل العقل، لقبه قومه بـ«الأمين». ولما بلغ الخامسة والعشرين زوّجه عمه بخديجة بنت خويلد الأسدية القرشية، وهي تكبره بنحو ١٥ سنة، وكانت غنية ارسلته قبل الزواج بتجارة إلى الشام فأفلح وربح. ولما بلغ الأربعين من عُمره بُدىء بالرؤيا الصادقة، وحُبِّبت إليه الخلوة، فكان يقضي شهرًا من كل عام في حرّاء (على مقربة من مكة) يتحنث (كما كانت قريش تفعل في الجاهلية؛ والتحنث التعبد) فلما بلغ الثالثة والأربعين، في رمضان (١٣ق هـ=٦١٠م) أوحي إليه في غار حرّاء بآية: «إقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الانسان من علق». وشرع يدعو من حوله سرًا، فآمنت به زوجته خديجة وابن عمه علي بن أبي طالب، وصديقه أبو بكر، ومولاه زيد بن حارثة، وجماعة من قومه، فأعلن الدعوة إلى الاسلام بالتوحيد ونبذ الأوثان وخرافاتها. وهزأت به قريش وآذته، فصبر؛ وحماه عمه أبو طالب حتى مات. وأسلم عمه حمزة وعمر بن الخطاب، فقوي بهما. واشتد أذى قريش لأصحابه، فأذن لمن ليس له عشيرة تحميه بأن يهاجر إلى أرض الحبشة فهاجر ثلاثة وثمانون رجلاً، عدا النساء والاولاد.

ثم أسلم بمكة ستة من الأوس والخزرج من أهل المدينة (يثرب) وعادوا إليها، فلم يلبث ان جاءه منها إثنا عشر رجلاً فآمنوا به، فبعث معهم مصعب بن عمير ليعلمهم شرائع الاسلام والقرآن، فلم يمض غير قليل حتى انتشر الاسلام في المدينة، ووفد عليه جمع من أهلها فدعوه وأصحابه إلى الهجرة إليهم وعاهدوه على الدفاع عنه، فأجاب دعوتهم وأمر اصحابه بالخروج من مكة ثم لحقهم. وبلغ قريشًا خبر هجرته، فتبعوه ليقتلوه فنجا.

ودخل المدينة فبنى فيها مسجده وجهر بنشر الدعوة، وكانت قريش تحول بينه وبين ذلك في مكة بالقوة. وبسنة دخوله المدينة يبتدىء التاريخ الهجري، وكان سنة ٦٢٢م.

ولم يدعه مشركو قريش آمنًا في دار هجرته، بل كانوا يقصدونه لقتاله فيها، فنزلت آيات «الإذن بالقتال» مبينة سببه ووجه الحاجة إليه. وكانت المعركة الاولى بينه وبين قومه (قريش) في بدر بجوار المدينة. وتلتها غزوة بني قينقاع وهم قبيلة من اليهود كان النبي قد دعاهم وأمنهم على أنفسهم وأموالهم وحرية دينهم، فنقضوا عهده.

وفي السنة الهجرية الثالثة، كانت غزوة أحد؛ وفي الرابعة غزوة الرقاع وبدر الثانية؛ وفي الخامسة غزوة الخندق وغزوة بني قريظة؛ وفي السادسة غزوة ذي قرد وبني المصطلق وفيها بعث النبي الرسل إلى كسرى وقيصر والنجاشي وغيرهم من عظماء الملوك كالمقوقس بمصر والحارث الغساني بالشام يدعوهم إلى الاسلام؛ وفي السابعة غزوة خيبر؛ وفي الثامنة غزوة مؤتة وحنين، وفيها فتح المسلمون مكة وكانت معقل المشركين من قريش وغيرهم؛ وفي التاسعة غزوة تبوك. وفي السنة الهجرية العاشرة، أقبلت وفود العرب قاطبة على النبي وهو بالمدينة. وبعث ابن عمه علي بن ابي طالب إلى اليمن فأسلمت همدان كلها، وتتابع أهل اليمن وملوك حمير على الاسلام.

وحجّ حجة الوداع (سنة ١٠هـ) وكانت خطبته فيها، وهو على ناقته، من أطول خطبه وأكثرها استيعابًا لأمور الدين والدنيا. وفي أواخر صفر (سنة ١١هـ) حمّ بالمدينة، وتوفي بها في ١٢ ربيع الاول، ودُفن في مرقده الشريف.

أما معجزته الخالدة التي بنيت عليها الدعوة فالقرآن الكريم.

وأما صفاته: فكان إذا خطب (في نهي أو زجر) احمرت عيناه، وعلا صوته، واشتد غضبه، كأنه منذر جيش؛ وإذا خطب في الحرب اعتمد على قوس، وفي السلم على عصا. وكان طويل الصمت، قليل الضحك، وإذا ضحك وضع يده على فيه، وإذا تكلم تبسّم. يجلس ويأكل على الارض، ويجيب دعوة المملوك على خبز الشعير. وكان إذا مشى لم يلتفت، وإذا التفت التفت جميعًا، يتكفأ في مشيه كأنما ينحط من صبب. وإذا اهتم لأمر أكثر من مسّ لحيته. وإذا أراد غزوة ورى بغيرها. فيه دعابة قليلة. وإذا فرح غضّ بصره. في كلامه ترتيل وترسيل. شديد الحياء. ضخم الرأس واليدين والقدمين. ليس بالطويل ولا القصير. سبط الشعر. لونه أسمر، وخلقته تامة، وعيناه سوداوان، وفي خديه حمرة. متواضع في غير مذلة. يمسح رأسه ولحيته بالمسك، ويرسل شعره إلى أنصاف أذنيه، ويلبس قلنسوة بيضاء. وما صافحه أحد فترك يده حتى يكون ذلك هو الذي يترك يده. وكان يخيط ثوبه، ويخصف نعله، ويجالس المساكين. خطيبًا أوتي جوامع الكلم، شجاعًا بطلاً–قال علي بن ابي طالب: كنا إذا اشتد البأس اتقينا برسول الله، فكان أقربنا إلى العدو–ولكنه لم يقتل بيده إلا

رجلاً واحدًا حاول قتله فسبقه بطعنه في لبته.

وأما أسرته فإن زوجته الأولى خديجة استمرت معه وحدها إلى ان توفيت (سنة ٣ق هـ) وقد ولدت له القاسم وعبدالله وزينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة. ومات القاسم وعبدالله صغيرين، فلم يبقَ له ولد ذكر، فتزوج بعدها أربع عشرة امرأة وتوفي وعنده تسع، ولم يولد له غير ابراهيم (من سريته مارية) ومات ابراهيم طفلاً لم يبلغ سنتين. وتوفي جميع أولاده في حياته إلا ابنته فاطمة، وكان قد تزوجها ابن عمه علي بن ابي طالب، فولدت له الحسن والحسين فانحصرت فيهما نسبة كل منتسب إلى رسول الله. وولدت ولدًا ثالثًا سمته محسنًا، مات صغيرًا.

وكان للنبي كتّاب يملي عليهم لأنه لم يتعلم الكتابة؛ وحراس اتخذهم، حتى أوحي إليه «والله يعصمك من الناس» فتركهم؛ ومؤذنون، وسيّافون، ورسل، وشعراء وخطباء، وخدم، وخيل وبغال وإبل، وسلاح كثير من سيوف ودروع وقسي ورماح وغيرها. (عن «موسوعة السياسة»، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٩٠، ج٦، ط١، ص٨٤-٨٦).

دولة الاسلام الثانية، الخلافة الراشدة (١١-٤١هـ، ٦٣٢-٦٦١): هي امتداد لدولة العرب المسلمين الأولى التي أسسها وقادها النبي رسول الله محمد بن عبدالله. وقد تكونت الدولة الثانية عقب وفاته مباشرة بعد جدل دار بين ممثلي المهاجرين الأولين، وهم الحي المدني من قبيلة قريش الذين سبق قادتهم إلى الاسلام واستوطنوا المدينة بعد هجرتهم من مكة، وبين ممثلي الانصار، وهم سكان المدينة الاصليون، وبالذات، قبيلتي الأوس والخزرج. ولقد انتهى هذا الجدل، الذي تم في سقيفة بني ساعدة، بأخذ البيعة لأبي بكر الصديق، فأصبح أول خليفة في دولة الخلافة الراشدة التي اتخذت من المدينة عاصمة لها والتي استمر حكمها ٢٩ عامًا.

قامت هذه الدولة على أساس من فلسفة الشورى. فكان خلفاؤها يتم تنصيبهم بشورى أهل الرأي في العاصمة الذين كانوا يبايعون واحدًا من هيئة المهاجرين الأولين العشرة أو «الصحابة» الذين كانوا بمثابة حكومة الرسول. فاختصت هذه الهيئة بالمنصب واختص رؤساء المدينة بالشورى والاختيار والبيعة أو إبداء الرأي والتصديق على ترشيح الخليفة القائم للخليفة الجديد.

ومنذ البداية حرص خلفاء هذه الدولة على تأكيد طابعها المدني والتمييز بين طبيعتها وطبيعة الدولة والسلطة في عهد الرسول، وذلك لانقطاع الوحي، وتمام الدين، وتقرير ان سلطان النبي الديني ليس قابلاً للميراث. ومن هنا كان الحرص على ان لا تبدأ الخلافة في الفرع الهاشمي من قريش حتى لا تكون فيها شبهة الميراث فتتأبّد في آل بيت الرسول.

وأخطر ما واجهته هذه الدولة، بعد قيامها، هو رفض القبائل العربية المسلمة، في غير مكة والمدينة والطائف، الخضوع لسلطانها، وكان منع تسليم الصدقات للخليفة بادرة هذا الوهن الذي تعرّضت له وحدة الدولة. فدارت تلك الحرب السياسية التي عرفت في التاريخ بـ«حروب الردة»، وانتهت باعادة وحدة عرب شبه الجزيرة. ثم بدأت الدولة موجة فتوحاتها المظفرة ضد الدولة الفارسية، فحررت العراق من نفوذها وطاردت جيشها حتى هزمته وأخضعت الفرس لحكم الخلفاء، كما حرّرت المستعمرات الشامية ومصر وأجزاء من شمالي افريقيا من حكم الروم البيزنطيين، وأدخلتها جميعًا في إطار دولة الخلافة.

وفي عهد عمر بن الخطاب، ثاني خلفائها، اكتملت لهذه الدولة سمات الامبراطورية، ووضعت الأسس لنظمها المالية والادارية والعسكرية. وفي عهد عثمان بن عفان، برزت الصراعات الاجتماعية والقبلية عندما ظهرت سيطرة بني أمية على عصب الاجهزة المالية والادارية في الدولة، حتى بلغت الحد الذي يمكن معه اعتبار سنوات حكمه الستة الاخيرة هي فترة التأسيس للدولة الأموية التي كرّس انتصارها، في ما بعد، معاوية بن ابي سفيان. وبعد ان انتهت هذه الصراعات بثورة احتلت العاصمة وقتلت الخليفة عثمان، بايع الثوار عليًا بن ابي طالب. ولكن الأمويين، وأنصارهم، من أهل الشام خاصة، رفضوا الاعتراف بخلافته، واستمر صراعهم ضده وضد أنصاره، الذين كان أغلبهم من أهل العراق، حتى استشهد علي، وآلت مقاليد السلطة إلى معاوية. فانتهت بذلك فترة حكم الخلفاء الراشدين (عن «موسوعة السياسة»، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨١، ج٢، ط١، ص٧١٢-٧١٣).

دولة الاسلام بعد الخلافة الراشدة: بعد وفاة الرسول كان الأمويون يدعون لجعل السلطة في قريش لا في الأنصار. وعندما وُلّي الخلافة عثمان بن عفان بن ابي العاص بن أمية، اتخذ الامويون هذا الظرف سبيلاً لفرض سيطرتهم على مقاليد دولة الخلافة، ما أدّى إلى ثورة قتلت

عثمان ونصبت عليًا بن ابي طالب، فناهضها الأمويون ورفضوا الاعتراف بها ومضوا في طريقهم حتى اجتمع لهم الأمر بقيادة معاوية بن ابي سفيان (٤٠هـ=٦٦١م) عندما خلص لهم الحكم، فتأسست دولتهم واتخذوا دمشق عاصمة لها، وامتدت رقعتها لتشمل شعوبًا واقطارًا جديدة. ولكن اعتمادهم على سلاح العصبية القبلية قد امتد ليميز ما بين ذوي الأصل العربي والآخرين من أصلاب غير عربية (الموالي)، فخلق ذلك المناخ ردود فعل تمثلت في الحركات الشعوبية. كما استمر اضطهادهم وتصاعد ضد بني هاشم وآل بيت الرسول، مما مكّن كل الخارجين عليهم من التستر برايات آل البيت ذات الظلال المهيبة والتأثير الكبير. فتعرضت الدولة لثورات شبه مستمرة من الخوارج والشيعة والمعتزلة وأشراف مكة الذين تزعمهم عبد الله بن الزبير.

وبعد أربعة عشر خليفة من الأمويين (كان آخرهم مروان بن محمد، ٧٤٤-٧٥٠) أنهت الثورة الهاشمية عهد الدولة الأموية بنقلها السلطة إلى العباسيين.

من دولة الاسلام إلى دول الاسلام: لكن الذي حصل على صعيد «وحدة الدولة الاسلامية» كان أخطر بكثير من حدوث ثورة أطاحت حكامًا وعهدًا وجاءت بآخرين. ذلك ان نهاية الحكم الأموي في دمشق لم يكن ختام حكمهم، فلقد فرّ أحد أمراء البيت الأموي، وهو عبد الرحمن الداخل، حفيد خليفتهم العاشر هشام بن عبد الملك، فبلغ أرض الاندلس في العام ٧٥٥ وأسس هناك الإمارة الاموية ثم الخلافة الأموية التي استمر حكمها حتى العام ١٠٣١. فأصبح هناك، وللمرة الأولى، دولتان إسلاميتان: عباسية وأموية. وأكثر من ذلك، فإن الأمر لم ينته عند هذا التقسيم الثنائي، إذ ما إن مرّ نحو قرن واحد من الزمن على قيام الدولة العباسية حتى بدأ التفكك يسري في أوصالها، وبدأت تقوم دويلات إسلامية تقتسم جسم الامبراطورية العباسية جاعلة من بغداد والخليفة العباسي المقيم بها أسرى سلاطين هذه الدويلات. ولم يكن للخليفة العباسي، في أغلب أوقات مرحلة التفكك هذه، سوى اللقب الذي يضرب على السكة (النقد) والدعاء لاسمه على المنابر يوم الجمعة. ثم قام المماليك في مصر بنقل مركز الخلافة العباسية إلى القاهرة بيبعتهم أبا القاسم احمد المستنصر بن الظاهر خليفة (١٢٦١). وتوالى من بعده خلفاء ليس لهم من الأمر شيء، كان آخرهم المتوكل الثالث بن المستمسك الذي فتح العثمانيون على عهده مصر، فانتهت بهذا الفتح الخلافة العباسية (١٥١٧).

فإضافة إلى دولة المركز (بغداد) التي بدأت تتهاوى فعليًا (ولو بقيت إسميًا) بعد عقود من الازدهار، وإلى دولة الأندلس، ظهرت ١٦ دولة إسلامية من العام ٧٨٨ وحتى انتصار العثمانيين على المماليك ودخولهم القاهرة في ١٥١٧. وهذه الدول:

- الدولة الإدريسية ٧٨٨-٩٧٤ (المغرب).
- دولة الأغالبة ٨٠٠-٩٠٩ (تونس).
- الدولة الطولونية ٨٧٩-٩٠٥ (مصر).
- الدولة الفاطمية ٩٠٩-١١٧١ (تونس)، حيث كانت عاصمتها القيروان، وبعدها المهدية، وبعدها القاهرة.
- الدولة الحمدانية ٩٢٩-١٠١٥ (الموصل ثم حلب).
- الدولة البويهية ٩٣٢-١٠٥٥ (الساحل الجنوبي من بحر قزوين).
- الدولة الزيدية ٨٩٣-١٢٩٧ (اليمن).
- الدولة الأخشيدية ٩٣٥-٩٦٩ (مصر).
- الدولة الغزنوية ٩٦٢-١١٨٦ عاصمتها غزنة الواقعة على قمة هضبة عالية تشرف على سهول الهند الشمالية وتتصل بها بواسطة وادي كابل في افغانستان.
- الدولة السلجوقية ١٠٣٧-١١٨٦ (تركستان وبخارى).
- دولة المرابطين ١٠٥٦-١١٤٦ (المغرب).
- الدولة الزنكية ١١٢٧-١٢٥٠ (الموصل).
- دولة الموحدين ١١٢٩-١٢٦٩ (المغرب).
- الدولة الأيوبية ١١٧١-١٢٥٠ (مصر).
- دولة المماليك ١٢٥٠-١٥١٧ (مصر).
- دولة السعديين ١٥١٠-١٦٥٩ (المغرب).

دولة الاسلام مع العثمانيين، ودول الاسلام بعدهم: وفي حين كان المسلمون في الأندلس يتراجعون كانت دولة الاسلام العثمانيين في الشرق تنمو وتتقدم وتضم غالبية الدول الاسلامية وتتوسع غربًا وشرقًا وتصل إلى حدود لم تبلغها أي من الدول الاسلامية قبلها.

أما الخلافة المعتبرة رمزًا لوحدة الجماعة أو الأمة الاسلامية التي نشأت في المدينة المنورة وازدهرت في عهد الخلفاء الراشدين، ثم انتقلت إلى دمشق في عهد الأمويين (٦٦١-٧٥٠)، وإلى بغداد في عهد العباسيين (٧٥٠-١٢٥٨)، وإلى القاهرة في عهود الانحطاط والانقسام وتفكك الخلافة العباسية (١٢٥٨-١٥١٧)، فإنها أصبحت في استنبول، بدءًا من دخول السلطان العثماني سليم الأول

القاهرة في ١٥١٧، واستمرت حتى ١٩٢٤، أي السنة التي أقدم فيها مصطفى كمال أتاتورك على قطع كل علاقة لبلاده بالشرق وبالتراث الاسلامي، وألغى الخلافة (راجع «تركيا»، ج٦).

وجاء عصر النهضة العربية ليتضمن، من جملة ما يتضمن من اتجاهات وحركات إصلاحية، وعلى مدى عقود سبقت انهيار السلطنة العثمانية، على حركة اسلامية إصلاحية تدعو إلى جامعة اسلامية (أو رابطة إسلامية) تعمل على بناء «امبراطورية اسلامية» تذوب فيها مختلف القوميات الاسلامية وتخضع لها سائر الملل (جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده).

لكن الدول الاوروبية اسرعت في تفكيك الامبراطورية العثمانية مع نهاية الحرب العالمية الاولى، ووضعت المناطق العربية تحت الانتداب (الفرنسي والبريطاني)، الأمر الذي جعل رواد عصر النهضة، بمختلف اتجاهاتهم، ينتقلون من دوائر اهتماماتهم وأهدافهم الكبرى (وحدة سورية، وحدة عربية، جامعة إسلامية، ليبرالية وراديكالية، اشتراكية اصلاحية، حداثة ولحاق بركب الحضارة وتخطي التخلف...) إلى دائرة الاهتمام بالخروج من الاستعمار الفرنسي والبريطاني. ومع الاستقلالات، التي جاء بعضها في فترة ما بين الحربين العالميتين، وبعضها الآخر في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، والتي تداخلت فيها حركات التحرر الوطنية والقومية والاسلامية، انكشف المشهد السياسي الدولي العام على قيام دول عربية ودول إسلامية وليس على دولة عربية أو دولة إسلامية.

الجامعة الاسلامية: إن حيوية الرسالة الاسلامية التي حملتها إلى فلاحي جزر الهند الشرقية وإلى أهل مدينة قرطبة الحضريين، ومكّنتها من أن تحوز القبول لدى القبائل الافريقية ولدى أهل القرى الساسانية دون فرق، وقدرتها على إبقاء المبادىء نفسها حيّة ناطقة طوال أربعة عشر قرنًا دون انقطاع، إن هذه الحيوية التي ارتاحت قرونًا في ظلال الخلافة العثمانية عادت ساعية لتأمين ديمومة الدولة والخلافة مع انحطاط السلطنة العثمانية المنذر بقرب زوالها. فأثمرت هذه المساعي عن «جامعة إسلامية» Pan-Islamism فكرًا سياسيًا ودينيًا باحثًا عن تنظيم أو منظمة تؤمن وحدة المسلمين في مختلف أوجه حياتهم.

جاءت الجامعة الاسلامية كتيار سياسي-ديني برز في بلاد الشرق الاسلامي في القرن التاسع عشر. وفي مقدمة دوافعه: الرغبة في استخدام روابط الأخوة والتضامن الاسلامي في معركة التجديد واليقظة لاخراج المسلمين من نطاق العصور المظلمة (المسؤولة عنه السلطنة العثمانية باعتراف الاصلاحيين العثمانيين أنفسهم) إلى رحاب العصر الحديث.

لكن الجامعة الاسلامية عرفت تيارات متعددة تمايزت مواقفها الفكرية والعملية إزاء مشكلات المسلمين، وذلك بحكم تعدد المواطن واختلاف المواقف الاجتماعية والفكرية للرواد الاصلاحيين الاسلاميين:

-فالجامعة الاسلامية كانت تعني حركة إصلاحية تجديدية، مثل الوهابية: السلفية الدينية، والمحافظة الاجتماعية، والعداء للاتراك العثمانيين،

- بينما كانت تعني لدى السلطان العثماني عبد الحميد اتخاذ وحدة الدين القائمة بين العثمانيين وبين العرب والفرس والهنود المسلمين سبيلاً لإحكام القبضة العثمانية على مقدرات أوطان هذه الشعوب، وقمع الحركات القومية الحديثة التي كانت تستيقظ وتتطلع إلى الاستقلال القومي والتحرر من السلطان العثماني،

- على حين كانت تعني لدى جمال الدين الأفغاني، وتياره الفكري والثوري، التضامن الاسلامي لصد الغزو الاستعماري الاوروبي عن الشرق، والعمل على تحرير الاجزاء التي سقطت، وخاصة مصر التي احتلها الانكليز في ١٨٨٢، والسعي لتحرير اقتصاديات المسلمين بإحلال رأس المال الاسلامي محل رأس المال الاوروبي، ومحاولة الاستفادة من إمكانيات الدولة العثمانية في هذا الميدان، بعد تطوير هذه الدولة وتجديد إدارتها، وإحلال العقلانية محل الخرافة في دوائرها الفكرية عن طريق الاصلاح الديني الذي يتسلح بالعقلانية في تفسير النصوص الاسلامية الاولى تفسيرًا عصريًا مستنيرًا. ولما يئس الأفغاني من إصلاح جهاز الدولة العثمانية مال إلى القول بأهلية العناصر القومية في الامبراطورية العثمانية، وخاصة العرب، للاستقلال القومي والاضطلاع بمهام التجديد والتحرير.

وبعد زوال الامبراطورية العثمانية، وتقاسم الاوروبيين لممتلكاتها خارج حدود تركيا، ومع بروز الاستقلالات الوطنية، قُدمت، في العالم الاسلامي، مقترحات ومشاريع لإعادة منصب الخلافة إلى سابق عهده. ورُشّحت أسماء لشغل هذا المنصب. إلا ان هذه المحاولات باءت بالفشل. وعُقدت بعد ذلك مؤتمرات اسلامية كثيرة لجمع شمل المسلمين (دون نجاح يذكر). وآخر هذه المؤتمرات، وأهمها، المؤتمر الحالي الذي يحمل إسم «منظمة المؤتمر الاسلامي».

منظمة المؤتمر الاسلامي

الأصول القريبة للمنظمة: إذا كانت الاصول البعيدة والجوهرية لكل منحى وحدوي إسلامي ولكل منظمة اسلامية تكمن في مؤسسة الخلافة نفسها التي قامت مباشرة عقب وفاة النبي، فإن الأصول القريبة والمباشرة لقيام منظمة المؤتمر الاسلامي الحالية يجملها الدكتور محمد المجذوب (في كتابه «التنظيم الدولي»، الدار الجامعية، بيروت ١٩٩٨، ص٤٥٧-٤٥٨) بالنقاط التالية:

١ - إنشاء جامعة الدول العربية في العام ١٩٤٥. وهي تجمّع ينطوي على تفضيل الانتماء القومي واللغوي على التضامن الديني، أو هي تجمّع يرى ان نجاح التجمع القومي يشكل مدماكًا في صرح التجمّع الديني.

٢- تقسيم الهند، في العام ١٩٤٧، إلى دولتين (الهند والباكستان) على أساس ديني محض، وقيام الباكستان بالبحث عن صيغة لجمع المسلمين في إطار واحد، وطرح فكرة إنشاء مواطنية إسلامية في مؤتمر عُقد في كراتشي، في آذار ١٩٥٢.

٣- إقدام الصهيونيين في العام ١٩٤٨، بالتواطؤ مع بريطانيا والدول الكبرى، على اغتصاب جزء من فلسطين، ثم جميع فلسطين، ,إنشاء دولة اسرائيل، وتدنيس الأماكن المقدسة، وطرد الفلسطينيين (ومعظمهم من المسلمين)، على مراحل، من ديارهم والاستيلاء على ممتلكاتهم.

٤- نجاح الثورة المصرية في العام ١٩٥٢، وإيمان قادتها بوجوب الترابط والتلاحم بين العروبة والاسلام، وسعي الرئيس جمال عبد الناصر، في العام ١٩٥٤، لتأسيس منظمة اسلامية، بالتعاون مع الملك السعودي سعود بن عبد العزيز والرئيس الباكستاني محمد علي جناح. ولكن الخيارات الاستراتيجية المتباعدة للزعماء الثلاثة لم تساعد على نجاح الفكرة. وتجلّى ذلك في مواقفهم المتباينة من حلف بغداد، وأزمة السويس، ومبدأ أيزنهاور.

٥ - عقْدُ عدة مؤتمرات في الخمسينات والستينات في آسيا وافريقيا، للدفاع عن فلسطين والقدس والدعوة إلى تكوين كتلة اسلامية تستطيع الوقوف في وجه الاستعمار الجديد ومواجهة المؤامرات التي تحاك ضد الدول الاسلامية حيث الفرقة والانقسام بين شعوبها. وحاول البعض من خلال ظاهرة «المؤتمرات الاسلامية»، إيجاد البديل الموقت للخلافة الاسلامية.

وينهي الدكتور محمد المجذوب كلامه على الدوافع المباشرة بقوله إن مرحلة المؤتمرات الاسلامية، الرسمية والشعبية، استمرت حتى العام ١٩٦٩ الذي شهد، في ٢١ آب، جريمة إحراق المسجد الأقصى في القدس من قبل العصابات الصهيونية. وقد حثت هذه الجريمة النكراء المدبّرة بعض الدول الاسلامية على تكوين لجنة تحضيرية تكون مهمتها الدعوة إلى اجتماع للدول الاسلامية وإنشاء منظمة اسلامية.

التأسيس والدول الأعضاء: جاء في «دليل منظمة المؤتمر الاسلامي» الذي قدم له أمينها العام السابق الدكتور حامد الغابد، ما يلي: «... وقد تأسست المنظمة في الرباط بالمملكة المغربية في ٢٥ ايلول ١٩٦٩ بمناسبة المؤتمر الاول لقادة العالم الاسلامي الذي عقد في العاصمة المغربية على أثر الحريق الاجرامي الذي تعرّض له المسجد الأقصى المبارك في ٢١ آب ١٩٦٩ على يد عناصر صهيونية في مدينةالقدس المحتلة (...) ولقد استطاع قادة العالم الاسلامي المجتمعون في الرباط تأكيد وحدتهم وجمع كلمتهم واستنفار القوة اللازمة لمواجهة هذا الاعتداء الصارخ. ونتيجة لذلك الاجتماع تم إنشاء المنظمة وتضمن ميثاقها عهدًا بالسعي بكافة الوسائل السياسية والعسكرية لتحرير القدس الشريف من الاحتلال الصهيوني. وبعد ستة أشهر من هذا الحدث التاريخي، أي خلال شهر آذار ١٩٧٠، انعقد في جدة بالمملكة العربية السعودية المؤتمر الاول لوزراء خارجية الدول الاسلامية الذي تمّ خلاله إنشاء الأمانة العامة للمنظمة لتقوم بمهمة التنسيق بين الدول الأعضاء وقد عين هذا المؤتمر أمينًا عامًا للمنظمة وحدّد مقرًا مؤقتًا لها في مدينة جدة حتى يتم تحرير مدينة القدس الشريف باعتبارها المقر الدائم».

والواقع ان تلك المنظمة لم تصبح مؤسسة كاملة من الناحية القانونية إلا بعد عقد مؤتمرين آخرين لوزراء خارجية الدول الاسلامية: مؤتمر كراتشي (كانون الاول ١٩٧٠) ومؤتمر جدة، مجددًا (شباط ١٩٧٢). وهذا المؤتمر الأخير شاركت فيه ٣٠ دولة وأقرّ ميثاق المنظمة. ودخل الميثاق حيّز التنفيذ بدءًا من نهاية ١٩٧٣.

أما الدول المؤسسة (الثلاثون) فهي: مملكة أفغانستان، الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية، دولة الامارات العربية المتحدة، دولة البحرين، جمهورية تشاد، جمهورية مصر العربية، الجمهورية الغينية، الجمهورية الأندونيسية، إيران، المملكة الاردنية الهاشمية، دولة الكويت،

الجمهورية اللبنانية، الجمهورية العربية الليبية، ماليزيا، جمهورية مالي، الجمهورية الاسلامية الموريتانية، المملكة المغربية، جمهورية النيجر، سلطنة عمان، الجمهورية الاسلامية الباكستانية، دولة قطر، المملكة العربية السعودية، جمهورية السنغال، جمهورية سيراليون، الجمهورية الصومالية الديمقراطية، جمهورية السودان الديمقراطية، الجمهورية العربية السورية، الجمهورية التونسية، الجمهورية التركية، الجمهورية العربية اليمنية، (ودولة فلسطين).

والأمين العام للمنظمة الدكتور حامد الغابد خصّ، بالإسم (في مقدمة الدليل، مرجع مذكور آنفًا)، المملكة العربية السعودية كطليعة الدول الدافعة إلى إنشاء المنظمة، فيقول: «وانه بظهور منظمة المؤتمر الاسلامي، وقيامها بأداء وظائفها النبيلة في خدمة اهداف التضامن الاسلامي، وقضايا الدول الاسلامية العادلة تكون جهود الملك فيصل بن عبد العزيز آل سعود، ملك المملكة العربية السعودية رحمه الله وجزاه عن المسلمين خيرًا، قد آتت ثمارها الطيبة بتوفيق من الله أولاً ثم بفضل موازرة اخوانه ملوك ورؤساء وامراء الدول الاسلامية لدعوته الخيرة للتضامن وتوحيد الجهود».

وأما الدول المنضمة في السنوات التي تلت مرحلةالتأسيس (١٩٦٩-١٩٧٣)، فهي: جمهورية أوغندا، جمهورية الغابون، جمهورية غامبيا، جمهورية غينيا بيساو وجمهورية بنغلادش الشعبية (١٩٧٤)، بوركينا فاسو وجمهورية الكاميرون (١٩٧٥)، الجمهورية العراقية، جمهورية جزر القمر الاسلامية وجمهورية المالديف (١٩٧٦)، جمهورية جيبوتي (١٩٧٨)، جمهورية بنين الشعبية (١٩٨٢)، بروني-دار السلام (١٩٨٤)، جمهورية نيجيريا الفدرالية (١٩٨٦)، جمهورية أذربيجان وجمهورية ألبانيا (١٩٩١)، جمهورية تركمانستان، جمهورية طاجيكستان وجمهورية قيرغيزستان (١٩٩٢)، وجمهورية موزمبيق (١٩٩٤)، فأصبح مجموع أعضاء منظمة المؤتمر الاسلامي ٥١ عضوًا، ثم أصبح ٥٥ دولة عضوًا بعد انضمام أربع دول أخرى في السنوات الأخيرة.

الميثاق: الاهداف والمبادىء: بعد المادة الأولى (يتضمن الميثاق على ١٤ مادة) التي جاء فيها: «تؤسس الدول الاعضاء منظمة المؤتمر الاسلامي»، نصت المادة الثانية التي اتخذت لها عنوان الأهداف والمبادىء على:

(أ) الاهداف

تتمثل أهداف المؤتمر الاسلامي فيما يلي:

١- تعزيز التضامن الاسلامي بين الدول الاعضاء.

٢- دعم التعاون بين الدول الاعضاء في المجالات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والعلمية وفي المجالات الحيوية الأخرى. والتشاور بين الدول الأعضاء في المنظمات الدولية.

٣- العمل على محو التفرقة العنصرية، والقضاء على الاستعمار في جميع أشكاله.

٤- اتخاذ التدابير اللازمة لدعم السلام والأمن الدوليين القائمين على العدل.

٥- تنسيق العمل من أجل الحفاظ على سلامة الاماكن المقدسة وتحريرها ودعم كفاح الشعب الفلسطيني، ومساعدته على استرجاع حقوقه وتحرير أراضيه.

٦- دعم كفاح جميع الشعوب الاسلامية في سبيل المحافظة على كرامتها واستقلالها وحقوقها الوطنية.

٧- إيجاد المناخ لتعزيز التعاون والتفاهم بين الدول الاعضاء والدول الأخرى.

(ب) المبادىء:

تقرر الدول الاعضاء وتتعهد بأنها في سبيل تحقيق اهداف الميثاق تستوحي المبادىء التالية:

١- المساواة التامة بين الدول الاعضاء.

٢- احترام حق تقرير المصير وعدم التدخل في الشؤون الداخلية للدول الاعضاء.

٣- احترام سيادة واستقلال ووحدة اراضي كل دولة عضو.

٤- حلّ ما قد ينشأ من منازعات فيما بينها بحلول سلمية كالمفاوضة أو الوساطة أو التوفيق أو التحكيم.

٥- امتناع الدول الأعضاء في علاقاتها عن استخدام القوة أو التهديد باستعمالها ضد وحدة وسلامة الاراضي أو الاستقلال السياسي لأية دولة عضو.

هيئات المؤتمر الاسلامي: تنص المادة الثالثة: «يضم المؤتمر الاسلامي: ١-مؤتمر ملوك ورؤساء الدول والحكومات. ٢-مؤتمر وزراء الخارجية. ٣-الامانة العامة والمؤسسات التابعة لها.

وتحدّد المادةا لرابعة (المعدّلة في مؤتمر القمة الاسلامي الثالث) مؤتمر الملوك والرؤساء بقولها إنه «الجهاز الأعلى للمنظمة، يجتمع ملوك ورؤساء الدول والحكومات على مستوى القمة بصفة دورية مرة كل ثلاث سنوات، وحينما تقتضي مصلحة الأمة الاسلامية ذلك للنظر في القضايا العليا التي تهم العالم الاسلامي وتنسيق سياسة

المنظمة تبعًا لذلك».

وقد عقدت المنظمة، حتى اليوم، ثماني مؤتمرات قمة:

– الاول في الرباط (المغرب) في ٢٢-٢٥ ايلول ١٩٦٩.

– الثاني في لاهور (الباكستان) في ٢٢-٢٤ شباط ١٩٧٤.

– الثالث في الطائف (السعودية) في ٢٥-٢٨ كانون الثاني ١٩٨١.

– الرابع في الدار البيضاء (المغرب) في ١٦-١٩ كانون الثاني ١٩٨٤.

– الخامس في الكويت، في ٢٦-٢٩ كانون الثاني ١٩٨٧.

– السادس في داكار (السنغال) في ٩-١٢ كانون الاول ١٩٩١.

– السابع في الدار البيضاء (المغرب) في ١٣-١٤ كانون الاول ١٩٩٤.

– الثامن في طهران (ايران) في ٩-١١ كانون الاول ١٩٩٧.

وتتناول المادة الخامسة مؤتمر وزراء الخارجية أو الممثلين المعتمدين الذي يجتمع «مرة كل سنة أو عند الاقتضاء... بطلب من أي دولة من دول الاعضاء أو بطلب من الامين العام...».

وتتعلق المادة السادسة بالامانة العامة والأمين العام ومهماتهما وصلاحياتهما. وقد شغل منصب الامين العام، حتى الآن، سبعة أمناء عامين، هم:

–تنكو عبد الرحمن (١٩٧٠-١٩٧٣)، وكان رئيسًا للوزراء في ماليزيا.

– حسن التهامي (١٩٧٣-١٩٧٥)، وكان مستشارًا للرئيس المصري.

– أمادو كريم جاي (١٩٧٦-١٩٧٩)، وكان وزيرًا لخارجية السنغال.

– حبيب الشطي (١٩٧٩-١٩٨٥)، وكان وزيرًا لخارجية تونس.

– شرف الدين بير زاده (١٩٨٥-١٩٨٨)، وكان وزيرًا لخارجية الباكستان.

– حامد الغابد (١٩٨٨-١٩٩٦)، وكان رئيسًا للوزارة في النيجر.

– عز الدين العراقي (١٩٩٧-)، وكان رئيسًا للوزارة في المغرب.

أما المادة السابعة فتنص على المالية وعلى «لجنة المالية الدائمة»، والثامنة على عضوية المؤتمر، والتاسعة على عمل الامانة العامة على توثيق علاقات المؤتمر بالهيئات الاسلامية ذات الصفة العالمية، والعاشرة على إجازة انسحاب أي دولة من المؤتمر، والحادية عشرة على إجازة تعديل الميثاق بناء على موافقة وتصديق ثلثي عدد الدول الاعضاء، والثانية عشرة على حل الخلاف بين الدول الاعضاء بالطرق الودية، والثالثة عشرة على ان لغات المؤتمر هي العربية والانكليزية والفرنسية، والرابعة عشرة على مصادقة الدول الاعضاء على هذا الميثاق وعلى انه قد تمّ تسجيله بهيئة الامم المتحدة طبقًا للمادة ١٠٢ من ميثاق الهيئة بتاريخ أول شباط ١٩٧٤.

محكمة العدل الاسلامية الدولية: اعتبرت الجهاز الأساسي الرابع إضافة إلى مؤتمر الملوك والرؤساء ومؤتمر وزراء الخارجية والامانة العامة. ولكنها لا تزال قيد الإنشاء رغم الموافقة عليها في مؤتمر القمة الخامسة في الكويت في ١٩٨٧، «ولعل السبب يعود إلىالتعارض القائم بين هذا النظام الذي يستند إلى احكام الشريعة الاسلامية وبين عدد من الدساتير الوطنية التي تنص على علمانية الدولة، أو لا تشير إلى الأديان على الاطلاق» (د.محمد المجذوب، مرجع مذكور آنفًا، ص٤٦٣).

وجاء في «دليل منظمة المؤتمر الاسلامي» (مرجع مذكور، صادر عن الأمانة العامة للمؤتمر، وقدّم له الامين العام السابق حامد الغابد) ان هذه المحكمة «قيد الانشاء»، وأنها «جهاز قضائي رئيسي لمنظمة المؤتمر الاسلامي... تأسست بناء على قرار المؤتمر الثالث لملوك ورؤساء الدول الاسلامية المنعقد بمكة المكرمة والطائف في المملكة العربية السعودية رقم ٣/١١-س (ق.أ)»، وانها تتألف من «هيئة مكونة من سبعة اعضاء ينتخبهم مؤتمر وزراء الخارجية بناء على ترشيح الدول الاعضاء»، وان مقرها سيكون في مدينة الكويت.

لجنة القدس: هي واحدة، وعلى رأس اللجان المتخصصة التي شكلتها، حتى الآن، منظمة المؤتمر الاسلامي، وعددها ١٥ لجنة، وهي: إلى لجنة القدس، اللجنة الدائمة للاعلام والشؤون الثقافية (كومياك)، اللجنة الدائمة للتعاون الاقتصادي والتجاري (كومسيك)، اللجنة الدائمة للتعاون العلمي والتكنولوجي (كومستيك)، لجنة السلام الاسلامية، اللجنة الاسلامية للشؤون الاقتصادية

والثقافية والاجتماعية، اللجنة الدائمة للشؤون المالية، هيئة الرقابة المالية، اللجنة الخاصة بأفغانستان، لجنة افريقيا الجنوبية وناميبيا (تمّ حلها)، لجنة التضامن الاسلامي مع شعوب الساحل الافريقي، اللجنة الوزارية السداسية لمسلمي الفيليبين، اللجنة السداسية حول فلسطين، فريق الاتصال الخاص بالبوسنة والهرسك، وفريق الاتصال الخاص بجامو وكشمير.

أنشئت لجنة القدس طبقًا للقرار رقم واحد الصادر عن المؤتمر الاسلامي السادس لوزراء الخارجية المنعقد في جدة في تموز ١٩٧٥. وكلف المؤتمر اللجنة العمل على تحقيق الاهداف التالية:

- دراسة تطور الاوضاع في القدس الشريف.
- متابعة تنفيذ قرارات المؤتمر الاسلامي بهذا الشأن.
- متابعة القرارات الصادرة عن مختلف الهيئات الدولية بهذا الشأن.
- الاتصال بمختلف المنظمات الدولية التي قد تساعد في حماية القدس.
- طرح المقترحات امام الدول الاعضاء وكل المنظمات المعنية بشأن الخطوات المزمع اتخاذها لتأمين تنفيذ هذه القرارات ومواجهة المستجدات من الاحداث.

ويرأس اللجنة الملك حسن الثاني، عاهل المملكة المغربية، وتضم في عضويتها ١٥ دولة عضوًا في منظمة المؤتمر يتم انتخابها من قبل المؤتمر الاسلامي لوزراء الخارجية. والدول الاعضاء حاليًا: المملكة المغربية، جمهورية العراق، المملكة الاردنية الهاشمية، الجمهورية اللبنانية، الجمهورية الاسلامية الموريتانية، جمهورية غينيا، دولة فلسطين، الجمهورية العربية السورية، جمهورية بنغلادش الشعبية، الجمهورية الاسلامية الايرانية، جمهورية أندونيسيا، جمهورية النيجر، جمهورية باكستان الاسلامية، جمهورية السنغال، المملكة العربية السعودية وجمهورية مصر العربية.

تجتمع لجنة القدس بدعوة من رئيسها أو من الامين العام للمنظمة.

أجهزة متفرعة ومؤسسات متخصصة: هي ١٧ جهازًا ومؤسسة:

- مركز البحوث الاحصائية والاقتصادية والاجتماعية والتدريب.
- مركز الابحاث للتاريخ والفنون والثقافة الاسلامية.

من اجتماعات لجنة القدس.

- المركز الاسلامي للتدريب الفني والمهني والبحوث.
- المركز الاسلامي لتنمية التجارة.
- المؤسسة الاسلامية للعلوم والتكنولوجيا والتنمية (أفستاد).
- مجمع الفقه الاسلامي.
- المكتب التنفيذي لصندوق التضامن الاسلامي ووقفيته.
- صندوق القدس ووقفيته.
- اللجنة الدولية للمحافظة على التراث الاسلامي.
- الجامعة الاسلامية في النيجر.
- الجامعة الاسلامية في أوغندا.
- الجامعة الاسلامية في بنغلادش.
- الجامعة الاسلامية العالمية في ماليزيا.

الرئيس الايراني محمد خاتمي وولي العهد السعودي الامير عبد الله بن عبد العزيز في مؤتمر القمة الاسلامي (طهران، ١٩٩٧).

من قمم منظمة المؤتمر الاسلامي.

- البنك الاسلامي للتنمية.
- المنظمة الاسلامية للتربية والعلوم والثقافة (إيسيسكو).
- وكالة الأنباء الاسلامية الدولية (إينا).
- منظمة اذاعات الدول الاسلامية (أسبو).

أما المؤسسات المنتمية لمنظمة المؤتمر الاسلامي فهي سبع منظمات:

- الغرفة الاسلامية للتجارة والصناعة.
- منظمة العواصم والمدن الاسلامية.
- الاتحاد الرياضي لألعاب التضامن الاسلامي.
- اللجنة الاسلامية للهلال الدولي.
- الاتحاد الاسلامي لمالكي البواخر.
- الاتحاد العالمي للمدارس العربية الاسلامية الدولية.
- الاتحاد الدولي للبنوك الاسلامية.

مؤتمر قمة المنظمة الثامن، إعلان طهران ١٩٩٧: عقدت المنظمة الدورة الثامنة لمؤتمر القمة الاسلامي في طهران، في ٩-١١ كانون الاول ١٩٩٧. وفي نهاية الدورة صدر «إعلان طهران» الذي أعرب فيه الملوك والرؤساء عن:

- تمسكهم الكامل بفكرة التوحيد باعتبارها الأساس الحق للحرية المسؤولة للانسان.
- اخلاصهم لتعاليم الاسلام التقدمية التي تحقق التوازن الدقيق بين الأبعاد الروحية والمادية للحياة الانسانية وبين الحرية والانعتاق، على أساس من التسامح والرحمة والحكمة والعدل والمشاركة.
- عزمهم الأكيد على تنفيذ مقاصد ومبادىء ميثاق المنظمة، لا سيما ما يتعلق منها بوحدة وتضامن الأمة الاسلامية وحماية القيم والمبادىءالاسلامية.
- عزمهم على تحقيق التطلعات المشروعة للدول والشعوب الاسلامية نحو السلام والأمن، وكذلك التنمية الشاملة والمتوازنة والمستدامة، من خلال المشاركة النشيطة وإقرار الحق الأساسي في تقرير مصير الشعوب التي ترزح تحت نير الاستعمار أو السيطرة الاجنبية أو الاحتلال الأجنبي.
- إدراكهم أهمية الحفاظ على هوية الأمة والتمسك بتقاليدهم وتراثهم التاريخي، باعتباره عاملاً أساسيًا في تماسك نسيج المجتمع وتعزيز الاستقرار الاجتماعي.
- تأكيدهم ضرورة التفاعل والتحاور والتفاهم على نحو إيجابي بين الثقافات والأديان، ورفض نظريات أنصار الصدام والنزاع التي تولّد عدم الثقة وتقلّص أرضية التفاعل السلمي بين الدول. وتضمن الاعلان خمسة بنود رئيسية:

١- يتعلق أولها بالتضامن والأمن في العالم الاسلامي. وقد تضمن تعهدًا رسميًا بتعزيز التضامن والسلام والأمن داخل العالم الاسلامي، ووعدًا بانشاء سوق اسلامية مشتركة، وإدانة لأستمرار اسرائيل في احتلال الاراضي العربية وممارستها إرهاب الدولة، ودعوة إلى إعادة النظر في أي تعاون عسكري مع اسرائيل، وإلى جعل الشرق الاوسط منطقة خالية من جميع الاسلحة النووية وأسلحة الدمار الشامل، وإلى ضرورة انضمام اسرائيل إلى معاهدة حظر الانتشار النووي، وإلى ضرورة استعادة مدينة القدس وحصول الشعب الفلسطيني على حق تقرير المصير وإقامة دولة فلسطينية مستقلة ذات سيادة. وتضمّن البند المذكور، كذلك، تأكيد التضامن مع شعب البوسنة، واستنكار استمرار النزاع والعنف في أفغانستان، ورفض عدوان أرمينيا على أذربيجان، وتأييد حق تقرير المصير لشعب كشمير، وإدانة الارهاب في جميع صوره ومظاهره مع الاعتراف بحق الشعوب الرازحة تحت السيطرة الاجنبية في تقرير مصيرها، والاعلان بأن الاسلام يحرّم قتل الأبرياء، والتصميم على إبرام معاهدة لمكافحة الارهاب الدولي، ودعوة المجتمع الدولي الامتناع عن توفير الملجأ للارهابيين، والتعهد بتقديم الدعم الكامل للجماعات والأقليات المسلمة في البلدان غير الاسلامية بالتعاون مع حكوماتها.

٢- وجاء في البند الثاني المتعلق ببعث الحضارة الاسلامية والهوية الاسلامية ان بعث هذه الحضارة يمثل واقعًا عالميًا سلميًا، وان الحضارة الاسلامية تقوم، بشكل ثابت، عبر التاريخ، على التعايش السلمي والتعاون والتفاهم المتبادل بين الحضارات، وكذلك على التحاور البنّاء مع الديانات والأفكار الأخرى. ولهذا أعرب المشاركون في المؤتمر عن قلقهم إزاء الاتجاهات التي تصوّر الاسلام على انه يشكل تهديدًا للعالم، ونددوا بمظاهر الغزو الثقافي وتجاهل التقاليد الدينية والثقافية للشعوب الأخرى، وقرروا الاستفادة من المنجزات التكنولوجية في مجال الاعلام والاتصالات لتقديم ثقافة الاسلام الغنية ومبادئه الخالدة إلى البشرية جمعاء.

٣- وفي البند الثالث المتعلق بالتنمية الشاملة والمتوازنة والمستدامة، رأى المشاركون ان هذه التنمية مسألة

حيوية بالنسبة إلى العالم الاسلامي ومستوحاة من مبادىء الاسلام وقيمه النبيلة، وأكدوا تأييدهم لأهداف ومبادىء إعلان القاهرة بشأن حقوق الانسان في الاسلام، وقرروا اتخاذ التدابير اللازمة لاضفاء الصفة المؤسسية على هذا الاعلان والعمل به. ولم ينسوا تأكيد احترامهم الكامل لكرامة المرأة المسلمة وحقوقها وتعزيز دورها في كل أوجه الحياة الاجتماعية وفقًا لمبادىء الاسلام.

٤- وفي البند الرابع المتعلق بالمشاركة الدولية، رحّب المؤتمرون بمشاركة الامين العام للامم المتحدة (كوفي أنان) في قمة طهران، كتعبير عن العلاقة الممتازة بين المنظمة العالمية ومنظمة المؤتمر الاسلامي، وأكدوا ضرورة ان يكون لمنظمة المؤتمر دور وتمثيل في أجهزة الامم المتحدة، وخاصة في مجلس الأمن، واعتبروا ان المشاركة الفعالة والبنّاءة والهادفة للبلدان الاسلامية في ادارة الشؤون الدولية تُعدّ عاملاً جوهريًا لصيانة السلام والأمن في العالم، ولإقامة النظام العالمي الجديد على أساس المساواة والعدل وتقاسم الرخاء وتعزيز القيم الاخلاقية والسماوية.

٥- وفي البند الخامس المتعلق بتدعيم منظمة المؤتمر الاسلامي، أعرب المشاركون عن عزمهم على تقديم الدعم لاصلاح تلك المنظمة وإعادة هيكلتها من أجل رفع مستوى فعاليتها وكفاءتها وتحقيق تكيفها المستمر مع تطور الظروف الدولية.

وبالاضافة إلى إعلان طهران، فقد أصدر القادة في المؤتمر مدوّنة سلوك للعلاقات بين الدول الاعضاء في المنظمة، أُطلق عليها إسم «بيان رؤية طهران». وفي هذا البيان أعلنوا عزمهم على الالتزام الكامل بتوطيد اواصر القربى والتضامن والتفاهم استنادًا إلى تعاليم الاسلام السامية، والتزامهم، كذلك، بعض المبادىء الأساسية، مثل: احترام سيادة الدول، ورفض اللجوء إلى القوة، ورفض التدخل بشؤون الغير، وعدم جواز انتهاك الحدود المعترف بها دوليًا، وضرورة تسوية المنازعات سلميًا، ومساندة كفاح الشعوب الخاضعة للاستعمار أو الاحتلال، والتعاون على حماية البيئة ومكافحة الارهاب والإتجار بالمخدرات، وتوسيع وتعميق التبادل التجاري والاقتصادي بين الدول الاعضاء (عن د.محمد المجذوب، مرجع مذكور، ص٤٦٨-١٤٧١ وراجع نص «إعلان طهران» في الصحف الصادرة في ١٢ كانون الاول ١٩٩٧، كما راجع مختلف المقالات التحليلية المنشورة في ايام عقد هذه القمة وبعيدها، منها مقالة سليم نصار-كاتب وصحافي لبناني-«الحياة»، العدد١٢٧٠٦، تاريخ ١٣ كانون الاول ١٩٩٧، ص٤٧ ومقالة حيدر ابراهيم علي-كاتب سوداني مقيم في مصر- «الحياة»، العدد ١٢٧٤٨، تاريخ ٢٦ كانون الثاني ١٩٩٨، ص١٩).

المؤتمر الخامس والعشرون لوزراء خارجية المنظمة، بيان الدوحة ١٩٩٨: «إن عملية السلام في حال انهيار بسبب تعنت نتانياهو». بهذه الكلمات لخص حمد بن جاسم بن جابر آل ثاني وزير الخارجية القطري موقف ٥٥ من وزراء خارجية الدول الاسلامية إثر انتهاء مؤتمرهم الخامس والعشرين في الدوحة عاصمة قطر (آذار ١٩٩٨).

ودعا البيان الختامي لهذا المؤتمر راعيي عملية السلام (الولايات المتحدة وروسيا) إلى الضغط على اسرائيل كي تلتزم بالقانون الدولي وقرارات الامم المتحدة، والتوقف عن سياسة الاستيطان في القدس وباقي الاراضي الفلسطينية المحتلة.

وحث الوزراء، في بيانهم، الدول الاسلامية التي شرعت في اتخاذ خطوات تجاه العلاقات مع اسرائيل في إطار عملية السلام إلى إعادة النظر في هذه العلاقات بما في ذلك إقفال البعثات والمكاتب إلى ان يتم انسحاب اسرائيل الكامل من جميع الاراضي العربية المحتلة وضمان الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني بما فيها حقه في إقامة دولته المستقلة على أرض وطنه فلسطين وعاصمتها القدس الشريف.

ودعا البيان إلى العمل من اجل وقف كل الاجراءات والممارسات التي تقوم بها سلطات الاحتلال الاسرائيلي في مدينة القدس الشريف والهادفة إلى تغيير الوضع الجغرافي والسكني وانتهاك حرمة الاماكن المقدسة الاسلامية والمسيحية فيها بهدف تهويد المدينة المقدسة.

وتناول البيان إشارة بالاتفاق الذي عقده الامين العام للامم المتحدة كوفي أنان مع العراق لإنهاء أزمة التفتيش عن أسلحة الدمار الشامل في العراق؛ ودعوة العراق إلى التعاون مع اللجنة الدولية للصليب الأحمر في تنفيذ بنود قرارات مجلس الأمن الخاصة باطلاق سراح الأسرى والمحتجزين الكويتيين وإعادة الممتلكات الكويتية.

وشجب البيان أعمال القمع التي تمارس ضد السكان العزل من المسلمين في كوسوفو، ودعا إلى وضع حد فوري لانتهاكات حقوق الانسان هناك والعمل على إلغاء جميع التشريعات التمييزية وخاصة تلك التي أصبحت سارية المفعول منذ عام ١٩٨٩.

وحث البيان على تعليق العقوبات على ليبيا إلى ان يصدر حكم محكمة العدل الدولية بالفصل في القضية المعروضة عليها (قضية طائرة لوكربي) طبقًا لميثاق الامم المتحدة.

اعتبر هذا المؤتمر (الخامس والعشرون لوزراء خارجية منظمة المؤتمر الاسلامي) الخطوة التحضيرية الأولى للقمة الاسلامية المقرر عقدها في الدوحة عام ٢٠٠٠.

تقويم (مناقشة)

(يتناول هذا الموضوع الأخير من باب «منظمة المؤتمر الاسلامي» ثلاث نقاط: الاولى، مسألة العضوية في المنظمة؛ الثانية، عمل المنظمة؛ والثالثة، حول قمة طهران. والنقاط الثلاث عن د. محمد المجذوب، في كتابه الأكاديمي «التنظيم الدولي»، الدار الجامعية، ١٩٩٨، ص٤٦١، ٤٦٤-٤٦٨، و٤٧١-٤٧٣).

١- مسألة العضوية: عالج ميثاق المنظمة مسألة العضوية في مادتين، الثامنة والعاشرة، فاعتبر ان المنظمة تتكون من الدول التي شاركت في مؤتمر ملوك ورؤساء الدول والحكومات الاسلامية في الرباط، والدول التي شاركت في مؤتمر وزراء الخارجية في جدة وكراتشي، ووقعت الميثاق. ونصّ على انه يحق لكل دولة اسلامية الانضمام إلى المنظمة إذا تقدمت بطلب يتضمن رغبتها واستعدادها لتبني الميثاق، وإذا وافق مؤتمر المنظمة على الطلب باكثرية ثلثي الاعضاء.

لكن الميثاق لم يحدّد «الدولة الاسلامية». إلا انه يتضح من نص المادة الثامنة ان شرط العضوية يخضع لمعيار عقائدي. فالدولة المرشحة للعضوية يجب ان تكون دولة اسلامية، بغض النظر عن موقعها أو ارتباطاتها السياسية أوخياراتها الاقتصادية. ولكن ما هو التعريف الدقيق للدولة الاسلامية؟ هل هي الدولة التي ينص دستورها على ان الاسلام هو دين الدولة؟ أم الدولة التي تقيم فيها أكثرية اسلامية؟ أم الدولة التي تضم نسبة معقولة من المسلمين (لا تقل عن ٢٠٪ من عدد سكانها، مثلاً)؟ أم الدولة التي تطبق الشريعة الاسلامية، أو تعتبرها المصدر الوحيد أو الرئيسي للتشريع فيها؟.

إن الميثاق لا يجيب عن هذه التساؤلات ولا يضع معيارًا واضحًا وحاسمًا للعضوية. ولكن الممارسة تؤكد ان المعيار سياسي محض. فقد حُرمت الدول التي اعتنقت أنظمتها العقيدة الماركسية من الانتساب إلى المنظمة. ولم تُقبل الهند حتى الآن في عضوية المنظمة بسبب معارضة باكستان، مع ان في الهند أكثر من ١٠٠ مليون مسلم. وقُبلت دولتا أوغندا والغابون في العام ١٩٧٤، بسبب اعتناق الرئيسين فيهما الاسلام.

وأجاز الميثاق الانسحاب من المنظمة بإشعار خطي. ومع انه لم يتضمن عقوبات ضد الدول الاعضاء التي تخالف احكامه، فقد أقدم المؤتمر على تعليق عضوية بعض الدول في المنظمة، مثل: تعليق عضوية أفغانستان (خلال ١٩٨٠-١٩٩٠) بسبب موافقة حكومتها على الغزو السوفياتي لبلادها. وتعليق عضوية مصر (خلال ١٩٧٩-١٩٨٤) على إثر زيارة رئيسها، أنور السادات، الكيان الصهيوني وتوقيعه إتفاقي كامب ديفيد ثم معاهدة السلام مع هذا الكيان.

٢- عمل المنظمة: لقد شهد العالم، خلال ربع قرن من عمر منظمة المؤتمر الاسلامي، احداثًا وتطورات ضخمة ومتلاحقة، إقليميًا ودوليًا، ألقت بظلالها (واحيانًا ثقلها) على وضع المنظمة ومسيرتها وتطورها. واستطاعت المنظمة، رغم الصعوبات والعراقيل، ان تبلور لنفسها رؤية اسلامية واضحة للعلاقات الدولية، وتظهر على المسرح الدولي كممثلة مرموقة للمجموعة الاسلامية، وكعنصر مهم في تحقيق التفاعل والتقارب بين السياسات الخارجية للدول الاعضاء، وفي التعامل المعتدل مع مختلف القضايا المهمة والملحة. واستطاعت كذلك ان تحتل مكانًا متميزًا في صفوف المنظمات الدولية، وتنتهج سياسة مستقلة عن سياسات تلك المنظمات عبر مواقفها من التطورات العالمية والاقليمية.

وأدّى الاصرار على عقد مؤتمرات القمة بانتظام في موعدها إلى الحفاظ على تماسك المنظمة واستمرارها. وكان من نتائج اللقاءات الدولية بين الملوك والرؤساء تحقيق التواصل بين القادة والإسهام في إيجاد الحلول لكثير من الخلافات. ويمكننا تقويم أداء المنظمة انطلاقًا من الجهود والأنشطة التي قامت بها في المجالات السياسية والاقتصادية والثقافية.

- فعلى الصعيد السياسي، كانت القضية الفلسطينية هي الهاجس الاول للمنظمة. وقد حاولت ان تجعل منها القضية المركزية لكل المسلمين، وليس للعرب فقط. ففي قمة لاهور للعام ١٩٧٤، أعلنت رفضها لكل اتفاق يعترف بالاحتلال الاسرائيلي للقدس. وفي العام

١٩٧٩، أنشأت صندوق القدس. وعندما أعلنت اسرائيل القدس عاصمة لها وطالبت السفارات الاجنبية بالانتقال إليها، أقنعت المنظمة بعض أعضائها بقطع العلاقات الدبلوماسية أو تجميدها مع اسرائيل. وعندما نُودي بالدولة الفلسطينية المستقلة في فلسطين، أيدّت المنظمة هذه الفكرة.

وتدخلت المنظمة في بعض المنازعات الثنائية بقصد حلّها، فحققت بعض النجاح، مثل المصالحة بين الباكستان وبنغلادش في ١٩٧٤. وقدمت مساعدات جمة إلى دول الساحل الافريقي التي أصابها الجفاف. وتضامنت مع شعب ناميبيا لنيل استقلاله، ومع شعب جنوب افريقيا لإلغاء النظام العنصري السائد في بلاده. وأغدقت المعونات على اللاجئين في أريتريا وأوغندا والصومال والتشاد.

و لم تتوانَ المنظمة في الدفاع عن الاقليات المسلمة في الفيليبين وبلغاريا والبوسنة، والاهتمام بمصير أكثر من ٣٠٠ مليون مسلم يعيشون في دول غير إسلامية، وإجراء المشاورات مع الدول المعنية لتأمين احترام حقوقهم وحرياتهم.

وسعت، من جهة أخرى، لترطيد العلاقات بالأسر الروحية الأخرى، وفي طليعتها الأسرة المسيحية، فأجرت مباحثات مع الفاتيكان، وأوضحت للعالم جوهر الاسلام باعتباره دين التسامح والعدالة والسلام. وفي مؤتمر وزراء الخارجية للعام ١٩٩٢، اقترحت عدة دول إصدار بيان بإدانة العنف أو الارهاب الداخلي للدفاع عن صورة الاسلام الصحيحة التي تعرّضت للتشويه من قبل الحركات المتطرفة.

غير ان المنظمة لم تتمكن، رغم هذه الانجازات، من تحقيق الاجماع والتوافق، والتوصل تاليًا إلى الحلول العادلة، في العديد من النزاعات والقضايا التي عصفت بالعالم الاسلامي. ونذكر منها على سبيل المثال:

احتلال أفغانستان من قبل السوفيات (١٩٧٩-١٩٨٩) واختلاف الدول الثلاث المعنية بالأمر (السعودية وايران وباكستان) على مستقبل البلد.

عجز المنظمة، وكذلك عجز الامم المتحدة، خلال ثماني سنوات، عن وضع حد للحروب التي دارت بين العراق وايران. وعجزها كذلك، عند اندلاع أزمة الخليج في ١٩٩٠ (دخول العراق إلى الكويت)، عن اقناع العراق بسحب قواته قبل انفجار الوضع العسكري في المنطقة.

- على الصعيد الاقتصادي، تمكن مؤتمر لاهور (١٩٧٤) من إرساء قواعد الاهداف الاقتصادية للمنظمة. وقد تجلّى ذلك في محاولات تعزيز التعاون بين الاعضاء بغية وضع حد للتخلف، وتوفير الرقابة على مصادرها الطبيعية، وتنظيم عملية المبادلات فيما بينها، والحد من نتائج تقلبات الأسعار، والدفاع عن حقوق العالم الثالث داخل النظام الاقتصادي العالمي. ولتحقيق هذه الاغراض عُقدت مؤتمرات وقدّمت توصيات وأبرمت اتفاقيات وأنشئت أجهزة.

ومن أهم الأجهزة البنك الاسلامي للتنمية المنشأ في ١٩٧٤، والذي يتميز بخضوع أنظمته ومعاملاته لأحكام الشريعة الاسلامية. وهو يضم جميع أعضاء المنظمة. والإكتتاب الأكبر فيه يأتي من الدول المنتجة للنفط (تسهم السعودية في ٢٥٪ من رأسماله). ويوجّه البنك عناية فائقة إلى الدول الاسلامية الفقيرة، فيموّل البنى التحتية فيها والمشاريع الزراعية والصناعية، ويقدّم المساعدات للمصارف والشركات، ويؤمّن الاعتمادات لشراء النفط، ويدعم ماليًا المؤسسات الثقافية، ويغيث ضحايا الكوارث.

وعلى الصعيد الاجتماعي والثقافي، سعت المنظمة للحفاظ على قيم الاسلام والتراث المجيد لحضارته، وتعزيز التعاون والتضامن بين الدول الاعضاء، وإعطاء الهوية الاسلامية صورة تتلاءم مع مستجدات العصر، وتشييد نهضة العالم الاسلامي على أسس متينة.

ولتحقيق هذا الغرض أنشيء، في ١٩٧٤، صندوق التضامن الاسلامي لتقديم كل انواع المعونات للمسلمين. ولتلبية طلبات المعونات خصص وقف بمقدار مئة مليون دولار. وبفضل هذه المصادر أنشئت سلسلة من المؤسسات، من ضمنها: مركز بحوث التاريخ والفنون والحضارة الاسلامية، ومجمع الفقه الاسلامي، وجامعتان اسلاميتان في النيجر وأوغندا، ومعاهد ومدارس ومساجد ومستشفيات ومراكز ثقافية وبيوت للطلبة في مختلف انحاء العالم.

وساعدت المصادر المالية المذكورة على تمويل إنتاج أفلام، ونشر مطبوعات وموسوعات، وتنظيم ندوات ومؤتمرات ولقاءات. وكلها موجهة لمعالجة القضايا المتعلقة بمستقبل المجتمعات الاسلامية والحضارة الاسلامية والتراث التاريخي الاسلامي.

٣- **قمة طهران**: لقد كانت قمة طهران من أنجح القمم الاسلامية على الاطلاق، حتى ان البعض رأى فيها قمة فاصلة أو مفصلية توحي برغبة في التأسيس لمرحلة جديدة، بنّاءة وإيجابية، على صعيد العلاقات بين دول المنظمة. ولعل أسباب نجاحها يعود إلى الأمور التالية:

– عقد القمة في ايران، أي في البلد الذي يواجه منذ عقدين حملة أو هجمة اميركية لا حدود لشراستها.

– مشاركة دول تعتبر تقليديًا من أقرب المقربين للولايات المتحدة، ودول اتسمت علاقاتها بايران، لسنوات خلت، بالتوتر الشديد.

– فتح باب الحوار والتفهم والتفاهم على مصراعيه امام دول باعدت بينها الدسائس والمؤامرات والتدخلات الاجنبية.

– تغليب منطق الاعتدال والتعقل على التطرف والتزمت والعناد، وتوخي تحقيق الحد الادنى من التضامن بين الاعضاء للوقوف في وجه الصلف الاسرائيلي.

اعتبار نجاح القمة ردًا على المؤتمر الاقتصادي الرابع للشرق الاوسط وشمال افريقيا، الذي عقد في الدوحة (قطر) في اواسط تشرين الثاني ١٩٩٧، وشاركت فيه اسرائيل (بضغط من واشنطن) وقاطعته غالبية الدول العربية.

– نجاح القمة في إخراج ايران من عزلتها، وإزالة الكثير من الحواجز التي أقيمت بينها وبين دول الجوار العربي والاسلامي.

– نجاح القمة في إعادة شيء من «حرارة الايمان والتضامن» إلى العلاقات بين دول تعتنق عقيدة سماوية واحدة، وتواجه اخطارًا خارجية وداخلية متشابهة.

– نجاح القمة، على الرغم من بعض الاعتراضات والعراقيل، في ان توجّه، بالمواقف التي اتخذتها في إعلان طهران وفي بيان رؤية طهران (راجع أعلاه)، رسالة استياء إلى الولايات المتحدة لانحيازها المطلق والدائم إلى اسرائيل.

ومع ذلك، يبقى السؤال المعهود الذي يطرح في مثل هذه الحالات: هل ستجد القرارات الصادرة عن مؤتمر القمة طريقها إلى التنفيذ؟

إننا نعلم ان قرارات القمة الاسلامية غير ملزمة لاعضائها إلا إذا رغب العضو، بارادته الحرة، في التزامها. فهذه القرارات هي، في الواقع، توصيات أو توجهات قد يكون لها تأثير معنوي فقط. وهي قد تساعد على إدخال تبديل في المناخات والأجواء السائدة، ولكنها لن تُحدث تغييرًا في سياسات الاعضاء، لأن لكل دولة مصالح وارتباطات والتزامات يصعب، في وقت قريب، التخلي عنها أو التنصّل منها.

ثم إن التجارب تثبت ان الدول الاستعمارية الكبرى لا تتخلى بسهولة عن مخططاتها وأطماعها. ولهذا فإن واشنطن لن تقف مكتوفة اليدين امام ما حدث في طهران، بل ستعمل جاهدة على إجهاض كل مفاعيل القمة الاسلامية، لكي تبقى ايران تحت الحصار والاحتواء، ولكي تبقى الرابطة الاسلامية وهمًا يداعب المخيلات، ولكي تبقى اسرائيل قوة فاعلة في قلب المنطقة العربية والاسلامية تخدم مصالح سيّدها وولي أمرها. وليس من المستبعد ان تعمد واشنطن (إن لم تكن قد عمدت فعلاً) إلى الضغط على حلفائها من الدول الاعضاء، واستعمال جميع اساليب الترهيب والترغيب، للقضاء على أية محاولة ترمي إلى التقيد بقرارات القمة الاسلامية.

الحوار الاسلامي–المسيحي

(مرجعا هذا الباب الأساسيان: محمد السمّاك، «مقدمة إلى الحوار الاسلامي–المسيحي»، دار النفائس، بيروت، ١٩٩٨، ط١؛ والدكتور سعود المولى، «الحوار الاسلامي–المسيحي، ضرورة المغامرة»، قدّم له الشيخ محمد مهدي شمس الدين، دار المنهل اللبناني، بيروت، ١٩٩٦، ط١).

المنطلقات الاولى: بعد ان استتب الأمر لرسول الله، وبدأ إرساء القاعدة الاولى للدولة الاسلامية، استقبل في بيته وفد مسيحيي نجران. أثناء اللقاء حان وقت صلاتهم، فدعاهم الرسول إلى أدائها في بيته، إلا أنهم آثروا أداء الصلاة خارج البيت، فكان لهم ما أرادوا. استؤنف اللقاء بعد الصلاة وانتهى كلٌّ على دينه وعلى معتقده، فودّعهم الرسول بمثل ما استقبلهم به من حفاوة وترحيب.

صدر بعد ذلك عن النبي عهد للنصارى، وشهد عليه كبار الصحابة، منهم الخلفاء الاربعة أبو بكر وعمر

وعثمان وعلي. يقول العهد النبوي (السمّاك، عن «مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة»، جمعها محمد حميد الله، دار النفائس، بيروت، ط٦، ١٩٨٧، ص٥٦١): «وإن احتمى راهب أو سائح في جبل أو واد أو مغارة أو عمران أو سهل أو رمل أو ردنة أو بيعه، فأنا أكون من ورائهم ذابًّا عنهم من كل عدة، لهم بنفسي وأعواني وأهل ملتي وأتباعي كأنهم رعيتي وأهل ذمتي، وأنا أعزل عنهم الأذى...». إلى ان يقول: «ولا يغير أسقف من أسقفيته... ولا سائح من سياحته... ولا يهدم بيت من بيوت كنائسهم... ولا يدخل شيء من مال كنائسهم في بناء مسجد ولا في منازل المسلمين. فمن فعل شيئًا من ذلك فقد نكث عهد الله وخالف رسوله...».

تواصل الحوار الاسلامي-المسيحي بعد ذلك في عهود متعددة، وخاصة في العهدين الأموي والعباسي، ولعل من أبرز معالمه الحوار الشهير، في القرن الثامن، بين الخليفة العباسي المهدي والبطريرك تيموثي الأول، كما تواصل في ظل أوضاع وظروف مختلفة، ولعل أبرزه الحوار الذي جرى أثناء حروب الفرنجة «الحملات الصليبية» في ١٢١٩ في مدينة دمياط بمصر، بين السلطان الأيوبي الملك الكامل والقديس فرنسيس، المتحدر من مدينة أسيزي في ايطاليا. وقد أطلقت منظمة سانت جيديو من هذه المدينة، وفي ذكرى القديس فرنسيس الأسيزي (مؤسس أخوية الفرنسيسكان) حركة جديدة للحوار بين الأديان في ١٩٨٦، برعاية ودعم البابا يوحنا بولس الثاني.

الحوار في الوقت الراهن

المجمع الفاتيكاني الثاني: يشكل هذا المجمع (٢١ تشرين الثاني ١٩٦٤-٢٨ تشرين الاول ١٩٦٥) المحطة الأبرز في مسيرة الحوار الاسلامي-المسيحي. ذلك ان المجمع تحدث، في القسم الثالث من الوثيقة التي صدرت عنه، عن الاسلام بإيجابية وانفتاح مناقضًا بذلك ما ورد في رسالة البابا الأسبق بيوس الثاني عشر في ١٩٥٧، والتي وصفت انتشار الاسلام في افريقيا بأنه «خطر على الكنيسة»، كما وصفت الحضور الاسلامي العالمي بأنه حضور كارثي لا يقل خطرًا عن الشيوعية (السمّاك، مرجع مذكور آنفًا، عن Histoire Universelle des missions Catholiques, Vol.3-4 Paris, 1958-1959,p.176).

وقد جاء في دراسة أعدها الأب جوزف كوك ولويس غارديه وقدّم لها الكاردينال ماريللا المسؤول عن أمانة شؤون غير المسيحيين في الفاتيكان، ووُضعت في الأساس لتنفيذ مقرارات المجمع المسكوني الثاني (السمّاك، عن «من أجل حوار اسلامي-مسيحي، موقف المسيحية من الاسلام كما حدّده الفاتيكان»، للأب جوزف كوك ولويس غارديه، ترجمة د.سليم اليافي وزهير مارديني-دار الجديد، ١٩٨٣، ص٣١):

«(...) وباختصار، يجب ان نعي، بكل موضوعية، أن المسيحيين لم يحققوا بعد، كمجموعة، الشرط الأول والأهم الذي يؤهلهم لأن يكونوا موجودين وحاضرين في عالم المسلمين كما هو، وعلى حقيقته (...) ولا يمكن استقبال الانسان الآخر إلا إذا كنا نعرفه، وأولى مهام المسيحي هي التعرف على شريكه المسلم، لا كما هو بكل بساطة بل كما يريد ان يكون، وهذه المعرفة يجب ان لا تكون معرفة عالم الاجتماع، وهي معرفة جافة وغير حارة، ولكن يجب ان تكون معرفة الصديق للصديق الذي يعمل على ان يكتشف في صديقه كل ما هو حسن وجيد، وعلى ان يحبه حبًا صادقًا».

الجدير ذكره أن البابا الذي أطلق هذا المجمع الفاتيكاني الثاني، في ١٩٦٤، على أساس حوار «المحبة والصداقة الحارة» مع الاسلام هو البابا بولس السادس. كما يمكن القول ان هذا المجمع بدأ، في ١٩٦٤-١٩٦٥، بوضع نهاية لـ٨٧٠ سنة من العداء والتباعد اللذين رسّخا نوعًا من فصل عامودي بين الاسلام والمسيحية، خاصة المسيحية الغربية (إذ إن المسيحية الشرقية، وخاصة منها طائفة الروم الأرثوذكس، كانت تحرص دائمًا على تمييز جوانب من معتقداتها الدينية، ومواقفها في مختلف الشؤون الاجتماعية والسياسية عن المسيحية الغربية بقسميها الكبيرين، الكاثوليكية والبروتستانتية)، هذا الفصل الذي بدأ في ١٠٩٥، أي في اللقاء الديني الموسع في أحد أديرة بلدة كليرمونت الواقعة في جنوبي فرنسا حيث ألقى البابا أوربان الثاني (وكان فرنسيًا) خطابًا اعتبره المؤرخون إعلانًا للحروب الصليبية.

وقد عكس البابا بولس السادس هذه الروح في رسالة وجهّها تحيةً أخوية إلى المسلمين أثناء زيارته القدس وعمان، مرورًا ببيروت، في كانون الثاني ١٩٦٤، حيث أكّد على «احترام أولئك الذين يعتنقون الأديان التوحيدية، والذين يعبدون معنا إلهًا حقيقيًا وواحدًا».

نحو جعل الحوار مؤسسة مستديمة وراسخة: أما الترجمة العملية الاولى لبيان المجمع الفاتيكاني الثاني فتمثلت في إنشاء الامانة العامة لشؤون الديانات غير المسيحية، والتي

حدّد البابا مهمتها في رسالة كنسية جامعة وهي «إجراء الحوار مع كل المؤمنين لإرساء علاقات جديدة بين الكنيسة والديانات الأخرى، وعلى ضرورة التقارب بصفة خاصة مع المسلمين». ولقد دلّت هذه الرسالة، لأول مرة، على ان ثمة مؤمنين با لله غير مسيحيين، وان ثمة أديانًا غير المسيحية، كما دلّت على توجه من رأس الكنيسة حتى قاعدتها على ضرورة الحوار والتقارب مع المسلمين. وفي السياق نفسه، وفي خطوة حوارية متقدمة، صدر عن البابا الحالي، (١٩٩٨) يوحنا بولس الثاني، بأن الخلاص ليس وقفًا على المسيحية وحدها، وان الخلاص يمكن ان يتحقق من خلال أديان أخرى مستندًا في ذلك على دراسة أعدتها مجموعة من علماء اللاهوت أمثال رانير، فون بالتزار، دي لوباك، ودانيال.

هذا الموقف الفاتيكاني فتح، منذ ١٩٦٤-١٩٦٥، بوابات الكنائس الأخرى على الاسلام، ولعل أهمها بوابة مجلس الكنائس العالمي (مقره في جنيف) الذي أنشأ في ١٩٧١ دائرة للحوار مع الأديان، وخاصة مع الاسلام. وكان المجلس قد أقام أول مؤتمر له في آذار ١٩٦٩ في كارتيني Cartigny (قرب جنيف) خصص لموضوع الحوار بين الأديان على المستوى العالمي. وبعد عشر سنوات، في ١٩٧٩، صدرت عن المجلس وثيقة تضمنت المبادىء العامة للحوار مع أهل الأديان الحية حاولت إبراز القضايا الفقهية-اللاهوتية والقضايا العملية للحياة المشتركة بين المؤمنين بالاديان المختلفة. ومن هذه المبادىء (عددها ١٣)، جاء المبدأ السابع ليؤكد على ضرورة وأهمية مأسسة الحوار: «يتحتم متابعة الحوار من خلال قيام مؤسسات مشتركة في المجتمع»، والمبدأ الحادي عشر: «يتحتم التخطيط للحوار وتنفيذه بصورة جماعية عندما يكون ذلك ممكنًا»، والمبدأ الثاني عشر: «يتطلب التخطيط للحوار وضع أسس عامة له، محلية وإقليمية».

وتتابعت اللقاءات والمؤتمرات والندوات الاسلامية-المسيحية، وانعكست إيجابًا على موقف مجلس بطاركة الشرق الكاثوليك الذي أصدر رسالة راعوية شدّد فيها على أهمية «التراث الحضاري المشترك»، وعلى «ان التراث العربي المسيحي هو الوجه المشرق لهذا الغنى الثقافي في الكنائس المسيحية المختلفة في ظل الحضارة العربية» (السمّاك: راجع: «البيانات المسيحية-الاسلامية المشتركة من ١٩٥٤ إلى ١٩٩٢، معهد الدراسات الاسلامية-المسيحية، جامعة القديس يوسف، بيروت، ١٩٩٥).

مساحة فراغ حواري قلّصها مؤتمر بيروت

١٩٩٦: ثمة أمر مهم بارز وهو ان الحوار يكاد يكون محصورًا مع الكنيسة الكاثوليكية. فالجسور الحوارية لم تمتد بعد بقدر مماثل مع الكنائس الأخرى، وخاصة مع الكنيسة الأرثوذكسية سواء في اسطنبول أو في موسكو، ومع الكنائس الإنجيلية في الولايات المتحدة. يقلّل من حجم هذا الفراغ الحواري الدور الذي يقوم به مجلس كنائس الشرق الاوسط (مقره في ليماسول، قبرص). فالمجلس الذي يضم الكنائس الشرقية المتعددة، يحرص على إقامة جسور من الحوار والتفاهم مع المجتمعات الاسلامية في الاقطار العربية ثقافيًا واجتماعيًا وحتى سياسيًا، ولعل من أبرز انجازاته مؤتمر «مسلمون ومسيحيون معًا من أجل القدس»، الذي عقد في بيروت في ١٤-١٦ حزيران ١٩٩٦ بدعوة من مجلس كنائس الشرق الأوسط بالتعاون مع الفريق العربي للحوار المسيحي-الاسلامي؛ وهو المؤتمر الذي جمع، ربما لأول مرة، المرجعيات الدينية الاسلامية والمسيحية من دول عربية مختلفة تحت سقف واحد، وحول هدف واحد وموقف واحد عكسه البيان المشترك الذي صدر عن المؤتمر.

جاء في مستهل البيان: «مدفوعين بعذابات القدس، إنسانًا وأرضًا مباركة، متضامنين مع لبنان الناهض من محنته، أوفر قوة وأصلب وحدة، تلاقينا في بيروت، مرجعيات وقيادات روحية، اسلامية ومسيحية، من الوطن العربي، لنُبلغ العالم، أدناه وأقصاه، شعوبه ودوله، صوتنا الواحد، صوت أبنائنا كل المؤمنين العرب، مسيحيين ومسلمين، نابعًا من تاريخنا الواحد، متوجهًا بنا إلى مستقبلنا الجامع».

ومما جاء في متنه: «مسألة القدس، عندنا، هي أم المسائل، فلسنا حيالها فرقًا، وليس بيننا من يريدها على إسمه وحده. نحن مقدسيون بالانتماء وبالحب، ولا يطمئن لنا إيمان ما دامت القدس في الأسر. والقدس مسألة لا يجوز إرجاء الحديث عنها ولا تأجيله، فهي قبل كل قضية، وفوق كل قضية بيننا وبين الصهاينة الغاصبين لأرض فلسطين (...) إنه لا توجد سلطة في العالم تملك حق تهويد القدس أو تدويلها، أو نزع صفتها العربية الاسلامية-المسيحية عنها (...) وكل قرار من أية جهة، محلية أو دولية، يمس هذه الهوية باطل لا قيمة له، ولا مشروعية تُستمد منه أو تُبنى عليه (...) إن السلام ثمرة العدل. لا يقوم سلام ولا يدوم على ظلم وقهر. وأخشى ما نخشاه ان تجمع مصالح الدول فتفرض وضعًا يحرم الشعب الفلسطيني من إقامة دولته المستقلة وعاصمتها القدس الشريف، ويحول

دون الانسحاب الكامل من الجنوب اللبناني وهضبة الجولان السورية (...) ندعو الكنائس كافة وهيئات العالم الاسلامي ومنظماته جميعًا، إلى ان يكون تحرير القدس شاغلها الشاغل...» (راجع بحمل البيان، وتختلف كلمات ومداخلات المؤتمر في صحف بيروت الصادرة في ايام المؤتمر وبعيده، ١٥ و١٦ و١٧ حزيران ١٩٩٦).

الحوار الاسلامي-المسيحي على المستوى الاوروبي: لقد مرّ هذا الحوار في الغرب بثلاث مراحل (بحمل ما يرد تحت هذا العنوان الفرعي، عن د.المولى، ص١٤٨-١٥٤):

– المرحلة الاولى هي مرحلة التحدث عن الاسلام ويمثلها الاستشراق عمومًا.

– المرحلة الثانية هي مرحلة التحدث إلى المسلمين ويمثلها التبشير عمومًا.

– المرحلة الثالثة هي مرحلة التكلم مع المسلمين عن الاسلام وهي المرحلة الراهنة. وهذا الأمر ينطبق خصوصًا على اوروبا حيث ان المراكز الاوروبية اهتمت بالدراسات الاسلامية في شعبها لمواجهة مشكلات التكيف والاندماج الخاصة بالمهاجرين المسلمين. وقد سهّل هذا الأمر انطلاقة الحوار على المستوى الاوروبي عمومًا، وأطلق عناوين حوارية أخرى مثل الحوار العربي-الاوروبي، وحوار ضفتي المتوسط وخصوصًا بعد حرب تشرين ١٩٧٣ وأزمة قطع النفط العربي عن الغرب.

ففي فرنسا، أسس مؤتمر أساقفة فرنسا الكاثوليك، منذ ١٩٧٣، الأمانة العامة للعلاقات مع الاسلام SRI، كما أسست الفدرالية الانجيلية في فرنسا لجنة باسم الكنيسة-الاسلام E I. ويمكن اليوم تعداد أكثر من مجموعة محلية فرنسية تهتم بالحوار الاسلامي-المسيحي، أهمها: جمعية الاسلام والغرب، جمعية الحوار الاسلامي-المسيحي ADIC، تجمع الصداقة الاسلامية-المسيحية GAIC، الأخوية الابراهيمية، مجموعة الدراسات والأبحاث حول الاسلام في ستراسبورغ GERI، مجموعة الدراسات الاسلامية-المسيحية GRIC، وغيرها...

أما في هولندا، فقد ابتدأ الاهتمام بالموضوع منذ منتصف السبعينات ايضًا، وذلك مع تدفق الهجرة الاسلامية وبعد أزمة النفط... إلا ان الكنائس الهولندية لم تستطع تحويل هذا الاهتمام إلى مشروع عمل حتى أيار ١٩٨٦، فتم إنشاء هيئة استشارية رسمية تضم ١١ مندوبًا عن الكنائس المسيحية الهولندية و١١ عن الجمعيات والمساجد الاسلامية.

أما في السويد والنروج والدانمارك، فإن الاهتمام الرسمي والكنسي بالحوار مع الاسلام لم يبدأ إلا بعد قضية سلمان رشدي (راجع «ايران»، ج٤) وتصاعد الحملة ضد الاسلام و«الارهاب الاسلامي» منذ منتصف الثمانينات.

وتقدم بريطانيا نموذجًا خاصًا نظرًا للوجود الكثيف للأسيويين غير المسلمين (هندوس، سيخ، بوذيين، الخ...). ففي ١٩٧٧، أسس مجلس الكنائس البريطاني لجنة للحوار والعلاقات مع بقية الأديان، وقد نشرت هذه اللجنة، في ١٩٨١، خطوطًا عريضة أو توجهات للحوار والعلاقات مع أتباع الديانات الكبرى. وفي ١٩٨٤، أسست الكنيسة الكاثوليكية في بريطانيا لجنة حوار خاصة بها، كما تمت هيئات وجمعيات محلية كثيرة خصوصًا في المدن الكبرى، وذلك نظرًا لتصاعد أزمة الهوية والانتماء والاندماج في المجتمع البريطاني (كما في الغرب عمومًا)، وقد انضمت مؤخرًا حوالي ٦٠ جمعية وهيئة إلى اللجنة المشتركة للحوار بين الاديان Interfaith Network أبرزها مجلس مساجد المملكة المتحدة وإيرلندا، والمركز الثقافي الاسلامي في لندن، ومجلس المساجد والأئمة، والرابطة العالمية لأهل البيت، ومعهد سللي أوك للحوار الاسلامي-المسيحي، والمؤسسة الاسلامية في ليسيستر...

وفي نفس الاطار الاوروبي القلق من تزايد مشكلات الهجرة العربية الاسلامية دعت أمانة السر الفاتيكانية إلى لقاء اوروبي عُقد في النمسا ١٩٧٦ لبحث وضع المسلمين المهاجرين إلى اوروبا. وفي شباط ١٩٧٨، انعقد في سالزبورغ المؤتمر الاستشاري الاول لمجلس الكنائس الاوروبية CEC وبحث موضوع المسلمين في اوروبا وموقف الكنيسة. وقد حضر المؤتمر ممثلو ١٢٠ كنيسة غير كاثوليكية.

وفي ١٩٧٩، أسس المجلس المذكور هيئة استشارية حول الاسلام في اوروبا. وفي ١٩٨٦، تشكلت هيئة مشتركة بين الفدرالية الاوروبية للمؤتمرات الأسقفية الكاثوليكية CCEE ومجلس الكنائس الاوروبي CEC وذلك على أساس ١٠ اعضاء من الفدرالية و١٤ عضوًا من المجلس، مع وجود عضوين مراقبين من المجلس البابوي للحوار بين الاديان ومن وحدة الحوار في مجلس الكنائس العالمي. وحملت هذه الهيئة المشتركة إسم «لجنة الاسلام في اوروبا»، وهي أصدرت في ١٩٩١ تقريرها بعنوان «الحضور الاسلامي في اوروبا والإعداد اللاهوتي للأساقفة والكهنة».

وإلى جانب الاهتمام الرسمي بالحوار الاسلامي-المسيحي، برز في اوروبا اهتمام أهلي وشعبي ناجم عن ضغوطات وتعقيدات ظروف العمال المسلمين المهاجرين في تلك البلدان. وقد توزّع الاهتمام الاهلي ما بين مؤسسات خاصة ومراكز دينية، وهذه أبرزها:

- مؤسسة جوفاني سيني (البندقية، ايطاليا)، وأبرز أعمالها مؤتمر الاسلام والحضارة الغربية، في ايلول ١٩٥٥.

- مؤسسة أديناور (بون، المانيا)، وأبرز أعمالها مؤتمر بون حول الدين والثقافة والحقوق السياسية، آذار ١٩٨١؛ ومؤتمر ياوندي (في الكاميرون) حول التنمية والتعاون بين الشعوب، في شباط ١٩٨٣؛ ومؤتمر مراكش حول التربية والقيم الدينية، في ايار ١٩٨٥، إضافة إلى مشاركتها في دعم مؤتمرات أخرى حول العالم.

- معهد روبرت شومان لأوروبا IRSG، ابرز أعماله مؤتمر حقوق الانسان والأديان في آذار ١٩٨٤.

- مؤسسة جوفاني أنيلي (تورينو، ايطاليا)، أبرز أعماله مؤتمر «المسلمون الاوروبيون»، ايار ١٩٨٩.

- مركز الجبل العالي Haut Mont (موفو، فرنسا)، ينظم مؤتمرًا دوريًا خلال شهر آذار من كل عام بدءًا من ١٩٨٢.

- مركز العيون Les Fontaines الثقافي (شانتيلي، فرنسا)، ينظم مؤتمرًا دوريًا كل سنتين بدءًا من ١٩٨٠، وبالتعاون احيانًا مع جمعية الكتّاب الفرنكوفونيين الناشطة في مجال الحوار.

- نادي باليرمو الثقافي المتوسطي (صقلية، ايطاليا)، ينظم مؤتمرات دورية أبرزها: في تشرين الاول ١٩٨٤ (الله، الانسان، الطبيعة)، في تشرين الاول ١٩٨٥ (الانسان ومصيره)، في تشرين الثاني ١٩٨٦ (العلم والتقدم والدين)، في تشرين الثاني ١٩٨٧ (العمل والتأمل بالمنظور الاسلامي والمسيحي).

- معهد حوار الحضارات، أسسه المفكر الفرنسي روجيه غارودي في ١٩٨٧ بعقد مؤتمر حول الإيمان الإبراهيمي.

- الجمعية الفرنسية للحوار الاسلامي-المسيحي ADIC، وقد أسسها الأب ميشال لولون ورأسها الدبلوماسي المصري عادل عامر، وبعد وفاته رأسها الدكتور علي السمّان. ونظمت مؤتمرات باريس ١٩٨٥، ١٩٨٧، ١٩٨٩، وستراسبورغ في كانون الاول ١٩٩٠، وروان في ١٩٩٢.

- الحركة الايطالية «شركة وتحرير» Communione Liberazione، ونظمت مؤتمر التقاليد الدينية والعصر الحالي في ايلول ١٩٨٧.

- مركز خدمة العلاقات الاسلامية-المسيحية SRCM في ستراسبورغ، نظم مؤتمر ١٩٩٠ حول الحوار الديني في المجتمع الفرنسي.

- مركز الكلمة الثقافي (بروكسيل، بلجيكا)، يصدر نشرة فصلية منذ ١٩٨٩.

- المؤتمر العالمي للأديان من اجل السلام WCRP، ونظم مؤتمر كيوتو ١٩٧٠ (اليابان)، ولوفان ١٩٧٤ (بلجيكا)، وبرنستاون ١٩٧٩ (اميركا)، ونايروبي ١٩٨٤ (كينيا)، وباريس ١٩٨٥، وايطاليا ١٩٨٧، وملبورن ١٩٨٩ (أوستراليا)، ونيويورك ١٩٩١، وطوكيو ١٩٩٢.

- مركز دراسة الاسلام والعلاقات الاسلامية-المسيحية، كلية سللي أوك، جامعة برمنغهام (بريطانيا). ونشأ هذا المركز بتمويل من عائلة كادبري قرب معامل الشوكولا الشهيرة حيث ان العائلة آوت راهبًا حمل معه وثائق عربية وسريانية. وبدأ المركز عمله كمركز لدراسة الوثائق والمخطوطات العربية والسريانية، وتحوّل إلى مؤسسة للتدريس تابعة لجامعة برمنغهام. وفي ايار ١٩٧٥، انعقد أول مؤتمر تشاوري، حضره ١٢٠ مندوبًا من ١٨ بلدًا، للبحث في إنشاء معهد للدروس الاسلامية-المسيحية. وهو ينسّق مع الكنائس البريطانية والاوروبية ومع المنظمات الاسلامية ايضًا. ويصدر نشرة إخبارية، ومجلة نصف سنوية (منذ ١٩٩٠) ويعقد مؤتمرات ودورات صيفية.

وأهم المؤسسات الدينية الاوروبية المعنية بالحوار:

- أمانة السر الفرنسية للعلاقات مع المسلمين SRI، وهي تنظم مؤتمرات دورية منذ ١٩٧٦ بالتعاون مع مركز «العيون» Les Fontaines في شانتيلي ومركز «النبع» La Source في الرباط.

- الجمعية الاسبانية للصداقة الاسلامية-المسيحية، منبثقة عن الكنيسة الاسبانية وبلدية قرطبة حيث تنظم مؤتمرات دورية.

- معهد الآداب والفنون العربية IBLA، في تونس، وهو تابع للارساليات الفرنسية في شمالي افريقيا (الآباء البيض الافارقة) وله نشاط ودور كبير بالتعاون مع الجامعة التونسية ومثقفين من المغرب والجزائر، وهو يعمل وسط المغاربة في اوروبا.

- المعهد البابوي للدراسات العربية والاسلامية

الكاردينال فرنسيس اريتزي والشيخ فوزي فاضل الزفزاف يوقعان الاتفاق بين الفاتيكان والازهر (٢٨ ايار ١٩٩٨)

PISAI وهو أبرز مؤسسات الحوار قاطبة. يصدر نشرة شهرية Encounter منذ ١٩٧٤، ومجلة فصلية، دراسات عربية، منذ ١٩٦١ ومجلة سنوية، Islamo-Christiana منذ ١٩٧٥.

– معهد دراسات الأديان، جامعة أمستردام الحرة (هولندا)، يصدر، منذ ١٩٧٦، نشرة بيبليوغرافية توثيقية عن حوار الأديان وقضاياه.

– مركز الدراسات والتوثيق الاسلامي-المسيحي في فرانكفورت (المانيا) ويصدر نشرة دورية منذ ١٩٧٨.

مجلس الكنائس البريطاني، قسم الحوار بين الأديان (لندن)، يصدر مجلة فصلية منذ ١٩٨٦.

– مركز التحقيق الاسباني-العربي (مدريد) يصدر نشرة شهرية منذ ١٩٧٢.

– جماعة سانت إيجيديو، وهي أبرز المجموعات الدينية الاوروبية ومركزها روما. وقد تأسست في ١٩٨٥ باسم جمعية الايمان والبشر، والتقت في أحد أحياء روما الشعبية في كنيسة سانت إيجيديو التي اصبحت مركزها. أطلت على الحوار منذ «يوم الصلاة من أجل السلام» التي دعا له البابا بولس السادس وانعقد في مدينة أسيزي (الايطالية، وبلدة القديس فرنسيس الأسيزي) في تشرين الاول ١٩٨٦، وحضره رجال دين من شتى الاديان في العالم، وأخذت هذه الجماعة بعقد المؤتمرات للحوار الديني: روما ١٩٨٧، أسيزي ١٩٨٨، وارسو ١٩٨٩، لوفان (بلجيكا) ١٩٩٠، مالطا ١٩٩١، بروكسيل ١٩٩٢، ميلانو ١٩٩٣، أسيزي ١٩٩٤ و١٩٩٥ و١٩٩٦.

– معهد تولوز (فرنسا) الكاثوليكي، ينظم مؤتمرات دورية منذ ١٩٨٤.

– كلية اللاهوت في جامعة القديس جبرائيل (مودلنغ، النمسا)، وتنظم مؤتمرات أبرزها في ١٩٧٥ و١٩٧٧ حول الله في الاسلام والمسيحية.

– برنامج وستمنستر (بريطانيا) للتلاقي الديني، نظم سلسلة لقاءات، في ١٩٨٥، برعاية الكنيسة البريطانية.

– الجمعية الدينية الدولية (روما)، نظمت مؤتمر ٣-٦ ايلول ١٩٨٤ حول حرية الدين والعقيدة.

والجدير ذكره ان بعض الحكومات الاوروبية نظمت هي ايضًا مؤتمرات حوار في الفترة الأخيرة أبرزها مؤتمر أوسلو (النروج) في ١٩٩٠، ومؤتمر فيينا (النمسا) في ١٩٩٣، ومؤتمر استوكهولم (السويد) في ١٩٩٥، وكذلك في الدانمارك في ١٩٩٦.

اتفاق تاريخي بين الفاتيكان والأزهر: في ٢٨ ايار ١٩٩٨، ألّف الفاتيكان والأزهر، وللمرة الأولى في التاريخ، لجنة مختلطة إسلامية-مسيحية لمحاربة التعصب الديني والارهاب. ووقع الاتفاق في الفاتيكان الكاردينال النيجيري فرنسيس أرينزي رئيس المجلس الأسقفي للحوار بين الأديان والشيخ فوزي فاضل الزفزاف رئيس اللجنة الدائمة للحوار بين الأديان السماوية في الأزهر، وجاء تتويجًا لمفاوضات استغرقت أربع سنوات.

وتعهد الطرفان بموجب هذا الاتفاق أن «يكافحا معًا التعصب الديني باعتباره تعبيرًا لرفض الآخر ومصدرًا للحقد والعنف والارهاب... والسهر على أن تلعب الأديان دورها في المجتمعات الانسانية لإرساء الأخوة والتضامن

والتعاون والعدل والسلام، وحل المشاكل المتصلة بخير البشرية جمعاء».

وعلى رأس مهمات اللجنة المختلطة التي ستجتمع سنويًا في القاهرة وروما مداورة «البحث عن القيم المشتركة، وتشجيع العدل والسلام واحترام الأديان، وتبادل المواضيع ذات الاهتمام المشترك مثل الدفاع عن كرامة الانسان وحقوقه، وتشجيع المعرفة والاحترام المتبادلين بين الكاثوليك والمسلمين عبر تبادل المعلومات اللازمة».

وبعد توقيع الاتفاق، استقبل البابا وفد الأزهر ومما قاله: «إن اللجنة المشتركة الجديدة للحوار أمامها الكثير من العمل. وأنا على ثقة بأنه إذا أعطى أعضاؤها أفضل ما عندهم بإخلاص وصدق فإننا سنتمكن من تحقيق ما ننشده من أهداف».

التجاوب الاسلامي: يبرز، من خلال معالم المسيرة الحوارية (من المجمع الفاتيكاني الثاني ١٩٦٤-١٩٦٥ إلى اليوم) ان الموقف الاسلامي لم يرتق بعد إلى مستوى المبادرة ذات العمق والزخم الذي عرفته، وتعرفه، المبادرات المسيحية. صحيح ان الموقف الاسلامي انتقل من التحفظ إلى التجاوب، إلا انه يحتاج إلى مزيد من الانفتاح، وإلى المزيد من الإعداد، وإلى المزيد من مراجعة بعض المفاهيم والنظريات حتى ينتقل إلى المرحلة الأهم وهي مرحلة المبادرة. وقد تجسّد التجاوب الاسلامي الحواري ومبادراته الأولية، إلى الآن، بالخطوات التالية:

١- زيارة الكاردينال فاكينغ، في آذار ١٩٦٥، للقاهرة حيث كان أول مسيحي يلقي محاضرة من على منبر جامع الأزهر.

٢- خلال ثلاث سنوات (من حزيران ١٩٧٢ إلى نيسان ١٩٧٥) عاشت أندونيسيا على وقع مؤتمرات الحوار بين الاسلام والمسيحية والبوذية التي بلغ عددها الخمسة عشر لقاء. ولا نجد اليوم تقويمًا رسميًا لهذه المؤتمرات: كيف ولماذا بدأت؟ وكيف ولماذا توقفت؟ وما هي حصيلتها؟ أسئلة بقيت دون إجابة رغم ان عناوين المؤتمرات ونوعية الحضور أوحت بالأهمية والخطورة. ولعل الفكرة بدأت مع تعيين الدكتور مكتي علي وزيرًا للشؤون الدينية في فترة حرجة كان فيها المسلمون ما زالوا يتعاطفون مع الرئيس أحمد سوكارنو ويعارضون خلفه الجنرال سوهارتو نظرًا إلى ارتباط الأول بعبد الناصر والثورة العربية وارتباط الثاني بأميركا والغرب. كما ان الثورة الاسلامية في آشيه-سومطره بقيادة تنكو حسن دي تيرو كانت على أشدها. وفي الوقت نفسه، كان عمل الارساليات التبشيرية قد بدأ يخلق الاضطرابات في البلاد. كل ما نعرفه أن أول لقاء جرى في ٢٩ تشرين الثاني ١٩٧١ حين زار الوزير مكتي علي مقر انعقاد اجتماع الاساقفة الكاثوليك لجنوب شرقي آسيا وتحاور معهم حول «حوار الأديان». تلا ذلك عقد أول مؤتمر في المعهد الدولي للشؤون الاسلامية في جاكرتا (٢٧-٢٨ حزيران ١٩٧٢) بعنوان «الدين عامل إنمائي». وكرّت سبحة اللقاءات بمعدل ٤ أو ٥ في السنة بعد ان شكلت وزارة الشؤون الدينية لجنة خاصة للحوار تولت هي تنظيم المؤتمرات. وكل شيء توقف بعد آخر مؤتمر انعقد في جاكرتا في نيسان ١٩٧٥، وكان عنوانه «هل نتابع الحوار؟».

٣- في ١٩٧٦، قام الكاردينال بينيدولي، أمين سر الأمانة العامة لشؤون الديانات غير المسيحية في الفاتيكان، بزيارة المملكة العربية السعودية حيث قابل خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز (وكان وقتها وليًا للعهد)، وردًا على هذه الزيارة قام وفد سعودي في تشرين الاول من العام نفسه، بزيارة للفاتيكان لمواصلة الحوار الاسلامي-المسيحي الذي بدأه الكاردينال بينيدولي. وفي نيسان ١٩٧٨، زار الكاردينال، رسميًا، جامع الأزهر.

٤- في ايلول ١٩٧٤، نُظم لقاء إسلامي-مسيحي في تونس حول مشكلات التطور المعاصر.

٥- في شباط ١٩٧٦، صدرت وثيقة طرابلس (ليبيا) إثر ندوة إسلامية-مسيحية بين جمعية الدعوة العالمية والفاتيكان حول الأسس والمبادىء العامة للتفاهم بين الاسلام والمسيحية. وحضر الندوة حوالي ٥٠٠ شخص من ٥٥ بلدًا أبرزهم كان الشيخ صبحي الصالح والمطران جورج خضر والدكتور اسماعيل الفاروقي والأب موريس بورمانس. وإلى هذه الندوة (المؤتمر) وجّه الشيخ محمد مهدي شمس الدين رسالة أصبحت وثيقة تاريخية. وقد أراد العقيد القذافي المؤتمر برلمانًا سياسيًا لعرض أفكاره. ونشب خلاف في آخر يوم حول فقرات من البيان الختامي تتناول الموقف من الكيان الصهيوني والقضية الفلسطينية.

٦- في آب ١٩٨٥، استقبل الملك الحسن الثاني، عاهل المغرب (الذي يتمتع بلقب أمير المؤمنين باعتباره من أهل البيت) البابا يوحنا بولس الثاني الذي قام بزيارة رسمية للمغرب (المسيحيون في المغرب أقل من واحد بالمئة) وألقى خطابًا في إحدى ساحات مدينة الدار البيضاء.

٧- في الولايات المتحدة الاميركية، فقد الإسلام، باستشهاد الدكتور اسماعيل الفاروقي وزوجته الدكتورة لمياء حين جرى قتلهما بوحشية في منزلهما بفيلادلفيا ليل ٢٤ ايار ١٩٨٦، علمًا فكريًا وركنًا محاورًا. وكان الدكتور اسماعيل قد تميز بنظريته حول الحوار الثلاثي

Trialogue بين الأديان الابراهيمية، وقد وضع للذلك منهجًا وكتب دراسات، وأسس مجموعة الدراسات الاسلامية في أكاديمية الاديان الاميركية، وكان نائبًا أول لرئيس مجمع السلام بين الأديان الذي تحوّل في ١٩٧٤ إلى المؤتمر الاسلامي اليهودي المسيحي MJCC. وهذا المؤتمر-والمجمع قبله-تأسس بفضل جهود المونسنيور الكاثوليكي الدكتور جوزف غريمليون (مدير قسم العدالة والسلام في الفاتيكان). وهو عقد أول مؤتمراته في بيللاجيو (١٩٧٥) والثاني في ليشبونة (١٩٧٧) والثالث والأخير في ١٩٧٩.

ومن هذا الجو الحواري وُلد مركز التفاهم الاسلامي-المسيحي في جامعة جورجتاون بواشنطن، ومديره الدكتور جون أسبوزيتو، تلميذ الدكتور اسماعيل الفاروقي، وبحاثة في الشؤون الاسلامية وشؤون الحوار بين الاديان. وهو يرى، كما أستاذه الفاروقي، ان الحوار في اميركا لا يستطيع إلا ان يكون ثلاثيًا نظرًا إلى حساسية المسألة اليهودية، ونظرًا إلى قوة الوجود اليهودي في الثقافة الاميركية وفي الحياة السياسية والاقتصادية والاعلامية للبلاد، ناهيك عن المنطلقات الدينية المبدئية في الحوار بين جميع البشر والحضارات والثقافات.

٨- اللجنة الوطنية للحوار الاسلامي-المسيحي في لبنان. وهي انطلقت بمبادرة من الامام الشيخ مهدي شمس الدين رئيس المجلس الاسلامي الشيعي الأعلى، حين أسس الهيئة الاسلامية اللبنانية للحوار. وقد التقت هذه المبادرات مع الاعمال التحضيرية للسينودس من أجل لبنان، فكانت ولادة اللجنة الوطنية في ٢ آب ١٩٩٣ وإذاعة برنامج عملها في ٥ كانون الثاني ١٩٩٥.

٩- هيئة الحوار بين الأديان في السودان، وهي وُلدت إثر انعقاد مؤتمرين عالميين كبيرين للحوار (١٩٩٢-١٩٩٤) بدعوة من جمعية التنمية والسلام وجمعية الصداقة الشعبية السودانية وبمشاركة عدد كبير من المفكرين ورجال الدين العاملين في قضايا الحوار والعدالة والسلم والذي ناف عددهم على الـ ٥٠٠ (في المؤتمر الثاني). وقد وضعت الهيئة برنامجًا وميثاقًا وانتخبت هيئة ادارية لها وهي تقوم بنشاط مميز على المستوى المحلي والعربي.

١٠- فريق العمل العربي للحوار الاسلامي-المسيحي، وهو تشكل بمبادرة من الهيئة الاسلامية اللبنانية للحوار (سعود المولى، محمد السمّاك) وبالتنسيق مع مجلس كنائس الشرق الاوسط (غبريال حبيب، جورج ناصيف، رياض جرجور، طارق متري) ومع هيئة مصغرة في القاهرة (محمد سليم العوا، طارق البشري) وعقدت عدة لقاءات وندوات ومؤتمرات أبرزها المؤتمر العالمي الاسلامي-المسيحي حول القدس (ايار ١٩٩٦، القاهرة).

١١- الأكاديمية الملكية للحضارة الاسلامية، مؤسسة آل البيت-الاردن، ورئيسها هو الأمير حسن بن طلال، وهي نظمت عدة ملتقيات:

- لقاء قصر وندسور بالتنسيق مع الكنيسة الأنغليكانية البريطانية، ١٥-١٨ تشرين الثاني ١٩٨٤ وحضره ٣٥ شخصًا منهم، الكاردينال كونغ والكاردينال آرينزي وحاخامات يهود من بريطانيا.

- لقاء عمان، ٢٨-٣٠ ايلول ١٩٨٥، بحضور الكاردينال آرينزي من روما ومشاركة ٤٠ شخصًا (القيم المشتركة حول الأسرة).

- لقاء شامبيزي، ١٧-١٩ تشرين الثاني ١٩٨٦ بالتنسيق مع الكنيسة الارثوذكسية: المطران جورج خضر، الدكتور أحمد صدقي الدجاني، المتروبوليت دامسكينوس (السلطة في المسيحية والاسلام).

- لقاء قصر وندسور بالتنسيق مع الكنيسة الأنغليكانية، ٢٩-٣١ ايار ١٩٨٧، بمشاركة ٣ يهود بريطانيين (الاخلاقيات وإدارة الاعمال).

- لقاء عمان، ٢١ تشرين الثاني ١٩٨٧، بالتنسيق مع الكنيسة الأرثوذكسية (التعايش والقيم المشتركة).

- لقاء معان، ١٧-١٨ ايلول ١٩٨٨، مع الانغليكانية (ممارسة البنوك).

- لقاء شامبيزي، ١٢-١٥ كانون الاول ١٩٨٨، مع الأرثوذكسية (السلام والعدالة).

- لقاء استنبول، ١١-١٣ ايلول ١٩٨٩، مع الأرثوذكسية (التعددية الدينية).

- لقاء وندسور، ٨-١٠ كانون الاول ١٩٨٩، مع الأنغليكانية (الأخلاقيات وإدارة الاعمال).

- لقاءات مشتركة مع منتدى الفكر العربي (رئيسه ايضًا الامير حسن) ومركز الاهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية.

- وفي ١٩٩٤، تأسس في الاردن «المعهد الملكي لدراسات حوار الأديان» Royal Institute for Inter Faith Studies، برعاية الامير حسن بن طلال وإدارة الدكتور كمال الصليبي.

مناقشة: «حوار على إيقاعين»: تحت العنوان الفرعي «ماذا بعد؟»، كتب الدكتور سعود المولى (عضو فريق العمل العربي للحوار الاسلامي-المسيحي، ومؤلف «الحوار الاسلامي-المسيحي، ضرورة المغامرة»، المرجع

المذكور في مطلع هذا الباب، ص١٧٧-١٧٩):

منذ مطلع هذا القرن والحوار الاسلامي-المسيحي هو دائمًا مبادرة مسيحية، المسلمون فيها ضيوف كرام، يختارهم أصحاب الدعوة باعتبار توقع تعاونهم وتفاهمهم... وكان الضيوف يشعرون دائمًا بأنهم ضيوف ويعرفون بأن المسلمين لم يختاروهم، كما انهم هم ايضًا لم يعيّنوا أنفسهم أصلاً لهذه المهمة. أضف إلى ذلك أنهم كانوا يتغيرون في كل لقاء فلا يحضر نفس الشخص أكثر من لقاء أو إثنين ما يعني انعدام إمكانية الحوار الصادق الحي الموضوعي، فتأخذ المسألة طابع المشاركة المهرجانية. وبما ان هؤلاء المسلمين كانوا في الغالب من غير المختصين في هكذا موضوع، ومن غير المتفرغين لـه أصلاً، وبما انه لا يوجد مركز اسلامي واحد لدراسة المسيحية والعلاقات الاسلامية-المسيحية فإن هؤلاء المسلمين لم يملكوا إمكانية مراكمة المعارف والخبرات ودراسة وتحليل النشاطات واتخاذ القرارات وصياغة الإشكاليات. وترافق ذلك مع غياب أي معرفة إسلامية معاصرة عن المسيحية وكنائسها وشيعها، وعن اللاهوت وتياراته، وعن البيئات المسيحية المتنوعة، وعن فاعلية وقدرات الكنائس.

وكان الغرب وما يزال هو الذي يطرح الموضوعات ويضع جدول أعمال المؤتمرات وعناوين وأولويات الحوار. ولقد تجمد الحوار في العالم العربي في السنوات الماضية بسبب ما أصاب العلاقات الاسلامية المسيحية من اضطراب وتشويش ومن تصوير لها بصورة العداء والسلبية. وقد استخدمت القوى الحاكمة والمحكومة، السلطات والمعارضات، ورقة الدين والخلاف الديني لترسيخ موقعها في الشارع.

وإذا كان من كلمة تقال في هذا المجال فهي ان الاسلاميين الحركيين لم يشعروا بخطورة ترسيخ الفرقة بين أهل الأديان، بل انغمسوا في هذا الأمر بحسابات تكتيكية انتهازية ضيقة الأفق تقوم على أساس تحريك الشارع والسيطرة عليه دون النظر إلى عواقب الأمور على الوحدة الوطنية وعلى الشخصية السياسية والثقافية للمواطن وللمجتمع وعلى الدين نفسه... لقد تمّ استخدام الدين بوقاحة وبغباء على مستوى الأنظمة كما على مستوى الجماعات وأنتج هذا الأمر ما نراه اليوم من أوضاع شاذة في عدد من البلدان.

أما الحوار، فقد انطلق من خارج الأنظمة والجماعات الاسلامية على السواء، وهو قام بين المهتمين بتطوير الحياة وإعمار الدنيا ذلك ان خط الإنغلاق والتطرف والعنف هو الوجه الآخر لخط الانحلال والفساد الذي تروّج له الأنظمة. أما خط حفظ الحياة وتطويرها، فهو الخط العامل على وقاية العلاقات وروابط العيش المشترك وأشكال التضامن الاجتماعي وأقنية التواصل بين الناس.

إذا نظرنا إلى المستقبل القريب في عالمنا العربي والاسلامي فإننا نرى ان هذا العالم يسير باتجاه القبول بالتعددية الدينية وباتجاه البحث عن سبل حفظ هذا التنوع وحفظ العيش المشترك وتطوير الصيغة السياسية الملائمة له. إن هذا السير الحتمي باتجاه المستقبل التعددي التعايشي يحتّم علينا ان نبدأ منذ الآن في تنكب طريق الحوار وخوض غماره. فلقد انتهى عهد الحروب والصراعات بين الأديان، وانتهى عهد المجادلات البيزنطية والاتهامات التكفيرية. وينبغي بداهة تصفية العقول والقلوب من الأحكام المسبقة والافكار الخاطئة والسائدة بين ظهرانينا، وذلك من أجل التفكير المبدع في الإشكاليات والأسئلة الحقيقية. وأول ما ينبغي القيام به هو تصفية الحوار من الاتهامات والتغلب على روح التعصب والمجادلة الجاهلة، وتقويم ما تمّ إنجازه حتى الآن، ونقد الأخطاء ورؤية أسبابها والبحث عن أسباب تعثر الحوار وعدم الوصول حتى الآن إلى نتائج مرضية. وهذا يعني انه علينا ان نرسم توجهًا حواريًا هادفًا يقوم على إيقاعين (مقولة للصديق الدكتور طارق متري):

١- إيقاع بطيء قوامه عمل فكري هادىء يدرس المشكلات ويوسّع المساحات المشتركة ويضيّق مجالات البحث ويعيّن بدقة مجالات التعاون والتعايش.

٢- إيقاع سريع قوامه التصدي المشترك لما يصيب العلاقات من اضطراب ويأخذ مواقف مشتركة تلجم التعصب والتطرّف وتكبح جنوح الغلاة من الطرفين.

إن بناء الحوار والعيش الواحد على قاعدة المعرفة والتضامن هو الضمانة الوحيدة للنجاح: معرفة الآخر واحترامه واحترام عقيدته وفكره وإنسانيته وحقوقه، والتضامن في شراكة الحياة والمصير. من هنا الدور المركزي والكبير للمسيحية العربية وبالشراكة مع المسلمين، في إطلاق هذا الحوار على أسس جديدة دون المرور عبر الوسيط الغربي. وهذا يقتضي من المسلمين إعادة وصل ما انقطع في ذاكرتهم وتاريخهم ووعيهم، وإعادة التأسيس المعرفية للحوار كأصل ومبدأ، كقيمة انسانية ثابتة، وللتعايش ضمن التنوّع والاختلاف كسنة إلهية... إن هذا يعني ضرورة الإنطلاق من الدين وليس من التاريخ السياسي أو القانوني للعلاقات الاسلامية المسيحية ضمن إطار منطق الدولة ونظامها... «إن جعل الدين منطلقًا للحوار لا موضوعًا له» (حسب ما يقول الإمام الشيخ محمد مهدي شمس الدين) هو الكفيل بتجاوز العقبات وتحقيق الآمال.

العالم الثالث

إحالة

شغلت هذه المادة، «العالم الثالث»، ٥٨ صفحة من الجزء الثاني من الموسوعة (ص٣١-٨٩)، ولكنها وردت تحت إسم «آسيا... العالم الثالث»، وتناولت النقاط التالية:

- التعبير، «العالم الثالث»، ومحاولات تعريفه، وتصنيفه، والخصائص المشتركة لدوله، وما آل إليه نتيجة للتطورات الكبرى في السنوات الأخيرة.

- موضوعات عالمثالثية، وتناولت:

* حوار الشمال-الجنوب.
* الأوبك (تاريخ، إنجازات، مناقشة).
* مستقبل «الجنوب» ودور الأمم المتحدة.
* قوات حفظ السلام الدولية.
* العالم الثالث بين معياري حقوق الانسان (الشرعة، مفوض سام لحقوق الانسان، منظمة العفو الدولية، «حزب فولتيري»-التقارير الأخيرة لمنظمة العفو الدولية-المؤتمر الدولي الثاني وأجوائه-مناقشة).
* التنمية البشرية.
* خريطة الأمية والمعارف.
* خريطة العلم والعلميين (اليابان واسرائيل في المقدم، الاغنياء والفقراء، برامج التعاون العلمي، الاوضاع العربية).
* من الديمغرافيا في العالم الثالث.
* مؤتمر أكاديمي عالمي (ثورات سكانية، العلم عاجز، تخدير الارض، تركيب السكان، حدود العلم وإمكاناته، المعارضة).
* مدن مهددة بالانفجار السكاني (وضعها، أحزمة البؤس، المستقبل).
* قضية اللاجئين (مسؤولية الدول الصناعية، أمراض العصر، بارقة أمل، لبنانيون وفلسطينيون).
* كثافة سكانية ومعدلات الاستعمال المالي.
* الأمن الغذائي في العالم الثالث.
* أوروبا الشرقية تأخذ محل العالم الثالث في المساعدات.
* الارهاب والعالم الثالث.
* حروب أهلية وميليشيات (أمن السلطة وأمن الميليشيات، إفساد لنظام الاخلاقيات، لبد مبدأ التسامح بين الجماعات).

وراجع كذلك مادة «العالم» في الجزء ١١، إذ إن مختلف موضوعاتها متعلقة بـ«العالم الثالث»، والمواد: آسيا وافريقيا واميركا اللاتينية في مواقعها من الموسوعة.

أما ما يمكن إضافته، استكمالاً لمادة «العالم الثالث» (حتى اليوم، اواسط ١٩٩٨):

الأرقام أصدق التعريفات

أرقام ديمغرافية: إن أول مظاهر التخلف، الذي يطبع العالم الثالث، هو المظهر الديمغرافي. فتعداد سكان العالم الثالث في العام ٢٠٠٠ سيزيد على خمسة مليارات نسمة، أي على إجمالي تعداد سكان العالم في مطلع التسعينات. وإذ كان سكان العالم المتخلف يمثل ٦٩٪ من سكان العالم في العام ١٩٠٠، و٧٧٪ في ١٩٩٠، فإنه سيمثل ٨٠٪ في العام ٢٠٠٠، و٨٨٪ في العام ٢١٠٠. ومن أصل كل ٩٥ مليون نسمة من سكان العالم الإضافيين في كل سنة، فإن ٨٥ مليون نسمة منهم سيولدون في العالم الثالث.

وأهم ما يميز الزيادة السكانية في العالم الثالث انها زيادة شابة. فمن هم دون الرابعة عشرة من العمر يمثلون فيه ٣٥٪ من السكان مقابل أقل من ٢٠٪ في العالم المتقدم.

وفي ١٩٨٧ كان تعداد الشبان، ممن هم دون الـ١٥ سنة، واحدًا (أي نحو ١١ مليون شاب) في كل من فرنسا وكولومبيا والجزائر، في حين أن إجمالي عدد سكان فرنسا كان ٤٥ مليون نسمة، وكولومبيا ٢٠ مليونًا، والجزائر ١٤ مليونًا.

وهذا لا يعني ان معدلات الخصوبة لم تسجل أي انخفاض في العالم الثالث. فإن معدل الانجاب للمرأة الواحدة قد انخفض، في ربع القرن الأخير من ٦،١ إلى ٣،٩، ومن المتوقع ان يوالي انخفاضه إلى ٣،٢ في العام ٢٠٠٠. ولكن التفاوتات في داخل العالم الثالث ما زالت، من زاوية معدلات الخصوبة، كبيرة للغاية. ففي البلدان الضعيفة المدخول أو القليلة السكان في منطقة الهيمالايا (مثل النيبال) أو في بلدان جنوبي الصحراء الافريقية (مثل أنغولا)، فإن معدل الخصوبة لم يسجل انخفاضًا، بل مال على العكس إلى الارتفاع بنسبة ١٢٪ في أنغولا، أو حتى ٢٩٪ في الغابون. وفي العديد من البلدان الاسلامية، التي ترفض «التخطيط العائلي»، بقي معدل الخصوبة أعلى من المعدل العام لسائر بلدان العالم الثالث كما في أفغانستان وايران. وبالمقابل، فإن بلدانًا اسلامية أخرى، ولا سيما البلدان المتوسطية، قد سجلت انخفاضًا يتراوح ما بين ٣٠ و٥٠٪. ومن هذه البلدان المغرب الذي انخفض مؤشر الخصوبة فيه من ١٠٠ في ١٩٦٠ إلى ٦٣ في ١٩٩١، ومصر ٦٠، وتركيا ٥٦، وتونس ٥٠. ولكن قصب السبق في هذا المجال يعود بلا جدال إلى بلدان آسيا الشرقية والجنوبية التي قد لا يكون من الصدفة انها سجلت في الوقت نفسه أعلى المعدلات للنمو الاقتصادي. فمؤشر الخصوبة قد تدنى في الفترة ما بين ١٩٦٠ و١٩٩١ إلى ٤٠ في الصين و٣٦ في تايلاند و٣٢ في سنغافورة و٣٠ في كوريا و٢٨ في هونغ كونغ.

أرقام صحية: يقدم الإنفاق الصحي مؤشرًا ثانيًا لقراءة تخلف العالم الثالث. وصحيح ان هناك بالاجمال تقدمًا عامًا، ولا سيما ما يتصل بالتحولات السريعة الناجمة عن تدخلات خارجية مثل حملات التطعيم ضد الامراض السارية. فـ٨٠٪ من اطفال العالم اليوم مطعمون ضد الامراض السارية الرئيسية، مقابل ٥٪ فقط في ١٩٧٧ و٢٥٪ في ١٩٨٣. كما ان الجدري الذي كان لا يزال يقتل نحوًا من مليون شخص ويعمي نحوًا من نصف مليون شخص في ١٩٦٧ (وهو عام إطلاق برنامج منظمة الصحة العالمية لمكافحة الجدري) قد استؤصل عمليًا من الوجود منذ ١٩٧٧. ولكن بالمقابل لا تزال البلدان المتطورة التي تمثل خمس سكان المعمورة تنفق ٩٠٪ من الإجمالي العالمي لنفقات الصحة (وتنفق الولايات المتحدة وحدها ٤١٪)، بينما لا تكرس البلدان المتخلفة للصحة سوى واحد من ثلاثين مما تكرسه لها البلدان المتطورة. وقد لا يتعدى إجمالي الانفاق السنوي على الصحة، في العديد من بلدان افريقيا وآسيا ١٠ دولارات مقابل ٢٧٠٠ دولار في الولايات المتحدة (للشخص الواحد).

ومن هنا المعدلات العالمية لوفيات الاطفال في البلدان المتخلفة. ففي ١٩٩٠، مات ١٢،٤ مليون طفل ممن هم دون الخامسة في جملة بلدان العالم الثالث، ولو كانت توفرت لهم نفس الفرص الصحية لأطفال البلدان المتقدمة لما كان مات منهم سوى ١،١ مليون طفل. وهذا يصدق ايضًا على وباء فقدان المناعة. فأكثر من ٨٠٪ من المصابين بجرثومة الإيدز (قدر عددهم بـ١٤ مليونًا في ١٩٩٢) يقيمون في بلدان العالم الثالث. ولكن في العام ٢٠٠٠، سيقترب هذا المعدل من ٩٥٪ من اصل الثلاثين مليون إصابة المتوقعة. وتسجل بلدان جنوبي الصحراء الافريقية أعلى نسب للاصابة: مصاب من أصل كل أربعين، بل واحد من كل ثلاثة في بعض المدن.

ارقام التمدرس (التردّد إلى المدارس Scolarisation): وهذا معيار ثالث لقياس التخلف. وهنا، يُلحظ تقدم عام. فبين ١٩٥٦ و١٩٧٥ سجلت معدلات التمدرس زيادة سنوية بمقدار ٥،٧٪، فيما زاد عدد المدارس الابتدائية وعدد المعلمين في فترة العشرين سنة تلك بمعدل ٦٠٪ و٥٥٪ على التوالي. ولكن ظاهرة الصعود الديمغرافي للشباب، قد جعلت أكثر ميزانيات بلدان العالم الثالث تنوء تحت عبء تأمين العلم للجميع. فثمة ١١٠ ملايين طفل، أي زهاء خمس الفئة العمرية المعينة، لا يتلقون أي تعليم على الاطلاق. كما ان ٣٥٪ من راشدي العالم الثالث هم من الأميين. أضف إلى ذلك ان درجة التمدرس نظرية أكثر منها فعلية. فكثيرون من الاطفال الذين يدخلون المدرسة لا يتابعون تعليمهم إلى الدرجة التي تكفي لمحو أميتهم فعلاً. وعلى هذا النحو فإن ما اصطلح المختصون التربويون على تسميته بـ«أجل الحياة المدرسي» لا يمتد في النيجر إلى أكثر من عامين، وفي بنغلادش إلى خمسة اعوام، وفي المغرب إلى ستة اعوام، مقابل ١٤ أو ١٥ عامًا في فرنسا. ثم ان بلدان العالم الثالث تتفاوت فيما بينها تفاوتًا كبيرًا في درجة الأمية: فهي لا تزيد على ١٦٪ في أميركا اللاتينية وآسيا الجنوبية، لترتفع إلى ٢٤ في آسيا

الشرقية و٤٥ في الشرق الاوسط و٧٠ في عشرة من بلدان افريقيا وآسيا الأشد فقرًا. ولكن مقياس التخلف هذا لا يُقرأ على حقيقته ما لم تأخذ بعين الاعتبار الواقعة الأكثر تمييزًا للتمدرس في البلدان المتخلفة: التفاوت التمييزي الهائل في التعليم لصالح الذكور. فثلثا الأطفال غير المتمدرسين هم من الإناث، ومستوى تعليم الإناث لا يمثل أكثر من ٥٠ أو ٦٠٪ من مستوى تعليم الذكور في الشرق الاوسط وافريقيا مقابل ٨٢٪ في آسيا الجنوبية الشرقية و٩٤٪ في اميركا اللاتينية.

أرقام البطالة، أو المقياس الرابع: تضرب البطالة بوجه خاص الاناث قبل الذكور، والشباب أكثر من الراشدين. فطبقًا لدراسة اجراها مكتب العمل الدولي في ٣٦ بلدًا في ١٩٩٣، فإن معدل البطالة بين الراشدين كان ٩،٨٪ لكنه تعدى ٣٥٪ بين الشباب. وتسجل قارات العالم الثالث تفاوتًا كبيرًا فيما بينها من هذا المنظور. فجنوب شرقي آسيا يعاني من فاقة في اليد العاملة (كان هذا قبل ١٩٩٥-١٩٩٦، أي قبل ان تبدأ الأزمة الاقتصادية تضرب بلدان «النمور الآسيوية»). ونسبة البطالة بين سكان المدن في اميركا اللاتينية تتخطى ٨٪، ولكن ترتفع في الهند والباكستان إلى ١٥٪، وفي بلدان جنوبي الصحراء الافريقية إلى ١٨٪. وفي تونس والمغرب تضرب البطالة كلا الجنسين بمعدل ١٧٪، ولكن هذا المعدل يتضاعف بالنسبة إلى الجزائر التي قدر عدد العاطلين فيها عن العمل في ١٩٩٣ بنحو ١،٧ مليون شخص. وبزيادة سنوية لا تقل عن ٢٠٠ ألف. فمن أصل كل ٢٥٠ ألف قادم جديد إلى سوق العمل سنويًا لا تتوفر وظائف العمل إلا لخمسين ألفًا. وعلى هذا النحو وصلت نسبة البطالة في صفوف الشباب الذين هم في سن ١٥-١٩ سنة إلى ٥٨٪، وفي صفوف الشباب الذين هم في سن ١٩-٢٤ سنة إلى ٤٠٪. ومقابل ٣،٥ مليون امرأة لا عمل لهن إلا في البيوت والخدمة العائلية، فإن ١٠٠ ألف امرأة جزائرية فقط يتوفر لهن عمل مأجور.

ارقام الفقر، أو المقياس الخامس: الفقراء، في تعريف البنك الدولي، هم مَن يتقاضون أقل من ٣٧٠ دولارًا في السنة، وعتبة الفقر الشديد هي ٢٧٥ دولارًا.

عدد الفقراء في العالم الثالث قد زاد من مليار في ١٩٨٥، إلى مليار و٢٠٠ مليون في ١٩٩٤. ويتركز ٦٣٪ من فقراء العالم الثالث في آسيا الجنوبية وافريقيا جنوبي الصحراء، اللتين لا تضمان مع ذلك سوى ٤١٪ من إجمالي سكان العالم الثالث. ولكن آسيا نفسها تنقسم إلى بلدان شديدة الفقر مثل بنغلادش والهند والنيبال، وإلى بلدان أمكن لها أن تحرز تقدمًا باهرًا في تخفيض معدلات الفقر خلال جيل واحد مثل تايلاند وماليزيا وأندونيسيا وسري لانكا التي انخفض فيها مؤشر الفقر من ٦٠ إلى ٢٠٪. وبالمقابل فإن عدد الفقراء قد ارتفع في بلدان جنوبي الصحراء الافريقية من ١٨٥ مليونًا في ١٩٨٥ إلى ٢٤٥ مليونًا في ١٩٩٤، ومن المقدر ان يبلغ ٢٦٥ مليونًا في العام ٢٠٠٠.

وترتبط بالفقر ظاهرة سوء التغذية ونقص التغذية. وينشأ سوء التغذية من انخفاض عدد الحريرات الغذائية للشخص الواحد في اليوم الواحد إلى ما دون ٢٥٠٠ حريرة، ومن تدني مساهمة البروتينات الحيوانية إلى أقل من ٢٠ غرامًا. أما إذا قلّ عدد الحريرات عن ٢٠٠٠ وانخفض مقدار البروتينات الحيوانية إلى ١٠ غرامات، فتنشأ ظاهرة نقص التغذية. وهي تتحول إلى وضعية مجاعة إذا تدنت الحريرات إلى ١٥٠٠ والبروتينات الحيوانية إلى ٥ غرامات للشخص الواحد في اليوم الواحد. وتبعًا لاحصائيات ١٩٩٠ فإن العالم الثالث لا يزال يعد ٧٨٦ مليون جائع أو معان مزمن من سوء التغذية ونقص التغذية، وهو ما يعادل ٢٠٪ من سكانه و١٥٪ من سكان العالم. وفي حين ان عدد الجائعين انخفض من ٧٥١ مليونًا في آسيا عام ١٩٧٠ إلى ٥٢٨ مليونًا عام ١٩٩٠، فقد ارتفع في الفترة نفسها في افريقيا من ١٠٠ مليون إلى ١٧٠ مليونًا.

أرقام التدهور البيئي، أو المقياس السادس: أدّى الضغط السكاني في المناطق المدارية بوجه خاص، وخلال نصف القرن الأخير، إلى ضياع ١،٢ مليار هكتار من الاراضي، أي ١١٪ من إجمالي الغطاء النباتي في الكرة الارضية. وفي بنغلادش وحدها يؤدي الحت والضغط السكاني إلى ضياع آلاف الكيلومترات المربعة من الاراضي القابلة للزراعة سنويًا.

وهناك ٢٦ بلدًا في العالم الثالث يعاني من فاقة في موارد المياه، مما يجعل ٢٣٠ مليون نسمة يعيشون دون عتبة الألف متر مكعب الضرورية لكل إنسان سنويًا.

وهناك مشكلة تلوث المياه. فثمة في العالم الثالث ١،٧ مليار إنسان لا يتوفر لهم حد أدنى من المياه الصحية.

أما مشكلة تلوث الجو، فتقدّر منظمة الصحة العالمية ان أكثر من مليار انسان من سكان المدن الكبرى في

العالم الثالث: جذور ومآل أخير عبر القمة الأخيرة (١٩٩٨) لحركة عدم الإنحياز:

«يجب أن يدرج ظهور البلدان النامية في عداد أهم الظواهر التي شهدها القرن العشرون من أواسطه إلى أواخره، وهي البلدان التي يطلق عليها ايضًا «العالم الثالث» أو «الجنوب» في بعض الأحيان. ولئن كانت أي تسمية من هذه التسميات تعتبر كافية فإن العالم الثالث هو الاصطلاح المفضل، لأنه ينمّ على الأقل عن هوية أكثر وعيًا بذاتها، فضلاً عن أنه أكثر التسميات شيوعًا من بين التسميات التي اختارتها أمم وشعوب افريقيا وآسيا واميركا اللاتينية والكاريبي لكي تطلقها على أنفسها...

«... إن العالم الثالث، بمفهوم هذا اللفظ، لم يكن معروفًا في الأربعينات، ولم يكن هناك وجود في الخمسينات سواء لحركة عدم الانحياز أو لمجموعة الـ٧٧...

«...إن حركة عدم الانحياز، التي نشأت في ١٩٦١، هي التعبير السياسي الرئيسي عن العالم الثالث، ومجموعة الـ٧٧ هي الأكبر حجمًا في وحدة التفاوض الاقتصادي الرئيسية للعالم الثالث. وإذا عرّف العالم الثالث بأنه يضم الدول المستقلة ذات الهوية الواعية بذاتها والمنتسبة لإحدى هاتين المجموعتين أو لهما معًا، فإنه يشمل عندئذ جميع الدول الأفريقية، ما عدا جنوب افريقيا، ومعظم الدول الواقعة في «منطقة آسيا-الشرق الأوسط- المحيط الهادي (بما فيها قبرص، وهي عضو في كلتا المجموعتين، باستثناء الصين، واسرائيل، واليابان، وتركيا، وأوستراليا ونيوزيلندا)، وجميع دول أميركا اللاتينية والكاريبي، ودولاً أوروبية قليلة هي يوغوسلافيا ومالطة ورومانيا...

«... وإزاء ذلك الوضع التاريخي فليس من المستغرب انه قبل فترة طويلة من الاعتراف بوجود العالم الثالث، بمفهومه المعروف، كان بعض دوائر التجمع الافريقي قد تنبأت بظهوره في نهاية المطاف بما يمثله من التحدي، كما حدث في مؤتمر التجمع الافريقي الأول المعقود في لندن عام ١٩٠٠ الذي ورد في «خطابه الموجّه إلى أمم العالم» في ما يلي:

«وعلى أية حال، يجب ان يذكر العالم الحديث انه في هذا العصر الذي تتقارب فيه أطراف العالم بهذا القدر الكبير، فإن ملايين السود في افريقيا وأميركا وجزر البحار، ناهيك عن الأعداد التي لا تحصى من ذوي البشرة السمراء والبشرة الصفراء في غير ذلك من الأماكن، لا بد وان يكون لهم- ولو بحكم الاعداد الغفيرة والتواصل المادي-تأثير عظيم على العالم في المستقبل....

«ومن الشواهد المبكرة في هذا الصدد المؤتمر الذي عقد في بروكسيل في ١٩٢٧ بدعوة من رابطة مناهضة الامبريالية والاستعمار التي كان العديد من الوطنيين الآسيويين والأفارقة (من بينهم جواهر لال نهرو من الهند، وهو شي منه من فيتنام، ولامين سنغور من السنغال) مشتركين فيها. ومن الأمور ذات الدلالة الخاصة ان الرئيس الأندونيسي سوكارنو، في كلمته الافتتاحية في مؤتمر باندونغ لعام ١٩٥٥، ألمح إلى مؤتمر بروكسيل هذا المعقود في ١٩٢٧ على أنه سلف من نوع ما...

«كذلك نجد ايضًا، قبل عقد كامل من مؤتمر باندونغ، أن مؤتمر التجمع الافريقي الخامس لعام ١٩٤٥، المعقود في مانشستر، انكلترا، لم يبشر بظهور حركة العالم الثالث فحسب، وإنما صاغ ايضًا إيديولوجيات صارت في ما بعد مرتكزات للتحدي الذي يمثله العالم الثالث. وقد تجلّى ذلك في ما صدر عنه بعنوان «إعلان إلى شعوب المستعمرات في العالم»، وهو إعلان صاغه كوامي نكروما، الأمين السياسي المشارك للمؤتمر، ويحضّ فيه أهل المستعمرات من العمّال والمزارعين والمفكرين والمهنيين في كل مكان على دحر الامبريالية، ويحث شعوب المستعمرات والشعوب الخاضعة في العالم أجمع على الاتحاد...

«... وكان تشكيل المجموعة الأسيوية-الأفريقية في الأمم المتحدة في ١٩٥٠، وعقد مؤتمر باندونغ في ١٩٥٥، وإنشاء منظمة تضامن الشعوب الأفريقية الأسيوية في ١٩٥٧، هي أهم السلائف والأسس الأفرو-آسيوية التي قامت عليها حركة العالم الثالث الأوسع نطاقًا في أوائل الستينات. إلا ان مؤتمر باندونغ هو، من بينها جميعًا، أنسب نقطة لبداية التحليل...» **(مقتطفات من الفصل الثامن والعشرين من المجلد الثامن بعنوان «افريقيا والمناطق النامية»، بقلم لوكسلي إدموندسن، من «تاريخ افريقيا العام»، اليونسكو، قيد الطبع معرّبًا، بيروت، ١٩٩٨).**

قمة عدم الانحياز الأخيرة، الثانية عشرة، عقدت في دوربان بجنوب افريقيا في ايلول ١٩٩٨ (القمة الأولى عقدت في بلغراد ١٩٦١ وكانت بدأت بـ٢٩ عضوًا)، وشارك فيها ٦٠ رئيس دولة ومئة وزير خارجية من دول حركة عدم الانحياز (التتمة ص٦١)

العالم الثالث يعيشون في اجواء ملوثة على مدى ٢٠٠ يوم في السنة، مع ان الحد الأعلى «المقبول» هو سبعة ايام في السنة حسب معايير منظمة الصحة العالمية. ومن هذه المدن بكين وكلكوتا ونيودلهي وطهران ومكسيكو والقاهرة. والمدينتان الأخيرتان تضربان بعض الارقام القياسية. فمكسيكو، بالملايين الـ١٨ من سكانها، هي المدينة الأكثر تلوثًا في العالم. فمن يعيش ويتنفس الهواء في مكسيكو كمَنْ يدخن اربعين سيجارة في اليوم حسبما يقدّر الخبراء. ونظرًا إلى ارتفاع المدينة (على علو ٢٣٠٠م)، فإن كمية الأوكسيجين في جوها تقل أصلاً بمقدار ٣٠٪ عن المدن الواقعة عند سطح البحر. ونظرًا ايضًا إلى ثلاثة ملايين سيارة فيها، فإن معدلات التلوث بالرصاص فيها ترتفع إلى ستة اضعافها في المدن الأخرى. وقد دلّ تحليل عينات الدم على ان ٧٠٪ من اطفالها في المنطقة الشمالية يحتوون في دمائهم على أكثر من ٤٠ملغ من الرصاص في كل عشرة ليترات، علمًا بأن الحد الأعلى «المقبول» ينبغي ألا يتخطى عتبة ١٠ أو ١٥ملغ. وثمة عامل آخر للتلوث في مكسيكو، وهو تفسخ المواد البرازية وما تنشره من جراثيم عضوية في الجو. فقبل ١٠ سنوات قدر الخبراء ان مليونين من سكان مكسيكو يتغوطون في الهواء الطلق ويفرزون يوميًا ٢٥٠ طنًا من المواد العضوية الملوثة. ويفترض الآن ان تكون هذه الارقام قد تضاعفت ثلاث مرات. أما القاهرة فتضرب، مع أديس أبابا، رقمًا قياسيًا عالميًا في نسبة من يعيشون من سكانها في احياء غير صحية: فهو يصل إلى ٨٤٪ مقابل ٥٧ في بومباي و٤٠ في مكسيكو. ولا تصل الكهرباء إلى ٢٠٪ من سكان القاهرة، ولا الماء الجاري إلى ٣٠٪ من سكانها. أما نقص المساكن فيها فيقدر بـ٦٠٠ ألف. وأخيرًا فإن مدن الهند تضرب مثالاً على تلوث من نوع آخر يمس البيئة البشرية نفسها. فبموجب إحصاء جرى في ١٩٧٣، قدر عدد المتسولين في الهند بنحو ٥،٥ مليون (أي ١٪ من إجمالي السكان آنئذ). منهم ١١٥ ألف طفل، و٨٠٠ ألف أعمى، و٣٠٠ ألف أصم وأخرس، و١٥٠ ألف مصاب بالجذام، و١٠٠ ألف معتوه. ومظهر آخر من مظاهر تلوث البيئة البشرية تقدمه بعض مدن جنوب شرقي آسيا: ففي بانكوك يقدر عدد البغاي بأكثر من ٢٠٠ ألف (بحمل هذا الموضوع، «الارقام أصدق التعريفات»، عن جورج طرابيشي، عن كتاب جورج كازس وجان دومنغو: «العالم الثالث: زمن الانكسارات»-بالفرنسية- «الحياة»، العدد ١٢٠٤٨، تاريخ ١٨ شباط ١٩٩٦، ص١٤).

قضية ديون العالم الثالث

خطوط عريضة: انها قضية بالغة الأهمية يتوقف عليها العديد من مسارات دول العالم الثالث ومصائرها ويتشابك فيها السياسي بالاقتصادي بالاجتماعي، وعُقد، ويُعقد بشأنها العديد من المؤتمرات الدولية والإقليمية والوطنية المحلية، وتوضع الدراسات وتقدم المقترحات للحلول. ولكن القضية لا تزال شائكة وعالقة تؤرق حياة دول العالم الثالث وتقف على رأس لائحة معوّقات تقدمها.

يمكننا إيجاز الخطوط العريضة لقضية ديون العالم الثالث (حتى اوائل ١٩٩٨) بالنقاط التالية:

١- يبلغ إجمالي هذه الديون ٥٠٦ بلايين دولار.

٢- تشكل عجزًا في ٤٠ دولة الأفقر في العالم (تقديرات صندوق النقد الدولي).

٣- كفيلة، لوحدها، بأن تفاقم من الأزمات الاقتصادية والاجتماعية والمعيشية في هذه الدول، بحيث تؤدي إلى وفاة ٢١ مليون طفل مع نهاية القرن إذا لم تبادر الدول الغنية المقرضة إلى تخفيف أعباء تلك الديون التي تحول دون إنفاق الدول الفقيرة مبالغ ديونها على حاجاتها الانسانية الأساسية كالصحة والرعاية الاجتماعية.

٤- قضية الديون إقتصادية بحتة في ظاهرها، سياسية-اقتصادية-اجتماعية (فساد وقرارات خاطئة وتبعية) في جوهرها (هكذا كانت هذه الديون تاريخيًا: ديون مصر، ايران، وغيرهما... وهكذا لا تزال).

٥- شروط صندوق النقد الدولي (الشريك الكامل للبنك الدولي) الاقتصادية والمالية الصارمة على الدول المديونة للحصول على تسهيلات عاجلة. والمعروف ان غالبية الدائنين تتحكم بهاتين المؤسستين الماليتين.

٦- مناخ إيجابي، بشأن الديون، بدأ مع لقاء الدول السبع الغنية في إطار الاجتماع السنوي لصندوق النقد والبنك الدوليين في ٢١ ايلول ١٩٩٧. ونقل عن هذا اللقاء انه بصدد تحرير بعض الدول من أعباء الديون، وتخفيفها عن البعض الآخر.

٧- مناخ آخر يبعث على التشاؤم، مردّه إلى إصرار صندوق النقد الدولي على تسديد الديون كاملة حتى لا يتعرض إلى خسارة، وتمسكه بشروطه في تقديم القروض مثل ترسيخ حرية السوق وإطلاق الدول لحرية انتقال رأس المال وانسياب قروض الاستثمار خارج الدولة وبالعكس (حرية تجارة البضائع وحرية عبور رأس المال). وهذا أمر يرعب الكثيرين من السياسيين والاقتصاديين،

(تتمة ص٥٩)
التي أصبح عددها ١١٤ دولة بعد انضمام بيلاروسيا إليها أثناء القمة (وكانت الدولة المضيفة، جنوب افريقيا، انضمت إليها في ١٩٩٥، أي بعد زوال النظام العنصري من البلاد).

لم يعد التئام قمة الدول غير المنحازة (وكذلك كل قمة أو مؤتمر لهذه الدول، أو لمجموعة الـ٧٧...) معلمًا يحظى بالهيبة التي كانت له إبان نظام القطبية الثنائية حيث كان الاتحاد السوفياتي متعاطفًا مع الحركة ومناصرًا لأبرز القوى الفاعلة فيها (الهند، مصر ويوغوسلافيا)، في حين كانت الولايات المتحدة تبدي امتعاضًا شديدًا منها، وتمضي الآن، بعد زوال الاتحاد السوفياتي، في استئصال بواعث هذه الحركة وجرفها تحت جناحها في تيار العولمة التي تنادي به.

وصدر عن قمة دوربان إعلان جاء معظمه تكرارًا للائحة طويلة (تضمنتها ايضًا القمم السابقة في جاكرتا وهراري وكولومبيا) من التمنيات والآمال بالقضاء على الفقر وإقرار السلام والأمن والتنمية. وقد أعرب أعضاء الحركة الذين يمثل بعضهم الدول الأكثر فقرًا، عن قلقهم من عولمة الاقتصاد «التي ترجمت بتهميش متزايد لغالبية الدول النامية». ودفعهم هذا الوضع إلى المطالبة باصلاح الهيئات المالية الرئيسية وبتنظيم جديد للأسواق المالية. وأشاروا، وفقًا لرغبة جنوب افريقيا، إلى ضرورة العمل جماعيًا من أجل شراكة مع الدول المتطورة وتحقيق تقدم في الحوار بين الشمال والجنوب، علمًا ان بعض دول مجموعة الثماني (الدول الصناعية)، ومن بينها الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا، دعيت للمرة الأولى إلى حضور أعمال قمة دول عدم الانحياز.

واتفق أعضاء الحركة، في قمة دوربان، على المطالبة بمؤتمر دولي في شأن الارهاب برعاية الأمم المتحدة من أجل «رد منسق من الأسرة الدولية» على هذه المشكلة. وعلى رغم التجارب النووية التي قام بها اثنان من أعضاء الحركة (الهند وباكستان) قبل ايام قليلة من انعقاد قمة دوربان، فقد كررت دول عدم الانحياز الدعوة إلى نزع السلاح الذي يشكل أحد اهتماماتها الأساسية منذ إنشائها.

رئيس جنوب افريقيا
نلسون مانديلا (إلى اليسار)
والرئيس الكوبي فيديل كاسترو
لدى اختتام مؤتمر قمة دوربان (ايلول ١٩٩٨).

خصوصًا في الوقت الذي تزداد فيه الحساسيات بسبب انهيار الثقة وهروب اموال الاستثمارات مثلما حصل في دول جنوب شرقي آسيا، لذلك يطالبون بتحديث نظام صندوق النقد الدولي.

٨- تحديث نظام هذا البنك يتطلب الحد من تدخله في طريقة إدارة الحكم في دول العالم الثالث، وتخفيف شروطه الاقتصادية والمالية. وأبرز معالم شروط الصندوق تدخله في السياسات العامة، وفي مجالات الوظائف وسوق العمالة والتجارة والزراعة والفساد.

نموذج دول «النمور الآسيوية» مع الديون:

(راجع بشأن هذه الدول، وأعجوبتها الاقتصادية ج٢، ص١٠١-١٠٤).

فوجىء العالم، منذ الشهور الأخيرة من ١٩٩٧، بالازمات المالية المتتالية لدول جنوب شرقي آسيا التي كانت، قبل هذا التاريخ وعلى مدار نحو عقدين من الزمن، مثار اعجابه وانبهاره باعتبارها المعجزة الآسيوية.

وفجأة اكتشف العالم ان تايلاند وكوريا وأندونيسيا وماليزيا على شفا الانهيار المالي. واهتزت البورصة وتدهورت أسعار الصرف لمعظم هذه الدول واضطر صندوق النقد الدولي إلى التدخل السريع بتوفير مليارات الدولارات لكل من تايلاند وكوريا الجنوبية وأندونيسيا، وخرج رئيس وزراء ماليزيا يتهم الغرب والمضاربين بالمؤامرة. وثار جدل كبير حول أسباب هذه الأزمة (الجدير ذكره انه قبل ذلك بعدة أعوام فوجىء صندوق النقد الدولي ايضًا بأزمة مشابهة هي أزمة المكسيك التي اقتربت من حافة الافلاس وكانت تقاريره عنها تشير إلى اعتبارها أحد النماذج للاصلاح الاقتصادي)، وحول دور صندوق النقد الدولي ومدى هشاشة ورقابة وكفاءة وفاعلية هذا الدور.

الرأي الغالب بين محلّلي هذه الأزمة التي أصابت، فجأة، النمور الآسيوية، هو القائل بأنها أزمة مالية بأكثر مما هي أزمة اقتصادية عينية، بمعنى ان القطاع المالي، وفي مقدمته القطاع المصرفي، يعاني من ضعف أصيل يتميز بالاسراف في منح الائتمان على أسس سياسية وشخصية (أي على أسس مصلحة سياسية وأسس مجاملة شخصية) بعيدًا عن الاعتبارات الاقتصادية الموضوعية. وبذلك، وجدت البنوك نفسها متورطة في قروض وتسهيلات بلا ضمانات حقيقية، مما فرض عليها أعباء مالية ضخمة أثرت في مراكزها المالية وهددتها بالافلاس. أضف إلى ذلك اقتراض البنوك بضمانات غير حقيقية والانكشاف الكبير أمام القروض الأجنبية... ومع هذا التدهور في الاوضاع المالية والمصرفية، وانعكاسه على المشروعات، تتجه التوظيفات الأجنبية للهروب.

ومع غلبة الثروة المالية (حقوق مالية، سندات، بورصة،...)، في دول النمور الآسيوية، على الثروة العينية (مصانع، أدوات،...)، تحول الاقتصاد إلى نوع من الاقتصاد الرمزي الذي تحركه رموز أو مؤشرات. فأصبح النشاط الاقتصادي شديد التأثر بأي تغيير في أسعار البورصات أو إحصاءات موازين المدفوعات أو أرقام البطالة ومعدلات ارتفاع الاسعار... وفي مثل هذه الاحوال تصبح اعتبارات الثقة والاحوال النفسية للمتعاملين في هذه الاصول المالية هي العامل الحاسم. وكثيرًا ما قيل وصفًا عن نفسية المتعاملين في الاسواق المالية بأنهم يسيرون وفقًا لـ«غريزة القطيع». فأية إشاعة أو تردد أو إقبال من جانب عدد من المستثمرين لا بد وأن ينعكس على الأسعار ويؤدي بالتالي إلى سلسلة متتابعة من ردود الأفعال.

«وأخيرًا، فقد سبق أن أثارت تجربة هذه النمور الآسيوية جدلاً واسعًا تناول مدى فاعلية الاصلاح الاقتصادي في غيبة إصلاح سياسي وتحقيق مزيد من الديمقراطية والمشاركة السياسية. فقد كان الرأي الغالب يرى ان الاصلاح الاقتصادي واستقرار نظام السوق يتطلب، وعلى التوازي، إصلاحًا سياسيًا. فقد رأى الفكر التقليدي ان هناك تكاملاً بين اقتصاد السوق والديمقراطية السياسية. فالفكر الليبرالي يرى إلى الحرية السياسية والاقتصادية فَرَسَي رهان لا ينفصلان، ومع ذلك فقد جاءت تجربة هذه البلدان مؤكدة إمكان فصل الاصلاح الاقتصادي والاصلاح السياسي. فقد اعتمدت هذه الدول على نظام السوق والانفتاح على الاقتصاد العالمي في استراتيجية للتصدير، ولكنها خضعت بدرجات متفاوتة لنظم سياسية يصعب إدراجها في إطار الديمقراطيات السياسية. وهكذا قدمت هذه الدول نموذجًا للنجاح الاقتصادي مع استمرار نظم سياسية بعيدة عن الديمقراطية والمشاركة السياسية. وقد كان النجاح الاقتصادي لهذه الدول حجة كافية لدعاة تأجيل الاصلاح السياسي في عديد من الدول النامية مع الدعوة إلى العمل فقط-على الاقل مرحليًا- على جبهة الاقتصاد. وجاءت الأزمة المالية الأخيرة لنمور جنوب شرقي آسيا لتطرح من جديد قضية الاصلاح السياسي وخاصة في ما يتعلق بقضايا الفساد واستغلال النفوذ في هذه الدول. فقد اتضح ان ضعف

«جبل الشمع الذائب»، أو أزمات النمور الآسيوية (خاصة اندونيسيا) بعد سنوات من اعجوبتها الاقتصادية (لوموند ديبلوماتيك، عدد ايار ١٩٩٨، ص ٣).

القطاع المالي في كثير من هذه الدول إنما ارتبط إلى حد بعيد بالفساد السياسي وإثراء الطبقات الحاكمة في غيبة المسؤولية والمساءلة. وهكذا يطرح من جديد التساؤل حول مدى إمكان استمرار نجاح اقتصاد السوق في غيبة دولة القانون وتداول السلطة والمساءلة. وهي قضايا لا تزال مطروحة على العديد من دول العالم الثالث، ولا يبدو انها سوف تجد إجابات قاطعة في المستقبل القريب» (عن د. حازم الببلاوي، ممثل السكرتير العام للامم المتحدة، الأمين التنفيذي للجنة الاقتصادية والاجتماعية لغربي آسيا- إسكوا-، من محاضرة له ألقيت في «دار الندوة»، بيروت، ١٠ آذار ١٩٩٨، ونشرتها مجلة «المنابر»، العدد ٨٤، آذار ١٩٩٨، ص٤٦-٥٢).

مضى ربيع ١٩٩٨ ودول النمور الآسيوية تحاول معالجة أزمتها المالية خاصة لجهة آثار الديون المستحقة عليها باعادة هيكلة الديون الأجنبية قصيرة الأجل منها، وتحويلها إلى ديون طويلة الأجل وخاصة المملوكة منها للشركات الخاصة. وهناك اقتراحات وخطوات واجتهادات يتعاون في التخطيط لها البنك الدولي والادارة الامبركية واليابان، تقوم على إنشاء صناديق لإطفاء الديون وجدولة بعضها وكشف الرديئة منها.

لكن، في حين تبدو جبهة انعكاسات الأزمة على الاوضاع الاجتماعية لا تزال هادئة نسبيًا، خاصة بالنسبة إلى كوريا الجنوبية التي توصلت، في ٢٩ كانون الثاني ١٩٩٨، إلى اتفاق مع مجموعة المصارف الدولية لاعادة جدولة ٢٤ بليون دولار من ديونها قصيرة الأجل من أصل ديونها الخارجية البالغة رسميًا ١٥٣ بليون دولار حتى نهاية ١٩٩٧، فإن المعالجات المشابهة التي توصلت إليها أندونيسيا لم تجنّبها الانعكاسات الاجتماعية العنيفة. ففي اواسط ايار ١٩٩٨، بدأت اضطرابات إجتماعية واسعة النطاق في جاكرتا (أعمال شغب، حرق متعمد ونهب وقتل-نحو ٢٠٠ قتيل في يوم واحد) في وقت أصيبت الأسواق المالية وأسواق السلع بحالة شلل فعلي. وكانت الروبية أكبر ضحية اقتصادية لهذه الأزمة في أندونيسيا، إذ انخفضت قيمتها بنسبة ٢٥٪ خلال أربعة ايام فقط (١٢-

١٥ ايار ١٩٩٨)، فبلغ سعرها ١١٥٠٠–١٢٥٠٠ مقابل الدولار الواحد. وأثيرت المخاوف من أن تمتد الانعكاسات الاجتماعية الحاصلة في اندونيسيا لأزمة مالية واقتصادية تطال «نمور آسيا» إلى مناطق أخرى في هذه المنطقة.

وتبدو أندونيسيا «المنشأ الحقيقي لهذا الخلل الاجتماعي. فانهيار العملة الوطنية فيها، ودوامة التضخم المالي، أدّيا إلى إفلاس العديد من الشركات. وبعد ٣٠ سنة من الحكم الحديدي، وفي ظل غياب وارث محتمل للرئيس سوهارتو، فإن الفساد المتأصل يفتك بالدورة الاقتصادية في القطاعين الخاص والعام. ومن سخريات القدر ان الثروة الشخصية لعائلة سوهارتو تقدر بـ٤٠ مليار دولار، وهو المبلغ نفسه لمجموع الدين الخاص والعام المترتب على أندونيسيا وفق تقديرات الشبكات المصرفية الاجنبية المدعوة إلى المساعدة (...) ومع الاعلان عن موجات التسريح، وعن زيادة أسعار المواد الاستهلاكية انفجر الغضب الشعبي منساقًا للنزوات العنصرية ومستهدفًا، بعنف بلغ حد النهب الجماعي، الأقلية الصينية التي تمسك بمعظم الاعمال التجارية في الارخبيل، مما يعود بالذاكرة، وللأسف، إلى الاحداث المأسوية التي وقعت في ١٩٦٥» (جون إيفنز، الأمين العام للهيئة النقابية الاستشارية في منظمة التعاون والتنمية الاقتصادية، باريس، «لوموند ديلوماتيك»، عدد ايار ١٩٩٨، ص٣).

حالة أميركا اللاتينية (مناقشة): يبدو ان اميركا اللاتينية بصدد الدخول في طور من الرفاه. كل المؤشرات، سياسية أم اقتصادية توحي بذلك. فالمنطقة خرجت من حروبها الأهلية ومن ثوراتها المزمنة وبدأت تنعم بسلام لم تشهد مثيلاً له منذ فجر الستينات. كما ان الديمقراطية ترسخت فيها، أو هي بصدد الترسيخ، بحيث لم يبق بلد من بلدانها، ما عدا كوبا فيدل كاسترو، إلا ونظم انتخابات أجمع المراقبون على القول بأنها كانت ديمقراطية. وتحسنت أوضاع حقوق الانسان في تلك البلدان على نحو ربما لم يسبق أن عرفته في تاريخها الحديث.

أما اقتصاد اميركا اللاتينية، فهو، وان استرعى انتباه أقل من نظيره الأسيوي الأقصى، إلا انه واحد من أكثر اقتصادات العالم ديناميكية ونهوضًا، حيث حقق خلال الثماني سنوات الماضية نموًا ثابتًا ومستديمًا، بلغت نسبته ٥٪ سنويًا، وذلك بعد ان نجحت بلدان القارة في استكمال انتقالها إلى اقتصاد السوق وفي تنفيذ الخصخصة.

هكذا تبدو اميركا اللاتينية صاحبة أنجح تجارب الانتقال إلى الديمقراطية واقتصاد السوق، وهو ما قد لا نجد مثيلاً له لا في بلدان آسيا القصوى ولا في بلدان الشرق الاوروبي التي كانت تحت ربقة الشيوعية. فإذا كان الأداء الاقتصادي الآسيوي يبدو من حيث معدلات نموه الخارقة في بعض الحالات أكثر بريقًا إلا أنه يبدو كذلك معرضًا لاهتزازات كبيرة ذات وقع مدمر على اقتصاد العالم برمته، كما دلت على ذلك الأزمة النقدية التي منيت بها بلدان تلك المنطقة خلال الأشهر الماضية.

أما الديمقراطية وحقوق الانسان فهي نائية تمامًا عن مشاغل قادة تلك المنطقة ممن يتذرعون بما يسمونه «القيم الآسيوية» من أجل تجنب الخوض في أي شأن ديمقراطي، وممن يعتبرون أن الرفاه الذي يحققونه لشعوبهم يجعلهم في حل من أي تنازل في هذا الصدد.

وأما بلدان اوروبا الشرقية، وفي ما عدا بعض الحالات القليلة كجمهورية تشيكيا فهي في الغالب تجد صعوبات كبيرة في تحقيق انتقالها إلى الديمقراطية أو في إنجاز انتقالها إلى اقتصاد السوق أو في الأمرين معًا. وكل ذلك، بالمقارنة مع المنطقتين المذكورتين، يجعل اميركا اللاتينية تبدو بمثابة الحالة النموذجية في صدد النجاح في تحقيق التحولين، السياسي والاقتصادي، معًا ويدًا بيد.

لذلك، فإنه لا يمكن لقمة الاميركيتين، تلك التي افتتحت اعمالها في نهاية هذا الاسبوع (اواسط نيسان ١٩٩٨) في سانتياغو، عاصمة تشيلي أن تنعقد في ظروف أفضل من هذه. فتلك القمة، وهي الثانية من نوعها منذ تلك التي التأمت في ١٩٩٤ وحضرها ٣٣ رئيس دولة من شمالي القارة (الولايات المتحدة وكندا) كما من جنوبيها، هي بمثابة الطقس الاحتفالي بتلك النجاحات. فالولايات المتحدة هي التي دفعت دومًا وضغطت بالحاح (على الأقل منذ ان زال الخطر السوفياتي ولم تعد مضطرة إلى دعم دكتاتوريات شنيعة لا مزية لها سوى مواجهة الحركات الثورية) باتجاه الديمقراطية واتجاه السوق. بل يمكن القول ان الولايات المتحدة نجحت ربما لأول مرة، والاستثناء الحالة الكوبية الخاصة، في توحيد نصف الكرة الارضية الغربي، ذلك الذي رأت فيه دومًا مجالها الحيوي الذي لا يجب ان ينازعها فيه أحد، تحت قيادتها ووفق فلسفتها السياسية والاقتصادية، أو هي بصدد النجاح في ذلك (...).

قياسًا إلى كل ذلك، تبدو قمة سانتياغو بالنسبة إلى الرئيس الاميركي، كلينتون، بمثابة اللقاء العائلي والمريح. ويكفي إشارة إلى ذلك جدول أعمال القمة المذكورة. فهذه الأخيرة انكبت على بحث قضايا الفقر والتجارة

والتربية والمخدرات. وهـذه كلهـا ملفـات، علـى أهميتهـا، قطاعية أقرب إلى الصبغة التقنية، وهي على أيـة حـال ليس بينها ما يتعلق بمسألة سياسية عويصة أو بخلاف حول نقطـة استراتيجية كبيرة لا يمكنها ان تحسم على صعيد الخبراء.

غير ان هـذه التحـولات التي طرأت على القـارة الاميركيـة الجنوبيـة وذلـك الارتيـاح الـذي تبديـه واشـنطن حيالها قد لا تكون مشرقة بالدرجة التي قد توحي بها ارقـام نسب النمو والانتخابات الديمقراطية. ذلك ان التحولات لم تنعكس علـى الجميـع رفاهًـا بـل إنهـا خلقـت تفاوتـات اجتماعية فادحة قد تصبح عامل اضطراب وزعزعة بالنسـبة إلى الديمقراطيات الوليدة في تلك المنطقـة. ففـي بلـدان مثـل تشيلي أو المكسيك أو البرازيل أو غواتيمالا، يسيطر ٢٠٪ من السكان على ٦٠٪ من الدخل الوطني، هـذا إلى جـانب مظاهر الفساد والرشوة التي تستفحل في تلك البلدان، كمـا حدث قبل ايام مع رئيس فنزويلا السابق كارلوس أندريـس بيريز الذي ألقي القبض عليه بتهمة الإثراء غير المشروع.

ثم ان المشكلة الأبـرز الـتي تعـاني منهـا مجتمعـات اميركا اللاتينية، وهـي ليست بعيـدة عـن مسـألة التفـاوت الاجتماعي، إنمـا تتمثـل في انتشـار الجريمـة والعنـف بشـكل يبدو انه يفوق أي مكان آخر في العالم. ففي المدن الكـبرى لتلك القارة، أصبحت أعمـال الخطـف والسـطو والاعتـداء وإنتاج وتهريب المخدرات... ممارسة يومية بالغة الشيـوع. وقـد ذهـب بعـض الخـبراء إلى القـول بـأن الجريمـة بـاتت «الحاجز الرئيسي في وجـه التطـور الاقتصـادي للمنطقـة»، وانها تكلف بلدانها ١٦٨ بليون دولار سنويًا أي ما يوازي ١٤٪ من دخلها القومـي الخـام. بـل ان الخطـف أصبـح في بعـض البلـدان صناعـة بحيـث مـا بـات يكتفـي باسـتهداف الأثرياء. ففي بيرو أصبح يجري اختطاف أي كان، على أن يخلى سبيله مقابل مئات قليلة من الدولارات. وبما ان الدولة عاجزة على فرض الأمن، أو بما أن الفسـاد ينخـر أجهزتهـا الأمنية، تكاثرت الميليشيات ومجموعات الدفاع الخاصة.

وإذا كـان مـن الصحيـح ان العنـف علـى الـدوام ملمحًا ثقافيًا ثابتًا في مجتمعات اميركا اللاتينية، إلا ان ذلـك العنـف كـان يجـد سبل التعبير عنـه عـبر قنـوات الانتظـام الايديولوجي أو ما شابهها من وسائل الضبط الجماعي. أما الآن فإنه يبدو عملاً فرديًا أكثر فأكثر وازعه الربح وحـده. وكأنما ذلك الموروث هو الـذي استوعب اقتصـاد السـوق على ذلك النحو الاجرامي، وليس العكس، أي أنه كما لـو أن اقتصاد السوق لا يأتي إلى المجتمعات التي ينغرس فيها بما لم يكن موجودًا فيها، بل هو يتلاءم معها استبدادًا في آسيا وعنفًا تحول إلى الاجرام العسرف في اميركـا اللاتينيـة... وهكذا.

قـد تكـون هـذه نظـرة إلى الأمـور لا تخلـو مـن سوداوية، ولكنها مع ذلك تطرح سـؤالاً ربمـا كـان جديرًا بأن يطرح. ففيما عدا الحالة اليابانية الخاصة، هذه هي المرة الاولى في التاريخ حيـث تنتشـر الرأسماليـة خـارج حدودهـا التاريخية ممثلة في العالم الغربي. ويبقـى مـن المهـم ان نراقـب بدقة كيف يمكن لذلك ان يجري وكيف تتعـامل المجتمعـات الأهليـة مـع هـذا المستجد؟ (عـن صـالح بشـير، «الحيـاة»، تيـارات، العـدد ١٢٨٢٩، تـاريخ ١٩ نيسـان ١٩٩٨).

العالم العربي
(الوطن العربي)

تعريفات ومقدمات تاريخية

الاسم: «العرب» و«العالم العربي»: ظهر إسم «العرب» مكتوبًا في المصادر الأشورية خلال القرن التاسع ق.م. عندما أطلقوه على بعض ممالك شمالي الجزيرة. ولم يستخدم هذا الإسم في المصادر التاريخية للدلالة على كل سكان شبه الجزيرة العربية إلا منذ العصر الروماني. ويرجّح كثيرون أن ثمة علاقة بين إسم «عرب» وإسم «أسد»، حيث أن الأسد كان يعتبر رمزًا طوطميًا لقبائل شمالي شبه الجزيرة، وقد أعطوه أسماء عديدة في لغاتهم وردت في الكثير من أشعار الجاهليين الذين تغنوا بتلك الحيوانات. ومن الأسماء القديمة للأسد: «عر» الذي منه تأتي كلمتا «عرين» و«ذعر»، وتكون «عرب» دلالة على انتماء هذه الأقوام إلى الأسد. وبعض المؤرخين القدماء يرجحون أن إسم «عرب» قد جاء من نشأة اسماعيل بن ابراهيم وبنيه، وسكناهم-وهم العرب العدنانيون- بمنطقة «عربة» في تهامة في شبه الجزيرة.

وثمة آراء كثيرة، لمؤرخين وعلماء آثار، عن بدايات الكتابة العربية وأصلها وعلاقتها بالفينيقية وكتابات شبه جزيرة سيناء. لكن الأكيد، والمجمع عليه، ان ظهور الأبجدية العربية الحديثة كان في نهاية القرن الثالث الميلادي، وان هذا الظهور ليس دليلاً على ان اللغة العربية نفسها بدأت في ذلك التاريخ، فقد كان العرب يتحدثون بهذه اللغة منذ مئات السنين قبل ذلك، وان ظهور العربية الفصحى (الجامعة للأقوام العربية) لا بد وان يرتبط بظهور الابجدية العربية الجديدة.

أما تسمية «العالم العربي» فمصطلح عربي شاع استخدامه في أعقاب الحرب العالمية الثانية للدلالة على الرقعة الجغرافية والمجموعة اللغوية التي تسكنها. وتضم هذه الرقعة الحزام الاقليمي الممتد من المحيط الأطلسي إلى الخليج العربي (أكثر المراجع الأجنبية تسمّيه «الخليج الفارسي»، وبعضها يفضل استعمال مصطلح تسووي، فيقول «الخليج العربي-الفارسي») عبر قارتي آسيا وافريقيا، أي ما يُعرف بالمغرب العربي والمشرق العربي، وهي الرقعة التي تقطنها «شعوب الأمة العربية» التي تتكلم اللغة العربية.

القوميون العرب اعتبروا، منذ بدايات حركاتهم ومنظماتهم واحزابهم بعيد الحرب العالمية الثانية، ان غرض الغربيين من إطلاق كلمة «العالم» هو للدلالة على تعدده وتناثره بدلاً من وحدة أرضه وشعبه أو شعوبه، فاستعملوا مصطلح «الوطن العربي» الذي يتضمن مفهوم الوحدة القومية والذي يشكل مصدر خطر على المصالح الامبريالية.

انتعش مصطلح «الوطن العربي»، وتقلّص مصطلح «العالم العربي»، مع تنامي الحركات والاحزاب القومية العربية، وخاصة في الخمسينات والستينات. ثم جاءت أحداث الربع القرن الأخير، في المنطقة والعالم، لتقلّص المصطلحين معًا لمصلحة أسماء إقليمية أضيق (مجلس التعاون العربي، الاتحاد المغاربي...)، كما جاء النظام العالمي الجديد (والعولمة) بلغة سياسية واقتصادية أحلّت، إلى حد كبير، مصطلح «الشرق الاوسط» محل المصطلحين، «العالم العربي»، و«الوطن العربي».

العرب: أمة من الناس، سامية الأصل، كانت نشأتها الأولى في شبه الجزيرة العربية. ويتفق الباحثون على ان من العرب أقوامًا قد بادوا وانقرضوا، قديمًا، وقبل عصور التدوين، ويسمونهم «العرب البائدة» ويذكرون منهم: عرب عاد، وعرب ثمود (ورد ذكرهما في القرآن الكريم)، وطسم، وجديس.

والجيل العربي الذي يلي «العرب البائدة» هم القحطانيون، عرب الجنوب، بنو يعرب بن قحطان، ــــ

العالم العربي

ويسمونه بـ«العرب العاربة» أي الخلّص عرقًا ونسبًا. ولقد سمّوا بذلك تمييزًا لهم عن «العرب المستعربة»، وهم العدنانيون، بنو اسماعيل بن ابراهيم الذي أقام في بيئة عربية وتزوج من عربية، فتعرّب هو وبنوه، وكان منهم جيل العرب العدنانيين، أي عرب وسط شبه الجزيرة. ومنذ ذلك التاريخ وضح المحتوى الحضاري للعروبة؛ فاللغة والعادات والتقاليد والقيم العربية، والولاء لهذه المكونات الحضارية هي المعيار، وليس العرق والجنس والنسب. وهذا المعيار أحياه وأكده رسول الله محمد عندما خطب في الناس فقال:«أيها الناس، ليست العربية بأحدكم من أب ولا أم، وإنما هي اللسان، فمن تكلم العربية فهو عربي».

ومنذ ما قبل الاسلام، بل والميلاد بقرون طويلة، عرف جنوب شبه الجزيرة العربية للعرب القحطانيين دولاً وحضارة، تعرفنا على تاريخ بعضها ولا تزال أكثر أخبارها طي الكتمان. فالقحطانيون قد انقسموا إلى حضر، وهم حمير، وإلى بدو، وهم كهلان. ومن مواطنهم حدثت هجرات متعاقبة إلى الشمال والشرق والغرب، دفعت بها عوامل اقتصادية، مثل تصدع سدّ مأرب في اليمن (القرن الثالث الميلادي)، وبعض هذه الهجرات قد وصل مصر القديمة، وأثمرت آثارًا في لغتها الهيروغليفية أثبتها دارسون متخصصون. وأشهر هذه الهجرات تلك التي قام بها آل جفنة (الغساسنة) بعد تصدع سد مأرب، فاستوطنوا بلاد حوران وشرقي الاردن وفينيقيا وفلسطين، واعتنقوا المسيحية بعد ان دخلت بلادهم في مناطق نفوذ الروم البيزنطيين، واستمروا كذلك حتى دخلوا الاسلام (أو دخل معظمهم الاسلام) وأسهموا في بناء الدولة العربية الاسلامية الموحدة.

ومن هجرات عرب اليمن الشهيرة كذلك هجرة اللخميين (المناذرة)، وهم إخوة قبيلة جذام وقبيلة عاملة، رحلوا إلى حيث استوطنوا في الشمال، وأقاموا دولتهم في الحيرة، واعتنقوا المسيحية، وأخضعهم الفرس لنفوذهم، حتى جاء الاسلام فأصبح ديانتهم، وبه أسهموا في بناء الدولة العربية الاسلامية الجديدة.

ومن هجرات عرب الجنوب كذلك هجرة الأوس والخزرج إلى يثرب واستقرارهم بها.

وكما امتد نفوذ الروم على الغساسنة، ونفوذ الفرس على المناذرة، امتد نفوذ الأحباش على اليمن، وكذلك نفوذ فارس. وشهدت هذه البلاد، في جاهليتها (البعض، وفي مقدمتهم، وكما هو معروف، الكاتب والأديب المصري طه حسين، يرفضون هذه التسمية «الجاهلية» على عصر ما قبل الاسلام)، هبات قاومت ذلك النفوذ، من مثل تلك التي قادها سيف بن ذي يزن (٥١٦-٥٧٤م) وتلك التي واجهت زحف الحبشة على وسط شبه الجزيرة (مكة) عام الفيل سنة ٥٧١م.

وإذا كانت البداوة قد غلبت على عرب الجاهلية، فإن مناطق الاستقرار (الحواضر) قد عرفت التحضر والحضارة، بل إن العرب لا يسمون البدو «عربًا» وإنما يسمونهم «أعرابًا»، و«العربي» هو من «تحضر»، أي أخذ بأسباب الحضارة، وأولها التوطن والاستقرار.

ومنذ زمن قديم، كانت شبه الجزيرة العربية طريق التجارة الدولية، ومن هنا كان دور العربي في التجارة قديمًا، الأمر الذي ربطه بالحضارة في وقت مبكر. فـ«تدمر» و«البتراء» و«بصرى» و«مكة» و«حلب» و«صحارى» مدن تجارية عربية ازدهرت بالتجارة والحضارة في الجاهلية. بل لقد أقاموا مراكز التجارة على الساحل الشرقي لافريقيا، عندما هاجروا إليه في «لامور»، و«ممبسة» و«زنجبار» و«موزمبيق»... وكانت لهم في البحر سفن ورحلات وخبرات...

وكذلك كانت للعرب «دول» قبل الدولة الواحدة التي أقامها الاسلام: ففي سبأ بالجنوب اشتهرت الدولة التي شاع الحديث عن ملكتها بلقيس (حوالي ٩٦٠ق.م.)، ودولة النبط التي شملت جنوبي فلسطين وسورية الجنوبية الشرقية وشرقي الاردن وشمالي الجزيرة، وكانت عاصمتها، البتراء، على قدر من التحضر والرفاهية جعل من اوصافها في المصادر القديمة: إنها مدينة «حمراء، وردية اللون، وقديمة، يبلغ عمرها نصف عمر التاريخ»؛ ودولة تدمر قد شملت سورية وجزءًا من آسيا الصغرى وشمالي شبه الجزيرة، ولقد اشتهرت بحضارتها التجارية، حتى لقد كان من تماثيلها تمثال «رئيس القافلة» و«رئيس السوق»، وكان بها «نقابة» لصاغة الذهب والفضة... وكانت ملكية الحكم، يعاون الملك «مجلس الشعب»، ومن أشهر ملوكها زنوبيا (الزباء) التي قاومت الرومان حتى أسرت زمن الامبراطور أورليانوس (٢٧٢م)؛ ودولة المناذرة في حوض ما بين النهرين؛ ودولة الغساسنة التي شملت المساحة الممتدة من قرب البتراء إلى الرصافة شمالي تدمر، والبلقاء، والصفا، وحران، وكانت بصرى عاصمتها التجارية والدينية.

وقبل النبي محمد، وغير اسماعيل، كان للعرب وفيهم أنبياء ورد ذكرهم في القرآن الكريم، منهم شعيب في أرض مَدْيَن، وصالح الذي أرسل إلى ثمود بناحية الحجر،

وهود الذي أرسل إلى عاد بالاحقاف من رمال اليمن. فهم، مع محمد واسماعيل، خمسة أنبياء من العرب ذكرهم القرآن. وغير هؤلاء، كان للعرب حكماء ومتبشون لم يذكرهم القرآن «ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك، منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك» (غافر: ٤٠) «ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك» (النساء: ١٦٤). ومصادر الأدب والتاريخ تذكر من هؤلاء: خالد بن سنان العبسي في نجد، وزيد بن عمرو بن نفيل في مكة، وقس بن ساعدة الإيادي في نجران، وأكثم بن صيفي من تميم.

أما ديوان العرب ووعاء فكرهم، في الجاهلية، فكان الشعر، أنشدوه بلغتهم الأدبية الواحدة، وبه تهيأت هذه اللغة ليتنزل بها القرآن، معجزة دينهم الحنيف. و لم يكن تحضر العرب، في الجاهلية، وقفًا على الرجل دون المرأة، وإن تفاوت نصيب كل منهما منه إلى حد كبير. فاشتراك المرأة المسلمة في الغزوات ينبيء عن دور لها في الجاهلية. وقيادة سجاح بنت الحارث (٦٧٥م) لردة بني تميم وحربهم على دولة الخلافة الراشدة، في عهد ابي بكر الصديق، شاهد على مكان المرأة في تلك البيئة. ومكان عائشة، أم المؤمنين، في العلم والسياسة، بل والحرب، هو الآخر دليل على نصيب المرأة العربية من التحضر في ذلك التاريخ.

لكن الإسلام كان هو الثورة الكبرى والشاملة في حياة الجماعة العربية. فبعد الشتات الديني، الذي جسّده تعدد الآلهة، والذي كان تعبيرًا عن تمزق الهوية القومية، جاء التوحيد الديني الاسلامي، في أرقى صوره وأنقاها، ليبني ويدعم وحدة هوية هذه الجماعة في الاعتقاد. وبدلاً من «الدويلات» التي وقف نفوذها وسلطانها عند الحواضر، والتي صارعها وصرعها نفوذ الفرس والروم والأحباش، جاءت الدولة العربية الاسلامية الواحدة والموحدة، فضمت الحضر والبيد، وبها اكتشف العرب قدراتهم، فوحّدوها، فكانت الفتوحات التي ازالوا بها نفوذ الفرس والروم عن العراق والشام، ثم تتبعوا ذلك النفوذ حتى حرّروا منه الشرق بأسره، وذلك عندما فتحوا في ثمانين عامًا أكثر مما فتحه الرومان في ثمانية قرون (عن «موسوعة السياسة»، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ج٤، ط١، ١٩٩٠، ص٧٠-٧٢).

الدولة العربية الاسلامية: (راجع «العالم الاسلامي»، و«العربية السعودية، المملكة» في هذا الجزء؛ و«شبه الجزيرة العربية»، و«الشرق الاوسط» في الجزء الحادي عشر؛ وراجع كذلك مختلف الدول العربية والاسلامية، كلاً في موقعها في الموسوعة تبعًا للترتيب الأبجدي لأسمائها).

عصر الانحطاط (مناقشة): من المؤرخين والدارسين مَن يُغلّب، في أسباب الانحطاط بعد قرون عديدة من ازدهار جعل الحضارة العربية والاسلامية في مقدمة حضارات العالم، العوامل الموضوعية: بدء الهزائم والتراجع في الأندلس، حروب الصليبيين وسيطرتهم على الساحل الغربي (المتوسطي) لآسيا، غزوات المغول، انتقال الأهمية التجارية من البحر المتوسط إلى الأطلسي مع الإكتشافات البحرية...

ومن المؤرخين والدارسين مَن يُغلّب العوامل الذاتية بمختلف جوانبها:

– الانقسامات السياسية-الدينية-الاتنية التي، منذ بدايتها، كانت حادة جدًا وتركت آثارًا مدمّرة. فالرواية تقول أن آخر خلفاء الأمويين وقع على رسالة وجهها ابراهيم، شقيق «السفّاح» الذي كان زعيمًا للعباسيين، لزعيم الثورة، أبو مسلم الخراساني، «يأمره أن لا يدع بخراسان عربيًا إلا قتله... يأمره بقتل كل من يتكلم بالعربية بخراسان» (الطبري، السادس، ٣٧)؛ «فمن يكن سائلاً عن دين قومهم فإن دينهم ان تقتل العربا» (البلخي، السادس، ٩٤)؛ «وهو الذي خص أعمالاً حواليه وأهمل العرب حتى أمرهم دثرا» (السيوطي، ٢٠٩)؛ «تصري على رحالك ثم قولي على الاسلام والعرب السلام» (ابن عبد ربه، «العقد الفريد»، الثالث، ١٩٦)....

– طبائع البداوة والقبائلية المتوارثة لدى العرب المسلمين التي أولاها البعض (خاصة من الغربيين والمستشرقين) أهمية في أسباب الانحطاط الذاتية. أما الذروة التي بلغتها الدولة العربية والمسلمة، حضارةً وعلمًا، فهي، برأيهم، نتاج إبداعات مسلمين غير عرب. وكتب التراث والتاريخ حافلة باستشهادات يلجأون إليها، على رأسها معالجة ابن خلدون لـ«انتقال الدولة من البداوة إلى الحضارة» في مقدمته الشهيرة، وأوصاف وأقوال ليس أقلها تلك العبارة المتناقلة على لسان الخليفة الأموي سليمان بن عبد الله: «عجبت لهؤلاء الاعاجم (الفرس والروم) ملكوا ألف سنة فلم يحتاجوا إلينا ساعة وملكنا مائة سنة لم نستغنِ عنهم ساعة» (رواها البنداري).

– العامل الديني المتمثل في الشريعة التي «غلّفت

كيان الانسان المسلم... وكبحت انطلاقة البحث العقلي والعقلانية... في حين بدأت اوروبا، في القرنين ١٢ و١٣، تعتبر العقل الأداة التي ميّزت الانسان ومكّنت من البحث العقلي في كل الميادين، فأوجدت بذلك العلم الحديث، علمًا ان كل مقومات وأسس هذا العلم كانت متوافرة في الحضارة العربية الاسلامية، وبفارق كبير عن سواها من الحضارات، الاوروبية وغيرها...» (توبي أ.هاف، تابع ما يلي).

حول هذه النقطة الأخيرة (العلم، البحث العلمي وحريته، وأثر الشريعة في التركيب السوسيولوجي...) من نقاط الأسباب الذاتية لجمود الحضارة العربية الاسلامية، ثم تخلفها عن اوروبا، صدر، في ١٩٩٣، كتاب: The Rise of Early Modern Science: Islam, China, and the West, by Toby E. Huff, Cambridge University Press, 1993.

ترجمه وعلّق عليه د. أحمد محمود صبحي، وأصدرته «سلسلة عالم المعرفة» الكويتية، بجزئين، نيسان ١٩٩٧، بعنوان «فجر العلم الحديث: الاسلام-الصين-الغرب».

والمؤلف، توبي أ. هاف عضو هيئة التدريس، بجامعة ماساشوستس، دارتموث بالولايات المتحدة. مهتم بحكم تخصصه بسوسيولوجية العلم، أو العوامل الاجتماعية المؤدية إلى تقدم أو تدهور العلم في حضارة ما، ويركز على بيان أثر الأنظمة القانونية أو الشرعية في العلم. تلقى محاضرات عن العلم العربي في جامعة هارفارد من الدكتور عبد الحميد صبرة، مما أتاح له معرفة جيدة بالحضارة الاسلامية والعلوم عند العرب.

أما المترجم فهواستاذ الفلسفة الاسلامية بكلية الآداب جامعة الاسكندرية، ودرّس في عدة جامعات عربية.

عرّف الناشر (سلسلة عالم المعرفة) الكتاب بقوله: «هذه دراسة تجيب عن سؤال طال انتظار الإجابة عنه: لماذا نشأ العلم الحديث في الغرب دون حضارتي الاسلام والصين، بالرغم من أنهما كانتا في العصر الوسيط أكثر تقدمًا من الناحية العلمية؟ لتفسير ذلك تناول المؤلف (توبي أ.هاف) اختلاف الأنظمة الدينية والفلسفية والتشريعية في الحضارات الثلاث، مركزًا على التصور القانوني للاختلاف الذي انفرد به الغرب، مما أتاح مناخًا محايدًا وحرية في البحث، وهما تصوران يتكاملان مع العلم الحديث. ولئن كان يؤرخ عادة للحظة ميلاد العلم الحديث باكتشاف كوبرنيكوس لمركزية الشمس، فإن الحضارة الاسلامية لم يكن ينقصها لتحقيق ذلك إلا «الوثبة الأخيرة»، فلماذا عجزت عنها، في حين تمكنت الحضارة الغربية من إنجاب العلم الحديث؟ (...) فالحضارة الاسلامية-على سبيل المثال- سبقت اوروبا في علوم الرياضيات والفلك والطب والصيدلة وغيرها حتى القرن الثالث عشر، وهو أمر يعترف به حتى خصوم الحضارة الاسلامية، غير ان هذا السبق سرعان ما توقف لتتمكن اوروبا من اللحاق ثم القفز إلى دنيا العلم الحديث، محققة هذه الهوة الواسعة بينها وبين كل الحضارات الأخرى».

ونقتطف من الكتاب، في نسخته العربية، محاوره الرئيسية:

١- نقطة بدء مهمة هي ان العلوم التي نسميها علومًا طبيعية كان يسمّيها المسلمون علوم الأوائل، اي علومًا أجنبية وذلك مقابل العلوم الاسلامية المتعلقة بدراسة القرآن والحديث والفقه والكلام والشعر واللغة العربية. أما الحساب، فأهميته ارتبطت لديهم بالحاجة لمواقيت الشعائر، والهندسة لابتكار حساب المثلثات لتحديد الاتجاه إلى مكة حيث القبلة للمصلي... أضف إلى ذلك جملة عوامل تبدأ من العوامل العرقية (والطائفية)، إلى سيطرة السنّة الدينية، إلى الطغيان السياسي... فضلاً عن إخفاق فلاسفة الطبيعة العرب في ان يطوروا ويستخدموا المنهج التجريبي (ج١، ٧٦-٧٧).

٢- توحي الصياغة العامة للأثر السلبي للقوى الدينية على التقدم العلمي ما ظهر في القرنين ١٢ و١٣ من تصوف كحركة اجتماعية، وقد أرخ هذا تعصبًا دينيًا وبخاصة تجاه العلوم الطبيعية وإحلال العلوم السرية بدلاً من دراسة العلوم اليونانية العقلية (ج١، ٧٧-٧٨).

٣- إن ثمة مقارنة مفصلية وبالغة الأهمية في تأثيرها لبدء الحطاط هنا، وقفزة هناك: إن نماذج الأجرام (في علم الفلك) لابن الشاطر وكذلك تلك لدى كوبرنيكوس متماثلة تمامًا مع اختلافات ضئيلة في بعض مقاييسها، ولكن الانتقال الميتافيزيقي قد أحدث بلا شك انشقاقًا فكريًا مع النظرة الاسلامية التقليدية إلى الكون كما كان يفهمه العلماء؛ أما التحول الكوبرنيكي فإنه قد خلع ثلاث حركات إلى الارض جاعلاً الشمس في المركز نقلة فكرية أحدثت قدرًا كبيرًا من الصدام مع الدوائر الدينية والفكرية في الغرب (ج١، ٨٢).

٤- إن مسيرة العلم، التي كانت دينية بادىء الأمر، قد أصبحت من أجل العلم ذاته في اوروبا منذ القرنين ١٢ و١٣، حين كان اللاهوت يشغل مركز القمة ثم تحول إلى دراسة للفلسفة والمنطق والعمل لذاته. أما في الحضارة العربية الاسلامية، فكانت

الحكمة الخالدة «عسى أن يجنبنا الله من علم لا ينفع»، ثم هذا النفع محصورًا في الناحية الدينية، وهو ما جعل بعض العلوم المدنية كالمنطق والرياضيات والطب أن تدرّس في المعاهد الدينية، وما سمح للفلك أو المرصد أن يلحق بالمسجد. فكما يرى الدكتور صبرة ليس هذا تفسيرًا نفعيًا عامًا وإنما وجهة نظر خاصة قرنت البحث العلمي بمجال ضيق لا يسمح بالتقدم (ج١، ١١٤-١١٥).

٥- من أولى المعوّقات: الطبيعة الشخصية للعلاقات الاجتماعية في العالم الشرقي في العصر الوسيط، ويتضح ذلك في سيطرة نظام الأسرة الكبيرة التي حالت دون قيام نقابات واتحادات قائمة على عدم التحيز أو علاقات القرابة بين المهنيين. وكذلك الأمر في التدريب الفكري وانتقال المعرفة القائم على السلطة الشخصية فيما يعرف بنظام الإجازة: سلطة فردية-للاستاذ-في تدريس وثيقة خاصة أو كتاب، لا تضمن تحييد الآراء السليمة من أجل نظريات علمية، لأن الآراء آنذاك كانت صادرة من فقهاء ومثبتة بتأييد سلطة دينية. كما لم تكن هناك آلية تسمح باختيار الأحسن ورفض الأسوأ، وقد أدّى هذا إلى نشأة اربع مدارس في التشريع حيث يجد المرء عدة آراء شرعية في القضية الواحدة ليختار منه ما يناسبه. وفي مجال العلم فإن إنجازًا مهمًا كإنجاز ابن الشاطر قد لقي آذانًا صمًا لأنه لم يكن ضمن مقررات النظام التعليمي (ولم يكن لابن الشاطر تلميذ يكمل رسالته العلمية في الفلك)، فضلاً عن ان إنجازًا أصيلاً لمدرسة مراغة (أكبر مدن أذربيجان فيها نشأ نصير الدين الطوسي وأنشأ مرصدًا من أشهر المراصد وأدقها) يبدو كما لو كان عملاً شخصيًا ونتاجًا لنظام القرابة. أما الطوسي الذي درّب التلاميذ في مرصد مراغة فقد كان سعيد الحظ حين صادف تلميذًا موهوبًا له هو قطب الدين الشيرازي (ج٢، ١١٦، ١١٧، ١١٨).

٦- يمكن القول، بالمعنى الواسع، إن مصادر العقل والعقلانية في أي حضارة إنما تلتمس في الدين والفلسفة والقانون. فتخيل الصورة الميتافيزيقية تجري من خلالها أنماط التوجه، فإما ان تطلق قدراته العقلية وإما ان تكبحها. ففي الحضارة العربية الاسلامية رفض منظّرو الكلام والتشريع فكرة وجود عامل عقلاني بيّن لدى الناس جميعًا، مؤثرين على ذلك أن على المسلم ان يتبع طريق السنة أو التقليد، وألا يحاول الكشف عن أسرار الطبيعة الخارجية أو معرفة أسرار النص المنزل، وقد تبنى كل من المتكلمين والفقهاء فكرة ان حكمة الله وإجماع العلماء أسمى من العقل، وعزفوا عن الموافقة على اعتبار العقل الانساني مصدرًا للتشريع أو الاخلاق، ولهذه النقطة صلة بفكرة منطق القصد التي لم تتطور في القانون الاسلامي، واقرب فكر اسلامي أمكنه من تطوير منظور عقلاني في مؤلفات العقلانيين إنما يوجد لدى المعتزلة، ولكن ليس لديهم الوازع الانساني القادر على الابتكار سواء في الدين أو في الفكر الاخلاقي.

وفي المقابل، صحيح أن المسيحية (والغرب) لم تكن مبرأة من الخوف من ابتكار يوصف بالهرطقة، لكن ما إن شرع الاوروبيون، في القرن ١٢، في استخدام قضايا تتعلق بالعالم الطبيعي حتى قامت قوة جديدة ومساحة أكثر استقلالاً من حرية الفكر. وأصبح العقل، في نظرهم، هو الأداة التي ميزت الانسان ومكّنت من البحث العقلي في كل الميادين. وباعتبار ان الانسان كائن عقلي يمكنه ان يستخدم قواه العقلية في الفعل الخلقي. وقدّم الاوروبيون، في العصر الوسيط، صورة عن الانسان مفعمة بالعقل والعقلانية (ج٢، ١٦٢-١٦٥).

٧- مع ثلاثة تطورات كبرى (في القرنين ١٢ و١٣) ولّدت اوروبا الحديثة ثم المعاصرة: في القانون، والتمثيل الجماعي (بزوغ النقابات...)، والمعاهد والجامعات المستقلة بشؤونها إلى حد كبير.

فالغرب، مقارنةً مع الشرق العربي الاسلامي، مارس في العصور الوسطى ثورة قانونية وفكرية واجتماعية عميقة غيّرت طبيعة العلاقات الاجتماعية، ولقد أوجدت الثورة القانونية مجموعة أشكال جديدة من علاقات اجتماعية ومجالات جديدة من الاستقلال الفكري والسياسي. ومن منظور نشأة العلم الحديث فإن أهم الأحداث هي تلك التي سمحت بتشكيل مؤسسات مستقلة من التعليم العالي.

وحينما طورت الجامعات مقرراتها في القرنين ١٢ و١٣، فإنها تحركت مستزيدة نحو قراءات ومحاضرات هي في أساسها علمي، وأكثر الاشارات دلالة على الاتجاه العلمي الأهمية الكبرى التي أعطيت لمؤلفات ارسطو التي كانت في صميم المقررات. فالتنظيم الفكري في الجامعات تشعب إلى اربع كليات (الآداب والقانون واللاهوت والطب). وفي تنفيذ كل هذه الاصلاحات كان اوروبيو العصر الوسيط قد أوجدوا استقلالاً ومؤسسات للتعليم العالي تدير شؤونها بنفسها.

وقد شكل أرسطو في وضعه الجديد تحديًا هائلاً للاهوت المسيحي، مفاده ان الانسان كائن عاقل حاصل على العقل والضمير، وانه بهذه المقدرات فهو قادر على الفهم وفك رموز أسرار الطبيعة بعون أو دون عون من الانجيل.

بالتساؤل عن تركيب العالم، وبنظام الامتحانات العامة في الجامعة، وبأساتذة الكلية، وبالمحاضرات العامة حيث مشروعية النقاش وعلنية المحاضرات، وبوضع الطباعة في خدمة النشر العلمي (على خلاف ما كان في الدولة العربية الاسلامية أو في الصين)، خرج الاوروبيون من نطاق التقليد الذي استمر في الشرق العربي الاسلامي، وكذلك نطاق التقليد البيروقراطي المفروض من الدولة في الصين.
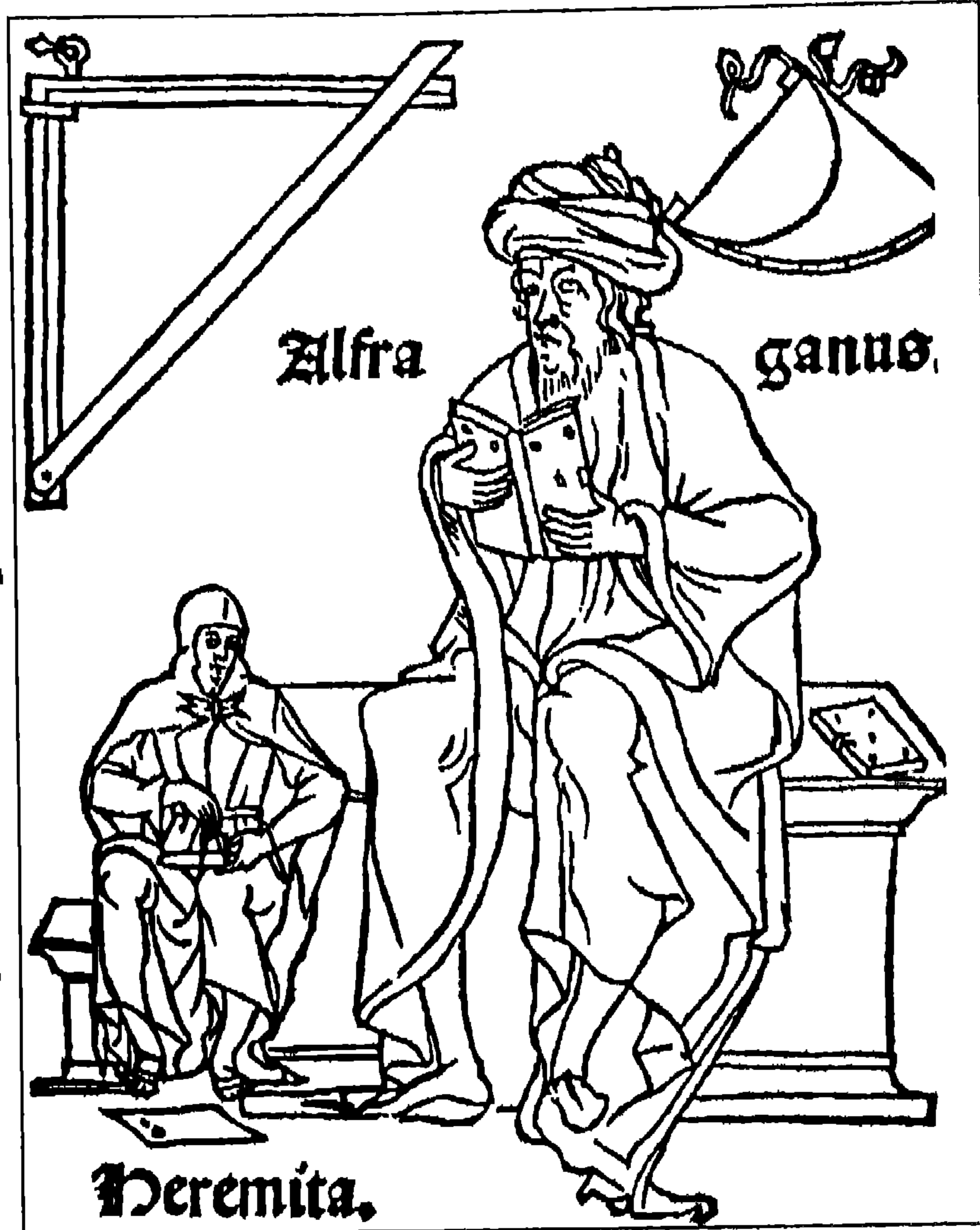
الفرغاني الذي وصلت علوم الفلك الاسلامية على يده الى ذروتها والذي عرفته اوروبا منذ القرن الثاني عشر. في الصورة الفرغاني (باللاتينية Alfraganus) والراهب هريميتا (Heremita)، وهو من اسرة مشهورة في ايطاليا، وغطى من ماله تكاليف ترجمة كتاب «جوامع علم النجوم» للفرغاني، اول كتاب ترجم من العربية الى اللاتينية، وهو الكتاب الذي اصبح في ما بعد اساساً مهماً للعديد من الاكتشافات التي ظهرت في مؤلفات العلماء المتأخرين في علم الفلك (مكتبة بودليان في جامعة اوكسفورد).

وسرعان ما أجبر البحث غير المنحاز الدارسين على الدخول سريعًا في صراع مع أصحاب المصالح من رجال الدين التقليديين الاوروبيين. وكان فلاسفة الجامعات يؤكدون حقهم في الاستمرار في أبحاثهم على أسس أخرى ليس اقلها البحث عن الحقيقة لذاتها، وأن مشروعية مثل هذا البحث إنما يوجد ليس في ارسطو وشراحه فحسب، بل في الأنجيل نفسه، وهكذا تعدلت المصادر (الفلسفية والدينية) في اوروبا من اجل وضع أساس لدراسة العالم الطبيعي وتحدي الكتب المقدسة كسلطة وحيدة لوضع تصور عن العالم.

لم يكن هناك نظير لذلك في مدارس العالم الاسلامي لأنه لم تكن هناك كليات، ما دام نمط التعليم والشهادة قائمًا على استاذ واختيار طالب له، ودراسة موضوع معين، والاختيار الشخصي للاستاذ. ولنفهم طبيعة رفض الطريق الفلسفي والعلمي علينا ان نقرأ حجج الغزالي القاطعة ضد الفلاسفة اليونانيين أو الاسلاميين المشايعين لأرسطو. ومن الواضح ان الفلسفة الطبيعية كانت معروفة على نطاق واسع في العالم الاسلامي، فضلاً عن ان المركز الكبير لمرصد مراغة قد زال من المسرح في العقد الأول من القرن ١٤، بل لقد زال مبناه دون اثر بعد عامي ١٣٠٤-١٣٠٥م بعد حياة قصيرة لم تدم أكثر من ٤٥ إلى ٥٥ عامًا، والذي كان يشكل محاولة لتطبيع البحث في الثقافة الاسلامية، ولم يكن له نظير في دلالته الفكرية، ومن ثم كان التطبيع قصير العمر كالمرصد، ولم تنشأ للأسف مؤسسات تعليمية في العالم الاسلامي بصدد المعرفة الطبيعية حتى القرن العشرين (ج٢، ١٨٦-١٩٣).

معالم النهوض: في هذه السنة، ١٩٩٨، تمر على الدول والشعوب العربية والاسلامية الذكرى المئوية الثانية لحملة نابوليون بونابرت على مصر. وتحاول دوائر المعنيين الثقافيين والتربويين والاعلاميين، وكذلك أوساط المثقفين (خاصة في مصر) لتحويل المناسبة إلى نقاش مفتوح على التاريخ، ماضيًا وحاضرًا ومستقبلاً، نقاش يتناول مختلف جوانب حياة العرب والمسلمين، نقاش عساه يتمتع بتعمق العلمية والجرأة من جانب المشاركين المثقفين، ومن جانب المسؤولين في الأنظمة على حد سواء. فحين نتطلع إلى عالم المستقبل وعما إذا كان سيتمتع بنهضة عربية وإسلامية سليمة فإننا لا نراها من دون مشاركة كاملة للمواطنين في مجالات العقل والعلم والسياسة والأدب والفن ورفع الحواجز أمام حرية الفكر والتعبير وإعطاء الأولوية للاستثمارات العلمية التي سيكون من نتائجها المباشرة والسريعة إنتاج آليات وقف نزف الأدمغة والطاقات البشرية.

استغرق هبوط الحضارة العربية-الاسلامية من القمة إلى القعر أكثر من ٢٠٠ سنة (من القرن الثاني عشر-الثالث عشر إلى أواخر القرن الخامس عشر)، وها هو العدد نفسه من السنوات تقريبًا ينقضي على بدء معاودة الصعود من الهاوية على إيقاع مدافع بونابرت المصحوبة بالمطابع والعلماء، وقد استمر هذان القرنان يعرفان الصعود، وإن متباطئًا ومتلعثمًا، في ما عُرف بـ«عصر النهضة»، وعلى إيقاع مدافع الاوروبيين كذلك وأفكار علمائهم ومبشريهم. وخشية من ان يتفلت العرب، في صعودهم، من الايقاعات المحسوبة والضوابط المرسومة، فيعيدون إنتاج حضارتهم التي درسها الاوروبيون جيدًا، كان المشروع الاوروبي-الصهيوني (إقامة اسرائيل) الذي سرعان ما تلقف فائدته الجانب الغربي الآخر (الولايات المتحدة الاميركية).

ففي المائة سنة الاولى كانت محاولات النهوض العربي-الاسلامي تتم على إيقاعات مدفعية اوروبية مصحوبة بمطابع وإرساليات ومدارس وأفكار قومية ومبادىء الحرية والديمقراطية. وفي الفترة الممتدة بين نهاية الحرب العالمية الاولى ونهاية الحرب العالمية الثانية وقيام اسرائيل، جرى تطعيم المدفع الاوروبي والمبادىء الاوروبية بمبدأ أميركي رفع لواءه الرئيس ولسن ويقضي بـ«حق الشعوب في تقرير مصيرها»، ومعه جرّت سبحة الاستقلالات. وبعد نحو أربعين سنة من قيام اسرائيل، بدأ يدوي، في المنطقة، ولأول مرة، المدفع الاميركي على وقع لغة سياسية واقتصادية وعلمية-تكنولوجية عناوينها الكبرى: العولمة، النظام العالمي الجديد، الشرق أوسطية (في تقسيم للعمل السياسي والاقتصادي العالمي)، التجارة الحرة والسوق الحرة، حقوق الانسان، الثورة العلمية-التكنولوجية الهائلة (خاصة في مجال الاتصالات) التي جعلت من العالم «قرية عالمية».

فالنهوض العربي-الاسلامي الذي بدأ منذ نحو قرنين في السياسي والديني أساسًا، وفي الاقتصاد والاجتماع والعلم والتكنولوجيا فرعًا، يبدو ان استمراره (النهوض)، في إطار المرحلة الراهنة التي تعنونها اللغة الاميركية-العالمية الجديدة، رهنٌ بقلب هذه المعادلة، فيحلّ الاقتصاد والاجتماع والعلم والتكنولوجيا في الموقع الأساس، ويكون السياسي والديني (بالتشريعات والشرائع ومختلف المؤسسات والادوات...) إطارًا مسؤولاً عن استنهاض العملية السوسيولوجية برمتها.

وفي عودة إلى التاريخ فإننا نستجلي، وبإيجاز شديد، أهم معالم الصعود النهضوي العربي وفق المحطات الرئيسية التالية:

١- الحملة الفرنسية على مصر: يجمع المؤرخون على أنها الحملة الاستعمارية الأولى على المنطقة في العصر الحديث، كما أنهم يجمعون على أنها، بالقدر الذي شكلت فيه صدمة دينية وسياسية وقومية لشعوب المنطقة التي كانت تغط في سبات عميق وتعاني من جهل وانحطاط شديدين (على أرض تعج بآثار تحكي عن مجد ضائع)، فإنها تركت، بالمقابل، أثرًا علميًا وفكريًا دفع بالمؤرخين إلى اعتبارها بداية إرساء قواعد النهضة العربية الحديثة. إذ اصطحبت معها هذه الحملة بعثة علمية مؤلفة من ١٤٢ عضوًا يتوزعون على الشكل التالي: ١١ مهندسًا، ٤ فلكيين، ١٢ ميكانيكيًا، ٧ كيماويين، ٤ علماء بالمعادن، ٣ علماء بالنبات، ٣ متخصصين بعلم الحيوان، ٨ جراحين، ٣ مصورين، ٥ رسامين، ١٩ مهندسًا للجسور والطرقات، ١٦ مهندسًا جغرافيًا، ٣ مهندسين بحريين، مهندس بعلم الميكانيك المائي، مهندس رياضيات، موسيقيان، ٧ طلاب في مدرسة البوليتكنيك، ٦ مترجمين، ٥ عمال مطابع و٧ مستشرقين. وقد أنشأ نابوليون بونابرت ما سمي بـ«المجمع العلمي»، وتنص لائحته (مؤلفة من ٢٦ مادة) في مادتها الاولى على أن المجمع أنشىء تحقيقًا للأغراض التالية: النهوض بالعلوم في مصر ونشرها، بحث ودراسة ونشر المعلومات الطبيعية والصناعية والتاريخية عن مصر، إبداء الرأي في مختلف المسائل التي تطلب فيها الحكومة المشورة.

وأنشأ المجمع مكتبة في قصر حسن كاشف (أحد قادة المماليك) وانتقى لها نابوليون بنفسه أهم المؤلفات الصادرة في اوروبا، وأشرف بنفسه ايضًا على تزويد الحملة بالمطابع مزوّدة بأحرف لاتينية وعربية وسريانية، والأرجح انه اصطحب معه ايضًا مطبعة تركية وأخرى يونانية. وأصدرت الحملة ثلاث مجلات: «أنباء مصر» Le Courrier de l'Egypte، «العشرية المصرية» La Décade Egyptienne، و«الإنذار» l'Avertissement.

٢- الحملة المصرية على سورية (محمد علي): منذ توليه مصر (١٨٠٥) بدأ محمد علي يستعين بالاوروبيين، وخاصة الفرنسيين، في بناء دولة جديدة على أسس من تنظيم حديث. واقتضاه ذلك فتح المدارس الحديثة وإقامة المصانع وإرسال البعثات إلى اوروبا، وأصلح نظام الري وأعاد تقسيم الاراضي. فكانت كل هذه الاصلاحات هي الأساس في إقامة مصر الحديثة.

بموازاة ذلك كان ابنه ابراهيم باشا ينفذ سياسة ابيه محمد علي إبان حملته على سورية وحكمه للمشرق العربي، وقد تميز بشعوره العربي ودعواته القومية. فشكل مع أبيه أول محاولة جادة لتوحيد مصر والمشرق وشبه الجزيرة العربية في دولة تطمح لأن تكون دولة عصرية. وكان لذلك أثره الكبير على رواد الحركة القومية العربية.

٣- على هذين الأساسين الكبيرين، أو الحدثين المفصليين الطاغيين (الحملة الفرنسية والحملة المصرية) نشأت المدارس الاجنبية المختصة بالارساليات وغيرها من المدارس الوطنية، وكلها عصرية مبنية على المناهج الحديثة؛ وانتشرت الطباعة في المنطقة؛ واهتم أبناء البلاد بالصحافة والتأليف؛ وتأسست الجمعيات الخيرية والأدبية والعلمية والأندية؛ ونهضت الجمعيات والاحزاب السياسية؛ وأنشئت المكتبات العمومية والخصوصية؛ وبدأ المستشرقون يشتغلون بالآداب العربية وعلومها؛ ونهض فن التمثيل المسرحي؛ وبدأت هجرة الشبيبة إلى الديار الغربية. وتفاصيل كل هذه النقاط النهضوية الحديثة تظهر أمرًا جليًا ومجمعًا عليه من المؤرخين والدارسين، العرب والأجانب والمستشرقين، ويختص بالدور الريادي، في هذه النهضة الحديثة، لجبل لبنان في عهد المتصرفية.

٤- هناك معلم تاريخي مهم على صعيد النهوض السياسي-الديني الذي يكاد يكون خارجًا عن المؤثرات الغربية (السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية) ويتعلق بأحداث شبه الجزيرة العربية في القرن الثامن عشر وما تلاه.

ففي هذا القرن برز الملك عبد العزيز الاول بن سعود، ملك نجد، ورفيقه النجدي المصلح محمد بن عبد الوهاب، ثم، في اوائل القرن التاسع عشر، ظهر العاهل سعود الكبير، ابن عبد العزيز الاول. وفي اوائل القرن العشرين، قامت الجزيرة العربية بدور فعّال ضد السيطرة التركية العثمانية على الشرق العربي، ممثلة، من جهة نجد، بالملك عبد العزيز الثالث بن سعود، أمير نجد، ثم ملك المملكة العربية السعودية، ومن جهة الحجاز، بالشريف حسين بن علي، شريف مكة، ثم ملك الحجاز. فهؤلاء الأمراء والملوك العرب قاوموا، في عهودهم، بقوة السلاح، سيطرة الاتراك العثمانيين على الشرق العربي، وساهموا في ان يحرروا من نيرهم بلدان الشرق العربي.

القوميون العرب ما بعد الحرب العالمية الثانية:

جميعهم تقريبًا يدخلون، أو يُعتبرون، ضمن الأطر التنظيمية أو شبه التنظيمية الثلاثة الكبرى: حزب البعث العربي الاشتراكي، حركة القوميين العرب والحركة الناصرية (نسبة إلى الرئيس المصري جمال عبد الناصر). وجميعهم يُعتبرون نتاجًا لعصر النهضة العربية الذي توجته فترة ما بين الحربين العالميتين بأفكارها وحركاتها وثوراتها، والذي تأثر إلى أقصى حدود التأثر بالأفكار والحركات السياسية والقومية الاوروبية، سواء الجهة الليبرالي منها أو الاشتراكي. فاستمر هذا الثنائي: «الليبرالي» و«الاشتراكي» أو «الماركسي»، حيًا في صفوفهم وأكثر الموضوعات المطروحة في مناقشاتهم وأكبر العوامل الفكرية التي أدت إلى إضعافهم وبعثرة صفوفهم.

شكلت فترة بداية الاربعينات-اواسط الستينات فترة الازدهار للقوميين العرب لجهتي الحيوية والمدّ الشعبي والسلطة. وبعدها، بدأت فترة الأفول مع اعلان «حركة القوميين العرب» إلغاء نفسها بالانتقال إلى مواقع الماركسية في اواخر ١٩٦٨، ثم، بعد سنتين، ازدادت الناصرية ضعفًا وتشرذمًا مع وفاة الرئيس جمال عبد الناصر. أما حزب البعث العربي الاشتراكي فقد وجد نفسه، في جناحيه، السوري والعراقي، ونتيجة لهجمة دولية على المنطقة قلّما وجدت مثيلاً لها في التاريخ، حبيس لغة الدولة والنظام الغالبة، بما لا يُقاس، على اللغة القومية العربية.

إن المحصلة الأخيرة للمناقشات الدائرة حول مآل القوميين العرب (والقومية العربية)، بمختلف تنظيماتهم واتجاهاتهم، منذ بدء أفول نجمهم في هذا الربع الأخير من

القرن وعلى وقع أحداث إقليمية ودولية هائلة (الثورة الاسلامية في ايران، انهيار الاتحاد السوفياتي، النظام العالمي الجديد والعولمة...) مفادها، نقدًا تقويميًا، انه كان هناك قوميون عرب وليس حركة قومية عربية، وانه كان هناك مسار يتمثل كسيرة للرواد والقادة بأكثر مما هو مسار جماعي وسياسي واجتماعي، فكان ثمة تعلّق بأفلاك قومية من دون جسم وطني ومجتمعي، وكان السعي إلى أقصر الطرق نحو السلطة هو السعي الطاغي على ما عداه من أفعال قومية عميقة وحقيقية (راجع الدول العربية، كلاً في موقعها في الموسوعة).

جامعة الدول العربية

مقدمات التأسيس: جاء إنشاء الجامعة العربية تتويجًا لمسار عربي نهضوي مشترك بدأ تنظيميًا، أي بعد بدايات نهوض فكري خاصةً، في اواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، وتميز بأحداث ومشاريع وجمعيات واحزاب ومؤتمرات شعبية، موضوعها الأساسي التعاون العربي المشترك ضد الحكم التركي العثماني، أهمها المؤتمر العربي السوري (١٩١٣) والجمعيات العربية السورية قبل الحرب العالمية الأولى التي شكل قادتها في ما بعد حزب الاستقلال العربي (١٩١٨)، والثورة العربية الكبرى بقيادة الشريف حسين (١٩١٦)، والمؤتمر الاسلامي في القاهرة الذي ناقش الفدرالية العربية (١٩٢٢-١٩٢٣)، والمؤتمر الاسلامي الشامل في القدس (١٩٣١)، والمؤتمر القومي العربي في سورية (١٩٣٧)، واقتراح الدولة العربية الواحدة بزعامة عبد العزيز آل سعود (١٩٤١)، وثورة رشيد عالي الكيلاني (١٩٤١)، وكتاب نوري سعيد الازرق حول الوحدة العربية (١٩٤٣).

دور بريطانيا: يجدر القول، بادىء ذي بدء، إنه، ونتيجة لهذا الدور إلى حد كبير، ولدت الجامعة وهي مثقلة بالقيود والعقد والحساسيات ووسط حملات تشكيك واتهامات وشائعات وشبهات تحوم حول العرّاب الحقيقي للجامعة، وهو بريطانيا التي كانت تستعمر نصف العالم العربي، خاصة وان وزير خارجيتها أنتوني إيدن وغيره من المسؤولين البريطانيين كانوا يدعون منذ بداية الاربعينات إلى إقامة تنظيم عربي واحد يجمع شمل الدول العربية كبديل عن الوحدة العربية التي كانت مطلبًا قوميًا عربيًا منذ مطلع القرن وانهيار الامبراطورية العثمانية وقيام الثورة العربية الكبرى.

بصدد هذا الدور لبريطانيا، يقول الدكتور محمد المجذوب («التنظيم الدولي»، الدار الجامعية، بيروت، ١٩٩٨، ص ٣١٨-٣١٩):

في العام ١٩٤١، كانت بريطانيا في مأزق لا تُحسد عليه: أصدقاؤها الفرنسيون استسلموا، وأصحابها الاميركيون لم يقرّروا بعد خوض الحرب، والسوفيات كانوا مرتبطين بمعاهدة عدم اعتداء مع المانيا، وجيوش المحور كانت تزحف باتجاه مصر، والمجهود الحربي البريطاني كان على وشك الانهيار. كانت بريطانيا بحاجة ماسّة إلى استقرار في المنطقة العربية وإلى تعاون وثيق بين الحكومات والشعوب العربية، فهداها دهاؤها إلى تقديم اقتراح يضمن لها تنفيذ استراتيجيتها ويلاقي هوى في نفوس العرب. ففي ٢٩ ايار ١٩٤١، وفي نفس اليوم تقريبًا الذي كانت فيه ثورة رشيد عالي الكيلاني على الحكم البريطاني في العراق تلفظ آخر أنفاسها، وقف أنتوني إيدن، وزير خارجية بريطانيا، في مجلس العموم وأدلى بتصريح مفعم بالمغالطات قال فيه:

«لبريطانيا تقاليد طويلة من الصداقة مع العرب. وهي صداقة قد اثبتتها الأعمال وليست الاقوال وحدها.

ولنا بين العرب عدد لا يحصى ممن يرجون لنا الخير، كما ان لهم هنا أصدقاء كثيرين... إن العالم العربي قد خطا خطوات واسعة بعد الحرب العالمية الاولى في طريق الاستقرار السياسي والتقارب القومي، وكثير من مفكري العرب يريدون السير خطوات أخرى في سبيل الاتحاد. وإن العرب ليتطلعون إلى نيل تأييدنا في مساعيهم نحو هذا الهدف، ولا ينبغي أن ندع هذا النداء دون جواب. ويبدو لي ان توثيق العلاقات الاقتصادية والثقافية، وكذلك السياسية، فيما بينهم هو مطلب طبيعي لهم فيه كلُّ الحق. وحكومة صاحب الجلالة، من ناحيتها، سوف تدعم كل مشروع أو خطة يتفقون عليها للوصول إلى هذا الهدف».

غير ان تصريح إيدن لم تتبعه جهود جدية من جانب القادة العرب. ولعلّ للظروف الدولية التي كانت سائدة آنذاك أثرًا في ذلك. إن هؤلاء القادة لم يتحركوا إلا بعد انتصار الحلفاء في معركة العلمين، ونيل بعض الدول العربية استقلالها، ورجحان كفة الدول الحليفة في الحرب. فما بين العام ١٩٤٢ والعام ١٩٤٤، جرت عدة اجتماعات وعُقدت عدة مؤتمرات أكدت للحكومات العربية رغبة الشعوب العربية في توثيق التعاون فيما بينها بشكل يُسفر عن قيام إتحاد عربي، أو على الأقل تقارب أقوى وتنسيق أشدّ للشؤون العربية.

إتجاهات وحدوية ومحادثات ثنائية: بدأت فكرة الجامعة العربية في تموز ١٩٤٣ بمشاورات ثنائية بين مصطفى النحاس باشا رئيس الحكومة المصرية ونوري السعيد باشا رئيس وزراء العراق أثناء زيارة الأخير لمصر تلبية لدعوة رئيس وزرائها لاستطلاعه رأيه في سبل قيام الوحدة العربية. وكان نوري السعيد زار لبنان وسورية وفلسطين وشرق الاردن وبحث مع المسؤولين فيها في «شؤون الوحدة العربية».

وبدأت مصر باستطلاع بقية الحكومات العربية رأيها، فدعت في منتصف آب ١٩٤٣ حكومات سورية ولبنان والمملكة العربية السعودية واليمن وشرق الاردن والعراق إلى إيفاد مندوبين لتبادل الآراء في موضوع الوحدة، واتسع نطاق المشاورات التمهيدية الثنائية ليشمل كل الدول العربية المستقلة آنذاك.

وتناولت المناقشات الثنائية التي عقدت باسم «مباحثات الوحدة العربية» اتجاهات مختلفة ومتمايزة حول سبل تحقيق هذه الوحدة تلخصت في ثلاثة رئيسية:

– الاتجاه الاول تبناه الامير عبد الله بن الحسين في شرق الاردن بتأييد من نوري السعيد، ويدعو إلى وحدة تتكون من سورية ولبنان وشرق الاردن وفلسطين العربية، أو إلى تكوين دولة واحدة سميت «سورية الكبرى».

– الاتجاه الثاني تبناه قادة العراق وبعض ساسة سورية المناصرين للنظام الملكي والبيت الهاشمي، ودعوا إلى تكوين «دولة موحدة» تضم مجموعة دول سورية الكبرى أو بعض دولها والعراق باستثناء لبنان. وعرف هذا الاتجاه باسم «الهلال الخصيب» باعتبار ان مثل هذه الدولة الموحدة سيكون من الناحية الجغرافية على شكل هلال، وهو من الناحية الاقتصادية يشمل أرضًا زراعية خصبة.

– الاتجاه الثالث يدعو أصحابه إلى نوع أعم وأشمل من الوحدة تضم البلاد التي يشملها الهلال الخصيب (سورية ولبنان وشرق الاردن وفلسطين والعراق) ومصر والسعودية واليمن، وانقسموا على شكل هذه الوحدة ودرجة الرابطة التي تجمع دولها إلى فريقين: فريق ينادي باتجاه فدرالي أو كونفدرالي بين هذه الدول أو نوع من الاتحاد يسمح بقيام سلطة عليا تفرض ارادتها على الدول الاعضاء، وفريق آخر ينادي بشكل يتميز بأنه وحدوي يجمع بين رحابه الدول العربية ويدعم التعاون بينها في سائر المجالات، ويحافظ في الوقت نفسه لكل منها على سيادتها واستقلالها (عن طلعت حامد، رئيس وحدة الاتصالات الصحافية والناطق الاعلامي للجامعة العربية، «الوسط»، العدد ١٦٤، تاريخ ٢٠ آذار ١٩٩٥، ص٢٣-٢٤).

التأسيس والميثاق: في أعقاب المناقشات الثنائية-التمهيدية، دعت مصر القادة العرب إلى مؤتمر في الاسكندرية بدأت أعماله في ٢٥ ايلول ١٩٤٤، وشاركت فيه الدول العربية المستقلة آنذاك وهي مصر وسورية والاردن والعراق ولبنان والمملكة العربية السعودية واليمن، وانتهت أعماله في ٧ تشرين الاول من العام نفسه بتوقيع بروتوكول الاسكندرية الذي جاء بمثابة إطار لتفاهم مبدئي بين الدول الموقعة عليه، ونص على عقد مؤتمر عربي عام لوضع ميثاق للجامعة يراعي احترام سيادة الدول العربية المستقلة، وينص على فتح باب الانضمام إلى الجامعة أمام الدول الأخرى فور استقلالها، ولم يأخذ بفكرة ان تكون الجامعة بمثابة «سلطة عليا» فوق الدول الاعضاء. ذلك انه اختار الاقتراح الثالث، أي «جامعة تضم الدول العربية المستقلة»، وكان الاقتراحان الأخريان المعروضان في الاجتماع: «وحدة عربية وحكومة مركزية» و«اتحاد فدرالي».

وفي آذار ١٩٤٥، عقد في القاهرة مؤتمر ضم ممثلين عن الدول المؤسسة السبع (المذكورة أعلاه). وبعد إدخال بعض التعديلات على بروتوكول الاسكندرية، وفي غمرة من الابتهاج، أعلن المؤتمرون (٢٢ آذار) تأسيس جامعة الدول العربية ووقعوا ميثاقها الذي يقع في ديباجة وعشرين مادة وثلاثة ملاحق خاصة:

الأول متعلق بفلسطين، ويعلن فيه مجلس الجامعة توليه أمر اختيار مندوب عربي من فلسطين للاشتراك في أعماله حتى يتمتع هذا القطر بممارسة استقلاله فعلاً. وظلّ الحال كذلك حتى تقدمت مصر، في ايلول ١٩٧٦، باقتراح إلى المجلس لقبول منظمة التحرير الفلسطينية عضواً في الجامعة تتمتع بكل حقوق الاعضاء الأخرين بعدما كان لها فقط حق الاشتراك في المناقشات التي تتعلق بقضية فلسطين.

الملحق الثاني متعلق بالتعاون مع البلاد العربية غير المشتركة في مجلس الجامعة. وأخذ نطاق هذا الملحق يتقلص باستقلال الدول العربية وانضمامها تباعًا إلى الجامعة.

الملحق الثالث يتناول تعيين أول أمين عام للجامعة، عبد الرحمن عزام لمدة سنتين. وظل العمل بهذا الملحق حتى عدلت المدة من سنتين إلى خمس في عهد الأمين العام الثاني محمد عبد الخالق حسونة.

وأضيف عليا لبروتوكول قرار خاص بلبنان يقضي باحترام سيادة لبنان واستقلاله.

أما الديباجة فتشير إلى ان زعماء الدول العربية المؤسسة (سورية، شرق الاردن، العراق، السعودية، لبنان، مصر واليمن) وافقوا على هذا الميثاق باعتباره تثبيتًا للعلاقات ا لوثيقة والروابط العديدة بين الدول العربية، وحرصًا على هذه الروابط وتوطيدها على أساس احترام استقلال تلك الدول وسيادتها، وتوجيهًا لجهودها إلى ما فيه خير البلاد العربية قاطبة وإصلاح أحوالها وتأمين مستقبلها وتحقيق أمانيها وآمالها واستجابة للرأي العام في كل الأقطار العربية.

وأما مواد الميثاق العشرون فتناولت ضرورة تحقيق: صيانة استقلال الدول العربية، المحافظة على الأمن العربي بمنع الحروب بين الدول العربية، تحقيق التعاون بينها وتوثيقه في الشؤون الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والمالية، وشؤون المواصلات، وشؤون الجنسية والجوازات وتنفيذ الاحكام وتسليم المجرمين...

العضوية والاعضاء: نصت المادة الاولى من الميثاق على ما يلي: «تتألف جامعة الدول العربية من الدول العربية المستقلة الموقعة على هذا الميثاق. ولكل دولة عربية مستقلة الحق في ان تنضم إلى الجامعة، فإذا رغبت في الانضمام قدّمت طلبًا بذلك يودع لدى الامانة العامة الدائمة ويعرض على المجلس في أول اجتماع يعقد بعد تقديم الطلب».

وثارت بعض الخلافات حول الاجراءات الشكلية للعضوية (مدى صلاحية المجلس في قبول طلب الانضمام أو رفضه، أو البت النهائي بمسألة القبول)، إلى ان جرى الاتفاق على حل توفيقي يعترف بحق كل دولة عربية مستقلة في الانضمام إلى الجامعة، ولكنه يعترف كذلك، وفي الوقت ذاته، بحق المجلس في قبول طلب الدولة أو رفضه، على ان تنحصر صلاحياته في التحقق من توافر شرطين فقط في الدولة المرشحة للعضوية: استقلالها وعروبتها.

وإضافة إلى الدول السبع المؤسسة، انضمت (ووقعت على الميثاق) تباعًا: ليبيا (٢٨ شباط ١٩٥٣)، السودان (٩ كانون الثاني ١٩٥٦)، تونس والمغرب (أول تشرين الاول ١٩٥٨)، الكويت (٢٠ تموز ١٩٦١)، الجزائر واليمن الجنوبي (١٢ كانون الاول ١٩٦٧)، قطر والبحرين (١١ ايلول ١٩٧١)، سلطنة عُمان (٢٩ ايلول ١٩٧١)، الامارات (٦ كانون الاول ١٩٧١)، موريتانيا والصومال (١٤ شباط ١٩٧٤)، جيبوتي (٤ ايلول ١٩٧٧)، وجزر القمر (١٩٩٣). وكانت منظمة التحرير الفلسطينية احتلت مقعدًا كممثل شرعي ووحيد للشعب الفلسطيني، بموجب قرار قمة الرباط ١٩٧٤، بدءًا من ١٩ ايلول ١٩٧٦، وتحول إلى مقعد «دولة فلسطين» بعد إعلان الدولة في تشرين الثاني ١٩٨٨.

أجهزة الجامعة الأساسية: تتكون الجامعة من أجهزة أساسية ثلاثة: المجلس، اللجان الخاصة، والأمانة العامة.

١ - مجلس الجامعة: هو الهيئة العليا والأداة الفعالة التي تشرف على الجامعة وتسيّرها. ويتألف من ممثلي الدول الاعضاء. ولكل دولة عضو صوت واحد مهما يكن عدد ممثليها. ويجتمع المجلس في دورات عادية مرتين في السنة (في آذار وايلول)، وبإمكانه عقد دورات غير عادية كلما دعت الحاجة إلى ذلك وبناء على طلب دولتين من أعضائه. ويتناوب ممثلو الدول الاعضاء رئاسته في كل دورة عادية. ويكون انعقاد المجلس صحيحًا إذا حضره ممثلو أغلبية الدول الاعضاء. والقاهرة هي المقر الدائم للجامعة (خرجت منها

إلى تونس إثر زيارة الرئيس المصري، السادات، اسرائيل، ثم عادت إليها بعيد بدء المفاوضات العربية-الاسرائيلية). وللمجلس ان يجتمع في أي مكان آخر يعيّنه.

ويشترط الميثاق، كقاعدة عامة، صدور قرارات المجلس بالاجماع لكي تكون ملزمة لجميع الاعضاء. أما القرارات التي يتخذها المجلس بالأكثرية فلا تكون ملزمة إلا للدول التي تقبلها. وفي الحالتين تنفذ قرارات المجلس في كل دولة وفقًا لنظمها الأساسية. وهناك حالات لا يمكن للمجلس فيها إلا ان يصدر قراراته بالاجماع، مثل: اتخاذ التدابير لدفع اعتداء وقع على دولة عضو، واعتبار أية دولة عضو لا تقوم بواجبات الميثاق منفصلة عن الجامعة.

وفي حالات أخرى يكفي ان تصدر القرارات بالأغلبية كي تلزم بقية الدول الاعضاء، مثل: تعديل الميثاق الذي يمكن ان يتم بموافقة ثلثي الاعضاء، وللدولة التي لا تقبل التعديل ان تنسحب عند تنفيذه. واتخاذ قرارات نافذة في شؤون الموظفين وإقرار الموازنة ووضع الانظمة الداخلية للمجلس واللجان والأمانة...

٢- اللجان الخاصة: ينص الميثاق على أن تؤلف لكل من الشؤون التي تدخل في نشاط الجامعة لجنة خاصة تمثل فيها دول الجامعة. وتتولى هذه اللجان وضع قواعد التعاون ومداه وصياغتها في شكل مشروعات اتفاقات تُعرض على المجلس للنظر فيها تمهيدًا لعرضها على الدول الاعضاء. ويجوز ان يشترك في اللجان أفراد يمثلون بلادًا عربية لم تنضم بعد إلى الجامعة.

٣- الأمانة العامة: هي الهيئة الادارية الدائمة للجامعة. تتكون من أمين عام بدرجة سفير، وأمناء مساعدين بدرجة وزراء مفوضين، ومن عدد كاف من الموظفين. والمجلس هو الذي يعين الأمين العام بأغلبية الثلثين. ويقوم الأمين العام بتعيين الأمناء المساعدين والموظفين الرئيسيين بموافقة المجلس. وتسهر الأمانة العامة على تحضير اعمال المجلس واللجان وتتولى تنفيذ ما يصدر من قرارات وتوصيات. ويتولى الأمين العام دعوة المجلس إلى الانعقاد، ويعدّ مشروع موازنة الجامعة ويعرضه على المجلس لاقراره قبل بدء السنة المالية. وتودع الدول الاعضاء الأمانة العامة نسخًا من جميع المعاهدات والاتفاقات التي عقدتها أو تعقدها مع أية دولة أخرى من دول الجامعة أو غيرها (عن د.محمد المجذوب، مرجع مذكور آنفًا، ص٣٢٩-٣٣١).

وتعاقب، حتى الآن، خمسة على منصب الأمين العام للجامعة العربية، وهم:

- عبد الرحمن عزام: من ٢٠ ايار ١٩٤٥ حتى استقالته في ١٤ ايلول ١٩٥٢.

- عبد الخالق حسونة: من ١٤ ايلول ١٩٥٢ حتى أول حزيران ١٩٧٢، كان وزيرًا للخارجية المصرية، جدّد له أمينًا عامًا ٣ مرات، ثم لمدة ستة شهور جدّدت لستة أخرى ثم لسنة إلى أن وافق مجلس الجامعة (في أول حزيران ١٩٧٢) على طلبه التنحي.

- محمود رياض: وافق مجلس الجامعة بالاجماع، في أول حزيران ١٩٧٢، على تعيينه أمينًا عامًا لخمس سنوات، وكان مستشارًا للرئيس المصري ووزيرًا للخارجية. جدّد له خمس سنوات، واستقال في ٣١ آذار ١٩٧٩.

- الشاذلي القليبي: وافق مجلس الجامعة على مستوى وزراء الخارجية، في ٢٦ آذار ١٩٧٩، على تعيينه أمينًا عامًا، وأعيد انتخابه لخمس سنوات في ٩ آذار ١٩٨٤، ثم أعيد انتخابه لفترة مماثلة في آذار ١٩٨٨ حتى استقال في ٣ ايلول ١٩٩٠.

- عصمت عبد المجيد: اختير بالاجماع، بعد قرار عودة الجامعة إلى مقرها في القاهرة، في جلسة لمجلس الجامعة في ١٥ ايار ١٩٩١، وانتهت ولايته الاولى في ١٩٩٦، وجُدّد له لولاية ثانية.

تعديل ميثاق الجامعة والمتغيرات الدولية: تأثر ميثاق الجامعة، وعملها، بما اعتمد في عصبة الأمم التي كانت تلفظ أنفاسها الأخيرة في الحرب العالمية الثانية، كما تأثرا (الميثاق والعمل) بما اتبع في هيئة الأمم المتحدة. والدليل على أثر ميثاقي هاتين المنظمتين الدوليتين يأتي مما أعرب عنه زعماء الدول العربية في بروتوكول الاسكندرية عن الأمل بأن «توفّق البلاد العربية في المستقبل إلى خطوات أخرى» لتدعيم ميثاق جامعة الدول العربية و«تصويب» عملها إذا برزت هناك حاجة إلى ذلك. وبالفعل، نصّ ميثاق الجامعة على انه «يجوز بموافقة ثلثي دول الجامعة تعديل هذا الميثاق خصوصًا لجعل الروابط بينها أمتن وأوثق وإنشاء محكمة عدل عربية، ولتنظيم صلات الجامعة بالهيئات الدولية التي قد تنشأ في المستقبل لكفالة الأمن والسلام».

حول مسار التعديلات على الميثاق، في ضوء الحاجة إليها، كتب محمد عبد الوهاب الساكت، مدير الادارة العربية في الجامعة العربية («الوسط»، العدد ١٦٤، تاريخ ٢٠ آذار ١٩٩٥، ص٢٥-٢٦):

«تطبيقًا لنص الميثاق (إجازة التعديل في ضوء الضرورة) عرضت الدول العربية، منذ السنوات الأولى لإنشاء الجامعة، اقتراحات لتعديل الميثاق، آخذة في الاعتبار

تطور وظائف الجامعة وتجارب العمل في المنظمات الدولية. فأنشىء العديد من المنظمات العربية المتخصصة التي تغطي كل مجالات العمل العربي المشترك. وتمّ تشجيع المئات من المنظمات العربية غير الحكومية لتغطي شبكة واسعة من العلاقات العربية-العربية. وبدأ التعاون بين الأمم المتحدة وجامعة الدول العربية في تشرين الثاني ١٩٥٠ حين طلبت الجمعية العامة للأمم المتحدة من الأمين العام لهذه المنظمة الدولية ان يدعو الأمين العام للجامعة العربية إلى حضور دورات الجمعية العامة بصفة مراقب. وأسفر تبادل الرسائل بين الأمانة العامة للجامعة والأمانة العامة للأمم المتحدة في كانون الاول ١٩٦٠ عن اتفاق على المبادىء التوجيهية للتعاون في ميادين تبادل الرأي والمعلومات والوثائق والتمثيل والاتصال المتبادل. وتأكد هذا التعاون بموجب قرار الجمعية العامة في تشرين الثاني ١٩٨١ الذي دعا الجامعة إلى الاشتراك في دورات الجمعية العامة واعمالها وهيئاتها الفرعية بصفة مراقب. وتكرست منذ العام ١٩٩٠ ستة مجالات للتعاون بين المنظمتين، هي: السلم والأمن الدوليان، الأغذية والزراعة، القوى العاملة والتجارة، الصناعة والبيئة، الشؤون الاجتماعية، التربية والعلوم والثقافة والاعلام والاتصالات.

وتجاوبت الجامعة مع خطة السلام التي أعلنها الأمين العام للأمم المتحدة عملاً بالبيان الذي أصدره اجتماع القمة لمجلس الأمن في ٣١ كانون الثاني ١٩٩٢ وأعلن فيه «ان العمل الأقليمي من قبيل اللامركزية والتفويض للسلطة والتعاون مع جهود الأمم المتحدة، يستطيع المساهمة في زيادة تعميق الاحساس بالمشاركة، وتوافق الآراء وإضفاء الطابع الديمقراطي في الشؤون الدولية».

إن تطوير عمل الجامعة العربية أصبح ضرورة ملحة بعد مرور ٥٠ سنة على إنشائها، وذلك بمجاراة للحياة في سيرها الدائب وتجددها المتصل، وبعدما استكملت الجامعة المشاريع المقترحة لذلك، التي تتعلق بتعديل بعض مواد الميثاق أو إنشاء أجهزة جديدة كمحكمة العدل العربية أو هيكلية الأمانة العامة للجامعة، وهو أمر بادرت إليه الجامعة في الفترات الحاسمة من تاريخها، وأولها بعد حرب فلسطين عام ١٩٤٨. إذ وقعت معاهدة الدفاع المشترك والتعاون الاقتصادي بين دول الجامعة التي أنشأت مجلس الدفاع المشترك والمجلس الاقتصادي العربي، وبعد حرب تشرين الاول ١٩٧٣ طور عمل المجلس الاقتصادي ليصبح مجلسًا اقتصاديًا واجتماعيًا يشرف على إنشاء المنظمات العربية المتخصصة وعلى أداء عملها.

يدعم هذا الاتجاه ما تردّد عن مشاريع للتعاون في منطقة الشرق الاوسط وصدور تصريحات عن بعض كبار المسؤولين في الدول العربية تطالب بتطوير أداء الجامعة كي تواكب المتغيرات العربية والاقليمية والدولية، مع إعلان تمسك الدول العربية ببقاء الجامعة واستمرارها باعتبارها مظلة حيوية للعمل المشترك».

نظرة على أهم أعمال مجلس الجامعة عبر دوراته الأخيرة وفي أجواء جمود الجامعة وضياعها: في دورته المنعقدة خلال شهر ايلول ١٩٩٤، قرّر مجلس الجامعة إنشاء محكمة عدل عربية لفض الخلافات والنزاعات القانونية التي قد تنشب بين الدول العربية. ولهذا القرار أساس يعود إلى المادة الخامسة من ميثاق الجامعة التي تنص على انه «لا يجوز الالتجاء إلى القوة لفض المنازعات بين دولتين أو أكثر من دول الجامعة...»، وإلى المادة ١٩ التي تنص على إنشاء محكمة عربية لحل الخلافات أسوة بمحكمة العدل الدولية. إلا ان المحكمة لم تبصر النور بعد رغم ان الميثاق الخاص بها جاهز ومعروض الآن على جميع الدول العربية (السؤال المتعلق بـ«لماذا لم تبصر النور بعد» فتح الباب واسعًا أمام سيل من تعليقات وتحليلات استنتجت أن «الخلاف وتعميقه هما المطلوبان» وليس «الوفاق» ولا «إيجاد آلية لحل الخلافات»... راجع، في ما يلي: «تقويم، مناقشات»).

وفي افتتاح الدورة ١٠٣ لمجلس الجامعة (آذار ١٩٩٥) التي تزامنت مع مراسم الاحتفال بمرور ٥٠ عامًا على إنشاء الجامعة، ألقى الرئيس المصري حسني مبارك بوصفه رئيس الدولة المضيفة في حضور وزراء الخارجية العرب وفي غياب الملوك والرؤساء كلمة ركّزت على مسيرة العمل العربي المشترك ومستقبله وسبل دعم الجامعة وتطويرها. واعتبر الأمين العام للجامعة عصمت عبد المجيد ان محاولات تهميش الجامعة هي محاولات لتهميش دور الدول العربية ذاتها، وشدّد على انه «لا يمكن التفريط» بكيان هذه الجامعة، ودعا إلى تعديل ميثاقها، رافضًا ان «يتطور العالم من حولنا ونقف نحن محلّك سر». أما مجلس الجامعة (وزراء الخارجية-الدورة ١٠٣) فقد طغت على أعماله قضية معاهدة الانتشار النووي، والدعوة إلى مصالحة عربية. وقد اتخذ المجلس قرارًا يربط الموافقة العربية على تمديد العمل بمعاهدة الانتشار النووي بانضمام اسرائيل إليها

أو تعهدها بمثل هذه الخطوة. واجمع الوزراء العرب على الانضمام إلى الموقف المصري من معاهدة الانتشار النووي (تم إبرام هذه المعاهدة في ١٩٦٨). وأما الدعوة إلى مصالحة عربية، فقد رأى الوزراء «ان الظروف معيقة لها وقد تتأخر بعض الوقت».

وفي دورته ١٠٧ (نيسان ١٩٩٧)، على مستوى وزراء الخارجية، دعا مجلس الجامعة، في رد على الحكومة الاسرائيلية المتشدّدة برئاسة بنيامين نتانياهو، إلى وقف «التطبيع» مع اسرائيل، وإلى استمرار التزام المقاطعة الاقتصادية من الدرجة الاولى للدولة العبرية وتعليق المشاركة العربية في المفاوضات المتعددة الطرف من اجل «إرغام» اسرائيل على العودة إلى التزام صيغة مؤتمر مدريد الذي انطلقت منه عملية السلام، خصوصًا ان هذه العملية وصلت الآن إلى الطريق المسدود في ضوء القرار الاسرائيلي بناء مستوطنة جديدة على جبل ابو غنيم (هار حوما بالعبرية) في القدس الشرقية، مما أدّى إلى توقف المفاوضات على المسار الفلسطيني بعدما كانت توقفت على المسارين اللبناني والسوري منذ شباط ١٩٩٦. وقد انتقدت واشنطن هذا القرار للجامعة، وذهب نتانياهو إلى حد انه سخر منه. أما أمين عام الجامعة، عصمت عبد المجيد، فقد وصفه بـ«التاريخي» إثر تساؤلات حول مدى فاعلية هذا القرار خصوصًا انه لم يتضمن آلية للتنفيذ و لم يحدد الدول الملزمة وقف «التطبيع».

وفي دورته ١٠٨ (ايلول ١٩٩٧)، عجز مجلس الجامعة العربية عن إقرار خمسة مشاريع مهمة بسبب تحفظات سجلتها دول الجامعة الاعضاء على كل منها. وكانت ثلاثة من هذه المشاريع أحالتها القمة العربية الأخيرة (القاهرة، حزيران ١٩٩٦).

وتتضمن المشاريع: ميثاق الشرف العربي للأمن والتعاون (اقترحته مصر) وإنشاء آلية لفض المنازعات بالطرق السلمية (تونس)، والاتحاد العربي (ليبيا)، والاتفاقية الاقليمية لنزع السلاح النووي (مصر)، والنظام الأساسي لمحكمة العدل العربية.

لم يقر المجلس أيًا من المشاريع الخمسة، واكتفى بيانه الختامي لأعمال دورته الرقم ١٠٨ بإدانة الممارسات الاسرائيلية في الاراضي العربية المحتلة وإغلاق المدن الفلسطينية ومواصلة مصادرة الاراضي. وشدّد على استمرار عملية السلام المستندة إلى قرارات الشرعية الدولية، ومبدأ الارض مقابل السلام، واستئناف المفاوضات على كل المسارات... ودعا إلى التجاوب مع ليبيا في أزمة لوكربي وتقديم الدعم لاعمار لبنان، وحضّ ايران على التجاوب مع المواقف الايجابية للامارات لحل الخلافات في شأن الجزر الثلاث بالطرق السلمية وفق المواثيق الدولية وقبول اللجوء إلى محكمة العدل الدولية لحل النزاع.

المقاطعة العربية لاسرائيل: راجع باب «قضايا وموضوعات».

الميثاق العربي لحقوق الانسان: راجع باب «قضايا وموضوعات».

الاتفاقية العربية لمكافحة الارهاب: راجع باب «قضايا وموضوعات».

القمم العربية: أول اجتماع لقمة عربية، استضافته مصر في ٢٨ و٢٩ ايار ١٩٤٦ في أنشاص بالقرب من القاهرة بمشاركة الدول السبع التي وقعت على بروتوكول الاسكندرية، وهي مصر وسورية والعراق والاردن واليمن ولبنان والسعودية. وجاء في بيانه الختامي ان القضية الفلسطينية هي قضية العرب جميعًا. و لم يمضِ عامان على هذا الاجتماع حتى جاءت نكبة فلسطين.

ثاني اجتماع لقمة عربية، عقد في بيروت في ١٣ و١٤ تشرين الثاني ١٩٥٦، وكان أهم موضوعاته مناصرة مصر ضد العدوان الثلاثي وتأييد نضال الشعب الجزائري.

ثالث اجتماع لقمة عربية، اعتبر هذا الاجتماع بمثابة «القمة العربية الأولى» أو «مؤتمر القمة العربية الاولى» لأهميتها من حيث عدد الدول المشاركة، والظروف المحيطة بها، وطبيعة المواضيع في جدول أعمالها. عقدت في القاهرة في ١٣-١٧ كانون الثاني ١٩٦٤، وناقشت إنشاء قيادة عربية موحدة لمواجهة اسرائيل ومحاولتها تحويل مجرى نهر الاردن وجعل اجتماعات القمة بمثابة «مؤسسة» (راجع العنوان الفرعي التالي).

القمة العربية الثانية، عقدت في الاسكندرية في ٥-١١ ايلول ١٩٦٤ تنفيذًا لقرار القمة السابقة، وبحثت وضع خطة عمل عربي لتحرير فلسطين واعتبار منظمة التحرير الفلسطينية الممثل الشرعي للشعب الفلسطيني.

القمة العربية الثالثة، عقدت في الدار البيضاء في ١٣-١٧ ايلول ١٩٦٥، وبحثت في التضامن العربي ومساندة الفلسطينيين.

القمة الرابعة (الخرطوم، ٢٩ آب-أول ايلول

١٩٦٧)، جاءت في أعقاب هزيمة ١٩٦٧، وبحثت في أسبابها وكيفية إزالة أسبابها، وعرفت بـ«مؤتمر اللاءات الثلاث» (لا صلح، لا تفاوض، لا اعتراف).

القمة الخامسة (الرباط، ٢٠-٢٣ كانون الاول ١٩٦٩)، عقدت في أعقاب حريق المسجد الأقصى، وبحثت في أوضاع دول المواجهة مع اسرائيل وكيفية مساندتها.

القمة السادسة (القاهرة، ٢٦-٢٨ ايلول ١٩٧٠)، لمناقشة الاوضاع بين الفلسطينيين والاردن في أعقاب ما عُرف بمذابح ايلول الاسود.

القمة السابعة (الجزائر، ٢٦-٢٨ تشرين الثاني ١٩٧٣)، في أعقاب حرب تشرين الاول، وصدر عنها قرار عقد القمة دوريًا (و لم ينفذ القرار)، وبحثت كيفية دعم الجبهة العربية عسكريًا وماديًا.

القمة الثامنة (الرباط، تشرين الثاني ١٩٧٤)، بحثت في تعديل ميثاق الجامعة العربية ودعم العلاقات الاقتصادية العربية، وصدر عنها قرار اعتبار منظمة التحرير الفلسطينية الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني.

القمة التاسعة (الرياض، ٢٥ و٢٦ تشرين الاول ١٩٧٦) ناقشت قضية غزو اسرائيل لجنوبي لبنان والاوضاع في لبنان وإنشاء قوات ردع عربية. وسميت هذه القمة بـ«المؤتمر السداسي» الذي انعقد بمبادرة من السعودية والكويت، وحضره الرؤساء أنور السادات (مصر) وحافظ الأسد (سورية) والياس سركيس (لبنان) وياسر عرفات (منظمة التحرير الفلسطينية) والشيخ صباح سالم الصباح (الكويت) والملك المضيف خالد بن عبد العزيز آل سعود، وخصص للبحث في الأزمة اللبنانية. أما تسمية القمة التاسعة فقد أعطيت لقمة القاهرة (بعد اسبوع من المؤتمر السداسي) بهدف وضع حد نهائي للحرب في لبنان وإعادة اعماره.

القمة العاشرة (بغداد، تشرين الثاني ١٩٧٨) بحثت في تأثيرات زيارة الرئيس السادات لاسرائيل، وأقرت عدم الموافقة على توقيع مصر لمعاهدة السلام مع اسرائيل وتعليق عضوية مصر في الجامعة العربية. وأنشئت في أعقابها «جبهة الصمود والتصدي».

القمة الحادية عشرة (تونس، تشرين الثاني

آخر قمة عربية جرت في اطار الجامعة العربية.

١٩٧٩) عقدت تنفيذاً لمقررات القمة السابقة في بغداد، وبعد نقل مقر الجامعة من القاهرة إلى تونس، وأقرت تطبيق احكام المقاطعة العربية على مصر.

القمة الثانية عشرة (عمان، ٢٥-٢٧ تشرين الثاني ١٩٨٠) ناقشت استراتيجية العمل الاقتصادي العربي المشترك.

القمة الثالثة عشرة (فاس، تشرين الثاني ١٩٨١) بحثت في وضع استراتيجية شاملة لمنع اسرائيل من العدوان على جنوبي لبنان، وتبنت مشروع الامير فهد (ولي العهد آنذاك) للسلام.

القمة الرابعة عشرة (الدار البيضاء، آب ١٩٨٥) بحثت في وضع الحرب بين العراق وايران وتنقية الأجواء العربية.

القمة الخامسة عشرة (عمان، تشرين الثاني ١٩٨٧) وأطلق عليها إسم «قمة الوفاق والاتفاق»، وتبنت عودة مصر إلى الجامعة العربية.

القمة السادسة عشرة (الجزائر، ايلول ١٩٨٨) تناولت كيفية دعم الانتفاضة الفلسطينية في قطاعي غزة والضفة الغربية.

القمة السابعة عشرة (الدار البيضاء، ٢٣-٢٦ ايار ١٩٨٩) وأقرت عودة مصر إلى الجامعة وعودة مقر الجامعة إلى القاهرة.

القمة الثامنة عشرة (بغداد، ٢٨-٣٠ ايار ١٩٩٠).

القمة التاسعة عشرة (القاهرة، ٩-١٠ آب ١٩٩٠) دانت «الغزو العراقي للكويت».

القمة العشرون (القاهرة، ٢١-٢٣ حزيران ١٩٩٦)، بعد انقطاع عن القمة لمدة ست سنوات أظهرت عمق أزمة النظام العربي وعمق أزمات العلاقات العربية-العربية. عقدت إثر توقف مفاوضات السلام بين الفلسطينيين واسرائيل وبين سوريا واسرائيل (شباط ١٩٩٦) و«لإعطاء فرصة لنتانياهو»، رئيس وزراء اسرائيل.

واستمرت الازمة بعد هذه القمة، و لم تعقد بعد (ونحن الآن في اوائل صيف ١٩٩٨) قمة أخرى. وعمق هذه الأزمة المستمرة عكسه رد أمين عام الجامعة العربية الدكتور عصمت عبد المجيد على سؤال بخصوص عقد قمة عربية بعد قمة القاهرة في ١٩٩٦، إذ قال: «عقد القمة من صلاحيات القادة العرب، وهناك لقاءات ثنائية مستمرة بينهم ومنها لقاء الرئيسين حسني مبارك وحافظ الأسد، ومن قبلها لقاء الرئيس مبارك والعاهل الاردني الملك حسين (...) أما القمة الموسعة فستصطدم بموضوع العراق، وقرارات القمة الماضية لا تزال سارية وصالحة ولا مجال للقمة في الوقت الراهن» («الحياة»، العدد ١٢٨٢٧، تاريخ ١٧ نيسان ١٩٩٨، ص٥). وكذلك ربط أمين عام مجلس التعاون الخليجي، جميل الحجيلان، عقد قمة عربية موسعة «بإزالة المشاعر التي أفرزها الغزو العراقي للكويت» (في تصريح له في ٢ ايار ١٩٩٨). وفي ٥ تموز ١٩٩٨، عقد لقاء في القاهرة، ضم الرئيسين مبارك وعرفات والملك حسين، وُصف بأنه «بداية طيبة لتحرك عربي شامل، وتمهيد لعقد قمة أوسع لحاجة الأمة إليها».

مؤسسة القمة العربية: إن فكرة المؤتمرات العربية الدورية ولدت في مطلع الستينات، وبمبادرة من الرئيس المصري جمال عبد الناصر، وذلك إزاء تفجر الصراع على نهر الاردن وبحيرة طبريا بين اسرائيل والبلدان العربية واتخاذه بعدًا دوليًا خطيرًا من خلال التدخل السياسي-التقني الاميركي فيما عُرف آنذاك باسم «مشروع تحويل مياه نهر الاردن». وبدا من الضروري قيام العرب بالتحرك الجماعي السريع لمواجهة هذا التحدي بمشروع مضاد يتطلب قرارًا سياسيًا على أعلى مستوى، في حين انه لم يكن هذا كله في قدرة مجلس الجامعة.

وبالفعل، انعقدت أول قمة نظامية في مصر (١٩٦٤). وتكرر بعد ذلك عقد مثل هذه المؤتمرات بدعوة من عدد من الملوك والرؤساء العرب عند اندلاع أزمات حادة في أكثر من بلد عربي. وانعقد، منذ ١٩٦٤، حتى المؤتمر الأخير (في القاهرة، ١٩٩٦) ١٢ مؤتمر قمة عادي، و٧ مؤتمرات قمة غير عادي.

وأخذت تجربة مؤتمرات القمة (العادية وغير العادية) تتبلور باعتبارها جهازًا لا غنى عنه يفرضه واقع الحال العربي. وإذا كان لم يجر تقنينه في نظام الجامعة، إلا انه اكتسب قوة العرف، وذلك منذ صدر في ٢٨ تشرين الثاني ١٩٧٣، عن مؤتمر قمة الجزائر، القرار رقم ٥٨ ونص للمرة الاولى على ان «تعقد اجتماعات دورية لمؤتمر القمة العربي في نيسان من كل عام، كما تعقد دورات استثنائية إذا اقتضت الضرورة ذلك بموافقة أغلبية الدول الاعضاء، وبناء على طلب دولة أو أكثر من الدول الاعضاء أو الأمين العام».

وجرى تأكيد هذا القرار (الذي وضع أساسًا لمؤسسة القمة) بقرارات أخرى اتخذها كل من مؤتمر قمة

فاس (ايلول ١٩٨٢) بالقرار رقم ١٦١، ومؤتمر القمة غير العادي الذي انعقد في بغداد (ايار ١٩٩٠) بالقرار رقم ١٩٢.

من هنا، اتجه مشروع تعديل ميثاق جامعة الدول العربية إلى تحويل «العرف» بالنسبة إلى القمة إلى «حكم قانوني»، وذلك في الدورة ٩٦ لمجلس الجامعة (نيسان ١٩٩٢). لكن قرارًا صدر عن الدورة نفسها يقضي بتأجيل النظر في المشروع، ولا يزال مؤجلاً.

تقويم (مناقشات)

إبتعاد الجامعة عن التطلعات الوحدوية: تبين ذلك من خلال الكيفية التي اتبعت لتطبيق مبادىء الجامعة الواردة في ميثاقها ومدى التزامها بها. فالاخفاق كان السمة البارزة لجامعة الدول العربية.

فلدى استعراض مبادىء الميثاق نجد ان عدم التنفيذ، أو عدم الالتزام، كان السمة الملازمة لتصرفات الجامعة. وهذا يتجلى في الأمور التالية:

أ- إن المساواة التامة بين الاعضاء لم تتحقق بسبب التفاوت في حجم القدرة والثروة والمستوى الاجتماعي وقيام المحاور المتناحرة والاستعاضة عن مجلس الجامعة بمؤتمرات القمة العربية.

ب- إن مفهوم السيادة أصبح، لدى الدول الاعضاء، هدفًا استراتيجيًا ثابتًا يقف بالمرصاد لكل محاولة توحيدية.

ج- إن صيانة استقلال الدول الاعضاء بقيت أمنية بعيدة المنال، وأثبتت عجزًا كاملاً من الجامعة العربية: فلسطين، العدوان الثلاثي على مصر، احتلال جنوب لبنان في ١٩٧٨ ونصف لبنان في ١٩٨٢ والاعتداءات الاسرائيلية اليومية عليه، تدمير المفاعل النووي العراقي، العقوبات المفروضة على العراق وليبيا والسودان...

د- إن مبدأ عدم التدخل في الشؤون الداخلية للدول الاعضاء، أو مبدأ احترام نظام الحكم القائم فيها، لم يحظَ بأي احترام. وسجلّ العلاقات العربية حافل بالتدخلات المتبادلة، العلنية والسرية.

هـ- إن مبدأ التعاون وتنسيق الخطط في كل المجالات بين الدول الاعضاء لم يبدأ العمل به حتى الآن. ففي الشؤون الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والمالية وُقّعت اتفاقيات و لم تُنفذ.

و- إن مبدأ حظر اللجوء إلى استعمال القوة أو التهديد بها، وهو المبدأ الذي يتجسد في أسلوب تسوية الخلافات والمنازعات بالطرق السلمية، لم يطبق: لم تلجأ الجامعة يومًا إلى إصدار حكم واحد يدين أي طرف في أي نزاع واتسم عملها دائمًا بالتردد والتلكؤ، واتخذت، في معظم الاحيان، موقف اللامبالاة من بعض المنازعات العربية وفضلت غالبية الدول العربية اللجوء إلى دولة أو منظمة أجنبية لحل خلافاتها، وقد ترافق عجز الجامعة عن تسوية المنازعات بين أعضائها مع عجزها عن رد العدوان الأجنبي عنهم. وقد تعرضت أكثر من دولة عربية لاعتداءات فلم تحرك الجامعة أو دولها ساكنًا. والأغرب من ذلك أن دولاً عربية شاركت، دون الرجوع إلى مجلس الجامعة، في حروب ومعارك شُنّت على دول عربية أخرى، فلم يصدر عن الجامعة استنكار أو احتجاج.

فالجامعة ابتعدت، منذ تأسيسها، عن الطموح العربي الوحدوي. وعناصر هذا الطموح لا يمكن ان تتوافر إلا في قدرة أعضائها على تحقيق التضامن والتلاحم وفي ما تملكه الأنظمة السياسية الحاكمة من نضج أو وعي أو حسّ قومي رفيع. لقد تعرّضت الجامعة، منذ تأسيسها، لسلسلة طويلة من العجز، و لم تعد، بوضعها الراهن، صالحة أو مؤهلة لتحقيق اللهفة العربية إلى الوحدة أو الاتحاد. لقد حُكمت الجامعة، أو حكمتها الأنظمة العربية السياسية، بنوع من «ثنائيات» كانت في أساس تعطيل دورها الوحدوي أو حتى التضامني:

النوع الاول: ثنائية المقاصد والوسائل، حيث يُلاحظ أن جميع الأنظمة العربية تتغنى بالوحدة، وتفاخر بها في تشريعاتها وتتظاهر بالعمل من أجلها. ولكن صيَغ الوحدة والوسائل الكفيلة ببلوغها هي موضوع عرقلة دائمة. فتجد الشعوب صعوبةً في التمييز بين المثالية (الوحدة كفكرة وكمطلب) والواقع التقسيمي، أو بين منطق القول القادر على التحليق في أجواء المطلق ومنطق الفعل المرتبط بنسبية الواقع.

النوع الثاني: ثنائية الأمة والدولة، أو ثنائية القومية والقطرية.

النوع الثالث: ثنائية الثورة والثروة. فالثورة العربية، بمعناها الشامل، هي التي تحرّكت وحرّكت وحرّرت. وجميع الاقطار العربية التي استقلت مدينة لروح هذه الثورة بالخلاص من نير الاستعمار. صحيح ان الثورات كانت محلية، إلا ان هدفها كان واحدًا، هو العودة إلى أحضان الأمة. وعندما تفجّر النفط في الارض العربية وامتلك العرب ثروة خيالية خُيِّل إلينا ان اقتران الثورة

بالثروة سيجترع الأعاجيب ويرتفع بالأمة إلى أعلى عليّين. ولكن الرجاء سرعان ما خاب، و لم تساند الثروة الثورة، بل طمست معالمها.

الخلاصة ان الجامعة العربية، كمنظمة إقليمية، تحتاج إلى تطوير كبير يتناول المفاهيم والهيكلية والأجهزة والميثاق وأساليب العمل. صحيح انها ما زالت، عند البعض، محط الآمال المتبقية لأمة تبحث عن آمال، وانها استطاعت، رغم الاعاصير التي هبّت عليها من الداخل والخارج، ان تحافظ على وجودها، وان فكرة الانسحاب منها أو المطالبة بإلغائها لم تُطرح من جانب أي عضو فيها، إلا ان إصرارها على اتباع النهج الذي التزمته حتى الآن سيؤدي إلى إعلان فشلها التام. ولعلّ قيام بعض التجمعات الاقليمية العربية، على هامش الجامعة، دليل واضح على ضعف الثقة بها (عن الدكتور محمد المجذوب، «التنظيم الدولي»، الدار الجامعية، ١٩٨٨، ص٣٣٥-٣٤٣).

رغم فشل الجامعة «لم يبق لنا سواها»: لا بد ان نعترف بأن الجامعة العربية مؤسسة غير فاعلة في نظر معظم الناس خصوصًا الجماهير قبل الحكام. إذ ارتبط إسمها في ذهن المواطن العربي بالنكسات والمحن التي تعرضت لها الأمة العربية خلال خمسة عقود وما رافق ذلك من إحباط ويأس. ومن سوء الطالع ان نكبة فلسطين حلّت عام ١٩٤٨ والجامعة العربية لا تزال طفلاً يحبو في عامه الثالث. ومع ذلك فقد دينت الجامعة العربية وحمّلت أوزار تلك الكارثة. وفي هزيمة ١٩٦٧ دينت الجامعة العربية مرة أخرى بسبب غيابها عن المسرح السياسي، الذي ظهرت عليه فقط بعد الهزيمة وفي قمة الخرطوم. وفي ١٩٧٨، عجزت الجامعة العربية في قمة بغداد في بلورة موقف عربي موحد تجاه تفرد الرئيس السادات بزيارة اسرائيل واتفاقيتي كامب دافيد. ومع ذلك دينت الجامعة العربية لأنها عجزت عن توفير بديل لكامب دافيد ما أدّى إلى انعقاد مؤتمرات الصمود والتصدي خارج نطاق الجامعة العربية. وفي ١٩٩٠، تعرضت الجامعة العربية لأقصى الاحكام والاتهامات لأنها عجزت عن لمّ شمل العرب في قمة القاهرة وتوفير حل عربي لمشكلة احتلال العراق للكويت ما نتج عنه مجيء القوات الاجنبية. وفي ١٩٩٣، لم تسلم الجامعة العربية من المسؤولية عندما وقع الطرف الفلسطيني اتفاقية اعلان المبادىء مع اسرائيل. فقد اعتبرت الجماهير العربية ان تلك الاتفاقية بشروطها الجائرة والظالمة هي وليدة حالة العجز العربي التي تمثلها الجامعة العربية والنظام العربي. وخلال تلك الادانات لم يتم تحديد أو تعريف ما هو المقصود بالجامعة العربية: المبنى أم النظام الداخلي أو شخص الأمين العام أو الدول الاعضاء.

وبسبب تلك الفترات والنكسات تحولت الجامعة العربية، في ذهن المواطن، إلى ضريح يضم رفات العروبة والوحدة العربية والقومية العربية. ولهذا السبب يكاد الحديث اليوم عن العروبة يصبح من نسج الخيال وضربًا من ضروب الأساطير، وذلك تحت وطأة الاستسلام والاهتراء والتفسخ والضياع والتقوقع العربي والهرولة نحو اسرائيل. وبلغ الأمر بالمستشرق اليهودي الشهير برنارد لويس ان كتب بحثًا في مجلة «فورين أفيرز» الفصلية البارزة نعى فيه وإلى الأبد القومية العربية وذرف الدموع على العروبة التي انتهت في رأيه بعد ان جرفتها وقضت عليها ذيول احتلال الكويت ومضاعفاته. ومن المؤسف ان بعض الكتاب والمثقفين العرب اعتبروا هذا النمط من الكتابة حداثة في التفكير وواقعية في التحليل وكأن عروبتنا، وهي واقع ومصير لا فكاك منه، عبارة عن ثياب نلبسها ونخلعها حسب موضة العصر وتطورات الأمور.

وهنا يطرح السؤال التالي: هل ظهر خلال عمر الجامعة العربية بديل لها كأداة تقريب وتوحيد وماذا كانت النتيجة؟

الجواب هو ان العالم العربي عايش أنماطًا من الادوات التوحيدية عبر خمسين عامًا. فقد شهدنا مرحلة «الزعيم» كأداة توحيدية ممثلاً بجمال عبد الناصر. ومرّ العالم العربي قبل عبد الناصر وبعده بمرحلة «الحزب» كأداة توحيدية ممثلاً بحزب البعث العربي الاشتراكي. كذلك شهدنا مرحلة «العائلة» كأداة توحيدية ممثلة بالهاشميين في كل من الاردن والعراق. وعاصر العالم العربي ايضًا مرحلة «النظام» كأداة توحيدية ممثلاً بالجماهيرية الليبية التي سعت على مدى عقدين من دون كلل أو ملل لتحقيق الوحدة الاعلانية مع أكثر من قطر عربي. والنتيجة الاجمالية ان جميع المحاولات الوحدوية من جانب الزعيم والحزب والعائلة والنظام باءت بالفشل لأن بعضها ولد ميتًا بينما رفض الجسم السياسي العربي استيعاب البعض الآخر فمات في مهده. وبالاضافة إلى ذلك، برزت في السنوات الأخيرة فكرة المجالس الاقليمية التي تستهدف التعاون والتنسيق مثل مجلس التعاون العربي الذي انهار بعد احتلال الكويت والاتحاد المغاربي الذي لم يثبت وجوده ومجلس التعاون لدول الخليج الذي لا يزال صامدًا رغم الخلافات الحدودية التي تعصف به.

والحصيلة النهائية لهـذا المشوار مـن عمـر الجامعـة العربية هي ان العالم العربي قد عاد اليوم بعد تجارب خمسين عامًا إلى المربع الرقم واحد الذي كان فيه يوم قامت الجامعة العربية. وهذه حقيقـة تبعث على الألم والأسى. فالمنطقـة العربية اليوم يسودها منطق الكيانات السياسية المتكفئة على نفسها داخليًا لعدم ثقتها بمن حولها. والعمل العربي المشترك اليوم عبارة عن نشاط شكلي وتجميلي (كوزميتيك) لرفع العتب ولا لون له ولا طعم ولا رائحة ناهيك عـن فاعليتـه. وأزمة احتلال الكويت ما زالت تلقـي بظلالها المقيتة على مجمل العلاقات العربية نبذًا وحقدًا وانسلاخًا. وفـوق ذلـك كله فقد قامت اسـرائيل خـلال هـذه السنين كإسفين دُقّ قسرًا وعنوة في قلب الوطن العربي ثم راحت تثبـت نفسـها شرعيةً واعترافًا وامتدادًا داخل الدول العربيـة تحـت دعـوى التكامل الاقتصادي والتعاون الشرق أوسطي مع الاستمرار في التوسع الاستيطاني وقضم الارض تطبيقًـا لسياسـة الأمـر الواقع.

واضح من السياق انه في ظل الاوضـاع الراهنـة لم يبق لنا سوى الجامعة العربية كمظلة عربيـة ومنظمـة للحـد الأدنى من العمل العربي المشترك. وصحيح أن كل إنـاء بما فيه ينضح وان الجامعـة العربيـة مـرآة تعكـس مـا هـو قـائم ومباح في الدول الاعضاء. ولكن هذا لا يعني بأي حال من الاحوال ان تبقى الجامعة العربية على حالها.

فالجامعة العربية لا تبدأ من الصفر. إذ إن أدراجهـا مليئة بالاتفاقات والمشاريع الحيوية والأساسية منها ما خـرج إلى النور ومنها ما ينتظر التنفيذ. وعلـى سـبيل المثـال هنـاك اتفاقية الجامعة العربية الثقافية لعام ١٩٤٧، وميثـاق الدفـاع المشـترك لعـام ١٩٥٠، واتفاقيـة التجـارة والـترانزيت لعـام ١٩٥٣، وبنـود مشـروع معـاهدة لإنشـاء مصـرف التنميـة العربي لعام ١٩٥٧، واتفاقية الاتحـاد البريدي العربـي لعـام ١٩٥٨، وتشكيل المجلس الاقتصادي العربـي لعـام ١٩٦٠، وتشكيل قـوة دفـاع خاصـة بالجامعـة العربيـة لعـام ١٩٦١ (لحماية الكويت من تهديدات عبد الكريم قاسم)، واتفاقيـة الوحـدة الاقتصاديـة في حزيـران ١٩٦٢. هـذه الاتفاقـات والمشاريع، وهناك الكثير غيرها، تشكل عماد العمل العربـي المشترك الذي نقترح إحياءه مـن خـلال بعـث دور الجامعـة العربية وتنشيطه. وبمعنـى آخـر فـإن آليـات العمـل العربـي المشـترك موجـودة إذا توافـرت النيـة للعمـل بهـا والالـتزام بمقرراتها.

فلا بد من إعـادة النظر في ميثاق الجامعـة العربيـة ونظامها الداخلي وأجهزتهـا المتخصصـة بحيث تتحـول إلى أداة مبادرة وفاعلة. وعلى سبيل المثال لا بد من خلق جهاز له صلاحيات بمجلس الأمـن ولا منـاص مـن تقويـة سـلطات الأمين العام وصلاحياته لتصبح شبيهة بسلطات الأمين العام للامـم المتحـدة. وإذا كـان ظهـور منظمـة التجـارة الدوليـة كعلامة بارزة في النظام الدولي الجديد قد دفع الأمم المتحدة إلى إعادة النظر في بعـض أجهزتهـا المتخصصـة أفـلا تدفعنـا دعوة شيمون بيريز إلى تحويـل الجامعـة العربيـة إلى منظمـة شرق أوسطية تضم اسرائيل إلى إعادة النظر في هذه المنظمـة الاقليمية العربية تركيبًا وتحديثًا وتحديًا؟

إن العالم العربي، وهو يقف على مشـارف القـرن الواحـد والعشـرين ويواجـه تحديـات اسـرائيلية وأمنيـة واقتصادية وسياسية واجتماعية لا حدود لها، بحاجة إلى:

- قيادة مستنيرة تكون الجامعة العربية آليتها.
- ومصالحة حقيقية تكون الجامعة العربية أداتها.
- وتنمية اقتصادية تكون الجامعة العربية بوتقتها.
- ونهضة شاملة تكون الجامعة العربية وعاءها.

وعن هـذه النهضـة فيكفـي ان نقـرر هنـا الحقيقـة المرعبة وهي ان ثلث العالم العربي يعيش تحـت حـزام الفقـر على رغم ثرواته الهائلة، وان نصـف العـرب يعيشـون حالـة بطالة ظاهرة أو مستترة مما يخلق من حولنا مظـاهر التململ والارهاب والتطرف. والنهضة الشاملة تعـني التصـدي لهـذا الواقع المرير من خلال إعادة نظر جذرية في مجمل أوضاعنـا الاجتماعية والسياسية والثقافية والانتاجية والعلمية والتربوية من خلال خطط وبرامج تأخذ بالحديث من المدنية من دون التفريط بالقديم مـن تراثنـا وقيمنـا، وتوفير الفرص للعمـل والانتاج والابداع لأبناء المجتمع على أساس متكـافىء (عـن باسل أمين عقـل، مفكـر فلسـطيني عضـو المجلسين الوطـني والمركزي، «الحياة»، ٢٢ آذار ١٩٩٥).

جامعـة الـدول العربيـة في عصـر العولمـة: هنــاك أسباب عدة تدعو إلى التركيز على فاعلية دور جامعة الدول العربية في الحقبة المقبلة. ولعل أهمها على الاطـلاق أن كـل المؤسسات الاقليمية لا بد لها أن تعيد صوغ أهدافها وتجديد وسائلها، أخذًا في الاعتبار التغيرات الكبرى التي حدثـت في العالم في العقد الأخير. وليـس هنـاك مـن شـك في أن ابـرز هذه التغيرات هي العولمـة بتجلياتهـا السياسـية والاقتصاديـة والثقافية والاتصالية.

ومن هنا يمكن القول إن المركز العربي للدراسـات الاستراتيجية كـان موفقًـا حـين اختـار موضـوع «مسـتقبل الوطن العربي ودور جامعة الدول العربية» ليكون موضـوع

المؤتمر الذي يعقد في أبو ظبي عاصمة دولة الامارات العربية المتحدة خلال الفترة من ٢ إلى ٤ تشرين الثاني ١٩٩٧.

وموضوع تفعيل دور جامعة الدول العربية مطروح على الساحة الفكرية العربية منذ سنوات، وإن كان ازداد الاهتمام به بعد كارثة حرب الخليج، فقد ثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن جامعة الدول العربية عجزت عن التصدي بفاعلية للنزاع العراقي-الكويتي، وحله بطريقة سلمية، مما فتح الباب بعد ذلك للتدخلات الأجنبية، بكل تداعياتها السياسية والاقتصادية المعروفة.

نظرة إلى المستقبل: ومن الأهمية بمكان في مجال تفعيل دور جامعة الدول العربية أن نحلل نظرة الجامعة إلى المستقبل من خلال كلمة الدكتور عصمت عبد المجيد الأمين العام لجامعة الدول العربية والتي ألقيت بالنيابة عنه في الجلسة الافتتاحية للحلقة النقاشية التي عقدت في القاهرة عن «تفعيل دور جامعة الدول العربية» وذلك يومي ١١-١٢ تشرين الاول ١٩٩٧.

وفي نظر الدكتور عصمت عبد المجيد ان الاهداف التي لا خلاف عليها للاستراتيجية العربية العليا هي:

«- صون الأمن القومي بمعناه الشامل وبكل أشكاله وجوانبه، ورعاية المصالح العليا والمشتركة للأمة العربية.

- الحفاظ على الهوية الحضارية والقومية المميزة للأمة العربية.

- تحقيق أعلى معدلات ممكنة للتنمية البشرية والاقتصادية والاجتماعية.

- ضمان التكامل الداخلي بين عناصر القوة الاستراتيجية (العناصر الاقتصادية والسياسية والمعنوية والاجتماعية).

- ضمان القدرة على تحقيق الاهداف المرحلية».

وعلى رغم تعدد المشاريع التي بادرت الأمانة العامة للجامعة إلى صوغها وطرحها للنقاش تحقيقًا لهذه الأهداف، إلا انه يبقى السؤال قائمًا حول فاعلية كثير من هذه الخطط والمشروعات السياسية والاقتصادية، والعقبات التي تحول دون نجاحها في تحقيق أهدافها.

ولعله مما يحمد للأمين العام أنه-وهو يصوب نظراته إلى المستقبل-التفت بدقة إلى تحديات النظام العالمي الجديد الذي يتشكل في الوقت الراهن، وإن لم تتحدد معالمه بعد، وهو يرى أن له سمات أربع ظاهرة، هي العولمة، واعتبار القوة الاقتصادية المؤشر الرئيسي لمعيار قوة الدول، وشيوع ظاهرة التكتلات الاقتصادية وبروز التعاون الدولي في مجال معالجة بعض المشكلات البيئية والاقتصادية.

تحديات العولمة: وفي تقديرنا أن أهم سمة من سمات النظام العالمي الجديد هي العولمة بتجلياتها السياسية والاقتصادية والثقافية والاتصالية. ونريد أن نركز-في مجال تفعيل دور جامعة الدول العربية-على أبعاد العولمة السياسية لأنها في تقديرنا هي التي تحمل مخاطر شديدة على الأمن القومي العربي، بل ولسنا مغالين في ذلك-على الوجود العربي ذاته، وعلى وحدة اراضي الدول العربية.

ونحن في حديثنا عن العولمة السياسية نقصد شعارات الديمقراطية والتعددية واحترام حقوق الانسان والتي أصبحت اليوم المعايير التي تقاس على أساسها شرعية النظم السياسية. غير أن أهم ما في اعتبار هذه الشعارات معايير عالمية هي أن الولايات المتحدة الاميركية-باعتبارها المهيمنة في الوقت الراهن على النظام الدولي-تريد أن تفرض جزاءات سياسية واقتصادية على الدول التي ترى هي، ومن منظورها الخاص، أنها خالفت معايير الديمقراطية وحقوق الانسان، ولعل الحالة النموذجية لذلك هي خلافاتها السياسية العميقة مع الصين على أساس أنها تخالف معايير حقوق الانسان وخصوصًا بعد حوادث قمع ثورة الطلبة المشهورة (١٩٨٩).

هنا تبرز الولايات المتحدة وكأنها شرطي العالم المنوط به حفظ النظام على المستوى الكوني، بل وأبعد من ذلك كما لو كانت هي القاضي الأعظم الذي يصدر أحكامه على المخالفين للمعايير الدولية من دون تفويض من أحد.

وإذا كانت قضية حقوق الانسان بكل جوانبها المعقدة، وأبرزها مشكلة ازدواجية المعايير التي تطبقها الولايات المتحدة وخصوصًا تجاهلها المتعمد للمخالفات الاجرامية لحقوق الانسان التي ترتكبها اسرائيل ضد الشعب الفلسطيني والشعب اللبناني، هي من التجليات البارزة للعولمة السياسية، إلا أن أخطرها على وجه الاطلاق في تقديرنا هي الممارسات المتعسفة لما يطلق عليه حق التدخل، والذي بناءً عليه استطاعت الولايات المتحدة ويا للأسف أن تهيمن على مجلس الأمن الدولي، وأن تستصدر قرارات باسم الشرعية الدولية، وبناءً عليها تم حصار الشعب العراقي والشعب الليبي.

حصار الشعب العربي: إذا أرادت جامعة الدول

العربية أن تفعّل دورها في المستقبل فليس أمامها سوى إعادة النظر في نطاقها وهياكلها ومؤسساتها وطريقة عملها، وعلاقتها بالمجتمع المدني العربي، حتى تكون مؤهلة لمواجهة الخطة الاستعمارية الجديدة التي تهدف إلى حصار الشعب العربي ومنعه من تحقيق التنمية الشاملة التي تجعله جديراً بدخول حلبة المنافسة العالمية ونحن على مشارف القرن الحادي والعشرين.

ونبادر بالقول إن الأخطاء السياسية لكل من القيادة العراقية وخصوصاً في قرارها المعيب والخاطىء لغزو الكويت، والقيادة الليبية في ما يتعلق بسلوكها الدولي غير المنضبط، لا تعطي لا الأمم المتحدة ولا مجلس الأمن الحق في إصدار قرارات الشعب العراقي أو الشعب الليبي.

إن القرارات التي صدرت باسم الشرعية الدولية المزعومة والتي أشرفت على إصدارها الولايات المتحدة بناءً على الضغوط الشديدة التي تمارسها على الدول أعضاء مجلس الأمن، والتي ترتب عليها حصار الشعب العراقي ومنع الغذاء والدواء عنه، تعد جريمة متكاملة الاركان من جرائم الإبادة الانسانية التي أثمتها المعاهدات الدولية.

والحقيقة أن جامعة الدول العربية، لأسباب شتى، لم تقم بدور بارز في مقاومة هذا الحصار الظالم، ولم تضع من الخطط السياسية والاقتصادية ما يكفل تحطيمه، لفتح الطريق أمام الشعب العراقي لكي يعيش بكرامة كما تعيش بقية الشعوب. ونعرف يقيناً أنه لتحقيق هذا الهدف لا بد من تثوير جامعة الدول العربية لتصبح المعبّر الحقيقي ليس عن الحكومات العربية فقط ولكن عن الشعب العربي نفسه تأكيداً لحقه في الوجود وللعيش بكرامة في إطار أسرة الأمم المعاصرة. وإذا كانت اسرائيل تحاصر الشعب الفلسطيني، والولايات المتحدة تحاصر الشعب العراقي والشعب الليبي، أليس هذا مؤشراً بالغ الخطورة على خطة اميركية متكاملة تهدف إلى تحطيم الوجود العربي ذاته؟.

وحتى لا نتهم بالمبالغة في التأكيد على الخطة الاميركية وأهدافها يكفي أن نشير إلى الحملة الاميركية الأخيرة على بعض الأمور المصرية في ما يتعلق بوضع الأقباط، وأخطر من ذلك مشروع القانون الذي يعده الكونغرس لمعاقبة الدول التي تخرق مبدأ حرية العقيدة.

ولو تأملنا التجليات البالغة الخطورة للعولمة في الوقت الراهن، وهيمنة الولايات المتحدة على إدارتها، في إطار التخاذل القبيح للدول الكبرى، وخصوصاً أصحاب العضوية الدائمة في مجلس الأمن، لأدركنا أن هناك شبكة متكاملة تهدف إلى حصار الشعب العربي من خلال مجموعة مترابطة من القواعد والإجراءات والسياسات أبرزها إعداد قائمة للدول أو المنظمات التي تشجع الارهاب وإدراج بعض الدول العربية فيها وبينها سورية. وثانيها استخدام ورقة حقوق الانسان لتهديد أي دولة عربية بزعم مخالفتها هذه الحقوق، كنوع من أنواع الابتزاز السياسي. وثالثها التهديد بعقاب أي دولة عربية لا تفتح الباب من دون أي قيود أمام حملات التبشير الدينية للقضاء على خصوصية الكنائس العربية، وذلك باسم حرية العقيدة. ورابعها وأخطرها فرض الحصار على بعض الدول العربية، لتحقيق الاهداف الاستراتيجية الاميركية، وأهمها منع أي دولة عربية، أو الدول العربية مجتمعة من امتلاك الاسلحة المتطورة التي يمكن أن تجعلها في موقف الند بإزاء اسرائيل وما تمثله من تهديد جسيم للأمن القومي العربي. وهناك في هذا الصدد تصريحات اميركية رسمية عن أن سياسة الولايات المتحدة هي أن تجعل اسرائيل على الدوام أقوى عسكريًا من كل الدول العربية مجتمعة.

وهكذا يمكن القول إنه على رغم وجود كثير من السلبيات في أداء جامعة الدول العربية، وفي الوقت نفسه، هناك وفرة في المقترحات والمشاريع المقدمة من أطراف شتى لتفعيل دورها، فإنه إن لم تتصد الجامعة للخطة المتكاملة التي تهدف إلى حصار الشعب العربي فإنها في الواقع ستفقد مبرر وجودها.

بعبارة مختصرة المواجهة الفاعلة للحصار هي مدخل الجامعة الصحيح لتكون معبرة عن الشعب العربي من المحيط إلى الخليج (عن السيد يسين، باحث مصري، نشرت في «النهار» البيروتية و«الاهرام» القاهرية في اليوم نفسه، ٧ تشرين الثاني ١٩٩٧)،

قضايا وموضوعات

في السياسي

خريطة التطرف والارهاب (مناقشة): بعد زوال الخطر الشيوعي (المترافق مع دخول منظمة التحرير الفلسطينية مفاوضات السلام مع اسرائيل)، اعتبرت الحركات الاسلامية الناشطة مصدر تهديد استراتيجي ضد الغرب من جهة وضد الأنظمة العربية (والاسلامية) المناهضة أو غير المتحالفة من جهة أخرى.

على أن أي تحليل جدي لهذا «التهديد الاسلامي» المزعوم لا بد وأن يظهر عدم مصداقيته وبعده عن الواقع. فعلى رغم حركة «إعادة الأسلمة» التي شهدها العالم الاسلامي بعد انحسار الايديولوجية القومية والعلمانية وحلول الاسلام كبديل وحيد في مواجهة الازمات الاقتصادية والاجتماعية الراهنة في بعض الدول العربية والاسلامية، لا تبدو الحركات الراديكالية الاسلامية الحالية قادرة على تغيير المعطيات الجيوستراتيجية على المدى المنظور. فالأنظمة العربية والاسلامية (باستثناء ايران بدءًا من ثورتها الاسلامية في ١٩٧٩) لم تخضع لتحولات بشكل عام. على ان هذا الأمر، إضافة إلى عجز الحركات الاصولية عن توحيد استراتيجيتها في الوقت الراهن، لا يعنيان انعدام الظروف الملائمة لعمل هذه الحركات، سيما وان استمرار الأزمات الاقتصادية والاجتماعية في الدول العربية والاسلامية توفر أرضية مؤاتية للمعارضة المنظمة (بمختلف منطلقاتها: دينية أو سياسية، أو قومية...) التي تحرز تقدمًا ملموسًا على الرغم من إجراءات القمع التي تتعرض لها.

النقاط التالية توضح الافكار العامة لهذه المقدمة:

١ – عجز الحركات الاسلامية الأصولية عن طرح بديل سياسي:

استراتيجيًا، عجزت هذه الحركات عن تجاوز الأطر الوطنية، وفشلت في التخلص من النزاعات القومية أو العرقية أو القبلية أو الطبقية. وهي، في الأساس، لم تطرح نفسها كبديل عن الأنظمة السياسية الراهنة:

فحركة «حماس» لم تطرح نفسها كبديل لمنظمة التحرير الفلسطينية على قاعدة أطروحات اسلامية، بل على أساس تجذير المطالب الوطنية الفلسطينية الدائرة حاليًا مع الاسرائيليين.

والجبهة الاسلامية للانقاذ (في الجزائر) لم تتهم جبهة التحرير الوطنية بالابتعاد عن الاسلام بقدر اتهامها لها بخيانة مبادىء حزب جبهة التحرير الجزائرية وبالتحول إلى «حزب فرنسا».

والاحزاب الاسلامية العربية اختلفت ردود فعلها إزاء حرب الخليج باختلاف مواقع دولها الجيوستراتيجية. فالأخوان المسلمون في الاردن دعموا العراق، بينما دانه الأخوان في الكويت. وفي السودان عبر الاسلام عن تثبيت ركائز النظام المركزي تجاه ثورات الجنوب المسيحية وضد المصريين. وفي تركيا، لم تتعدّ مطالب حزب الرفاه الاسلامي دائرة النظام السياسي الدستوري القائم.

٢ – عجز ايران عن تصدير الثورة الاسلامية:

سرعان ما أظهرت الحرب مع العراق عجز دعوة الثورة الايرانية (في سنواتها الاولى) إلى «تصدير الثورة». فالعالم السني وقف برمته إلى جانب العراق، فيما ظل الدعم الشيعي (في العالمين العربي والاسلامي) لايران جزئيًا ومتفرقًا. وفيما عدا الخطابات العقائدية العالمية الشاملة، لم تتعدّ الزعامة الايرانية بعض المجموعات الخارجية الموسومة بـ«المتطرفة» في إطار سياسة تتوخى إرساء سلطتها الاقليمية أكثر مما تبتغي تصدير الثورة الاسلامية. وهذا ما بدا، على سبيل المثال، عقب تخلي طهران عن الأخوان المسلمين السوريين في ١٩٨٢ باسم الالتقاء الاستراتيجي بين ايران وسورية، وما دلت عليه اللامبالاة التي أظهرها نظام الثورة الاسلامية الايراني إثر سحق صدام حسين لانتفاضات الشيعة في النجف وكربلاء عام ١٩٩١ وتبرير موقفه السلبي باسم رفض تقسيم العراق. أضف إلى ذلك ان الثورة الاسلامية تبدو أحيانًا، ورغم أوجه الاختلاف، نسخة معدلة للرؤية الاستراتيجية القومية التي ميزت عهد الشاه بين ١٩٥٣ و١٩٧٩. فلقد عمد النظام الايراني إلى تأسيس جيش تقليدي قوي والسيطرة على الخليج الفارسي واستيعاب بعض الأنظمة العربية بواسطة دعم الاقليات الشيعية فيها.

٣ – حركات اسلامية مناهضة للتطرف، وأخرى مستوعبة من الأنظمة:

على رأس هذه الحركات تقف منظمة المؤتمر الاسلامي التي تمثل الأنظمة (٥٢ دولة إلى جانب منظمة التحرير الفلسطينية) والتي أصدرت خلال اجتماعها في الدار البيضاء (١٩٩٥) شرعة خاصة تدعو إلى الاعتدال، وتدين «الداعين إلى شق الأمة الاسلامية وتشجيع الارهاب». وبعد أشهر، دعا السيد حسن الترابي، في رد على المنظمة،

منذ سنوات والمجازر التي يرتكبها الارهابيون في الجزائر يومية او شبه يومية، وذهبت بارواح الآلاف من السكان المدنيين الابرياء. الصورة لامرأة جزائرية في غمّ شديد خارج مستشفى زميرلي في بنطالحة في ضواحي الجزائر بعد المجزرة التي قضت على اولادها الثمانية. وهذه الصورة التقطها المصور الجزائري هوسين من «وكالة الصحافة الفرنسية»، ومنحتها لجنة التحكيم الدولية لجوائز مسابقة التصوير العالمية الجائزة الاساسية لـ«صورة العام ١٩٩٧».

خلال المؤتمر الاسلامي (الخرطوم، آذار ١٩٩٦) إلى «توحيد الجهود الاسلامية ضد النظام العالمي الجديد».

وثمة أنظمة أعطت الاسلاميين حرية التحرك في إطار اللعبة السياسية، كالاردن الذي يضم اسلاميين في برلمانه إلى جانب العلمانيين، وتركيا التي شهدت (وربما تشهد) صعود حزب الرفاه الاسلامي الذي نجح في الانتخابات البلدية ثم البرلمانية (١٩٩٥) وتكليف زعيمه نجم الدين أربكان تشكيل حكومة التلافية في كانون الثاني ١٩٩٦، وفشله في ذلك.

كما تمكنت بعض الأنظمة من السيطرة على جماعاتها المتطرفة، أو استيعابها، كما حصل في تونس حيث تمكن النظام من السيطرة على حزب النهضة الاسلامية، والمغرب حيث استطاع الملك الحسن الثاني، رغم بعض الصعوبات، من استيعاب الاسلاميين المتشددين ومجابهة ادعاءاتهم الاصولية بفرض شرعية قيادته الدينية.

٤- خريطة التطرف الاصولي:

- في مصر: بدت «الجماعة الاسلامية» و«تنظيم الجهاد» أهم الحركات المتطرفة. ويرتفع عدد التنظيمات الاصولية الاسلامية وفق تقديرات الشرطة المصرية إلى حوالي ٢٠ تنظيمًا منتشرًا على الأخص في الاوساط الجامعية، وتأخذ على حركة الأخوان المسلمين ميولها لعقد تسويات مع النظام. إلا ان هذه التنظيمات، رغم نموها السريع وتمكنها من تسديد ضربات موجعة للنظام، أخفقت في القضاء على النظام أو أقله في هزّ أركانه، إضافة إلى انها تعاني من الخلافات الداخلية العقائدية والصراع على السلطة والنزاعات التكتيكية. ويبدو هذا الخلاف واضحًا بين اسلاميي «الداخل» والاسلاميين «الأفغان» الذين يمثلون التيار الأكثر عنفًا.

- في الجزائر: لم تخرج الجزائر بعد من دوامة العنف التي اندلعت بعد تعليق نتائج الدورة الأولى للانتخابات النيابية التي فازت خلالها الجبهة الاسلامية للانقاذ بـ١٨٨ مقعدًا من أصل ٤٣٠، في ٢٦ كانون الاول ١٩٩١. ووصل «العنف الجزائري» إلى مستوى من الإجرام يثير الرعب.

- من أفغانستان إلى الفيليبين: بعد انسحاب الاتحاد السوفياتي من أفغانستان، واصل «الأفغان العرب» «دعوتهم المقدسة» في مقاتلة «قوى الشر» في العالم: في البوسنة والهرسك، في طاجيكستان، في كشمير، في الفيليبين. كما طالت عملياتهم عواصم غربية وعربية (عرفت الرياض إحدى أعنف العمليات الارهابية عند انفجار سيارة مفخخة أمام مقر البعثة الاميركية؛ كما تمّ تفجير فندق أطلس في مراكش، واكتشفت الأجهزة الأمنية المغربية شبكات تهريب أسلحة عبر الحدود لصالح المجموعات الاسلامية في الجزائر).

٥- مسؤولية الغرب: يتحمل الغرب مسؤولية كبيرة في تشجيع هذه التيارات من خلال تمويلها وتدريبها وغض النظر عن تجاوزاتها (وفتح ابواب عواصمه لزعمائها). الأمين العام للأمم المتحدة بطرس بطرس غالي قال (في تصريح له في ٢٦ ايلول ١٩٩٤): «إن الأمم المتحدة لا تملك الرغبة ولا القدرة لفرض السلام في أفغانستان». لقد حصل المجاهدون (ضد الهيمنة السوفياتية) على دعم غير محدود من واشنطن وباريس ولندن وطهران وحتى تل أبيب. ولما لم تتوقف نشاطاتهم بعد الانسحاب السوفياتي، وتحولوا إلى حرب أهلية، تحوّل الغرب منهم ومن الحرب الأهلية إلى عدم الاكتراث بسبب فقدان أفغانستان، على ما يقول المحللون، لأهميتها الاستراتيجية،

بالاضافة إلى تمكن الدول الكبيرة المحيطة بها من الحؤول دون انتشار وباء الارهاب ومنع تأثيره على التوازن الاقليمي. على ان ما لم يحسب الغرب حسابه هو إمكان تصدير هذه الحرب إلى بقاع الارض عبر المجاهدين الأفغان الذين تحولوا إلى «إرهابيين» في عدد من الدول، غربية كانت أم اسلامية أم عربية (والأصح القول إن البعض يرى ان الغرب لم يحسب هذا الحساب، في حين ان البعض الأخر يرى أن الغرب حسب هذا الحساب ولكنه سمح به وربما شجعه ودعمه) (عن مارسيل عقل، «الحياة»، العدد ١٢٠٨٢، تاريخ ٢٤ آذار ١٩٩٦، ص١٣).

(إستكمالاً للموضوع، راجع ج٢، ص٨١-٨٢، وص١٩١-١٩٢، وص٢٨٥-٢٩٢؛ وج٥، ص٤٤-٥٠؛ وج٧، ص١١٤، وص٢٢٧-٢٣١، وص٣٦٠؛ وج١٠، ص١٢٥، و١٣٢؛ وج١١، ص١٦٤-١٦٧، و٣٣٩-٣٤٢).

الاتفاقية العربية لمكافحة الإرهاب: وقع وزراء الداخلية والعدل العرب (٢٥ وزيرًا) في مقر الجامعة العربية، في ٢٢ نيسان ١٩٩٨، «الاتفاقية العربية لمكافحة الارهاب»، وتعاهدوا على «سرعة المصادقة عليها للبدء في مرحلة تعاون عربي جديد في مواجهة الارهاب»، فقد نصت الاتفاقية على دخولها حيز التنفيذ بعد ٣٠ يومًا من إيداع سبع دول وثائق التصديق عليها لدى الجامعة العربية.

واصدرت الامانة العامة لمجلس وزراء الداخلية العرب بيانًا، في مناسبة الاجتماع المشترك (وزراء داخلية وعدل) للاتفاقية، أكدت فيه ان المجلس «تجاوز مرحلة التنديد والشجب إلى التحرك العملي ومكافحة الارهاب». كما جاء في البيان ان «اسرائيل تشكل أحد المصادر الرئيسية للارهاب في المنطقة العربية، فهي قامت على الارهاب وتعيش عليه، وفي وقت تدعي فيه الديمقراطية والمساواة تستخدم دعوة مكافحة الارهاب لتحقيق أهداف توسعية في العالم العربي وتشويه سمعة المواطن العربي وانها تنعت المسلمين بالتطرف والارهاب وتضليل الرأي العام العالمي وتحويل أنظاره عن الغارات الجوية التي تشنها بين الحين والأخر على جنوبي لبنان وتخلف عشرات القتلى من الاطفال والنساء والشيوخ والرجال».

أما الاتفاقية فتتضمن ٤٣ بندًا تتعلق بالاجراءات القضائية وطرق تسليم المتهمين والمحكوم عليهم في قضايا، وأساليب التنسيق بين أجهزة الأمن في الدول العربية وتبادل المعلومات واتخاذ الاجراءات لمنع عمليات التسلل عبر الحدود، وتعهد الدول الموقعة على عدم تنظيم أو تمويل أو ارتكاب الاعمال الارهابية أو الاشتراك فيها بأي صورة من الصور وان تعمل على الحؤول دون اتخاذ اراضيها مسرحًا لتخطيط أو تنظيم أو تنفيذ الجرائم الارهابية أو الشروع أو الاشتراك فيها بأي شكل من الاشكال، بما في ذلك منع تسلل العناصر الارهابية إليها أو إقامتها على اراضيها فرادى أو جماعات أو استقبالها أو ايوائها أو تدريبها أو تسليحها أو تمويلها أو تقديم أي تسهيلات إليها. وكذلك القبض على مرتكبي الجرائم الارهابية ومحاكمتهم وفقًا للقانون الوطني أو تسليمهم وفقًا لاطار الاتفاق أو الاتفاقات الثنائية بين الدولتين الطالبة والمطلوب إليها التسليم. وايضًا، تبادل المعلومات حول أنشطة الجماعات الارهابية وجرائمها وقياداتها وعناصرها، والمساعدة في القبض على المتهمين.

الميثاق العربي لحقوق الانسان: بعد زهاء نصف قرن على نشأة جامعة الدول العربية، وبعد ١٥ عامًا من الحوارات الداخلية والنقاشات الممتدة، أقر مجلس الجامعة، في دورته ١٠٢ (ايلول ١٩٩٤) هذا الميثاق الذي بقي مجرّد مشروع مطروح على جدول أعمال الجامعة منذ مطلع الثمانينات. واللافت أن هذا الاقرار جرى بما يشبه الكتمان وبدون أن يصاحبه أي احتفال، وكأن الجامعة (والأصح، كأن الدول العربية) سيقت إليه سوقًا، أو كأنها تعبر عن عدم جدية مضمرة إزاء تطبيق ميثاق يخص حقوق الانسان.

ثمة مؤثرات أربعة دفعت باتجاه إقرار هذا الميثاق:

الاول، يتمثل بلجنة حقوق الانسان في الأمم المتحدة التي حضّت الجامعة العربية على الانشغال بحقوق الانسان العربي بعد ان ثبت غياب هذا المجال عند صياغة ميثاق الجامعة. وبناء على ذلك أنشأت الجامعة لجنة لحقوق الانسان، في ١٩٦٨، عملت في كنف الاشراف الحكومي.

الثاني، جهود المثقفين العرب التي أثمرت استجابة من الأمانة العامة، فكلفت لجنة خبراء لوضع مشروع هذا الميثاق، وتم لها ذلك في تشرين الثاني ١٩٨٢. ومن هذه الجهود المستمرة والملفتة والداعية لتشجيع «العرب والمسلمين على الإقبال على ثقافة حقوق الانسان» الرسالة التي وجهها المفكر السوري جورج جبور (محاضر في جامعة حلب ومستشار الحكومة السورية) إلى المفوضة السامية لحقوق الانسان الرئيسة الايرلندية ماري روبنسن (ايلول ١٩٩٧) دعا فيها إلى اعتبار «حلف الفضول أول أو من اوائل التنظيمات المدنية للدفاع عن حقوق الانسان: «كل أملي أن الحفاوة بذكرى ١٤٠٠ سنة لحلف الفضول

ستعطي العرب والمسلمين دفعة حماسة قوية لمزيد من الاقبال على ثقافة حقوق الانسان». و«حلف الفضول» تأسس في نهاية القرن السادس الميلادي واستمر في هيئة اخلاقية وتنظيمية مدة تزيد عن ٦٥ سنة. وكتب جورج جبور أكثر من دراسة عنه، مظهرًا أنه ولد قبل الاسلام، ورغم ذلك فإنه «حظي بمباركة النبي العربي الذي أبطل أحلاف الجاهلية عداه». وفيه أن الحاضرين يتعاهدون على أن «لا يدعوا في بطن مكة مظلومًا من أهلها أو من غيرهم إلا وكانوا معه ضد ظالمه»، وقد سجل التاريخ «دفاع الحلف مرات عدة عن مظلومين».

الثالث، مشروع «ميثاق حقوق الانسان والشعب في الوطن العربي» الذي اصدره «مؤتمر أساتذة القانون العرب» في منتصف الثمانينات. وقد تضمن المشروع تفاصيل الحقوق المدنية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية، كما تضمن مشروع إنشاء محكمة عربية لحقوق الانسان، مهتديًا في كل ذلك بالميثاقين الاوروبي والاميركي لحقوق الانسان.

المؤشر الرابع، المناخ العالمي الذي تتصاعد فيه، وتتزايد وتتكثف وتضغط، لغة حقوق الانسان، وبخاصة من جانب الخطاب السياسي الغربي، إضافة إلى تشكيل الكثير من المنظمات والجمعيات واللجان المعنية بحقوق الانسان في كل بقاع الارض، فضلاً عن تشكيل الكثير من اللجان والمنظمات العربية غير الحكومية لحقوق الانسان. وكل ذلك كان من حقه ان يثير اللغط والشك، بل الاتهام، في وجه الأنظمة العربية وسياستها إزاء حقوق الانسان، مما أدّى إلى اقتناع دول النظام العربي بأن القضية ما عادت تحتمل التأجيل أو المراوغة.

يهتدي الميثاق العربي لحقوق الانسان (الذي أقر في ١٩٩٤ في ظروف أشبه بالكتمان الشديد)، في كثير من نقاطه، بمواثيق حقوق الانسان الصادرة، عن منظمات دولية وإقليمية. لكنه ينطوي، في مضمونه، على نقائض توقف كل مفاعيله. إذ إنه اشار إلى حق الحكومات في التحلل من كل الحقوق المنصوص عليها في «حالات الطوارىء»، وأكد على «حق المشروع الوطني» في تقييد هذه الحقوق لضرورة «حماية النظام العام أو الأمن أو الاقتصاد والصحة العامة أو الاخلاق العامة وحريات الآخرين». كما ان الميثاق لم ينص على ان الحق في الحياة من الحقوق التي يجب عدم المساس بها حتى في حالات الطوارىء. وأنشأ الميثاق «لجنة خبراء» لتلقي تقارير دورية عن التنفيذ، لكنه لم يتطرق إلى حق هذه اللجنة في تلقي شكاوى من الاشخاص الطبيعيين أو الاعتباريين، وأحال تشكيلها إلى الدول العربية. كما ان الميثاق لم ينشىء «محكمة عربية لحقوق الانسان» على غرار النموذجين الاوروبي والاميركي بهدف السهر على التطبيق.

المقاطعة العربية لاسرائيل: بعد إنشاء جامعة الدول العربية قرر مجلس الجامعة في دورته الثانية في جلسته المنعقدة في ٢ كانون الاول ١٩٤٥ مقاطعة المنتجات والمصنوعات اليهودية في فلسطين وإصدار توصية بهذه المقاطعة. وتم تشكيل لجنة دائمة للمقاطعة بدأت نشاطها في ١٥ كانون الثاني ١٩٤٦، ثم ارتؤي تكوين مكتب دائم للمقاطعة في فلسطين يكون بمثابة مرشد عن الصناعات والمنتجات اليهودية في فلسطين. وفي حزيران ١٩٤٦ أنشأ مجلس الجامعة العربية لجان مقاطعة في كل من فلسطين والدول العربية، وذلك لمتابعة وتنفيذ سياسة المقاطعة.

وبعد حرب ١٩٤٨ اتخذ مجلس الجامعة العربية في ايار ١٩٥١ قرارًا شاملاً بإنشاء مكاتب للمقاطعة في كل دولة عربية تحت إشراف مكتب رئيسي للمقاطعة يكون مقره في دمشق. وتتولى كل دولة عربية تعيين موظفي مكتبها، ويرتبط المكتب بالجهة الرسمية التي تعينه (وزارة الاقتصاد، أو وزارة المالية أو وزارة الدفاع).

وتقوم المقاطعة بعملها مستندة على جهاز مركزي تابع لجامعة الدول العربية هو المكتب الرئيسي لمقاطعة اسرائيل. وينسق المكتب الرئيسي العمل بينه وبين المكاتب الاقليمية كافة. ويرأس المكتب الرئيسي مفوض عام يعينه الأمين العام للجامعة.

بعد حرب الخليج الثانية، ومؤتمر مدريد، ومحادثات أوسلو، وما استتبعها من مفاوضات السلام العربية الاسرائيلية، وفي إطار مظلة الشرق أوسطية وما انعقد تحتها من مؤتمرات اقتصادية (راجع «الشرق الاوسط»، ج١١)، أخذ عمل المقاطعة يتلاشى، وإن بدرجات متفاوتة وفقًا لكل دولة عربية وموقفها السياسي العام. وآخر ضربة سددتها اسرائيل للمقاطعة العربية جاءت في إطار أعم من «الشرق الاوسط» أو «الشرق أوسطية»، وهو إطار الأمم المتحدة، وذلك في سياق جهودها الهادفة إلى تطبيع علاقاتها مع الأمم المتحدة. ففي حزيران ١٩٩٨ وقع في جنيف روبنز ريكوبيرو الأمين العام لمؤتمر الأمم المتحدة للتجارة والتنمية (أونكتاد) مذكرة تفاهم مع حكومة اسرائيل لإقامة برنامج مشترك للدعم الفني للدول النامية المستفيدة حاليًا من المساعدات الفنية لـ«أونكتاد» بما

فيها الدول العربية والاسلامية.

و لم يعلن عن أي موقف عربي أو إسلامي بهذا الشأن (حتى الآن، أواخر آب ١٩٩٨). وهذه ليست المرة الاولى التي تحاول إحدى هيئات الأمم المتحدة إبرام مثل هذا الاتفاق «الفني» بعد جهود حثيثة من اسرائيل لاختراق جدار مقاطعتها. إذ قبل عشر سنوات اضطر برنامج الأمم المتحدة الإنمائي سحب مذكرة مماثلة تحت ضغوط عربية، قادها رئيس الدائرة الاقتصادية لمنظمة التحرير وقتذاك، أحمد قريع (أبو علاء) الذي يشغل حاليًا رئيس المجلس التشريعي الفلسطيني.

أول تجمع في نوعه: «تحالف عربي–اسرائيلي من أجل السلام» (إعلان كوبنهاغن، ١٩٩٧): أحد أبرز الذين نشطوا وقادوا خطوات هذا التجمع الكاتب المصري لطفي الخولي الذي كتب في «الحياة» (العدد ١٢٤١٦، تاريخ ٢٥ شباط ١٩٩٧، ص١٧) مقالاً مطولاً بعنوان «كوبنهاغن: الفكرة... الاعلان... الحركة».

يقول الخولي إن إعلان كوبنهاغن «يعني أنه بعد ما يقرب من نصف قرن من المواجهة العسكرية والسياسية الفادحة الثمن لأطراف الصراع الأسرائيلي، اقليميًا ودوليًا، وتعثر الوصول إلى تسوية سياسية شاملة وعادلة، بادرت مجموعات من المثقفين ينتمون إلى مصر وفلسطين والاردن واسرائيل، في رحاب زملاء اوروبيين، إلى الاقدام، انطلاقًا من مسؤولياتهم الشخصية، على فعل ثقافي سياسي شعبي، يكسر الدائرة المفرغة الراهنة».

وأشار الخولي إلى ان التجمع والاعلان جاءا تتويجًا لسلسلة من الحوارات، وان فكرتهما «نبتت» على مستويين: مستوى الفكرة «الخام» الذي «يعود إلى الثمانينات، بعد اتفاقات كامب دافيد وإبرام معاهدة السلام المصرية–الاسرائيلية، وتكوين ما سمي بحركة «السلام الآن» باسرائيل... و لم يتجاوب معها من مصر والعالم العربي وقتذاك إلا صوت واحد هو صوت استاذنا نجيب محفوظ وكان وحيدًا في البرية، أو يمثل أقلية ضئيلة للغاية. وكانت الغالبية الساحقة، وأنا منهم، تقف في الخندق المضاد تمامًا. غير انه مع عاصفة المتغيرات الدولية والاقليمية التي سقط معها الاتحاد السوفياتي، وتفجير حرب الخليج الثانية، وانعقاد مؤتمر مدريد في ١٩٩١، والوصول إلى اتفاقية أوسلو في ١٩٩٣، شرع قطاع من المثقفين المصريين والعرب، وانا منهم، يتجه نحو تفكير جديد في رؤية الصراع ومساراته الواقعية والمستقبلية. وفي هذا الاطار نشطت مؤسسات ومراكز دراسات اوروبية واميركية تدعو إلى اجتماعات غير معلنة لحوارات بين مثقفين عرب ومصريين في الأساس، وبين مثقفين اسرائيليين، تستكشف امكانات دور مشترك لدفع ودعم تسوية الصراع سياسيًا وسلميًا...».

أما المستوى الثاني من الفكرة، يتابع الخولي، «فقد بدأ مع مبادرة المثقفين الاوروبيين، الدانماركيين بصفة خاصة ابرزهم هربرت بونديك... وقامت وزارة الخارجية الدانماركية برعاية ودعم مبادرة بونديك والمثقفين الاوروبيين ماديًا وسياسيًا».

ثم روى الخولي كيف انطلقت المبادرة منذ اوائل ١٩٩٥ بزيارات متكررة إلى القاهرة قام بها بونديك والتقى عددًا من المثقفين. وكان يصطحبه احيانًا الدبلوماسي الدانماركي تورين بريل، أو الكاتب الاسرائيلي أموس ألون أحد مؤسسي وقادة حركة السلام الآن، أو دافيد كيمحي رئيس مجلس العلاقات الدولية، وهي مؤسسة دراسات غير حكومية، وكان من قبل السكرتير العام لوزارة الخارجية الاسرائيلية بعد ان ترك منصبًا قياديًا في الموساد (المخابرات الاسرائيلية). وجرى أول اجتماع حواري، على مسؤولية المثقفين المصريين الشخصية، بمقر متحف لويزيانا قرب العاصمة كوبنهاغن في ٢٩ ايلول–٢ تشرين الاول ١٩٩٥، وكانت وزارة الخارجية الدانماركية قد وجهت الدعوة لهذا الاجتماع إلى كل من محمد سيد أحمد وأحمد فخر ومنى مكرم عبيد ولطفي الخولي للقاء وحوار كل من آموس آلون ودافيد كيمحي وأفيشاي مارجليت أستاذ الفلسفة وآشر ساسر استاذ التاريخ ومدير معهد دايان. وظهر في الاجتماع، على رغم اتفاق المحاورين على نهج التسوية السلمية بديلاً عن الحرب، ان هناك فجوة واسعة حول المفاهيم والرؤى والوسائل والاهداف بين الفريقين.

الدورة الثانية في الحوار (شباط ١٩٩٦) شارك فيها من الجانب المصري كلاً من الدكتور محمد السيد سعيد نائب رئيس مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية، والدكتور جمال عبد الجواد الباحث بالمركز والدكتورة سميحة فوزي استاذة الاقتصاد في جامعة القاهرة ولطفي الخولي. ومن الجانب الاسرائيلي الكاتبة شولاميت هاريفي، ويوناثان ليرنر الباحث والخبير في الشؤون السياسية والاستراتيجية، ودافيد كيمحي، والدكتور دان ميردور رجل القانون ووزير العدل السابق وعضو ليكود والذي أصبح أخيرًا وزيرًا للمال في حكومة نتانياهو. وتقرر

انعقاد الدورة الثالثة من الحوار في الاسبوع الثاني من حزيران ١٩٩٦.

لكن هذه الدورة لم تعقد في موعدها. والسبب (الرواية لا تزال بقلم لطفي الخولي) «ان شهر ايار (الحقيقة هو شهر نيسان) شهد على نحو مفاجىء عدوانًا عسكريًا اسرائيليًا شاملاً ووحشيًا ضد الشعب اللبناني...». وقد «حدث، خلال اجتماعات الجمعية العامة للأمم المتحدة في نيويورك في نفس الفترة، ان التقى وزير الخارجية الدانماركي بالاستاذ عمرو موسى وزير الخارجية المصري، وحدثه بشأن مبادرة لويزيانا واهتمام اوروبا بها، وما حدث لها من انتكاسة نتيجة موقف المثقفين المصريين، ورجاه ان يتدخل لدى المثقفين المصريين للعدول عن موقفهم ومتابعة جلسات الحوار. وكانت هذه أول مرة يطلع فيها الاستاذ عمرو موسى على مبادرة لويزيانا التي رحب بها (...) ولكنه في نفس الوقت، اعتذر عن عدم إمكان تدخله بوصفه وزيرًا للخارجية في شأن مواقف المثقفين المصريين من المشاركة أو عدم المشاركة في الدورة الثالثة من مبادرة لويزيانا...».

كانت هذه أهم النقاط الواردة في رواية لطفي الخولي حول «إعلان كوبنهاغن» والتجمع الذي أطلق عليه إسم «تحالف عربي-اسرائيلي من أجل السلام». وقد توقفت، في الترتيب الزمني لأحداثها، عند الموعد المؤجل للدورة الثالثة من جلسات الحوار (أي حزيران ١٩٩٦). أما ما حصل بعد ذلك وحتى توقيع الاعلان في آخر كانون الثاني ١٩٩٧ فتوضحه النقاط البارزة التالية (عن متابعة يومية للصحف):

- مع دخول المفاوضات الفلسطينية-الاسرائيلية مرحلة «اتفاق الخليل» برعاية اميركية، استأنف بونديك اتصالاته، وتم الاتفاق على استئناف الاجتماع في القاهرة يوم ٢٠ كانون الاول ١٩٩٦ في مقر السفارة الدانماركية.

- حضر الاجتماع بونديك وثلاثة من ممثلي الخارجية الدانماركية، وأربعة من الشخصيات المصرية، هم: لطفي الخولي وأحمد فخر والدكتور عبد المنعم سعيد والمحامي علي الشلقاني، وأربعة من الشخصيات الفلسطينية، هم: الدكتور سري نسيبه رئيس جامعة القدس ورياض المالكي أحد قيادات الجبهة الشعبية في الداخل وكان استقال من قيادة الجبهة وأعلن تأييده لعملية التسوية، وحنا سنيورة أحد قيادات الانتفاضة ورئيس تحرير جريدة «الفجر»، ومروان البرغوثي أحد قيادات الانتفاضة الذي أمضى في السجون الاسرائيلية ٧ سنوات وأفرج عنه قبل سنة فقط وأصبح عضوًا منتخبًا في المجلس التشريعي الفلسطيني (كان بونديك قد اتصل بهذه الشخصيات الفلسطينية إبان تحضيره لاجتماع الدورة الثالثة)، وأربعة من الشخصيات الاسرائيلية، هم: دافيد كيمحي وشلومي بن عامي ويهودا لينكري وناحوم نوفال.

- بين الاجتماعين، الثاني والثالث، أي في صيف وخريف ١٩٩٦، شغل السؤال عما يمكن عمله من جانب قوى وشخصيات سياسية غير حكومية ومثقفين مصريين وعرب بعد السياسات التي جاء بها نتانياهو والتي هددت عملية التسوية بالانهيار. وجرت لقاءات كان أهمها في ايلول ١٩٩٦ في القاهرة بين أكاديميين وصحافيين مصريين ومثقفين فلسطينيين حيث طرحت أفكار مشتركة حول ضرورة وجود قوة تأثير عربية-اسرائيلية غير حكومية للضغط من اجل مواصلة عملية السلام. واتفق المشاركون على إعداد مشروع ورقة يتم على أساسها مفاتحة الشخصيات والقوى غير الحكومية المؤيدة للتسوية على أساس صيغة مدريد واتفاق أوسلو. وجرت بالفعل كتابة مشروع الورقة بعنوان «تحالف من أجل السلام». وطرحها الجانب المصري في اجتماع ٢٠ كانون الاول ١٩٩٦.

- شدّد الاعلان على ضرورة «أن تمسك الشعوب بزمام عملية السلام بنفسها، وان نتضامن (الموقعون على الاعلان) مع بعضنا، ومع كل الشعوب المحبة للسلام في المنطقة وخارجها، وأن نضاعف جهودنا لاقامة الآليات المناسبة لتدشين تحالف من اجل السلام يعمل بلا كلل للاسراع بعملية السلام حتى تصل إلى نتائجها النهائية»، وأعطى أهمية خاصة للمسار الفلسطيني، ودعا إلى «الاسراع بالتطبيق الكامل والأمين للاتفاقات وإلى إنجاز حل عادل ومتكافىء لقضايا الوضع النهائي في موعد لا يتجاوز ٥ ايار ١٩٩٩ حتى يسمح هذا الحل للشعب الفلسطيني بممارسة الحق في تقرير المصير طبقًا للقانون الدولي». واعتبر الاعلان ان أسس التسوية على المسارين السوري واللبناني هي قرارات مجلس الأمن ٢٤٢ و٣٣٨ و٤٢٥ التي وصفها بأنها «القرارات المستندة إلى قاعدة الارض مقابل السلام».

- انفجرت في وجه الاعلان، وموقعيه، عاصفة من المعارضة مثلّت الغالبية الساحقة من المثقفين والصحافيين المصريين والعرب، ووصلت إلى حد «تخوينهم»، وأول المستهدفين كان لطفي الخولي الذي ردّ على الانتقادات بقوله (في حديث له من القاهرة لـ«النهار»، أول آذار ١٩٩٧): «إذا كان المنتقدون يقولون إن ما نقوم به تطبيع،

مـاذا يمكـن ان يسمّوا ٢٩ حـوارًا بـين شـخصيات عربيـة واسرائيلية تمت جميعها في السر منذ عام ١٩٨٩، وحضرهـا اسلاميون من أمثال الكاتب المصري فهمي هويدي والزعيم الاسلامي السوداني حسن الترابي، ويساريون مثل الكـاتب المصري محمد سيد أحمد والسوري من حزب البعث عزيز شكري (...) والتحالف هو لمصلحة كل القوى العربيـة، لأنه للمرة الاولى ينشأ واقع ثقـافي جديد يضغط علـى الحكومـة الاسرائيلية الـتي تـراوغ وتمتنع عـن تطبيـق مبـدأ الارض في مقـابل السـلام (...) وهـذه المرة الأولى يشكل فيها تحـالف شبيه للتحـالف الـذي أدّى إلى وقـف الحـرب الجزائرية في الخمسينات، والتحالف الذي أوقف الحـرب في فيتنام. وكلاهما قام به مثقفون من جانبي الصراع».

وعلى أنقـاض هـذا «التحـالف»، أعلـن عـن قيـام حركة أخرى مشـابهة باسـم «حركـة السـلام» المصريـة (راجع التالي).

«حركـة السـلام» المصريـة: أعلـن، رسميًّـا، وبترخيص رسمي، في القاهرة، في نيسان ١٩٩٨ وقبـل ايام من الذكرى الخمسين لإنشاء اسرائيل، عن قيام هذه الحركة وهي الاولى في نوعها في العـالم العربي. تضم في صفوفهـا عددًا من السفراء السابقين مثل أمينها العام صلاح بسيوني الـذي شغل منصب سـفير مصـر في الولايـات المتحـدة (١٩٩٧)، إلى جـانب ٣٠ شـخصية مصريـة عامـة مـن صحافيين ومحامين وقضاة.

وهذه الحركة هي حصيلة اللقـاءات الـتي سبق ان عقـدت العـام الفـائت (١٩٩٧) في كوبنهـاغن (راجـع أعلاه). وسارعت الحركة الجديدة إلى إعلان تأييدهـا لقيـام دولة فلسطينية، وانسحاب الجيش الاسرائيلي من الجـولان، ووجهت انتقادات حادة إلى حكومة بنيامين نتانياهو.

اعتبر الاسرائيليون (في ردود فعلهم وتعليقاتهم التي ظهـرت في الصحـف الاسـرائيلية، منهـا «جـيروزاليم بوست»، ٢٣ نيسان ١٩٩٨) ان الاعلان المصري عن قيام هذه الحركة مؤشر إيجابي قد يؤدي إلى حدوث تحول فعلي في نظرة المثقفين المصريين والشعب المصري الـذي رفض حتى الآن التطبيع مع اسرائيل، وان الأمر الـذي يدعو إلى الثقة كون الحركة الجديدة في القـاهرة ليست مجرد تطور مفـاجيء وعفـوي لإعـادة تفكـير جماعي، إذ تـدل هويـة مؤسسي الحركة، وبينهم سفراء وصحافيون وقضاة ينتمون إلى المؤسسة الرسميـة الحاكمـة، علـى أن هـذه المجموعـة قد تكونت بموافقة الطبقة الحاكمـة في القـاهرة، إن لم يكـن بطلب منها (عن رندة حيدر، باحثة في الشؤون الاسرائيلية، «النهار»، ٢٩ نيسان ١٩٩٨).

وبعد نحو شهرين من قيام حركـة «السـلام الآن» المصريـة، عقـد ممثلوهـا وممثلـو حركـة «السـلام الآن» الاسرائيلية مؤتمرًا صحافيًا في القـاهرة (٨ حزيـران ١٩٩٨) في أعقـاب بيـان مشـترك اعتبـر أن «عمليـة السـلام بـاتت متوقفة منذ تولي رئيس الوزراء الاسرائيلي نتانياهو الحكومة بسبب سياسته غير السلمية». وتحدث عن الجانب المصـري لطفي الخولي، وعن الجانب الاسـرائيلي الجنرال موردخاي بـار أون الـذي أعلـن عـن موافقـة حركـة السـلام الآن الاسرائيلية على قيام دولة فلسطينية وفقًا لحـدود مـا قبـل ٥ حزيران ١٩٦٧ تكـون عاصمتهـا القـدس العربيـة، وتحقيـق

الرئيس المصري حسني مبارك مستقبلاً موردخاي بار أون (الى يمين الصورة) ممثلاً حركة «السلام الآن» الاسرائيلية، ولطفي الخولي ممثلاً حركة «السلام الآن» المصرية (حزيران ١٩٩٨).

السلام مع سورية ولبنان على خلفية القرارات الدولية، واستنادًا إلى مفهوم الانسحاب الكامل مقابل السلام الكامل.

ندوة بيروت الخاصة بـ«اليهود العرب: الجذور والتهجير» (مناقشة): هي ندوة من ندوات أو برنامج حواري نظمه مثقفون لبنانيون، في طليعتهم الياس خوري، فواز طرابلسي، ومحمد سويد، بالتعاون مع جريدة «النهار» ومع «دار الآداب»، يمتد من ٨ نيسان حتى مطلع تموز ١٩٩٨ واختاروا له شعار «خمسون سنة نكبة ومقاومة» (شكلت بيروت العاصمة العربية الوحيدة التي دعت إلى إحياء ذكرى النكبة بتدارسها وأخذ العبر منها). ولقد دُعي إلى هذه الندوة، أي الندوة الخاصة بـ«اليهود العرب: الجذور والتهجير»، كتّاب ومفكرون يهود ولدوا وعاشوا في البلاد العربية ويحتفظون بجنسية هذه البلاد: سليم نصيب (لبنان)، جاك حسّون (مصر)، ابراهيم صرفاتي وادمون عمران المليح (المغرب). وهؤلاء المفكرون الذين تقرّر ان يشاركوا في الندوة لا يمثلون «الآخر» وتاريخهم يؤكد ذلك. وحضورهم إلى العاصمة اللبنانية كان تحديدًا لتبيان هذه الحقيقة، وكشف المساومات التي جرت على حسابهم عشية النكبة، وخلال السنوات التي تلتها حين لم تتردد حكومات عربية في «بيعهم» إلى الكيان الصهيوني، حسب تعبير الكاتب اليهودي العراقي سمير نقاش.

وسرعان ما هبت في وجه الندوة المقررة معارضة شديدة تميزت بنبرة التهديد والوعيد والارهاب وتخوين منظمي الندوة (علمًا انهم من أصحاب المواقف الحاسمة في الدفاع عن القضايا الوطنية والقومية). وكان المبادر في هذه الحملة الحزب السوري القومي الاجتماعي الذي كتب رئيس مجلس العمد فيه-جناح الطوارئ، انطوان غريّب، مقالة بعنوان «الياس خوري، نأسف لمنحك جنسيتنا». ثم انضمت إلى هذا الحزب «حركة فتح-المجلس الثوري» (أبو نضال) الذي ذكر أحد مسؤوليه «كيف كانت بوابات اتصالات عرفات مع اليهود تحت غطاء اللقاءات مع يهود يساريين وتقدميين، وكانت النتيجة انها جرّت إلى أوسلو» (علمًا ان المفكرين اليهود المدعوين إلىا لندوة هم يهود عرب معادون لاسرائيل والصهيونية، و لم يتمكن أصحاب حملة معارضة الندوة وتهديد منظميها من الاتيان ببرهان واحد-بعبارة واحدة مثلاً كتبها هؤلاء المفكرون أو أدلوا بها- يُثبت أي ارتباط لهم باسرائيل أو الصهيونية، سوى أنهم يهود دينًا). وكانت النتيجة انه تمّ سحب الدعوة

الياس خوري.

الموجهة إلى المثقفين العرب اليهود من غير إسقاط المحاور التي كانوا سيتحدثون فيها. وقد جرى تفضيل هذا الحل أمام تأكيدات من كثيرين بالحضور، خصوصًا من جانب الشاعر محمود درويش الذي أراد أن تكون بيروت خطته الأولى بعد شفائه من عملية جراحية أجراها قبل ايام. كما تمّ الابقاء على أهم أغراض ومحاور البرنامج، وفي طليعتها عرض نتاجات ثقافية فلسطينية شاملة، أو عربية معنية بالقضية الفلسطينية (مسرح، ملصق، سينما، شعر، أدب، موسيقى...)، ويكفي استعراض الأسماء المشاركة مباشرة أو بواسطة أعمال لها أو منها للتأكد من ذلك: حبيب صادق، شفيق الحوت، عبد الرحمن منيف، توفيق صالح، غسان كنفاني، مارسيل خليفة، آلان غريش، كميل منصور، السيد يسن، فؤاد مغربي، أنيس صايغ، جورج فرح، برهان غليون، محمود أمين العالم، أحمد خليفة، ابراهيم ابو لغد، بول سالم، محمد علي الخالدي، سعد الله ونوس، جواد الأسدي، جان جينيه، حيدر عبد الشافي، مارك أليس، سمير قصير، إقبال أحمد، إريك رولو، غسان تويني، ادوارد سعيد، ربيع مروة، ضياء العزاوي، جليلة بكار، أدونيس، سعدي يوسف، محمود درويش، وغيرهم. كما تمّ التأكيد على أهم أغراض الندوة، وهو الاهتمام بضخ عنصر نقدي في هذه المراجعة الشاملة يتناول موضوعين: الاول، المسؤولية العربية في مدّ الكيان

الصهيوني بعناصر يهودية عبر التهجير؛ والثاني، ضرورة امتلاك وعي يكون أقرب ما يكون إلى الحقيقة التاريخية ويؤكد البعد الانساني للقضية الفلسطينية.

وعلى رغم البيان الذي أصدره منظّمو الندوة وأعلنوا فيه سحب دعوتهم الموجهة إلى المثقفين العرب اليهود (الذين «كانوا قادمين ليقدموا روايات معززة بالأدلة على ان يهودًا عربًا جرى تهجيرهم إلى اسرائيل، ولم ينتقلوا إليها عن طيب خاطر») وحرصهم على إنجاح محاور الندوة، فإن القائمين بالحملة واصلوها في اتجاه تصعيدي بهدف إلغاء الندوة بكامل محاورها، واتخذ مجلس الوزراء اللبناني قرارًا بعدم منح تأشيرات للمدعوين. فهبّت عاصفة ثقافية في وجه الذين «أرهبوا» منظمي الندوة والمشاركين فيها، وكاد المثقفون يجمعون على اعتبار الحاملين على الندوة أصحاب «إيديولوجية عنصرية تبّرر عنصرية الصهيونية».

علامَ ارتكز الحزب السوري القومي في حملته على الندوة؟

ما جاء في حوار «الوسط» (العدد ٣٢٦، تاريخ ٢٧ نيسان ١٩٩٨، ص١٣ و١٤) مع أنطوان غريّب اعتبر بمثابة الدوافع الرئيسية للحملة على الندوة، ولكنها في الوقت نفسه اعتبرت من كثيرين انها «الدوافع الظاهرة»، إذ كثيرًا ما جرى التلميح إلى الدوافع الحقيقية بعبارات ملتبسة وموضوعة بين مزدوجين مثل «عدم جواز أي تعاط في لبنان في الشأن الفلسطيني خارج الأطر المخصصة لذلك»، وغيرها، مما يشير إلى ان أصحابها ارادوا الإيحاء، من خلالها، بأن الحزب السوري القومي كان مجرّد أداة منفذة لارادة سياسية.

عقائديًا وثقافيًا، اعتبر غريّب «ان موقفنا مبدئي (...) فإذا قرأنا التوراة والتلمود وكتاب حكماء صهيون وغيرها، نرى ان اليهود يؤمنون بأن الله اختارهم ووعدهم بأرض مما يشكل حكمًا موقعًا عدائيًا لنا من موقفنا القومي لما في إيمانهم من استيلاء على أرضنا وطردنا منها (...) إن الدعوة مغامرة غير محسوبة وخطوة كبيرة بمجرد دخول اليهود واستعمال منابرنا الثقافية والاطلالة من خلالها، ولا ندري ما الذي سيطرحونه وإن كانوا ضد اسرائيل، فنحن نعرف الخبث (...) في تغليفه البرّاق لطروحاته. نحن تربينا على ثقافة معينة، والصراع هو صراع أجيال لا ينتهي بهكذا سهولة، ورواسبه ستبقى ونراها في كل دولة عقدت صلحًا أو ستعقد صلحًا (...) إن التطبيع الفكري هو أخطر أنواع التطبيع، لأنه غسل دماغ لترسيخ قناعات جديدة في ذهن وفكر الجيل الحالي والجيل الصاعد. عندما نسترجع حقنا قد نتصارع حضاريًا. وبالتأكيد حضارتنا أقوى».

سياسيًا، قال غريّب: «نحن ضد الندوة في التوقيت وفي الشكل وفي الاهداف الملتبسة. اننا اليوم في مواجهة مع اسرائيل، وتحديدًا حول قرار مجلس الأمن ٤٢٥ (...) فلماذا نبحث اليوم عن لقاء توافقي معتبرين ان اليهودي هو يهودي آخر ولم يعد عدوًا؟! (...) لم نسمح لأحد بتجاوز التضامن والجو العام في البلد وما نشهده والدولة لخلق حالة ثابتة ومتينة ضد المحاولة الخطيرة لتأليب الرأي العام العالمي علينا لفرض الشروط الاسرائيلية».

ومن حيث الشكل، رأى غريّب أن «هؤلاء (أي المدعوين) بُلّغوا من وزارة الداخلية بعدم منحهم تأشيرة دخول إلى لبنان نتيجة بحث هذا الموضوع في مجلس الوزراء بناء على طلب وزيرنا، أسعد حردان (...) كان يعترض التصدي لهذا المشروع (الندوة) الذي مرّ تسللاً وعرفنا به فجأة. لم يقترح علينا أحد حتى المشاركة، علمًا ان لدينا مئات وعشرات المثقفين. لكن بعضهم يعتقد بأن الساحة الثقافية حكْرٌ له (...) مجموعة من اليهود عرفناها من أسمائها، ولم يوضح أو يفسر أحد شيئًا عنها...».

أما ردود منظمي الندوة وباقي المثقفين الذين انضموا إلى جانبها فقد تمحورت حول الأفكار الأساسية التي عبّر عنها الياس خوري في «الوسط» (المرجع المذكور سابقًا) والشاعر أدونيس («الحياة»، العدد ١٢٨٥٤، ١٤ ايار ١٩٩٨، ص١٩).

قال الياس خوري: «الندوة أثارت لغطًا ونُشرت مقالات ضدها جعلتُ وأنا اقرأها، واعتقدت اني لا أعيش في العام ١٩٩٨، ولا حتى في القرون الوسطى (...) بكل بساطة أحببنا طرح السؤال عن وجهة نظر مثقفين يهود عرب معادين للوجود الاسرائيلي وللصهيونية وما زالوا عربًا يحتفظون حتى اليوم بجنسيات بلادهم، كي يحدثونا عمّا حصل ولماذا ترك هؤلاء بلادهم؟ وبالطبع الجواب على ما حصل هو السؤال الكبير الذي لم تطرحه الثقافة العربية على ذاتها ولا مرة، ولم تخز أيضًا، لأن ما حصل يشبه الفضيحة. فإذا أخذنا المثال العراقية يتبين لنا ان قنابل سقطت على احيائهم (وثبت في ما بعد انها من أعمال الموساد وهذا ما تظهره التقارير الاسرائيلية)، ثم اتخذ قرار من قبل حكومة نوري السعيد بنزع الجنسية عن ١٥٠ ألف يهودي عراقي، ووجد هؤلاء أنفسهم فجأة من دون جنسية عراقية واقتيدوا إلى المطار لوجهة واحدة هي مطار اللد في فلسطين، وعمليًا ما حصل هو مؤامرة. يقول بن

غوريون في مذكراته ان دولة اسرائيل حين نشوئها كان فيها ٦٠٠ ألف يهودي، أما التأسيس الثاني لدولة اسرائيل فتمّ عبر تهجير اليهود العرب إلى اسرائيل. لـذا أحببنا طرح السؤال الكبير بواسطة هؤلاء المفكرين. ولماذا أكثر من نصف سكان اسرائيل هم حاليًا يهود عرب؟ لماذا غذّى العالم العربي الآلة العسكرية الاسرائيلية بهذا الكم الهائل الذي يفترض ان تستوعبه مجتمعاتنا القائمة على تعدد الأديان منذ أيام الرسول، و لم تكن فيها أقليات دينية عملنا على تصفيتها كما فعلت أوروبا عند نشوء الدولة القومية. إن الفكرة الكامنة وراء هذه الندوة وكل ندوات البرنامج، هي ان الفكرة الصهيونية فكرة عنصرية دينية، وإذا تقبلت مجتمعاتنا العربية تقليد النموذج الاسرائيلي ساعتئذ ندمّر مجتمعاتنا، وعملية تقديم نموذج مضاد جوهريًا للنموذج الاسرائيلي، وهي الطريقة الوحيدة للوقوف في وجه الاحتلال الاسرائيلي العنصري والمجهز والمتطور عسكريًا ويملك أكثر من مئة قنبلة نووية! هكذا كانت فكرتنا عن الندوة، لكن فوجئت بالافكار التي طرحت وما حملته من عنصرية. ولعل الندوة التي ستعقد كشفت خللاً كبيرًا في الثقافة العربية، إذ يفترض بنا ان نعي أخطار بقايا الفكر الفاشي المتغلغل في رؤوسنا والذي لن يؤدي بنا إلا إلى الهاوية».

أما أدونيس فكتب («الحياة»، العدد ١٢٨٥٤، ١٤ ايار ١٩٩٨، ص١٩) يقول: «إن أصحاب هذا «الضغط» (أي الذين حملوا على ندوة بيروت وتوصلوا إلى منعها) لا يتوقفون، ولو قليلاً، للتأمل، والتساؤل، ولا يأبهون للمفارقة التي يُوقعهم فيها موقفهم هذا. فهم يرسمون خط الصراع مع اسرائيل في مستوى ديني، لا في مستوى قومي. بل إنهم، في ذلك، يحجبون المستوى الفكري الوطني-القومي للصراع، بحيث توضع القضية برمتها في إطار صراع الأديان، وتصبح استمرارًا للصراع الديني-المسيحي-اليهودي الذي عرفته اوروبا، وتحملنا نحن نتائجه، ودفعنا ثمنه. بل إن «منطقهم» يقودهم إلى تسويغ الصهيونية نفسها، وإلى إعطائها الشرعية والمصداقية. فلئن كنا لا نعترف لكل يهودي بانتمائه إلى الجنسية التي يحملها، والبلد الذي ينتمي إليه بالولادة، ونصر على ان نماهيه باسرائيل، أفلا يقودنا ذلك إلى النظر لكل يهودي بوصفه اسرائيليًا؟ وإلى النظر إلى اسرائيل بوصفها وطنًا لكل يهودي؟ أفلا ندعم بذلك الصهيونية التي نقاومها.... وهي التي تقوم على هذه الافكار التي تشكل نواتها النظرية (...) أخيرًا، ما الفرق بين موقف الميليشيات الصربية التي تنبذ المسلم وتبيده لمجرد كونه مسلمًا، وهذا «الموقف» الذي ينبذ اليهودي لمجرد كونه يهوديًا؟ ولماذا إذن نُفاجأ ونحتجّ، عندما يُرفض العربي أو يُنبذ، في الدوائر العنصرية الغربية، لمجرد كونه عربيًا؟»

(مراجع هذه المادة الفرعية: حواران أجرتهما «الوسط»، العدد ٣٢٦، تاريخ ٢٧ نيسان ١٩٩٨ مع أنطوان غريّب والياس خوري؛ وبمقالة أدونيس في «الحياة»، العدد ١٢٨٥٤، تاريخ ١٤ ايار ١٩٩٨؛ متابعة المؤلف لمجريات أمور الندوة بما فيها حضوره ندوة كلية الآداب، الفرع الاول-الجامعة اللبنانية، تحت عنوان «فلسطين في موضوعات النهوض العربي» التي اشترك فيها محمد سويد، أحد منظمي ندوة بيروت، إلى جانب السيد محمد حسن الأمين والدكتور أحمد بو ملحم).

الحوار العربي-الاوروبي: في ٦ تشرين الثاني ١٩٧٣، بادرت الدول الاوروبية التسع الاعضاء في السوق الاوروبية المشتركة (أصبح عددها ١٥ دولة بدءًا من ١٩٩٥ في ما أصبح يعرف بـ«المجموعة الاوروبية» أو «الاتحاد الاوروبي»، راجع «اوروبا»، ج٣) إلى إصدار إعلان حول رغبتها في قيام حوار عربي-اوروبي. فبعد أن عدّد هذا الاعلان النقاط الرئيسية الواجب توافرها في أي حل لأزمة الشرق الاوسط، وأبرزها ضرورة «الاعتراف بالحقوق المشروعة للفلسطينيين في أية عملية إقامة سلام عادل ودائم»، و«عدم جواز ضم الاراضي بالقوة»، اشار في فقرته الخامسة إلى ان حكومات دول المجموعة الاوروبية التسع تذكر بمختلف العلاقات التي تربط، عبر تاريخ طويل بلدان الضفة الجنوبية من البحر المتوسط ببلدان الضفة الشرقية، وتؤكد ان المجموعة الاوروبية مصممة على التفاوض مع هذه البلدان (أي البلدان العربية) من أجل التوصل إلى اتفاقيات مشتركة معها في إطار شامل ومتوازن.

وقد ردّ مؤتمر القمة العربية السادس في الجزائر (تشرين الثاني ١٩٧٣) على هذه البادرة ببيان خاص موجه إلى اوروبا سجّل فيه المؤتمرون اهتمامهم بالبوادر الاولى التي أظهرتها دول اوروبا الغربية نحو تفهم أفضل للقضية العربية. وقد شدّد بيان القمة على ان اوروبا متصلة بالبلدان العربية، عبر البحر الابيض المتوسط، بروابط حضارية وبمصالح حيوية لا يمكن لها ان تتطور وتنمو إلا في إطار تعاون قائم على الثقة والمنفعة المتبادلة.

بعد هذا التبادل العلني في المواقف والنوايا، بدأت الاجتماعات المشتركة لتجسيد الحوار العربي الاوروبي في أطر وقنوات مؤسساتية. ففي أثناء انعقاد مؤتمر القمة الاوروبي في كوبنهاغن (١٠-١٤ كانون الاول ١٩٧٣)، اجتمع وفد عربي من اربعة وزراء عرب كان مؤتمر قمة الجزائر قد أوفدهم بغرض بدء الحوار، برئيس المجموعة الاوروبية. وقد تمّ في هذا الاجتماع الاتفاق على تنمية التعاون المالي والتكنولوجي والاقتصادي والثقافي البعيد المدى بين اوروبا والعالم العربي. وفي ١٤ شباط ١٩٧٤، صادق مجلس المجموعة الاوروبية على مبدأ الحوار العربي الاوروبي. وقد تمّ أول اجتماع رسمي على المستوى الوزاري في باريس في تموز ١٩٧٤ بين وزير خارجية الكويت والأمين العام لجامعة الدول العربية من جهة، ورئيس لجنة المجموعة الاوروبية ورئيس السوق الاوروبية المشتركة من جهة ثانية. وتمّ في ذلك الاجتماع وضع الأسس التنظيمية والاجرائية للحوار. وقد تبع ذلك عدة اجتماعات، إلا انها كانت تصطدم جميعها برفض الاوروبيين دعوة منظمة التحرير الفلسطينية للمشاركة في الحوار، فتوقف الحوار موقتًا. ثم اتفق في اجتماع لاحق عقد في دبلن على ان يشترك في الحوار وفدان فقط، أحدهما عربي والآخر اوروبي، دون تحديد لجنسية الاعضاء ولا لصفتهم التمثيلية. وقد قبلت الجامعة العربية ذلك في ٢٦ نيسان ١٩٧٥، وطلبت من الأمين العام للجامعة العربية ومن الدول العربية ومن منظمة التحرير الفلسطينية تعيين خبرائها في الوفد العربي الموحد. وقد عقد أول اجتماع عربي-اوروبي للحوار على مستوى الخبراء في القاهرة (١٠-١٤ حزيران ١٩٧٥)، ثم تبعه اجتماع روما (٢٢-٢٥ تموز ١٩٧٥)، ثم اجتماع أبو ظبي (٢٢-٢٧ تشرين الثاني ١٩٧٥). بعد ذلك، بدأت الاجتماعات على المستوى السياسي، فعقد أول اجتماع لـ«اللجنة العامة للحوار العربي الاوروبي» في لوكسمبورغ في ١٨-٢٠ ايار ١٩٧٦، ثم تبعه اجتماع آخر في دمشق في ٩-١١ كانون الاول ١٩٧٨. إلا ان كل هذه الاجتماعات لم تؤد إلى حوار مثمر، لا بل إن الحوار بدا شبه متوقف رغم الاجتماعات الروتينية التي استمرت تعقد بين حين وآخر، منها اجتماع روما، شباط ١٩٨٠ (عن «موسوعة السياسة»، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ج٢، ط١، ١٩٨١، ص٥٩١-٥٩٢).

إن السبب الأساسي الكامن في شلل هذا الحوار هو أن انطلاقته، وكذلك موضوعات مساره، كان الجانب الاوروبي يركز فيها على الاقتصادي، وخاصة البترولي، ذلك ان هدف الاوروبيين كان الحد من حركة ارتفاع سعر البترول وضمان الحصول عليه. وفي ظل حال الكساد التي شهدتها الدول الاوروبية خلال سنوات ١٩٧٥-١٩٧٧ (عقب ارتفاع اسعار البترول في ١٩٧٤) وما ترتب عليها من ثبات الطلب على البترول خلال السنوات المذكورة، ولجوء هذه الدول إلى التنسيق فيما بينها في إطار وكالة الطاقة الدولية، كل هذه العوامل دفعت الدول الاوروبية إلى رفض الاستجابة لمطالب دول العالم الثالث، وخاصة الدول البترولية. هذا إضافة إلى ان مضمون الحوار العربي الاوروبي لم يهم جميع الاطراف العربية بالقدر نفسه. فالدول العربية البترولية كانت أكثر من سواها حماسًا لهذا الحوار، ما يفسّر اللقاءات المتعددة، منذ توقف الحوار العربي الاوروبي، بين هيئات اوروبية ومجلس التعاون الخليجي، آخرها اجتماع الاتحاد الاوروبي وهذا المجلس في لندن في ٢٩ نيسان ١٩٩٨. وقد مثل الاتحاد الاوروبي، في الاجتماع، وزير الخارجية البريطاني روبن كوك الذي تتولى بلاده الرئاسة الدورية للاتحاد. وهدف الاجتماع إلى تعزيز العلاقات بين التجمعين الاقليميين، إلى البحث في عدد من القضايا ذات الاهتمام المشترك مثل ايران والعراق وعملية السلام في الشرق الاوسط.

والجدير ذكره ان استمرار شلل الحوار العربي الاوروبي (وتوقفه دون الاعلان عن ذلك) أدّت إليه جملة المتغيرات الدولية الكبرى بدءًا من اواسط الثمانينات. فحلّت في الحوار تجمعات إقليمية محل تجمع «العالم العربي» وعلى حسابه، مثل «الخليجي»، أو «المغاربي»، أو «المتوسطي» أو «الشرق أوسطي» (راجع هذه المواد في مواضعها من الموسوعة)، خصوصًا وان الاتحاد الاوروبي لم يضع إطارًا آخر للعلاقة مع الدول العربية منذ توقيع اتفاقية التعاون المشترك مع دول مجلس التعاون الخليجي في ١٩٨٨، إذ باتت العلاقات الاوروبية مع الدول العربية تنضوي تحت ما يعرف باسم «سياسة الاتحاد الاوروبي في البحر المتوسط»، التي أعيد بلورتها في المؤتمر الاوروبي-المتوسطي الذي انعقد في مدينة برشلونة الاسبانية في تشرين الثاني ١٩٩٥، إضافة إلى اتفاقات الشراكة التي تعقدها مع كل دولة عربية على حدة على رغم ان الهدف المعلن منها هو إقامة منطقة إزدهار اقتصادي مشتركة على ضفتي المتوسط.

لكن كل هذا لا يعني ان الحوار العربي الاوروبي قد توقف أو انقطع تمامًا. فاستمراره في مدينة طليطلة

(توليدو) الاسبانية، وبالشكل الذي يستمر به، دلّ على انه انتقل من النطاق الرسمي إلى النطاق شبه الرسمي والخاص. ذلك ان المدينة تشهد سنويًا ومنذ ١٩٩٢ دورات للحوار العربي الاوروبي تنظمها جامعة «كاستيا لا مانتشا» بالاشتراك مع مدرسة المترجمين في طليطلة. وهذه الدورات تعتبر، حاليًا، الاطار الوحيد الذي يقوم بمهمة قناة التفاهم بين ثقافتين مختلفتين، بل وفي كثير من الاحيان متناقضتين. فأهمية هذا اللقاء الحواري المستمر في شكل ثقافي باعتباره القناة الوحيدة التي تتعامل مع العرب ككل، أي كبلدان منضوية تحت لواء ومسمّى واحد هو جامعة الدول العربية.

ودورة طليطلة الخامسة عقدت في ٢٣ و٢٤ تشرين الاول ١٩٩٧، وظهرت فيها هوة واسعة بين ما يهدف إليه العرب وما تبحث عنه اوروبا في هذا الحوار، حين ركز الجانب الاوروبي، الذي تمثله اسبانيا، على أهمية التعاون الاقتصادي والسياسي والأمني بين اوروبا والدول العربية، مشدّدًا على أهمية التنسيق الأمني مع الدول العربية المطلة على البحر المتوسط باعتبارها المنفذ الخطر الذي يهدد الدول الاوروبية بعد انتشار الهجرة غير الشرعية عبر منافذ معروفة في شمال افريقيا (الشواطىء المغربية المطلة على مضيق جبل طارق). وكان الجانب العربي يبحث في تعاون أبعد من «التنسيق الأمني المغلف بشعارات التعاون الاقتصادي والسياسي الذي تحاول اوروبا فرضه دائمًا على الجانب العربي». وكان محور حديث ممثل الجامعة العربية محمد العربي الداودي التركيز على أهمية القضية الفلسطينية التي تعتبر القضية المحورية للعالم العربي.

الموقف العربي من «معاهدة حظر انتشار الاسلحة النووية»: دخلت هذه المعاهدة حيّز التنفيذ في ٥ آذار ١٩٧٠ لمدة ٢٥ سنة، وبلغ عدد الدول التي وقعت وصادقت عليها ١٧٨ دولة. ومن الدول التي لم تنضم إليها اسرائيل والهند وباكستان.

تلتزم المعاهدة كل الدول الاعضاء، باستثناء القوى النووية الخمس، الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي (روسيا حاليًا) وبريطانيا وفرنسا والصين، ان تمتنع عن حيازة الاسلحة النووية (البندان الاول والثاني)، وان تقبل إجراءات الرقابة على كل المنشآت النووية من قبل وكالة الطاقة النووية (البند الثالث)، وتضمن للدول التي لا تملك أسلحة نووية إمكان استخدام التكنولوجيا النووية لأغراض سلمية (البندان الاول والخامس)، في حين تلتزم الدول المالكة للأسلحة النووية ان تتفاوض بـ«حسن نية» لتحقيق نزع شامل للسلاح النووي وان تضع حدًا لكل التجارب النووية (البند السادس).

ونصت المعاهدة، التي حددت فترة سريانها بـ٢٥ عامًا، على انه بحلول العام ١٩٩٥ سيترتب على الدول الاعضاء ان تقرر ما إذا كانت ستمدد العمل بها إلى أجل غير محدد أو إلى فترة محددة. ويمكن ان يتخذ القرار بالاجماع أو بغالبية الاصوات.

ومع انقضاء المهلة، نظمت الأمم المتحدة مؤتمرًا حول المعاهدة بين ١٧ نيسان و١٢ ايار ١٩٩٥، ولم يكن هناك أي تأييد في المؤتمر لإلغاء المعاهدة، ومدّد العمل بها.

قبيل المؤتمر، وأثناءه، قادت مصر موقفًا عربيًا (وعالمثاليًا إلى حد ما) إزاء رفض تجديد المعاهدة، وعقد اجتماع قمة ثلاثي ضم مصر وسورية والسعودية، ثم تلته خطوة أخرى في اجتماع وزراء خارجية دول «إعلان دمشق»، وموافقتهم على الاقتراح المصري الذي يربط بين التوقيع العربي على المعاهدة وتوقيع اسرائيل، وتلت ذلك موافقة علنية من السودان والعراق وليبيا ولبنان واليمن والاردن.

أما الجامعة العربية فقد أكد أمينها العام الدكتور عصمت عبد المجيد ان الجامعة تؤيد الموقف المصري، وان هذه المسألة مسألة عربية. لذلك تقرر تشكيل لجنة فرعية لاعداد تقرير لجعل منطقة الشرق الاوسط خالية من أسلحة الدمار الشامل بتأييد عربي، وبتأكيد رفض جامعة الدول العربية استثناء اسرائيل من التوقيع على معاهدة حظر انتشار الاسلحة النووية لأن الترسانة النووية الاسرائيلية تهدد استقلال العرب وأمنهم، ومطالبتها (الجامعة العربية) بضرورة إخضاع اسرائيل للتفتيش حرصًا على السلام في المنطقة.

ازدادت، خلال نحو أربعة شهور وفي أجواء مؤتمر الأمم المتحدة والتوقيع على تجديد المعاهدة، الضغوط الاميركية على مصر والدول العربية التي تعرضت لحملة عنيفة من الاعلام الاميركي أثيرت في خضمها ثلاث أوراق: ورقة استمرار العلاقات المصرية-الليبية واعتبار الأمر خرقًا من مصر لقرارات مجلس الأمن؛ والثانية ورقة عدم جدوى استمرار المعونة الاميركية لمصر طالما أن هذه الأخيرة على موقفها من مسألة المعاهدة النووية؛ والورقة الثالثة متعلقة بإثارة الدوائر الرسمية الاميركية لقضية حقوق الانسان من خلال إلقاء الضوء على ما يحدث في مصر من تجاوزات حسب تقرير الخارجية الاميركية السنوي.

وبدأ التراجع في الموقف يُتلمّس من خلال الدورة

١٠٣ لمجلس الجامعة العربية (٢٣ آذار ١٩٩٥) بقرار يعكس «التمسك بثوابت ومبادىء محددة في ما يتعلق بمد سريان المعاهدة الدولية لحظر انتشار السلاح النووي من دون تحديد موقف بشأن قبول الدول العربية التوقيع أو عدم التوقيع على التجديد للمعاهدة في حال استمر الرفض الاسرائيلي للانضمام إلى هذه المعاهدة». فكانت النتيجة أن وقعت غالبية الدول التي كانت وقعت على المعاهدة في الأساس، بما فيها الدول العربية، واستثنيت اسرائيل من التوقيع، علمًا ان هذه الأخيرة تمتلك سلاحًا نوويًا أكدته مراكز البحث الدولية المتخصصة ونشرت عنه في دورياتها سواء في لندن أو في السويد، وأصبحت هذه المعلومات على درجة عالية من اليقين. وتؤكد هذه المصادر ان حجم ما لدى اسرائيل من قنابل نووية يتراوح ما بين ١٠٠- ٢٠٠ قنبلة، إلى وجود قدرات التصنيع ومواد الخام الجاهزة لمزيد من الصنع، إلى إنتاجها أسلحة كيماوية وبيولوجية وأسلحة استراتيجية أخرى تستطيع بها ان تصل إلى معظم العواصم العربية.

موضوعات في العلم والتكنولوجيا

الوضع الحالي للجامعات العربية: عن تقرير يحمل عنوان The Higher Education System in The Arab States صادر عن المكتب الاقليمي العربي للأونيسكو (١٩٩٦)، ومقره في القاهرة:

- عدد الجامعات العربية تضاعف ١٥ مرة في أقل من نصف قرن، فأصبح ١٣٢ جامعة تضم ٩٥٧ كلية في علوم الطبيعة والهندسة والعلوم الانسانية والاجتماعية. وثلث عدد الجامعات نشأ خلال الـ١٥ سنة الماضية (١٩٨١-١٩٩٦)، ونصف الكليات خلال العقد الماضي. فيما ارتفع عدد المعاهد التقنية العالية إلى ٣٥٩ معهدًا. وأهم المشكلات التي تعاني منها هذه الجامعات: الاكتظاظ بالطلاب، شحة المراجع، فقر المكتبات، تداعي المعدات المختبرية وانعدام التفاعل مع الجامعات والمراكز العلمية العالمية. فبقاء هذه الجامعات العربية كمراكز تعليمية فعالة، في عصر الثورة التكنولوجية التي انتجت تقنيات الكومبيوتر والأنترنت، يتوقف على تجهيزها بهذه التقنيات.

- شهد نظام تعليم العلوم والهندسة خلال ١٩٨٠-١٩٩٣ تطورات إيجابية عدة، لكنه كشف عن جوانب ضعف خطيرة. ومع أن عدد أقسام العلوم والتكنولوجيا في الكليات تضاعف مرتين خلال هذه الفترة، إلا ان هذا النمو الذي جرى في أقسام ثلاثة هي العلوم الأساسية والهندسة والزراعة اتجه نحو التماثل وليس التنوع.

- بلغ مجموع الطلاب الجامعيين (في السنة الدراسية ١٩٩١-١٩٩٢) نحو ٢،٥ مليون طالب، وبلغت نسبة طلاب المعاهد والكليات التقنية بينهم ١٦٪. الزيادة في عدد الطلاب بين ١٩٨٠ و١٩٩٣ بلغت نسبة ٧٪ في حين ازداد الانفاق على التعليم العالي بمعدل ٥٪ سنويًا. ولا تزال المعاهد التقنية تجتذب عددًا قليلاً من الطلاب لا تزيد نسبتهم عن ١٥٪ من مجموع الطلاب العام. ولا تزال نسبة طلاب الدراسات العليا للماجستير والدكتوراه أقل من ٦٪. ومع أن تحسينات عدة طرأت على الهيئات التدريسية في الجامعات العربية فإن البحث العلمي فيها تقلص من ٧٪ عام ١٩٨٥ إلى ٥٪ عام ١٩٩٢ (من المفيد جدًا ان نشير هنا، كم أن النسبتين الأخيرتين اللتين وردتا في تقرير المكتب الاقليمي لليونسكو والمتعلقتين بتقلص البحث العلمي-والتأليف- من ٧٪ في ١٩٨٥ إلى ٥٪ في ١٩٩٢، سلبيتان وخطيرتان. «إذ نكتشف، بالارقام، كم ان تقصيرنا كبير في مجال البحث والتأليف- الدراسات وإصدار الكتب-فإنتاج العناوين الجديدة الذي بلغ العام ١٩٩٦ في بريطانيا ٩٥٠١٥ كتابًا، وفي فرنسا ٤٥٣١١ كتابًا، وفي اسبانيا ٤٤٢١٦ كتابًا، وفي هولندا ٣٤٠٦٧ كتابًا، وفي بلجيكا ١٣٩١٣ كتابًا، لم يبلغ في مجمل البلدان العربية سوى ٨١٧١ كتابًا. أي أن مجموع العناوين الجديدة التي انتجها العالم العربي بأسره هي اقل بكثير مما أنتجه أصغر بلد اوروبي لوحده»، عن فردريك معتوق، «الحياة»، العدد ١٢٧١٥، تاريخ ٢٢ كانون الاول ١٩٩٧، ص٩).

التكنولوجيا والبحث العلمي (مقارنة مع اسرائيل): شهد عقدا الثمانينات والتسعينات طفرة هائلة في انتشار أجهزة الكومبيوتر وتطبيقاتها الميسرة في البلاد العربية. وهذا الانتشار بدأ بشكل مطرد منذ مطلع الستينات، وتزايد مع زيادة الفوائض النفطية. وفي بداية التسعينات شكلت الدول العربية سوقًا كبيرة لتجهيزات الكومبيوتر وبرامجه، وتزايد الطلب على الكومبيوتر الشخصي. وقدّر سوق الكومبيوتر العربية بنحو ٨٤٠ مليون دولار سنويًا.

التكنولوجيا العربية، عمومًا، ما زالت في فترة حضانة. فباستثناء بعض الصناعات الخفيفة والنفطية والكيماوية المحدودة، تستورد الدول العربية كل ما تحتاجه

من تكنولوجيا متقدمة، وحاجتها إليها تزداد يوميًا، في حين أن إنفاقها على البحث العلمي لا يزيد على واحد في الألف من دخلها القومي.

التكنولوجيا والبحث العلمي في اسرائيل تبدو معاكسة تمامًا للصورة العربية، والفجوة بين الصورتين تزداد اتساعًا، خاصة مع مسار مفاوضات السلام والتطبيع. إذ سيوفّر هذا المسار لاسرائيل البلايين من الدولارات التي كانت تنفقها على البرامج العسكرية لانفاقها على تطوير صناعاتها التكنولوجية وتحويلها إلى منتجات استهلاكية.

«إن مصادر القوة والثروة هذه الأيام عالمية أكثر منها قومية، وفكرية أكثر منها مادية. إذ إن حجم الاراضي وعدد الناس وثروة المواد الخام لم تعد تقرر مصير الأمة، لأن مدى التعليم واستخدام التكنولوجيا والمعلومات الحديثة هي العوامل التي تحدث الفارق (...) إن العلوم لا تعرف حدودًا جغرافية والتكنولوجيا لا تحمل رايات وطنية (...) إذ حلّت موهبة الابداع والبناء محل استراتيجيات الدمار وأصبحت أجهزة الكومبيوتر لا البنادق هي التي تُحدث الفارق...» (من خطاب شيمون بيريز، وزير خارجية اسرائيل، أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة، دورة خريف ۱۹۹٥).

ونظرًا إلى ان الاسواق الاقليمية كانت مغلقة في وجه اسرائيل، اضطرت إلى التنافس مع التكنولوجيا الغربية. ولو انها لم تستطع التصدير إلى الغرب لما أمكنها أن تطور أي صناعة. وكان عليها ايضًا ان تصل إلى مستوى تكنولوجي متقدم كي تستطيع منافسة التكنولوجيا الغربية في الاسواق العالمية. كانت هذه القوة الدافعة الأساسية وراء صناعات التكنولوجية الاسرائيلية المتقدمة. ولكن اسرائيل لم تستطع تعبئة الاموال الضخمة ورؤوس الاموال اللازمة لقوتها العاملة التي كانت على مستوى جيد من التعليم إلا بعد حرب حزيران ۱۹٦۷، حين بدأت المساعدات العسكرية والاقتصادية الاميركية تتدفق عليها بكميات ضخمة.

تنفق اسرائيل «على البحوث والتطوير ۳٪ من مجمل إنتاجها (الدول العربية واحد بالألف) وهي نسبة أكبر مما تنفق أي دولة في العالم بما في ذلك الولايات المتحدة واليابان. ويأتي إنفاقها على التعليم في المرتبة الثالثة بعد الدفاع وتسديد الديون (...) وساعدت في تطوير صناعة التكنولوجيا الاسرائيلية المتقدمة-من ٤۰۰ مليون دولار في ۱۹۷٥ إلى أكثر من ٤ مليارات دولار في ۱۹۹٥- القوة العاملة فيها. إذ إن نسبة ۱٥٪ من هذه القوة تضم خريجي الجامعات المتخصصين كما ان عدد العلماء والمهندسين بين كل ۱۰ آلاف من افراد تلك القوة يبلغ ضعف عددهم في كل من الولايات المتحدة واليابان. وزادت هجرة أكثر من ۱،٥ مليون من اليهود «السوفيات» إلى اسرائيل (بين ۱۹۹۰ و۱۹۹٥) من مكانتها التكنولوجية. ففي بداية هذا العقد (أي في ۱۹۹۰) كان حوالي ٥۰ ألف أكاديمي يعملون في مجال البحوث والتطوير. وبمجيء اليهود السوفيات زاد العدد أكثر من ۱۰ آلاف، لأن عدد العلماء بين كل ۱۰۰ ألف مهاجر كان يزيد على ۱٥۰۰ (...) ونجحت اسرائيل، أكثر من غيرها من البلدان (بما فيها الولايات المتحدة) في الانتقال الصعب من التكنولوجيا الدفاعية إلى المنتجات المدنية ...» («الوسط»، العدد ۱۷۰، تاريخ أول ايار ۱۹۹٥، ص۱۲).

العلماء والتكنولوجيون العرب في الخارج: منذ عقود عدة والعالم العربي يعاني من استمرار هجرة الأدمغة وتفاقمها، بحيث باتت تبدو كهجرة جماعية للنخبة، وقسرية بالنسبة إلى الغالبية العظمى منها نتيجة للاوضاع السياسية أو الضغوط الاجتماعية والاقتصادية الخانقة، وأكثر من ۹٥٪ من العلماء والنابغين والباحثين والمتخصصين العرب يقصدون للعمل والاقامة في الولايات المتحدة واوروبا. وفيما يُلاحظ حرص اسرائيل واهتمامها البالغ على استقطاب العلماء والخبراء والنابغين اليهود المنتشرين في العالم، يلاحظ، في المقابل، عدم الاكتراث العربي بتزايد هجرة الأدمغة العربية واستقرارها في الخارج هربًا من البطالة والفقر وضيق الأفق العلمي والثقافي، لا بل من سوء المعاملة إلى حدّ الاهانة التي بات يستشعرها العالم والخبير والباحث والمثقف في تفاصيل حياته اليومية وهو في مجتمعه.

منذ أكثر من عقدين والدراسات الجادة المدعومة باحصاءات دقيقة عن وضعية الادمغة العربية المهاجرة غائبة. أما الدراسات والاحصاءات التي لا يزال يُعتدّ بها ويتكرر نشرها في أغلب الأحيان فتعود إلى الفترة ۱۹٦۲-۱۹۷٦، وأشهرها تلك التي وضعها الخبير الدكتور أنطوان زحلان («السكان والتنمية في الشرق الاوسط»، بغداد، قسم التنمية الاجتماعية والسكان، اللجنة الاقتصادية لغرب آسيا-الأمم المتحدة، ۱۹۸٤)، ومنها الاحصائية المثبتة في سياق هذا الكلام التي تبين أن ۲۳۰۹٥ كفاءة عربية موزعة على أخصائيين وفنيين ومهندسين وعلماء طبيعة وأطباء هاجروا إلى الولايات المتحدة في الفترة ۱۹٦۲-۱۹۷٦.

منير نايفة (الى اليمين) والعطوان زحلان واسامة الخولي.

أما الدراسة الأحدث حول إنتشار الأدمغة العربية في الخارج فهي الدراسة التي وضعتها «شبكة العلماء والتكنولوجيين العرب في الخارج» ASTA، واكتفت باحصاء هؤلاء في معظم جامعات أميركا وكندا خلال ١٩٩٥، وتوصلت إلى النتيجة التالية:

– في الهندسة والعلوم التطبيقية: إجمالي الجامعات المحصية في أميركا وكندا ١١٨ جامعة، إجمالي عدد الأساتذة العرب ٤١٤.

– في العلوم الحياتية والزراعية: ١٥٠ جامعة، ١٧٩ استاذًا عربيًا.

– في الصحة: ٢٥ جامعة، ٥٢ استاذًا عربيًا.

– في العلوم والرياضيات: ٢٠٠ جامعة، ١٢٥ استاذًا عربيًا.

– في الاقتصاد وادارة الاعمال والمحاسبة والتسويق والمصارف والدعاية والاعلام والتجارة العالمية...: ١٥٣ جامعة، ١٠٦ استاذًا عربيًا.

وما هي «شبكة العلماء والتكنولوجيين العرب في الخارج» التي باشرت اعمالها رسميًا منذ ١٩٩٣؟

رئيسها الدكتور منير نايفه (مولود ١٩٤٥ في قرية شويكة، قضاء طولكرم في فلسطين) الذي يُعدّ من ألمع العلماء العرب في حقل الفيزياء النووية والليزر في الولايات المتحدة، أجاب «الوسط» (العدد ١٨٨، تاريخ ٤ ايلول ١٩٩٥، ص٣٥–٣٧) بالتالي:

«فكرة الشبكة نشأت العام ١٩٨٩ في لقاء مصغر عقدته في مدينة القاهرة مجموعة من العلماء العرب، وأبرزهم الدكتور علي عطية عبد الله، والدكتور ابراهيم بدران، وتحدثنا عن كيفية الاستفادة من خبرات والكفاءات العربية، فخرجنا بفكرة القيام بنشاط نجند من خلاله تلك الكفاءات.

وبدأنا نفكر في الدولة العربية التي يمكن ان نبدأ بها هذا النشاط ورأينا ان الاردن قد يكون بلدًا وسطًا من ناحية جغرافية، وفيه مناخ علمي جيد إلى حد ما. وكانت الدولة قد بدأت سياسة وطنية تجاه العلم والعلماء، ولقينا ترحابًا مشجعًا خلال زيارة قمنا بها إلى عمان. وقابلنا هناك الدكتور هاني الملكي، والدكتور عبد الله طوقان اللذين أبديا اهتمامًا بالموضوع. فتبلورت الفكرة على ان نقوم بمؤتمر عام ندعو إليه بعض العلماء العرب الموجودين في الخارج للتباحث والتشاور. وهكذا عقد المؤتمر الاول للعلماء العرب خلال ١٧–١٩ آب ١٩٩٠. وكان المؤتمر غير متخصص في حقل ما، إذ حضره علماء في الهندسة

جانب من المشاركين في الندوة («العرب والعولمة»، بيروت ١٩٩٧)، وبدا الى اقصى اليسار النائب اللبناني عصام نعمان.

والعلوم والطب، ومعظم التخصصات العلمية والتكنولوجية الأخرى. وانبثقت خلال هذا المؤتمر فكرة إنشاء شبكة للعلماء والتكنولوجيين العرب سجلت في الولايات المتحدة. واقترح ان يكون لها فرع أو مركز في الدول العربية. وبالفعل، وقع الاختيار على عمان إثر الاقتراع، وتقرر ان يستضيفها (أي الشبكة) المجلس الأعلى للعلوم والتكنولوجيا، على ان تكون هناك نقاط اتصال في الدول العربية الأخرى لتسهيل أعمال الشبكة.

أما عن كيفية الاتصال بالشبكة، فهناك مجلس أمناء مكون من ٩ أعضاء لهم تخصصات مختلفة ويوجدون في مواقع مختلفة في اميركا وكندا. ويمكن الاتصال بأي شخص منهم حسب جهة الاختصاص المطلوبة. أما المركز الدائم للمجلس فهو بالقرب من جامعة إيلينوي (في الولايات المتحدة) حيث يعمل الدكتور ابراهيم الحاج وشخصي».

العولمة تقدم فرصًا جديدة لتقدم العلوم والتكنولوجيا في العالم العربي: في كانون الاول ١٩٩٧، عقدت في بيروت «ندوة العرب والعولمة» (نظمها مركز دراسات الوحدة العربية) نوقشت فيها أبحاث ساهم فيها نحو ٨٠ من أبرز الخبراء العرب في السياسة والاقتصاد والثقافة، ووضعت أبسط تعريف للعولمة معتبرة إياها «سهولة حركة الناس والمعلومات والسلع والاموال والأفكار بين مختلف الدول على نطاق الكرة الارضية». من الاوراق المقدمة كانت ورقة العالم المصري الدكتور أسامة أمين الخولي الذي يعد من أبرز الخبراء العرب في سياسات العلوم والتكنولوجيا. وقد استهل الخولي ورقته بقوله: «الأمر الذي يقلقني وأجد نفسي حائرًا في شأنه، وقد طعن بي السن وعشت عقودًا من الحديث والاستماع والقراءة والكتابة في هذا الموضوع، وهو لماذا وقفنا عند التشخيص وعقد المقارنات ولم ينجح جيلي في حفز الرأي العام وأصحاب القرار لاتخاذ أي من الاجراءات التي ظللنا- وانطوان زحلان على رأسنا- ننادي بأهميتها وجدواها في الخروج من مأزق التخلف التقاني».

أما بحث انطوان زحلان (باحث فلسطيني وخبير قضايا العلم والتكنولوجيا في العالم العربي، ساهم في تأسيس مراكز للعلوم والتكنولوجيا في بلدان عربية عدة، ومعروف عالميًا بكتبه عن أوضاع العلوم والتكنولوجيا في العالم العربي، وعمل استاذًا للفيزياء في الجامعة الاميركية في بيروت فترة عشرين سنة) فقد تضمن النقاط الرئيسية التالية:

- لم يحقق العالم العربي خلال الـ١٥ سنة الماضية أي نمو اقتصادي حقيقي على رغم ان حجم التوظيفات العربية زاد عن ترليوني دولار (الترليون يعادل ألف بليون أو الف مليار). ويعود سبب عدم الحصول على مردود لهذا المبلغ الجسيم إلى افتقار جميع البلدان العربية إلى منظومة وطنية للعلوم والتكنولوجيا. وعدم وجود هذه المنظومة يعطل الاستفادة من القدرات العلمية والمهنية.

لكن ممّ تتكون هذه المنظومة وما دورها؟.

- تتكون المنظومة العلمية التكنولوجية من شبكات وعمليات متنوعة تدعم وتدمج اعمال البحث والتطوير، وتنشىء المؤسسات الاستشارية الوطنية للهندسة والتصميم، وتطور المنظومة العلمية التكنولوجية خدمات المعلومات والمقاييس والمواصفات، وتضع الأطر القانونية اللازمة لدعم النشاط الذهني العلمي، وتقيم المنظومة العلائق التي تدمج شبكات الجمعيات المهنية والعلماء الافراد بالبيئة الاجتماعية والاقتصادية، وتحمي الملكية الذهنية للمخترعين، وتدافع في الوقت نفسه عن مصالح المستهلكين الذين قد يقعون ضحايا السلوك الاحتكاري والانتهاكات التكنولوجية. ويستحيل الاستفادة من العلوم والتكنولوجيا من دون بناء منظومة فعالة بهذا الصدد، ومكونات العلوم والتكنولوجيا لا تحقق النتائج المطلوبة لو تركت منعزلة إحداها عن الأخرى. فالمنظومة هي التي تدمج نظام التعليم وعالم العمل والاقتصاد وتوفّر فرص التدريب والتعلم أثناء العمل لوقف تدهور مهارات القوة العاملة البشرية.

- إن حجم المهارات الهندسية والعلمية في العالم العربي يزيد على ٢٠ بليون دولار. هذه المهارات التي أنشأتها الثورة التعليمية العربية في الثلاثين عامًا الماضية يمكن أن تحسّن الأداء الاقتصادي العربي وترفع الانتاج الوطني وتقلل التبعية التكنولوجية وتزيد العمالة وتساعد على إنشاء سوق دولية للخدمات التكنولوجية العربية. وتملك الدول العربية، على رغم نزوح الأدمغة، ما يكفي من الجامعات والقدرات المهنية لتحقيق هذه الأهداف. فالقوة العاملة العربية تتكون من ٨٤ مليون شخص، بينهم ١٠ ملايين خريج جامعي. وتبلغ نسبة خريجي الفروع العلمية والتطبيقية نحو ٣٥٪، ويزيد عدد حاملي شهادات الدكتوراه في العلوم التطبيقية عن ٥٠ ألفًا. وقد تجاوز العالم العربي منذ فترة النقص الحرج في إعداد المهنيين. وحدثت قفزة في عدد الجامعات العربية من ١٠ جامعات فقط عام ١٩٥٠ إلى ١٧٥ جامعة عام ١٩٩٥. وفي ١٩٩٦ بلغ عدد الملتحقين بالجامعات العربية ٣ ملايين و٢٠٠ ألف

طالب. وارتفع الانفاق على التعليم العالي في العالم العربي من ٤ بلايين دولار في ١٩٩١ إلى نحو ٧ بلايين دولار في ١٩٩٦ (يلاحظ أن هذه الارقام الواردة في بحث د.أنطوان زحلان تزيد عن الارقام التي أعطاها المكتب الاقليمي العربي للأونيسكو في القاهرة حول عدد الجامعات والطلاب الجامعيين).

- إن العولمة المقبلة على العالم العربي تقدم فرصًا جديدة لبناء منظومة العلوم والتكنولوجيا الخاصة بالمنطقة. وتكمن أكبر هذه الفرص في النشاطات التكنولوجية العربية في قطاعات الهندسة والإنشاءات والنفط والغاز والزراعة. في قطاع الانشاءات العربية وحده يمكن استرجاع ثلاثة أرباع المبلغ الذي يذهب خارج المنطقة ويزيد عن ١٣٠ بليون دولار سنويًا. وتستطيع القدرات التكنولوجية العربية في هذا القطاع استحداث ٧ ملايين فرصة عمل جديدة سنويًا وتوسيع وإغناء القطاع المالي العربي، وتحويل الكفاءات العلمية إلى نشاطات اقتصادية منتجة ومبدعة تنتقل بالبلدان العربية من مجتمعات زراعية وريعية إلى مجتمعات صناعية عاملة. هذه الفرص لا تأتي من الخارج بل من نشاطات تكنولوجية داخلية في قطاعات الهندسة والانشاءات والزراعة. والعالم العربي أكبر مصدر للنفط والفوسفات، ومنتج أساسي للاسمنت والأنسجة. وتقدم هذه الصناعات كما واسعًا من الخدمات التقنية والمنتجات الخاصة بإدامة الصناعات. لكن السياسات العربية تتجه نحو استقدام خبرات من الخارج. ففي قطاع النفط والغاز وحده يبلغ حجم العمالة التي يخسرها العالم العربي نحو مليوني مهندس وتقني تستقدمهم البلدان العربية من الخارج. في حين تستطيع البلدان العربية المنتجة للنفط ان تنشىء سوقًا عربية محلية تتسع لعدد كبير من الخدمات التقنية والمنتجات المطلوبة في هذه الصناعات. وتستطيع البلدان العربية اجتذاب شركات الخدمات الهندسية الاجنبية للانتقال إلى البلدان العربية أو إقامة مشاريع مشتركة معها.

موضوعات في الاجتماع والاقتصاد والبيئة

عدد السكان: أظهر تقرير «مجلس الوحدة الاقتصادية العربية» (وضع في أواخر ١٩٩٦) ان عدد السكان في العالم العربي وصل، عام ١٩٩٥، إلى ٢٥٢ مليون نسمة، وتوقع ان يصل إلى ٢٩٠ مليونًا في العام ٢٠٠٠. واعتبر التقرير ان معدل النمو السكاني العربي من بين أعلى المعدلات في العالم، إذ تصل نسبته السنوية في المتوسط إلى ٢،٥٪ مقارنة مع معدل متوسط قدره ١،٨٪ للدول النامية و٠،٤٪ للدول الصناعية.

وتشير الاحصائيات إلى ان عدد سكان العالم العربي كان في العام ١٩٠٠ نحو ٣٦ مليون نسمة، وأصبح في ١٩٥٠ نحو ٧٥ مليونًا، ونحو ١٦٤ مليونًا في ١٩٨٠، وتخطى الـ٢٣٧ مليونًا في ١٩٩٢.

توقع تقرير «وضع السكان العالمي ١٩٩٤» الذي يصدر عن صندوق الأمم المتحدة للسكان ان يبلغ عدد سكان العالم، في العام ٢٠٢٥، نحو ٨ بلايين و٥٠٠ مليون، وعدد سكان المنطقة العربية نحو نصف بليون، أي ان واحدًا تقريبًا من كل ١٧ شخصًا في العالم سيكون عربيًا. وسيحتل المصريون الذين سيبلغ عددهم ٩٣ مليونًا المرتبة الاولى في العالم العربي (سيكون واحد من كل خمسة عرب مصريًا)، يليهم السودانيون (٦٠ مليونًا)، ثم الجزائريون (٥١ مليونًا)، ثم المغربيون (٤٧ مليونًا)، والعراقيون (٤٦ مليونًا)، فالسعوديون (٤٠ مليونًا)، فالسوريون (٣٥ مليونًا)، فاليمنيون (٣٤ مليونًا)، فالتونسيون (١٢ مليونًا)، فالاردنيون (١٠ ملايين)، فالصوماليون (٩ ملايين)، فيما سيتساوى تقريبًا عدد سكان كل من ليبيا وموريتانيا (٥ ملايين)، وكل من لبنان وعُمان (٤ ملايين)، والامارات والكويت (أقل من ٣ ملايين)، والبحرين وجيبوتي (مليون واحد)، ويأتي سكان قطر في آخر القائمة (نحو ٧٠٠ ألف).

وذكر التقرير (الذي عرض على المؤتمر الدولي للسكان في القاهرة، راجع «العالم»، ج١١)، أن نساء اليمن تحتل المرتبة الاولى في معدلات الانجاب التي تبلغ ٧،٢ طفل للمرأة الواحدة (وهو معدل عالمي احتلت به اليمنيات المرتبة الثالثة في العالم بعد نساء مالاوي ٧،٦، وأوغندا ٧،٣). ومعدلات المرأة الواحدة في الصومال ٧ أطفال، وفي عُمان ٦،٧، وفي جيبوتي ٦،٦، وموريتانيا ٦،٥، فيما تتساوى في الانجاب نساء السعودية وليبيا ٦،٤، وبعدهن تأتي السوريات ٦،١، والسودانيات ٦، كما تتعادل نساء العراق والاردن ٥،٧، ونساء الامارات ٤،٥، ونساء المغرب وقطر ٤،٤، ومصر ٤،١، والكويت ٣،٧، وتونس ٣،٤، بينما تعتبر نساء لبنان اقل العربيات انجابًا (٣،١ للمرأة الواحدة).

وأشار التقرير إلى ان الكويت احتلت المرتبة الاولى بين البلدان العربية في قلة معدلات الوفيات وبلغ ٢ بالألف، وتأتي بعدها كل من البحرين وقطر والامارات (٤ بالألف)، ثم الاردن وعُمان والسعودية (٥ بالألف)، ثم

تونس وسورية (٦ بالألف)، ثم الجزائر والعراق ولبنان (٧ بالألف).

كما لاحظ التقرير ان الكويتيين أطول عمرًا، إذ بلغ معدل توقعات العمر للكويتيين في سنوات ١٩٩٠-١٩٩٥ نحو ٧٥ سنة. وجاء بعدهم سكان البحرين والامارات (٧١ سنة)، ثم القطريون والعُمانيون (٧٠ سنة)، وتساوى اللبنانيون والسعوديون (٦٩ سنة)، وبعدهم يأتي التونسيون (٦٨ سنة)، ثم السوريون (٦٧)، وتساوى الجزائريون والعراقيون والاردنيون (٦٦).

وحقق البحرينيون أفضل النتائج في قلة عدد وفيات الاطفال الرضع (١٢ بالألف بين ١٩٩٠ و١٩٩٥). وجاء بعدهم الكويتيون (١٤)، والإماراتيون (٢٢)، والقطريون (٢٦)، والعُمانيون (٣٠)، والسعوديون (٣١)، واللبنانيون (٣٤)، والاردنيون (٣٦). وأدى الحظر الاقتصادي على العراق إلى زيادة كبيرة في معدل وفيات الاطفال الرضع (٥٨ بالألف). ويبلغ المعدل في اليمن ١٠٦ بالألف، وفي موريتانيا ١٢٢ بالألف.

وأظهر التقرير، أخيرًا، ان الكويتيين أكثر العرب تمدينًا، إذ يشكل سكان المدن نسبة ٩٣٪ من سكان البلاد، ما يمكن معه اعتبار الكويت من الدول-المدن الرئيسية في العالم، وتحتل المرتبة الرابعة بعد سنغافورة التي يعيش جميع سكانها في المدينة (١٠٠٪)، ثم بلجيكا (٩٦٪ يعيشون في المدن)، وهونغ كونغ (٩٤٪).

الأمية: في دراسة لمنظمة العمل العربية، نشرت في حزيران ١٩٩٧، وأشرف عليها أمينها العام الدكتور بكر رسول، ان هناك حالة من القلق في الاوساط التعليمية العربية بسبب انتشار الأمية في العالم العربي، فهناك نصف سكان الأمة العربية من الأميين، و٦٠٪ من النساء العربيات فوق سن الـ١٥ سنة أميات، ما يستحيل معه الوصول إلى مستويات تنموية بشرية واقتصادية أفضل في ظل تلك الأمية واستمرارها. وفي الدراسة ايضًا ان ٥٣٪ فقط في العالم العربي قادرون على القراءة.

وبحسب دراسة أخرى قدمت إلى مؤتمر النمو في العالم العربي الذي عقد في ايار ١٩٩٧ في صنعاء فإن نسبة الإلمام بالقراءة والكتابة ارتفعت من ٣٠٪ عام ١٩٦٠ إلى ٥٥٪ في ١٩٩٤، وان ٦٠ مليونًا من العرب البالغين أميون. ومقارنة مع كوريا الجنوبية، تبين أنه في ١٩٦٠ كانت نسبة الأميين في كوريا الجنوبية ٣٠٪، فيما كان نصف البالغين من العرب أميين. وهذا يعني ان كوريا الجنوبية بدأت نجاحها التنموي بموارد بشرية أعظم من المنطقة العربية.

إحصائيات متقاربة قدّمها المؤتمر القومي (القاهرة، نيسان ١٩٩٨) الذي أكد، في تقريره السنوي عن «حال الأمة العربية في العام ١٩٩٧»، ان معدلات الأمية في الدول العربية في تزايد، وان عدد الأميين في سن الخامسة عشرة فأكثر كان ٥٥،٨ مليون شخص في العام ١٩٨٠، وانه ارتفع إلى ٦٥،٥ مليون شخص في العام ١٩٩٥. وجاء في التقرير ان الأمية بلغت حدها الأقصى في موريتانيا بواقع ٦٢،٣٪ من إجمالي السكان، ووصلت حدّها الادنى في لبنان بواقع ٧،٦٪، والسودان ٥٣،٩٪، أما في مصر فهي ٤٨،٦٪، والعراق ٤٢٪، والجزائر ٣٨،٤٪. وأضاف التقرير أن تفشي الأمية في الدول العربية لا يعود إلى تدني الانفاق على التعليم كنسبة من الناتج القومي، لكنه يرتبط في جوهره بمجمل الظروف والاوضاع الاقتصادية والاجتماعية.

الفقر والدخل الفردي والتنمية البشرية:

وبحسب الدراسات المقدمة إلى مؤتمر النمو في العالم العربي (المشار إليه أعلاه) تظهر حاجة ماسة لإحصائيات علمية عن الفقر وتحليل وضع الفقراء في العالم العربي كي لا تبقى السياسات التنموية بمنأى عن الفهم الحقيقي لمشكلة الفقر في المنطقة. إذ إن تفاوت الاحصائيات عن الفقر يكاد يشبه التفاوت في الدخل في العالم العربي حيث يبلغ متوسط الدخل السنوي للفرد في اليمن ٢٨٠ دولارًا فيما يبلغ في دولة الامارات العربية والكويت أكثر من ٢٠ ألف دولار. ومع تسجيل عقد التسعينات للعالم العربي جمودًا اقتصاديًا وانخفاضًا في دخل الفرد بحوالي ٤،٥٪ سنويًا (وهذه نسبة فاقت نسبة الانخفاض في مختلف مناطق العالم، بما في ذلك بلدان جنوبي الصحراء الافريقية) أوصى تقرير برنامج الأمم المتحدة الإنمائي باجراءات لمكافحة الفقر، بينها الأخذ بالسياسات التي يكون محورها الانسان، والعمل على إتاحة الفرص المتساوية للرجال والنساء، كهدف تهيئة بيئة سياسية مؤاتية تتيح للفقراء والمجتمعات المحلية التعبير عن أنفسهم بدلاً من كبحهم. فتكلفة إجراءات مكافحة الفقر ضئيلة قياسًا إلى كلفة نمو الفقر في بيئة منازعات سياسية.

وفي وثائق القمة العالمية للتنمية الاجتماعية (٦ آذار ١٩٩٥، كوبنهاغن)، انطلاقًا من معيار ان التقدم الاجتماعي للسكان لا يقتصر على معدل الدخل الفردي بل يأخذ بالاعتبار مؤشرات أخرى منها معدل وفيات

الاطفال وطول عمر السكان ونسبة المتعلمين ومعدل الالتحاق بالمدارس، أن ثلث سكان العالم العربي فقراء وأن نسبة الفقراء العرب ستظل ثابتة حتى العام ٢٠٠٠.

وأشارت وثائق القمة إلى ان البلدان العربية حققت قفزات اجتماعية كبيرة خلال ثلاثين عامًا الأخيرة، وان هذه الظاهرة هي جزء من ظاهرة شملت العالم النامي (الثالث) برمته (ارتفاع معدل توقعات العمر، ارتفاع نسبة الانفاق على التعليم، تضاعف معدل الدخل الحقيقي...). لكن، رغم ذلك، لا تزال أكثر الدول العربية تقدمًا، وهي الكويت، تأتي في المرتبة ٢٦ بين دول العالم بعد جميع أقطار اوروبا الغربية وبعد تشيكيا واسرائيل وكوريا؛ والامارات العربية (المرتبة ٤١) بعد بلغاريا وتشيلي وأوروغوي... وحتى بعد سري لانكا؛ والاردن (المرتبة ٥٠) بعد جمهوريات سوفياتية سابقة؛ وسلطنة عُمان (المرتبة ٥٢) بعد جورجيا؛ وتونس (المرتبة ٥٩) بعد رومانيا وتايلند وأرمينيا؛ والمملكة العربية السعودية (المرتبة ٦١)، وبعدها مباشرة سورية ولبنان...

أما تقرير الأمم المتحدة عن «التنمية البشرية، ١٩٩٦» (وهو تقرير بدأ يصدر سنويًا منذ ١٩٩٠) فقد بين تراجعًا في الدخل الفردي في جميع البلدان العربية باستثناء عُمان وتونس. وذكر ان الدخل الفردي في بعض البلدان مثل العراق والكويت والسودان لا يزال على مستواه الذي كان عليه في أعوام ما قبل الستينات، فيما بقي دخل الفرد في ليبيا والسعودية على مستواه في الستينات، وما يزال في الجزائر والبحرين والامارات على مستواه في السبعينات، وفي مصر والاردن والمغرب وسورية على مستواه في الثمانينات. البلدان العربيان الوحيدان اللذان حققا للفرد في التسعينات أعلى مستوى دخل من أي وقت سابق هما عُمان وتونس.

ويحصي التقرير ٨٩ بلدًا تدهور اقتصادها مقارنة بما كان عليه قبل ١٠ سنوات، معتبرًا ان هذا الأمر يؤدي إلى انشطار العالم إلى فئتين من الناحية الاقتصادية سواء بين البلدان أو داخل البلدان: الأغنياء جدًا يزدادون غنى، والفقراء يزدادون فقرًا. ويكشف التقرير ان أموال ٣٥٨ بليونيرًا في العالم تفوق حاليًا مجموع الدخول السنوية لنصف سكان الكرة الارضية. وإذا استمر الاتجاه الحالي فإن «الفوارق الاقتصادية بين الدول الصناعية والنامية ستنتقل من حالة اللامساواة إلى حالة اللاإنسانية».

لكن الدخل الفردي ليس كل شيء في دليل التنمية البشرية الذي يحدد تسلسل الدول على اساس توقعات عمر السكان والمستوى التعليمي لهم، والنفقات على التعليم والصحة... والقوة الشرائية الأساسية. فعلى هذا الأساس، تكون بلدان عدة مثل اليونان وكوستاريكا وباربادوس قد تقدمت مراتب كثيرة على بلدان عربية تفوقها كثيرًا في حجم الدخل الفردي، مثل البحرين وقطر والامارات والكويت والسعودية.

على النطاق العربي، تعتبر البحرين أكثر البلدان العربية تقدمًا في التنمية البشرية، وتأتي بعدها الامارات ثم قطر والكويت. ومعظم البلدان العربية يحتل المرتبة المتوسطة في سلم التنمية البشرية، وفق التسلسل التالي: ليبيا والسعودية والجزائر والاردن وتونس وعُمان وسورية ولبنان ومصر والعراق والمغرب، وترد البلدان العربية الباقية في المرتبة المنخفضة وفق التسلسل التالي: اليمن والسودان وموريتانيا وجيبوتي والصومال.

وحققت البلدان العربية، خلال سنوات ١٩٨٠-١٩٩٠ أعلى معدل للنمو الزراعي في العالم الثالث وبلغ نحو ٥٪ سنويًا. مقابل ذلك، لا يزال نحو ٧٣ مليون عربي يعيشون دون مستوى الفقر وأكثر من ١٠ ملايين لا يحصلون على قوت كاف، ونصف السكان في المناطق الريفية محرومين من الماء النقي، وثلثهم فقط يحصل على خدمات صحية أساسية. ورغم ما حققته البلدان العربية على صعيد تعليم الإناث، فإن النساء العربيات لا يشكلن حاليًا (١٩٩٦) سوى ٢٥٪ من قوة العمل بالمقارنة مع ٣٩٪ في بلدان العالم الثالث.

أخيرًا، يسير الدخل الفردي والتنمية البشرية في اتجاهين متعاكسين احيانًا، فيتصاعد أحدهما وينخفض الآخر. والمثال النموذجي على ذلك المملكة العربية السعودية التي انخفض دخلها الفردي، لكن تنميتها البشرية واصلت الارتفاع. وثمة مثل آخر يأتينا من المقارنة بين المغرب والأكوادور. فمعدل الدخل الفردي فيهما متساو تقريبًا ويبلغ نحو ألف دولار سنويًا؛ إلا ان الاكوادور تأتي في المرتبة ٦٤ في سلم التنمية البشرية فيما تتأخر المغرب عنها نحو ٦٠ مرتبة وتأتي في المرتبة ١٣٣. ويظهر عمق الفجوة بينهما واضحًا جدًا في تعليم الراشدين، حيث تبلغ نسبة المتعلمين في الاكوادور ٨٩٪ وفي المغرب ٤٢٪. لذلك كثيرًا ما يذكر التقرير السنوي للتنمية البشرية الصادر عن الأمم المتحدة بأن «حياة الناس لا تقاس بالدخل الفردي فقط، وان الثروة وحدها لا تحقق حياة أفضل، والفقر لا يعني نقص الدخل فقط». وعلى خلاف وجهة

النظر الاقتصادية التقليدية، يعتبر تقرير الأمم المتحدة التنمية الاقتصادية وسيلة وتنمية الانسان هو الهدف. فالانسان وليس إجمالي الانتاج القومي هو المهم، والهدف من النمو هو إثراء حياة الناس.

السكان والموارد الزراعية: يبلغ إجمالي المساحة التي يعيش سكان العالم العربي في كنفها نحو ١٤ مليون كلم م.، غير ان غالبية المساحة صحراوية. ويتركز القسم الساحق من السكان في المناطق المحاذية للانهار، وعلى السواحل، وفي المناطق الكثيفة الامطار والتي تتوافر لها إمدادات كافية من المياه.

وتتباين الدول العربية في مواردها الطبيعية تباينًا كبيرًا. فالدول النفطية منها تحتفظ بنحو ٦١٪ من الاحتياطي النفطي العالمي و٢٣٪ من احتياطي الغاز الطبيعي. في حين تقسم البلدان غير المنتجة للنفط والتي تعتمد على المصادر الزراعية بشحة مصادرها وصعوباتها الاقتصادية. وينعكس هذا الأمر تباينًا في مستويات دخل السكان في العالم العربي.

وتمثل مساحة الاراضي الزراعية وتلك المزروعة بمحاصيل دائمة ٤٪ فقط من مجموع المساحة وتغطي المراعي الدائمة ٢٢،٨٪، في حين لا تشمل الغابات والاراضي المشجرة سوى ٦،٦٪. والمشكلة الأكبر، هنا، هي في تدهور الاراضي الزراعية والمراعي واجتثاث الغابات، ما يؤدي إلى التصحر. ويقدر في المتوسط ان نحو ٤٠٪ من الاراضي المروية و٧٥٪ من الاراضي البعلية و٨٠٪ من المراعي في المنطقة العربية تعاني من أخطار التصحر.

يشغل سكان الريف نصف سكان العالم العربي تقريبًا. ومن المتوقع ان تهبط نسبتهم حتى نهاية القرن الحالي إلى حوالي ٤٤٪ من مجموع السكان. وتعتبر البلدان العربية ذات الدخل المتوسط والبلدان المنخفضة الدخل ريفية أساسًا. وتعد نسبة سكان الريف منخفضة إجمالاً في البلدان العربية المنتجة للنفط ومرتفعة في البلدان التي يمكن اعتبارها زراعية، حيث يشكل سكان الريف نحو ٧٦٪ من سكان كل من مصر وسورية والجزائر وموريتانيا والمغرب على التوالي. وغالبية السكان الريفيين ذات دخول متدنية وتعيش في ظروف بيئية سيئة هي محصلة السياسات غير الملائمة في ميدان التنمية الريفية.

لقد أهملت غالبية البلدان العربية العلاقة القائمة بين الزراعة والتنمية الريفية والنمو الاقتصادي والسكاني، في حين شهدت العقود الثلاثة الأخيرة جهودًا مركزة على تنمية المدن الرئيسية والسعي لتحديثها من خلال تركيز ثقل الخدمات فيها، ويؤدي ذلك إلى إهمال الريف وانخفاض المعدل العمري لسكانه، وارتفاع معدل وفيات الرضع والاطفال ومعدل الامية لدى الكبار قياسًا إلى سكان المناطق الحضرية. إلا ان بعض البلدان العربية، كالمغرب وتونس والمملكة العربية السعودية، حقق نجاحًا ملموسًا في التنمية الريفية، انعكس نسبيًا في انخفاض معدلات الهجرة فيها وتحسين مدخلات الانتاج الزراعي بشكل نسبي.

الماء والتصحر: تبلغ كميات المياه السطحية المستثمرة في العالم العربي نحو ١٤٠ بليون متر مكعب. أما استثمار المياه الجوفية فقد بلغ نحو ٢٣ بليون متر مكعب. ومن أهم المخاطر التي تواجه هذه المنطقة ان منابع مواردها المائية تقع خارج حدودها، وهذه الحالة تجعل مشكلة المياه من المشاكل الضاغطة لنزاعات إقليمية محفوفة بالمخاطر. فتطور حاجات شعوب المنطقة قد يجعل أهمية المياه توازي أهمية النفط، بل ربما أكثر منها أهمية في تحديد مصير أمنها الغذائي القومي.

وتشير مختلف الدراسات المختصة (خاصة منها الصادرة عن منظمة الأغذية والزراعة للامم المتحدة، «فاو») ان نصيب الفرد العربي، في العام ٢٠٠٠، أقل من جميع سكان العالم. وباستثناء العراق ولبنان وموريتانيا ستقل حصة الفرد في جميع البلدان العربية الأخرى عن الحد الأدنى البالغ ألف متر مكعب سنويًا. وفي حين لم يكن يعاني من شحة المياه في العالم العربي سنة ١٩٥٥ سوى البحرين والكويت والاردن وجيبوتي، فإن شحتها تهدد الآن الجزائر والسعودية والامارات وقطر واليمن والصومال، وستواجه المشكلة نفسها، بعد سنوات قليلة، مصر وليبيا وعُمان وسورية.

ويتعرض الأمن الغذائي القومي ايضًا لمخاطر أخرى نتيجة لازدياد ظاهرة التصحر، بسبب زحف الصحراء (راجع «العالم»، ج١١) عبر الاحزمة الخضراء والاراضي الخصبة وتحويلها إلى ارض قاحلة جدباء. إن الأضرار الناتجة عن التصحر عنيفة لأنها تحدث تغيرًا شاملاً في المنطقة وبيئتها، لنقص الغطاء النباتي، ما يضطر السكان المحليون إلى النزوح عن الارض المتضررة إلى مراكز وأماكن أخرى كلاجئين جياع يعوّلون على خيرات الآخرين.

يميل «المكتب الاقليمي لبرنامج الأمم المتحدة

للبيئة» (يونيب) إلى تحديد أسباب التصحر والتدهور البيئي المنتشر في العالم العربي بانجراف التربة بالرياح والماء، وبالرعي الجائر والتوسع الزراعي في الاراضي الهامشية وتدمير الغابات، إضافة إلى تملح الارض وانخفاض مستوى المياه الجوفية. ويعتقد ان تدمير الغابات لعب دورًا أساسيًا في انتشار التصحر في السودان وتونس، في حين أدّى إلى ذلك استنزاف المياه الجوفية في سلطنة عمان والامارات والسعودية.

يعد التصحر المشكلة البيئية الاولى في العالم العربي حيث تقدر المساحة المتصحرة بنحو ٩،٧ مليون كلم م. أو ما يعادل ٦٨٪ من المساحة الكلية للعالم العربي، إضافة إلى نحو ٢،٨ مليون كلم م. معرّضة للتصحر. وينتشر التصحر في كل البلدان العربية، لكنه يأخذ مدى واسعًا ومدمرًا في تونس والسودان والمغرب وموريتانيا.

وأكثر ما يخيف في موضوع التصحر انه حصل، في مساحات واسعة، وانه يحصل في سرعة زمنية قياسية. وتشير تقارير الامم المتحدة إلى ان المناطق على أطراف الصحراء الافريقية الكبرى (مصر، ليبيا، تونس، الجزائر، المغرب، موريتانيا والبلاد المجاورة) قد تحول جزء كبير منها من اراض منتجة إلى اراض جدباء خلال خمسين سنة فقط. وأظهرت دراسات منظمة الأغذية والزراعة الدولية (فاو) ان نحو ٣٥٧ ألف كلم م. ستضيع تحت تأثير التصحر في غضون سنوات قليلة (أي أربع أو خمس سنوات تفصل بين دراسة الفاو ونهاية القرن الحالي).

استنهاض العالم العربي يبدأه الانسان العربي (مناقشة)

(عن هادي مفيد أبو مراد (توفي ١٩٩٣) في كتابه «المسائل الشرقية الجديدة» الصادر بالفرنسية عن «دفاتر الشرق». وهادي مفيد أبو مراد كان خبيرًا لدى الاتحاد الاوروبي، ورئيس دائرة الشرق الاوسط في مصلحة الدروس الاقتصادية لدى الشركة العامة المصرفية في باريس، ثم التحق بالشركة العامة اللبنانية الاوروبية المصرفية في لبنان حيث كان رئيس «جمعية الاقتصاديين من أجل لبنان». والجزء المختار، هنا، مقتطع من الصفحات ٢١٦-٢٣١ من كتابه المذكور الذي صدر في أواخر ١٩٩٣).

لقد استنفد العالم العربي، خلال العقود الثلاثة المنصرمة، ثلاثة مسارب:

١- مسرب القطيعة مع المنظومة الرأسمالية، أو اقتصاد السوق، ومع موقع التبعية بازاء الاقتصاد القائم في العالم، وذلك باعتماد التنمية المركزية المنطوية على الذات.

٢- مسرب تسريع خطى التنمية وتدارك التخلف من خلال توظيفات مالية كثيفة (شراء مصانع جاهزة وإقامة مشروعات طموحة).

٣- وأخيرًا مسرب الانفتاح والليبرالية الاقتصادية، والسعي إلى أوسع اندماج ممكن في الاقتصاد العالمي.

وفي الواقع، تندرج هذه المسارب تحت لواء ثلاث فلسفات:

· فلسفة التبعية (نظرية المركز في مقابل الاطراف، التي نادى بها سمير أمين وغوندر فرانك وعمانويل برايش ومن جرى مجراهم).

· فلسفة وسم التخلف بأنه تأخر اللحاق بالركب (روستوف والنظرية المرحلية).

· ثم الفلسفة المبنية على خطل التدخل الحكومي في مجريات الاقتصاد، هذا التدخل المعيق للمبادرة وللتوازنات العفوية الناجعة (المذهب المرتكز إلى السياسة النقدية لـ«مدرسة شيكاغو»).

بيد ان هذه الفلسفات مصابة كلها بعيب مشترك هو اغفال الانسان بوصفه قطب الرحى في التنمية الاقتصادية.

وأننا نؤكد هنا، في أعقاب تحليلنا هذا للمحاولات والتجارب العربية العاثرة، وللمؤشرات الاقتصادية والاجتماعية المتصلة بواقع الانسان العربي ومعاناته الشديدة، ونعلن أن علة العلل، والثغرة الرئيسية التي أحبطت كل مساعي الاستنهاض في الوطن العربي، تكمن في إهمال الانسان العربي. أي في إغفال تربيته، وإعداده تقنيًا، وتشجيع روحه المبدعة والخلاقة، وفي التغافل عن أخذ الواقع التاريخي والاجتماعي للمنطقة العربية بالحسبان الجدي، لدى إقامة الخطط الثقافية والتعليمية للمستقبل المرتجى. ولا شك أن تجاهل الجذور الثقافية والمعيشية للسكان يكمن في خلفية الفشل الذي أصاب مشروعات الانتاج، والعجز عن استثارة روح الخلق والاعتماد على الذات، والمبادرة، وهو ما انحرف بسياسة الاستنهاض الانتاجي نحو سياسة الاقتصاد الدوراني أو التسليم بالاحباط.

هذا الاحباط العميق الذي أصاب شعبنا العربي دفع الأمة في اتجاه حلين هروبيين، فيما الحاجة باقية إلى حل تاريخي يعيد إلى هذه الأمة «خير أمة أخرجت للناس» سويتها ودورها العظيم، من خلال تنمية الانسان تنمية حقة، واستنهاضًا سليمًا وشجاعًا (...).

فالمطلوب، على أبواب القرن الحادي والعشرين، أن تخطط الأمة العربية لنفسها حلاً ثالثًا (لا استيراد كل التجهيز المتقدم ولا اليد العاملة المهيأة، ولا امتصاص اليد العاملة المحلية ذات الكفاءة المتواضعة من خلال صناعات تتطلب يدًا عاملة كثيرة)، حلاً يرتكز إلى الجمع بين «إعادة صنع البنى ومضاعفة إنتاجية العمل الاقتصادي، مع أخذ الفوارق في الواقع القائم وفي الغائيات بعين الاعتبار».

لذا كانت الاولية المطلقة في المستقبل المنظور، تتلخص باستنقاذ رأس المال البشري العربي. وتشتد هذه الحاجة ضغطًا عندما نتذكر محدودية الاحتياطي النقدي، لا على المستوى العربي فقط بل على الصعيد العام كله، بعدما تفتحت شهية الدول، النامية والصناعية على السواء، إلى التمويل.

ومن بعد إنماء الرأسمال البشري، تظهر أولويات ثانوية كالآتي:

· تنشيط الادخار الشعبي، وبخاصة منه الريفي، توسلاً لخفض المديونية على المستوى الوطني، ولإتاحة المجال أمام الطبقات جميعًا أن تسهم في التنمية العامة.

·· تشجيع قيام المؤسسات الانتاجية الصغيرة والمتوسطة، في مجالي الاعمال والصناعة، في القطاع الخاص، على أن يقتصر تدخل الدولة فيها على اسداء النصح والمعلومات (المتعلقة بمجال الاسواق ومجالات التصدير) وعلى خفض الرسوم الحكومية والبلدية، وتأمين القروض الميسرة في مرحلة الاقلاع. فمثل هذه المنشآت المنتجة مؤهلة للانتشار فوق التراب الوطني كله، لأي قطر، وفي هذا للانتشار والاستنهاض الشعبي أسلوب عملي لخفض الفروقات الاقتصادية والاجتماعية.

-- ترشيد استخدام المياه، بوصفها مادة نادرة الوجود في دنيا العرب، والمنطلق الأساسي للإنماء الزراعي، كما لترقية الوضع الصحي في المدن. فليكن شعار المرحلة القادمة «الماء لكل الناس» (وجعلنا من الماء كل شيء حي).

-- تدعيم الاعداد التكنولوجي والمهني، في الزراعة كما في الصناعة والخدمات، وبخاصة في ادارة الاعمال.

-- توجيه الاستهلاك الغذائي نحو السلع ذات المحتوى العالي من البروتايين، المنتجة محليًا وذات الكلفة المنخفضة من مثل الاسماك في موريتانيا، والذرة البيضاء في الصومال، والبقليات في مصر (الفول، الحمص،....). فمثل هذا التوجيه يخفض الحاجة إلى الاستيراد الغذائي ويسهم في تحسين الوضع التغذوي.

وعلى نحو مواز للسعي المنشود إلى حل المسائل

للسياسية والنزاعات (فلسطين ولبنان والسودان وكردستان تخصيصًا) يقتضي مباشرة استراتيجيتين:

– إقامة حوار حقيقي بين منتجي النفط ومستهلكيه، نشدانًا لتأمين الاستقرار في الاسعار النفطية، وتشجيع التوظيف الانتاجي، وضمان دخول ثابتة للاقطار المصدرة للنفط.

– التفاوض بشأن برنامج واسع لخفض الديون، على غرار ما وقعته مصر من اتفاقات في ١٩٩١/٥/٢٥، ولتحويل الديون المتبقية إلى أقساط مريحة، وبخاصة منها الديون العربية على أقطار عربية أخرى. وبهذا لا تظل الديون الخارجية حافزًا للرفض والثورات الشعبية، لأن التكامل العربي يعطيها منحى أيجابيًا. وهذا ما ييسّر التحول نحو الخصخصة التي بوشر بها بجدية تامة (في المغرب والاردن وتونس...)، أو التي يخططون لها (من مصر حتى الجزائر وسورية وليبيا...) .
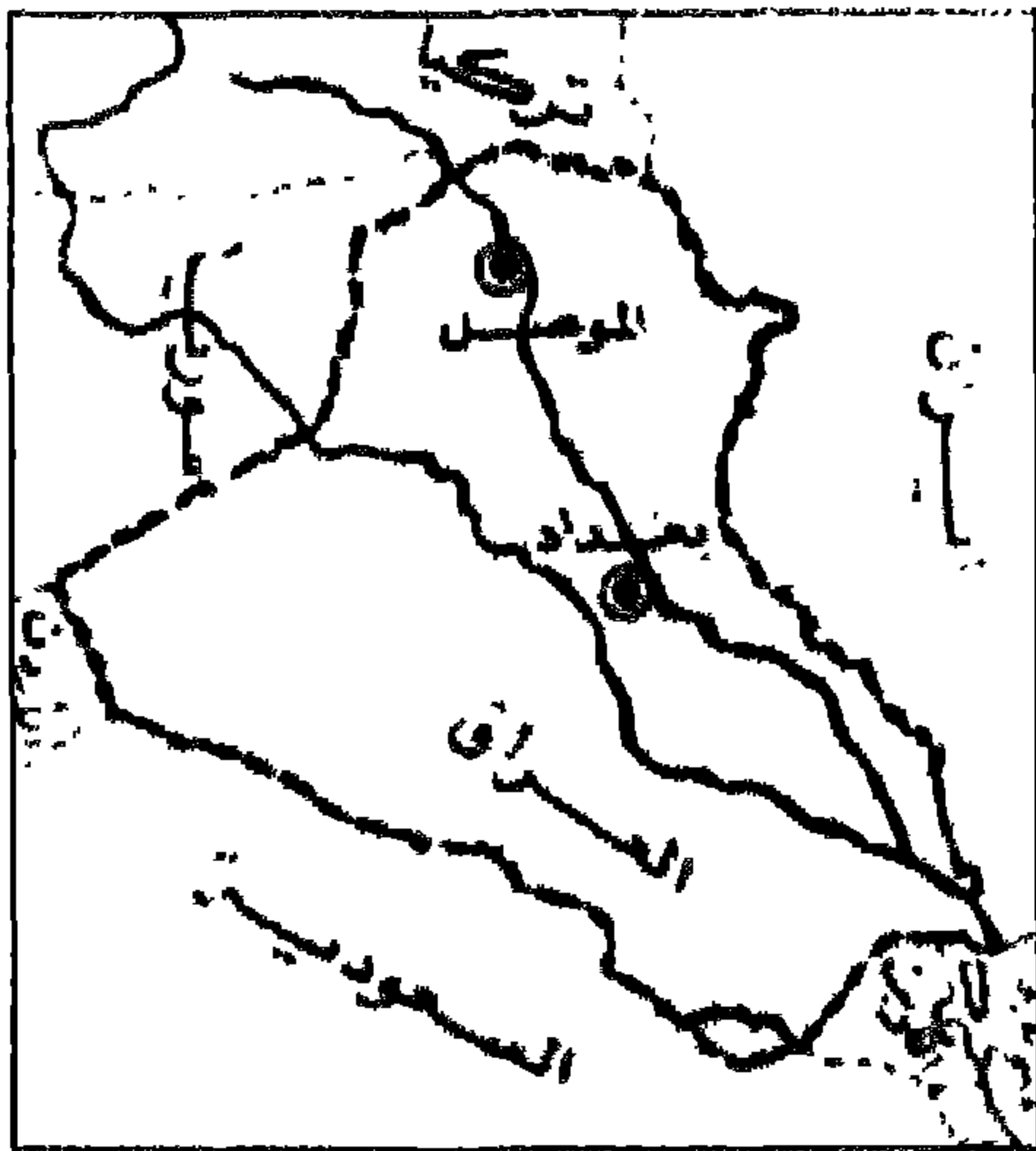
العراق
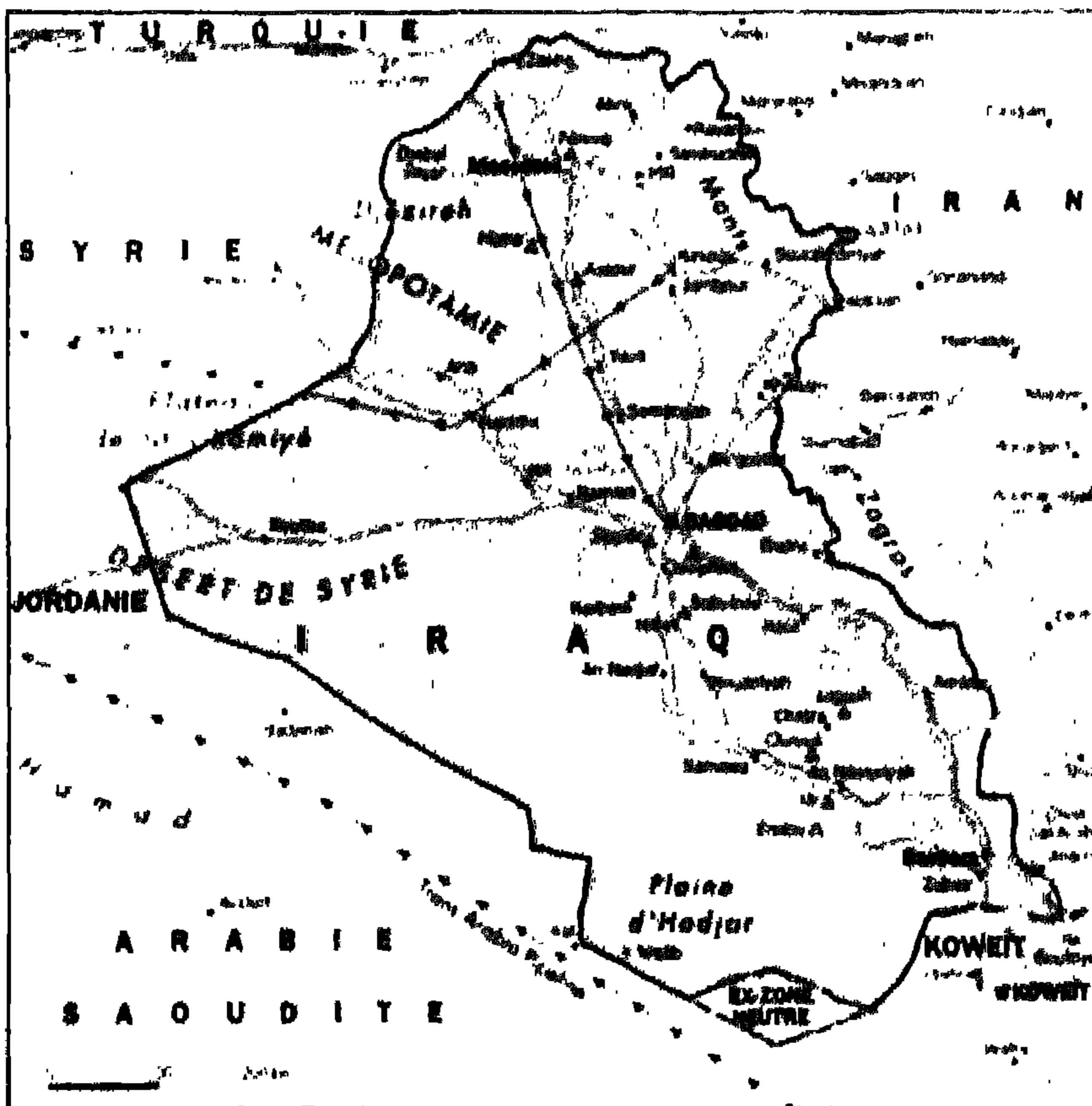
بطاقة تعريف

الاسم: «أرض الرافدين» هي الارض الواقعة بين نهري دجلة والفرات. كان أهلها الاصليون يطلقون عليها إسم «كلام» في السومرية، و«ماتو» في الأكدية بمعنى «الارض». وأطلق عليها المصريون القدماء إسم «نهرينا»، بينما سمّاها الاغريق «ميزوبوتوميا» واصبحت تُعرف باسم «العراق» منذ العصر الاسلامي (راجع «ما يريده الغرب من هذه التسميات: «بلاد ما بين النهرين» و«الشرق الاوسط» و«الشرق الأدنى» في باب «مدن ومعالم»).

الموقع: العراق أكبر دول المشرق العربي الواقع غربي آسيا. يحده من الشمال تركيا وطول حدوده معها ٣٠٥كلم، ومن الشرق ايران (١٥١٥كلم)، ومن الجنوب الخليج (طول الشاطىء ٦٠كلم)، والكويت (٢٥٤كلم) والسعودية (٨٩٥كلم)، ومن الغرب سورية (٦٠٣كلم)، والاردن (١٤٧كلم)، وبذلك يبلغ طول حدود العراق ٣٧٧٩كلم.

المساحة: ٤٣٨٤٤٦كلم م..

العاصمة: بغداد (نحو ٤،٥ مليون نسمة)، أهم المدن: البصرة، الموصل، كركوك، وغيرها (راجع باب «مدن ومعالم»).

اللغات: العربية (الرسمية)، ولغات الأقليات (راجع باب «أقليات»).

الحكم: بعد دستور ١٩٦٨ المؤقت، صدر عن مجلس قيادة الثورة في ١٩٧٠ دستور جديد (وكذلك في ١٩٩٠ من دون أن يحمل تعديلات جوهرية على دستور ١٩٧٠) حدد فيه هوية النظام السياسي، وجاء في مادته الأولى: «العراق جمهورية ديمقراطية شعبية ذات سيادة، هدفها الأساسي تحقيق الدولة العربية الواحدة وإقامة النظام الاشتراكي». وجاء في الدستور ايضًا ان الشعب العراقي يتكون من قوميتين رئيسيتين هما العربية والكردية، وأقر بحقوق الشعب الكردي والحقوق المشروعة للأقليات كافة ضمن وحدة الدولة العراقية. وبذلك فقد صدر قانون الحكم الذاتي في ١٩٧٤ في المنطقة الشمالية ضمن إطار الوحدة القانونية والسياسية والاقتصادية للجمهورية العراقية. ونصّ هذا القانون ايضًا على إقامة مجلس تشريعي منتخب في منطقة الحكم الذاتي، ونصت المادة ١٨ على إنشاء مجلس تنفيذي يدير الحكم الذاتي في المنطقة. أما على نطاق كامل الجمهورية، فقد انتخب عن طريق الاقتراع المباشر في ٢٠ حزيران ١٩٨٠ المجلس الوطني (البرلمان)، وهو أول سلطة تشريعية تقام في البلاد منذ ١٩٥٨. ويتألف هذا المجلس من ٣٠٠ عضو من بينهم ٥٠ عضوًا يمثلون منطقة الحكم الذاتي ويجري انتخاب اعضائه كل أربع سنوات. أما السلطة التنفيذية فبيد مجلس قيادة الثورة (٩ أعضاء)، وتخضع الحكومة لتوجيهاته، ورئيسه (صدام حسين) هو رئيس الجمهورية والدولة.

السكان: بلغ عددهم، بموجب إحصاء ١٩٩٠ نحو ١٨،٧٨ مليون نسمة. وتشير التقديرات إلى ان عددهم حاليًا (١٩٩٨) نحو ٢٣ مليون نسمة. يشكل العرب منهم نحو ٧٠٪، والأكراد ١٥٪ والأقليات الأخرى ١٥٪. المسلمون ٩٥٪ من إجمالي السكان ويتوزعون على نحو ٤٠٪ من السنة ونحو ٦٠٪ من الشيعة.

الاقتصاد: «ثلاثة عوامل قوة مترابطة: عدد

السكان (أكبر دول المشرق العربي)، كمية الانتاج النفطي (ثاني منتج عربي والخامس على المستوى العالمي)، وسلطة قوية (سلطة صدام حسين زعيم حزب البعث الحاكم) جعلت من العراق قبل حرب الخليج ١٩٩٠-١٩٩١ إحدى أقوى دول الشرق الأوسط» (القاموس الجيوبوليتيكي للدول، بالفرنسية، إيف لاكوست، فلاماريون، باريس، ١٩٩٤، ص٣٠٢)

تتوزع اليد العاملة: ٤٠٪ في الزراعة (التي تساهم بـ١٥٪ من الدخل العام)، في الصناعة ٢٢٪ (١٥٪ من الدخل)، في التجارة والخدمات ٣٤٪ (٤٥٪)، في المناجم ٤٪ (٢٥٪).

تتوزع اراضي العراق إلى نحو ١٦٧ ألف كلم م. صحاري، ٧٥ ألف كلم م. اراضي صالحة للزراعة، و١٧ ألف كلم م. غابات، و٩ آلاف كلم م. مراع. أهم المزروعات القمح والشعير والبطيخ والتمر (العراق أغنى دول العالم بشجر النخيل) والرز والذرة والقطن والتبغ.

العراق بين أغنى الدول العالمية بالنفط إنتاجًا واحتياطًا. يبلغ احتياطيها من الغاز ٢٦٩٠ مليار متر مكعب. والعراق غني بالكبريت وبمواد منجمية أخرى.

السياحة قطاع مهم في العراق، وأهم الاماكن السياحية: الاماكن المقدسة الشيعية، المساجد التاريخية ومدن حضاراتها القديمة. بلغ عدد السياح في العام ١٩٨٢ أكثر من مليوني سائح.

بلغ مجموع الاراضي الموزعة والمؤجرة (بموجب قوانين الاصلاح الزراعي) في ١٩٧٣ ما يزيد على ١٥ مليون دونم من أصل ٢٥،٧ مليون دونم صالحة للزراعة كان لا يزرع منها حتى هذه السنة سوى ٦،٥ ملايين دونم. وأنشئت مزارع الدولة ومزارع جماعية ومشتركة، ومنحت هذه التعاونيات سلفًا مالية ومساعدات لتطوير الأساليب الزراعية.

أولت ثورة ١٩٥٨ عناية خاصة بالصناعة، وخصصت للصناعة في الخطة الاقتصادية التي وضعتها لسنة ١٩٦١، حوالي ١٦٠ مليون دينار من مجموع ٥٥٦،٣ مليون دينار مخصصة لمختلف القطاعات الاقتصادية، وأصدرت قانون التنمية الصناعية، وأعفت المشاريع الصناعية الناشئة من الرسوم الجمركية، ووقعت اتفاقية التعاون الاقتصادي والفني مع الاتحاد السوفياتي (تضمنت من جملة ما تضمنته إنشاء ١٣ مشروعًا صناعيًا و١٢ مشروعًا زراعيًا). إلا ان تنفيذ الخطة كان بطيئًا و لم تعد الصناعة لتحتل المرتبة الاولى في الاهتمام إلا مع نظام ١٩٦٨ الذي قرّر «بناء قاعدة صناعية وطنية حديثة واسعة ومتنوعة»، وذلك بإقامة الصناعات البتروكيماوية والتعدينية والصناعات التي تعتمد على المواد الزراعية والصناعات التي تمد النفط والمعادن وقطاع الزراعة بما تحتاجه من لوازم ومعدات. وأنشأت الدولة عدة مؤسسات عامة للاشراف على مختلف الفروع الصناعية، مثل المؤسسة العامة للصناعات الهندسية التي أحيت وأنجزت مشروع معمل المعدات والآلات الزراعية المعتبر نواة الصناعة الثقيلة في العراق، وقد تطور في ما بعد ليصبح مجمعًا متكاملاً للصناعات الثقيلة أُلحق به معهد للتدريب المهني، يعتبر أحدث معهد من نوعه في الشرق الاوسط. وكرّت سبحة المعامل والمصانع الحديثة التي طاولت مختلف مجالات الصناعة والطاقة (النفط خاصة) حتى أصبح العراق من الدول النادرة في العالم الثالث التي ولجت ميدان التصنيع بقوة، وأخذت الاوساط الدولية تصف خطة التنمية العراقية بأنها أضخم خطة تنمية في بلدان العالم الثالث، خاصة بعد ان دخل العراق، في ١٩٧٨، ميدانا

جديدًا من ميادين الطاقة كان محرمًا على الدول النامية وحتى على بعض الدول المتقدمة صناعيًا، ألا وهو ميدان الطاقة النووية باستخدامها للأغراض السلمية، الأمر الذي أثار حفيظة اسرائيل فاقدمت في ٧ حزيران ١٩٨١ على قصف المفاعل النووي العراقي «تموز». واللافت في الجهود التنموية العراقية، الصناعية خاصة، أن الحرب العراقية-الايرانية (حرب الخليج الاولى) لم تخفف منها في سنواتها الاولى، ولم تبدأ هذه الجهود تتعرقل فعلاً إلا بعد ١٩٨٢ حين منعت سورية مرور النفط العراقي عبر اراضيها. أما الضربة الكبرى للصناعة العراقية ولمجمل الاقتصاد العراقي فجاءت في حرب الخليج الثانية وما ترتب عليها من نتائج خاصة لجهة الحصار الدولي على العراق، وحوّلت المواطن العراقي من المترف ومانح المساعدات إلى المحتاج بل الجائع وطالب الغذاء: كان متوسط سعر الدينار العراقي الواحد بين ١٩٨٠ واوائل ١٩٩٠ يساوي ٣،٢ دولار اميركي؛ بينما أصبح متوسط سعر الدولار الاميركي الواحد ٢٢٠٠ دينار عراقي خلال الاعوام ١٩٩١-١٩٩٦.

في كانون الثاني ١٩٩٦، سُمح للعراق بتصدير كميات من نفطه في إطار معادلة «النفط مقابل الغذاء». واثيرت في وجه العراق، وفي الوقت نفسه، مسألة تسديده تعويضات متضرري حرب الخليج الثانية (من عرب وغيرهم) التي قيل إنها تصل إلى نحو ٢٠٠ مليار دولار، وإن العراق يحتاج إلى ٢٠ سنة لتسديدها.

نبذة تاريخية

قديمًا: يتفق المورخون أن التاريخ القديم لحضارة بلاد ما بين النهرين يبدأ مع بدايات نشو الحضارة الانسانية في عصور ما قبل الكتابة وينتهي في العام ٥٣٩ق.م. عندما سقطت بابل، عاصمة الامبراطورية البابلية الحديثة بيد الملك الفارسي قورش الثاني. فدخلت بلاد الرافدين بالتالي، ومن ثم بلدان الشرق الادنى القديم كلها، مرحلة جديدة من تاريخها هي مرحلة الاحتلال الفارسي.

قبل ٥٣٩ ق.م. ارتسم الخط الحضاري في بلاد ما بين النهرين عبر المحطات الحضارية الكبرى التالية: قبل نحو ١٠ آلاف سنة حدثت الثورة التكنولوجية الأولى التي أدت إلى ظهور الزراعة، ودلت الآثار على حصول أول عمليات تدجين الحيوانات وانتقال الانسان من الكهوف إلى بناء أول القرى والمستوطنات الزراعية قبل نحو ٧ آلاف سنة. ثم قبل نحو ٥ آلاف سنة تبدأ الحضارات المتعاقبة مع السومريين أولاً الذين أسسوا أول المدن-الدول ووضعوا الكتابة وعلوم الرياضيات والفلك والقوانين. وأعقب ذلك قيام الحضارتين البابلية والآشورية قبل نحو ٤ آلاف سنة واللتين أنشأتا أول الامبراطوريات العالمية واشتهرتا بالمعمار الذي لا يزال يثيرالدهشة، وبوضع أول التشريعات القانونية، وإنشاء أول السدود وشبكات الري، وازدهار الفنون والصناعات، والاعتناء بالدين والأدب، وازدهار الطب والرياضيات. فكان

الكلدانيون-البابليون أول من جزّؤوا الواحد الصحيح إلى ٦٠ جزءًا، وقسّموا اليوم إلى ٢٤ ساعة، والساعة إلى ٦٠ دقيقة، والدقيقة إلى ٦٠ ثانية. فكانت بابل في عهد نبوخذنصر (٦٠٥-٥٦٢ق.م.)، أي قبل نحو ربع قرن من سقوطها في أيدي الفرس الأخمينيين أعظم مدينة في العالم، واستمرت محتفظة بهذه الأهمية حتى العام ٦٤ق.م.

(للوقوف على أبرز معالم حضارة أرض الرافدين، راجع باب «مدن ومعالم»).

الحكم الفارسي ثم الهيلّيني ثم الروماني (٥٣٩ق.م.-٦٣٧ب.م.): احتل الملك الفارسي قورش الأخميني في ٥٣٩ق.م. مدينة بابل وجعلها عاصمة ملكه بعد ان قضى على الامبراطورية البابلية الثانية التي تميز ملوكها، بعد نبوخذنصر، بالضعف. ودام حكم الفرس إلى ٣٣١ق.م. أي إلى الغزو الهيلّيني الذي قاده الاسكندر المقدوني، واتخذ بدوره بابل عاصمة له ومات فيها. وفي ٣٢١ق.م. حكمتها السلالة السلوقية المقدونية التي حافظت بابل في عهدها على أهميتها، ولم تبدأ بفقد هذه الأهمية كمركز حضاري واقتصادي مهم إلا في حوالي العام ٦٤ق.م. عندما حلّ الرومان محل السلوقيين وتحوّل طريق التجارة عنها.

فالخط التاريخي لانطفاء بابل بدأ تدريجًا مع الاحتلال الأخميني (٥٣٩ق.م.)، وتمّ مع الاحتلال الروماني (٦٤ق.م.)، وكان آخر نص بالخط المسماري عثر عليه يعود إلى ٧٥ب.م. وتحولت الانظار من بابل إلى ستيسيفون (المدائن) التي اصبحت عاصمة اليونانيين ثم الساسانيين الفرس الذين حلّوا محل اليونانيين في القرن الثالث وفرضوا سيطرتهم على بلاد وادي ما بين النهرين بينما فرضت بيزنطية هيمنتها على بلاد الشام. وأخذت الدولتان الساسانية والبيزنطية تتنافسان. فالفرس كانوا يريدون إعادة مجد امبراطورية سلفهم داريا (داريوس الكبير) التي كانت تشمل سورية ومصر لكي يكون لهم منفذ على البحر الأسود في الشمال وعلى البحر الأبيض المتوسط في الجنوب. واعتمد الساسانيون في حكمهم على بلاد ما بين النهرين على قبيلة تنوخ العربية، فاختاروا منها أسرة بني لخم (اللخميون)، بينما اختار البيزنطيون الغساسنة لحكم سورية (عرب لخميون تحت وصاية الساسانيين في العراق، عرب غساسنة تحت وصاية البيزنطيين في سورية).

استمر اللخميون يحكمون العراق حتى وفاة الملك اللخمي النعمان الثالث، فأعاد الساسانيون سيطرتهم المباشرة على العراق إلى أن قضت عليهم الدولة العربية الاسلامية في معركة القادسية.

معركة القادسية ٦٣٧: تحركات عسكرية عربية اسلامية باتجاه العراق سبقت معركة القادسية الفاصلة بنحو أربع سنوات.

في ٦٣٣، حقق خالد بن الوليد أول محاولة احتياز القوات العربية الاسلامية حدود جزيرة العرب، وتوصل إلى محاصرة الحيرة عاصمة اللخميين الذين دفعوا له الجزية، وواصل هو زحفه لمساعدة أبي عبيدة في فتح الشام. وفي ٦٣٤، وقعت معركة بين العرب المسلمين بقيادة أبي عبيدة الثقفي وبين الساسانيين سميت «غزوة الجسر» قتل فيها أبو عبيدة وتراجعت قواته. وفي ٦٣٥، وقعت «غزوة البويب» قرب الكوفة انتصر فيها العرب المسلمون. كل ذلك أشّر إلى ان معركة فاصلة لا بدّ آتية، فزاد الفريقان من استعداداتهما.

عيّن الخليفة عمر بن الخطاب القائد سعد ابن ابي الوقاص قائدًا عامًّا للجيوش العربية الاسلامية التي كانت قد تمكنت من مناطق في العراق بين ٦٣٣ و٦٣٦، وعين الفرس الساسانيون أشهر قادتهم العسكريين، رستم، قائدًا لجيوشهم في العراق. والتقى الجيشان، في حزيران ٦٣٧، على

الضفة الغربية لنهر الفرات في موقع يدعى القادسية. وفي اليوم الرابع من المعركة انضمت إلى المسلمين جيوش من سورية. اندحر الساسانيون وقتل قائدهم رستم، وتقدم المسلمون نحو المدائن (ستيسيفون) على نهر دجلة التي كان الساسانيون قد اتخذوها عاصمة شتوية لهم، ثم واصلت زحفها في عربستان (خوزستان) واحتلت عاصمته الأهواز (٦٣٩)، واستمرت في تقدمها متوغلة في بلاد فارس التي دانت للمسلمين في أعقاب معركة النهوند (وراء جبال زاغروس) ٦٤٢. لذلك سميت «غزوة نهوند» بـ«فتح الفتوح».

بعد مقتل الخليفة عمر تولى الخلافة عثمان، ولكنه قتل هو ايضًا في ٦٥٦. وبعده بايع الأنصار علي بن ابي طالب صهر الرسول وابن عمه على الخلافة، ولكن معاوية بن ابي سفيان رفض مبايعته، وكذلك قسم من القريشيين في مكة، لذلك نقل علي مركز الخلافة من المدينة إلى الكوفة في العراق للاحتماء بأهلها من المؤامرات التي قد تحاك ضده في الحجاز أو في سورية. فتحولت الأنظار إلى العراق (الكوفة خاصة) الذي اصبح مركز الخلافة إلى ان استشهد الامام علي في مسجد الكوفة بطعنة خنجر وجهها له عبد الرحمن ابن ملجم الخارجي في ٦٦١. وبذلك انتهى عهد الخلفاء الراشدين وانتقل الحكم إلى معاوية مؤسس الدولة العربية الأموية. وفي ٦٨٠، حاول الحسين ابن الامام علي استرجاع الحكم بعد موت معاوية، إلا انه استشهد ومَن معه من شيعته في واحات كربلاء، وانفرد الأمويون بالحكم إلى قيام الثورة العباسية في ٧٥٠.

الخلافة العباسية (٧٥٠-١٢٥٨): بعد انتصار الثورة العباسية في ٧٥٠ انتقل مركز الخلافة من سورية إلى العراق. فكان في بداية الأمر في الهاشمية الواقعة على الضفة الشرقية لنهر الفرات التي اختارها أبو العباس عاصمة له، وظلت الكوفة عاصمة إدارية. ثم انتقلت العاصمة في ٧٥٢ إلى الأنبار. ودشّن هذا الخليفة عهده بـ«غزوة تالاس» في أوزبكستان الحالية، وانتصر على الصينيين في ٧٥١، وأدخل الاسلام إلى تلك الأصقاع. وعندما تولى أخوه أبو جعفر المنصور الخلافة في ٧٥٤ بنى من حجارة ستيسيفون (المدائن) مدينة جديدة على الضفة الغربية لنهر دجلة سمّاها «مدينة السلام»، جعلها ابتداء من ٧٦٢ عاصمة الخلافة العباسية، وهي مدينة بغداد الحالية، (راجع «مدن ومعالم»).

ساعد تحدر العباسيين من عائلات ذات تقاليد تجارية وزراعية وحرفية في ازدهار الاقتصاد وجعل بغداد أكبر الأسواق العالمية. فاقاموا مشاريع الري لزيادة المساحات الزراعية، وبلغت محاصيل الحبوب المختلفة والرز والتمور مردودًا كبيرًا لم تشهده البلاد من قبل. كما تطورت صناعة المعادن، إلا ان صناعة النسيج ظلت تحتل المكانة الاولى، خاصة عندما أدخلت زراعة القطن، الأمر الذي جعل العراق أهم مركز لصناعة النسيج في كامل الامبراطورية الاسلامية. كما أدخل العباسيون صناعة الورق. وتطورت حركة التجارة مع اوروبا والشرق الاقصى... حتى ان التجارة العربية امتدت إلى الصين من جهة، وإلى البلطيق وافريقيا من جهة أخرى. واصبحت بغداد مركزًا مصرفيًا له فروع متعددة في أرجاء الامبراطورية. إذ عرفت منذ ذلك التاريخ الصكوك المصرفية والسفاتج (جمع سُفتَجة: كلمة فارسية معناها ان تدفع مالاً لانسان مقابل كتاب منه يتيح لك استرداد ذلك المال من عميل له في بلد آخر) ورسائل الاعتماد.

واصبحت بغداد، بالاضافة إلى مركزها السياسي والاقتصادي العالمي، مركزًا مهمًا وعالميًا في ميدان الفنون الجميلة والثقافة والعلوم والفكر، خاصة في عهد المأمون بن الرشيد (٨١٣-٨٣٣) الذي كان ذا ثقافة واسعة ومحبًا للعلم. فتطور الجدل الفلسفي وعلم الكلام، ونشأت المذاهب

الفقهية الاربعة، وتبنى المأمون مذهب المعتزلة، وأنشأ بيت الحكمة، وهو مركز لترجمة الكتب العلمية والفلسفية الاجنبية سواء من اللغة الفارسية أو السنسكريتية أو اليونانية.

إلا ان فترة قمة هذا الازدهار لم تخلُ من اضطرابات سياسية خطيرة: ثورة البرامكة، ثورة الزيديين في الكوفة والبصرة، ثورة الخوارج... ومواصلة الحروب ضد الدولة البيزنطية.

وأما بدايات النهاية، أو بدايات التراجع التدريجي فجاءت بعد نحو قرن واحد من تأسيس الخلافة العباسية، أي مع الخليفة المعتصم الذي وإن لم يكن أول من استخدم الاتراك في جيشه وإدارته إلا انه بالغ في الاعتماد عليهم حتى ان نفوذهم اصبح واضحًا في عهد ابنه الواثق (٨٤٢-٨٤٦) الذي وصل إلى حد تعيين أحدهم خلفًا له على العرش مدة غيابه عن العاصمة.

خلف المتوكل (٨٤٦-٨٦١) أخاه الواثق بترشيح من القادة الاتراك. فأدرك خطر هؤلاء وعمل على محاصرة نفوذهم، وذهب إلى حد نقل العاصمة من سامراء إلى دمشق (٨٥٨) ليكون محاطًا بالعرب وقريبًا من ساحة المعارك ضد البيزنطيين. إلا ان عدم ارتياح أهل الشام للعباسيين جعله يرجع ثانية إلى سامراء ويوكل لأبنائه حكم المناطق الشرقية والغربية والشمالية لتعزيز سلطة الأسرة العباسية تجاه الأتراك، واستمر في محاولاته للقضاء على القادة العسكريين إلا انهم كانوا اسرع منه، فقتلوه مستخدمين في ذلك ابنه المنتصر في ٨٦١. ومن بين أربعة خلفاء توالوا على الحكم بعد المتوكل ثلاثة منهم قتلوا على يد الاتراك، على رأسهم المنتصر نفسه.

وإضافة إلى وضعهم هذا البالغ الضعف والدقة، واجه العباسيون ثورة الزنج التي اندلعت في سواد العراق في ٨٦٩ واستمرت إلى ٨٨٣ فاحتلوا واسط واخذوا يهددون البصرة وبغداد. وبعدها اندلعت ثورة القرامطة، وهي ثورة إسماعيلية استطاع أحد فروعها الاستيلاء على البحرين وتأسيس دولة شيعية اصبحت قاعدة انطلاق لاحتلال اليمن في ٩٠١، ولاقت نجاحًا عظيمًا في تونس حيث أسس عبيد الله الفاطمي الدولة العبيدية أو الفاطمية في ٩٠٨ التي استقلت عن الخلافة العباسية ووسعت نفوذها إلى كامل شمالي افريقيا وصقلية ومصر وسورية والجزء الغربي من الجزيرة العربية. وبذلك تفككت الوحدة السياسية للخلافة العباسية.

تفككت في الأطراف، وأصبحت السلطة بيد القادة العسكريين والاداريين الاتراك داخل العراق نفسه. فالخليفة لم يعد له سوى الإشراف النظري أو الإسمي على «امبراطوريته».

حتى ٩٠٨، كان أمر النفوذ التركي لا يزال خاضعًا لنوع من الجدل، أو انه لم يكن واضحًا تمامًا للعامة من الناس. أما في هذا التاريخ فقد تأكد الأمر بصورة واضحة، وذلك عندما نصب القائد التركي مؤنس الخليفة المقتدر الذي لم يتجاوز من العمر ١٣ سنة (سن الرشد آنذاك)، ومُنح لقب «أمير الامراء» الذي كان في البداية يعني القائد العام للجيش، ولكن امام ضعف الخليفة، استخدم مؤنس ذلك اللقب للتسلط على الادارة إضافة إلى الجيش وأصبح هو الملك الفعلي. فاختل الأمن وانتشرت الفوضى والمجاعة في بغداد.

والأدهى من كل ذلك أن الخليفة المستكفي (٩٤٤-٩٤٦) لما أراد التفلت من قبضة القادة العسكريين الاتراك لم يرَ أمامه إلا أسرة البويهيين الديلمية، فاستعان بها لتحل محل الاتراك، واستمرت توجه سياسة الدولة إلى ١٠٥٥، أي حتى عودة عنصر تركي آخر ممثلاً بالسلاجقة التركمان الذين نجحوا بهجومهم على ايران، ثم على سواد العراق، حيث اضطر الخليفة القائم بأمر الله (١٠٣١-١٠٧٥) بعد إعلان القائد السلجوقي طغرل بك ولاءه له إلى الاعتماد على السلاجقة الذين دخلوا بغداد في موكب مهيب في

١٠٥٥ ومنح طغرل بك لقب «ملك أمراء المشرق والمغرب» ولقب «سلطان». وتمكن السلاجقة من إعادة توسيع الخلافة (مبقين على الاسم: «الخلافة العباسية») التي اصبحت في عهدهم تشمل، بالاضافة إلى العراق، قسمًا من بلاد فارس وبلاد الأناضول وكذلك سورية وفلسطين. ولإضفاء صفة الشرعية على سلطتهم الفعلية تركوا للخليفة العباسي السلطة الظاهرية، واستمر العراق وعاصمته بغداد عاصمة الخلافة العباسية بكاملها تحت سيطرة السلالات التركية المتتالية حتى هجوم المغول في ١٢٥٨.

وقد ترافقت هذه التطورات الداخلية مع الحروب الصليبية التي شنتها اوروبا على مدى قرنين من الزمن (١٠٩٦-١٢٩١). وأمام هذا الخطر زاد اعتماد الخلافة العربية على الجند المسلمين غير العرب سواء من خلال الدولة الزنكية أو الأيوبية أو المماليك. ولقد أحدثت هذه الدول العسكرية أعظم الانتصارات على جبهتي الخطر الصليبي القادم من الغرب والخطر التتري القادم من الشرق، لكن ثمن ذلك الصمود العسكري ثم الانتصار العسكري كان باهظًا جدًا، إذ إن هذه الدول العسكرية، لمحافظتها الفكرية ولعجمتها الغالبة، أحدثت السكون والموت على الجبهة الفكرية، فتحول في ظلها ذلك التوقف والجمود الذي كان بدأ يدب في أوصال الخلافة العباسية بعد نحو قرن من ولادتها إلى تدهور. وما إن جاء العثمانيون وورثوا المماليك حتى تحول هذا التدهور، على أيديهم وفي ظل حكمهم، إلى انحطاط شديد.

جاءت الضربة البليغة من المغول. فالقائد المغولي هولاكو اجتاز الأموداريا واحتل خراسان، ثم اتصل بالخليفة العباسي مبديًا رغبته في تعويض السلاجقة الاتراك كقوة حامية له، وأمام رفض المستعصم (١٢٤٢-١٢٥٨) توجه المغول نحو بغداد التي حاصروها في كانون الثاني ١٢٥٨، وفي الشهر التالي (شباط)، استسلم الخليفة إلى هولاكو الذي أسرع إلى تجريد السكان من السلاح، ثم عمل فيهم تقتيلاً فكانت مذبحة لم يشهد تاريخ العراق مثيلاً لها، وحرق بغداد ومكتباتها، وحطم معالمها الحضارية، كما قتل المستعصم بعد خمسة ايام من استسلامه.

هكذا، انهارت الخلافة العباسية بعدما غرقت في بحر من الدماء. وانهارت المشاريع الاقتصادية المختلفة التي كانت قائمة آنذاك، خاصة في ميدان الري. ودخل العراق مرحلة انحطاط تراجعت فيها العلاقات التجارية التي كانت قائمة مع اوروبا والشرق الأقصى.

وعلى الصعيد السياسي، أصبحت البلاد عرضة لتغيرات سريعة، إذ كانت الحكومات المغولية، ثم التركمانية، تتوالى بشكل مذهل، كما قسمت البلاد إلى منطقتين اداريتين هما المنطقة الجنوبية وكانت تابعة لبغداد، والمنطقة الشمالية التابعة للموصل. وعلى رأس المنطقتين حاكمان مغوليان ومساعدان من التركمان أو من أهل البلاد الموالين. ودامت الحالة على هذا النحو إلى ان سيطرت سلالة تيمور المغولية على البلاد بين ١٣٩٣ و١٤٠١، ووجه قائدها تيمورلنك ضربة قاسية جديدة إلى العراق، ونهب بغداد التي كان قبل ذلك قد اتخذها عاصمه له، ثم انسحب تاركًا مقاليد الحكم لعصابات تركمانية أمعنت في تخريب البلاد بسبب تناحر حكام بغداد والموصل على السيطرة، إلى ان تسلمت سلالة تركمانية أخرى تمت بصلة قرابة مع الصفويين الحكم في ١٥٠٨ التي حلّ محلها العثمانيون في ١٥٣٤. وغني عن القول إن العراق كان أثناء كل تلك الفترة في منتهى الضعف مما جعله يفقد ذلك المركز الحضاري الذي دان له العالم قرونًا طويلة. ومما زاد في ضعفه وضياعه لشأنه السابق اكتشاف رأس الرجاء الصالح في ١٤٩٨ الذي فتح طرقًا جديدة للتجارة الدولية نحو الهند على حساب الخليج.

وهكذا لم يعد العراق همزة وصل بين اوروبا والشرق الأقصى، وتراجع اسلوب إنتاجه من اسلوب الانتاج التجاري إلى اسلوب الانتاج الاقطاعي الذي يعتمد اساسًا على الزراعة.

الحكم العثماني (١٥٣٤-١٩١٨):

تمكن الاتراك العثمانيون من طرد المماليك التركمان ومن احتلال بغداد في ١٥٣٤. لكن انتفاضات التركمان استمرت واستمر معها نفوذهم بحيث كان العراق خاضعًا نظريًا للحكومة العثمانية المركزية، أما عمليًا فكان الولاة الاتراك (وجلهم من التركمان)، في احيان كثيرة، إما يعلنون انفصالهم وإما يتحالفون مع الفرس. و لم يقض على حكم المماليك التركمان في العراق إلا في ١٨٣١ عندما انتصر عليهم السلطان العثماني محمود الثاني الذي كان شديد التاثر بالتقاليد الغربية واراد ادخال بعض الاصلاحات، لكن التيار المحافظ في السلطنة اعترض سبيله وتمكن من قتله.

السلطان عبد المجيد (١٨٣٩-١٨٦١) نقل تركيا إلى مرحلة «التنظيمات» التي جعلت كل الرعايا العثمانيين سواسية امام القانون. ولكن بقي قسم من تلك التنظيمات أو الاصلاحات طي النسيان نظرًا إلى قوة التيار المحافظ، إلى ان جاء السلطان عبد العزيز (١٨٦١-١٨٧٦) وخطا خطوات حاسمة في ميدان الاصلاح. وأثناء هذه الفترة عمل مدحت باشا، الوالي العثماني على العراق، من ١٨٦٩ إلى ١٨٧٢، على تطبيق قانون الولايات والقانون العقاري وغيرها من القوانين التي اقتبستها الامبراطورية العثمانية عن الغرب.

وكانت الحكومة العثمانية قد أولت اهتمامها بميدان المواصلات. فأدخلت العمل بالنقل النهري الحديث في دجلة والفرات وروافدهما، وأنشأت خطًا تلغرافيًا بين بغداد واسطنبول في ١٨٦١، كما باشرت في إنشاء خط حديدي، وأنجزت خط بغداد-سامراء (بعد ذلك عملت على إنشاء خط برلين-بغداد، راجع باب المعالم التاريخية).

في ايام ثورة تركيا الفتاة وحزب الاتحاد والترقي (من ١٩٠٨)، كان الوالي العثماني على العراق ناظم باشا الذي كان معارضًا للاتحاديين ويطبق في ولايته سياسة محافظة ويقمع أي محاولة تحررية، من ذلك اضطهاده للشاعر العراقي الكبير جميل صدقي الزهاوي الذي كان ينادي بتحرير المرأة وبادخال الكثير من الاصلاحات. وفي ١٩١١، أقالت الحكومة الاتحادية ذلك الوالي (ناظم باشا) وعينت مكانه واليًا جديدًا هو جمال باشا (الملقب بـ«السفاح») الذي أشرف على انتخاب مندوبي العراق إلى مجلس «المبعوثان» العثماني بعد أن حل المجلس السابق. وكان المندوبون العراقيون في المجلس المذكور، وعلى رأسهم الزهاوي، ما انفكوا يطالبون الحكومة المركزية العثمانية باجراء الاصلاحات، إلى ان توقفت أعمال المجلس بسبب اعلان الحرب العالمية الاولى في ١٩١٤.

التغلغل البريطاني إبان الحكم العثماني:

الشركة البريطانية الشهيرة «شركة الهند الشرقية» أسست في ١٦٤٣ أول معمل لها في البصرة وأقامت فيها أحد فروعها. وفي الثلث الأخير من القرن الثامن عشر كانت هذه المدينة قد أصبحت سوقًا تجارية بريطانية نشيطة. وفي ١٧٩٨، أي في السنة نفسها التي وجهت فيها فرنسا حملة بقيادة نابوليون بونابرت على مصر، عينت بريطانيا مندوبًا دائمًا لها في البصرة. وزاد اهتمام بريطانيا بالعراق بعد تدشين قناة السويس في ١٨٦٩، وخاصة بعد ان أصبحت بريطانيا، في ١٨٧٥، أكبر مساهم في شركة القناة إذ بدأت تفكر في إقامة خط حديدي يربط حيفا على البحر الأبيض المتوسط بالبصرة على الخليج لمنافسة المانيا التي حصلت على امتياز خط برلين-بغداد (راجع المعالم

التاريخية). وفي ١٩١١، كانت بريطانيا وراء إنشاء شركة النفط التركية. فقامت بارسال البعثات للقيام بالدراسات التفصيلية ورفع التقارير. ومن الذين ارسلتهم إلى العراق ضابط الاستخبارات البريطانية الشهير لورانس، ورجلاً آخر هو غرترودبل الذي لعبت تقاريره دورًا مهمًا في توجيه السياسة البريطانية الاستعمارية. وقبل تغلغل بريطانيا في كامل انحاء العراق كانت قد بسطت هيمنتها على الخليج بعد ان طردت البرتغاليين والهولنديين والفرنسيين، ودافعها إلى ذلك حماية طرق المواصلات إلى مستعمراتها في الهند، والتطلع إلى الوصول إلى العراق وسورية وموانىء البحر الأبيض المتوسط.

السيطرة البريطانية المباشرة، الاحتلال ثم الانتداب: بدأت مرحلة التنفيذ الفعلي للسيطرة على العراق بعد اعلان الحرب العالمية الاولى بأيام قليلة، إذ استولت بريطانيا على البصرة في ١٩١٤، نقضت بذلك على خطة الالمان في إيصال خط الحديد برلين-بغداد إلى الخليج. ومن البصرة أخذت القوات البريطانية تتجه شمالاً وتحتل المدن العراقية الواحدة تلو الأخرى، إلى ان احتلت بغداد في ١٩١٧، والموصل في ١٩١٨، وبذلك أصبح العراق خاضعًا مباشرة للاستعمار البريطاني الذي اتبع سياسة الترهيب والترغيب لإحكام قبضته على البلاد.

بدأت نقمة الوطنيين والقوميين العراقيين (بموازاة نقمة الوطنيين والقوميين في باقي الاقطار العربية) ضد الانكليز مع نشر الثورة البولشفية لاتفاقية سايكس-بيكو، ومع الاعلان عن وعد بلفور، إضافة إلى الممارسات الداخلية خاصة في مجال الضرائب. وانفجرت هذه النقمة ثورة عارمة معروفة باسم «الثورة العراقية الكبرى» أو «ثورة العشرين» (١٩٢٠).

من الثورة العراقية الكبرى إلى ١٩٨٠: راجع، حول مختلف موضوعات هذه الفترة وأحداثها، الأبواب التالية: «الاحزاب»، «معالم تاريخية»، «زعماء، رجال دولة وسياسة»، «أقليات»، «كردستان العراق».

حرب الخليج الاولى (العراقية-الايرانية): راجع حول النزاع الحدودي «شط العرب» في باب «معالم تاريخية»؛ و«حرب العراق-ايران» في مادة «ايران»، ج٤، ص١٤٩-١٥١.

حرب الخليج الثانية (العراقية-الاميركية أساسًا والدولية فرعًا)

(المرجع: الكتاب السنوي الفرنسي «كيد» للعام ١٩٩٤، ص١٠٣٦-١٠٣٨، مع الإشارة إلى ان المادة وردت بصورة ثبت كرونولوجي).

أسباب بعيدة: رفض العراق الاعتراف باستقلال الكويت معتبرًا ان هذه الأخيرة كانت جزءًا من ولاية البصرة إبان الحكم العثماني. وعندما حصل العراق على استقلاله (١٩٣٢) بدأ يطالب بالكويت كجزء لا يتجزأ من ترابه الوطني في حين ان الكويت كانت لا تزال محمية بريطانية. وفي ١٩٦١، أعلن عن استقلال الكويت، فسارع العراق إلى إرسال قواته إلى الحدود معها (راجع «عبد الكريم قاسم» في باب زعماء). والمعروف ان ليس للعراق سوى واجهة بحرية على الخليج لا يزيد طولها عن ١٩كلم، وان جزر وربه وبوبيان الواقعة عند منفذ الخليج كانت قد مُنحت للكويت. وفي ١٩٣٨، رفض البريطانيون طلبًا عراقيًا يقضي ببناء مرفأ في خليج الكويت يجري ربطه بالمناطق الداخلية من العراق بواسطة خط سكة حديد. وكذلك طالب العراق الكويت بحق استثمار حقل نفطي في روم الله الحدودية.

أسباب مباشرة: ١- مطامح الرئيس العراقي صدام حسين؛ ٢- دين العراق الخارجي البالغ بين ٣٠ و٤٠ مليار دولار، ورفض أمير الكويت جابر الصباح إلغاء ما كان يتوجب على العراق من ديون عليها للكويت (١٥ مليار دولار) إبان حرب العراق-ايران، واعتبار صدام حسين انه كان يدافع في هذه الحرب عن المصالح العربية في وجه التوسع الايراني، وطالب باعتماد إضافي قدره ١٠ مليارات دولار؛ ٣- اتهام العراق السياسة النفطية للكويت ودولة الامارات بأنها مسؤولة عن هبوط أسعار النفط وحرمان العراق من قسم مهم من عائداته النفطية والتسبب في انهياره الاقتصادي في اوائل ١٩٩٠ (الدين المدني والعسكري أصبح يفوق ميزانية الدولة، بطالة متزايدة خاصة بعد تسريح ٢٠٠ ألف جندي، والخفاض مفاجىء في منسوب مياه الفرات وتقليص في الاراضي المزروعة بعد تنفيذ سدّ أتاتورك في تركيا، جنوب شرقي الأناضول)؛ ٤- رغبة الولايات المتحدة في الاحتفاظ باشرافها على الثروات النفطية؛ ٥- رغبة الدول الغربية في الاحتفاظ بالتوازن القائم في المنطقة (العراق، سورية، ايران) والذي بات صدام حسين عامل تهديد له؛ ٦- الخوف من قوة العراق المتنامية التي قد تجعله مالكًا للسلاح النووي؛ ٧- ضغوطات «اللوبي اليهودي» في العالم، إذ ان العراق هو البلد الذي يشكل أكبر خطر على اسرائيل.

١٩٩٠: ٢٤ شباط، صدام حسين في قمة مجلس التعاون الخليجي، في عمان، يحذر من خطر السيطرة الكاملة للولايات المتحدة على الخليج بعد انهيار الاتحاد السوفياتي، ويدعو العرب إلى رص الصفوف.

١٧ تموز، صدام حسين يتهم بعض بلدان الخليج بالوقوف وراء خفض أسعار البترول لمصلحة الدوائر الامبريالية والصهيونية، ويعلن ان «الحروب يمكن ان تنشب لأسباب اقتصادية». وفي اليوم التالي، أجرى ملك السعودية وملك الاردن وأمير الكويت ورئيس اليمن مشاورات حول الاوضاع المستجدة. العراق يصعّد ويطالب الكويت بـ٢،٤ مليار دولار كتعويض عن النفط «المسروق» منذ ١٩٨٠ من آبار روم الله (على الحدود)، والمجلس الوطني الكويتي، رفض هذه الاتهامات، والحكومة الكويتية ترسل مبعوثين إلى البلدان العربية وإلى أمين عام الجامعة العربية لشرح موقف الكويت واقتراح تشكيل «لجنة عربية» لحل مشكلة الحدود بين الكويت والعراق، وتبعث كذلك برسالة إلى أمين عام الامم المتحدة لاعلامه بالوضع. والعراق يتهم الكويت برفض الحل العربي وتسهيل التدخل الاجنبي من خلال اتصالها بالامم المتحدة.

٢١-٢٨ تموز، وساطتان مصرية وسعودية لحل النزاع، والرئيس المصري حسني مبارك يستقبل وزير خارجية العراق طارق عزيز في الاسكندرية، ويقوم بجولة مساع حميدة إلى بغداد والكويت وجدة، وصدام حسين يؤكد بأن لا نية لديه بمهاجمة الكويت. لكن العراق يرفض اقتراحًا كويتيًا حول تشكيل لجنة عربية لحل النزاع بحجة ان المشكلة ثنائية، ويحشد ٣٠ ألف جندي على الحدود. وصدام حسين يستدعي سفيرة الولايات المتحدة، أبريل غلاسبي، التي تعلمه بأن لا نية لدى الولايات المتحدة بالتدخل في النزاع ولا باعلان حرب اقتصادية ضد العراق. واجتماع لدول الأوبك في جنيف حيث تخضع الكويت والعربية السعودية لضغوطات العراق وتقبل بزيادة سعر النفط ٣ دولارات، فيصبح سعر البرميل ٢١ دولارًا (كان العراق يطالب بأن يصبح ٢٥ دولارًا). والاستخبارات

الرئيس صدام حسين مستقبلاً سفيرة الولايات المتحدة أبريل غلاسبي (تموز ١٩٩٠).

دخان القصف يتصاعد من أحد أحياء بغداد خلال حرب الخليج الثانية.

الاميركية تنقل إلى البيت الابيض صوراً عن الاقمار الصناعية تكشف عن تمركز جيش عراقي على الحدود.

٢٨-٣١ تموز، عرفات والحسين ملك الاردن ينضمان إلى المساعي الحميدة. الأمير جابر الصباح يرفض، أثناء استقباله عرفات، الدخول في موضوع الـ ١٠ مليارات دولار التي يطالب بها العراق كتعويض عن حقول روم الله. ومحادثات ثنائية بين العراق والكويت في جدة.

أول آب، قطع المحادثات، والوفد العراقي يغادر جدة معلناً ان الكويت لم تقدم أية اقتراحات جديدة.

غزو الكويت: ٢ آب، الساعة الثانية، الجيوش العراقية تغزو الكويت، عشرات القتلى (منهم الشيخ فهد، شقيق الامير جابر)، ولا امكانية للمقاومة بعد أقل من ساعتين. في الساعة السادسة، طلبت الولايات المتحدة والكويت عقد اجتماع عاجل وطارىء لمجلس الأمن الدولي الذي أصدر بالاجماع القرار ٦٦٠ المتضمن «الانسحاب الفوري وغير المشروط» للعراق. تجميد الحسابات المالية للعراقيين والكويتيين في الولايات المتحدة وفرنسا وبريطانيا. وفي موسكو، اعلان مشترك لوزيري خارجية الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي يدعو إلى تعليق كل شحنات السلاح إلى العراق. وجامعة الدول العربية تدين الاعتداء العراقي وتطلب الانسحاب الفوري وغير المشروط للجيش العراقي من الكويت (صوت ضد هذا القرار: منظمة التحرير الفلسطينية، الاردن، السودان واليمن). وبغداد تعلن تشكيل «حكومة كويتية مؤقتة».

٥ آب، وصول إلى الكويت الدفعة الأولى من عناصر الجيش الشعبي العراقي.

٦ آب، مجلس الأمن الدولي يقرر الحظر الشامل على العراق، وإقفال انابيب النفط العراقية التي تصل إلى تركيا (يومورتاليك) والعربية السعودية (ينبع)، وحكومة الكويت الموقتة تعلن قيام «جمهورية الكويت الحرة»، ونزوح مئات الآلاف من العمال العرب وغيرهم من الكويت والعراق.

٨ آب، بدء عملية «درع الصحراء، وجيوش ومعدات تصل إلى ظهران على متن حاملات طائرات اميركية، وبريطانيا تلتحق بالقوات المتعددة الجنسية في الخليج.

٩ آب، فرنسا ترسل حاملة طائرات «كليمنصو» من دون ان تشترك بالقوة الدولية. وبغداد تقرر إن على السفارات الاجنبية في الكويت ان تنتقل إلى بغداد قبل حلول يوم ٢٤ من الشهر، وتغلق الحدود امام الأجانب. ومؤتمر في القاهرة: ١٤ عاهلاً ورئيس دولة من الجامعة العربية إضافة إلى عرفات وخمسة وفود حكومية وصدام حسين نفسه ومندوب عن الحكومة الكويتية في المنفى (الطائف، السعودية)، وتغيب تونس.

١٠-١٢ آب، ٢١ عضواً رفضوا ضم الكويت ووافقوا على الحظر على العراق وعلى إرسال جيوش إلى السعودية، وثلاثة اعضاء (العراق، ليبيا ومنظمة التحرير الفلسطينية) صوتوا ضد هذه القرارات، وتغيبت الجزائر واليمن، و لم يشترك الاردن في التصويت. وصدام حسين يدعو إلى «الجهاد المقدس» لإنقاذ مكة والأمكنة المقدسة من الاحتلال الأجنبي، ويعلن أن حل الأزمة مرتبط بالانسحاب الاسرائيلي من الاراضي المحتلة، والانسحاب السوري من لبنان.

١٥ آب، العراق يقبل توقيع معاهدة سلام مع ايران وفقًا لشروط هذه الاخيرة وتقسيم شط العرب الذي كان قد تسبب في حرب بين البلدين دامت ثماني سنوات.

١٨ آب، العراق يعلن عن رغبته في حجز «رعايا الدول العدوانية» الموجودين في الكويت والعراق، واعتبارهم «ضيوف السلام». وجرى تجميع بعضهم في مواقع استراتيجية ليشكلوا «دروعًا بشرية».

٢١ آب، مؤتمر صحافي للرئيس الفرنسي فرنسوا ميتران: «إننا نعيش في دائرة منطق الحرب». وفرنسا ترسل مفتشين و ٢٠٠ مظلي إلى ابو ظبي، ودعوة لانعقاد البرلمان الفرنسي في ٢٧ الشهر (آب) في دورة استثنائية.

٢٢ آب، الرئيس الاميركي، جورج بوش، يستدعي ٤٠ ألفًا من جنود الاحتياط.

٢٥ آب، مجلس الأمن الدولي يجيز استعمال القوة لفرض احترام احكام الحظر على العراق.

٢٨ آب، العراق يعلن ان الكويت أصبحت المقاطعة العراقية التاسعة عشرة.

٣١ آب، الأمين العام للامم المتحدة، بيريز دو كويلار، يبدأ مساعيه الحميدة.

أول ايلول، أعلن في العراق ان نحو ٧٠٠ امرأة وولد من البريطانيين والفرنسيين والاميركيين واليابانيين يمكنهم مغادرة العراق، وان ٣ آلاف أجنبي يمكنهم المغادرة حتى ٢٢ من الشهر (ايلول) في ما عدا الرجال الذين جرى إرسال ٥٠٠ منهم إلى الأمكنة الاستراتيجية.

٢٣ ايلول، فرنسوا ميتران يقترح في الامم المتحدة خطة سلام وحل شامل لنزاعات الشرق الاوسط.

آخر ايلول، نحو نصف سكان الكويت يفرون إلى الخارج.

١٧ تشرين الاول، أكثر من ٢٠٠ ألف جندي اميركي في الخليج.

٢٩ تشرين الاول، العراق يعلن تحرير ٣٢٧ فرنسيًا كانوا لا يزالون محتجزين في العراق والكويت.

٨ تشرين الثاني، ٢٠٠ ألف جندي اميركي في حالة استعداد عسكري تام.

١٨ تشرين الثاني، العراق يعلن تحرير كل الرهائن بين ٢٥ كانون الاول ١٩٩٠ و٢٥ كانون الثاني ١٩٩١.

٢٩ تشرين الثاني، مجلس الأمن الدولي يجيز لجميع الدول المتحالفة مع الكويت استعمال القوة ضد العراق إذا لم ينسحب من الكويت قبل ١٥ كانون الثاني ١٩٩١.

٦ كانون الاول، العراق يحرّر الدفعة الأخيرة من المحتجزين.

١٦ كانون الاول، بوش يعيد تأكيد استعمال القوة في حال عدم انسحاب العراق في الموعد المحدد (١٥ كانون الثاني ١٩٩١).

٢٤ كانون الاول، صدام حسين يكرّر قوله في ان اسرائيل ستكون الهدف الاول للضربات العراقية.

١٩٩١: ٢ كانون الثاني، صدام حسين يستقبل في بغداد ميشال فوزيل رئيس لجنة العلاقات الخارجية في البرلمان الفرنسي.

٥ كانون الثاني، العراق يرفض دعوة المجموعة الاوروبية زيارة لوكسمبورغ.

٩ كانون الثاني، فشل اللقاء بين جيمس بايكر (وزير خارجية الولايات المتحدة) وطارق عزيز (وزير خارجية العراق) في جنيف. والكونغرس الاميركي يجيز للرئيس بوش استعمال القوة (٥٢ صوتًا ضد ٤٧ في مجلس الشيوخ، ٢٥٠ صوتًا ضد ١٨٣ في مجلس النواب).

١٤ كانون الثاني، في مجلس الأمن الدولي، الولايات المتحدة ترفض خطة السلام الفرنسية التي تدعو إلى عقد مؤتمر دولي حول القضية الفلسطينية ومختلف مشكلات وقضايا الشرق الاوسط.

١٥ كانون الثاني، الساعة صفر (بحسب التوقيت الاميركي) انتهاء مهلة الانذار المحدّدة لانسحاب العراق من الكويت.

١٦ كانون الثاني، البرلمان الفرنسي، في دورة استثنائية، يوافق على موقف الرئيس ميتران من الازمة (٥٧٤ صوتًا ضد ٤٣ في مجلس النواب، و٢٩٠ صوتًا ضد ٢٥ في مجلس الشيوخ).

القوات المتواجدة في ساحة المعركة والمواقف الدولية: ايران: بقيت على الحياد، وكانت قد تسلمت، في ١٥ آب ١٩٩٠، قبول صدام حسين باتفاق الجزائر الحدودي (١٩٧٥، وكان صدام حسين قد أعلن إلغاءه بعد انتصاره في حرب العراق-ايران)، لكنها رفضت تسليم العراق الطائرات العراقية التي لجأت إليها (١١٥ طائرة بحسب المصادر العراقية، ١٣٧ بحسب المصادر الاميركية)، واستقبلت، في نهاية الحرب، مئات الآلاف من الشيعة الهاربين من العراق.

اسرائيل: رفضت أي ربط بين الأزمة الناشبة وبين القضية الفلسطينية، وتمنت عدم توريطها في النزاع، ولكنها ضاعفت من استعداداتها في مواجهة الخطر العراقي، كما عملت بالنصائح الاميركية في ان تبقى بعيدة عن الواجهة وأملت في الحصول على مزيد من الضمانات في مرحلة ما بعد الحرب.

الفلسطينيون: كان توزعهم، في تموز ١٩٩٠، وفق الخريطة التالية: مليون و٦٨٠ ألفًا في الاردن، ٨٠٠ ألف في الاراضي المحتلة، ٤٠٠ ألف في الكويت، ١٨٠ ألفًا في العربية السعودية، ٧٠ ألفًا في الامارات، و٥٠ ألفًا في العراق. ووقفت منظمة التحرير الفلسطينية، بمبادرة من عرفات وتحت ضغط الجماهير الفلسطينية إلى جانب العراق على الرغم من ان دعمها المالي يأتي بالدرجة الاولى من دول الخليج (٧٠٪ من ميزانيات المدارس والمستشفيات الفلسطينية). وكانت الأزمة قد كلفت الفلسطينيين، نتيجة هذا الموقف وحتى ١٥ كانون الثاني ١٩٩١، نحو ١٠ مليارات دولار، إضافة إلى ان البلدان العربية أوقفت ضخ حصصها لدعم الانتفاضة في الاراضي المحتلة.

دول التحالف: ضم هذا التحالف ٢٨ بلدًا: العربية السعودية (٦٧٥٠٠ جندي مجهزين بعتاد حربي من مختلف الاسلحة المتطورة، إضافة إلى ٤ آلاف جندي كويتي و١٠ آلاف من مختلف دول مجلس التعاون الخليجي المتمركزين في السعودية)، الارجنتين (٣٠٠ جندي)، اوستراليا (٦٠٠)، البحرين، بنغلادش (٢٠٠٠)، بلجيكا (٤٠٠)، كندا (١٨٣٠)، كوريا الجنوبية (١٥٠)، الدانمارك، مصر (٣٥٦٠٠، أفتى شيخ الأزهر بواجب

دخول المسلمين المعركة ضد العراق وبأن الاستنجاد بالقوات الأجنبية لا يخالف الشريعة، وقيام مظاهرات ضخمة في مصر مؤيدة للعراق نظمها الاخوان المسلمون والتجمع الوطني التقدمي الوحدوي)، الامارات العربية المتحدة (٤٠ ألفًا)، الولايات المتحدة (٥١٥ ألفًا)، فرنسا (١٩ ألفًا)، بريطانيا (٣٦ ألفًا)، اليونان (٢٠٠)، هنغاريا (٣٧ رجلاً، فريق طبي)، ايطاليا (١٣٠٠)، المغرب (١٢٠٠ إضافة إلى ٥ آلاف في أبو ظبي)، النيجر (٥٠٠)، نيوزيلندا (فريق طبي من ٤٠ رجلاً)، عُمان (٢٥ ألفًا)، باكستان (١٠ آلاف)، هولندا (٤٠٠)، بولندا (١٣٠)، قطر، رومانيا (٣٦٠)، السنغال (٥٠٠)، سيراليون (٢٠٠)، السويد (٥٢٥)، سورية (٢٠ ألفًا و٨٠٠)، لكنها هددت بترك ساحة المعركة إذا تدخلت اسرائيل عسكريًا، واصبحت، لدى هزيمة العراق، القوة العسكرية الأساسية في المنطقة وحصلت على وعد باطلاق يدها في لبنان؛ وتشيكوسلوفاكيا (٢٠٠). وغالبية هذه القوات، خاصة منها الاميركية والبريطانية والفرنسية، كانت مزودة بمختلف الاسلحة الأكثر تطورًا، البرية والجوية والبحرية.

بالمقابل، كان عديد القوات المسلحة العراقية ٧٠٠ ألف رجل (جيش نظامي، جيش احتياطي وميليشيا ٥٤٥ ألفًا، الحرس الجمهوري ١٤٠ ألفًا) مزودين بـ٥٦٠٠ عربة ومدرعة، و١٩٠٠ مربض مدفعية، وصواريخ سكود ارض-ارض وصواريخ «الحسين»، وصواريخ ارض-جو سام سوفياتية الصنع، وصواريخ كروتال الفرنسية وهوك الاميركية، وصواريخ فروغ-٧ أرض-أرض متحركة بحمولات كيمائية، و٧٠٠ طائرة حربية، بما فيها ٢٠٠ طائرة هليكوبتر، إضافة إلى ترسانة من السلاح الكيميائي. أطلق العراق، في ايام المعركة، ٨٦ صاروخ سكود (٤٧ باتجاه السعودية، ٣٩ على اسرائيل).

العمليات العسكرية: في ١٦ كانون الثاني (١٩٩١)، من الساعة التاسعة مساء حتى نصف الليل، ١٠ طائرات هليكوبتر اميركية تدمر موقعي رادار قرب بغداد. وبعد ساعات قليلة، صبيحة ١٧ كانون الثاني، تبدأ عملية «عاصفة الصحراء»، والرئيس الاميركي جورج بوش يأمر بقصف المواقع الاستراتيجية العراقية، والقوات الجوية الحليفة تبدأ ايضًا غاراتها.

١٨ كانون الثاني، البرلمان التركي يجيز (٢٥٠ صوتًا ضد ١٤٨) للاميركيين استعمال القواعد الجوية التركية. وإطلاق أول صاروخ سكود عراقي على اسرائيل.

١٩ كانون الثاني، الولايات المتحدة تسلّم اسرائيل مربضي مدفعية باتريوت المضادة للصواريخ إضافة إلى مربضين أخريين كانت قد تسلمتهما اسرائيل قبل بدء المعركة.

٢١ كانون الثاني، الولايات المتحدة تستدعي ٢٠ ألف احتياطي إضافي.

٢٢ كانون الثاني، إطلاق صواريخ سكود على العربية السعودية وعلى اسرائيل. واسرائيل تهدّد بالرد.

٢٣ كانون الثاني، أول اشتباك بري بين العراقيين والاميركيين.

٣١ كانون الثاني، بعد ١٥ يومًا من المعارك (بحسب ما أعلنه الجنرال الاميركي شوارزكوبف، القائد العام لعملية «عاصفة الصحراء»): ٣٠ ألف طلعة للطيران الحربي الحليف، منها ٥٣٥ طلعة استهدفت ٣١ هدفًا عراقيًا نوويًا وكيميائيًا أو بيولوجيًا، و٥٠٪ من الأهداف جرى تدميرها أو إلحاق الضرر بها، كما جرى تدمير ١١ مخزنًا و٣ معامل للمنتوجات الكيميائية، و٢٥٪ من طاقة الانتاج الكهربائي، و٢٣ جسرًا من أصل ٣٣، و٢٥ مخزنًا للذخائر، و٤٥ مدرج طيران حربي، و٢٥ طائرة عراقية (٨٩ طائرة لجأت إلى ايران). وفي البحر، أطلقت حاملات الطائرات ٣٥٠٠ طلعة جوية و٢١٦ صاروخ توماهوك، وأغرقت ٤٦ سفينة حربية عراقية.

أول شباط، فرنسا تجيز للطائرات البريطانية عبور أجوائها، واسبانيا تجيز للولايات المتحدة استعمال القواعد الاميركية على اراضيها للاغارة على العراق.

٦ شباط، غارات جوية على بغداد، وطائرات عراقية تلجأ إلى ايران، و١٧ ألفًا من المارينز يتجهون إلى الخليج.

٧ شباط، العراقيون يشعلون النار بعدة آبار نفطية في الكويت.

٢٤-٢٨ شباط: هجوم بري اميركي، وتوغل في الاراضي الكويتية إلى ٨٠كلم في اليوم الاول (٢٤ شباط)، وهجوم اميركي-بريطاني على جبهة الجنوب. المارينز عند ابواب العاصمة الكويت (٢٥ شباط)، ثم تصبح على بعد ٢٨٠كلم من بغداد. والعراقيون يعلنون انسحاب قواتهم «إلى المواقع المحتلة قبل أول آب ١٩٩٠». وفي الساعة الرابعة من فجر ٢٧ شباط، قوات كويتية تدخل مدينة الكويت (العاصمة). وفي الساعة الثالثة من ٢٨ شباط، بوش يعلن إيقاف العمليات الهجومية لدول الحلف. والعراق يعلن عن أمر صدر للقوات المسلحة بوقف اطلاق النار.

الخسائر: لدى الحلفاء: البشرية، ٣٠ قتيلاً، منهم ٤ خلال الهجوم البري، و٢٤٣ جريحًا؛ و٢٨ قتيلاً و٩٧ جريحًا في معسكر ظهران الذي كان هدفًا لصاروخ عراقي؛ و٦ قتلى و٦ جرحى بريطانيين؛ وقتيلان و٢٧ جريحًا فرنسيين. و١٣ قتيلاً و٤٣ جريحًا من الجيوش العربية؛ و١٨ قتيلاً من السعودية، بينهم ١٣ خلال الهجوم البري، و٢٠ جريحًا؛ و٨ جرحى من السنغاليين. من المفقودين ٤٣ اميركيًا، و١٠ سعوديين، و٨ بريطانيين، وايطالي واحد، وكويتي واحد. والأسرى ٩ جنود أميركيين، وبريطانيان، وايطالي واحد، وكويتي واحد. الخسائر المادية: ٤٢ طائرة منها ٣١ طائرة اميركية، و٧ بريطانية، وطائرتان سعوديتان وطائرة ايطالية وطائرة كويتية، إضافة إلى ١٥ طائرة هليكوبتر اميركية.

لدى العراق: بحسب المصادر العراقية ٢٠ ألف قتيل و٦٠ ألف جريح. بحسب مصادر الحلفاء أكثر من ١٠٠ ألف قتيل. الأسرى ١٧٥ ألفًا. الخسائر المادية: ١٣٩ طائرة (أكثر من ١١٥ لجأت إلى ايران)، ٨ طائرات هليكوبتر، ٧٤ سفينة حربية، ٢٠٨٥ عربة ومدرعة (٤٠٠ خلال الهجوم البري)، ٨٥٦ ناقلة جند، ٢١٤٠ مدفعًا.

التلوث: بقع سوداء في مياه الخليج بسبب فتح العراقيين انابيب النفط في ميناء الأحمدي، فتسربت وانتشرت في المياه كمية من النفط الخام قدرت بـ١٠٠ ألف طن. وبقعة أخرى انتشرت من ميناء البكر وقدرت مساحتها بـ١٥×٥٠كلم، لتعود وتتجزأ عند الشواطىء السعودية والكويتية والايرانية. واتخذت إجراءات للحد من أضرارها خاصة وان الخليج مقفل وقليل العمق (٢٥-٣٠م).

٧٣٢ بئرًا نفطيًا في الكويت (من اصل ١٠٨٠ بئرًا) أحرقت خلال الحرب، فغطّى الدخان الأسود نحو ربع مساحة الكويت، وشوهدت آثار الدخان الأسود على ثلوج جبال هيمالايا. واستمرت عمليات إطفاء حرائق هذه الآبار حتى ٦ تشرين الثاني ١٩٩١.

قرارات الأمم المتحدة في ١٩٩٠-١٩٩١: ١٦ قرارًا متعلقًا بالعراق خلال ١٤ شهرًا، من ٢ آب ١٩٩٠ إلى ٢ تشرين الاول ١٩٩١:

القرار ٦٦٠ (٢ آب ١٩٩٠): ١٤ صوتًا، اليمن لم تصوّت: يدين غزو الكويت ويفرض انسحابًا فوريًا للعراق.

القرار ٦٦١ (٦ آب ١٩٩٠): ١٣ صوتًا، غياب كوبا واليمن: عقوبات اقتصادية على العراق (حظر مالي، تجاري وعسكري)، باستثناء الشحنات الطبية وبعض المنتوجات الغذائية.

القرار ٦٦٢ (٩ آب ١٩٩٠): إجماع الاصوات: إعلان العراق ضم الكويت لاغ ولا مفاعيل له.

القرار ٦٦٤ (١٨ آب ١٩٩٠): بالاجماع: يفرض الإفراج عن الرهائن.

القرار ٦٦٥ (٢٥ آب ١٩٩٠): ١٣ صوتًا، غياب كوبا واليمن: يجيز اللجوء إلى القوات البحرية لفرض الحظر.

القرار ٦٦٦ (١٤ ايلول ١٩٩٠): ١٣ صوتًا، وصوتا كوبا واليمن ضد: المساعدة الغذائية المرسلة إلى العراق أو الكويت يجب ان تشرف على إرسالها وتوزيعها الأمم المتحدة أو أي منظمة دولية أخرى.

القرار ٦٦٧ (١٦ ايلول ١٩٩٠): بالاجماع: يدين انتهاك حرمة السفارات ويطالب بتحرير الأجانب الذين خُطفوا من المقرات الدبلوماسية.

القرار ٦٦٩ (٢٤ ايلول ١٩٩٠): بالاجماع: يطلب من «لجنة العقوبات» فحص طلبات المساعدة التي تتقدم بها البلدان التي تعاني من صعوبات اقتصادية وفقًا لاحترامها قواعد الحظر على العراق.

القرار ٦٧٠ (٢٥ ايلول ١٩٩٠): ١٤ صوتًا، كوبا ضد: توسيع نطاق الحظر ليشمل التجارة الجوية.

القرار ٦٧٤ (٢٩ تشرين الاول ١٩٩٠): ١٣ صوتًا، غياب كوبا واليمن: يذكّر العراق بمسؤوليته، وفقًا للقانون الدولي، عن كل الاضرار الملحقة بالكويت وبأي دولة أخرى نتيجة لاحتلاله غير المشروع للكويت.

القرار ٦٧٧ (٢٨ تشرين الثاني ١٩٩٠): بالاجماع: يدين محاولات العراق تعديل الوضع الديمغرافي في الكويت، ويوصي الأمم المتحدة بالاحتفاظ بنسخة عن سجل الاحوال الشخصية لهذا البلد.

القرار ٦٧٨ (٢٩ تشرين الثاني ١٩٩٠): ١٢ صوتًا، كوبا واليمن ضد، وغياب الصين: يفرض على العراق الامتثال للقرار ٦٦٠ ويجيز للدول المتعاونة مع الكويت استعمال كل الوسائل الضرورية لاجبار العراق على احترامه إذا لم ينسحب من الكويت في مهلة أقصاها ١٥ كانون الثاني ١٩٩١.

القرار ٦٨٦ (٢ آذار ١٩٩١): ١١ صوتًا، كوبا ضد، وغياب الصين والهند واليمن: بعد قبول العراق (في

خريطة الحظر الجوي التي فُرضت على العراق في اعقاب حرب الخليج الثانية.

٢٧ شباط) الامتثال للقرار ٦٦٠ ولباقي القرارات الدولية دون شروط، يحدّد هذا القرار الجديد شروط نهاية العمليات الحربية. فتصبح جميع القرارات الدولية مطبقة، ويكون على العراق العودة عن كل قراراته المترتبة على ضم الكويت، واحترام مسؤوليته حيال الاضرار الملحقة بالكويت وبكل دولة أخرى، وإطلاق سراح جميع رعايا الكويت أو أي دولة أخرى متعاونة معها، وإعادة جميع ممتلكات الكويتيين، وإطلاق جميع سجناء الحرب فوراً، ووضع نهاية لكل عمل عدائي، وتقديم كل المعلومات الكفيلة بتحديد أماكن الأفخاخ وكل آلة أو سلاح كيميائي في الكويت أو في المناطق العراقية أو المياه الاقليمية وحيثما كان مسرح عمليات قوات التحالف.

القرار ٦٨٧ (٣ نيسان ١٩٩١): يفرض على بغداد تدمير كل سلاح لديها غير خاضع للاتفاقيات الدولية، وكذلك جميع الصواريخ متوسطة وطويلة المدى التي تمتلكها.

القرار ٦٨٨ (٥ نيسان ١٩٩١): ١٠ أصوات، كوبا واليمن وزيمبابوي ضد، وغياب الصين والهند: يدين قمع السلطات العراقية الأهالي العراقيين، ويلح في السماح للمنظمات الانسانية الوصول إلى الأهالي الذين يحتاجون إلى المساعدة.

القرار ٧٠٦ (١٥ آب ١٩٩١): ١٣ صوتاً، صوت واحد ضد، وغياب صوت: يسمح للعراق بيع كمية من النفط بقيمة ١،٦ مليار دولار خلال مدة ٦ أشهر ليتسنى له شراء غذاء وأدوية ودفع ٣٠٪ من هذه المبالغ كتعويضات حرب.

القرار ٧٧٨ (٢ تشرين الاول ١٩٩١): حجز جزئي لأموال العراقيين في الخارج.

(هنا تنتهي كرونولوجيا «حرب الخليج الثانية» المترجمة عن الكتاب السنوي الفرنسي «كيد»، المرجع المذكور في مطلع الموضوع).

حرب الخليج الثانية «حرب معلومات خادعة»

(مناقشة): بعد انقضاء نحو ست سنوات على هذه الحرب عقد في أبو ظبي في ٥-٧ كانون الثاني ١٩٩٧ مؤتمر «ثورة المعلومات والاتصالات وتأثيرها في المجتمع والدولة في العالم العربي»، نظمه «مركز الامارات للدراسات والبحوث والاستراتيجية اشترك فيه اختصاصيون في الاقتصاد والاجتماع والسياسة من الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا وبلدان الخليج العربية، وعرض تحليلات وتقويمات ميدانية للبرامج التلفزيونية في دول الخليج العربية وتأثير المعلومات على طلابها وعلى المجتمع والدولة في

الاردن، وبلدان المغرب العربي، وايران، واستطلاعات الرأي العام في فلسطين، ودور الاعلام في حرب الخليج الثانية.

من الاستنتاجات الخطيرة للمؤتمر:

– ان حروب المعلومات تجري الآن بشكل مستتر حول العالم العربي، وانها ستلعب دورًا متزايدًا في نشوء وتطور الانظمة السياسية العربية.

– وان تكنولوجيا الاتصالات خدعت ملايين المشاهدين في حرب الخليج، وان الاطار التصوري السائد اليوم في النظام العام العالمي هو نتاج الصورة المفبركة التي صنعتها حرب الخليج والتدفق الحر للمعلومات التي تستهدف أول ما تستهدف الرأي العام برمته. فحرب الخليج قدمت مثالاً عمليًا لحرب المعلومات. هذه الحرب سجلت «انتصار الصورة الاعلامية على الحقيقة والمنطق» وفق الدراسة التي قدمها في المؤتمر الدكتور حامد مولانا (استاذ العلاقات الدولية في جامعة واشنطن) وعرض فيها كيف خدعت تكنولوجيا الاتصالات ملايين المشاهدين في أنحاء العالم كافة الذين انبهروا بالصور الاعلامية لها وخيل لهم انهم يتابعون الحرب خطوة فخطوة في حين ان كل ما قدمته لهم كان صورة مصطنعة للواقع (راجع «الخليج العربي»، ج٨).

ما بعد الحرب: العراق تحت الحصار الدولي

١٩٩١: أول آذار، انتفاضة في البصرة والنجف وكربلاء تلبية لنداء المجلس الأعلى للثورة الاسلامية (راجع باب الاحزاب)؛ وانتفاضة كردية في كردستان العراق.

٢٣ آذار، تعيين سعدون حمادي رئيسًا للوزراء (بقي في منصبه هذا حتى ١٣ ايلول ١٩٩١).

١٨ حزيران، إعدام ١٨ ضابطًا اتهموا بالتآمر. وفي هذا الشهر، أعلن مسعود برزاني عن اتفاق حول الاستقلال الذاتي لكردستان العراق (لم يتم تصديق الاتفاق).

٦ تموز، تدمير آخر الأسلحة البالستية. واتفاق حول تدخل الامم المتحدة في ما يتعلق بـاللاجئين لمهلة ٦ أشهر (تنتهي في ٣١ كانون الاول ١٩٩١).

١٧ ايلول، سماح محدود بتعدد الاحزاب.

٣ تشرين الاول، الاعلان عن محاولة انقلابية وإعدام ٧٦ ضابطًا. تعيين محمد حمزه زبيدي رئيسًا للوزراء.

٢٤ تشرين الاول، العراق يرفض القرارين الدوليين ٧٠٦ و٧١٢.

تشرين الثاني، إقالة حسين كامل حسن، صهر صدام حسين ووزير الدفاع منذ ٦ نيسان ١٩٩١، وتعيين علي حسن ماجد (الملقب بـ«جزار كردستان») مكانه، وكذلك تعيين واطبان ابراهيم الحسن (أخ شقيق لصدام حسين) وزيرًا للداخلية.

١٩٩٢: ١٥ ايار، انتخابات نيابية في كردستان (١٠٥ اعضاء، لولاية ثلاث سنوات: ١٠٠ مقعد للأكراد موزعة على الحزبين الأساسيين: مسعود برزاني وجلال الدين الطالباني، و٤ مقاعد للحركة الديمقراطية الآشورية، ومقعد واحد لشعب كردستان المسيحي).

٦ تموز، زوجة الرئيس الفرنسي ميتران في زيارة كردستان، وتعرضت أثناءها لمحاولة اغتيال.

٢٥ تموز، إعدام ٤٢ تاجرًا عراقيًا بتهمة الإثراء غير المشروع.

٢٦ تموز، العراق يقبل بخبراء دوليين، لكن من دول محايدة.

٢٦ آب، فرنسا وبريطانيا والولايات المتحدة تقيم منطقة حظر جوي جنوبي خط العرض ٣٢ لحماية السكان الشيعة. والرئيس الاميركي، بوش، يعطي العراق ٢٤ ساعة لوقف الضربات الجوية ضد الشيعة.

٢٧ آب، بدء سريان مفعول قطاع حظر الطيران وإرسال دوريات جوية اميركية وبريطانية.

تشرين الاول، اقتتال كردي-كردي وسقوط نحو ألف قتيل، ومعارك بين الشيعة في الجنوب (٢٦٦ قتيلاً).

٧ كانون الاول، إطلاق مشروع ضخم: النهر الصناعي (نهر صدام حسين) بين دجلة والفرات (٥٦٥ كلم) للملاحة والري (١٢٥٠٠ هكتار) وتجفيف المستنقعات في الجنوب (الأهوار، حيث المتمردون، راجع «الأهوار» في باب مدن ومعالم).

٢٧ كانون الاول، إسقاط ١٢ طائرة عراقية في منطقة الحظر الجوي الدولي.

١٩٩٣: ٤ كانون الثاني، العراق يحرك صواريخ أرض-جو إلى قطاع الحظر الجوي. وفي ٦، اميركا والحلفاء يعطون بغداد ٤٨ ساعة لإزالة الصواريخ أو مواجهة اعمال عسكرية. وفي ٨، بغداد ترفض إنذار الحلفاء. وفي ١٠، ٢٠٠ عراقي مسلح يجتازون الحدود الكويتية ويزيلون ٤

امرأة عراقية تحمل طفلها الرضيع. ان حوالي «١,٤ مليون طفل عراقي توفوا بسبب انعكاسات العقوبات على العراق»، منذ ان بدأ الحصار الدولي على العراق في ١٩٩١ وحتى صيف ١٩٩٨.

رالف اكيوس.

صواريخ «سيلكويرم» خلّفتها قواتهم في حرب الخليج. وفي ١٢، العراقيون يجتازون الحدود الكويتية مرتين أخريين ليزيلوا معدات ومواد تركوها وراءهم، وبغداد تحرّك بطاريات مضادة للطائرات في قطاعي حظر الطيران الشمالي والجنوبي.

في ١٣ كانون الثاني، غارات جوية للحلفاء استهدفت مواقع صواريخ في تليل والسماوة والنجف، ومواقع صواريخ سام في منطقتي البصرة وتليل.

٢٦-٢٧ حزيران، البحرية الاميركية تقصف مقر الاستخبارات العراقية في شارع المنصور في بغداد (٦ قتلى)، والرئيس الاميركي، بيل كلينتون، يعتبر ان السلطات الاميركية توصلت إلى «أدلة دامغة» تثبت تورط الحكومة العراقية في تدبير محاولة اغتيال الرئيس الاميركي جورج بوش أثناء زيارته للكويت في نيسان. وأيدت الكويت هذه الضربة، وكذلك موسكو، وتفهمت باريس دوافعها، وشدّدت لندن على ضرورة استئصال إرهاب الدولة العراقية.

١٦ تشرين الثاني، بعثة الأمم المتحدة المكلفة مراقبة الحدود الكويتية-العراقية تعلن عن أن مئات العراقيين عبروا الحدود ورفعوا العلم العراقي داخل اراضي الكويت. وتصعيد اعلامي وأجواء توتر.

٣٠ تشرين الثاني، الرئيس الاميركي، كلينتون، يصرح بأن الطريق الوحيد لعودة العراق إلى «مجموعة الدول المتحضرة» هو «من خلال العمليات الديمقراطية واحترام حقوق الانسان والمساواة في معاملة شعبه والتقيد بالقواعد الرئيسية في السلوك الدولي». الحكومة العراقية واللجنة الخاصة التابعة للامم المتحدة المكلفة إزالة أسلحة الدمار الشامل العراقية توقعان وثيقة تجيز للجنة الخاصة والوكالة الدولية للطاقة الذرية تقديم تقرير إلى مجلس الأمن يعكس رأيهما في ان العراق نفذ كل التزاماته بموجب الفقرة س من القرار ٦٨٧ الذي يتضمن شروط وقف النار في الخليج.

١٩٩٤: في ايار، مجلس الأمن يجدّد، العقوبات على العراق للمرة الثانية منذ فرض الحظر. بيان لمجلس قيادة الثورة الذي قرر «إعفاء رئيس مجلس الوزراء (أحمد حسين السامرائي) ونائبه والوزراء من مناصبهم»، وبسبب «ظروف الحصار وما يتطلبه الوضع من اهتمام استثنائي بالشؤون الاقتصادية ومعيشة المواطنين» قرّر «ان يتولى الرئيس صدام حسين مباشرة رئاسة مجلس الوزراء»، لمعالجة انعكاسات الحظر الاقتصادي وانهيار قيمة الدينار وتدني المستوى المعيشي للعراقيين إلى حد دفع الأمم المتحدة إلى التحذير من مجاعة في العراق.

آخر آب، وقّع وفد تركي في بغداد بروتوكولاً للتعاون التجاري والاقتصادي والصناعي يقضي بتشكيل غرفة تجارة عراقية-تركية. وكان الرئيس التركي سليمان ديميريل، قبل ايام قليلة، دعا في مؤتمر صحافي مع الملك حسين عقداه في عمان إلى رفع الحظر الدولي على العراق في أقرب وقت ممكن.

تشرين الاول، أذيع في بغداد بيان بعد اجتماع مشترك لمجلس قيادة الثورة والقيادة القطرية لحزب البعث رأسه صدام حسين هدّد بـ«موقف جديد (...) يخرج شعب العراق من المحنة»، وهاجم بشدة رالف أكيوس (رئيس اللجنة الخاصة التابعة للأمم المتحدة المكلفة نزع أسلحة الدمار الشامل العراقية) و«أصحاب الغرض السيء» الذين «يسعون إلى إطالة الحصار» الدولي المفروض على العراق.

أتبعت بغداد هذا البيان بحشد عسكري على الحدود مع الكويت وبتهديدها إسقاط الحظر عن طريق التذكير بقدرتها على زعزعة الاستقرار. وعادت إلى المنطقة أجواء توتر شديد، وجددت احتمالات المواجهة. اصطدمت المحاولة العراقية بحزم خليجي ودولي، وسارعت الولايات المتحدة وبريطانيا إلى إرسال قوة ردع برية وبحرية وجوية.

في ذروة الازمة أعلن العراق سحب قواته من منطقة الحدود مع الكويت، وتركزت الجهود الاميركية على ضمان «عدم تمكن صدام من تكرار مناوراته». ومع تراجع فكرة إقامة منطقة حظر بري في جنوبي العراق تابعت الولايات المتحدة نشر قواتها. عارضت فرنسا منطقة الحظر وأرسلت روسيا وزير خارجيتها، أندريه كوزيريف، إلى العراق والكويت والمنطقة وحرص قبل بدء جولته على تأكيد وجود بعض التباين بين موقفي موسكو وواشنطن.

١٠ تشرين الثاني، الرئيس صدام حسين يوقع على بيان لمجلس قيادة الثورة (أعلى هيئة سياسية) في العراق يعترف بسيادة الكويت واستقلالها، وبترسيم حدودها الذي انجزته الأمم المتحدة وضمنه مجلس الأمن بموجب القرار ٨٣٣. بذلك تطوي بغداد ملف ما سمته «المحافظة التاسعة عشرة». وجاء هذا القرار ثمرة لمبادرة أطلقها وزير الخارجية الروسي كوزيريف الذي حضر جلسة المجلس الوطني العراقي التي خصصت لهذا الاعتراف.

١٩٩٥: كانون الثاني-تشرين الاول، بارقة أمل داعبت العراقيين بأن المجتمع الدولي قد يوافق على تخفيف العقوبات المفروضة على العراق إذا واصل تعاونه مع مجلس الأمن في إزالة ما يملكه من أسلحة الدمار الشامل ويقبل تنفيذ القرار ٩٨٦ الخاص ببيع النفط في مقابل الغذاء. وكان العام ١٩٩٥ بدأ بزيارة نائب رئيس الوزراء العراقي طارق عزيز باريس (٦ كانون الثاني) التي أعلنت عن فتح قسم لرعاية المصالح في العراق، لكن مع تأكيدها ان هذه المبادرة ليست سياسية بل إنها إجراء تقني. وفي ١٤ نيسان، تبنى مجلس الأمن بالاجماع قرارًا يسمح للعراق ببيع ما قيمته بليون دولار من النفط كل ٩٠ يومًا لتغطية الحاجات الانسانية لمواطنيه، وكانت رعت تقديم مشروع القرار كل من الارجنتين ورواندا وعُمان وبريطانيا وايرلندا الشمالية والولايات المتحدة.

إلا ان هذا الأمل تلاشى نهائيًا إثر لجوء الفريق الاول حسين كامل، صهر الرئيس العراقي صدام حسين، إلى الاردن (في آب)، ذلك ان حسين كامل كان المسؤول الاول عن البرامج السرية لأسلحة الدمار الشامل، وأدّى لجوءه إلى الاردن إلى اضطرار بغداد ان تكشف لرئيس اللجنة الدولية الخاصة بنزع السلاح، رالف أكيوس، وثائق خطيرة عن هذه البرامج أظهرت ان العراقيين كانوا على وشك انتاج قنبلة ذرية وعن امتلاكهم كميات هائلة لمواد بيولوجية محركة «كافية لإبادة جميع سكان العالم» حسب قول أكيوس.

وسياسيًا، أدّت هذه الاكتشافات إلى تلاشي أصوات دولية نافذة، كروسيا وفرنسا، كانت تسعى إلى تخفيف العقوبات عن العراق. وفاقم الوضع مصادرة السلطات الاردنية مواد ومعدات كيماوية تستخدم في انتاج صواريخ محظور على بغداد امتلاكها كانت في طريقها إلى العراق، وحدوث تدهور خطير في العلاقات بين عمان وبغداد، خصوصًا بعدما أعلن الملك حسين مبادرة هدفها توحيد المعارضة العراقية عبر مؤتمر لها تستضيفه عمان للبحث في مستقبل العراق عبر إطارات عدة منها التفكير بحل فدرالي على أساس «مصالحة وطنية» بين السنة والشيعة والأكراد، وهم العناصر الرئيسية التي تشكل المجتمع العراقي.

١٥ تشرين الاول، أول استفتاء في نوعه نظم في العراق يقضي بتمديد ولاية رئيس الجمهورية (صدام حسين) سبع سنوات، وكانت نتيجته ٩٩،٩٦٪ من الاصوات المؤيدة لتمديد ولايته.

٢١ تشرين الاول، رئيس دولة الامارات العربية المتحدة الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان يطلق دعوته إلى «التسامح ورفع الحصار والمعاناة عن الشعب العراقي»، فيما أعلنت اليمن عن «تأييدها المطلق» لدعوة الشيخ زايد.

أواخر كانون الاول، صدام حسين يتخذ قرارين، الاول يقضي بزيادة رسوم الاعفاء من اداء الخدمة العسكرية، والثاني باعتماد سياسة اقتصادية أكثر تقشفًا خلال العام الجديد (١٩٩٦) في مسعى إلى وقف تدهور الدينار العراقي (أصبح الدولار الاميركي يساوي ٢٥٠٠ دينار).

١٩٩٦: في شباط، وقعت مجزرة وسط بغداد راح ضحيتها صهرا الرئيس العراقي صدام حسين، حسين كامل حسن المجيد وشقيقه صدام (وآخرين من اقربائهما)، اللذين كانا فرّا إلى الاردن. وصدر عن بغداد رسميًا أن افرادًا من عائلتهما قتلوهم «غسلاً لعار خيانتهما»، كما أوضحت وزارة الداخلية ان إثنين من المهاجمين، ثائر عبد القادر سليمان المجيد وأحمد عبد الغفور سليمان المجيد «استشهدا أثناء الهجوم»؛ في حين تناقلت مصادر، إعلامية ودبلوماسية، ان عدي ابن الرئيس صدام حسين هو الذي رتب عملية استدراج صهريه من عمان وقاد عملية قتلهما مع افراد من عائلتهما في بغداد.

في ايار، وقّع العراق والامم المتحدة نص مذكرة التفاهم («النفط في مقابل الغذاء») في شأن تنفيذ القرار

٩٨٦. لكن بغداد استمرت تماطل في التوصل إلى اتفاق مع المنظمة الدولية في شأن آلية توزيع المواد الغذائية، خصوصًا في المناطق الكردية غير الخاضعة لسلطة الحكومة المركزية، وغيرها من التفاصيل الأخرى. لكن الحال الكردية ظلت السبب الرئيسي للماطلة التي استمرت حتى تحمحت بغداد في قلب الاوضاع في كردستان العراق بطريقة أدت عمليًا إلى إفراغ الشق المتعلق بالاكراد في القرار ٩٨٦ من محتواه. ولم توافق بغداد على «خطة التوزيع» للمواد الغذائية والطبية إلا بعدما أحدثت تغييرًا جوهريًا في ميزان القوى الكردية لمصلحتها.

في ٣١ آب، بعد تحركات وحشود عسكرية عراقية في ظل الاقتتال الكردي والمعارك الضارية في الشمال (كردستان العراق)، اقتحمت قوات الحرس الجمهوري العراقية المنطقة الكردية التي ظلت قوات السلطات العراقية خارجها طوال خمس سنوات. وهذه العملية العسكرية أسفرت عن استعادة مدينة أربيل من قوات الاتحاد الوطني الكردستاني (بزعامة جلال طالباني)، وتسليمها إلى قوات خصمه الحزب الديمقراطي الكردستاني بزعامة مسعود برزاني (راجع باب «كردستان العراق»).

في ١٠ كانون الاول، ضغط صدام حسين على زر التشغيل في محطة الضخ الأولى في كركوك معلنًا عودة ضخ النفط العراقي إلى الاسواق العالمية بعد انقطاع استمر ست سنوات.

في منتصف كانون الاول، تعرض عدي، نجل الرئيس العراقي، لمحاولة اغتيال باطلاق النار على سيارته في حي المنصور غربي بغداد. فأصيب عدي بجروح بليغة، ولم يُعلن عن هوية المهاجمين أو دوافعهم.

١٩٩٧: كان هذا العام عام التصعيد بين العراق من جهة، والولايات المتحدة ومجلس الأمن الدولي من جهة

وزير الخارجية الروسي كوزيريف وطارق عزيز في البرلمان العراقي (١٠ تشرين الثاني ١٩٩٤).

وزير الخارجية الروسي بريماكوف وطارق عزيز خلال مؤتمر صحافي في موسكو (٥ آذار ١٩٩٧)

أخرى، وبروز الدور الروسي (وزير الخارجية الروسي، بريماكوف، المعروف بصداقته الشخصية لصدام حسين)، وبدرجة اقل الدور الفرنسي في حماية العراق من أي ضربة عسكرية ربما فكّرت واشنطن في تنفيذها ردًا على طرد بغداد المفتشين الاميركيين من البعثة الدولية العاملة في العراق والتحدي المتزايد الذي أظهرته بغداد تجاه واشنطن. كما تميز هذا العام بنوع من الاختراقات الدبلوماسية على صعيد علاقات بغداد بالعواصم العربية خاصة دمشق.

في كانون الثاني، وصل إلى بغداد المدير العام للموانيء والجمارك في دبي، سلطان أحمد بن سليم، في أول زيارة لمسؤول إماراتي إلى العراق منذ حرب الخليج (وبحلول نهاية السنة كانت دولة الامارات أكثر الدول العربية اندفاعًا للدعوة إلى طي صفحة الماضي وتطبيع العلاقات العربية مع العراق).

في آذار، وصلت إلى العراق، عبر تركيا، أول شحنة من المواد الغذائية في إطار تطبيق قرار مجلس الأمن ٩٨٦: النفط مقابل الغذاء. وعاودت اسبانيا فتح سفارتها في بغداد بعدما بقيت موصدة طوال سبعة اعوام. وزار العديد من رجال الاعمال الاسبان بغداد منذ ١٩٩٦ لدرس امكانات الاستثمار في السوق العراقية، وتوقيع صفقات في إطار اتفاق «النفط للغذاء».

في نيسان، بدأت بغداد أول حلقة من سلسلة تحدياتها للحظر الدولي. إذ هبطت في السعودية طائرة ركاب عراقية تحمل حجاجًا حلقت عبر الاجواء الاردنية منتهكة الحظر الجوي. وعلى رغم الجهود الاميركية في مجلس الأمن لاصدار قرار يدين العراق، فشل أعضاء المجلس في التوصل إلى اتفاق بسبب المعارضة الروسية والفرنسية والصينية، ما شجع بغداد علىانتهاك الحظر الجوي مجددًا بعد ايام ونقلت بطائرات هليكوبتر من منطقة الحدود حجاجًا عائدين من السعودية. ومرة أخرى فشلت واشنطن في حمل مجلس الأمن على اتخاذ أي إجراء ضد العراق.

في ايار، وفيما كانت الاوضاع تزداد توترًا منذ قبل اسابيع، نفذت القوات التركية أكبر عملية لها في كردستان العراق (شمال العراق) منذ ١٩٩٥، وهذه المرة بتنسيق واضح مع الحزب الديمقراطي الكردستاني (مسعود برزاني). وجاءت هذه العملية بعدما انتهكت قوات الاتحاد الوطني الكردستاني (جلال طالباني) وقف النار وتقدمت في عمليات مشتركة مع مقاتلي حزب العمال الكردستاني (عبد الله أوجلان) في اتجاه مواقع استراتيجية يسيطر عليها برزاني. القوات التركية توغلت مسافة طويلة ودعمت قوات برزاني في قتال ضار وصل إلى تخوم الحدود مع ايران. واضطرت قوات أوجلان إلى إخلاء مناطق برزاني.

وفي الشهر نفسه (أيار)، وفي إطار الوضع العام في الشرق الاوسط وجمود عملية السلام، اتجهت سورية نحو تطبيع محدود لعلاقاتها مع العراق. فزارها وفد من اتحاد غرف التجارة العراقية للمرة الاولى منذ إغلاق الحدود بين البلدين في الثمانينات. وتبع ذلك تبادل زيارات لوفود تجارية أخرى.

في تشرين الاول، أعلنت بغداد طرد المفتشين الاميركيين العاملين مع الفرق الدولية المكلفة نزع أسلحة الدمار الشامل في العراق (أونسكوم)، وحرصت في الوقت نفسه على التعامل مع «أونسكوم» طالما انها لن تضم اميركيين. وكشفت الازمة الجديدة عزمًا روسيًا على تفعيل دور موسكو والوقوف بحزم، مع فرنسا، إلى جانب بغداد ومنع الولايات المتحدة من اتخاذ أي إجراء عسكري ضد العراق، وهو إجراء أعلنت دول المنطقة ايضًا معارضته.

في تشرين الثاني، نجح رئيس الدبلوماسية الروسية، يفغيني بريماكوف، في احتواء الموقف الاميركي، ما أجبر واشنطن على التشديد على الخطوات الدبلوماسية مع التلويح باستخدام القوة. وموسكو أصرّت على ضرورة أن ترى بغداد نورًا في نهاية نفق الحظر الدولي كي تستجيب للتعاون مع أونسكوم. ووافق العراق على عودة المفتشين الاميركيين مقابل اتفاق مع موسكو التي تعهدت العمل لرفع الحظر. ورغم هذه التطورات امتدت الازمة إلى آخر ١٩٩٧، وبدا ان رفض بغداد دخول فرق التفتيش «المواقع الحساسة» وقصور الرئاسة قد يفجّر الوضع مجددًا.

وفي الشهر نفسه، نفذت تركيا عملية أخرى في شمالي العراق (كردستان العراق) لضمان عدم عودة مقاتلي أوجلان قبل حلول موسم الشتاء، وأجبرت قوات طالباني على العودة إلى خطوط وقف النار، واتخذت الولايات المتحدة موقفًا كان من الواضح انه لم يعارض التدخل التركي، إذ لم تنشط لوقف نار جديد إلا بعدما انسحبت قوات طالباني إلى مواقعها السابقة.

وايضًا في تشرين الثاني، بلغت الاتصالات السياسية بين سورية والعراق ذروتها حين استقبلت دمشق نائب رئيس الوزراء العراقي طارق عزيز الذي اصبح المسؤول الأرفع مستوى الذي يزور دمشق بعد قطيعة استمرت منذ ١٩٨٠.

١٩٩٨: في ١٢ كانون الثاني، قررت بغداد منع

طارق عزيز وكوفي أنان
يوقعان إتفاق شباط ١٩٩٨.

عمليات التفتيش التي يقوم بها فريق للمفتشين لأنه بقيادة اميركي، واعتبرت الولايات المتحدة هذا الإجراء خرقًا للقرارات الدولية. وقبل أربعة ايام فقط، كانت صحيفة واشنطن تايمز نقلت عن تقرير لوكالة الاستخبارات المركزية الاميركية (سي.آي.إي) يحمل عبارة «سري» ان سورية والعراق يسعيان إلى تشكيل تحالف ضد الولايات المتحدة في الشرق الاوسط، وهذا المسعى كان بدأ منذ تشرين الثاني ١٩٩٧. وفي غضون ذلك كانت تجري مناورات بحرية تركية-اسرائيلية-اميركية تنفيذًا لخطة مشتركة وصفت بأنها «إنسانية تتعلق بتدريبات على انقاذ سفن صيد» (انتهت هذه المناورات في ٩ كانون الثاني).

في شباط، جدّد الرئيس الاميركي بيل كلينتون تحذيره الرئيس صدام حسين بأنه سيواجه القوة العسكرية ما لم يسمح للمفتشين الدوليين العمل بحرية وفي كل المواقع. وبدأت الولايات المتحدة استعداداتها العسكرية في حشد عسكري لا مثيل له منذ حرب الخليج الثانية (١٩٩٠-١٩٩١)، واقرنتها بحملات دبلوماسية لكسب التأييد العالمي، فجالت وزيرة الخارجية الاميركية أولبرايت على عدد من الدول بينها دول عربية. وردّت بغداد بحملة دبلوماسية مضادة، أهم عناوينها زيارة وزير الخارجية العراقي محمد سعيد الصحاف دمشق ولقاؤه الرئيس حافظ الأسد، واعتبرت هذه الزيارة أكثر أهمية من زيارة طارق عزيز للعاصمة السورية قبل أشهر قليلة (تشرين الثاني ١٩٩٧). وفيما كان كوفي أنان، الأمين العام للامم المتحدة، يقوم بمفاوضات اللحظة الأخيرة لتجنب حرب جديدة، كانت الولايات المتحدة تستكمل انتشارها العسكري في الخليج، فأصبحت قواتها هناك أقوى بكثير من تلك التي استخدمتها عندما شنت هجماتها في ١٩٩٣ و١٩٩٦، لكنها بقيت تقل كثيرًا عما استخدمته في ١٩٩٠-١٩٩١. وبرزت روسيا في مقدمة الدول المعارضة لهذه العملية حتى انها لوّحت بالعودة إلى الحرب الباردة، ودعت كوفي أنان إلى زيارة عاجلة لبغداد.

في ٢٠ شباط، وصل أنان إلى بغداد في محاولة لتجنيب العراق ضربة عسكرية اميركية يصعب التكهن بما يمكن ان ترتبه داخل العراق وانعكاسات ذلك على المنطقة والعلاقات الدولية. فكانت مهمته واحدة من أكثر المهمات خطورة وتعقيدًا، ذلك ان الرئيس العراقي ذهب بعيدًا في لعبة التصعيد ويصعب عليه التراجع من دون الحصول على شيء ما لانقاذ ماء الوجه، وذهب الرئيس الاميركي بعيدًا في التلويح بالقوة العسكرية ويصعب عليه القبول بخروج الرئيس صدام من الأزمة في صورة من نجح في تسجيل نقاط. ففي هذا الهامش الضيق كان أنان يتحرك لضمان تنفيذ قرارات الامم المتحدة. وسارع مجلس الأمن إلى تبني قرار برفع قيمة النفط المسموح لبغداد ببيعه إلى ٥،٢ بليون دولار لفترة ١٨٠ يومًا، وذلك قبل ساعات من موعد اجتماع أنان مع الرئيس صدام حسين.

وفي اليوم الثالث من الزيارة توصل أنان إلى توقيع اتفاق (مذكرة تفاهم) مع القيادة العراقية لقي ترحيبًا عراقيًا وعربيًا ودوليًا. ويتيح الاتفاق لـ«فريق خاص» تفتيش المواقع الرئاسية من دون التقيد بأي مهلة زمنية، ويسجل آخر بنوده اهتمام العراق برفع العقوبات وإنهاء الحصار، ويراعي اعتبارات السيادة وخصوصية المواقع الرئاسية، وينص على تشكيل فريق خاص لتفتيش هذه المواقع يشكله الأمين العام ويضم دبلوماسيين وخبراء من اللجنة الخاصة

الرئيس صدام حسين (الى اليمين) مستقبلاً كوفي انان (شباط ١٩٩٨).

بتلر (الى اليسار) يطلع كوفي أنان على نتائج محادثاته في بغداد (آب ١٩٩٨).

السفير ريتشارد بتلر لدى وصوله الى بغداد في ٢ آب ١٩٩٨.

المكلفة إزالة الاسلحة المحظورة (أونسكوم). ونص الاتفاق (مذكرة التفاهم) على سبع نقاط ووقعها كوفي أنان ونائب رئيس الوزراء العراقي طارق عزيز.

في ليل ٢-٣ آذار، وافق مجلس الأمن الدولي على مشروع القرار البريطاني-الياباني المتعلق بتنفيذ اتفاق بغداد (مذكرة التفاهم)، وأصدر القرار ١١٥٤ الذي اشاد «بالمبادرة التي قام بها الأمين العام للحصول على تعهدات من حكومة العراق في شأن الوفاء بالتزاماتها بموجب القرارت ذات الصلة، وفي هذا الصدد يقر مذكرة التفاهم الموقعة بين نائب رئيس وزراء العراق والأمين العام في ٢٣ شباط ١٩٩٨ ويتطلع إلى تنفيذها الكامل من دون إبطاء». وفي ٥ آذار، عيّن أنان ممثلاً خاصًا له في بغداد هو براكاش شاه (هندي). وفي ٢٣ آذار أنهى فريق تفتيش دولي ودبلوماسيون أول عملية في إطار تفتيش القصور الرئاسية العراقية، وتزامنت هذه العملية مع مغادرة ريتشارد بتلر، رئيس اللجنة الخاصة المكلفة نزع أسلحة الدمار الشامل العراقية بغداد وتأكيده ارتياحه إلى «التعاون العراقي».

في نيسان، وللمرة الاولى منذ حرب الخليج الثانية اجتمع وزير عراقي (هو وزير الخارجية محمد سعيد الصحاف) بالمجموعة العربية لدى الأمم المتحدة لاحاطة السفراء العرب بالمواقف والطروحات العراقية، وللمرة الاولى ايضًا يحضر مندوب الكويت اجتماعًا للمجموعة العربية طلب العراق عقده، وكان خاليًا من أي «تشنج».

وأكد الصحاف للسفراء والمندوبين العرب في الأمم المتحدة ان العراق ملتزم مذكرة التفاهم التي وقعها مع كوفي أنان. لكن رئيس لجنة «أونسكوم»، ريتشارد بتلر، أشار في تقريره نصف السنوي الذي طرح امام مجلس الأمن (٢٧ نيسان) ان العراق لم يحقق خلال الشهور الستة الماضية أي تقدم عملي في عملية نزع سلاحه. ووصف السعدي، كبير مسؤولي الفريق العراقي المفاوض للجنة الخاصة التقرير بأنه «الأسوأ على الاطلاق ومتطرف ومشبوه ويخدم الاغراض السياسية للادارة الاميركية وبريطانيا منذ بدء مهمات اللجنة بعد حرب الخليج».

في ايار، زار نائب رئيس الوزراء العراقي طارق عزيز باريس واجتمع بالرئيس الفرنسي جاك شيراك والأمين العام للامم المتحدة كوفي أنان، كما زار الفاتيكان والتقى البابا وطلب منه دعم جهود العراق لرفع الحظر (بعد ايام، أعلن الكاردينال روجيه أتشيغاري ان البابا يرغب في زيارة العراق). وفي الشهر نفسه، قام وزير الخارجية العراقي محمد سعيد الصحاف بجولة إلى دول عربية وافريقية. وجاء هذا النشاط الدبلوماسي العراقي إثر تخاوف من فشل اجتماعات لندن (٤ ايار) بين وزيرة الخارجية الاميركية مادلين أولبرايت وكل من ياسر عرفات وبنيامين نتانياهو، ما يفسّر ادراك بغداد لارتباط الموضوعين: قضيتها المباشرة وقضية الشرق الاوسط.

في الاسبوع الاول من حزيران، أعلنت بغداد انها استكملت الترتيبات النهائية لجعل خط أنابيب النفط العراقي-السوري جاهزًا لنقل النفط العراقي.

وفي ٢٤ حزيران، انعقد مجلس الأمن للاستماع إلى رئيس اللجنة المكلفة إزالة اسلحة الدمار الشامل العراقية (أونسكوم) ريتشارد بتلر الذي عليه ان يثبت ان بغداد زودت، قبل حرب الخليج، رؤوس صواريخ غاز الاعصاب «في إكس» القاتل، الأمر الذي نفته بغداد مجددًا. وقرّر المجلس الابقاء على العقوبات المفروضة على العراق لمدة ستين يومًا جديدة. ووافق بتلر، في ظل تساؤلات داخل مجلس الأمن، على إجراء اختبارات إضافية على عينات صواريخ عراقية مدمرة في مختبرات فرنسية وسويسرية بعدما أكدت مختبرات اميركية انها حوت غاز الأعصاب «في إكس».

وفي ٣٠ حزيران، أعلنت وزارة الدفاع الاميركية أن إحدى طائراتها أطلقت صاروخًا على موقع رادار عراقي قرب البصرة «رصد طائرات بريطانية كانت تحلق فوق جنوبي العراق»، وان الولايات المتحدة ستواصل

عمليات فرض الحظر الجوي، وانها «ستتخذ عملاً حاسمًا» ردًا على أي «عمل عدائي عراقي». واعتبرت بغداد أن الهجوم الاميركي ربما كان خطوة نحو «عدوان جديد شامل على العراق».

في أواسط تموز، أعلن وزيرا النفط، العراقي والسوري، إعادة فتح أنبوب النفط المشترك (مغلق بينهما منذ ١٩٨٢)، فيكون البلدان بذلك قد حققا ابرز خطوة منذ انطلاق التطبيع بينهما في أيار ١٩٩٧. ومع طهران، استمرت بغداد تحسّن علاقاتها معها، وتُوج هذا التحسن بعبور قافلة ايرانية من زوار العتبات المقدسة الشيعية في العراق نقطة المنذرية الحدودية للمرة الأولى (١٥ آب ١٩٩٨) منذ ١٨ سنة، واستقبلها العراقيون بحفاوة.

في ٢١ تموز، وقبل عشرة ايام من زيارة ريتشارد بتلر رئيس اللجنة الخاصة المكلفة نزع أسلحة الدمار الشامل (أونسكوم)، شدد بيان صدر بعد اجتماع مشترك رأسه صدام حسين لمجلس قيادة الثورة والقيادة القطرية لحزب البعث الحاكم على أن «ما أنجزه العراق خلال أكثر من سبع سنوات من متطلبات قرار مجلس الأمن الرقم ٦٨٧ يستدعي المباشرة فورًا برفع الحصار».

في ٣ آب، شن نائب رئيس الوزراء العراقي طارق عزيز، بعد محادثات بينه وبين بتلر، هجومًا عنيفًا على المفتشين الدوليين، ووصف بتلر بأنه «يخدم السياسة الاميركية».

في ٥ آب، أوصى المجلس الوطني (البرلمان العراقي) القيادة العراقية بوقف فوري للتعاون مع لجنة المفتشين الدوليين. وفي اليوم التالي اجتاحت بغداد تظاهرات شعبية هددت بطرد خبراء اللجنة الخاصة، في حين كان بتلر يطلع أمين عام الأمم المتحدة كوفي أنان على رفض طارق عزيز «تسليمه وثيقة تتعلق بنزع الأسلحة الكيماوية العراقية، كانت اللجنة الخاصة أكدت العثور عليها في مقر قيادة القوات الجوية العراقية». فبدأ أنان يوجه اتهامه للعراق بـ «انتهاك قرارات مجلس الأمن»، وعدم الالتزام بالاتفاق الذي وقعه مع طارق عزيز في ٢٣ شباط ١٩٩٨. وفي غضون ذلك أعلن وزير الصحة العراقي أن حوالي ١،٤ مليون طفل عراقي توفوا بسبب انعكاسات العقوبات التي فرضتها الأمم المتحدة على العراق. أما الكونغرس الأميركي فقد سارع إلى تبني قرار يعتبر أن العراق لا يزال ينتهك قرار مجلس الأمن ٦٨٧، في حين واصلت الادارة الاميركية تهديدها للعراق.

وأما العراقيون «فيسود بينهم اعتقاد شبه عام بأن الحظر يستهدف الشعب العراقي نفسه عبر فرض التجويع عليه، ليس على صعيد الغذاء وإنما على صعيدي الصحة والدواء حتى يأتي جيلان عراقيان وربما أكثر أنهكهما المرض، فلا تعود لهما قدرة على العمل والانتاج. وما ينطبق على الصحة ينطبق على العلم والثقافة. وإلا ما معنى حظر الورق والبعثات العلمية وملاحقة علماء العراق ووضعهم على لوائح سوداء تمنعهم من الاطلاع على كل جديد في ميادينهم؟ ويرى العراقيون الذين لم يقطعوا حبال قوميتهم على رغم الألم الذي يتحدثون به، أن الهدف الآخر بعد التجويع بجميع صوره وأشكاله، هو فصل العراق عن محيطه، ودفعه إلى العزلة والانعزال بحيث يتحول إلى مساحة جغرافية محدودة من دون دور يمنحه حجمًا يستحقه من خلال التفاعل والممارسة» («الوسط»، العدد ٣٤١، تاريخ ١٠ آب ١٩٩٨، ص١٥).

القضايا المركزية في قرارات مجلس الأمن: الحصار، الحدود، العسكرية والتعويضات:

- قضية الحصار، القرار ٦٦١:

جاء في الفقرة الثالثة: يقرر مجلس الأمن أن تمنع جميع الدول ما يلي:

أ: استيراد أي من السلع والمنتجات التي يكون مصدرها العراق أو الكويت وتكون مصدرة منهما إلى أقاليمها.

ب: أي أنشطة يقوم بها رعاياها يكون من شأنها تعزيز التصدير أو الشحن أو السفن التي ترفع علمها.

ج: أي عمليات توريد أو بيع بما في ذلك الاسلحة.

- قضية الحدود، القرار ٦٨٧:

الفقرة ألف:

٣: يطلب مجلس الأمن إلى الأمين العام ان يساعد في اتخاذ الترتيبات اللازمة مع العراق والكويت لتخطيط الحدود بينهما، مستعينًا بالمواد المناسبة، بما في ذلك الخريطة الواردة في وثيقة مجلس الأمن رقم ٢٢٤١٢.

الفقرة باء:

٥: يطلب إلى الأمين العام ان يقدم إلى مجلس الأمن للموافقة، خطة للانتشار الفوري لوحدة مراقبة تابعة للامم المتحدة لمراقبة خور عبد الله ومنطقة منزوعة السلاح تمتد مسافة عشرة كيلومترات داخل العراق وخمسة كيلومترات داخل الكويت من الحدود المشار إليها في محضر

٤ تشرين الاول ١٩٦٣ بين العراق والكويت (المحضر أو البروتوكول المشار إليه من العام ١٩٦٣ لم يكن مصدقًا عليه من قبل الحكومة العراقية).

القرار ٧٧٣:

الفقرة الثالثة: يرحب مجلس الأمن بقرار اللجنة (مراقبة الحدود) ان تنظر في الجزء الشرقي من الحدود الذي يشمل الحدود البحرية، ويحث اللجنة على ان تخطط هذا الجزء من الحدود في أقرب وقت ممكن.

الفقرة ٥: يرحب مجلس الأمن باعتزام الأمين العام ان يجري إعادة تخطيط المنطقة المنزوعة السلاح لكي تتوافق مع الحدود الدولية التي خططتها اللجنة مع ما يترتب على ذلك من إزالة مراكز الشرطة العراقية.

- القضايا العسكرية:

القرار ٦٨٧:

المادة جيم:

٨: يقرر مجلس الأمن ان يقبل العراق، دون أي شرط، القيام، تحت إشراف دولي، بتدمير ما يلي أو إزالته أو جعله عديم الضرر:

ألف: جميع الأسلحة الكيميائية والبيولوجية وجميع ما يتصل بهما من مرافق البحث والتطوير والدعم والتصنيع.

باء: جميع الصواريخ البالستية التي يزيد مداها عن ١٥٠كلم والقطع الرئيسية المتصلة بها، ومرافق اصلاحها وإنتاجها.

٩: ألف: يقدم العراق بيانًا بمواقع وكميات وأنواع جميع المواد المحددة في الفقرة ٨ ويوافق على إجراء تفتيش عاجل في المواقع على النحو المحدد أدناه: تشكيل لجنة تقوم باعمال التفتيش في المواقع على قدرات العراق البيولوجية والكيميائية

١٢: يقرر مجلس الأمن ان يوافق العراق دون أي شرط على عدم حيازة أو إنتاج أسلحة نووية أو مواد يمكن استعمالها للاسلحة النووية أو أي مرافق بحث أو تطوير تتصل بما ذكر أعلاه. وان يخضع جميع ما لديه من مواد يمكن استخدامها في الاسلحة النووية للرقابة الحصرية للوكالة الدولية للطاقة الذرية، والقيام بتفتيش عاجل للمواقع.

- قضايا التعويضات:

القرار ٦٨٧:

المادة هاء:

١٦: يؤكد مجلس الأمن ان العراق مسؤول بمقتضى القانون الدولي عن أي خسارة مباشرة أو ضرر مباشر، بما في ذلك الضرر اللاحق بالبيئة واستنفاد الموارد الطبيعية، أو ضرر وقع على الحكومات الاجنبية أو رعاياها أو شركاتها، نتيجة لغزو العراق للكويت.

١٨: يقرر مجلس الأمن إنشاء صندوق لدفع التعويضات المتعلقة بالمطالبات التي تدخل في نطاق الفقرة ١٦، وإنشاء لجنة لادارة الصندوق.

القرار ٧٠٥:

٢: يقرر مجلس الأمن وفقًا للاقتراح الذي قدمه الأمين العام، ألا تتجاوز التعويضات التي يتعين على العراق دفعها (الناشئة عن القرار ٦٨٧) ٣٠٪ من القيمة السنوية لصادرات النفط ومنتجاته من العراق.

القرار ٨٩٩:

إن مجلس الأمن وقد نظر في رسالة الأمين العام المتعلقة بمسألة المواطنين العراقيين وما لهم من ممتلكات أصبحت على الاراضي الكويتية في أعقاب تخطيط الحدود الدولية الجديدة بين العراق والكويت يرحب بالترتيبات المبينة في هذه الرسالة.

العلاقات العراقية–الخليجية: يتمتع العراق بثالث أكبر مساحة بين الدول الخليجية الثماني، بعد المملكة العربية السعودية وايران. ومع ذلك لا تتجاوز سواحله المطلة على الخليج العشرة أميال، أي ما نسبته ٠،٤٪ من إجمالي سواحل الخليج، في حين تملك البحرين التي تعد الأصغر مساحة في الخليج ساحلاً يصل طوله إلى ٦٨ ميلاً، وفي المقابل تملك ايران ساحلاً خليجيًا طوله ٦٣٥ ميلاً، أي ما نسبته ٣٥،٣٪ من طول سواحل الخليج، وتملك المملكة العربية السعودية ساحلاً خليجيًا طوله ٢٩٦ ميلاً، أي ما نسبته ١٦،٥٪ من سواحل الخليج.

على هذه الخلفية كان النزاع الحدودي الأهم بين العراق وايران (شط العرب)، وبينه وبين الكويت ليتسنى له المزيد من الاطلالة على الخليج. وفي تموز ١٩٨١، تقدم العراق بطلب رسمي إلى الكويت لتأجيره جزءًا من جزيرة بوبيان لمدة ٩٩ عامًا، وقال الرئيس العراقي يومها إن الهدف من ذلك «إقامة قاعدة بحرية للدفاع عن أمن العراق والكويت»، ولكن الكويت رفضت هذا الطلب.

وفي ١٠ تشرين الثاني ١٩٩٤، اعترف العراق رسميًا بسيادة الكويت وحدودها كما رسمتها اللجنة الدولية الخاصة المنبثقة عن الأمم المتحدة بموجب قرار مجلس الأمن ٦٨٧.

وقد اعتمدت هذه اللجنة، في ترسيمها للحدود العراقية-الكويتية، بروتوكول ١٩٦٣ (بعد سقوط حكم قاسم، واتجاه حكم عارف للمصالحة مع الخليجيين) الذي كان اعتمد، بدوره، على تعريف ١٩٣٢ للحدود بين العراق والكويت، والمبني هو الآخر على اتفاق ١٩٢٣ المستند إلى اتفاقية الخط الازرق لعام ١٩١٣ بين بريطانيا والدولة العثمانية والتي لم يصادق عليها بسبب نشوب الحرب العالمية الاولى.

رفض العراق، في ١٩٤٠، التفسير البريطاني للحدود المقدم في العام ١٩٣٢. وبقي رافضًا ومتصاعدًا في اللهجة حتى وصل الأمر إلى تحريك قواته على الحدود في ١٩٦١ بقصد ضم الكويت إليه. لكن بعد نحو عامين، قبل صراحة بحدود بروتوكول ١٩٦٣ بينه وبين الكويت.

لكن، بعد سقوط نظام عبد الرحمن عارف إثر حركة ١٧ تموز ١٩٦٨ توترت العلاقات العراقية-الخليجية:

مع السعودية، شعر العراق بأن الرياض قد ورثت القاهرة في مقولة الامساك بزمام المبادرة العربية، في حين كانت بغداد تصبو جاهدة للاضطلاع بهذا الدور.

مع البحرين، سعت بغداد للاستفادة من خصوصية المناخ الثقافي والاجتماعي للساحة البحرينية، فمدت الجسور مع بعض فئات المجتمع البحريني، وفي ١٩٧٦ اتهمت المنامة بصورة ضمنية بغداد بالوقوف خلف أحداث «ماسة بالأمن الوطني»، واتخذت وزارة التربية قرارًا بمنع إيفاد الطلبة البحرينيين للدراسة في الجامعات العراقية.

مع عُمان، دعمت بغداد الحركة المسلحة في إقليم ظفار، وقادت حملة للتنديد بالتدخل البريطاني والايراني في عُمان.

إثر سقوط شاه ايران، صعّد العراق من تهويله بـ«الخطر» الايراني على الدول العربية الخليجية، وانتهج سياسة تقارب مع السعودية والدول العربية الخليجية، مستفيدًا من مبدأ الفصل الاميركي بين أمن الخليج وقضية النزاع العربي-الاسرائيلي. وأمضى عزت الدوري، وزير الداخلية العراقي، سبعة ايام في المملكة العربية السعودية (شباط ١٩٧٩) ووقّع مع الرياض اتفاقية تعاون أمني. وقد مهّدت هذه الاتفاقية إلى معاهدة ترسيم الحدود السعودية-العراقية التي جرى التوقيع عليها في ٢٧ كانون الاول ١٩٨١.

مع دخول العراق في حرب طويلة مع ايران، وحدت دول الخليج العربية نفسها في وضع شديد التعقيد، وبدأت تعاني من نزف مالي بسبب دعمها للعراق الذي استمر مع استمرار الحرب.

أما العلاقات العراقية-الخليجية بدءًا من انتهاء حرب الخليج الثانية فيمكن رصدها عبر النقاط التالية:

مع عُمان، ذكرت صحيفة «الجمهورية» العراقية، في ٢١ ايار ١٩٩١، ان سلطنة عُمان قد أعادت فتح سفارتها في بغداد لتكون بذلك أول دولة خليجية تقدم على هذه الخطوة بعد الحرب. كذلك كانت عُمان الدولة الخليجية الوحيدة التي استقبلت، بعد هذه الحرب، وفودًا رسمية عراقية، كان أبرزها زيارة وزير الخارجية العراقي محمد سعيد الصحاف (في آذار ١٩٩٥) الذي زار ايضًا الدوحة (قطر).

مع قطر، بدأت العلاقات تسجل تطورًا لافتًا في نهاية تشرين الاول ١٩٩٢، حينما أعلن في الدوحة وبغداد عن تسلّم الرئيس العراقي رسالة من القيادة القطرية. وفي آذار ١٩٩٣، كشف وزير الخارجية القطري حمد بن جاسم بن جبر آل ثاني عن وساطة قطرية بين العراق والكويت لاطلاق سراح المحتجزين الكويتيين في العراق. وفي تموز ١٩٩٣، وافقت قطر على إرسال فريق رياضي لكرة القدم إلى بغداد لخوض مباراة ودية مع إحدى الفرق الرياضية العراقية. فرفعت بذلك قطر الحظر الرياضي المفروض على العراق. وفي اواخر نيسان ١٩٩٤، افتتح في الدوحة اسبوع ثقافي عراقي شمل معرضًا للكتاب وآخر للفنون التشكيلية.

مع دولة الامارات العربية المتحدة، فقد أطلقت هذه الدولة، منذ ١٩٩٥، عدة دعوات رسمية لرفع الحصار عن العراق. ففي كانون الثاني ١٩٩٥، دعا الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم، وزير الدفاع الاماراتي، في أول تصريح في نوعه لوزير خليجي، الكويت لمد «جسور المحبة» مع الشعب العراقي «لأن قدر العراق ان يكون دولة عربية مسلمة جارة للكويت وكذلك الكويت»، وقال «إن الامارات شاركت في الدفاع عن الشعب الكويتي عندما كان يعاني ولا يجوز ان تتواصل معاناة الشعب العراقي الآن»، معتبرًا «ان العراق قام بمعظم ما طلب منه المجتمع الدولي». وفي تشرين الاول ١٩٩٥، دعا الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، رئيس دولة الامارات، إلى رفع الحصار

متظاهرون عراقيون يطالبون برفع العقوبات ويؤكدون دعمهم سياسة الرئيس العراقي.

دروز سوريون يتظاهرون في مجدل شمس (١٠ شباط ١٩٩٨) حاملين
صور الرئيسين حافظ الاسد وصدام حسين احتجاجا على خطط ضرب العراق.

عن الشعب العراقي، وقال لدى استقباله عددًا من السفراء الجدد في أبو ظبي «إن رفع الحصار والمعاناة عن الشعب العراقي أصبح واجبًا، كما ان وقت المصالحة العربية قد حان». وفي شباط ١٩٩٦، ارسلت دولة الامارات سفينة محمّلة بنحو ٤ آلاف طن من الأغذية والادوية إلى ميناء أم قصر العراقي، وهي بذلك ثالث دولة عربية تقدم على هذه الخطوة بعد عُمان وقطر. وبعد قبول العراق قرار مجلس الأمن ٩٨٦ المعروف بقرار «النفط مقابل الغذاء»، شهدت أسواق دبي حركة تصدير نشطة إلى الاسواق العراقية، حيث أبرم تجار محليون مع تجار عراقيين عددًا كبيرًا من الصفقات تناولت موادًا غذائية وأدوية. وفي كانون الاول ١٩٩٦، قدّرت أوساط تجارية حجم المشتريات العراقية بين ٥ و٧ ملايين دولار يوميًا، وهي تتركز على السكر والرز وزيوت الطعام والحبوب والادوية، ويتم شحنها إلى العراق عن طريق ميناء الحمرية في دبي. وفي كانون الثاني ١٩٩٧، وصل إلى بغداد المدير العام لدائرة الموانىء والجمارك في دبي كأول مسؤول خليجي يزور العراق منذ حرب الخليج الثانية. وطيلة ١٩٩٧ وحتى اليوم (اواسط ١٩٩٨) والامارات تتصدر الدول العربية الداعية لرفع الحظر عن العراق وإجراء المصالحة العربية الشاملة معه.

مع البحرين، كانت العلاقات متقاربة مما كانت عليه مع الامارات من حيث الدعوة إلى رفع الحصار عن العراق. وقد ركّزت صحف البحرين على هذه القضية بشكل مسهب ودائم. وفي مطلع تشرين الاول ١٩٩٦، وفي خطوة لافتة، حضر القائم بالاعمال العراقي في البحرين حفل افتتاح الدورة الخامسة لانعقاد مجلس الشورى البحريني. وفي وقت لاحق زار بغداد وفد تجاري بحريني لدراسة آفاق التعاون التجاري بين البحرين والعراق وسبل المساهمة في رفع المعاناة عن الشعب العراقي.

مع المملكة العربية السعودية، فقد استمر الموقف السعودي من العراق قريبًا جدًا من موقف الكويت (١٩٩١-١٩٩٨). ففي كلمته أمام الجمعية العامة للامم المتحدة في تشرين الاول ١٩٩٥، أكد وزير الخارجية السعودي الامير سعود الفيصل، تعاطف بلاده مع شعب العراق، إلا انه حمّل بغداد مسؤولية استمرار معاناته، وقال «إن المجتمع الدولي يعلم ان المسؤولية في ذلك تقع على عاتق النظام العراقي الذي استمر في مماطلته وتسويفه إزاء تنفيذ القرارات الرقم ٧٠٦ و٧١٢ و٩٨٦ المتعلقة بمعالجة الاحتياجات الانسانية للشعب العراقي». وفي شباط ١٩٩٧، أكد وزير الدفاع السعودي الامير سلطان بن عبد العزيز في حديث أدلى به في واشنطن بعد اجتماع ضمّه والرئيس الاميركي بيل كلينتون ان على العراق تنفيذ قرارات مجلس الأمن «حتى يرى الشعب العراقي المضطهد نعمة الأمن والاستقرار والاستقلالية ويعيش حياة كريمة بين أخوته الشعوب العربية».

وأما مع الكويت، فقد استمرت هذه الدولة متشدّدة، وقد بدا ذلك واضحًا في كافة تفاصيل خطابها الرسمي والشعبي. وحين اصدرت بغداد قرارًا اعترفت فيه بالكويت وحدودها اكتفى مجلس الوزراء الكويتي باصدار بيان اعتبر فيه ان الاجراء العراقي «خطوة في الاتجاه الصحيح»، لكن المطلوب اتخاذ خطوات اخرى لتنفيذ كل قرارات مجلس الأمن المتعلقة بحرب الخليج «ليثبت العراق نواياه السليمة»، وناشدت القيادة الكويتية «الدول الاعضاء في مجلس الأمن الاستمرار في مواقفها الحازمة في إلزام العراق الإفراج عن أسرى الكويت». وحين دعا الشيخ زايد لرفع الحصار عن العراق، بثت إذاعة الكويت تعليقًا جاء فيه «ان ما أحدثه الغزو العراقي للكويت لا يمكن ان يُنسى. فالجرح الناجم عن تلك الطعنة الغادرة لا يزال ينزف...». وفي آذار ١٩٩٧، قال رئيس مجلس الأمة الكويتي أحمد السعدون خلال افتتاحه اجتماع الأمناء العامين لمجالس «الشورى الوطني والامة» في دول مجلس التعاون الخليجي، ان نظام الرئيس العراقي صدام حسين «لا يزال سائرًا في إصراره على عدم الامتثال التام لتنفيذ كل قرارات مجلس الأمن ذات الصلة بهذا العدوان مما يستدعي استمرار ممارسة الضغط عليه بكل السبل حتى يعدل عن صلفه ويفيء إلى صوت الحق». لكن هذا الموقف المتشدّد للكويت بدأ يعرف بعض الليونة منذ نيسان ١٩٩٨ عندما حضر مندوب الكويت للمرة الاولى اجتماعًا للمجموعة العربية لدى ا لامم المتحدة طلب العراق عقده، وكان خاليًا من أي تشنج، وجاء بعد توقيع العراق مع كوفي أنان «مذكرة التفاهم». (للمزيد، راجع «الخليج العربي»، ج٨، ص١٠٦-١٢٩).

الاحزاب

في العهد الملكي ١٩٢١-١٩٥٨

١- الحزب الوطني العراقي:

أول الاحزاب العراقية بالمفهوم الحديث للحزب. أسس رسميًا في آب ١٩٢٢ برئاسة محمد جعفر أبو التمن. وتعود جذوره إلى ١٩٢١ عندما عقد مجموعة من الزعماء السياسيين العراقيين اجتماعات لمناقشة الموقف في البلاد قبيل تتويج فيصل بن الحسين ملكًا على العراق. ويبدو ان معارضة الانكليز، وفيصل في بادىء الأمر، حالت دون الاجماع على تأليف الحزب، ولكن بعض السياسيين أصرّ على المضي في تأليف الحزب ولو بصورة سرية، فألفوا جمعيتي «الحزب الوطني العراقي» و«جمعية النهضة العراقية» للتعبير عن آراء الحركة الوطنية ومعارضة التسلط البريطاني. وقد اضطرت الحكومة، بعد مماطلة، إلى السماح للجمعيتين بالعمل العلني. إلا ان السلطات البريطانية اغتنمت فرصة تقديمهما عريضة مشتركة لمناسبة مرور عام على تتويج الملك فيصل في ٢٢ آب ١٩٢٢ لفتتا فيها النظر إلى ضرورة وقف التدخل البريطاني في الامور الداخلية للعراق وإجراء انتخابات حرة، للتنكيل بالجمعيتين المذكورتين وتعطيل جريدتي «المفيد» و«الرافدين» وإبعاد مديريهما وإرسال طائرات للاغارة على بيوت القبائل المؤيدة لهما والايعاز لنجل عبد الرحمن النقيب بتأسيس «الحزب الحر العراقي» لمناوأتهما. وقد استعاد الحزب الوطني العراقي انفاسه في ١٩٣٠ واتفق مع حزب الإخاء الوطني على التآلف للعمل ضد وزارة نوري السعيد وسياستها. وانفرط عقد هذا التحالف في ١٩٣٣ بعد تولي رشيد عالي الكيلاني رئاسة الوزارة. وفي ١٩٣٦، قام جعفر أبو التمن وكامل الجادرجي بتأسيس جمعية الاصلاح الشعبي.

٢- الحزب الحر العراقي:

أسسه، في ايلول ١٩٢٢، محمود النقيب بايعاز من الانكليز ولدعم وزارة أبيه عبد الرحمن النقيب بعد أن اقدمت السلطات البريطانية على قمع العناصر الوطنية في الحزب الوطني العراقي وجمعية النهضة العراقية. وسرعان ما ا ستنفد الانكليز الاهداف المتوخاة من تأليف هذا التجمع بعد عقد المعاهدة البريطانية-العراقية في ١٠ تشرين الاول ١٩٢٢ والمتضمنة بنود الانتداب البريطاني على العراق.

وبعد استقالة الوزارة النقيبية في تشرين الثاني ١٩٢٢، اضمحل الحزب تلقائيًا، أي انه لم يعش لأكثر من شهرين تمّ خلالهما عقد المعاهدة وضرب الحزب الوطني العراقي.

٣- حزب الأمة:

تجمع ليبرالي عراقي أسسه ناجي السويدي ومحمد جعفر الشبيبي في آب ١٩٢٤. اقتصرت مطالبه على الاسراع في إنجاز الدستور وانتهاج الحياة النيابية في السياسة، ولم يكن له كبير اثر في مجريات الامور.

٤- حزب الاستقلال الوطني:

تشكل في ايلول ١٩٢٤ برئاسة عبد الله العمري، ومركزه الموصل، وهدف للدفاع عن المصالح الوطنية في قضية الحدود والنزاع على ولاية الموصل بين العراق وتركيا. وقد بذل هذا الحزب جهودًا كبيرة للدفاع عن عروبة الموصل، وأصدر في ١٩٢٥ جريدة «العهد».

٥- حزب التقدم:

أول تجمع نيابي عراقي موال للانكليز، أسسه عبد المحسن السعدون في صيف ١٩٢٥. وبالرغم من انتماء أكثرية اعضاء المجلس النيابي إلى صفوفه. فإن مرشح المعارضة رشيد عالي الكيلاني لرئاسة المجلس فاز على مرشح التقدم حكمت سليمان، الأمر الذي اضطر السعدون إلى تقديم استقالته. وقد ساند السعدون وزارة جعفر العسكري الذي خلفه. وعندما دعي السعدون إلى تأليف الوزارة للمرة الثالثة في مطلع ١٩٢٨، استصدر إرادة ملكية لحل المجلس النيابي منتقدًا الاحزاب الموجودة في المجلس. وعندما تولى نوري السعيد الوزارة في ١٩٣٠ شكل حزبًا له وحل المجلس النيابي، فاضمحل حزب التقدم وبرزت تجمعات سياسية جديدة.

٦- حزب الشعب العراقي:

حزب يساري تم تشكيله في نيسان ١٩٤٦ برئاسة عزيز شريف، واقدمت على حله وزارة صالح جبر في ايلول ١٩٤٧.

٧- حزب العهد العراقي:

ألفه نوري السعيد على اثر توليه رئاسة الوزارة في ١٩٣٠ وعقده للمعاهدة مع بريطانيا في العام نفسه واقدامه على حل المجلس النيابي بقصد السيطرة على المجلس النيابي

الجديد وتمرير المعاهدة الجديدة. وقد اضمحل هذا الحزب بعد استقالته في ٢٧ تشرين الاول ١٩٣٢ وتولي ناجي شوكت رئاسة وزارة انتقالية حلّت المجلس النيابي.

٨- حزب الإخاء الوطني:

أسسه ياسين الهاشمي وناجي السويدي ورشيد عالي الكيلاني في ٢٥ تشرين الثاني ١٩٣٠، وحله ياسين الهاشمي نفسه عندما تولى الحكم، كما حل بقية الاحزاب في آذار ١٩٣٥. تضمن المنهاج السياسي لهذا الحزب العمل على تشجيع الصناعة الوطنية.

٩- جمعية الاصلاح الشعبي:

انبثقت، في تشرين الثاني ١٩٣٦، عن جماعة الأهالي ممثلة بجعفر أبو التمن وكامل الجادرجي، وكانت ذات ميول وطنية. ايدت التقارب بين البلاد العربية وتقوية الصلات مع الهيئات الشعبية فيها، وإفساح المجال لإبداء الأراء والحريات الديمقراطية التقدمية، وإلغاء القوانين الزراعية الجائرة وقيام الحكومة بالمشاريع الصناعية. ويبدو ان اللهجة التقدمية التي تميزت بها هذه الجمعية دفعت الطبقة السياسية الحاكمة للقضاء عليها بسرعة.

١٠- أحزاب نيسان ١٩٤٦: هي أربعة أحزاب أعطيت ترخيصًا في نيسان ١٩٤٦:

- حزب الاتحاد الوطني: سياسي يساري، ضم عبد الفتاح ابراهيم الذي ترأس لجنته السياسية، وناظم الزهاوي وجميل كبه وناصر الكيلاني وعبد الاله مسعود ومحمد صالح بحر العلوم ومحمد مهدي الجواهري وكاظم الدجيلي. وقد أصدر جريدة ناطقة باسمه هي «السياسة» ثم «صوت السياسة»، إلا ان وزارة صالح جبر سحبت ترخيصه في ٢٧ ايلول ١٩٤٧.

- حزب الشعب العراقي: حزب يساري، تزعمه عزيز شريف. حلّته وزارة صالح جبر في ايلول ١٩٤٧.

- حزب الاحرار: تجمع يميني، هيئته المؤسسة: داخل الشعلان وعلي ممتاز وعبد الوهاب محمود. أما الشخصية الفعلية المحركة له فكان سعد صالح. أصدر جريدة ناطقة باسمه هي «صوت الاحرار». سحب ترخيصه في ١٩٤٨، وأغلقت جريدته في العام التالي.

- حزب الاستقلال: رئيسه محمد مهدي كبه. وجريدته «لواء الاستقلال»، وألغي امتيازها في ١٩٥٤. عارض النظام الملكي، ونادى بالوحدة العربية والدفاع عن فلسطين وتقوية الجيش وبالاصلاحات الاجتماعية والقضائية والتربوية. شارك بشخص رئيسه في حكومة محمد الصدر التي تشكلت بعد وثبة كانون الثاني ١٩٤٨. لجأ إلى العمل السري وحاول الاشتراك في تأليف حزب سياسي باسم المؤتمر الوطني، وذلك بالتعاون مع الحزب الوطني الديمقراطي ولكنه لم ينجح في ذلك. انضم في ١٩٥٦ للجبهة الوطنية وكانت له مواقف وطنية وقومية مشهودة. وعلى الرغم من نظرته الاصلاحية لم يستطع الحزب ان يتطور مع الاحداث في ما يتعلق بالمفاهيم الاجتماعية الثورية، ومع بداية توسع حزب البعث العربي الاشتراكي في العراق في النصف الاول من الخمسينات أخذ عنصر الشباب المتحمس في صفوفه يتجه نحو حزب البعث بحيث أصبح حزب الاستقلال مجرد تجمع سياسي لوجوه سياسية قومية أدركها التقاعد في أواخر الخمسينات والستينات.

١١- حزب الأمة الاشتراكي:

حزب يميني، تأسس في ١٩٥١ برئاسة صالح جبر وضمّ العديد من الاقطاعيين والرأسماليين الذين انشقوا عن نوري السعيد وحزبه، حزب الاتحاد الدستوري، دون ان يخالفوه الموالاة للغرب وللنظام الملكي القائم. وكان لحزب الامة الاشتراكي جريدة ناطقة باسمه تدعى «الامة». ألغي هذا الحزب بعد انتفاضة ١٩٥٢ التي وقعت عندما أعلنت وزارة نور الدين محمود الاحكام العرفية.

١٢- حزب الاتحاد الدستوري:

حزب يميني أسسه وترأسه نوري السعيد في ١٩٥١. ضم في صفوفه العناصر الاقطاعية والرأسمالية من أنصار نوري السعيد، أمثال عبد الوهاب مرجان وخليل كنه وضياء جعفر وجميل الأورفلي. وأصدر الحزب جريدة «الاتحاد الدستوري» الناطقة باسمه، وأخرى في الموصل باسم «الدستور». ألغي الحزب بعد انتفاضة ١٩٥٢، وتسلم نور الدين محمود رئيس اركان الجيش رئاسة الوزارة وإقدامه على إلغاء الاحزاب وإعلان الاحكام العرفية.

١٣- الجبهة الشعبية المتحدة:

تكتل سياسي عراقي معارض تكون في ١٩٥١ من مجموعات من الجبهة الدستورية البرلمانية وجبهة المعارضة البرلمانية والحزب الوطني الديمقراطي وبعض أعضاء حزب الاحرار برئاسة طه الهاشمي. وكانت أهداف التكتل

إبعاد العراق عن التكتلات الدولية، أي انتهاج سياسة الحياد الايجابي، وتحقيق نظام ديمقراطي دستوري والتعاون العربي واستكمال سيادة العراق واستقلاله. وأصدر التكتل جريدة «الجبهة الشعبية المتحدة» وجريدة «الدفاع». وتعرضت الجبهة للاهتزاز بسبب استيزار بعض قادتها وأعلن رئيس الهيئة الادارية محمد رضا الشبيبي، في صيف ١٩٥٤، نهاية حياة الجبهة لإتاحة المجال لأعضائها بالمشاركة بالانتخابات. وعندما شكل مجلس الإعمار عين طه الهاشمي رئيس الجبهة رئيسًا له.

١٤- جبهة الاتحاد الوطني:

جبهة وطنية تشكلت من الاحزاب المناهضة للحكم الملكي والاحلاف العسكرية في ١٩٥٦. ضمت حزب البعث والحزب الشيوعي وحزب الاستقلال والحزب الوطني الديمقراطي. وجاء قيام الجبهة تجاوبًا مع تصاعد التيارات الجماهيرية التحررية والقومية في سورية ومصر والتي وجدت ترجمة لها في العراق إبان المظاهرات التي اندلعت في بغداد تأييدًا لتأميم قناة السويس واستنكارًا للعدوان الثلاثي على مصر.

ألفت الجبهة لجنة عليا وفروعًا في مختلف انحاء العراق وأصدرت بيانها الأول في ٩ آذار ١٩٥٧ الذي لخص مطالب الجبهة واهدافها بما يلي:

«- معارضة الجبهة للحكم الرجعي السعيدي (نوري السعيد) وحل المجلس النيابي المزيف.

- معارضة حلف بغداد والانسجام مع سياسة الاقطار العربية المتحررة والتنسيق معها.

- مقاومة النفوذ الاستعماري وانتهاج سياسة عربية مستقلة وتبني سياسة الحياد الايجابي.

- اطلاق الحريات الديمقراطية.

- اطلاق سراح السجناء والمعتقلين والموقوفين السياسيين وإلغاء الادارة العرفية للبلاد» (موسوعة السياسة، ج٢، ط١، ١٩٨١، ص٣٠).

وقد مهّد قيام الجبهة ونشاطها لاندلاع ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨. وبعد نجاح هذه الثورة، انضم إلى الجبهة الحزب الديمقراطي الكردستاني.

١٥- تنظيم الضباط الاحرار: راجع باب «معالم تاريخية».

حزب البعث العربي الاشتراكي: راجع «سورية»، ج١٠، والنبذة التاريخية.

الحزب الشيوعي العراقي: نشأت الحركة الشيوعية في العراق في ١٩٣٤، وكانت متأخرة بالنسبة إلى مثيلاتها في البلدان العربية الأخرى (١٩٢٠ في مصر، ١٩٢٤ في لبنان وسورية، و١٩١٩ في فلسطين).

ففي ٣١ آذار ١٩٣٤ اجتمع ممثلون عن «الحلقات الماركسية» في بغداد وأعلنوا عن تشكيل «لجنة مكافحة الاستعمار والاستغلال»، وانتخبوا عاصم فليح أمينًا عامًا لها. وفي ١٩٣٥، غيّرت اللجنة إسمها فأصبحت «الحزب الشيوعي العراقي»، وأصدرت جريدة سرية (أول جريدة سرية في العراق) باسم «كفاح الشعب». وسرعان ما انكشف أمر الحزب، فوجهت السلطات إليه في اواخر ١٩٣٥ ضربة أليمة، إذ اعتقلت أمينه العام وعددًا من كوادره، وعطلت صحيفته، وفرّ كثيرون إلى خارج البلاد (ايران، سورية، لبنان، فرنسا... حيث انخرط بعضهم في العمل الحزبي الشيوعي داخل هذه البلدان)، منهم يوسف سلمان (الملقب «فهد») الذي كان أحد أعضاء اللجنة المركزية للحزب يوم تأسيسه، والذي غادر إلى سورية ولبنان حيث اقام علاقات وثيقة مع القيادة الشيوعية فيهما التي كانت تشرف آنذاك على شؤون الحزب الشيوعي العراقي. ثم سافر إلى فرنسا حيث نشط في صفوف الحزب الشيوعي الفرنسي الذي أوفده إلى موسكو للدراسة في «الجامعة الشيوعية لكادحي الشرق» التابعة للكومنترن فتلقى فيها مبادىء الماركسية-اللينينية.

في ١٩٣٨، عاد يوسف سلمان (فهد) إلى بغداد حيث عمل على إعادة تأسيس الحزب الشيوعي العراقي فشكل لجنة مركزية جديدة غاب عنها معظم اعضاء اللجنة السابقة، وتميزت بغلبة الشيوعيين المتحدرين من الاقليات الدينية (أشوريين ويهود) وهيمنة المثقفين وغياب العناصر البروليتارية. ولم يتبنّ الحزب الجديد أي نظام داخلي عند تأسيسه إلى ان تصبح الظروف السياسية أكثر ملاءمة، ما أدّى إلى انشقاقات عديدة، أولها انشقاق ذي النون أيوب ويعقوب كوهين؛ ثم انشقاق عبد الله مسعود القريني (١٩٤٢) الذي تمكن من عقد مؤتمر تمّ فيه طرد فهد (كان يحضر مؤتمر الكومنترن في موسكو) وجماعته؛ ثم انشقاق داود صايغ وتأسيسه «رابطة الشيوعيين العراقيين» وصحيفة «العمل» التي شنّ من خلالها حملة عنيفة ضد قيادة فهد. لكن مع اعتقال الصايغ في ١٩٤٧، انهارت هذه الرابطة وانضم اعضاؤها إلى قيادة فهد. هذا إضافة إلى عدد من مجموعات شيوعية صغيرة، بينها مَن سيطر عليها يهود عراقيون. لكن الحزب الشيوعي العراقي بزعامة فهد

(يوسف سلمان) كان الأقوى بسبب شخصية فهد نفسه من جهة والتأييد المعنوي والمادي الذي كانت تمنحه اياه الحركة الشيوعية العالمية. فقد نجح، بين ١٩٤١ و١٩٤٧ في تحويل الحزب إلى جهاز فعال ومنظمة شعبية.

إلا ان أول أزمة فكرية وسياسية حقيقية واجهت الحزب كانت في مطلع الحرب العالمية الثانية. ففي ١٩٤١، عندما اندلعت في العراق ثورة رشيد عالي الكيلاني التي كانت حركة وطنية عراقية وقومية عربية موجهة أساسًا ضد الاستعمار البريطاني، والتي تحالفت تكتيكيًا مع دول المحور التي كانت مرتبطة آنذاك مع الاتحاد السوفياتي بمعاهدة عدم اعتداء، وقف الشيوعيون العراقيون في البداية موقف الحياد من هذه الثورة، وعندما نشبت معارك بين الانكليز والثورة (ايار ١٩٤١) وقف الشيوعيون إلى جانبها، ولكن بتحفظ، إذ طلبوا من الكيلاني توقيف الحملات ضد اليهود وعدم الانجراف في تأييد دول المحور وعدم طلب قوات المانية مقابل تحسين العلاقات مع الاتحاد السوفياتي. وقد ردّ الكيلاني باطلاق سراح بعض الشيوعيين العراقيين وإقامة علاقات دبلوماسية مع موسكو أملاً في تلقي المساعدة العسكرية ضد الانكليز. وفي ١٢ ايار ١٩٤١، اعترف الاتحاد السوفياتي بالنظام الثوري الجديد في العراق (أي بحكومة الكيلاني التي كانت تقاتل الجيش الانكليزي طيلة شهر ايار). إلا ان الغزو الالماني للاتحاد السوفياتي وانهيار الثورة تحت ضربات الانكليز غيّر المعطيات السياسية في البلاد. وإزاء ذلك واجه الحزب الشيوعي العراقي انتقادات من أعضائه اليهود لتأييده حركة الكيلاني التي وصفها زورًا بأنها «حركة نازية». وفي السنين اللاحقة (١٩٤٣-١٩٤٤)، أعلن الحزب الشيوعي العراقي ان تأييده لحركة الكيلاني كانت «غلطة سياسية تكتيكية».

في فترة ١٩٤١-١٩٤٧، عرف الحزب الشيوعي العراقي نموًا ملحوظًا، وتعود أسباب ذلك إلى ان قيادته كانت عربية الطابع (لم تكن قد سيطرت على قيادته بعد العناصر الكردية واليهودية)، وتغلب عليها البورجوازية الصغيرة، وإلى ان السلطات البريطانية دفعت السلطات الحكومية إلى غض الطرف عن نشاطاته للتأييد الذي كان يبديه لدول الحلفاء في حربها ضد النازية، إضافة إلى انه لم يصل في معارضته للحكومة العراقية إلى حد المطالبة بالغاء المعاهدة البريطانية-العراقية التي كانت معظم القوى الوطنية تطالب بنقضها.

وفي كانون الثاني ١٩٤٧، قبضت السلطات (وزارة نوري السعيد) على فهد ومعاونيه الرئيسيين واتهمتهم بتلقي مساعدات مادية من قوى اجنبية والاتصال بها (الاتحاد السوفياتي، حزب توده الايراني والحزب الشيوعي السوري)، وبمحاولة إثارة الشغب والتغلغل إلى صفوف الجيش. واستمر فهد يقود الحزب من زنزانته من خلال يهودا الصديق ومالك سيف اللذين كانا يتنازعان قيادة الحزب في غياب فهد. وقد تحالف الحزب في هذا الوقت مع الحزب الديمقراطي الكردستاني وحزب الشعب والوطنيين الديمقراطيين، وشارك في وثبة ١٩٤٨ التي زادت في توسيع قاعدته.

إلا ان كل هذه المكاسب بدت، في ١٩٤٨، وكأنها تبخرت بسبب موقف الحزب المؤيد لتقسيم فلسطين. وقبض على عدد كبير من قادته، وأعيدت محاكمة فهد ورفاقه وحكم عليهم بالاعدام، ونفذ الحكم في ١٤ و١٥ شباط ١٩٤٩، بفهد وزكي باسيم ومحمد الشبيبي.

في مطلع الخمسينات، أعاد الحزب تشكيل خلاياه بقيادة بهاء الدين النوري (كردي) الذي وجه كل جهود الحزب نحو المنطقة الشمالية (كردستان العراق) والبصرة. في ١٩٥٣، قُبض عليه، فآلت القيادة إلى عبد الكريم الداود (كردي) الذي استند إلى دعم حامد عثمان (كردي ايضًا) الذي تميزت قيادته بالتهور والدعوة لاتباع اسلوب الاضرابات العامة والكفاح المسلح، متأثرًا بذلك بفكر ماو تسي تونغ، وذلك في وقت لم يكن الحزب قادرًا على ذلك، لا بل إنه عجز حتى عن الدخول في تحالفات جدية مع القوى الوطنية والقومية والديمقراطية لإفشال حلف بغداد. وقد تميزت فترة ١٩٤٩-١٩٥٥ بارتفاع دور الأكراد في الحزب، إذ كان معظم القادة من الأكراد، كما شكلوا ٣١،٣٪ من اعضاء اللجان المركزية.

في حزيران ١٩٥٥، انتقلت قيادة الحزب من حامد عثمان إلى حسين الرضي (سلام عادل). وقد أدّى هذا التغيير إلى وضع حد لهيمنة الأكراد على الحزب. فتحالف مع القوميين العرب والقوى الوطنية، وذلك تطبيقًا للخط السوفياتي الجديد الذي دعا إلى الانفتاح على الحركات التحررية والوطنية في العالم الثالث. وابتداء من ١٩٥٦، وعلى أثر العدوان الثلاثي على مصر وموقف الاتحاد السوفياتي المؤيد بقوة لمصر، أخذت الاحزاب الشيوعية العربية تستعيد بعض قوتها التي كانت قد خسرتها بسبب موقفها من القضية الفلسطينية.

في شباط ١٩٥٧، نشأت جبهة اتحاد وطني، كان الشيوعيون اعضاء فيها إلى جانب البعثيين وحزب

الاستقلال والحزب الوطني الديمقراطي، رفعت شعارات إسقاط نوري السعيد وانسحاب العراق من حلف بغداد والتزام سياسة الحياد الايجابي وإطلاق الحريات. وانفتحت هذه الجبهة على حركة الضباط الاحرار ونسّقت معهم.

تعرض النظام الجديد، الذي قام على أساس ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ ومنذ بزوغه، إلى تناقضات داخلية كان أبرزها التناقض بين التيار القومي الوحدوي الذي نادى به آنذاك عبد السلام عارف ودفع باتجاهه حزب البعث والقوى القومية، وبين التيار المناهض للوحدة مع الجمهورية العربية المتحدة ومثله عبد الكريم قاسم مدعومًا من الحزب الشيوعي العراقي وبعض الضباط الأكراد والتركمان. وكان كلما اشتد التناقض بين قاسم والتيار الوحدوي كان الشيوعيون يدعمون قاسم. فكانوا بذلك يعملون، موضوعيًا وربما على غفلة منهم، على تقوية اتجاهه للاستبداد بالحكم.

ولم تمر ايام قليلة على نجاح الثورة، أي في اوائل آب ١٩٥٨، حتى سمح قاسم بإنشاء فرق مقاومة شعبية سيطر عليها الشيوعيون، وافرج عن الشيوعيين المعتقلين وجعلهم يسيطرون على النقابات وسلّمهم مراكز حساسة. ورافق كل ذلك ازدياد في التوتر بين قاسم والجمهورية العربية المتحدة ومؤيديها من قوى قومية وحدوية. وقد بلغ هذا التوتر ذروته في انتفاضة الموصل في آذار ١٩٥٩ التي قام بها الضابط القومي عبد الوهاب الشواف (راجع باب الزعماء). وقد اعتمد قاسم في القضاء على هذه الانتفاضة على الشيوعيين العراقيين بشكل أساسي. فعمد هؤلاء إلى ارتكاب مجازر كبيرة ضد معارضيهم ذهب ضحيتها مئات القتلى وتركت أثرها البالغ في مستقبل العلاقات بين القوى الشيوعية والقومية في البلاد.

بدءًا من ايار ١٩٥٩، أظهر قاسم انفتاحًا على القوى القومية المعادية للشيوعيين، وعمد إلى تقليص نفوذ هؤلاء في الجيش، وأبقى على حقائب وزارية ثانوية في يدهم. ثم وقعت مجازر كركوك (١٤-١٦ تموز ١٩٥٩) التي تورط الشيوعيون فيها، فاعتقل قاسم العديد منهم وحدّ من نشاط النقابات التي يشرفون عليها. ووجد الشيوعيون أنفسهم أمام مأزق شعبي وإدانة وطنية وتاريخية خطيرة. إذ ظهروا مسؤولين عن مجزرتين كبيرتين تفصل بينهما شهور قليلة (الموصل في آذار، وكركوك في تموز ١٩٥٩؛ ومجازر كركوك وقعت ضد التركمان الذين ارادوا الاحتفال بالذكرى السنوية الاولى للثورة بموكب منفرد وخاص بهم، فتعرض موكبهم لاطلاق نار ثم لأعمال تصفية بحقهم على مدى يومين كاملين. ومن التبريرات التي ساقها الشيوعيون لتورطهم في مجازر كركوك، ما قاله سكرتيرهم العام عزيز محمد: «أنا واثق بأن أي باحث جدي ونزيه سينصفنا إذا بحث هذا الحدث بتجرد عن الدوافع السياسية التي دفعت اوساطًا سياسية عدة من شركات النفط إلى عبد الكريم قاسم، مرورًا بخصومه من القوميين وجهاز الدعاية الضخم ايام المرحوم عبد الناصر، الذين رأوا في هذه الاحداث المفجعة واحداث الموصل ومساهمتنا في قمع مؤامرة الشواف وسيلة تصفية حسابات مع حزبنا»، «الوسط»، العدد ٢٨٨، تاريخ ٤ آب ١٩٩٧، ص٣٣).

أخذت العزلة تحيط بالحزب الشيوعي العراقي فبدأت مراكزه تتعرض للهجمات وقياديوه للتصفية على يد القوى المعارضة للنظام. وربما لهذا السبب زاد الحزب الشيوعي من ارتباطه بنظام عبد الكريم قاسم بالرغم من ابتعاده هو عنه. فبدا الشيوعيون العراقيون وكأنهم ربطوا مصيرهم بمصيره. وهكذا فعندما قام حزب البعث العربي الاشتراكي، في شباط ١٩٦٣، بالقضاء على حكم قاسم، كان الشيوعيون أول وآخر من دافع عنه بالسلاح فعرّضوا أنفسهم للملاحقة والتصفية ووجهت إليهم ضربة قاضية. فقد اعتقل زعيمهم (حسين الرضي) ومات في سجنه، كما وجهت ضربات متلاحقة إلى الكادرات الرئيسية وإلى عدد كبير من الاعضاء العاديين (بحيث شكلت هذه الضربات «المجزرة» الثالثة، لكن هذه المرة بحق الشيوعيين) اصبح الحزب الشيوعي على أثرها في وضع شبيه بالوضع الذي كان عليه بعد إعدام فهد في ١٩٤٩. وانقسم الحزب إلى «الحزب الشيوعي-اللجنة المركزية» (وهو الأساسي، وقاده بهاء الدين النوري وعامر عبد الله) وإلى «الحزب الشيوعي-القيادة المركزية» (بقيادة عزيز الحاج)، وكلاهما دعا إلى المقاومة المسلحة ضد النظام، مما عرّض الشيوعيين إلى مزيد من التصفيات. فانكفأت فلولهم من بغداد إلى المناطق الكردية حيث اقام حزبهم علاقات تنظيمية وعسكرية مع المتمردين الأكراد. وكان من نتيجة ذلك أن هيمن الأكراد على قيادة الحزب خاصة مع وصول عزيز محمد (راجع باب الزعماء) إلى قيادة الحزب في ١٩٦٤، وبقي في هذا المنصب حتى ١٩٩٣.

في ظل الحكم العارفي، أعاد الشيوعيون تنظيم أنفسهم، وأخذوا يفكرون مجددًا في قلب نظام الحكم، وطرحوا افكارًا يسارية متطرفة (خاصة الجناح الذي كان يتزعمه عزيز الحاج علي حيدر) بالرغم من ضغط الاتحاد السوفياتي عليهم لانتهاج سياسة متروية. وفي ايلول

١٩٦٧، وآثار هزيمة حزيران ما زالت تتفاعل شعبيًا، عمد عزيز الحاج إلى الانفصال رسميًا عن الحزب معلنًا حياده في الصراع الايديولوجي بين الصين والاتحاد السوفياتي، وداعيًا إلى تسليح الجماهير ومنددًا بمواقف الاتحاد السوفياتي والاحزاب الشيوعية العربية من القضية الفلسطينية.

وبعد أقل من شهرين من استلام البعث للسلطة في العراق (ثورة تموز ١٩٦٨)، أي في ايلول ١٩٦٨، تمّ الافراج عن جميع المعتقلين السياسيين. فبادر جناح عزيز الحاج إلى رفض التعاون مع البعث وأعلن العصيان المسلح، إلا ان السلطات ألقت القبض عليه (شباط ١٩٦٩)، فأعلن انتهاء حركته وانضمامه إلى تأييد الحكم. أما الجناح الآخر (اللجنة المركزية، بقيادة عزيز محمد) فقد أيّد الحكم الجديد بتحفظ، ثم أخذ يتقرب منه كلما كان الحكم يدعم علاقاته بالدول الاشتراكية. وفي ١٤ ايار ١٩٧٢، دخل الشيوعيون الحكومة بشخص مكرم الطالباني وعامر عبد الله. وفي ١٧ تموز ١٩٧٣، وقّع البعث والشيوعي ميثاق عمل وطني نصّ على إنشاء جبهة وطنية وقومية تقدمية تضمهما إلى جانب الحزب الديمقراطي الكردستاني في إطار جبهوي واحد. ونتيجة لذلك سُمح للحزب الشيوعي باصدار جريدة ناطقة باسمه هي «طريق الشعب» طبع منها في ١٩٧٥ نحو ٦،٧ مليون نسخة. وقد اعترف الحزب الشيوعي العراقي، بانضمامه إلى الجبهة، بحزب البعث العربي الاشتراكي كالحزب القائد، إذ جاء في ميثاق العمل الوطني ان حزب البعث «يحتل موقعًا متميزًا في قيادة الجبهة وفي هيئاتها ويقود السلطة السياسية في الدولة كما يقود مؤسساتها الدستورية». كما قبل الشيوعيون بعدم العمل داخل الجيش تحت طائلة الاعدام. وبالفعل اعتقلت السلطات، في ١٩٧٤، مجموعة من العسكريين الشيوعيين وأصدقائهم.

وفي ٤-٦ ايار ١٩٧٦، عقد الحزب الشيوعي مؤتمره الثالث في بغداد وأعاد انتخاب عزيز محمد سكرتيرًا أولاً للجنة المركزية. وقد تبنى المؤتمر تقريرًا يشتمل على أبرز المقولات الشيوعية العالمية التي كانت سائدة وقتذاك لدى معظم الاحزاب الشيوعية العربية والاحزاب الشيوعية في كثير من البلدان والتي تعتبر موسكو «قاعدة الاشتراكية في العالم»، وأدان الخط الصيني ومقولة الشيوعية الاوروبية. واتخذ المؤتمر موقفًا مؤيدًا لقرارات مجلس الأمن ومؤتمر جنيف، وهو موقف متعارض مع موقف حزب البعث الحاكم الرافض لكل هذه القرارات والحلول.

ولكن العلاقة بين الحكم والشيوعيين سرعان ما ساءت. فتم، في ١٩٧٨، تنفيذ حكم الاعدام بعدد من العسكريين الشيوعيين المعتقلين. وجاء ذلك في نطاق حملة ضد الحزب طالت الآلاف من اعضائه. وكانت هذه الحملة أشد تأثيرًا في المناطق العربية منها في المناطق الكردية حيث أفلح عدد كبير من الشيوعيين في الالتحاق بالجبل. ومع ذلك استمر الحزب الشيوعي عضوًا في الجبهة إلى ما بعد ١٩٧٨، ذلك «اننا تعاملنا مع هذه القضية بحذر شديد. ولم نحاول خلق ضجة لئلا نستفزهم خوفًا من ان يؤدي الاستفزاز إلى مزيد من تنفيذ احكام الاعدام برفاقنا (...) احتفظنا ببعض المظاهر كغطاء للتراجع. اتخذ الحزب قرارًا بأن أبقى في الخارج وراحت العناصر القيادية تغادر تدريجًا، إلى بيروت وغيرها (...) في النهاية لم يكن هناك خيار غير الافتراق. عقدنا اجتماعًا في ا الخارج في تموز ١٩٧٩ وخرجنا بشعار إنهاء الدكتاتورية (...) كيف نستطيع ان نقبل بأن يمرروا جنازات الشيوعيين أمام مقرات الحزب ويتظاهروا بالعلاقات مع قياديه؟» (عزيز محمد، «الوسط»، العدد ٢٨٨، تاريخ ٤ آب ١٩٩٧، ص٢٩-٣٠).

وعن وضع الحزب الشيوعي العراقي ومختلف مواقفه بدءًا من اندلاع الحرب الايرانية-العراقية، وعلى لسان سكرتيره العام عزيز محمد («الوسط»، العدد ٢٨٩، تاريخ ١١ آب ١٩٩٧، ص٣٥-٣٧):

إزاء الحرب مع ايران:

«كانت لدينا بعض المقرات والقواعد في جبال كردستان، إضافة إلى وجودنا في المدن العراقية باعداد قليلة. هذه المقرات والقواعد كانت تشكل بدايات العمل الانصاري المسلح. وكانت هناك اعداد غير قليلة من رفاقنا ذهبوا إلى اليمن الديمقراطية وسورية ولبنان بالتعاون مع المقاومة الفلسطينية وبلدان اشتراكية (...) عارضنا الحرب العراقية-الايرانية بشدة منذ البداية، وقلنا إنها أعلنت نيابة عن الامبريالية... وطالبنا بوقفها فورًا وانسحاب القوات العراقية من الاراضي الايرانية. وبقينا نطالب بوقفها طيلة المراحل اللاحقة، عندما انتقلت معاركها إلى الاراضي العراقية (وعن تعاطي مسلحي الحزب في الشمال مع القوات الايرانية، أنكر عزيز محمد ذلك وقال) أبدًا، وبالعكس فقد صدرت تعليمات مشدّدة لمقاتلينا بتجنب أي تعاطي مع القوات الايرانية».

إزاء حرب الخليج الثانية (غزو الكويت):

«موقفنا يشرّف حزبنا. لقد طالب عبد الكريم قاسم بالكويت وأصدر قرارًا يجعلها قضاء من أقضية

البصرة. وقفنا ضد هذا الاتجاه وحذرنا قاسم من هذه المغامرة. وعندما غزا صدام الكويت أدنا هذا الغزو في يومه الاول وتضامنا مع الشعب الكويتي وطالبنا بانسحاب القوات العراقية وحذرنا من الكارثة التي سيجلبها لشعبنا وللمنطقة».

إزاء العلاقة مع سورية:

«كنا على علاقات معها حتى حين كنا في الجبهة مع الحزب الحاكم في العراق. وكنا نرفض ادعاءات النظام ضد سورية، ونؤكد أهمية التحالف الاستراتيجي معها. سورية احتضنت المعارضة العراقية بكل فصائلها... واستقبلت الألوف من أبناء شعبنا. وقبل انتقال حزبنا إلى المعارضة جرى نقاش في موضوع الميثاق الوحدوي مع سورية عام ١٩٧٨ في قيادة الجبهة، قلنا فيه: إذا كانت الوحدة التي ندعو لها نحن متعذرة لأسباب ما، فلماذا لا نبلور صيغة أقل من الوحدة، وإذا ما نجحت نطورها لاحقًا. فردت قيادة النظام يومذاك: إما غرام وهيام وإما سباب واحتراب».

إزاء مشاركة الشيوعيين في انتفاضة ما بعد حرب الخليج الثانية:

«نعم، شارك الشيوعيون في كل اماكن وجودهم... صدّام سمّى محافظة الانبار التي تضم الرمادي والفلوجة وثلاث محافظات أخرى بالمحافظات البيضاء. هذا اعتراف بان الانتفاضة عمت المحافظات الاربع عشرة الأخرى كلها، وحتى محافظة الأنبار لم تبق بيضاء في نظري فقد شهدت غضبة شديدة إثر إعدام عدد من ابنائها الضباط (...) كان الشيوعيون موجودين في المقرات المشتركة للمنتفضين مع التنظيمات الأخرى وفي مقرات خاصة بهم. أما في كردستان فكان دور الشيوعيين واضحًا جدًا».

إزاء ما يطرح من مشروع تقسيمي للعراق إلى ثلاث فيدراليات كردية وسنية وشيعية:

«نحن لسنا مع اية صيغة فدرالية تعتمد على ارضية طائفية. الشعب الكردي شعب متميز، وله خصوصيته وموضوعه مختلف. ونحن نعتقد، وهذا حصيلة التجربة التاريخية، انه كلما حصل الشعب الكردي على حقوقه القومية في ظل الديمقراطية انجذب إلى المركز أكثر».

إزاء وضع الحزب الشيوعي العراقي وسط انهيار المنظومة الاشتراكية في العالم:

«ما من شك في ان التراجعات التي حصلت في الحركة الشيوعية العالمية، بانهيار المنظومة الاشتراكية وتفكك الاتحاد السوفياتي لها تأثيرات سلبية على كل الاحزاب بدرجات متفاوتة. وبسبب من انغمار الشعب العراقي في مواجهة الدكتاتورية فإن الاسئلة الجديدة لم تقفز إلى الواجهة بعد، ذلك ان الأولوية لا تزال لإسقاط النظام. وهناك جمهرة واسعة من أبناء شعبنا تثق بجدية الحزب في النضال من اجل هذا الهدف. ولذلك تلتف حوله».

وعن الوضع الحالي للحزب، قال سكرتيره العام الحالي، حميد مجيد موسى (انتخبه لهذا المنصب مؤتمر الحزب الخامس في ١٩٩٣، وهو في العقد الخامس من عمره ومن مدينة الحلة) إن الحزب «موجود في كل مكان من مدن العراق. أنتم تسمعون عن نشاطاتنا وتوزيع بياناتنا في البصرة، الموصل، بغداد، في الجامعات، المعامل. نحن ننشر ذلك باستمرار عما يقوم به الشيوعيون وأصدقاؤهم. موجودون خارج الوطن حيث أكثر من مليونين من أبناء الجالية العراقية موزعون على بلدان العالم. موجودون في كردستان كقوة سياسية مشهود لها بحفظ الخير والنزعة السلمية والطموح لعودة التقاليد الديمقراطية في التعامل وإعادة المعارضة إلى كردستان» («الحياة»، العدد ١٢٧٣٣، تاريخ ١١ كانون الثاني ١٩٩٨، ص١٣).

(مراجع هذه المادة الفرعية: «الحزب الشيوعي العراقي»، «موسوعة السياسة»، ج٢، ط١، ١٩٨١، ص٤٠١-٤٠٦ و«الوسط»، الاعداد ٢٨٧، ٢٨٨، ٢٨٩، تواريخ ٢٨ تموز، و٤ و١١ آب ١٩٩٧؛ و«الحياة»، العدد ١٢٧٣٣، تاريخ ١١ كانون الثاني ١٩٩٨، ص١٣).

الجبهة الوطنية والقومية التقدمية: في ١٥ تشرين الثاني ١٩٧١، اصدر حزب البعث الحاكم «ميثاق العمل الوطني» لاقامة جبهة بين القوى الوطنية والقومية التقدمية. وفي ١٩٧٢، وُقعت معاهدة الصداقة بين العراق والاتحاد السوفياتي، الأمر الذي جعل الحزب الشيوعي العراقي يدخل بجدية في مفاوضات مع الحزب الحاكم من أجل إقامة تلك الجبهة. وفي ١٧ تموز أعلن عن توقيع البيان المشترك بين حزب البعث والحزب الشيوعي، وبذلك برزت الجبهة التي اكتملت في ما بعد بانضمام الحزب الديمقراطي الكردستاني (بارتي) والقوميين والمستقلين إليها. وبعد انكشاف أمر تنظيم شيوعي سري في الجيش (رغم ما كان وقّع عليه الحزب الشيوعي العراقي من وثيقة تتضمن قبوله عدم إقامة مثل هذا التنظيم في الجيش) تم القضاء عليه، وانسحب الشيوعيون من الجبهة (راجع «الحزب الشيوعي

العراقي» و«أحزاب المعارضة» في هذا الباب، وكذلك النبذة التاريخية).

الاحزاب والحركات الاسلامية: مع ان العراق شهد في العهد الملكي جوًا نسبيًا من الديمقراطية وحرية تأسيس الاحزاب، لكنه لم يشهد ولادة حزب علني يقوم على أساس الاسلام. وكان أول طلب لتأسيس حزب اسلامي وقع في العهد الجمهوري أيام حكم عبد الكريم قاسم، وذلك بعد صدور قانون الجمعيات في أول كانون الثاني ١٩٦٠ حيث تقدمت مجموعة من الاسلاميين الذين ينتمون إلى جماعة «الاخوان المسلمين» بقيادة نعمان السامرائي بطلب تأسيس «الحزب الاسلامي العراقي» في شباط ١٩٦٠، وأجازت محكمة التمييز الطلب بعد رفض وزارة الداخلية، واستطاع الحزب ان يستقطب انصارًا كثيرين في أوساط السنة والشيعة على السواء. لكن السلطات العراقية حلّت الحزب واعتقلت قيادته بعد اقل من سنة على إنشائه، كما اعتقلت الشيخ عبد العزيز البدري الذي تقدم بطلب إنشاء حزب اسلامي آخر هو «حزب التحرير» من دون ان يحصل على ترخيص.

ومنذ ذلك الحين والاحزاب الاسلامية ممنوعة في العراق، ويُعاقب أي عضو في القوات المسلحة ينتمي لغير حزب البعث الحاكم، كما يتعرض أي مواطن عراقي ينتمي لأي حزب اسلامي لعقوبة السجن والاعدام. لذلك لجأت الحركات الاسلامية إلى السرية. وإضافة إلى «الاخوان المسلمين» و«حزب التحرير» تأسس «حزب الشباب المسلم العقائدي» بزعامة الشيخ عبد الكريم الجزائري، وحزب «الدعوة الاسلامية» بقيادة السيد محمد باقر الصدر، كما تأسست في كربلاء الحركة المرجعية بقيادة السيد محمد الشيرازي الذي رفض الصيغة الحزبية في العمل وأكد الصيغة المرجعية وولاية الفقيه.

والتزمت الحركات الاسلامية جميعًا العمل الثقافي والسياسي السلمي و لم تعتمد على العمل العسكري في مواجهة النظام، واعتمدت في عملها على مؤسسات دينية كمؤسسة المرجعية التي كان يتزعمها في الستينات السيد محسن الحكيم (توفي في ١٩٧٠) ثم السيد أبوالقاسم الخوئي الذي توفي في ١٩٩٢ (راجع «المرجعية الشيعية» و«ولاية الفقيه»، و«الخوئي، السيد أبو القاسم» في «ايران»، ج٤، ص١٩٠، ١٩٢ و٢١٩)، وهي مؤسسة دينية تتجنب العمل السياسي المباشر والاصطدام بالسلطة. وقد حاول السيد محمد باقر الصدر، المرجع الديني والمفكر الاسلامي المعروف والاستاذ في الحوزة الدينية في النجف الذي تتفق الروايات على ان السلطات العراقية قتلته في ١٩٨٠، أن ينأى بنفسه وبطلبته عن المواجهة مع النظام العراقي في السبعينات فطلب منهم الانسحاب من حزب الدعوة، لكن ذلك لم يخفف من المواجهة بين النظام والحركة الاسلامية التي انفجرت بعد انتصار الثورة الاسلامية في ايران في ١٩٧٩، وأدت إلى قتل السيد الصدر مع عدد كبير من رجال الدين وأعضاء الحركة الاسلامية. ودفع هذا الوضع بعض الشباب المتحمس خصوصًا في الحركة المرجعية التي أصبحت منذ ١٩٧٩ تحمل إسم «منظمة العمل الاسلامي» إلى محاولة اغتيال عدد من رموز النظام وتفجير بعض المراكز الحساسة. وعلى الرغم من إنشاء أجنحة عسكرية في حزب الدعوة أو منظمة العمل الاسلامي أو غيرهما من الحركات الاسلامية، إلا انها لم تقم بعمليات منظمة وكبيرة، إذ غلب الطابع الفردي والمحلي على نشاطاتها.

وبعد نشوب الحرب بين العراق وايران أسس عدد من الحركات الاسلامية العراقية في طهران «الجيش الاسلامي الثوري لتحرير العراق» الذي تحول في ما بعد إلى «المجلس الاسلامي الاعلى للثورة الاسلامية في العراق» بقيادة السيد محمد باقر الحكيم، وشارك أعضاء هذا المجلس في الحرب إلى جانب ايران ضد القوات العراقية، وحملوا مع القيادة الايرانية التي كانت ترفع شعار إسقاط الرئيس صدام حسين، كما أعلنوا إيمانهم بمبدأ ولاية الفقيه والعمل من اجل تأسيس جمهورية اسلامية في العراق.

ولكن الأمل الذي عقدته المعارضة الاسلامية العراقية تلاشى مع قبول الإمام الخميني بوقف الحرب العراقية الايرانية في ١٩٨٨، مما أدى إلى فتور العلاقة بين الحركات الاسلامية العراقية والجمهورية الاسلامية، وكانت العلاقة قد تدهورت من قبل بين منظمة العمل الاسلامي والحكومة الايرانية بسبب خلاف زعيم المنظمة المرجع الديني السيد محمد الشيرازي مع الامام الخميني وكذلك بسبب تحالف قائد المنظمة السيد محمد تقي المدرسي مع السيد مهدي الهاشمي القريب من الشيخ حسين منتظري ومسؤول وحدة حركات التحرر في الحرس الثوري الايراني، الذي اختلف مع قادة النظام وأعدم بعد ذلك، مما أثر في علاقة المنظمة مع المسؤولين الايرانيين وأدى بها إلى الهجرة من ايران.

أما حزب الدعوة الذي ظل يحتفظ بعلاقات أكثر رسوخًا مع ايران خلال الحرب في الثمانينات فقد تعرضت علاقته هذه للاهتزاز بسبب رفضه الخضوع التام لولاية

الفقيه، الأمر الذي أدى إلى انشقاق مجموعة بقيادة السيد كاظم الحائري تحت إسم خط الولاية، وتوزع الباقون بين مبايع للمرشد علي خامنئي-مجموعة الشيخ الآصفي الذي استقال من الحزب أخيرًا، ومؤيد للسيد محمد حسين فضل الله كمرجع أعلى للحزب (مجموعة لندن).

وقد نجحت ايران في كسب ولاء حركة «جند الإمام» التي أسسها السيد سامي البدري ويتزعمها حاليًا الشيخ عبد اللطيف الخفاجي، وكذلك ولاء السيد محمد باقر الحكيم الذي يقود «قوات بدر» الخاضعة للمجلس الأعلى للثورة الاسلامية العراقية وهي قوات تخضع لقيادة ضباط من الحرس الثوري الايراني.

وقد تدخلت هذه القوات جزئيًا في انتفاضة آذار ١٩٩١ في جنوبي العراق بعد هزيمة القوات العراقية في الكويت، ودأبت خلال السنوات الماضية على إعلان قيام قواتها بشن هجمات مسلحة في الأهوار ومناطق عراقية أخرى.

كما أنشأت منظمة العمل وحزب الدعوة مقرات عسكرية في كردستان العراق لكنها انسحبت منها بعد اقتتال الاحزاب الكردية وتقدم القوات العراقية إلى الشمال في ١٩٩٦.

وبينما كانت الحركات الاسلامية الشيعية تصعد من مواجهتها للنظام في الثمانينات آثرت جماعة الاخوان المسلمين (أو الحزب العراقي الاسلامي) العمل الثقافي وإعادة بناء قواعدها بهدوء حتى نهاية الحرب العراقية الايرانية حيث أسس أحد القياديين السابقين وهو فلح السامرائي مع الشيخ محمد الألوسي تنظيم «الكتلة الاسلامية». وأعلن الدكتور أسامة التكريتي الذي استقر في لندن ظهور الحزب الاسلامي من جديد وأخذ منذ ١٩٩١ يصدر مجلة شهرية باسم «دار السلام».

وكان جناح من الحزب القديم بقيادة الشيخ عثمان عبد العزيز قد أعلن ولادة «الحركة الاسلامية الكردية» وتحالف مع ايران ونجح في «تحرير مدينة حلبجة من القوات العراقية التي عادت فقصفتها بالقنابل الكيماوية في ١٩٨٨». وأعلنت مجموعة أخرى ولادة «الاتحاد الاسلامي في كردستان» العراق.

إلا أن جميع هذه الحركات ممنوعة من العمل بشكل رسمي أو علني ما عدا حركة سلفية تنشط بشكل واسع في مختلف المدن العراقية وتحظى بقبول السلطة لأنها تبتعد عن السياسة. ويتردد ان نائب الرئيس العراقي عزت الدوري يقوم بدعم بعض الحركات الصوفية ويحضر بعض جلساتهم.

وتسمح السلطات العراقية لبعض المراجع الدينية في النجف بممارسة التدريس والفتوى وبعض النشاطات الأخرى. كما تقوم باستضافة رجال دين لإلقاء محاضراتهم في التلفزيون. وتقوم الحكومة العراقية باطلاق ما يسمى بالحملات الإيمانية ومضاعفة دروس الدين في المدارس وإصدار الأوامر لأعضاء حزب البعث بالانخراط في صفوف الحركة الدينية المتنامية في العراق وإقامة الصلوات في المساجد. وهذا ما أدهش كثيرين من المراقبين ودفعهم للتساؤل عن السر الكامن وراء سياسة النظام الاسلامية، هل هو الخوف من تحدي المد الاسلامي الشعبي، أم محاولة لركوبه، أم توجيهه بعيدًا عن السياسة؟ (عن أحمد الكاتب، «الوسط»، العدد ٣٣٠، تاريخ ٢٥ ايار ١٩٩٨، ص٢٦).

وقد وضع مهدي السعيد، كاتب وصحافي عراقي مقيم في بريطانيا، لائحة بعشرين حزبًا وحركة اسلامية ظهرت منذ ١٩٥٧ («الحياة»، العدد ١٢٠٩٢ تاريخ ٣ نيسان ١٩٩٦، ص١٨):

١- حزب الدعوة الاسلامية: تأسس ١٩٥٧ على يد السيد محمد باقر الصدر، رموزه الحاليون الشيخ محمد مهدي الآصفي والدكتور ابراهيم الجعفري في لندن والحاج علي الأديب في ايران والحاج جواد المالكي. له علاقات جيدة مع ايران وسورية (يشكل هذا الحزب الفصيل الأكبر والأقدم في ساحة العمل الاسلامي في العراق، وهو يواجه الحكومة العراقية منذ حوالي ٢٠ سنة، وتعرّض منذ قيام الجمهورية الاسلامية الايرانية إلى سلسلة ضغوط ودعوات للاندماج بايران والخضوع التام لولاية الفقيه، كانت آخرها دعوة الناطق الرسمي السابق باسمه الشيخ محمد مهدي الآصفي لاعلان التبعية لخامنئي-«الوسط»، العدد ٣٣٨، تاريخ ٢٠ تموز ١٩٩٨، ص٢٢).

٢- المجلس الأعلى للثورة الاسلامية في العراق: تأسس ١٩٨٢ وتزعمه السيد محمد باقر الحكيم، وتلقى دعمًا من ايران وله علاقات جيدة بسورية وبعض البلدان العربية.

٣- منظمة العمل الاسلامي: تأسست ١٩٧٦ بزعامة السيد محمد تقي المدرسي والشيخ محسن الحسيني والسيد كمال الحيدري، وتعتبر الصيغة السياسية التي تطورت من الحركة الشيرازية في العراق، وكانت سابقًا تسمى بأسماء أخرى منها «حركة المرجعية» وهي تتلقى دعمًا ايرانيًا ايضًا.

٤- حركة جند الإمام: تأسست ١٩٦٩ بزعامة السيد سامي البدري الذي انشق عن حزب الدعوة، ومن

رموزها الشيخ عبد اللطيف الخفاجي وعزت الشابندر وتصدر جريدة «البديل الاسلامي» في دمشق.

٥- حركة المجاهدين العراقيين: تأسست ١٩٨٠ في دمشق وكانت تصرح بأنها الجناح العسكري لحزب الدعوة الاسلامية، ومن قادتها السيد عبد العزيز الحكيم وقد اندمجت بالمجلس الاسلامي الاعلى لاحقًا.

٦- جماعة العلماء المجاهدين في العراق: تأسست ١٩٥٧ وكان رئيسها مرتضى آل ياسين. وفي ١٩٨٠ شكل السيد محمد باقر الحكيم في طهران حركة جماعة العلماء المجاهدين في العراق من جديد ولها مؤسسات ثقافية واعلامية وتتلقى مساعدات كبيرة من ايران.

٧- الدعوة الاسلامية: مجموعة من المنشقين عن حزب الدعوة الأصلي، أسسوا حزبهم في ١٩٨٠، من رموزها عبد الزهرة عثمان وأبو صفا البصري وعبد الأمير علي خان.

٨- الكوادر الاسلامية: تنظيم منشق عن حزب الدعوة الأصلي ويضم نخبة من كوادر الدعوة من المثقفين ومن أبرزهم محمد عبد الجبار رئيس تحرير جريدة المؤتمر حاليًا.

٩- التجمع الاسلامي العراقي: تأسس نهاية الثمانينات في لندن كمنبر سياسي ضم علي تحسين ومحمد الوكيل والسيد محمد بحر العلوم.

١٠- حركة مجاهدي الثورة الاسلامية في العراق: تأسس ١٩٩١ في ايران من قبل مهدي عبد مهدي، وقد شكل قوة عسكرية أثناء الحرب العراقية الايرانية لمساعدة القوات الايرانية في شمالي العراق.

١١- الحركة الاسلامية في العراق «الخالصيون»: تأسست ١٩٧٨ وهي امتداد لحركة الخالصي (الأب) في الكاظمية ولها علاقات جيدة مع سورية.

١٢- حركة الوفاق الاسلامي «المجاهدين سابقًا»: تأسست ١٩٨٠ في ايران ومن رموزها الشيخ جمال الوكيل وكمال رضوي.

١٣- تنظيم الحركة الاسلامية في العراق «العقائديون»: تأسست تحت إسم جديد «الاسلام رسالة الشعب» في دمشق ١٩٩١ من أهم رموزها السيد أكرم الحكيم والمهندس عبدالله نجف.

١٤- المجلس الأعلى للعشائر العراقية ذات الاتجاه الاسلامي: تأسس ١٩٩١ في دمشق، ومن رموزه حامد بزيع من رؤساء عشيرة البدور، ومناور الحبيب، ويصدر نشرة «صوت العشائر».

١٥- حركة الضباط الاسلاميين العراقيين: تأسست ١٩٩١.

١٦- حركة المسلمين الأكراد الفيليين: تأسست ١٩٩١ ورئيسها عبد الجليل الفيلي واندمجت مع «التجمع الاسلامي للاكراد الفيليين» ١٩٩٢ والتحقا بالحزب الديمقراطي الكردستاني في ١٩٩٣

١٧- الحركة الاسلامية في كردستان العراق: تأسست ١٩٨٧ في شمالي العراق وهي من الحركات السنية ولها علاقات جيدة مع بعض الدول الاقليمية.

١٨- الكتلة الاسلامية: تأسست ١٩٨٣ في ايران بقيادة محمد خالد البرزاني.

١٩- الاتحاد الاسلامي لتركمان العراق: تأسس ١٩٩١ (شيعي) ومن رموزه عباس البياتي (الأمين العام) والمهندس محمد الشمالي.

٢٠- الحركة الاسلامية في كردستان العراق: وهي تطوير لحركة الاخوان المسلمين، ومن رموزها الشيخ عثمان عبد العزيز المرشد العام للحركة ولديها علاقات ودية مع ايران وسورية.

أحزاب المعارضة قبل حرب الخليج الثانية (١٩٨٠-١٩٩٠): انتهت الجبهة الوطنية والقومية والتقدمية بانسحاب الشيوعيين منها في ١٩٧٩ وانتقالهم إلى كردستان العراق ومباشرتهم مع الحزب الديمقراطي الكردستاني وحزب الاتحاد الديمقراطي الكردستاني العمل المسلح ضد النظام الذي استمر حتى انتفاضة آذار ١٩٩١ حين سيطر الأكراد على كردستان وأعلنوا عن تحريرها.

تشكلت المعارضة، بين ١٩٨٠ و١٩٩٠، إلى الشيوعي، من:

١- حزب البعث-قيادة قطر العراق، منشق عن حزب البعث الحاكم في منتصف الستينات في ما اعتبر آنذاك انشقاق اليمين واليسار داخل هذا الحزب.

٢- الحزب الاشتراكي العراقي المعتبر أبرز قوة سياسية في التيار القومي بعد البعث، وقد تأسس في أول تشرين الاول ١٩٦٦. وبعد حركة ١٩٦٨، وجهت له ضربة قوية وأعدم أربعة من قيادييه.

٣- الاتحاد الوطني الكردستاني الذي أسسه جلال الطالباني في سورية في ١٩٧٥، بعد فشل الثورة الكردية، وانضم هذا الاتحاد إلى التجمع الوطني العراقي. وكذلك احزاب وفصائل وتجمعات كردية عديدة، غالبيتها منشقة عن الحزب الديمقراطي الكردستاني بزعامة البرزاني.

٤- الحركة الاشتراكية العربية، وجناح عبد الاله النصراوي، إضافة إلى الضباط الوحدويين بزعامة عرفان عبد القادر.

٥- شخصيات سياسية وأعضاء في اتحادات مهنية متعاطفة مع هذا أو ذاك من الاحزاب الرئيسية.

٦- أحزاب وحركات اسلامية (راجع العنوان الفرعي السابق).

اتخذت احزاب المعارضة من دمشق مقرًا لها منذ ان بدأت تعقد لقاءات بينها في ١٩٨٠. وأسفرت هذه اللقاءات عن نية إقامة جبهة معارضة، وبخاصة بعد اندلاع حرب الخليج الاولى للاستفادة من ظروف الحرب في تعزيز التمرد في كردستان، وانهاء النظام في داخل العراق. لكن هذه الاحلام اصطدمت بمعارضة الاتحاد السوفياتي الذي كان غير راض في الأساس لانسحاب الشيوعيين من الجبهة الوطنية والقومية التقدمية في العراق، وكذلك بمساندة الدول الغربية للعراق في حربه ضد ايران، وايران نفسها فتحت جبهة داخلية ضد الأكراد الايرانيين.

لكن لقاءات اطراف المعارضة استمرت في دمشق وأسفرت، في ١٦ تشرين الاول ١٩٨٠، عن الاعلان عن جبهة ضمت حزب البعث-قيادة قطر العراق، والاتحاد الوطني الكردستاني والحزب الشيوعي العراقي والحركة الاشتراكية العربية (عبد الإله النصراوي) والحزب الاشتراكي في العراق (د.حيدر ألوسي). وكانت ابرز نواقص هذه الجبهة أنها وضعت، بناء على طلب جلال الطالباني، فيتو على دخول الحزب الديمقراطي الكردستاني بزعامة مسعود البرزاني الذي كان قد تمكن من إعادة بناء حزبه من جديد. وكان هذا الأمر في أساس الخلافات بين اطراف الجبهة، خاصة وأن اطرافًا تمثل احزابًا وحركات اسلامية، سواء في الجانب العربي من العراق أو في جانبه الكردي، أخذت العلاقة معها تشكل موضوع خلاف إضافي.

في أجواء خلافاتها السياسية هذه، دخل على خطها (المعارضة العراقية) الزعيم الليبي معمر القذافي الذي أعلن، في ١٩٨٣، انحيازه إلى الأكراد، وادعى انه سيوحد المعارضة العراقية ويحل أزمتها، واتفقت المعارضة، برعايته، على توقيع «ميثاق طرابلس»، وفيه عدة نقاط منها ا ن هذا الميثاق هو أساس عمل المعارضة العراقية الموحدة في المستقبل. وما إن عاد قادة المعارضة من طرابلس الغرب حتى عادت الخلافات بينهم من جديد. فتخلوا بين ليلة وضحاها عن بنود الاتفاق. وجرّت الخلافات بين القوى الكردية إلى اصطفاف جديد. فقد انحاز الحزب الشيوعي إلى الديمقراطي الكردستاني والاشتراكي الكردستاني واحزاب كردية أخرى، مما أثار حفيظة جلال الطالباني الذي كان آنذاك قد عزّز مواقعه في كردستان، فوجه ضربة قاصمة للشيوعيين في «بشت أشان»، ولمرتين متتاليتين، ابتداء من ١٩٨٣، حيث اباد عشرات المقاتلين.

وثمة عنصر آخر كان له دوره ايضًا في توسيع رقعة الخلاف بين اطراف المعارضة. ففي ايران بدأ محمد باقر الحكيم ينظّم قواه من بين الهاربين والمهجرين العراقيين، ووجه ضربات إلى القوات العراقية في الأهوار والحدود الايرانية-العراقية ابتداء من منتصف الثمانينات. ثم شكل قوات بدر التي عملت لسنوات تحت أمرته وضمت مئات الجنود العراقيين من ا لهاربين أو الأسرى.

استمرت حالة المواجهة بين النظام وقوى المعارضة في كردستان العراق، وتصاعدت ابتداء من ظهور «الجبهة الكردستانية» التي تشكلت من ثمانية احزاب كردية في ١٣ آذار ١٩٨٨، الرئيسية منها: الديمقراطي الكردستاني (البرزاني)، والاتحاد الوطني الكردستاني (الطالباني)، والحزب الشيوعي-اقليم كردستان. وقد انتهت هذه الجبهة باندلاع انتفاضة آذار ١٩٩١، مباشرة في أعقاب حرب الخليج الثانية.

احزاب المعارضة بعد حرب الخليج الثانية

(١٩٩١-١٩٩٨): أكثر من ٧٠ حزبًا وتجمعًا سياسيًا ظهر منذ حرب الخليج الثانية، وكل منها تقريبًا أصدر صحيفة أو أقله نشرة داخلية، ومعظمها (تجمعات ونشرات) سرعان ما اختفى لهشاشة تركيبها التنظيمي، لانقطاع شريان التحويلات المالية، للخلافات الداخلية... بحيث بدت تجمعات مطيّفة من أشخاص همهم اصطياد الظرف القاسي على البلاد واستعطاء الدعم من القوى الخارجية.

اثناء حرب الخليج الثانية (أواخر ١٩٩٠-اوائل ١٩٩١)، كان معظم قادة المعارضة في سورية وبلدان اوروبا الغربية، وكانوا مستغرقين في مناقشات ومفاوضات وصراعات عديدة حول الموقف من الاوضاع العراقية. وقد أدت هذه الاوضاع إلى تراجع الاحزاب التقليدية. وفرضت قيام احزاب وقوى جديدة وجدت لها دعمًا ماليًا من جهات دولية وعربية.

وعندما اندلعت انتفاضة آذار ١٩٩١ (مباشرة في أعقاب الحرب) كان قادة المعارضة جميعًا في الخارج،

وكانوا يكتفون بالتصريحات والبيانات. وفي حين هزمت الانتفاضة، وبسرعة، في الجنوب، كان مسعود البرزاني وآخرين في قيادة الاحزاب الكردية يوسعون دائرة نفوذهم في الشمال أثناء الحرب، ولم يتخطوا الشمال بعد هذه الحرب لصدور قرار دولي يعتبر منطقة كردستان «حيًّا آمنًا» يجب ان لا تنطلق منه أي مواجهة عسكرية، كما انه استفاد من تدخل دولي يمنع سلطات النظام العراقي من استخدام القوة العسكرية ضده ومن تحليق الطائرات في الجنوب.

وأهم الاحزاب والتجمعات المعارضة التي تشكلت منذ ١٩٩١:

– التجمع الوحدوي الناصري (١٩٩١، نوري البحراني)، –التجمع القومي الديمقراطي «التنظيم الناصري» (١٩٩١، عبد الحميد الشريف)، –الهيئة العراقية المستقلة (١٩٩١، حسن النقيب)، –حزب الحافظين (١٩٩٢، قومي كردي، خورشيد شوكت)، –اتحاد الديمقراطيين العراقيين (١٩٩٠، بعض كوادره كانوا في الحزب الشيوعي)، –الحزب الديمقراطي العراقي (١٩٩٣، انشق عن اتحاد الديمقراطيين العراقيين)، –التجمع العراقي المستقل (١٩٩٢، صادق بحر العلوم)، –التجمع الديمقراطي لانقاذ العراق (١٩٩٢، مشعان ركاض الجبوري)، – الوفاق الديمقراطي العراقي (١٩٩٢، صلاح عمر العلي)، – حركة الاصلاح الوطني (١٩٩١، سامي عزارة المعجون)، –المجلس العراقي الحر (١٩٩١، سعد صالح جبر)، –دعاة الملكية (١٩٩١، مجموعة قليلة تروج للامير علي بن حسين كبديل للملك فيصل الثاني، راجع «الهاشميون ...» في باب معالم تاريخية)، –الحزب الوطني التركماني العراقي (١٩٩١، مظفر ارسلان وعزيز قادر)، –المنظمة الآشورية الديمقراطية (١٩٩٣). أضف إليها شخصيات سياسية من مختلف التيارات على الساحة العراقية.

هكذا يتضح انه في فترة زمنية لا تتعدى السنتين أو ثلاثًا تشكلت احزابًا ومجموعات عديدة، صغيرة وعائمة، انطلقت أساسًا من القوى الرئيسية (القومية والاسلامية والعلمانية العربية أو الكردية)، أو انها دارت في فلكها.

في ٢٧ شباط ١٩٩٠، تشكلت في دمشق «لجنة العمل المشترك لقوى المعارضة العراقية» التي ضمت التيار الاسلامي والكردي والقومي العربي والديمقراطي، وتشكل بعد ذلك فرع لها في لندن. وفي ٣٠ تموز ١٩٩١، انضم إليها ست حركات أخرى فأصبح مجموع اطراف اللجنة ٢٣ حزبًا وحركة (أساسها احزاب المعارضة الرئيسية، عربية وكردية وشيوعية، ثم التشكيلات المؤسسة حديثًا).

وفي ١١-١٣ آذار ١٩٩١، عقدت المعارضة العراقية مؤتمرًا لها في بيروت، شارك فيه ٥٠٠ شخصية معارضة من مختلف القوى والاحزاب العراقية، واسفر عن فشل ذريع، إذ لم يخرج بأي قرار سوى توصية بعقد مؤتمر ثان في غضون أشهر قليلة. وتشكلت لجنة تحضيرية من حزب الدعوة الاسلامية، والمجلس الأعلى للثورة الاسلامية في العراق، والاتحاد الوطني الكردستاني، وشخصيات من التيارات القومية المستقلة، وقررت اللجنة عقد المؤتمر في فيينا.

وانعقد المؤتمر في فيينا (١٦-١٩ حزيران ١٩٩٢)، وسمّي «المؤتمر الوطني العراقي»، وشارك فيه أكثر من ٢٠٠ شخصية عراقية وقاطعه التيار الاسلامي الممثل بحزب الدعوة الاسلامية والمجلس الأعلى ومنظمة العمل الاسلامي، كما قاطعه حزب البعث–قيادة قطر العراق، وكذلك الحزب الشيوعي العراقي.

واستمرت الحوارات (وكذلك الخلافات) بين أطراف المعارضة، إلى ان تقرر عقد مؤتمر عام للمعارضة في كردستان العراق في تشرين الاول ١٩٩٢، وأضيفت كلمة «الموّحد» على إسم المؤتمر فأصبح إسمه «المؤتمر الوطني العراقي الموحد». وعقد هذا المؤتمر في موعده في مدينة صلاح الدين (كردستان العراق)، وقاطعه كل من التيار القومي والمجلس العراقي الحر وتجمع الوفاق الوطني الديمقراطي العراقي (صلاح عمر العلي) وبعض الحركات الصغيرة. ولكنه مع ذلك اعتبر أكبر تشكيلة تجمع قوى المعارضة. إلا أن هذه التشكيلة عجزت عن إيقاف الخلافات الداخلية المترجمة ممارسات يومية، وكانت العلة في عمل معظم هذه القوى باتجاه المصالح الذاتية. ولم يكن شيء يوحّد هذه المعارضة، على مدى السنوات اللاحقة لانعقاد مؤتمر صلاح الدين، سوى ضرورة الاطاحة بصدام حسين. أما مرحلة ما بعد إطاحته، فكان لكل من اطراف المعارضة بصددها أفكاره الخاصة، هذا عدا عن تشتت قادة المعارضة في اوروبا والشرق الاوسط، وبينهم الشيوعيون والاسلاميون (سنيون وشيعة) وأكراد وعرب ساخطون وبعثيون ومسؤولون حكوميون سابقون... حتى أتت الضربة القاتلة للمعارضة في ١٩٩٦.

ففي آب ١٩٩٦، طلب مسعود برزاني زعيم الحزب الديمقراطي الكردستاني تدخل الرئيس العراقي صدام حسين عسكريًا في صراعه المستمر منذ فترة طويلة مع

القوات الكردية المنافسة بقيادة جلال الطالباني رئيس الاتحاد الوطني الكردستاني. فزحفت القوات العراقية على مدينة أربيل والمناطق الأخرى، وأنهت وجود المراكز والمكاتب والتجمعات العراقية المعارضة. وأصبح يصح في المعارضة، بعد صيف ١٩٩٦ وحتى اليوم (صيف ١٩٩٨) القول المتردد: «قبل حرب الخليج الثانية كانت هناك ٢٠ جماعة عراقية معارضة، وارتفع العدد إلى ١٠٠ جماعة عراقية معارضة في الشهور التي تزامنت وأعقبت حرب الخليج الثانية وعمليات فرار مسؤولين عسكريين وسياسيين، والعدد اليوم مئات المعارضين العراقيين لا يتفق واحد منهم مع واحد آخر».

الأحزاب الكردية: راجع باب «كردستان العراق».

أقليات

تمهيد («عناصر وحدة العراق أقوى»): في أعقاب حرب الخليج الثانية أصبح يُسمع ويُكتب، بين حين وآخر، وخاصة بعد كل أزمة أو عملية عسكرية، داخلية أو ذات بعد شرق أوسطي أو دولي، عن مشاريع تقسيمية للعراق، علمًا أن أيًا من الاطراف الداخلية المعارضة أعلن عن رغبة في الانفصال عن مركز السلطة في بغداد، بل بالعكس كان يُبرز تشديده على وحدة العراق.

نبيل ياسين، كاتب عراقي مقيم في بريطانيا، نشر في «الحياة» (العدد ١٢٧٧٢، تاريخ ٢٠ شباط ١٩٩٨، ص١٨) دراسة مكثفة أظهر فيها ان «خرائط التقسيم غير ممكنة جغرافيًا وبشريًا» وان «عناصر وحدة العراق أقوى من مخططات التقسيم». منها هذه المقتطفات التي نمهد بها لباب «أقليات» الذي استبعدنا منه الأكراد لورود باب خاص بهم هو «كردستان العراق».

– منذ حرب الخليج الثانية تشيع مفاهيم وتتداول مصطلحات مثل الشيعة والسنة والأكراد وكأنها ثلاث أمم في ثلاث اراض موحدة قسرًا منذ نشأة الدولة العراقية الحديثة في مطلع العشرينات. وتطرح بين فترة وأخرى أطروحة ان ضمان الأمن والاستقرار في المنطقة وضمان حقوق الانسان تكمن في فك هذه الوحدة القسرية. كما يطرح في الوقت نفسه ترابطًا بين سقوط صدام حسين وتقسيم العراق. غير ان الواقع السياسي والديمغرافي غير ذلك تمامًا.

– إذا قلنا ان الدولة العراقية الحديثة ظهرت إلى الوجود في مطلع العشرينات فإن هذا يعني خروجه من تبعيته للسلطنة العثمانية التي حكمت دولاً في آسيا وافريقيا واوروبا كان وضعها مثل وضعية العراق في تبعيته للعثمانيين. والعراق، حتى في هذا المعنى، سبق قيام تركيا الحديثة بأربع سنوات، وسبق قيام اسرائيل بربع قرن، فهل تكون وحدة العراق أهش من وحدة اسرائيل ووحدة تركيا؟!.

– لقد تم التعامل مع العراق كوحدة سياسية وجغرافية وبشرية منذ الدويلات-المدن. وتعززت هذه الوحدة في الامبراطوريات الكبرى، البابلية والأكدية على وجه الخصوص.

– وإذا وصلنا إلى الفتح الاسلامي نجد ان التعامل مع العراق كوحدة سياسية وجغرافية وسكانية كان أمرًا واقعًا إذ تذكر كتب المؤرخين ان فتح العراق تم في ثلاث مراحل بعد معركة القادسية، وان الفاتحين المسلمين حافظوا على التركيبة السكانية للعراق وعززوا من التلاحم بينها في إطار الدين الجديد، وتعاملوا مع العراق كما عرفوه في عصورهم الجاهلية والذي كان يتردد فيها باسمه الحالي (في الأشعار والخطب والتجارة). وحينما اراد عمر بن الخطاب مسْح العراق «طلب مَن له بصر وعقل يضع الارض مواضعها» فأجمع الصحابة على عثمان بن حنيف فولاه مسح العراق. ومسح عثمان المنطقة الواقعة بين الخابور شمالاً وحلوان (بعد خانقين وجلولاء على الحدود الايرانية) شرقًا، والعذيب (فوق السماوة قرب الحدود مع المملكة العربية السعودية) غربًا، والخليج العربي جنوبًا. وبلغت

مساحة الارض ضمن هذه الحدود ٣٦ مليون جريب (والجريب يساوي ١٩٥٢ مترًا مربعًا) وهي مساحة تزيد قليلاً عن المساحة الحالية للعراق ببضعة عشرات الكيلومترات. وعلى هذه المساحة احتسب خراج العراق وتم التعامل مع الولاة من الناحية السياسية والاقتصادية على أساس المساحة والحدود هذه. وظلت اقتصاديات العراق خاضعة لهذا الوضع على مرّ السنين والتغيرات.

– استعصت وحدة العراق على التقسيم حتى تحت ضربات أعتى الامبراطوريات والجيوش الغازية منذ تاريخه القديم مرورًا بالمغول والعثمانيين وانتهاء بالبريطانيين. فاضطر العثمانيون إلى تنظيم إداري يتيح لهم قمع التمردات القبلية البعيدة عن مركزهم فوضعوا ولاية بغداد على رأس ثلاث ولايات هي الأعمدة الرئيسية لوحدة العراق السكانية والحضارية والاقتصادية لإتاحة الفرصة لبغداد حتى لا تسقط فيسقط العراق كله من يد الدولة العثمانية. فحولوا الموصل والبصرة إلى إيالات أو سناجق أو متصرفيات تحت سلطة بغداد.

– بعد ان يظهر الكاتب تداخل التوزيع السكاني بحسب تركيبة معقدة قوميًا ومذهبيًا ودينيًا في منطقة واحدة تقع فوق خط ٣٦ حتى ليبدو خط ٣٦ بالنسبة إلى الوضع الديمغرافي للعراق خطًا وهميًا لم تقصد القبائل والمذاهب والاديان ان تتخذه قبل عشرات القرون خطًا لسكنها كما افترضت ذلك الولايات المتحدة عام ١٩٩٢ وقسّمت العراق جويًا بموجبه، يقول إن الموقع الطبيعي للعراق وتضاريسه ومصادر المياه والخصوبة فرضت وضعًا مركبًا للسكان فيه، جعلت التداخل غير منفصل بحدود طبيعية. فهذه الوضعية السكانية والقومية والمذهبية والدينية المتداخلة والمعقدة تجعل من مشروع التقسيم مشروعًا يقترب من الخيال أكثر مما هو واقع.

اليهود: لم يعودوا يشكلون أقلية منذ السنوات التي شهدت قيام اسرائيل، حيث أخذ عددهم يتناقص بسرعة إلى أن أصبح «٨٠ يهوديًا عراقيًا يعيشون حياة هادئة ويعاملون معاملة حسنة». وآخر عملية هجرة لليهود العراقيين جرت خلال السنوات الثلاث الاولى التي أعقبت حرب الخليج الثانية، وذلك عندما «سمحت الحكومة العراقية لنحو ٧٠ يهوديًا عراقيًا بمغادرة وطنهم والتوجه إلى دول اوروبية» («الحياة»، نقلاً عن صحيفة «معاريف» الاسرائيلية، ٧ كانون الثاني ١٩٩٥).

الطائفة اليهودية في العراق من أقدم الطوائف

المصدر: «الحياة»، العدد ١٢٧٧٢، ٢٠ شباط ١٩٩٨، ص. ١٨.

اليهودية في العالم. وأقدم وجود لليهود في العراق يعود إلى القرن الثامن ق.م.، أي في فترة الحكم الآشوري. وأخذت أعدادهم بالازدياد بشكل كبير في العصر البابلي الحديث بعد الحملة التي قادها نبوخذ نصر الثاني في ٥٩٨ق.م. إلى فلسطين وقضائه على تمردهم، ونقله معه إلى بابل آلافًا من اليهود أسكنهم في جوار المدن والقرى البابلية، ما ساعدهم على التجمع في المنفى والاستمرار في ممارسة تقاليدهم وطقوسهم الدينية.

في الدولة الاسلامية، عومل اليهود معاملة جيدة باعتبارهم «أهل الكتاب»، وبعضهم ارتقى إلى مناصب عليا في الدولة العباسية، وقدّر عددهم في عهد الخليفة المستنجد عند زيارة الرحالة اليهودي بنيامين التطيلي لبغداد سنة ١١٧٠ بأربعين ألفًا في بغداد وحدها.

ساءت احوال اليهود، كما كل العراقيين، بدءًا من الغزو المغولي. ثم عادت وتحسنت مع مجيء العثمانيين. وفي ١٨٧٦، كان مناحيم دانيال أحد الممثلين الاثنين عن بغداد في «مجلس المبعوثان»، وبعده انتخب ساسون حسقيل لدورات عدة، كما كان مستشارًا لوزارة التجارة في الحكومة العثمانية وعضوًا في جمعية الاتحاد والترقي.

أخذت النظرة الودية نحو اليهود تتغير بعد انعقاد المؤتمر الصهيوني الاول في بال (١٨٩٧) وأصبحوا محط الشكوك والريب، إلى ان وقع انقلاب ١٩٠٨-١٩٠٩ الذي قاده حزب «تركيا الفتاة» والذي كان عدد من قادته من اليهود الذين أسلموا (الدونمة) كجاويد باشا وطلعت باشا. فسهل النشاط الصهيوني وأخذت الهجرة اليهودية إلى فلسطين تزداد.

طيلة الوجود الانكليزي في العراق (الاحتلال والانتداب)، وفي مرحلة ما بعد الاستقلال (١٩٣٢)، لعب اليهود العراقيين دورًا بارزًا في حقل الخدمات الحكومية وحقل التجارة، وتواجدوا في الوزارة والبرلمان (ساسون حسقيل عين وزيرًا للمالية في وزارات متتالية في العشرينات؛ ويوسف رزق الله غنيمة عين كذلك وزيرًا للمالية في ست وزارات آخرها في ١٩٤٧، ووزيرًا للتموين في ١٩٤٤). أما عددهم في العشرينات والثلاثينات فيقول جورج انطونيوس («يقظة العرب»، ص٤٨٦) بصدده: «وفي العراق جماعة يهودية يبلغ عددها ٨٠ ألفًا تقريبًا ومعظمهم يقطن في بغداد».

أوجد ضرب ثورة الكيلاني (ايار ١٩٤١) وتصفيتها حالة من الفوضى اتسمت بوقوع أحداث في بغداد (حزيران ١٩٤١) عرفت بأحداث «الفرهود» (كلمة باللهجة المحلية البغدادية تعني النهب والسلب). وقد أدت هذه الأحداث إلى صدور قانون إسقاط الجنسية عن يهود العراق، ما دفع إلى هجرتهم إلى فلسطين وبلدان أخرى عدة. وبعد هذه الاحداث لم تعد أحوال اليهود العراقيين المتبقين إلى التحسن. بل أن ثمة أقوالاً كثيرة (لا تزال موضوع دراسات ومناقشات) على ان السلطات العراقية الصديقة للانكليز كانت تشجع، في الاربعينات، وتعمل على إخراج اليهود من العراق معتمدة وسيلة ترهيبهم والضغط عليهم (راجع «ناوة بيروت» في مادة «العالم العربي» في هذا الجزء).

بعد قيام اسرائيل (١٩٤٨)، لم تخف الحكومة الاسرائيلية، لا اهتمامها بمسألة السماح لليهود العراقيين بالرحيل إلى اسرائيل ولا حاجتها إلى الكادر البشري اليهودي العربي باعتباره أكثر دراية بالمنطقة من الكادر اليهودي الاوروبي، فازداد حماس جمعيات الهجرة اليهودية المتوزعة على بقاع الارض خصوصًا تلك الموجودة في الولايات المتحدة.

في النصف الاول من السبعينات، وعلى أثر إعلان الحكومة العراقية عن اكتشاف شبكات تجسس اسرائيلية وإعدام بعض المتهمين، نشطت جمعيات الهجرة اليهودية لتهريب مَن بقي من اليهود العراقيين. وألحت الصحف وقتها، وتعيد الدراسات اليوم التأكيد على ان عمليات هذا التهريب سلكت طريق شمالي العراق ثم ايران وبمساعدة من سلطات شاه ايران، ونجحت بنقل نحو ١٥٠٠ يهودي عراقي، وقالت انه لم يبق وقتها سوى نحو ٣ آلاف يهودي.

الصابئة (المندائيون): أقلية دينية يبلغ تعدادها نحو ٧٠ ألفًا في العراق، ومكان تجمعها الأساسي في جنوبي العراق على ضفاف دجلة والفرات، ومنها الأقلية الأخرى في ايران حيث تتواجد على ضفاف نهر الكارون في أهواز ايران. واختيارهم هذين المكانين يعود إلى وفرته بالماء طيلة ايام السنة نظرًا إلى أهمية هذا العنصر الحياتي في طقوسهم ومعتقداتهم الروحية. نزح منهم عدد إلى بغداد، وعدد أقل إلى مدن عراقية أخرى مثل العمارة والبصرة والناصرية وحتى الموصل في الاربعينات بسبب النهضة الصناعية؛ وأكبر موجة من نزوح الصابئة في اتجاه العاصمة حدثت خلال السنوات العشر الأخيرة بسبب حرب الخليج، كما هاجر عدد منهم إلى اوروبا واميركا وأوستراليا. أما الذين بقوا في بغداد، فأخذوا يعودون إلى النهر بسبب الحظر

المفروض على العراق منذ ١٩٩٠، إذ لم يعد هناك ضغط لايصال المياه إلى المسبح الذي كان يوفر لهم الماء لممارسة طقوسهم. كتابهم المقدس هو «كنزه ربه»، أو الكنز الكبير، المكتوب بالمندائية، وهي لهجة آرامية، ولا يجيد اليوم قراءة هذا الكتاب إلا عدد قليل من الصابئة. وفي تحديد مناسباتهم الدينية يستخدم الصابئة المندائيون التقويم البابلي. وأهم مناسباتهم الدينية هو «العماد» حيث يقوم الرهبان الصابئة، والمؤمنون، بترتيل أناشيد باللغة الآرامية أثناء تعميد المؤمن في مياه نهر دجلة، مرتدين ملابس تشبه ملابس مرحلة يوحنا المعمدان وبالطريقة نفسها التي عمّد بها يوحنا المعمدان السيد يسوع المسيح.

عُرف الصابئة المندائيون بامتهان صناعة القوارب والحدادة وخاصة صياغة الذهب والفضة منذ ايام العباسيين، كما اشتهروا بالعلم والفن والمواهب العقلية التي قرّبتهم من السلطات في كل العصور، وجنبتهم الاضطهاد وحاجة التحصّن في الجبال كما تفعل الأقليات احيانًا، وشهيرة هي قولة المأمون فيهم معللاً سبب البقاء عليهم: «لولا مزاياهم العقلية»، إضافة إلى ذكرهم في القرآن الكريم، وقد وفّر هذا الذكر خلافًا بين الفقهاء بصددهم كانت نتائجه لصالحهم في أغلب الأحوال.

وردت تسميتهم في ثلاث سور قرآنية، منها سورة البقرة ٦٣: «إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين مَن آمن با لله واليوم الآخر وعمل صالحًا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون». وورد ذكرهم في غالبية أمهات الكتب الاسلامية في صدر الاسلام وبعده، وذكرهم الشافعي في كتابه الفقهي حيث يعتبرهم فرقة من الفرق المسيحية: «من دان دين اليهود والنصارى من الصابئين والسافرة أكلت ذبيحته وحل نساؤه». ولا موقف ديني حتى اليوم لمرجعيات المذاهب المسيحية الكبرى من الصابئة، واكتفى الفاتيكان بذكرهم، في ١٩٥٣، في وثيقة بعنوان «حوران الداخلية».

وضع عدد كبير من الدراسات والكتب حول الصابئة. لكن أهمها كتاب The Mandeans of Iraq and Iran الذي صدر في ١٩٣٧، للمستشرقة البريطانية ليدي درور (١٨٧٩-١٩٧٢) الذي ترجمه إلى العربية الصابئيان المندائيان غضبان الرومي ونعيم بدوي. وكانت درور زوجة السير درور الذي عمل مستشارًا في وزارة العدل العراقية للفترة ١٩٢٢-١٩٤٦، فقامت بدراسة الصابئة عن قرب وعاشت بينهم وتعلمت لغتهم وجمعت كل النصوص المندائية الأساسية وترجمت العديد منها.

طقس عماد صابئي.

رجال دين من الصابئة.

مكان يزيدي مقدس (بعشيقة، الموصل).

اليزيديون (الأيزيديون): التقديرات الحالية لعددهم تتراوح بين ٦٥-٨٠ ألفًا. أماكن تواجدهم الرئيسية في أودية شيخان وجبال سنجار في العراق. وهناك يزيديون في سورية حيث تتوزع قراهم في الجزيرة وفي جبل سمعان. وكان هناك بعض الآلاف منهم، في المرحلة السابقة على قيام الاتحاد السوفياتي، في تيفلس (جورجيا) ويريفان (أرمينيا)، والباقون هناك ما لبثت ان ضاعت هويتهم الدينية بعد قيام الاتحاد السوفياتي. ثمة إحصاءات أخرى تعطي فكرة عن تطور عددهم:

«ليس هناك من إحصاءات جادة حول اليزيديين. في القرن السابع عشر، قدّر فيفر Febvre عددهم بـ٢٥٠ ألفًا. وعشية الحرب العالمية الاولى، قدّره ويغرام Wigram بما لا يتعدى ١٢٠ ألفًا. وفي ١٩٣٧، أحصى ر.ليكوت R.Lescot ٤ آلاف منزل يزيدي في جبل سنجار، و٤٠٠ في جبل سمعان و٢٧٠ في الجزيرة السورية، أي ما يعادل نحو ٢٤ ألف شخص يزيدي في سنجار و٣ آلاف في سورية. وفي ١٩٤٩، أعطى داملوجي Damloogi الارقام نفسها بالنسبة إلى تعدادهم في سنجار، لكن بالنسبة إلى منطقتي شيخان والموصل فإنه أحصى ٥٦ قرية. وأثناء رحلته في القفقاس عام ١٩١٠، أحصى الامير اسماعيل تشول ٧٢ قرية فيها ٣٥٠٠ منزل. وفي مقال في الجريدة الكردية «رزغاري»، ترجم إلى العربية ونشرته صحيفة «الحرية» البيروتية (العدد ٤١ تاريخ ١٣ نيسان ١٩٥٩)، وكتبه حيدري، جاء ان هناك ٤٠ ألف كردي في كل من أرمينيا وأذربيجان وجورجيا، وانهم يسكنون بصورة خاصة في تيفليس وباتوم، وأنهم بغالبيتهم من اليزيديين. لكن الاحصاء الرسمي الذي أجراه الاتحاد السوفياتي في ١٩٣٩ أشار إلى ان هناك ٤٥٨٦٦ كرديًا، بينهم ١٥ ألف يزيدي. وإذا كان التقدير يشير إلى وجود ٣٠ ألف كردي في العراق، و٣ آلاف في سورية، وبعض الآلاف في تركيا، ونحو ١٥ ألفًا في الاتحاد السوفياتي، فيكون ان عدد اليزيديين لا يمكن ان يتجاوز الخمسين ألفًا» (Thomas Bois, O.P., «Les Yézidis», imp. Catholique, Beyrouth, 1961, p.221)

من النظريات البارزة حول اصل اليزيديين نظرية الأكاديمي السوفياتي ن.ج. مار N.J. Marr الذي تقدم بها منذ ١٩١١، وتعتبر ان اليزيديين طائفة كردية (وهذا يعني انهم من الشعوب الهندو-اوروبية) فقدت الكثير من خصوصيات معتقداتها الدينية مع دخول الأكراد في الاسلام. فاليزيديون، تبعًا لهذه النظرية، هم الأكراد الذين استمروا على دينهم الاصلي.

ليس لدى اليزيديين تاريخ مكتوب، فاعتمدوا «علم الصدر»، أي الحفظ والرواية الشفهية، تاركين لغيرهم ان يقول فيهم ما يشاء. وحتى وقت قريب كان يحرم على اليزيدي تعلم القراءة والكتابة، واختلطت عليهم أمور عقائدهم. لكن تصوفهم الفطري وتقشفهم في أمور الدنيا وتوقهم إلى عالم الارواح الطاهر وكرههم للعنف والإيذاء جذبت إليهم المتصوفة.

وبخصوص تسميتهم باليزيديين، اختلفت الآراء حولها. فمنها ما ينسبهم إلى يزيد بن معاوية، أو يزيد بن أنيسة أو يزيد بن عنيزة؛ ومنها ما لا ينسبهم إلى أي يزيد بل إلى كلمة «يزدان» التي تعني في الزرادشتية الاله المقدس، و«الفعل يزد معناه يعبد ويضحي»، والاسم «الأيزيدي» يعني «الخليق بالعبادة». ومن الآراء ما يعيد التسمية إلى مدينة تدعى «يزدم» على مقربة من حدياب (وهي الموصل

نفسها) أوردها مؤرخ يوناني عاش في القرن السابع.

والجديد في البحث حول أصل التسمية انها نسبة إلى كلمة سومرية وجدت مكتوبة بالخط المسماري، كشف عنها أحد خبراء الآثار واللغات القديمة الألمان، وهي A-zi-da وتعني الروح الخيرة وغير الملوثين والذين يمشون على الطريق الصحيح. وبالفعل وردت هذه الكلمة في القاموس السومري (جامعة بنسلفانيا، الولايات المتحدة، ١٩٩٤) بمعان عدة ومتقاربة. ومقارنة بما يقوله اليزيديون (أو الأيزيديون) الحاليون: «نحن على دين الحق، بيضاء ملابسنا، الجنة مكاننا»، تكون هذه النسبة مؤشرًا ربما يؤدي للكشف عن صلة بين هذه الديانة وما عرفه السومريون من عبادات.

أما بخصوص تسميتهم بـ«عبدة الشيطان» الذي يمثله لديهم الطاووس، فيكاد الدارسون يجمعون اليوم على انهم يكرّمون الشيطان الذي كان يُدعى لجماله «طاووس الملائكة» قبل ان يطرده الله من الجنة لأنه رفض الخضوع لآدم، الأمر الذي يذكر بـ«زعيم الملائكة» عند المسيحيين الذي كان يدعى «لوسيفر» أي «حامل النور» وبـ«إبليس»، في بعض الروايات الاسلامية، الذي توسّل الطاووس، وليس الأفعى، باعتبار الطاووس أكثر جمالاً وفتنة، لكي يوقع بأجدادنا الأول (للفيلسوف الالماني إيمانويل كنت Kant قول يوجز هذه الرواية الدينية: «للطاووس بهاء الملاك، مشية السارق وصوت الشيطان»).

فاليزيديون يعون بوضوح المحظور والمسموح، الخير والشر، ويعبدون الله. وهذا واضح في صلواتهم: «الله هو الواحد الذي لا شريك له ولا خليل هو الواحد الأقهار». وأما تقديسهم وإجلالهم للشمس ونورها فينبع من أهمية هذا الكوكب في الحياة والضياء. وهذا التقديس له علاقة بعقائد قديمة، منها الزرادشتية والشمسية وربما اقدم منهما. يقدّس اليزيديون في العراق مقامًا باسم الشيخ «عدي» ولهم كتاب ديني يُسمى «الجلوة».

والتسمية (عبدة الشيطان) تعود إلى قرون من الاضطهاد الذي تعرّض له اليزيديون. وفي ١٧٩١، أطلق عليهم الوزير العثماني في العراق أحمد باشا هذه التسمية بعد ان قتل منهم مجموعة وبعث برؤوسهم المقطوعة إلى اسطنبول. أما أكثر الكتاب الذين أشاعوا هذه التسمية في التاريخ المعاصر فكان الأب أنستاس الكرملي (١٨٦٦-١٩٤٧، لغوي وأديب وصاحب مجلة «لغة العرب»، وعضو المجمع العلمي العربي، ومن مؤلفاته «خلاصة تاريخ بغداد») (مراجع هذا الموضوع: الكتاب الفرنسي المذكور أعلاه؛ المنجد؛ دراسات ميدانية قيمة كتبها الصديق الكاتب والصحافي السوري نبيل فياض، ونشرت بعضًا منها جريدة «الديار»، ١٩٨٩؛ ومقالة رشيد البندر، باحث عراقي، «الحياة»، العدد ١٢٠٠٤، تاريخ ٥ كانون الثاني ١٩٩٦، ص٢١).

الأشوريون (والكلدان): يعتبر كثيرون، لا بل الجميع ربما، أن أهم الكتب المؤرخة للعرب في عصر النهضة، وخاصة في فترة مرحلة الانتداب والاستعمار في العشرينات والثلاثينات، هو «يقظة العرب» لجورج انطونيوس. فماذا في هذا الكتاب عن الأشوريين في العراق في العشرينات والثلاثينات (ص٤٨٧-٤٩٠)؟:

«أما الأشوريون الذين تردّد ذكرهم كثيرًا في السنوات الأخيرة (أي في اواسط الثلاثينات) فإنهم يشكلون مجموعة أخرى متميزة غير عربية، وهم كالأكراد يحتشدون في الموصل وكان تعدادهم يبلغ ٣٥ ألف نسمة (سكان العراق كانوا يزيدون قليلاً عن ٣ ملايين)، وهم ينتمون إلى الكنيسة النسطورية. وقد خلق وجود هاتين الاقليتين (المقصود بالأقلية الثانية الأكراد) وغيرهما ووجود عدد كبير من السكان في حال البداوة مشكلات ذات طابع سياسي واداري عوّقت مهمة البناء (المقصود بناء الدولة) بل كانت احيانًا تهددها بالانتكاس. وربما كانت القبائل البدوية هي أخطر الصعوبات جميعًا فالقبائل دائمًا مشكلة في إقامة حكومة نظامية غير ان أمرها في العراق أعسر لعوامل محلية متنوعة مثل الارض والماء والدين (...). وكان أكثر الأشوريين مهاجرين من جنوب شرقي الأناضول هربوا من ظلم الترك خلال الحرب، ولجأوا إلى العراق، ودخلوا تحت جناح القيادة العسكرية البريطانية، وكان عدد كبير منهم قد سلكوا أنفسهم في خدمتها. ولم يكن بينهم وبين العرب (بل وغير العرب) من سكان العراق أية روابط مشتركة. ومما زاد في انكماشهم انهم منذ الايام الاولى انحازوا-علنًا-إلى جانب الدولة المحتلة. وكانت المشكلة التي خلقها وجودهم في العراق من بعد فريدة من عدة وجوه، إلا ان صعوبتها لم تنشأ من أعدادهم أو فقرهم أو احتياجاتهم الخاصة، وإنما نشأت من الأثر النفسي الناجم عن موالاتهم للدولة المنتدبة طوال عهد الانتداب، فكانت تلك الموالاة حاجزًا آخر بينهم وبين الشعب الذي التجأوا إليه، وكما أنها زادت من شعورهم بالانكماش والعزلة، طمست إحساسهم بالتناسب وجنحت بهم إلى الاسراف في الآمال وإلى اعتمادهم المردي على خصائصهم الحربية

(...). كان الملك فيصل وحكومته أكثر نجاحًا في معالجة أمور الاقليات. ذلك لأن مشكلة الأقليات كانت مما تمرّس به زعماء العرب وخبروه لاتصالها بنفس الامور التي كانوا يتجادلون هم والاتراك حولها من قبل، وكانت السياسة التي اختاروها تعتمد على حسن الادراك والتسامح. فقد أدركوا أهمية القيم الثقافية والحرية الطائفية-لأنهم كانوا يحسونها إحساسًا عميقًا- لذلك كانت الامتيازات التي منحوها للأقليات سخية مشمولة بالحكمة. ونتجت عن ذلك سلسلة من التشريعات والإجراءات الخاصة، توصلوا إليها بالاتفاق مع زعماء كل أقلية، وبرهنت على انها قابلة للتطبيق، ولم تشذ عن ذلك إلا الأقلية الأشورية. وقد ذهبت حكومة العراق في معالجة مشكلة الأشوريين إلى أقصى حد تستطيعه في تقديم الامتيازات غير ان المطالب المسرفة التي تقدم بها البطريرك الأشوري وجماعة شرسة من زعماء تلك الطائفة جعلت الاتفاق مستحيلاً. نعم لا شيء يسوّغ الاعمال الوحشية التي أُنزلت بالأشوريين بعد ثورتهم المسلحة في صيف ١٩٣٣، كما ان المذبحة التي جرت هنالك وصمة معيبة في صفحات التاريخ العربي، ولكن هذا لا يغير شيئًا من الحقيقة: وهي ان حكومة العراق قبل تلك الحادثة لم توفر جهدًا لكي تحقق كل الرغبات التي أفصح عنها الأشوريون، وان العروض التي تقدمت بها الحكومة لم تكن منصفة فحسب بل كانت سخية كذلك. غير ان الاخفاق في الوصول إلى اتفاق نجم في الدرجة الاولى عن عناد الأشوريين وعن الموقف الفائل الذي وقفه بعض زعمائهم. ويقع جانب من المسؤولية على عاتق البريطانيين ايضًا: أولاً لأن زعماء الأشوريين ظنوا المحاباة العلنية التي أبدتها السلطات العسكرية البريطانية وبعض الأساقفة الانغليكانيين نحوهم تعني مقدارًا كبيرًا من المساعدة أكثر من حقيقتها، وثانيًا لأن دولة الانتداب لم تصغ سمعها إلى الانذارات التي تتحدث عن الاضطرابات، وقد ظل الموظفون البريطانيون في العراق يرسلونها إلى وزارة المستعمرات طوال السنوات التي سبقت اندلاعها».

أشوريو اليوم هم أحفاد الأشوريين أصحاب الحضارة المعروفة في بلاد ما بين النهرين؛ حافظوا على تقاليدهم المميزة، وخاصة على لغتهم التي ما زالوا ينطقون بها، وهي تعود في أصولها إلى مزيج من اللغات الأشورية والأرامية والبابلية القديمة. احتموا بجبال شمالي العراق ولم يختلطوا بالشعوب التي غزت بلادهم.

في القرن الأول الميلادي، اعتنق الأشوريون المسيحية على أيدي رسل القديس توما. ومنذ ذلك الوقت

رابطة الكلدان من ذوي الاصل العراقي في ديترويت (الولايات المتحدة، ١٩٤٧).

ارتبط تاريخهم بتاريخ المسيحية. وفي مطلع القرن الخامس برز منهم البطريرك نسطور الذي عارض فكرة ألوهة المسيح وقال إنه ذو طبيعة مزدوجة. وعلى رغم أن نسطور عوقب ونفي إلى ليبيا، فإن الأشوريين تمسكوا بمذهبه وأصبح هذا المذهب صفة قومية.

قدّم الأشوريون مساعدة للفاتحين المسلمين، وساهموا في عهود الحضارة العربية في ادارة الدولة وفي ثقافتها سيما في مجال ترجمة العلوم والفنون عن اللغات الأجنبية التي كانوا يتقنونها بفضل صلاتهم العريقة مع الشعوب المجاورة. وفي بعض الفترات، تعرّض الأشوريون للاضطهاد فهاجر قسم كبير منهم إلى أنحاء متفرقة، ولا سيما إلى الصين وأذربيجان وروسيا.

في ١٨٤٥، اعترفت بهم اسطنبول كملّة مستقلة من الملل العثمانية. ومع موجة قدوم المبشرين الغربيين (والارساليات) إلى المنطقة، قاومهم الأشوريون بقوة ولم يعتنق المذاهب الغربية (الكاثوليكية والبروتستانتية) سوى عدد قليل منهم.

عن فترة ما بين الحربين العالميتين، الاولى والثانية، كتب محمد خليفة، كاتب وصحافي سوري («الحياة»، ١١ آب ١٩٩٣): «إبان الحرب العالمية الاولى ثار الأشوريون على الاتراك وقاتلوا بضراوة على أمل ان تمنحهم الدول الاوروبية المتحالفة بعد هزيمة تركيا حق تقرير المصير وتسمح لهم بتأسيس وطن قومي، خصوصًا ان الروس والانكليز دغدغوا هذه الاماني في نفوسهم. غير ان الاحداث لم تسفر سوى عن مأساة، فقد تراجعت الدول الاوروبية بعد الحرب عن تعهداتها الغامضة لهم واكتفت بمناقشة قضيتهم مرارًا وتكرارًا في عصبة الأمم، وطالبت الدول التي يعيشون بها بمنحهم حقوقهم الثقافية. إلا ان تركيا عاقبتهم بقسوة، فنزح عشرات الالوف منهم (من جنوب شرقي الاناضول) وانضموا إلى اخوانهم في العراق، وقامت ايران ايضًا باضطهادهم وتهجيرهم، فتجمع العدد الأكبر منهم في العراق وسورية. وأقامت بريطانيا لهم معسكرات تحت حمايتها باشراف عصبة الامم (نحو ٣ آلاف هاجروا، في ١٩١٥، إلى روسيا، واصبح عددهم اليوم نحو ٤٥ ألفًا، ١٠ آلاف في العاصمة موسكو). وواصل الأشوريون محاولاتهم إلى انتزاع دعم الدول الاوروبية لاقامة دولة في شمالي العراق، لكن الانكليز الذين كانوا يحتلون العراق استغلوهم لمصالحهم، فشكلوا منهم «كتائب عسكرية» اعتمدوا عليها في قمع انتفاضة الأكراد والعرب، مما أحدث جرحًا عميقًا في العلاقات بين العناصر الثلاثة نتج عنه قيام الأكراد والعرب لاحقًا (أي في ١٩٣٣) بالانتقام منهم في معارك ضارية، أخذت طابع المذابح الجماعية وأسفرت عن فرار عشرات الآلاف منهم إلى سورية وقيام الحكومة العراقية بفرض الإقامة الجبرية على زعيمهم السياسي والروحي البطريرك مار شمعون في بغداد، قبل ان تجرده من جنسيته وتسمح له بالهجرة إلى أميركا. وطوال ثلاثين سنة استمر النزاع والاقتتال بين الأكراد والأشوريين خصوصًا بعد أن عزّز الأكراد ثورتهم المسلحة، نظرًا إلى ان النزاع بين الجانبين بات يدور حول أرض واحدة يعتبرها كل منهما أرضًا قومية له ويسعى لإقامة كيان سياسي عليها. ودُمغ الأشوريون بالعمالة للأجنبي. وقد تكررت المحنة في سورية، حيث استقبلت سلطات الانتداب الفرنسي عشرين ألفًا منهم بعد نزوحهم من تركيا والعراق ووطّنتهم في شمالي سورية (محافظة الحسكة). وداعبت فرنسا احلامهم القومية لكنها في النتيجة لم تفعل سوى ما فعلته بريطانيا، إذ استخدمتهم كمقاتلين أشداء لتدعيم احتلالها وسخت عليهم بامتيازات مادية، وحين استقلت سورية تمّ تجريد الأشوريين من تلك الامتيازات، مما دفعهم إلى الهجرة الواسعة إلى أميركا واوروبا».

في مطلع السبعينات، بدأت صفحة جديدة في المسألة الأشورية. ففي ١٦ نيسان ١٩٧٢، اتخذت السلطات العراقية مجموعة قرارات لصالح الأقلية الأشورية (بما فيهم الأقلية الكلدانية). فاعترفت بحقوقهم الثقافية، حيث سمحت لهم بتدريس لغتهم في المدارس الابتدائية والمتوسطة، وتدريس العربية كلغة ثانية، وافتتح في جامعة بغداد قسم للغة والآداب الأشورية، وتأسست أكاديمية للغة الأشورية، وقسم خاص بهم في اتحاد كتّاب العراق، والتزمت الدولة تقديم المساعدات المادية والمعنوية للكتّاب والفنانين الآشوريين، وأعيدت الجنسية العراقية للبطريرك الآشوري مار شمعون الثالث المبعد عن العراق منذ ١٩٣٣.

لكن قبل هذه الاجراءات، أي في ١٩٦٨، عقد في باريس المؤتمر الآشوري الاول الذي اسفر عن تأسيس «الاتحاد الآشوري العالمي» كمنظمة عالمية للدفاع عن حقوق الأشوريين وتوحيد صفوفهم حيثما كانوا في العراق أو تركيا أو ايران أو سورية أو الاتحاد السوفياتي أو قبرص أو الولايات المتحدة واوروبا. وسرعان ما ظهرت في هذه المنظمة تيارات متباينة حول الاهداف: تيار يطالب بالكفاح لإقامة دولة مستقلة في مناطق حضورهم التاريخي (شمالي العراق، شمال شرقي سورية، جنوب شرقي تركيا وغرب

شمالي ايران، وهي المناطق نفسها التي يعتبرها الأكراد وطنهم القومي)، وتيار يكتفي بالمطالبة بحكم ذاتي في مناطق كثافتهم السكانية، وثالث يقلّص المطالب إلى حكم اداري واعتراف بالحقوق الثقافية. وكان أقصى ما تمكنت منظمة الاتحاد الآشوري العالمي من تحقيقه هو الانضمام إلى منظمة الشعوب التي ليس لها حكومات ودول (U.N.P.O) وتضم نحو ثلاثين شعبًا، منهم الأكراد والتركمان والهنود الحمر وسكان أوستراليا الاصليين...

وفي أعقاب حرب الخليج الثانية، ظهرت احزاب ومنظمات سياسية للآشوريين، أهمها «الحركة الديمقراطية الآشورية» التي دخلت عضوًا في «الجبهة القومية الكردستانية»، وهي طرف من أطراف المعارضة العراقية الحالية. وتقول هذه الحركة إنها لا تطالب بالانفصال، ولكنها تسعى للاعتراف بالقومية الآشورية.

أما بالنسبة إلى الكلدان، فإن مسارهم التاريخي واحد تقريبًا مع الأشوريين، وهم مثلهم يتحدرون من الكلدان والبابليين والآشوريين أصحاب الحضارة التاريخية العريقة في بلاد ما بين النهرين. كان الكلدان أكثر انفتاحًا على المبشرين (والارساليات) الغربيين، فتشكلت فيهم كنيسة كاثوليكية، كما منهم عدد من البروتستانت. تاريخهم السياسي الحديث، بما فيه الهجرات (خاصة إلى الولايات المتحدة)، مندمج إلى حد كبير بتاريخ الآشوريين، ويفضل الكلدان تسمية «الحركة الديمقراطية الآشورية» باسم «الحركة المسيحية»، كما ويدفعون باتجاه تعاون كردي-مسيحي على ان تحترم الأكثرية الكردية مشاعر الأقلية المسيحية وحقوقها. حالية الكلدان ناشطة في الولايات المتحدة، وتعمل على إقناع الحالية الآشورية هناك على ان يتسجل أفراد الجاليتين هناك باسم مشترك هو «كلد-آشور» في الاحصاء المقبل لسكان الولايات المتحدة المقرر إجراؤه في العام ٢٠٠٠، ذلك انه إذا كان عدد المسجلين ١٠٠ ألف فأكثر يصبح بامكانهم الحصول على امتيازات ومنافع تقرّ بها السلطات الفدرالية هناك. وكذلك، تجري الكنيسة الكلدانية مفاوضات مع الكنيسة النسطورية (الآشورية) لتوحيد الكنيستين.

التركمان: أماكن تجمعهم الأساسية هي المنطقة السهلية الفاصلة بين المنطقة الجبلية الكردية من تلعفر في الشمال الغربي من العراق إلى مندلي في الجنوب الشرقي منه. وأهم مراكزهم السكنية: قرى قضاء تلعفر التابعة لمحافظة الموصل، مدينة أربيل وبعض القرى التابعة لها، وكذلك بعض القرى التابعة لمحافظة كركوك.

أما تعدادهم بحسب ما ورد في إحصاء ١٩٤٧ هو ٢٨١٣٠ تركمانيًا من أصل ٣ ملايين و٤٦٨ ألفًا هو إجمالي عدد سكان العراق. وفي إحصاء ١٩٥٧، كان العدد ٥٦٧ ألف تركماني (٦ ملايين و٣٧٦ ألفًا مجموع عدد سكان العراق). ونتيجة لإحصاء ١٩٨٧ (١٨ مليونًا مجموع عدد سكان العراق) ذكرت التقديرات ان التركمان أصبح عددهم يناهز ١،٥-٢ مليون نسمة. مسلمون باستثناء بضع مئات من الكاثوليك في قلعة كركوك.

يعود التركمان إلى الاصول التركية، كما يعود وجودهم في العراق إلى نحو ألف سنة، وقد زاولوا الحكم فيه قبل العثمانيين بنحو قرنين من الزمن. بدأ استيطانهم أرض العراق منذ الامويين. وفي العهد العباسي، شكل الخليفة المنصور، والخليفة هارون وحدات عسكرية منهم بغية إيجاد توازن مع الفرس في جيشهما، في حين اعتمد المعتصم كليًا عليهم واسكنهم سامراء. وكثر عددهم في ايام البويهيين ثم الصفويين ثم السلجوقيين. وفي عهد هؤلاء تأسست عدة إمارات تركمانية في الموصل وكركوك وأربيل... وامتدت فترة حكم الامارات-الدول التركمانية ١٩٦ عامًا.

وفي العهد العثماني، رافقت عشائر من التركمان الحملات العثمانية، أهمها حملة السلطان سليمان القانوني (١٥٣٤)، وحملة السلطان مراد الرابع (١٦٣٨) الذي استرد فيها بغداد من أيدي الصفويين. وكان العثمانيون يُسكنون هؤلاء التركمان المشتركين معهم في الحملات العسكرية في المواقع والحاميات المكلفة حماية «الطريق السلطاني العظيم»، أي المنطقة التي يسكنها التركمان في الوقت الحاضر. ولأنهم كانوا معتادين على الحكم والادارة والحياة المدنية، فقد زوّدوا الدول العثمانية بالموظفين والاداريين ونُخب في الصناعة والتجارة.

مع الاحتلال الانكليزي للعراق ثم مع الانتداب وبداية قيام الدولة العراقية، بدأ التركمان ينكفئون عن مواكبة الأحداث، وفسّرت السلطات، بما فيها الوطنية، موقفهم بالسلبية استنادًا إلى الخلفية التاريخية، فزاد هذا الأمر من انكفائهم وتخلفهم، خاصة وان التركمان تعرّضوا في ١٩٢٤ إلى مجزرة بتدبير من الانكليز وبواسطة جنود «الليفي» من ا لأشوريين.

بعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨، رأى بعض قادة التركمان أن الوقت حان للخروج من العزلة، وربما من التخلف. فأرسلوا برقيات تأييد للزعيم عبد الكريم قاسم،

وأظهروا قدرًا كبيرًا من الفرحة والتأييد المطلق للثورة في عيدها الأول (١٩٥٩). لكن ذلك لم يرح بعض الاطراف، فوقعت مجزرة بشعة بحقهم ذهبت بأرواح خيرة من شبابهم أثناء الاحتفال في مدينة الموصل (راجع «الحزب الشيوعي» في باب الاحزاب). فكانت صدمة عنيفة جدًا احجم بعدها التركمان من جديد عن التفاعل مع الاحداث، و لم ترتفع عنهم الضغوط والملاحقات بعض الشيء إلا في عهد عبد الرحمن عارف.

في ١٩٧٣، نص الدستور العراقي المؤقت، وكذلك الدستور الذي أعلن عنه في ١٩٩٠، على ان الشعب العراقي يتألف من العرب والأكراد. وفي تعداد ١٩٧٧ و١٩٧٨، ارغم التركمان على تحديد أصولهم العربية أو الكردية في استمارة الاحصاء، وصدر مرسوم جمهوري عشية الاحصاء اعتبر التركمان عربًا رسميًا، وبدأت تتخذ إجراءات في مناطق الشمال، خاصة في محافظة كركوك، على أساس هذا المرسوم، لا سيما في ما يتعلق بالعقارات والأسماء.

لم يحمل التركمان السلاح منذ قيام دولة العراق الحديث (بعد الحرب العالمية الاولى) ولا شاركوا في الاحداث السياسية، بل حُمل السلاح ضدهم وجاءت الاحداث لتطبق عليهم العزلة. لكن حرب الخليج الثانية غيرّت من ا لمشهد المعروف عن التركمان، فشاركت بعض تشكيلاتهم في انتفاضة آذار ١٩٩١ الفاشلة، ثم بدأ بعضهم ينتظم في حركات وتجمعات سياسية داخل جبهات المعارضة. وكان لتصريحات الرئيسين التركيين، أوزال وديميريل، حول «إعادة النظر في الحدود» (توقف الحديث عنها منذ اواخر ١٩٩٥) أن أعادت البحث على نطاق واسع في وضع التركمان كأقلية قومية (راجع «مسألة الموصل» في باب معالم تاريخية).

كردستان العراق

(لخريطة توزع الأكراد على العراق وتركيا وايران وسورية، راجع ج٦، ص٢٤١. وراجع «كردستان ايران»، ج٤، ص١٧٢-١٧٩؛ و«كردستان تركيا»، ج٦، ص٢٤١-٢٥٥).

نظرة عامة: يشكل الأكراد، عمومًا، وحدة قومية خاصة. يدينون بالاسلام في ما عدا أقلية صغيرة يزيدية وأقلية أصغر مسيحية، كما ان هناك أقلية يهودية (راجع «يهود كردستان وعلاقات كردية-اسرائيلية» في هذا الباب). المذهبان الرئيسيان هما السنة والشيعة. فالأكراد الذين يعيشون في كردستان العراق (المناطق الشمالية) وكردستان ايران في غربي أذربيجان إضافة إلى ثلثي أكراد تركيا هم على المذهب السني، فيما الآخرون على المذهب الشيعي. وللأكراد لغتهم القومية التي تنتمي إلى مجموعة اللغات الايرانية التي تمثل فرعًا من مجموعة اللغات الهندو-اوروبية. ولكنها لغة نقية لها مميزاتها الخاصة وتطوراتها القديمة والمعاصرة. ويتوزع الأكراد سكانيًا وجغرافيًا على الحدود العراقية-السورية والعراقية-التركية والعراقية-الايرانية والايرانية-الأذربيجانية والايرانية-الأرمنية. أي ان الأكراد يعيشون على حدود العراق وتركيا وايران وسورية وأذربيجان وأرمينا، ولكن تواجدهم الفعلي والذي رسّخ نتيجة العديد من العوامل التاريخية والجغرافية والسياسية جعلهم يتركزون في شمالي العراق، حيث ينطلقون من هناك لإثارة الاضطرابات مع الدول المجاورة أو مع العراق نفسه، ولعلّ ذلك ما جعل العراق الدولة الوحيدة التي عانت بشدة من بين الدول السابقة الذكر من تحركات الأكراد. وعلى الرغم من ان تقدير عدد الأكراد يمثل إشكالية كبيرة بفعل تضارب الاحصائيات وتنوعها، إلا انه مؤخرًا بات هناك إجماع على انهم لا يقلون عن ٢٠ مليون كردي، موزعون كالآتي: ١٢ مليونًا في تركيا، ٤ ملايين في العراق، مليونان في ايران، والباقون موزعون في سورية وأذربيجان وأرمينيا،

كما ان تواجدًا رمزيًا لهم في بعض الدول العربية مثل مصر والاردن. وتعتبر أهم قبائل الأكراد في العراق هي: برزان، الطالبانية، البابان، الجاف، والسيزيديون. وعبر التاريخ الكردي في العراق، كان هناك العديد من الفصائل والجمعيات والاحزاب، ويمكن ان نقول إنها مرّت بمرحلة فرز سياسي وصراعي أسفرت عن بقاء فصيلين رئيسيين تتجمع حولهما بقية الفصائل الكردية وهما الحزب الديمقراطي الكردستاني بزعامة مسعود البرزاني، والاتحاد الوطني الكردستاني بزعامة جلال الطالباني (عن مجلة «السياسة الدولية»، العدد ١٢٦، تشرين الاول ١٩٩٦، ص١٣٣-١٣٤).

نبذة تاريخية: يوجز محمود عثمان (أقرب السياسيين الأكراد للملا مصطفى البرزاني، وشارك في جميع الوفود الكردية التي تفاوضت مع بغداد وآخرها في ١٩٩١) تاريخ الأكراد بقوله (مطلع كلمته في اللقاء العربي-الكردي الذي نظمته في القاهرة، في حزيران ١٩٩٨، اللجنة المصرية لمنظمة التضامن الأفرو-آسيوي، «الحياة»، العدد ١٢٨٩٧، تاريخ ٢٦ حزيران ١٩٩٨، ص١٦):

«عاش الأكراد في وطنهم كردستان، وحسب الحقائق الجغرافية والتاريخية، منذ آلاف السنين. والأدلة والبحوث والدلالات على ذلك كثيرة، قبل الميلاد وقبل التوثيق العربي، كما ورد في زمن زينوفون اليوناني الذي مرّ من كردستان في القرن الرابع ق.م. وذكر عن مسيرته الشاقة هذه، إضافة إلى ما هو معلوم عن كردية الحوريين والمتانيين والميديين وغيرهم، ثم يأتي التوثيق العربي (ابن الأثير والمسعودي وغيرهما). وهذه الدراسات تؤكد ايضًا الانتشار الجغرافي للأكراد خلال القرون العشرة الاولى من الفتوحات في موطنهم كردستان. وبعد القرن السادس عشر تبدأ الدلائل والوثائق العثمانية، كما ورد في ما كتبه «أولياجلبي» في القرن السابع عشر، بعد رحلته في المنطقة، عن وجود الأكراد في مناطق سكناهم في الامبراطورية العثمانية، وكذلك في كتاب «الشرفنامة» للمؤرخ الكردي البدليسي (القرن ١٦). وللاستمرار في التسلسل التاريخي نأخذ ما كتبه الفرنسي بيار جوبير في ١٨٢١ (رحلة إلى أرمينيا وبلاد فارس) الذي يذكر ان كردستان تمتد من جبال آرارات شمالاً وحتى جبل حمرين جنوبًا، ومن أورمية ووان شرقًا حتى نهر دجلة غربًا. ثم نأتي إلى الأب أبوجحي اليسوعي ١٨٨٦ الذي يؤكد هذه الحقائق، ومن ثم يقول «تعتبر كردستان من أحسن الاراضي العثمانية»، ويعني بذلك الموارد الطبيعية. بعد هذا نتناول عهد الاستعمار الغربي، فلقد زرع مارك سايكس الانكليزي كردستان شبرًا شبرًا ووضع خرائط مفصلة عام ١٩٠٨ ثم تجاهل كل شيء حول واقع الشعب الكردي ووطنه واتفق مع جورج بيكو الفرنسي على تقسيم كردستان في معاهدة سايكس-بيكو (١٩١٦). في الوقت نفسه كتب مينورسكي الروسي دراسة «الأكراد: دراسات وانطباعات» في ١٩١٥ يحدد فيها المنطقة الكردية، وينطبق التحديد هذا إلى حدّ كبير مع ما سبق ذكره من دراسات. خلاصة القول إن الأكراد شعب عريق كالعرب، كما تؤكد المصادر التاريخية التي يرجع بعضها إلى ثلاثة آلاف عام أو أكثر».

بالنسبة إلى تدوين تاريخ الأكراد، ننقل ما ذكره الكاتب الكردي حسين أحمد الجاف («حكايات تراثية كردية»، الجمهورية العراقية، وزارة الثقافة والاعلام، دار النشر والثقافة الكردية، ١٩٨٨، ص٣-٤):

«... فالذي يقرأ حكاياتنا الشعبية الكردية التي تنوقلت شفاهًا من عصور سحيقة في القدم إلى اواسط القرن الثامن عشر حيث قيض لبعضها أن يُدون بيراع بعض المستشرقين حيث ظل تراث الشعب الكردي الذي أنجب قادة عظامًا مثل كاوة الحداد داحر الظلم ومحطم اسطورة الطاغية ضحاك ومنجب صلاح الدين الايوبي محرر القدس من براثن الصليبية الغازية ومنجب مفكرين عظامًا وكتابًا كبارًا أمثال ابن خلكان (صاحب وفيات الاعيان) وابن النديم والدينوري والجزري والقاضي الشهرزوري (فقيه دمشق وقاضيها الشهير) وعشرات القادة والمفكرين الأخرين الذين خدموا الحضارة العربية الاسلامية والفكر الانساني بسيوفهم أو اقلامهم... أقول ظل تراث هذا الشعب العريق الذي ورد ذكره تحت إسم «كوردراها» أو «كودراها» في أقدم المدونات السومرية كما يقول كيرزن (عن كتاب Anthropology of Iran and Iraq للعلامة هنري فيلد) والذي ذكره زينفيون تحت «كوردوكي» أو «كوردي ليو» في كتابه «أناباسيس» من ان شعبًا تحت إسم «كوردوكيو» قاوم حملة العشرة آلاف فارس التي قادها زينفيون (عن مفكرة بيره ميرد الكردية، للاستاذ نريمان لعام ١٩٨١) بالذات عبر بلاد الكرد وفارس سنة ٤٠١ق.م. قاوم الكرد تلك الحملة بشجاعة واستبسال نادرين... ظل تراث هذا الشعب شأنه شأن لغته الكردية نفسها مهملاً... وبدون تدوين لقرون طويلة».

ويتابع حسين أحمد جاف (المرجع المذكور أعلاه،

ص٦): «ومما يجب ان لا يفوتنا ذكره هنا هو أن أول صحيفة كردية هي «كردستان» التي صدر عددها الاول في ٢٢ نيسان عام ١٨٩٨ في القاهرة التي كانت يومئذ أهم عاصمة عربية من قبل مقداد وعبد الرحمن بدرخان. وفي ظهورها على تلك الارض العربية من المدلولات العميقة التي تتضمن فيما تتضمن تسامح العرب تجاه انتشار ثقافة أشقائهم الكرد في تلك الفترة التي كانت سياسة التتريك سيئة الصيت على أشدها في باقي أرجاء الدولة العثمانية بينما فتحت القاهرة صدرها لتستقبل الوليد الصحفي الكردي الاول بكل تقدير واحترام (تقول مراجع أخرى ان هذه الجريدة استمر صدورها حتى شباط ١٩٠٢، وصدر منها ٣١ عددًا، وتوجد مجموعة أعدادها في مكتبة هامبورغ في المانيا). ومن جهة الكرد كشف ظهور الجريدة في القاهرة عمق ما يعتمل في نفوس الكرد من حب تجاه أشقائهم العرب. واليوم في عراق الحضارة والانتصار ومنذ بيان الحادي عشر من آذار التاريخي عام ١٩٧٠ أخذت الثقافة الكردية تخطو خطوات واسعة جدًا على طريق الرسوخ والتطور والنمو بحيث صار العراق أهم مركز إشعاع ثقافي كردي في العالم بما تحظى به المؤسسات الثقافية الكردية من دعم الدولة ورعايتها المستمرة» (وبالفعل، وقف مؤلف هذه الموسوعة، أثناء مشاركته في مهرجان المربد، صيف ١٩٨٨، في بغداد، على عشرات المؤلفات الكردية بالعربية والكردية والصادرة جميعًا في السبعينات-بعد بيان آذار ١٩٧٠-والثمانينات، لكن كلها عن دار النشر والثقافة الكردية التابعة لوزارة الثقافة والاعلام العراقية).

ربما كان العام ١٥١٤ هو العام الذي يشكل البداية البعيدة لما يسمّى اليوم «القضية الكردية»، أو لما يمكن اعتباره بداية للتاريخ الحديث والمعاصر للأكراد، سواء في العراق أوايران أو تركيا أو سورية أو في أماكن تواجد مجموعات لهم في ارمينيا وغيرها. ففي ذلك العام عمدت الامبراطوريتان المتصارعتان، الفارسية والعثمانية، إلى تقسيم ارض الأكراد في ما بينهما. ولم يعرف الأكراد لهم دولة موحدة. وقد ظهرت النزعة القومية عندهم في مرحلة متأخرة، أي عند بلوغ الوعي القومي أوجه على إيقاع الثقافة السياسية الغربية، أثناء الحرب العالمية الاولى وبعيدها خاصة على إيقاع الوعود التي أغدقتها الدول الاوروبية للشعوب الخاضعة للسلطنة العثمانية، ومبادىء الرئيس الاميركي، ويلسون، الاربعة عشر الخاصة بحق شعوب الشرق في تقرير مصيرها بأنفسها.

في مطلع القرن العشرين قاد ثورة الأكراد ضد السلطات العثمانية الشيخ عبد السلام البرزاني، وخاصة في ١٩٠٧، واستمرت حتى سلّمه أكراد «تابون» لوالي الموصل العثماني الذي أعدمه.

بعد الحرب العالمية الاولى: لذلك، ولأن الامبراطورية العثمانية كانت رازحة بكل ثقلها وقمعها على صدر شعوب الشرق وتمنع عليهم أي تطلع للتحرر، جاءت هزيمتها، وجاءت الوعود الغربية، فرصة لانبعاث التطلعات التحررية الدفينة عند تلك الشعوب، منهم الأكراد.

«يذكر الحاكم العسكري البريطاني في العراق الكولونيل أرنولد ويلسون، في مذكراته حول تلك الفترة انه حين زار الزعيم الكردي الشيخ محمود الحفيد في مستشفى ببغداد حيث كان يعالج من آثار جراح أصيب بها في قتال ضد القوات البريطانية عام ١٩١٩: ذكرني الشيخ محمود ببنود ويلسون الاربعة عشر وقرأها لي حين أخرج القرآن وفي داخله بنود الرئيس الاميركي مترجمة إلى اللغة الكردية مع نص البيان الذي كانت بريطانيا وفرنسا

الملا مصطفى البرزاني.

قد اصدرتاه ونشرتاه عام ١٩١٨ حول حقوق الأقليات» (سامي شورش، كاتب كردي من العراق، «الحياة»، ٧ تشرين الثاني ١٩٩٤).

في ١٩١٩، والدولة العراقية الحديثة لم تعلن بعد، قاد الشيخ محمود البرزاني ثورة أخرى فاشلة تلاها رفض الشيخ أحمد البرزاني الانضمام للدولة العراقية. لكن الأكراد نجحوا في إرسال مندوب عنهم إلى مؤتمر الصلح في باريس للمطالبة بحقهم في كيان كردي. وفي ١٩٢٠، افلحوا في إقناع المجتمع الدولي بضرورة تضمين اتفاقية سيفر ثلاثة بنود خاصة بحق الأكراد في إقامة ادارتهم الذاتية المستقلة. كذلك استطاعوا في ١٩٢٢، من إقامة مملكة كردية حازت على اعتراف الحكومتين العراقية والبريطانية عبر بيانهما المشترك الصادر في ٢٢ كانون الاول ١٩٢٢. وكانت هذه المملكة، وعاصمتها السليمانية، تقاد من قبل مليكها الشيخ محمود، ولها رئيس ومجلس للوزراء (٧ وزراء) وجيش وطابع بريدي وصحافة. لكن هذا الكيان الكردي لم يدم سوى اشهر قليلة (عمّرت تقريبًا على قدر ما عمّر العهد الملكي الفيصلي العربي في سورية)، وسقط إثر هجوم عسكري مدعوم بالطائرات وبصورة متزامنة مع معاهدة لوزان (١٩٢٣) التي خلت من أي ذكر للشعب الكردي. وألحق الأكراد (بمناطقهم شمالي العراق، «كردستان العراق») بالدولة العراقية التي قامت أساسًا على ركيزتين اساسيتين: وطنية عراقية وقومية عربية. وكلاهما عمل على صهر العراقيين في بوتقة واحدة.

«في الواقع، مارست بريطانيا دورًا حذرًا في تذكير الحكومة العراقية بأهمية احترام رغبات السكان الأكراد في التعليم بلغتهم المحلية واستخدامها في المحاكم والأمور الادارية، إضافة إلى تعيين الموظفين والمستخدمين في المنطقة من أبناء القومية الكردية. لأنها كانت تعرف ان تخلخل العلاقة بين الدولة العراقية ومواطنيها الأكراد (حوالي ٢٣٪ من مجموع السكان) إنما يتسبب في مشكلات كبيرة ربما تعوق تطورها السياسي. لكن الدولة العراقية لم تلتفت بجدية لتنفيذ تلك النقطة. وإمعانًا في تلك السياسة ألغت الدولة عام ١٩٢٧ دائرة معارف كردستان كانت أقرتها عام ١٩٢٥ للاشراف على النشاطات التربوية والتعليمية بين الأكراد. وبدأت في السنوات اللاحقة بتكثيف تواجد موظفيها من خارج القومية الكردية في كردستان العراق، إضافة إلى بدئها بوضع اللبنات الاولى لسياسة تعريب المناطق النفطية في كركوك وخانقين مع ازدياد عمليات استخراج النفط منذ ١٩٢٧. إلى ذلك بدأت بشن حملات عسكرية خاصة بعد نيل العراق استقلاله السياسي (١٩٣٢) وتعاظم شوكة الجيش العراقي آنذاك، استهدفت تجريد عشائرهم (الأكراد) من سلاحها ومواقعها الاقتصادية. ثم لم يمض وقت طويل حتى ألغت قانونًا لاستخدام اللغات المحلية في المدارس والمحاكم كانت أقرتها عام ١٩٣٧. وإلى ذلك لم تسمح للمنظمات والاحزاب السياسية الكردية ممارسة أي نشاط علني مرخص» (سامي شورش، المرجع المذكور أعلاه).

الملا مصطفى البرزاني (الى اليسار) مع عبد الكريم قاسم في ١٩٥٨.

من الأربعينات إلى ١٩٧٠: فترة من تاريخ أكراد العراق متصلة مباشرة بزعامة كردية يمثلها مصطفى البرزاني (١٩٠٠-١٩٧٩) الذي عاش يحلم بدولة للأكراد. وفي ١٩٤٥، قررت الحكومة العراقية احتياح منطقة برزان لوضع حد للأعمال المخلة بالأمن التي يقوم بها رجال مصطفى البرزاني. وبرزان قرية هي مركز المشيخة التي كان استقر فيها الجد الاول للبرزانيين وأقام فيها تكية جذبت إليها المريدين والاتباع. وانتقلت مقاليدها في ما بين الأبناء والاحفاد حتى وصلت إلى الشيخ محمد البرزاني الذي توفي في ١٩٠٣، وخلّف خمسة أولاد هم: عبد السلام، الشيخ أحمد، محمد صديق، بابو، والملا مصطفى.

اندحر البرزانيون أمام الحملة الحكومية وفرّ أحمد البرزاني وأخوه الملا مصطفى ورجالهما إلى ايران فدخلوها في ١١ تشرين الاول ١٩٤٥. وحين انهارت الدولة الكردية الاولى في التاريخ وهي دولة «مهاباد» في كردستان ايران في ١٩٤٦ (راجع «ايران»، ج٤)، لجأ الرجل وأتباعه إلى الاتحاد السوفياتي على اعتبار انه معاد للامبريالية. وعاش هناك لمدة ١٢ سنة، أي إلى ان قامت ثورة ١٩٥٨ في العراق التي أطاحت الملكية. وبعد الدور الذي أداه وهو يتزعم الحركة الكردية طيلة نحو عشرين سنة، عاد الملا مصطفى البرزاني ليهرب من العراق حينما اشتدت عليه وطأة الضغط العسكري العراقي عام ١٩٧٥، لكن هذه المرة إلى الولايات المتحدة التي استقبلته في شيخوخته ومرضه، ولفظ أنفاسه في مستشفى البحرية الاميركية في ٢ آذار ١٩٧٩.

قبل زعماء ثورة ١٩٥٨ عودة الملا مصطفى ورجاله من المنفى السوفياتي إلى العراق. فغادروا موسكو وتوجهوا إلى رومانيا ثم إلى تشيكوسلوفاكيا، ومن هناك أرسل برقية إلى عبد الكريم قاسم وصفه فيها بـ«فخامة قائدنا المحبوب الزعيم الركن عبد الكريم قاسم بطل الثورة العراقية المجيدة». وقد وصل البرزاني إلى العراق في ٧ تشرين الاول ١٩٥٨ (وكان التقى، في طريق عودته، الرئيس المصري جمال عبد الناصر)، حيث وجد أن ثمة توجهات ديمقراطية بدأها قاسم: أجيزت الاحزاب السياسية وضمنها الحزب الديمقراطي الكردستاني، وأعلن الدستور الموقت ان الشعب العراقي يتكون من قوميتين رئيسيتين العرب والكرد.

لكن بحلول ١٩٦٠، توترت الاجواء بين البرزاني وحكومة قاسم التي بدأت «تسلك سياسات تستهدف صهر الشعب الكردي في البوتقة العربية». وشعر الملا مصطفى البرزاني بالخطر وغادر بغداد إلى مسقط رأسه «برزان» في شمالي العراق. وبوجوده هناك وقعت اضطرابات عشائرية وأعمال تمرد على السلطة المركزية. فاستغلت الحكومة هذه الاعمال وأرسلت طائراتها لتدك منطقة برزان في ١١ ايلول ١٩٦١، ما دعا الحزب الديمقراطي الكردستاني بزعامة الملا مصطفى إلى إعلان المقاومة المسلحة ضد بغداد. فكانت هذه بداية صراع دموي طويل خاضه البرزاني مع الحكومات العراقية المتعاقبة من أجل تحقيق هدف الأكراد في العراق أي الحكم الذاتي، وذلك حتى وفاته في ١٩٧٩. وأما الضربة الكبرى التي أصابت زعامته خلال هذا الصراع، فجاءت من انشقاق كتلة ابراهيم أحمد وجلال الطالباني عن الحزب الديمقراطي، والتحاق الطالباني في ١٩٦٥ بالحكومة العراقية وحمله السلاح بين ١٩٦٦ و١٩٧٠ إلى جانب الجيش العراقي لضرب الحزب الديمقراطي والبرزانيين.

بيان ١١ آذار ١٩٧٠ واتفاق الجزائر ١٩٧٥: عملت الحكومة على حل المشكلة الكردية التي باتت تتفاقم وتهدد أمن العراق ووحدته وتفتح الباب واسعًا امام مختلف التدخلات الاجنبية، القريبة (ايران وتركيا) والبعيدة (الولايات المتحدة واسرائيل والاتحاد السوفياتي...). فأصدرت بيان ١١ آذار ١٩٧٠ الذي حدّد الصيغة المتكاملة من النواحي النظرية والسياسية والعملية لحل تلك المشكلة حلاً سلميًا يضمن الحقوق القومية للأكراد، أي منح الحكم الذاتي للمنطقة الشمالية (كردستان العراق) ابتداء من ١١ آذار ١٩٧٤ ضمن نطاق الجمهورية العراقية وحسب المواد التي تضمنها قانون الحكم الذاتي الذي يجعل من أربيل عاصمة المنطقة ويعتمد على مجلس تنفيذي. كما جرى تعديل الدستور العراقي الموقت ليكون منسجمًا مع ذلك القانون.

وقد نص قانون الحكم الذاتي في مادتيه الاولين:

«المادة الاولى:

أ- تتمتع منطقة كردستان بالحكم الذاتي وتسمى المنطقة حيثما وردت في هذا القانون.

ب- تتحدد المنطقة حيث يكوّن الأكراد غالبية سكانها ويثبت الاحصاء العام حدود المنطقة وفقًا لما جاء في بيان ١١ آذار (١٩٧٠). وتعتبر قيود إحصاء عام ١٩٥٧ أساسًا لتحديد الطبيعة القومية للأغلبية السكانية المطلقة في الاماكن التي سيجري فيها الاحصاء العام.

ج- تعتبر المنطقة وحدة إدارية واحدة لها شخصية معنوية تتمتع بالحكم الذاتي في إطار الوحدة القانونية والسياسية والاقتصادية للجمهورية العراقية.

د- المنطقة جزء لا يتجزأ من أرض العراق، وشعبها جزء لا يتجزأ من شعب العراق.

المادة الثانية:

أ- تكون اللغة الكردية لغة رسمية إلى جانب اللغة العربية في المنطقة.

ب- تكون اللغة الكردية لغة التعليم للأكراد ويكون تدريس اللغة العربية إلزاميًا في جميع مراحل التعليم ومرافقه.

ج- يخضع التعليم في جميع مراحله، في المنطقة، للسياسة التربوية والتعليمية العامة للدولة».

إلا ان قيادة الحركة الكردية (البرزاني) رفضت تطبيق ذلك القانون عندما حل موعد تطبيقه في ١١ آذار ١٩٧٤، ورجعت إلى التمرد من جديد، علمًا ان العراق هو البلد الوحيد الذي دأب على الاعتراف بالهوية الكردية منذ ايام الملكية، فمنحهم حقوقًا ثقافية وإدارية ازدادت باضطراد حتى وصلت إلى الاعتراف بالحكم الذاتي. والحقيقة ان الدول المجاورة للعراق شعرت بـ«رعب» من تلك الخطوة العراقية التاريخية، فاستنفرت قواها لإحباط ذلك المشروع وإجهاض الحكم الذاتي. وفي حين ضغطت تركيا على الحكومة العراقية كي لا تمضي قدمًا في تنفيذ بيان ١١ آذار، عمدت ايران الشاه، ومعها الولايات المتحدة الاميركية إلى الضغط على القيادات الكردية لإبعادها عن كل اتفاق مع الحكومة المركزية العراقية. ولم يمر وقت طويل حتى انهار الاتفاق وعاد كل طرف إلى سلاحه. ووقفت ايران والولايات المتحدة واسرائيل إلى جانب البرزاني وامدته بالسلاح والمال لمقاتلة الجيش العراقي (أثناءها غلب على اللغة السياسية والقومية العربية في العراق والعالم العربي الخطاب الذي يتهم البرزاني بحلفه مع هذه الاطراف، ثم جاءت الوثائق واعترافات القادة الأكراد بعد حرب الخليج الثانية لتؤكد هذا الخطاب-راجع «يهود كردستان وعلاقات كردية-اسرائيلية» في هذا الباب)، في حين لم تتردد سورية وتركيا في الوقوف إلى جانب العراق وتطويق الأكراد ومحاصرتهم عبر الحدود، لا بل المشاركة في ضرب الأكراد وقصف مواقعهم (عملية تنسيق بين الجيش العراقي والجيشين السوري والتركي سميت «عملية دجلة»). وضاع الزعماء الأكراد في خضم الصراعات الاقليمية وتحولوا إلى اوراق بيد هذه الجهة أو تلك.

وانهارت مقاومة الأكراد في ١٩٧٥، في أعقاب اتفاقية الجزائر بين العراق وايران التي أبرمت أثناء مؤتمر أوبيك في الجزائر في ذلك العام (راجع «شط العرب» في باب معالم تاريخية).

أثناء حرب الخليج الاولى: لفهم وضع أكراد المنطقة الشمالية من العراق (كردستان العراق) أثناء هذه الحرب يجب الاشارة إلى ان الحزبين الكرديين الأساسيين: الديمقراطي الكردستاني والاتحاد الوطني الكردستاني، تعود جذور خلافهما إلى بداية الستينات حين انشقت جماعة بزعامة جلال الطالباني وابراهيم أحمد عن الحزب الديمقراطي الذي كان يتزعمه مصطفى البرزاني، والد زعيمه الحالي مسعود البرزاني. آنذاك اعتبر جلال الطالباني وابراهيم أحمد أن الحزب مجرد أداة بيد البرزاني ورجال العشائر الذين لا يهمهم سوى تعزيز مواقفهم الاقطاعية وانتزاع مكاسب شخصية على حساب المحتوى الفعلي لمطالب الاكراد القومية والسياسية والثقافية. ووقف جناح الطالباني وأحمد إلى جانب حكومة بغداد ودعا إلى حل سلمي للقضية الكردية في العراق وندد باصرار البرزاني على استمرار القتال وبتحوله إلى «أداة في يد الامبريالية الاميركية وشاه ايران».

وبعد الهزيمة الساحقة التي تعرضت لها الحركة الكردية في ١٩٧٥، ألقيت المسؤولية على كاهل البرزاني الذي ألقى السلاح وغادر إلى الولايات المتحدة وبعد ذلك، أعلن جلال الطالباني، في دمشق، عن تأسيس الاتحاد الوطني الكردستاني وجمع أنصاره للعودة إلى كردستان العراق واستئناف القتال. أما الحزب الديمقراطي الكردستاني فقد انتقلت قيادته إلى ابني مصطفى البرزاني إدريس ومسعود (ثم إلى مسعود بعد وفاة إدريس) اللذين أعلنا بدورهما مواصلة الكفاح المسلح ضد حكومة البعث العراقية. ورغم اتفاق الحزبين على مقاتلة بغداد أثناء حرب الخليج الأولى فقد بقي كل منهما ينظر إلى الآخر بعين الريبة والحنق معتبرًا الطرف الآخر «خائنًا» للقضية الكردية.

أثناء حرب الخليج الأولى (العراقية-الايرانية)، ورغم تبدل النظام الايراني من جهة، واتفاق الحزبين على مقاتلة الجيش العراقي من جهة ثانية، فإن نظام الجمهورية الاسلامية في ايران لم يتبنَّ قضية الأكراد السياسية، واكتفى، اثناء الحرب، بتقديم مساعدات للحركة الكردية العراقية وفق شروط قيام الحزبين الكرديين بعمليات مشتركة داخل العراق ومع القوات الايرانية. وقد تمت فعلاً هذه العمليات.

وبعد انتصار العراق في هذه الحرب، اتخذت الحكومة العراقية من هذا الموقف «الكردي الخياني» ذريعة لاعتماد سياسة الارض المحروقة مع الأكراد وتطبيق عمليات «الأنفال» (عمليات تقضي بإفراغ المنطقة الكردية، والإسم «الأنفال»، من آية في القرآن الكريم تسمح للمؤمنين التصرف بغنائم الكفار والخونة المهزومين)، ثم ارتكاب مجزرة حلبجة بالاسلحة الكيماوية في ١٦ آذار ١٩٨٨، حيث قُتل وجرح الآلاف بحسب ما تناقلته وسائل الاعلام العالمية. وحلبجة مدينة كردية عراقية يبلغ تعداد سكانها نحو ١٧٠ ألف نسمة.

ولمواجهة هذه الضربات الساحقة للجيش العراقي، أقام الحزبان اللدودان جبهة مشتركة سارت على نحو وفاقي حتى ايار ١٩٩١ حين أقيمت الحكومة المحلية في أربيل.

في أعقاب حرب الخليج الثانية: كرونولوجيا أهم أحداث ١٩٩١-ايار ١٩٩٨: «وفي السبعينات والثمانينات وحتى في مفاوضات ١٩٩١ (بين الاطراف الكردية العراقية والحكومة العراقية) التي جاءت بعد حرب الخليج الثانية وتأسيس المنطقة الآمنة عندنا (أي في كردستان العراق) واشتركت فيها الجبهة الكردستانية العراقية (الحزب الديمقراطي والاتحاد الوطني-مسعود البرزاني وجلال الطالباني)، لم يطالب الأكراد بأكثر من الحكم الذاتي (...) إلا ان الذي لمسناه في ١٩٩١ كان تراجعًا واضحًا عما اتفق عليه في ١٩٧٠ (أي في بيان ١١ آذار وقانون الحكم الذاتي) من بنود علنية وسرية خصوصًا في ما يتعلق بتحديد المنطقة الكردية، ووقف تغيير معالمها القومية، ومسألة الأمن والاستخبارات والعمل الحزبي للأكراد داخل القوات المسلحة (...) كما ان الحكم العراقي لم يوافق على صلاحيات تشريعية لمجلس كردستان الاقليمي ولا على مشاركة الأكراد في القيادة الحقيقية أي في صنع القرار العراقي (...) أدّت هذه العقبات المهمة إلى عدم الاتفاق بيننا (أي بين الاطراف الكردية) علمًا ان القيادة الكردية تحلّت في ١٩٩١ بمرونة في جولات مفاوضاتنا مع الحكومة العراقية» (محمود عثمان، سياسي كردي عراقي، «الحياة»، العدد ١٢٨٩٧، تاريخ ٢٦ حزيران ١٩٩٨، ص١٦). والجدير ذكره ان مجلس الأمن الدولي كان قد اتخذ، بصدد المشكلة الكردية في شمالي العراق، القرار ٦٨٨ لسنة ١٩٩١ الذي يدعو إلى حل المشكلة عن طريق الحوار وبالطرق السلمية.

الاحزاب الاسلامية والقومية المعارضة (راجع باب

مسعود البرزاني.

جلال الطالباني.

«الاحزاب») المدعومة من ايران أو سورية أو السعودية عارضت منذ ١٩٩١، وتحديدًا منذ انتفاضة آذار ١٩٩١، أية صيغة فدرالية للحكم في العراق باعتبارها تشكل بلقنة للعراق، واكتفت بالدعوة لاحترام آمال وتطلعات الأكراد (سحق الجيش العراقي هذه الانتفاضة، ولجأ مئات الآلاف من الأكراد إلى خارج الحدود). و«عندما أعلن البرلمان الكردستاني الفدرالية في ٤ تشرين الاول ١٩٩٢ نُظر إليها في كثير من الاوساط العربية والاسلامية بشكل سلبي وبادرت ايران وتركيا إلى مواجهة الاعلان ومعه الكيان الكردي الاقليمي بشتى الاساليب، وربط البعض هذا الاعلان بالحماية الاميركية لكردستان العراق وبناء المنطقة

الآمنة، والربط ليس صحيحًا فالمنطقة الكردية لم تكن آمنة ولا محمية كما يجب وكانت تعاني، ولا تزال، من مشاكل جغرافية وسياسية واقتصادية لا يراها الآخرون من بعيد، كما لا يرون معاناة شعبنا من القرارات الدولية التي أتت بوحي من مصالح الشعب الكردي بالطبع. وساء الوضع كثيرًا (نتيجة هذا الاعلان في كردستان العراق بعد الاقتتال الداخلي الذي خلق انطباعًا سلبيًا واسعًا» (محمود عثمان، المرجع المذكور أعلاه).

قبل إعلان الفدرالية (٤ تشرين الاول ١٩٩٢)، جرت انتخابات في مناطق كردستان العراق في ايار ١٩٩٢، وافتتح البرلمان في ٤ حزيران ١٩٩٢، كما بدأت ادارة الحكم الذاتي تنفذ بعض الاجراءات الادارية مثل اصدار الطوابع البريدية. وكان المؤتمر الوطني العراقي المعارض عقد مؤتمرًا في فيينا (حزيران ١٩٩٢) وذهب إلى الاقرار بمبدأ حق تقرير المصير للشعب الكردي (وهذا المؤتمر كانت تهيمن عليه الاحزاب الكردية). وقد جاء هذا الحق مقيدًا بعبارة «دون الانفصال» في إحدى الفقرات، ومن دون قيود في فقرتين أخريين. أما الاجتماع التمهيدي لقوى المعارضة في صلاح الدين-شقلاوة (ايلول ١٩٩٢) فقد اتخذ قرارًا بتأييد صيغة حق تقرير المصير ضمن «عراق ديمقراطي موحد».وكانت بغداد تفرض حصارًا اقتصاديًا شاملاً على كردستان العراق منذ تشرين الاول ١٩٩١. وفي اوائل ١٩٩٣، بدا إقليم كردستان العراقي «أشبه ببلد مستقل»، تحميه عسكريًا وسياسيًا قوات التحالف الدولي وقرارات مجلس الأمن الدولي، وتقوم فيه «حكومة كردية» و«برلمان كردي» و«سلطة كردية»، ولكنه في الوقت نفسه يتحدث بخوف عن تهديد وزير الدفاع العراقي الفريق علي حسن المجيد (اواسط كانون الثاني ١٩٩٣) بشن هجوم عسكري على منطقة الأكراد: «إن الجيش العراقي على أهبة الاستعداد حاليًا لاستعادة سيطرة الدولة على مناطق الشمال والجنوب».

في اواسط ايار ١٩٩٤، اندلعت اشتباكات بين الحزبين الكرديين الرئيسيين: الديمقراطي (البرزاني) والاتحاد الوطني (الطالباني)، اعتبرت الأسوأ منذ قبل ٣٠ عامًا. وكان الحزبان يتقاسمان السلطة نتيجة انتخابات ايار ١٩٩٢، وكان تفاهمهما عاملاً مهمًا من اجل استمرار الحماية الغربية. لكنهما توصلا، في تشرين الثاني ١٩٩٤، إلى اتفاق على تشكيل حكومة جديدة للاقليم تضم ممثلي خمسة احزاب أخرى أقل شأنًا منهما، ليعودا إلى الاقتتال في اواخر كانون الاول ١٩٩٤.

تواصلت معارك الحزبين في كانون الثاني ١٩٩٥، وشملت كل مناطق كردستان العراق تقريبًا وخاصة مدينتي أربيل والسليمانية، وأعلن رئيس حكومة الاقليم، رسول علي، ان مصير الحكومة والادارة الكردية في شمالي العراق «مجهول»، وان الادارة غير موجودة عمليًا، وان البنك المركزي مفلس. وقد تبادل الحزبان المتقاتلان «تهمة التنسيق مع بغداد» التي كانت تعلن عن سقوط آلاف القتلى بين الأكراد وتتهم التحالف الغربي بتسليح الأكراد.

في ايار ١٩٩٥، مرّ عام على حرب الحزبين (الحرب الأهلية) المستمرة. وفي اواخر هذا الشهر، اتفق الحزبان على هدنة بينهما، لكن المعارك عادت في ١٣ تموز ١٩٩٥. وضغطت واشنطن لعقد لقاء كردي، فعقد في دروغيدا على مقربة من دبلن (ايرلندا، ٩-١١ آب ١٩٩٥)، وقد تضمن بندين أساسيين: تجريد مقاتلي أربيل من السلاح باشراف مراقبين، يليه بعد ٤٨ ساعة تحويل العائدات الجمركية التي يستوفيها الحزب الديمقراطي في مركز ابراهيم الخليل على مقربة من زاخو إلى حساب مصرفي باسم حكومة أربيل الكردية (حوالي ٣ ملايين دولار شهريًا). وفشل اللقاء، وأفرز تداعيات، أخطرها بنظر الولايات المتحدة، وصول زعماء الحزبين إلى ايران للتباحث تحت رعاية طهران، وازدياد تعقيدات الوضع الكردي بعد الهجوم الشامل الذي شنه مقاتلو حزب العمال الكردستاني (أوجلان، راجع «تركيا»، ج٦) على مواقع الحزب الديمقراطي خصوصًا في بادينان في ٢٦ آب ١٩٩٥. فأصبح الصراع الكردي ثلاثيًا بعد أن كان ثنائيًا.

في اوائل ايار ١٩٩٦، وصف تقرير مسؤول الامم المتحدة في المنطقة الكردية الجنرال بول دال الوضع في المنطقة بأنه «لا سلم ولا حرب». وبعد ايام قليلة من الاعلان عن هذا التقرير، بثت وكالة «الاناضول» للأنباء التركية ان ١٢٠٠ جندي تركي شاركوا في عمليات ضد حزب العمال الكردستاني (حزب كردي في كردستان تركيا بزعامة عبد الله أوجلان) في مناطق متاخمة للحدود في شمالي العراق (وكان نحو ٣٠ ألف عسكري تركي شاركوا في عمليات ضخمة في شمالي العراق ربيع ١٩٩٥ في عملية استهدفت «سحق قواعد حزب العمال». وفي اواخر حزيران ١٩٩٦، باشر الاتراك عملية جديدة (٦ آلاف جندي) داخل اراضي الشمال العراقي لمطاردة حزب العمال، استمرت لأسابيع. وبعد انتهائها بأيام قليلة، أي في أواخر تموز، هاجمت قوات ايرانية مواقع الحزب الديمقراطي الكردستاني الايراني في مناطق الاتحاد الوطني الكردستاني من شمالي العراق.

مقاتلون أكراد.

مضى شهر آب ١٩٩٦ على اقتتال كردي-كردي وتدخل عسكري تركي وايراني مباشر. لكن اليوم الأخير منه، شهد حدثًا تاريخيًا ومصيريًا بالنسبة لكردستان العراق وللعراق. إذ دخل الجيش العراقي (قوات الحرس الجمهوري) مدينة أربيل واستعادها بعد خمس سنوات على انسحاب القوات العراقية من أربيل ومدن كردية أخرى. وأكدت بغداد انها عملية «محدودة» هدفها مساعدة الحزب الديمقراطي الكردستاني (مسعود البرزاني) ضد الاتحاد الوطني الكردستاني (جلال الطالباني). وبعد ايام قليلة، رفع الرئيس صدام حسين الحصار الاقتصادي عن المناطق الكردية الذي كان يفرضه منذ تشرين الاول ١٩٩١، ما أدّى إلى تحسن فوري لسعر الدينار، إذ ارتفع من ١٣٥٠ إلى ألف مقابل الدولار.

بعد أسبوعين على دخول الجيش العراقي أربيل، أي في ١٥ ايلول ١٩٩٦، برّر مسعود البرزاني طلبه الدعم العسكري من بغداد بأن ايران كانت أقامت قواعد عسكرية في حومان وقسري وكلاله في شمالي العراق في إطار اتفاق بين طهران وجلال الطالباني، وقال إن «الطريق الطبيعي لحل المسألة الكردية سيكون مع الحكومة المركزية في بغداد». وكان مسعود البرزاني أكدّ، قبل ايام، سيطرة حزبه على معظم المناطق الكردية بعد سقوط السليمانية في يده، معلنًا استسلام آلاف المقاتلين من حزب الاتحاد الوطني (الطالباني)، والبرلمان الكردي عين، في ١٦ ايلول، رئيس وزراء للاقليم جديدًا هو روح نوري شاويس (من الحزب الديمقراطي) خلفًا للكوسرت رسول علي (من الاتحاد الوطني). ونزح آلاف الأكراد إلى ايران. لكن معارك متفرقة استمرت بين الحزبين، وأعلن الاتحاد الوطني، في ١٣ تشرين الاول (١٩٩٦) استعادة مدينة السليمانية.

عودة الطالباني إلى السليمانية مكنته من الجلوس مجددًا على طاولة المفاوضات مع غريمه البرزاني. فاتفقا على هدنة ووقف للنار، ثم باشرا، في آخر تشرين الاول ١٩٩٦، مفاوضات مباشرة في أنقرة برعاية الوسيط الاميركي روبرت بلليترو (مساعد وزير الخارجية الاميركي لشؤون الشرق الادنى)، وحضرها ممثلون عن الحكومتين التركية والبريطانية. وللمرة الاولى شارك في المحادثات بين الحزبين الكرديين الرئيسيين ممثلون عن التركمان استجابة لطلب تركيا التي كانت أصرّت على «حماية حقوقهم». وانتهت الجولة الاولى من هذه المفاوضات في ٣١ تشرين الاول ١٩٩٦.

واستمرت الهدنة، وعقدت جولة ثانية من المفاوضات، ثم ثالثة (منتصف كانون الثاني ١٩٩٧) بين حزبي البرزاني والطالباني. وبدت واشنطن وأنقرة ولندن كعواصم حامية للأكراد في كردستان العراق بعد انسحاب باريس من التزاماتها بهذا الخصوص. كما بدا البرزاني متمسكًا بجهوده لإبقاء أفضل الصلات مع حكومة بغداد، والطالباني لإبقاء علاقاته الوطيدة مع ايران.

في ١٤ ايار ١٩٩٧، نفذت تركيا عملية عسكرية أخرى (٥٠ ألف جندي) داخل اراضي شمال العراق ضد «جماعة حزب العمال الكردستاني»، ساعدها فيها الحزب الديمقراطي الكردستاني (البرزاني)، وتميزت بأن بعض عملياتها حدثت في مناطق حدودية قريبة من ايران، مما حدا بايران إلى تعزيز وحداتها العسكرية في المناطق الحدودية المتاخمة لتركيا. كما كان لافتًا ان هذه العملية تزامنت مع حديث تعمق الحلف التركي-الاسرائيلي، وحديث ضرورة تصفية مناطق شمالي العراق من أي دور لايران، وحديث الضغط التركي على سورية أولاً والموقف العربي بشكل عام ثانيًا.

في ايار ١٩٩٨، ثار جدل عراقي-مصري بسبب استضافة القاهرة حوارًا عربيًا-كرديًا عراقيًا، دعت إلى عقده في ٢٧ و٢٨ ايار (١٩٩٨) «اللجنة العصرية للتضامن» (منظمة غير حكومية).

يهود كردستان وعلاقات كردية-اسرائيلية: لقد أشار رحالة وباحثون زاروا كردستان بين القرنين الثاني عشر والعشرين إلى وجود يهود بين المسلمين الأكراد يشاركونهم أنماط حياتهم. وكانت العادات الدينية فقط تميز اليهود عن المسلمين والمسيحيين في كردستان. ومنذ مطلع القرن الثامن عشر تعززت الصلات بين يهود كردستان والمراكز اليهودية في فلسطين. وفي ١٨١٢، هاجرت جماعة من يهود كردستان إلى فلسطين وأقامت في القدس.

ومنذ بداية القرن العشرين هاجر عدد من يهود كردستان إلى فلسطين، وقبل تأسيس الدولة اليهودية في ١٩٤٨ كان في فلسطين نحو ٢٠ ألف يهودي كردي. وبين ١٩٥٠ و١٩٥١ هاجر إليها نحو ٤٠ ألف يهودي آخرين من كردستان ايران والعراق خلال ما عرف بحملتي «عزرا» و«نيحميا». وبين ١٩٧٠ و١٩٧٣ ساعد الأكراد نحو ٣ آلاف يهودي كانوا ظلوا في بغداد على الفرار عبر كردستان إلى ايران، ومنها سافروا إلى اسرائيل. ويقدر عدد يهود كردستان في اسرائيل، حاليًا، بنحو ١٠٠ ألف،

غالبيتهم من كردستان العراق، منهم ٣٥ ألفًا في القدس و٥ آلاف في طبريا و٧ آلاف في حيفا ونحو ٢٠ ألفًا في مستوطنات، والبقية في أنحاء مختلفة من اسرائيل. وبرز عدد من يهود كردستان في الحياة السياسية والعامة، منهم نواب واعضاء بارزون في الاحزاب السياسية ومجالس البلديات. وكان حبيب شيموني، الرئيس الحالي لمنظمة يهود كردستان المولود في مدينة عقرة الكردية العراقية، نائبًا في الكنيست عن حزب العمل. ولعل أبرز يهودي كردي هو الجنرال اسحق موردخاي وهو من مواليد عقرة ايضًا.

أما بالنسبة إلى تاريخ تواجد اليهود القديم في كردستان، فالارجح انهم وصلوا إلى هذه المنطقة في عهد المعبد الأول. ويعتقد بعضهم انهم احفاد القبائل العشر من اليهود الذين سباهم الأشوريون بعدما دمّروا مملكة اسرائيل في ٧٢٠ق.م. وانضم إليهم يهود السبي البابلي بعد ذلك بـ١٥٠ عامًا. ومنذ ذلك الحين نشأت في المنطقة مستوطنات يهودية سرعان ما انقطعت صلتها لأسباب جغرافية بالمراكز اليهودية التي كانت موجودة في بابل. ولكن على رغم هذه العزلة استطاع يهود كردستان ان يحافظوا على خصوصيتهم الدينية. وفي القرن الثاني عشر ظهرت بين يهود كردستان حركة مسيحية قادها «مسيحان» كاذبان هما ميحيم بن شلومو ابن روحي ودافيد الروي الذي اطلق اليهود اسمه على أول مستوطنة في كردستان.

وفي القرن الثالث عشر اجتاح المغول العراق وفرّ عدد كبير من اليهود إلى جبال كردستان حيث بنوا مستوطنات في مناطق منيعة. وقتل يهود كثيرون من عدم الاستقرار القومي المستمر منذ مئات السنين نتيجة للصراع بين الأكراد والعثمانيين، ولكن اليهود لم يتعرضوا لأي اضطهاد ديني من جانب الأكراد المسلمين. وكان على اليهود الراغبين في دراسة اليهودية الانتقال إلى بغداد نظرًا إلى عدم وجود مدرسة دينية (يشيفوت) في كردستان. ولم يستطع سوى عدد قليل من يهود كردستان العراق، ممن أقاموا في الموصل وكركوك، أن يوفروا لأطفالهم تعليمًا اوروبيًا بعد الاحتلال البريطاني للعراق (عن كامران قره داغي، «الحياة»، العدد ١١٣٣٣، تاريخ ٢٥ شباط ١٩٩٤، ص١٨).

أما بالنسبة إلى علاقات أكراد العراق (كردستان العراق) بالدولة اليهودية (اسرائيل)، فيذكر، دون شك، جميع المعاصرين للاحداث الكردية منذ إعلان تمردهم في بداية الستينات، ذلك الخطاب الوطني العراقي والقومي العربي المليء بمختلف تهم العلاقة مع اسرائيل والصهيونية وايران والشاه الموجهة للأكراد سعيًا للانفصال ولضرب وحدة العراق وحركة التحرر العربية. وبقي هذا الخطاب عاجزًا عن تقديم البراهين الحسية والوثائق الدامغة بسبب الطابع السري والاستخباراتي الذي دمغ هذه العلاقة من جهة، والنفي الدائم الذي عكف القادة الأكراد على تأكيده في كل مرة يُسألون عنها من جهة أخرى. حتى كانت سنوات ما بعد حرب الخليج الثانية، فانهالت اثناءها (خاصة في ١٩٩٦ و١٩٩٧) المؤلفات والأبحاث والدراسات والمقالات والتصريحات والاعترافات، وغالبيتها كتبها ونشرها أو تكلم عليها قادة أكراد أو مسؤولون اسرائيليون شاركوا مباشرة في هذه العلاقات، وكثيرًا ما جاءت مدعومة بوثائق وصور. من جملة ما نُشر كتاب الصحافي الاميركي جوناثان راندل «أمة في شقاق: دروب كردستان كما سلكتها»، عرّبه فادي حمود، ونشرته «دار النهار» في ايلول ١٩٩٧؛ و«مذكرات»، حوار مع محمود عثمان، المستشار الأول للملا مصطفى البرزاني، وكان رافقه في زيارتين لاسرائيل في ١٩٦٨ و١٩٧٣ («الوسط»، العددان ٢٩٨ و٢٩٩، تاريخ ١٣ و٢٠ تشرين الاول ١٩٩٧)؛ والحلقات التي نشرتها الصحيفة الاسرائيلية «يديعوت أحرونوت» في كانون الاول ١٩٩٦؛ وتناولت تاريخ الاتصالات الاسرائيلية الكردية التي بدأت منذ منتصف الستينات وعلى لسان خمسة مديرين سابقين للاستخبارات الاسرائيلية (موساد)، وكذلك على لسان الكولونيل تسوري ساغوي الذي قال إنه قاد بالفعل في مناسبتين مقاتلين أكرادًا في ١٩٦٦ و١٩٧٤، أدتا إلى سقوط قوات عراقية كبيرة في مكمن وانه أشرف على تدريب المقاتلين على استخدام أسلحة اسرائيلية.

تمت أول محاولة لاقامة اتصال بين اسرائيل والحركة الكردية في العراق في ١٩٦٣ بحسب ما رواه محمود عثمان، وذلك عندما التقى جلال الطالباني (وكان آنذاك عضوًا في المكتب السياسي للحزب الديمقراطي ومبعوثًا شخصيًا للملا مصطفى) شيمون بيريز في باريس (وكان آنئذ وكيل وزير دفاع اسرائيل). وجرى لقاء آخر في ١٩٦٣ عبر الشخصية الكردية المعروفة الامير كامران بدرخان الذي كان استاذ الدراسات الكردية في جامعة السوربون في باريس. وقتئذ أوفد الملا مصطفى البرزاني سكرتير الحزب الديمقراطي الكردستاني آنذاك ابراهيم أحمد إلى باريس حتى التقى سرًا دبلوماسيًا اسرائيليًا. لكن اللقاء لم تتبعه إقامة علاقات بين الطرفين حتى ١٩٦٥ عندما قام

دافيد كيمحي (الذي تدرج لاحقًا في مناصب دبلوماسية حتى اصبح مديرًا عامًا لشؤون الشرق الاوسط في وزارة الخارجية، ثم شغل في ١٩٩٦ و١٩٩٧ رئيس المجلس الاسرائيلي للعلاقات الخارجية) بأول زيارة سرية إلى كردستان العراق والتقى الملا مصطفى. وهذه الزيارة أدت إلى إقامة علاقات بين اسرائيل والملا مصطفى استمرت حتى انهيار الحركة الكردية المسلحة في آذار ١٩٧٥.

وإضافة إلى ما رواه كيمحي، روى ايضًا عضو الكنيست، إلياف، كيف بدأت البعثات الاسرائيلية، منذ ١٩٦٦، بزيارة البرزاني بصورة مستديمة، وكيف ساعدته على تنظيم جهاز استخباراته، وأشرفت على تدريب الثوار الأكراد. وشغل الكولونيل موردخان هود منصب المنسق للاتصالات بين الايرانيين والاسرائيليين والأكراد. وفي ١٩٧٢، نشرت صحيفة «هيرالد تريبون» مقالاً ورد فيه ان اسرائيل كانت ترسل شهريًا إلى الملا الكردي مساعدة مالية قدرها خمسون ألف دولار، كان يحملها عبر ايران إلى منطقة حاج عمران ضابط اسرائيلي في شعبة المخابرات. وتكثفت الاتصالات الكردية-الاسرائيلية عقب صدور قانون الحكم الذاتي لمنطقة كردستان، وبعد إبرام معاهدة التعاون والصداقة بين العراق والاتحاد السوفياتي (١٩٧٢).

وفي ١٩٧٣، عند نشوب حرب تشرين الاول، طلبت اسرائيل من البرزاني شن هجوم واسع في العراق من شأنه إبعاد العراق عن ا لجبهة الشرقية. لكن الايرانيين والاميركيين رفضوا الاقتراح. فالايرانيون تخوفوا من ان يحقق الأكراد مكاسب كبيرة تنعكس سلبًا من منظور ايران على أكرادها؛ والاميركيون لأسباب كشف عنها هنري كيسنجر في مذكراته فقال إنه خاف ان يؤدي تسخين جبهة العراق الشمالي إلى التأثير على خطته للتفاوض في حال خسر العرب الحرب عام ١٩٧٣. فهو لم يسمح للأكراد بالاستفادة من الفرصة لتعزيز قدرتهم على المساومة مع العراق بتوسيع الجبهة شمالاً في الوقت الذي كانت الدول العربية في حرب مع اسرائيل.

وبعد اتفاق الجزائر الذي وقعت عليه العراق وايران في ١٩٧٥ لتسوية خلافات الحدود بينهما (شط العرب)، قامت ايران بسحب الوحدات الايرانية التي كانت تحارب في الاراضي الكردية شمالي العراق مع كامل أسلحتها. ويروي دافيد كيمحي في كتابه «الخيار الأخير»: «شاهد قائد القوات الكردية والاسرائيليون بدهشة انسحاب حلفائهم الايرانيين من ميدان المعركة وبرّر القادة الايرانيون موقفهم بأن ما يحصل إجراء روتيني لتبديل القوات وذلك بعد ان أحرجهم قول الحقيقة. وبعد يوم واحد استدعي الممثل الاسرائيلي في طهران إلى مكتب أحد الرسميين الايرانيين وأعلم بالاتفاق الجديد. هكذا واجه الأكراد في الليل بمفردهم الجيش العراقي. وسعت اسرائيل إلى الاستمرار في تقديم المساعدة، بيد ان مساعيها باءت بالفشل بسبب الحدود الايرانية المقفلة. فلم يعد بوسعنا الوصول إلى الأكراد».

في كانون الثاني ١٩٧٧، أصدرت «اللجنة التحضيرية» للاتحاد الديمقراطي الكردستاني (جلال الطالباني) كرّاسًا بعنوان: «تقييم مسيرة الثورة الكردية وانهيارها والدروس والعبر المستخلصة منها»، ورد في الصفحة ٨٤ منه ما نصه: «وأما موضوع العلاقات مع اسرائيل والدوائر الصهيونية والتي تكونت من خلال تلك الجهات الامبريالية والرجعية وبالرغم من انها لم تكن موجهة ضد الأمة العربية بقدر ما يتعلق الأمر بالثورة الكردية إلا انه كان يجب إدانتها بشكل قاطع وصريح باعتبارها خطيئة كبرى بالنسبة لحركة شعبنا الكردي».

في ١٩٧٩، وبمناسبة مرور أربعين يومًا على وفاة الملاّ مصطفى البرزاني، أقامت رئاسة الأركان حفلاً تأبينيًا له في نادي الضباط في تل أبيب حضره كبار مسؤولي ورئيس الاركان آنذاك، اسحق رابين.

وتكررت الحال نفسها في الثمانينات عندما أقدم الأكراد على معاونة حلفاء الأمس الايرانيين في حربهم ضد العراق (حرب الخليج الاولى). لكنهم ما لبثوا ان تحولوا ضحية للجيش العراقي بعد توقيع الهدنة في ١٩٨٨ بين ايران والعراق، وقد هال هذا الجيش تصرف الأكراد وإيغالهم في التمرد والثورة وانهاك العراق الذي منحهم من الحقوق القومية قدرًا لا مجال لأن تقاس به أوضاعهم السياسية والقومية في ايران أو تركيا أو أي بلد يتواجدون فيه. والتفسير الذي تلتقي عنده مختلف المصادر والمراجع، بما فيها الاسرائيلية نفسها، ان رأس العراق القوي والعربي والأكثر عداء لاسرائيل هو المطلوب.

في أعقاب حرب الخليج الثانية، برزت اتصالات اسرائيلية-كردية مجددًا، وأشارت عدة مصادر إلى استمرار وجود علاقات بين الموساد وجماعات كردية عراقية. ومنذ ظهور منطقة الادارة الكردية في كردستان العراق في أعقاب انتفاضة آذار ١٩٩١، قيل الكثير عن وجود اسرائيلي في المنطقة، إلا ان القادة الاكراد نفوا ذلك من دون ان ينفوا «احتمال ان يكون لاسرائيل وجود غير مباشر من خلال العاملين في المنظمات الانسانية في كردستان».

وفي آب ١٩٩٧، تناقلت الأنباء ان وفدًا اسرائيليًا ضم ثلاثة ضباط وعددًا من المرافقين قام بعملية مسح جوي وميداني لمنطقة الحدود التركية-العراقية في إطار تعاون مشترك بين اسرائيل وتركيا لإنشاء «منطقة أمنية عازلة»، كما انهم زاروا قاعدة الزاب العسكرية عند الحدود. وقبل ذلك بنحو شهرين، تناقلت الأنباء ايضًا ان لجنة عسكرية اسرائيلية-تركية كشفت في توصياتها عن دور اللجنة «المباشر في الاشراف على الهجوم التركي الواسع ضد الأكراد الاتراك في شمالي العراق». كما كشف النقاب ايضًا عن وجود اتصالات تنسيقية بين الادارة الاميركية واسرائيل والقيادة العسكرية التركية بخصوص احداث كردستان العراق.

ونقل رئيس «المجلس الاسلامي الاعلى» في العراق، ومقره طهران، السيد محمد باقر الحكيم إلى صحيفة «الحياة» (٢٩ حزيران ١٩٩٧) عن مصادر كردية تأكيدها وجود «ضباط وخبراء اسرائيليين» في شمالي العراق، وان مهمتهم الآن المساهمة في «تنظيم قوات من المرتزقة تريد تركيا ان تنشرها في كردستان العراق». وسارع الحزب الديمقراطي الكردستاني (بزعامة مسعود البرزاني) إلى نفي هذه الأنباء: «نؤكد لجميع المعنيين ان اسرائيل أو أية دولة أخرى لم تشارك في هذه العمليات إطلاقًا». ومثل هذا النفي لم يكن جديدًا، إذ كان زعماء هذا الحزب يكررونه منذ نحو خمسة عقود. ولعل زعيم الاتحاد الوطني الكردستاني، جلال الطالباني، خرج عن قاعدة النفي هذا عندما تساءل في لقاء له مع «محطة الجزيرة» (١٩ حزيران ١٩٩٧): «لماذا يستنكر البعض على الأكراد علاقتهم مع اسرائيل-على فرض وجودها- وإن بعض الدول العربية لديها علاقات معها؟ وهل يعقل ان يكون الكردي أكثر فلسطينية من ياسر عرفات؟».

معالم تاريخية

☐ **الاتحاد العربي الهاشمي:** اتفاق اتحادي يضم النظامين الملكيين الهاشميين في العراق والاردن أعلن في ١٤ شباط ١٩٥٨، أي بعد أقل من اسبوعين فقط من قيام الوحدة بين مصر وسورية (الجمهورية العربية المتحدة)، فاعتبر متسرعًا ورد فعل على ما أطلقته الوحدة من حماس جماهيري عربي في طول العالم العربي وعرضه. وعلى رغم الموقف الودي الذي أبداه رئيس الجمهورية العربية المتحدة، الرئيس المصري جمال عبد الناصر، إزاء «الاتحاد الهاشمي» كما إزاء «أية خطوة على طريق الاتحاد والوحدة القومية» فإن النظام الملكي في العراق استمر يعلن رفضه الاعتراف بالجمهورية العربية المتحدة.

وعلى رغم إعلان اتفاق الاتحاد العربي الهاشمي اقتصاره على النظامين الملكيين الهاشميين، فقد طالب رئيس الوزراء العراقي، نوري السعيد، بريطانيا باعلان استقلال الكويت تمهيدًا لضمها إلى الاتحاد والاستفادة من عائداتها النفطية لتدعيم الاتحاد دون المس بوضعها المشيخي والداخلي. إلا ان هذه المسألة بقيت معلقة حتى انفراط الاتحاد بقيام ثورة ١٩٥٨ التي أطاحت النظام الملكي في العراق.

جاء دستور الاتحاد، رغم حرصه على الظهور بمظهر وحدوي، اقرب إلى الصيغة الكونفدرالية في مسألة

الإبقاء على السيادة الاقليمية واحتفاظ كل دولة بشخصيتها الدولية المستقلة، وبعلمها وبنظام الحكم فيها والتمسك بالتزامها المواثيق والمعاهدات الخاصة.

ونصّب هذا الدستور (أعلن في ١٣ ايار ١٩٥٨) ملك العراق رئيسًا للاتحاد، وجعل عاصمة دولة الاتحاد مناوبة بين بغداد وعمان، وأقام العديد من الأجهزة والمؤسسات الاتحادية.

□ **الآشوريون اليوم:** راجع باب الأقليات.

□ **الثورات العراقية:** أبرز هذه الثورات ثلاث: ثورة العشرين (راجع هذا الباب)، وثورة رشيد عالي الكيلاني (١٩٤١)، وثورة ١٩٥٨ التي قضت على النظام الملكي وأقامت «الجمهورية العراقية» (راجع، بصدد الثورتين الأخيرتين، أبواب «النبذة التاريخية» و«الاحزاب» و«زعماء، رجال دولة وسياسة»). أما الحركات «الثورية» الأخرى، وفي مقدمتها حركة ٨ شباط ١٩٦٣، وحركة ١٧-٣٠ تموز ١٩٦٣، وحركة الشواف (في الموصل) فقد وصفها البعض بـ«ثورة» والبعض الآخر بـ«انتفاضة»، وآخرون بـ«إنقلاب» (راجع بصددها ابواب «النبذة التاريخية»، و«الاحزاب»، و«زعماء، رجال دولة وسياسة»).

أما حركة كانون الثاني ١٩٤٨ فعرفت بـ«وثبة ١٩٤٨» وقامت على أثر توقيع صالح جبر رئيس الوزارة بتوقيع معاهدة بورتسموث مع وزير خارجية بريطانيا أرنست بيفن. وتمثلت الوثبة بالمظاهرات الشعبية العنيفة التي عارضت المعاهدة وطالبت بالاستقلال التام وتصفية النفوذ الاستعماري البريطاني. وعندما تصدت السلطة للمظاهرات وقعت مصادمات (معركة الجسر) قتل فيها عدد من المتظاهرين (٢٧ و٢٨ كانون الثاني)، وسقطت الحكومة وفرّ رئيسها صالح جبر إلى خارج العراق وغاب مدة غير قصيرة، وتشكلت وزارة جديدة برئاسة محمد الصدر. لكن هذه الوزارة بقيت مدة قصيرة عاد بعدها نوري السعيد إلى الحكم.

□ **ثورة العشرين (١٩٢٠):** ثورة شعبية نشبت ضد الاحتلال البريطاني للعراق. وجاءت واحدة في سلسلة الثورات التي شهدتها البلدان العربية (سورية، لبنان، فلسطين، مصر) ابتداء من ١٩١٩ كتعبير عن رفض العرب للاستعمار ولوضع مقررات سايكس-بيكو وسان ريمو موضع التنفيذ.

اندلعت الثورة على أثر إعلان بريطانيا عن نيتها فرض الانتداب تنفيذًا لمقررات مؤتمر سان ريمو. فعقد، في ٢٤ ايار ١٩٢٠، أول اجتماع وطني كبير في منطقة الميدان، وقرر المجتمعون خوض النضال ضد المحتلين الانكليز حتى تحرير البلاد. ولدى اعتقال سلطات الانتداب أحد الخطباء، اجتاحت أنحاء العراق ثورة واسعة، وشرع الثوار يعدمون الضباط والجنود الانكليز ويلصقون على جثثهم مذكرات تطالب بالاستقلال التام للعراق. واتصل قادة الثورة بالمرجع الديني الكبير، في النجف، الامام الشيرازي الذي اصدر فتواه الشهيرة «المطالبة بالحقوق واجبة على العراقيين ويجب عليهم في ضمن مطالبتهم رعاية السلم والأمن، ويجوز لهم التوسل بالقوة الدفاعية إذا امتنع الانكليز عن قبول مطالبيهم» (٢٧ ايار ١٩٢٠). وردّت السلطات البريطانية على الإمام الشيرازي باعتقال نجله مع عدد من العلماء والقادة ونفتهم إلى جزيرة هنجام في الخليج.

في ٣٠ حزيران ١٩٢٠، انطلقت الرصاصة الاولى للثورة المنظمة (بعد ان كانت عفوية) في الرميثة والنارنجية، ثم تبعتها بقية المدن والقرى العراقية وعلى رأسها مدينة النجف التي كانت القاعدة الأساسية لثورة العشرين. وأنشىء «مكتب الثورة» الذي ضم مختلف القوى السياسية المناهضة للانكليز، وأشرف على تنظيم التحركات الثورية في مختلف أنحاء العراق، وإقامة الادارات الموقتة لتصريف شؤون المناطق المحررة. وقد امتدت الثورة إلى معظم مدن الفرات الاوسط وقراه، وإلى بغداد والموصل والمنطقة الشمالية.

وفي مواجهة الثورة، حشد المحتلون اعدادًا ضخمة من الجنود المجهزين بأحدث الاسلحة، وقد زاد عددهم على ١٥٠ ألفًا، ونتيجة لهذا التفاوت في حجم القوى ومستوى تدريبها وتجهيزها، وبروز بعض الاقطاعية والعشائرية التي راحت تساوم الانكليز، استطاعت القوات البريطانية القضاء على مراكز الثورة الرئيسية خاصة بعد ان لجأت إلى ضرب المدن والقرى بالطائرات.

كانت النتائج السياسية لهذه الثورة (حزيران-تشرين الاول ١٩٢٠) مهمة للغاية، وذلك على رغم هزيمتها العسكرية. فالمؤرخون يجمعون على أنها:

١- اضطرت بريطانيا لتغيير سياستها التي كانت ترمي إلى ضم العراق إلى إدارتها الاستعمارية في الهند.

٢- اضطرتها كذلك لتقديم بعض التنازلات منها إقامة حكومة موقتة من عناصر تحظى بثقة العراقيين (برئاسة عبد الرحمن الكيلاني) بعد ان تأكد لبريطانيا انها لن

تستطيع بأي حال من الاحوال حكم العراق بشكل مباشر. فاتجهت من جديد إلى الهاشميين، وإلى عائلة الشريف حسين بالذات. وكان فيصل اضطر لمغادرة سورية في ٢٧ تموز ١٩٢٠، أي بعد نحو شهر واحد من اندلاع ثورة العشرين في العراق. وفي آذار ١٩٢١ قرر مؤتمر القاهرة الذي عقده تشرشل لحل مشاكل الشرق الاوسط تعيين فيصل ملكًا على العراق، وعبد الله أميرًا على شرقي الاردن.

٣- وثمة نتيجة أخرى لثورة العشرين لا تقل أهمية عن بقية النتائج، وهي في ما اظهرته الثورة من وحدة في صفوف الشعب العراقي حيث وقف العرب والأكراد، السنة والشيعة، صفًا واحدًا في مواجهة الاحتلال رغم المحاولات البريطانية التي كانت تعمل جاهدة على تغذية كل ما من شأنه إحداث الفرقة.

أخيرًا، ربما كان تقويم جورج أنطونيوس لنتائج هذه الثورة، الذي عاصرها وأرّخ لها بمثل ما أرّخ لعقود من النهضة العربية حتى الحرب العالمية الثانية، لا يزال التقويم الأساس الذي يستند إليه المؤرخون. فهو يقول («يقظة العرب»، ط٢، مترجم إلى العربية، بيروت-نيويورك، ١٩٦٦، ص٤٨٠-٤٨١):

«وقد يصح القول إن ثورة العراق حققت هدفها الكبير توًا إذا اعتبرناها ثورة ضد إملاءات الدول المتحالفة، ومضت إثنتا عشر سنة أخرى قبل ان يلغى الانتداب ويتم الاعتراف الرسمي في جنيف بأن البلاد (العراق) أصبحت في منزلة دولة مستقلة ذات سيادة. غير ان البذرة غرست عام ١٩٢٠ عندما قررت الحكومة البريطانية، إزاء الثمن المروع الذي كلفتها إياه الثورة (آلاف القتلى الانكليز)، ان تغير سياستها أو أن تغير خططها العسكرية-في أقل تقدير- وقالت الحكومة إن سياستها الجديدة محض استمرار للسياسة القديمة، وهذه هي الحال عندما تذعن دولة كبيرة لعنف شعب خاضع لها، وفسّرت ذلك بقولها، إن غاية الحكومة البريطانية كانت دائمًا-وما تزال- إنشاء حكومة عربية في العراق وتنظيم علاقات البريطانيين بتلك الحكومة عن طريق معاهدة تحالف. أما في الظاهر فإن التغير بلغ حد تغيير في المنهج إذ ظلت العلاقة الابتدائية قائمة على ان تنظم بوساطة معاهدة لا بأي وثيقة أخرى تصنعها بريطانيا حسب مزاجها. وكان التغير أساسيًا من الناحية العملية لأنه أحيا المبدأ المهمل، مبدأ «موافقة المحكومين». ونص على ان موافقة العراق ستكون شرطًا في أي تدبير، وان بريطانيا العظمى ستحاول، في المستقبل، ان تبلغ غاياتها بالمفاوضة بدلاً من الاملاء كما حدث في سان ريمو. وقد دلت الثورة على ان الوعي العربي القومي كان قوة يحسب حسابها».

□ **حلف بغداد (السنتو)**: إتفاقية تعاون عسكري أبرمت (شباط ١٩٥٥)، أول الأمر، بين العراق وتركيا بتأييد قوي من الدول الغربية خاصة الولايات المتحدة وبريطانيا، ثم انضمت إليها كل من بريطانيا وباكستان وايران في العام نفسه (١٩٥٥)، واتخذت بغداد مقرًا لها. وأنشأت الاتفاقية مجالس وزارية ولجانًا عسكرية واقتصادية، وقد انضمت الولايات المتحدة إلى عضوية اللجان العسكرية والاقتصادية. وقد استهدف الغرب من هذا الحلف منع انتشار النفوذ السوفياتي والشيوعية بعد الحرب العالمية الثانية، وحماية الأنظمة الصديقة له في المنطقة خشية تنامي حركة التحرر العربي التي أخذت تقوى وتشتد في الخمسينات وتشكل تهديدًا كبيرًا لمصالحه النفطية المتزايدة ولاسرائيل. وقد كانت سياسة الرئيس المصري جمال عبد الناصر التي تُوجت بتأميم قناة السويس وسياسة سورية التحررية موضع حقد اطراف هذا الحلف. فكان العدوان الثلاثي على مصر (١٩٥٦)، والتحرش التركي بسورية في النصف الثاني من الخمسينات. وأبدى العرب عداء شديدًا لهذا الحلف. فاستطاع الاردنيون إسقاط محاولات ضم الاردن للحلف، وقام العراقيون بثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ فسددوا ضربة قوية للحلف. فانسحب العراق من عضويته رسميًا في آذار ١٩٥٩، الأمر الذي أجبر أعضاء الحلف الآخرين على نقل مقره إلى أنقرة وتغيير إسمه ، في آب ١٩٥٩، إلى «حلف المعاهدة المركزية». وبعد إطاحة حكم الشاه في ايران (مطلع ١٩٧٩) انسحبت الحكومة الايرانية الجديدة من الحلف، ثم تبعتها باكستان، وبعدها تركيا، ولم يبق فيه سوى بريطانيا، فاعتبر بحكم المنتهي.

□ **سكة حديد برلين-بغداد**: ان ما يجدر إضافته على ما ورد في مادة «المانيا» (ج٣، ص١٠٠-١٠١) انه في العام ١٩٩٥، وبمناسبة مرور ١٢٥ عامًا على تأسيس البنك الألماني Deutsche Bank، كلف البنك مؤرخين وعلماء تأليف كتاب عن مشاريعه. وقد تضمن الكتاب، في الفصل الثالث، وثيقة خاصة ببناء «خط بغداد». ومما جاء فيها (ترجمة نجم والي، «الحياة»، العدد ٣ ايار ١٩٩٥):

«ليس من المبالغة القول إن أكثر التزامات البنك الالماني قوة في الخارج كان مشاركته القائدة في بناء ما أطلق عليه إسم «خط بغداد». ونتيجة لذلك وقع البنك في تشابكات دبلوماسية في البلقان، واصبح حقيقة واقعة

«سكة حديد برلين–بغداد» تعتبر من اكبر اسباب الحرب العالمية الاولى، ويعود ذلك الى انها كانت ستربط القطار اوروبا والمشرق العربي وبلدان الخليج وشبه القارة الهندية في شبكة اقتصادية وصناعية لا مثيل لها. بدأ بناء الشبكة في مطلع القرن العشرين لكن العمل فيها توقف بسبب الحرب العالمية الاولى ولم تستكمل الا في ١٩٤٠ وتم تدميرها خلال القصف الجوي للعراق في حرب الخليج ١٩٩١ (الخريطة وكلامها عن «الحياة»، العدد ١١٦٨٤، ١٠ كانون الثاني ١٩٩٥، ص ١٢).

وكجزء من مساعي الرايخ الالماني لأن يكون قوة عالمية نافذة. ولفت حجم المشروع وحده الانظار لأن خط سكة الحديد الذي كان قدّر له في الاول ان يربط فقط اسطنبول بأنقرة أصبح تباعًا أكبر مما رُسم له، إذ امتد في النهاية ليمر ببغداد ويصل حتى البصرة. ومنذ البداية أثار المشروع ريبة دولية لأنه مُوّل من قبل بيوت المال الالمانية، ولأن القوى الكبرى في اوروبا، فرنسا وبريطانيا العظمى وروسيا، كانت تتابع سلفًا مصالح مالية، اقتصادية وسياسية ذات وقع استراتيجي (...) في البداية لم يكن البنك الالماني متحمسًا للموضوع، حتى ان الصفقة التجارية للمشروع لم تأت تباعًا من المتحدث باسم البنك الالماني إنما من قبل عضو الهيئة الادارية للبنك ألفريد كارلا الذي كان في بداية ١٨٨٨ في اسطنبول من اجل التباحث لبيع أسلحة للامبراطورية العثمانية، إذ تعرف على ممثل الحكومة التركية الذي فاتحه بأمله في ان يموّل البنك الالماني الخط الحديدي (...) وجّه البنك رسالة إلى مكتب الخارجية الالمانية في ١٥ آب ١٨٨٨ يستعلم فيها عن المشروع. ولدهشة البنك وصله الجواب من المستشار الالماني بسمارك شخصيًا يقول فيه ان حكومة الرايخ ليس لديها اعتراض وانها على استعداد لدعم المشروع دبلوماسيًا (...) (ونفذ البنك المشروع حتى مدينة قونيا. وبعدها، توقف المشروع سنوات إذ كانت سياسة بسمارك في الاصل دفاعية وتتبع توازنات في اوروبا، بينما انتهج خلفه الثاني سياسة هجومية في ظل شعار الدعوة إلى «مكان تحت الشمس». وعلى أساس هذه الدعوة اكتسب بناء الخط الحديدي ثقلاً أكبر) فإنه كلما امتد الخط باتجاه بغداد كلما أثار شكوك القوى الاوروبية الكبرى، ولكن السلطان العثماني كان يراهن بالضبط على هذه النقطة (...) وفي ليلة عيد الميلاد من العام ١٨٩٩، ارسل سيمنز برقية إلى زملائه في ادارة البنك في برلين تقول: «اليوم وقع اتفاق بغداد» (...)».

ويتفق المؤرخون، اليوم، على ان سكة حديد برلين–بغداد تعتبر من أكبر أسباب الحرب العالمية الاولى،

ويعود ذلك إلى انها كانت ستربط اقطار اوروبا والمشرق العربي وبلدان الخليج وشبه القارة الهندية في شبكة اقتصادية وصناعية لا مثيل لها. وبدأ بناؤها (أي استكمالها من قونيا باتجاه بغداد) في ١٩٠٣ عندما حصلت على هذه الصلاحية «شركة خط بغداد» التي تأسست في العام نفسه، وتحددت مدة ثماني سنوات للانتهاء من أعمال البناء بتكاليف قدرها ٤٥٠ مليون فرنك. لكن العمل استلزم مدة أطول من ثماني سنوات، ثم توقف بسبب الحرب العالمية الاولى، ولم يُستكمل إلا في ١٩٤٠. وقد تم تدمير خطوط السكة خلال القصف الجوي للعراق في حرب الخليج الثانية ١٩٩١.

□ **الصحافة في العراق:** ورد على لسان بعض الرحالة الاجانب تلميحات وإشارات إلى ان أول صحيفة ظهرت في العراق كانت تعرف باسم «جورنال العراق» التي أنشأها داود باشا الكرجي عندما تسلم منصب الولاية في ١٨١٦، وكانت تطبع في مطبعة حجرية، وتنشر في اللغتين العربية والتركية، ويُذاع فيها وقائع القبائل وأخبار الدولة العثمانية وقوانين البلاد.

إلا أن أغلبية المؤرخين يؤكدون انه لم يكن في العراق، قبل إعلان الدستور العثماني في ٢٣ تموز ١٩٠٨، غير ثلاث صحف كانت تنشرها الحكومة العثمانية في اللغتين العربية والتركية مرة في كل اسبوع، وذلك في الولايات الثلاث: بغداد والبصرة والموصل. أما هذه الصحف فهي: -«الزوراء» التي أنشأها الوالي مدحت باشا في بغداد وجلب لها مطبعة آلية من باريس سمّاها مطبعة الولايات، وقد صدر عددها الاول في ١٦ حزيران ١٨٦٩ واستمرت تصدر بانتظام مدة ٤٩ عامًا، أي إلى ان احتل الجيش البريطاني مدينة بغداد فجر ١١ آذار ١٩١٧. - «الموصل»، وصدرت في الموصل عام ١٨٨٥ واحتجبت قبل إعلان هدنة مونروس في اواخر تشرين الاول ١٩١٨. -«البصرة»، وظهرت في ١٨٨٩ باسم محمد علي المعروف بـ حلبي زاده، وفي ١٨٩٥ تولت الحكومة اصدارها، واحتجبت بعد احتلال الانكليز البصرة في ٢٢ تشرين الثاني ١٩١٤. فمع هذه الصحف الثلاث بدأ عهد العراقيين بالصحافة في تاريخهم الحديث.

ولما أعلن الدستور العثماني (١٩٠٨)، أقدم المفكرون في العراق على اصدار سلسلة طويلة من الجرائد والمجلات حتى بلغ عددها في سنة واحدة نيفًا وخمسين صحيفة في مختلف الموضوعات: في السياسة والعلم والأدب والاحصاء والفكاهة والهزل. وحين اضطربت الحياة الصحفية في العراق بسبب كثرة المخاصمات بين أربابها فقد أصدرت حكومة الآستانة أمرها إلى والي بغداد بإسقاط امتياز اية جريدة أو مجلة نال صاحبها امتيازًا بها و لم ينشرها حتى ١٥ آذار ١٩١١، أو نشر أصحابها بضعة اعداد منها ثم توقفوا عن ذلك حتى صدور هذا الأمر.

أما الجرائد والمجلات التي صدرت قبل الحرب العالمية الاولى وفي أثنائها، بالاضافة إلى الزوراء والموصل والبصرة، فقد وصل عددها إلى نحو سبعين، وأهمها: «بغداد»، سياسية، بالعربية والتركية، أصدرها مراد بك سليمان في آب ١٩٠٨، ونشرت آراء جمعية الاتحاد والترقي، وتوقفت عن الصدور في مطلع عامها الثاني. و«العراق»، سياسية عربية أصدرها عبد الجبار باشا الخياط (١٩٠٩). و«الدستور» (١٩١٢)، أنشأها في البصرة عبد الله أفندي الزهير لتكون لسان حال جمعية الاصلاح التي أسسها في البصرة طالب النقيب. و«صدى الدستور» (١٩١٣)، أصدرها عبد الوهاب الطباطبائي بمناسبة انتخابه عضوًا في مجلس المبعوثان. و«النهضة» (١٩١٣)، أنشأها مراحم أمين الباجه جي وابراهيم حلمي العمر بعد تزايد النزعة القومية في العراق على أثر انعقاد المؤتمر العربي الاول في باريس، وعطلتها الحكومة بعد ظهور عددها الحادي عشر فهرب صاحباها إلى البصرة والتجآ إلى طالب النقيب. وأما الجرائد والمجلات التي صدرت بعد الاحتلال البريطاني للبصرة في ٢٣ تشرين الثاني ١٩١٤ حتى نهاية ١٩٣٣، وكانت سياسية، فقد وصل عددها إلى ٦١ جريدة ومجلة. منها: «الرافدان» (صدرت في ايلول ١٩٢١ لصاحبها سامي خونده، واشتهرت بكتاباتها الوطنية الصارمة، وعطلها المندوب السامي وأبعد صاحبها إلى جزيرة هنجام في الخليج)؛ و«الأمل» (صاحبها الشاعر معروف الرصافي)، و«العالم العربي» (اشتهرت بانتصارها لقضايا الشعب ومكافحتها للصهيونية وبتراجمها لكل ما يكتب عن العراق بالانكليزية والفرنسية)، و«نداء الشعب» (١٩٢٦، لسان حال حزب الشعب الذي ألفه ياسين الهاشمي، وعرفت بمعارضتها الشديدة للمعاهدة العراقية-البريطانية)؛، وتوالى صدور الجرائد الناطقة باسم الاحزاب التي كانت تتشكل، الموالية منها أو المعارضة، منها «صدى العهد» (لسان حال حزب العهد الذي ألفه نوري السعيد في ١٩٣٠)، و«صدى الاستقلال» (١٩٣١، لسان حال الحزب الوطني العراقي). أما الصحف غير السياسية التي عالجت قضايا اجتماعية وأدبية وفنية وعلمية والتي صدرت في الفترة

نفسها (١٩١٤-١٩٣٣) فقد بلغ عددها نحو ٨٦ صحيفة.

ومن أبرز كتّاب المقال السياسي الذين شاركوا في التحرير والكتابة طيلة فترة ما بعد ثورة العشرين حتى اندلاع الحرب العالمية الثانية: باقر الشبيبي وعبد الغفور البدري وسامي خوندي ومحمد عبد الحسين وفهمي المدرس وابراهيم صالح شكر وابراهيم حلمي العمر وروفائيل بطي وعثمان قاسم وسليم حسون ومحمد رضا الشبيبي وعبد اللطيف الفلاحي ويوسف رجيب وجعفر أبو التمن، وغيرهم.

أما في سنوات ما قبل الحرب العالمية الثانية (١٩٣٤-١٩٣٩) لم يُكتب عن الصحافة العراقية شيء يذكر حتى كانت ثورة رشيد عالي الكيلاني (١٩٤١). ويعبر التصريح الذي أدلى به الوصي طه الهاشمي المكلف تشكيل الوزارة في ٦ شباط ١٩٤١ عن وضع الصحافة العراقية في هذه السنوات السابقة للثورة: «إن الصحافة حرة، غير ان الظروف العصيبة التي تمر بالعالم، والتي لا بد للعراق ان يجتازها بسلامة، تتطلب اليقظة، فقد أصدرت الحكومة عدة مراسيم في بدء نشوب الحرب، وفيها احكام للسيطرة على الصحافة، وقد أصبح من حق الحكومة، استنادًا على تلك المراسيم، ان توقف كل صحيفة عند حدها إذا خرجت عن الخطة المرسومة...».

كانت معظم الصحف العراقية، إذًا، قبيل ثورة ١٩٤١ تحاول البقاء ضمن التوازن بين الاحداث، وكانت جرأة الصحف الوطنية مقصورة على التلميحات، بحيث لا تستثير السلطة والسفارة البريطانية. ومع قيام الثورة وتكليف الكيلاني برئاسة حكومة الدفاع الوطني، وقفت أكثرية الصحف إلى جانبها. وبعد فشل هذه الثورة، توقف بعضها عن الصدور كجريدة «الجهاد»، وجريدة «اليوم»، وانقلب البعض الآخر وأصبح بوقًا للسلطة الحاكمة حتى قيام ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨، كجريدة «العراق» و«الأخبار» و«صوت الحق». ومع ذلك، تمكنت الصحف الصادرة عن الحزب الوطني الديمقراطي (الاهالي، صوت الاهالي، صدى الاهالي، نداء الاهالي) وحزب الاستقلال (لواء الاستقلال، صدى الاستقلال)، وحزب الاحرار (الاحرار)، وحزب الاتحاد الوطني (السياسة، صوت السياسة)، وحزب الشعب (الوطن)، ان تعبر باسلوب جديد امتاز بتضمينه مفاهيم سياسية جديدة فرضت تعابير جديدة كانت معدومة في صحافة ما قبل الحرب العالمية الثانية. إلا ان هذه الصحف ألغي معظمها إثر تجميد النشاط الحزبي في ١٩٤٧.

بعد ثورة تموز ١٩٥٨، صدرت «البلاد»، و«الأخبار»، و«الحرية»، و«اليقظة»، و«الجمهورية»، و«صوت الاحرار»، و«الثورة»، و«الزمان»، و«اتحاد الشعب»، و«الاهالي» و«خه بات»، وذلك في الأشهر الأولى من الثورة، وأدخل الصحفيون لأول مرة نوعًا جديدًا من المقال ويعرف بالتحقيق الصحفي أو الريبورتاج.

وشهد العام ١٩٦٧ ولادة القطاع العام في الصحافة، حيث أعلن عن قيام المؤسسة العامة للصحافة والطباعة (قانون رقم ١٤٥ للعام ١٩٦٧ الصادر عن مجلس قيادة الثورة). وصدرت عدة صحف عن المؤسسة، أبرزها: «الجمهورية»، و«الثورة العربية»، و«المواطن»، و«المساء»، و«بغداد أوبزرفر» (بالانكليزية)، إضافة إلى مجلة «ألف باء». وبعد ١٩٦٨، أعيد تنظيم الصحافة والمؤسسات الصحفية، فأسست أكثر من دار صحفية، منها: دار الجماهير للصحافة، ودار الثورة، وسُمح للاحزاب السياسية ضمن الجبهة الوطنية بقيادة حزب البعث باصدار صحف خاصة مثل جريدة «التآخي»، و«العراق حاليًا» التي نطقت باسم القوى الوطنية الكردية، و«طريق الشعب» بلسان الحزب الشيوعي العراقي، إضافة إلى عدد من المجلات الدورية الاسبوعية والشهرية (من دراسة بعنوان «الصحافة العربية» كتبها مؤلف هذه الموسوعة في ١٩٨١ و١٩٨٢، إبان عمله في «موسوعة السياسة» التي وردت في جزئها الثالث، ط١، ١٩٨٣، ص٦٠٤-٦٠٨).

وقبيل اندلاع حرب الخليج الثانية (١٩٩٠)، كانت أهم الصحف اليومية الصادرة في العراق: «الثورة» (جريدة حزب البعث العربي الاشتراكي الحاكم)، و«الجمهورية»، و«العراق» (ناطقة باسم الأكراد)، و«بغداد أوبزرفر» (بالانكليزية). وكان هناك عدد كبير من المجلات والصحف الاسبوعية المختصة. فالمجلات الأدبية والفكرية بلغ عددها خمسًا بالعربية، وواحدة بالكردية، والفنية واحدة، والمهنية إثنتان، والعلمية واحدة، والرياضية إثنتان، والمخصصة للاطفال واحدة. أما الصحف والمجلات الدورية: الأدبية والفكرية العربية ٤٧، والكردية ٤، والتركمانية واحدة، والسريانية واحدة. والصحف المهنية ١٤، والعلمية ٢٤، وهناك ٢ للرياضة، وكلها بالعربية.

□ **الضباط الاحرار (العراق): تنظيم عسكري** ثوري وطني سري عراقي، دفعت إليه جملة أسباب: المرارة المترتبة على إخماد ثورة ١٩٤١ وإعدام قادتها، تخاذل الحكومة في حرب فلسطين (١٩٤٨)، استخدام الجيش

ضد المتظاهرين في بغداد، دخول العراق حلف بغداد، تحالف الحكم مع بريطانيا والغرب في العدوان الثلاثي على مصر، وانطلاق أفكار وتيارات التحرر والعروبة والوحدة ونمو الحركات الوطنية والسياسية.

في ١٩٥٢، بدأ الضابط رفعت الحاج سري نشاطه عن طريق تنظيم رفاقه من سلاح الهندسة، وأصر على اعتماد استقلالية الحلقات وسريتها. وخلال سنوات قليلة استطاع هو ورجب عبد المجيد تنظيم العديد من الحلقات السرية واستقطاب بعض الضباط الشباب من أمثال ناجي طالب (آمر المدرسة العسكرية) ومحسن حسين الحبيب آمر المدفعية الثقيلة في معسكر الوشاش. وفي اواخر ١٩٥٦ تكاثر عدد الضباط المنتمين إلى حلقات التنظيم (وخصوصًا بعد تأميم قناة السويس والعدوان على مصر)، الأمر الذي استوجب تسمية لجنة عليا ضمت محيي الدين عبد الحميد (رئيسًا) وناجي طالب وطاهر يحي ورجب عبد المجيد وعبد الكريم فرحان ووصفي طالب وصبيح علي غالب ومحمد سبع ورفعت الحاج سري. وقد شكلت اللجنة العليا لجنة عسكرية لاعداد الخطط الضرورية للقيام بالثورة، وأخرى سياسية لدراسة الاوضاع الداخلية والدولية وجمع المعلومات التي تساعد على وضع الحلول للمشاكل السياسية والاقتصادية التي سوف تواجه الثورة عند نجاحها.

ويلاحظ انه حتى تاريخ تكوين اللجنة العليا لم يكن كل من عبد الكريم قاسم وعبد السلام عارف، اللذين لعبا دورًا قياديًا رئيسيًا في ما بعد، قد انضما لقيادة تنظيم الضباط الاحرار لوجود وحدتهما التابعة للفرقة الثالثة في المفرق (الاردن). ولكنهما انضما إلى التنظيم في ١٩٥٦، وبعد شهور قليلة، انضمت مجموعة تضم نحو ٨٠ ضابطًا من ذوي الرتب الصغيرة. وبدأ التعاون (١٩٥٧) بين الضباط الاحرار وجبهة الاتحاد الوطني التي ضمت الاحزاب الوطنية والاشتراكية المعارضة. وكان الضباط البعثيون انضموا إلى الضباط الاحرار بقرار من الحزب.

في شباط ١٩٥٨، أوفدت اللجنة العليا، تحسبًا منها لامكانية تدخل حلف بغداد، صديق شنشل، رئيس حزب الاستقلال وعضو جبهة الاتحاد الوطني (وهي الجبهة التي تضم اللجنة العسكرية وأعضاء من الاحزاب الوطنية والاشتراكية المعارضة)، إلى القاهرة ومفاتحة الرئيس جمال عبد الناصر والسوفيات في الأمر. وحصل شنشل على وعد من الرئيس جمال عبد الناصر والسفير السوفياتي بالدعم والمساندة، الأمر الذي دفع اللجنة العليا لاتخاذ قرار بالانضمام إلى الجمهورية العربية المتحدة في حال تعرض الثورة إلى تدخل مناوىء من دول حلف بغداد.

وسنحت فرصة تفجير الثورة عندما أقدمت قيادة الجيش على نقل بعض القطعات العسكرية التي يسيطر عليها الضباط الاحرار باشراف قاسم وعارف إلى الاردن عبر بغداد عشية ١٣-١٤ تموز ١٩٥٨. وقد تولى عبد السلام عارف صباح ١٤ تموز عملية الاستيلاء على المرافق الحساسة وإذاعة البيان رقم واحد من الاذاعة. ومن ثم توجهت وحدة صغيرة لاحتلال القصر الجمهوري. ولما كانت الاحزاب الوطنية على علم بالثورة، راح مؤيدوها والجموع يتدفقون على الشوارع ويساندون حركة القوات المسلحة، ما أضفى على هذه الحركة طابع الثورة الشعبية.

□ **الضباط الشريفيون:** مجموعة من الضباط العرب (العراقيين) الذين كانوا في الجيش العثماني والتحقوا من خلال جمعية العهد العسكرية السرية بالثورة العربية الكبرى (١٩١٦)، وانتقلوا مع الأمير (ثم الملك) فيصل إلى سورية، ثم إلى العراق حيث شكلوا ركيزة نظام الملك فيصل. فمنهم من أصبح رئيسًا للوزارة، مثل جعفر العسكري ونوري السعيد وجميل المدفعي وعلي جودت الايوبي (راجع باب «زعماء»). ويقدر مجموعهم بنحو ٣٠٠ ضابط، معظمهم من مناطق بغداد والحجاز، وينتمون إلى الطبقات المتوسطة أو ما دونها. وكان توجههم السياسي والاداري متأثرًا بنموذج تركيا الفتاة وبالرغبة في التشبه بالطريقة الاوروبية وبالقومية العلمانية. لذلك، اصطدموا بالعائلات والعشائر والقوى التقليدية. وقفوا إلى جانب الملك فيصل عندما أخذ يطالب الانكليز، بعد ستة أشهر من تنصيبه ملكًا (١٩٢١) بالصداقة والتحالف عوضًا عن التبعية الاستعمارية والانتداب، فكانوا في صف العناصر الوطنية وعلماء الشيعة. وتكرر الموقف نفسه بالنسبة إلى مسألة تقوية الجيش العراقي في ١٩٢٩. وعندما شكل نوري السعيد وزارته الاولى (١٩٣٠) احتل الضباط الشريفيون خمسة من أصل ستة مناصب وزارية.

غير ان مجيء نوري السعيد إلى رئاسة الوزارة قرّبه من الانكليز، فأخذ الملك فيصل بعد سنتين من توليه الوزارة يراقب بحذر نمو سلطة نوري السعيد الذي توسع في تطهير الجيش والادارات الكبرى لصالح تقوية نفسه والمقربين منه. وعندما خلف الملك غازي الملك فيصل ضعف نفوذ القصر في البلاد وبدأ الجيش والضباط الشريفيون يتدخلون بالسياسة بشكل سافر، الأمر الذي اثر على وحدتهم

وتماسكهم. ذلك ان بكر صدقي وعبد اللطيف نوري قائدي انقلاب ١٩٣٦ كانا ينتسبان لهذه المجموعة، وكذلك صلاح الدين الصباغ ورفاقه قادة ثورة ١٩٤١. وعندما وقع انقلاب بكر صدقي التجأ نوري السعيد إلى السفارة البريطانية ومن ثم ذهب إلى مصر، وبعد القضاء على الانقلاب عاد نوري السعيد وبدأ في ١٩٣٨ يحاول إقناع صلاح الدين الصباغ بفرض سلطة الجيش على حكومة جميل المدفعي. وفي اواخر ١٩٣٨، عاد نوري السعيد إلى رئاسة الوزارة وأخذ يتآمر على الملك غازي الذي كان يميل إلى رشيد عالي الكيلاني، الأمر الذي قرّبه من الأمير عبد الاله. وقد ايد تحالف نوري وعبد الاله بعض الضباط الشريفيين، وعُين الأخير وصيًا على العرش نظرًا إلى صغر سن ابن غازي (الملك فيصل الثاني). ولكن هؤلاء الضباط انقلبوا على هذا التحالف فضعف نوري السعيد وعبد الاله وهربا من العراق إبان ثورة ١٩٤١ ولم يعودا إلا بعد التدخل البريطاني العسكري المباشر. وفي الفترة التي تلت عودة نوري السعيد تحول الكثير من الضباط الشريفيين الذين استمروا في الحكومة والجيش إلى الطبقات العليا المالكة في المجتمع عن طريق المخصصات التي كانت تأتيهم من الشركات الكبرى والملاكين الكبار. وفي الخمسينات بدأت مجموعة الضباط الاحرار تتكون كاستمرارية للاتجاهات الوطنية عند الضباط الشريفيين الذين قاموا بثورة ١٩٤١ (عن «موسوعة السياسة»، ج٣، ط١، ١٩٨٣، ص٧٢٩-٧٣٠).

□ **مجازر كركوك (١٩٥٩)**: راجع «الحزب الشيوعي العراقي» في باب الاحزاب.

□ **مجازر الموصل (١٩٥٩)**: راجع «عبد الوهاب الشواف» في باب الزعماء.

□ **مسألة شط العرب**: بالتقاء مياه دجلة والفرات تكونت مياه شط العرب الذي يصب في الخليج والذي يبلغ طوله ٢٠٤كلم، ويتفاوت عرضه من كيلومترين عند المصب إلى كلم واحد عند البصرة. والملاحة صالحة فيه للبواخر البحرية ذات المغطس ٣٢ قدمًا، وذلك من مصبه في الخليج حتى ميناء المعقل قرب البصرة لأن عمق المياه في هذه المسافة يتراوح بين ٩-١٨م.

ويعود جزء كبير من أهمية الخليج العربي الدولية إلى شط العرب كمدخل إلى العراق. وله كذلك أهمية زراعية بالغة لانه يسقي أهم منطقة لبساتين النخيل في العالم (٧ ملايين نخلة مثمرة). وقد شقت حوله آلاف الجداول منذ الفتح الاسلامي. وكذلك، لشط العرب أهمية عسكرية وتجارية مرتبطة بالمنافذ الخارجية.

أنشأ البرتغاليون (وهم السباقون في غزو الخليج) وكالة تجارية في البصرة ١٦٢٢. وبعدهم، وصل الهولنديون إلى الخليج وشط العرب ودخلوا البصرة وأنشأوا وكالة تجارية ١٧٣٠ وبقوا هناك حتى ١٧٥٣. ثم سارع الفرنسيون والانكليز لأخذ حصصهم من المنطقة وكانوا يصطدمون بسيادة الاتراك على العراق حتى اوائل القرن العشرين. لكن إمارة عربية، هي إمارة الحويزة، ظلت تسيطر على شط العرب حتى بعد ان افتتح الاتراك العراق في ١٤٥٣. فكانت السفن تدفع الضريبة إلى أمير الحويزة. وكانت الضفة اليمنى من شط العرب تخضع لسيطرة العرب منذ عهد الجلاتريين في العراق حتى استيلاء العثمانيين على البصرة وتحويلها إلى ولاية عثمانية ١٥٤٦. وفي معاهدة «قصر شيرين» بين تركيا وفارس في ١٦٣٩، لم ترد أي إشارة إلى شط العرب، ذلك انه كان يخضع للسيادة العربية الخارجة عن نفوذ الفرس والاتراك معًا. فالفرس كانوا منذ عهد الصفويين يطلقون إسم «عربستان» على كامل اقليم الأهواز، وهو اعتراف صريح منهم بعروبة هذا الاقليم. وعندما ظهرت قبائل «بنو كعب» في منطقة شط العرب والاهواز واستقرت فيها (منذ اوائل القرن الثامن عشر) تعاظمت المقاومة العربية في وجه الاتراك والفرس وضد الحملات الانكليزية، خاصة ايام الشيخ سلمان بن سلطان (١٧٣٧-١٧٦٧).

راحت بريطانيا، مع تعاظم نفوذها في القرن الثامن عشر، تتدخل في قضايا الحدود بين الدولة العثمانية والدولة الفارسية بشكل يؤمّن لها الهيمنة على الطرق المائية، بينها شط العرب. فأوعزت إلى أحد دهاتها، أوستن هنري لايارد، الرحالة والدبلوماسي ومنقّب الآثار في نينوى (راجع «آثار العراق» في باب مدن ومعالم)، بوضع مشروع تحديد الحدود العثمانية-الفارسية في شط العرب. وكان مما تضمنه ذلك المشروع ان تكون منطقة شط العرب والمحمرة تابعة للدولة العثمانية، وان يُعطى نهر بهمنشير إلى ايران. وهذا النهر هو فرع من نهر كارون يصب في الخليج وليس في شط العرب. ولقد نشر لايارد مشروعه ذاك في المجلد السادس عشر من مجلة الجمعية الجغرافية الملكية في لندن ١٨٤٨ بعنوان «وصف ولاية خوزستان». وتتابعت بعد ذلك الاتفاقات والمعاهدات

الخاصة بالحدود بين الدولة العثمانية وفارس حتى سنة ١٩١٣ عندما تمّ التوقيع على بروتوكول الأستانة (القسطنطينية).

وما لبث ان دخل في اواخر القرن التاسع عشر عامل مهم للغاية على مسار المفاوضات والاتفاقيات، وهو اكتشاف النفط واستعماله كأداة رئيسية للطاقة، وما نجم عن ذلك من تنافس بين الدول الاستعمارية.

فحين استطاع وليم نوكس دارسي، انكليزي من أوستراليا، ان يحصل على امتياز للتنقيب عن النفط في ايران، عملت بريطانيا ما بوسعها لأن تنتزع الامتياز من وليم دارسي. وتمكن أحد رجال مخابراتها، وهو اليهودي سدني روز نبللوم من خداع وليم دارسي وحمله على التنازل عن امتيازه لجمعية تبشيرية مسيحية وهمية. وهكذا استأثرت بريطانيا وحدها بمنابع النفط الايراني. فتضاعفت لديها أهمية شط العرب، طريق نقل النفط الايراني إلى الخليج ثم إلى اوروبا. فظلت تضغط باستمرار على الحكومة العراقية في العهد الملكي حتى حملتها على عقد معاهدة ١٩٣٧.

وقبل تبيان أهم ما ورد في هذه المعاهدة (١٩٣٧) بخصوص الحدود، وشط العرب خاصة، نذكر انها استندت على وضع قانوني يعود، بصورة خاصة، إلى معاهدة ارضروم الثانية في ١٨٤٧، المعقودة بين الدولة العثمانية وفارس بوساطة كل من روسيا وبريطانيا، والتي وضعت تحت السيادة الفارسية مدينة المحمرة وميناءها وجزيرة الخضر (عبادان) والاراضي التي تقع على الضفة الشرقية لشط العرب، كما نصت على حرية الملاحة للسفن الايرانية في الشط من مصبه حتى التقاء حدود البلدين. لكن تنفيذ هذه المعاهدة اصطدم بتعنت الجانبين (العثماني والفارسي) في تفسير نصوصها، وباندلاع حرب القرم الثانية.

أما المستند الثاني لمعاهدة ١٩٣٧ فهو بروتوكول طهران لعام ١٩١١ الذي عاد الطرفان (العثماني والفارسي) إلى الاتفاق على تأليف لجنة مشتركة لوضع خط الحدود بين البلدين على أساس معاهدة أرضروم (١٨٤٧).

ومع المستند الثالث، بروتوكول القسطنطينية لعام ١٩١٣-١٩١٤ الذي دخل في تفصيلات دقيقة (٨٧ محضرًا)، استمرت الخلافات على التطبيق، إضافة إلى ان وضعًا مستجدًا تمامًا قد طرأ على الوضع برمته: الحرب العالمية الاولى، هزيمة الدولة العثمانية، الاحتلال البريطاني للعراق، ثم العهد الملكي العراقي وتأليف حكومات وطنية عراقية.

ظلت مسألة الحدود بين الحكومة العراقية وفارس عالقة ومثار خلاف، إلى ان عرض العراق الأمر على عصبة الأمم التي أوصت في ٢١ كانون الثاني ١٩٣٥، بعد مناقشات طويلة، بحل النزاع عن طريق المفاوضات المباشرة. وقد كانت نتيجة ذلك عقد معاهدة ١٩٣٧ (وهي المستند أو الوثيقة القانونية الرابعة والأهم) التي أصبحت نافذة المفعول في ١٩٣٨ بعد أن صدقها الطرفان (العراقي والايراني) وفق الاحكام الدستورية لكل من البلدين وتبادلا وثائق الإبرام (عن عباس عبود عباس، كتاب «أزمة شط العرب»، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط١، ١٩٧٣).

«أعلنت هذه المعاهدة، في مقدمتها، على الرغبة في تمتين أواصر الصداقة الأخوية بين العراق وايران، وحددت الغرض من عقدها بوضع حد حاسم لمشكلة حدودهما المشتركة. اما بالنسبة إلى الوثائق السابقة فقد اعتبرت المعاهدة ان بروتوكول القسطنطينية لسنة ١٩١٣ ومحاضر جلسات لجنة تحديد الحدود المؤرخة عام ١٩١٤ وثائق شرعية وملزمة للطرفين (مادة ١). ولكن المعاهدة عدلت خط الحدود في شط العرب، فحصلت ايران بذلك على مكسب جديد بموافقة العراق، على ان يكون هذا الخط هو خط التالوج لمسافة ٧كلم تقريبًا مقابل عبادان. ومن تفحص مجمل الاحكام الواردة في نصوص هذه الوثائق يتأيد أن شط العرب موضوع تحت سيادة العراق من مصبه حتى نقطة تكونه باستثناء حوالي ١٤كلم يشترك البلدان في السيادة عليها، سبعة منها مقابل ميناء عبادان حيث خط التالوج هو خط الحدود، وسبعة أخرى مقابل ميناء المحمرة حيث يكون خط الحدود هو منتصف مجرى المياه» (عن «موسوعة السياسة»، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ج٣، ط١، ١٩٨٣، ص٤٧٩).

في ١٩ نيسان ١٩٦٩، انفجرت أزمة حدود جديدة بين العراق وايران عندما أعلن وكيل وزارة الخارجية الايرانية امام مجلس الشيوخ الايراني نقض ايران لمعاهدة ١٩٣٧. وبعد أشهر (١٩٧٠)، أعلن شاه ايران عن إلغائها من جانب واحد. وقد صاحبت ذلك، وعلى مدى شهور طويلة، تهديدات ومطالب من جانب ايران تتعلق بالملاحة في شط العرب وباعادة تعيين الحدود المشتركة. وكانت الولايات المتحدة الاميركية قد توصلت إلى وضع يدها على أكثر من ٨٠٪ من النفط الايراني.

«في ١٩٧٥، عقد إتفاق جديد بين العراق وايران في الجزائر، وتألف من ثلاث مواد: ١- انسحاب القوات الايرانية

من الاراضي العراقية المحتلة (كانت قوات ايرانية دخلت اراض عراقية في الشمال لمؤازرة المتمردين الأكراد)؛ ٢- وقف الدعم الايراني لجماعة البرزاني؛ ٣- تقسيم شط العرب. كانت كل مادة من هذه المواد مكملة للأخرى. فخرق الواحدة يعني خرقًا للاتفاق برمته. وقد نفذ الجانب الايراني البنود المتعلقة بشط العرب وبإيقاف الدعم للمتمردين الأكراد، لكن نظام الشاه كان قد أطيح به قبل تنفيذ البند المتعلق بانسحاب القوات الايرانية من الاراضي العراقية. وقد أعلن الخميني رفضه لهذا الاتفاق حتى قبل وصوله إلى السلطة وهو في باريس، ووصفه بأنه اتفاق إمبريالي يرفضه الايرانيون. وبعودته إلى ايران، سارع إلى دعوة الانفصاليين الأكراد إلى استئناف تمردهم في شمالي العراق وعمل على تسليحهم. وعندما طلب العراق انسحاب القوات الايرانية من اراضيه، رفض الخميني هذا الطلب مدعيًا انها أراض ايرانية وانه غير معني باحترام اتفاق معقود مع الشاه. وعندما بعث العراق برسالة إلى النظام الايراني لمعرفة ما إذا كانت طهران لا تزال تعتبر الاتفاق (اتفاق الجزائر) قائمًا، لم يتلق جوابًا. وهكذا، لم يحترم نظام طهران إلا بندًا واحدًا من الاتفاق، البند المتعلق بتقسيم شط العرب» (عن مجلة «بغداد» الصادرة باللغة الفرنسية، العدد ٢٧٩، تشرين الاول ١٩٨٨، ص٢٠؛ راجع كذلك «النبذة التاريخية»).

☐ **مسألة الموصل:** مسالة جرى الحديث عنها، ووقعت بصددها خلافات بعد الاعلان عن انتهاء الحرب العالمية الاولى وتوقيع هدنة مودروس (أو موندروس) في الساعة الحادية عشرة من يوم ١١ تشرين الثاني ١٩١٨، وأقفل ملفها بعد تأسيس الدولة العراقية في ١٩٢٠ وتثبيت حدودها في ١٩٢٦. وأعاد الزعماء الاتراك، أخصهم الرئيس التركي سليمان ديميريل، فتح ملف هذه المسألة منذ أواخر الثمانينات، وخاصة في أعقاب حرب الخليج الثانية وفي أجواء الظروف الفائقة الصعوبة التي عاشها، ولا يزال، العراق نتيجة لهذه الحرب.

بعد هدنة مودروس التي أنهت الحرب بين الحلفاء والدولة العثمانية،تحركت القوات البريطانية المحتلة للعراق (وكانت بدأت احتلاله منذ ١٩١٤ بدءًا بالبصرة) تجاه الموصل، التي كانت لا تزال خاضعة للعثمانيين، واحتلتها في ٥ تشرين الثاني ١٩١٨ بعدما انسحب منها القائد التركي علي إحسان باشا. والجدير ذكره ان قبل هذا التاريخ كانت ثمة معاهدات واتفاقيات عقدت بين الدول الحلفاء، كمعاهدة لندن في ١٩١٥ واتفاقية سان جان دو موريان في ١٩١٧ تضمنت اقتسام أملاك الدولة العثمانية وذكرت بعضها ولاية الموصل تحديدًا كاتفاقية سايكس-بيكو (١٩١٦) بين فرنسا وبريطانيا.وحسب المذكرات الدبلوماسية التي تبودلت في لندن يومي ٩ و١٦ ايار ١٩١٦ (في إطار الاتفاق الشهير، سايكس-بيكو) كانت الموصل من نصيب فرنسا. لكن ثمة خلافات ومساومات حول المحاصصة في بلدان المشرق العربي نشبت بين بريطانيا وفرنسا. فـ«صحيح ان اتفاقية سايكس-بيكو نصت على تقسيم العراق إلى منطقتي نفوذ: فرنسية وبريطانية ولكن حين انعقد مؤتمر سان ريمو (١٩٢٠) لم تعد فرنسا طرفًا في المطالبة به (أي بحصتها في العراق). ومع ان المفاوضات التي بدأت في لندن في كانون الاول ١٩١٨ (حين طلب المستر لويد جورج إلى كليمنصو ان يوافق على ضم شمال العراق وفلسطين إلى منطقة النفوذ البريطاني) لم تؤد إلى تسوية نهائية حينئذ فإن اتفاقية عقدت بعد سقوط كليمنصو في كانون الثاني ١٩٢٠ وتنازلت فرنسا بموجبها عن كل مطامعها الاقليمية في العراق مقابل إطلاق يدها في سورية واعطائها حصة كبيرة من زيت الموصل. وقد تمت المساومة الفرنسية البريطانية فعلاً في سان ريمو، والمؤتمر منعقد، ولما أبرم أمر تلك الصفقة (تم ذلك في ٢٤ نيسان ١٩٢٠ في اتفاق عنوانه «مذكرة اتفاق بين المسيو فيليب برتلو والسير جون كادمان») منح المجلس الأعلى رسميًا حق الانتداب على العراق كله لبريطانيا» (جورج انطونيوس، «يقظة العرب»، ص٤٧٤-٤٧٥).

طُوي الخلاف، إذًا، بين بريطانيا وفرنسا، حول الموصل الواقعة ضمن الحدود الطبيعية للعراق كما حددها خط بروكسيل، ليبدأ فصل من الخلاف، حول الموصل، بين بريطانيا وتركيا. وولاية الموصل التي هي موضوع الخلاف البريطاني-التركي هي غير محافظة الموصل العراقية الحالية. فالولاية كانت تضم شمال العراق بأسره وتشمل في الوقت الحاضر محافظات الموصل ودهوك وكركوك واربيل والسليمانية.

لم يكن بمقدور الاتراك الدخول في نزاع عسكري مع بريطانيا المنتدبة على العراق بسبب الموصل. لذا التجأت دبلوماسيتهم إلى لعب ورقة أقليات منطقة الموصل، وخاصة الأكراد. إلا ان وزير خارجية بريطانيا اللورد كيرزون واجه هذه الورقة بقوة لقناعته بأن «ضياع الموصل يجر إلى ضياع بغداد والعراق كله، مما يعني الفشل النهائي للسياسة البريطانية في الشرق».

وفي نهاية كانون الثاني واوائل شباط ١٩٢٣، وفي أجواء رغبة تركيا في إنجاح مؤتمر لوزان، فقد قبلت شطب مسألة الموصل من معاهدة الصلح هذه وإبقائها

مطروحة على الحكومتين اللتين لم تتوصلا إلى حل، ما حدا بمجلس عصبة الامم ان يقرر في ٣٠ ايلول ١٩٢٤ تأليف لجنة تحقيق حول الموصل وتقديم توصية لحلها إلى المجلس.

زارت اللجنة كلاً من لندن وأنقرة وبغداد والموصل. وأبرز تقريرها (الذي قدمته في ١٦ تموز ١٩٢٥) خلافات كثيرة حول ادعاءات تاريخية وعرقية واقتصادية واستراتيجية، وارتأت «ان الحجج المهمة لا سيما الاقتصادية والجغرافية وعواطف أكثرية السكان تميل لتأييد ضم جميع الاراضي الواقعة جنوبي خط بروكسيل إلى العراق وذلك بشرطين:

الاول: ان تبقى هذه الاراضي تحت الانتداب الفعال لمدة ٢٥ سنة.

الثاني: ان تؤخذ في الاعتبارات رغبات الأكراد بتعيين موظفين أكراد في المحاكم والمدارس وبأن تكون اللغة الكردية اللغة الرسمية فيهما.

ورفضت تركيا تقرير اللجنة، وقدمت طلبًا عاجلاً إلى محكمة العدل الدولية في لاهاي (١٩ ايلول ١٩٢٥). فأصدرت المحكمة حكمها في ٢١ تشرين الثاني ١٩٢٥، بأن القرار الذي سيتخذه مجلس عصبة الامم في القضية سيكون قرارًا قطعيًا وملزمًا باعتباره سيقرر حدود ولاية الموصل، وتمّ الموافقة على هذه الحدود في ١٩ كانون الاول ١٩٢٥. وفي ١٨ تموز ١٩٢٦، صادقت الجمهورية التركية على معاهدة تركية-بريطانية-عراقية تم بموجبها القبول بخط بروكسيل خطًا للحدود بين العراق وتركيا.

ورغم توقيع تركيا على هذه المعاهدة ظلت مسألة الموصل، ومعها مسألة كيليكيا ولواء الاسكندرون (سورية)، تسببان توترًا خفيًا في العلاقات التركية مع العراق وسورية. وبعد مرور نحو ستة عقود ونيف على مصادقة تركيا على معاهدة ١٩٢٦، استغل الزعماء الاتراك العمليات العسكرية الحليفة ضد العراق. فأطلق الرئيس التركي تورغوت أوزال تصريحًا استعمل فيه عبارة «الشعوب العراقية» (كانون الثاني ١٩٩١). فكان سابقة لا مثيل لها في تاريخ تركيا الحديث، وفتح علاقات أنقرة الاقليمية على احتمالات قد تكون الأكثر حدة والأخطر منذ تأسيس الجمهورية التركية في ١٩٢٣. وكذلك صرّح الرئيس التركي سليمان ديميريل، في اول ايار ١٩٩٥، عن ضرورة تعديل الحدود العراقية-التركية، لأسباب أمنية، وان الموصل «ما زالت تابعة لتركيا»، مما أعطى انطباعًا عن استمرار هذا النهج في سياسة تركيا، رغبة منها في إخضاع شمالي العراق لنفوذها بحجة «منع متسللين من حزب العمال الكردستاني من تلك المنطقة». ومفاد هذا الطرح ان يتم تصحيح الحدود التركية-العراقية، بحيث يبعد خطها الجديد عن قمم الجبال الفاصلة بين البلدين لينزل إلى سفح الجبلين من الاراضي العراقية، وهو ما يعني توسيعًا جغرافيًا للارض التركية على حساب الاراضي العراقية، وتحديدًا في ما يخص ضم ولاية الموصل. وكان العراق يرد بعنف على هذه الدعوات التركية الصادرة عن «الانكشاري المريض»، ويحذر من «لعبة التقسيم»، ومن أن «بذور التقسيم في تركيا أكثر». ولوحظ ان الاوساط السياسية ووسائل الاعلام في تركيا توقفت، منذ اواسط ايار ١٩٩٥، عن تداول موضوع الحدود (راجع «مسألة الموصل» في تركيا، ج٦، ص٢٧٦-٢٧٧).

□ **المعاهدات العراقية-البريطانية:** سبع معاهدات عقدت خمس منها إبان الحكم الملكي الفيصلي في ظل الانتداب البريطاني.

الاولى (تشرين الاول ١٩٢٢): جاءت في أعقاب الثورة العراقية الكبرى المعروفة بثورة العشرين ضد الاحتلال البريطاني الذي بدأ أثناء الحرب العالمية الاولى ونقض بريطانيا لوعودها السابقة لحق العرب في التحرر والاستقلال والوحدة مقابل دخولهم الحرب ضد العثمانيين وحلفائهم في دول المحور. فجاءت هذه المعاهدة، التي حوّلت صيغة الاحتلال إلى صيغة الانتداب، كأهم نتيجة للثورة. ومع ذلك، قوبلت المعاهدة برد فعل سلبي شديد لدى عديد من الهيئات والاحزاب التي رأت إليها تقييدًا للسيادة الوطنية العراقية.

الثانية (كانون الثاني ١٩٢٦): فرضت من جانب بريطانيا لتعديل المعاهدة الاولى وتجديدها لمدة ٢٥ سنة، مع إقرارها (بريطانيا) لشرط ان المعاهدة لا تعود نافذة إذا نال العراق عضوية عصبة الامم. واستمرت مفاوضات الملك وحكومته مع الانكليز لمعاهدة تخلو من القيود والعراقيل الموجودة في المعاهدتين الاولين.

الثالثة (كانون الثاني (١٩٢٧): تضمنت اعتراف الحكومة البريطانية الصريح باستقلال العراق وسيادته وتعهدها بدعم العراق لدخول عصبة الامم في ١٩٣٢. ولكن الانتداب استمر وكذلك الوجود العسكري البريطاني ووجود مستشارين انكليز في الوزارات والتدخل الانكليزي في تعيين المسؤولين في المناطق الكردية.

الرابعة (تموز ١٩٣٠): عقدت بعد مفاوضات تولتها عدة وزارات كانت تستقيل كلما تعثرت المفاوضات إلى ان

كلف الملك فيصل نوري السعيد تشكيل الوزارة. وقد ألحق بالمعاهدة بروتوكول عسكري رأى إليه العسكريون توكيدًا ابديًا للاحتلال تحت ستار التحالف. فعارضها زعماء المعارضة بقوة، وحلّ نوري السعيد البرلمان وجاء بآخر يدين له بالولاء في غالبية اعضائه ليوافق على المعاهدة.

الخامسة (كانون الثاني ١٩٣١): عقدتها وزارة نوري السعيد للحلول محل صك الانتداب البريطاني على العراق. نصّت رسميًا على إلغاء الانتداب، وكانت مدتها ٢٥ عامًا. فمهدت لدخول العراق عصبة الامم (١٩٣٢). وسمحت المعاهدة لبريطانيا بالاحتفاظ بقاعدتين جويتين في الحبانية والشعيبة وبقوات عسكرية في البلاد لمدة خمس سنوات.

السادسة (١٥ كانون الثاني ١٩٤٨): هذه المعاهدة المسماة «معاهدة بورتسموث» (مدينة انكليزية) تربط العلاقة بين البلدين لمدة ٢٠ سنة. لكن هذه المعاهدة لم تعش إلا لأيام قليلة إذ قضت عليها انتفاضة كانون الثاني ١٩٤٨ المسماة «وثبة كانون» كما قضت على حكومة صالح جبر التي وقعت عليها. وقبل أشهر قليلة منها كانت وقعت ايضًا انتفاضة «كاورباغي» في كركوك التي قادها عمال شركة نفط العراق.

السابعة (نيسان ١٩٥٥): تمّ إلغاء معاهدة ١٩٣٠، وعقد العراق معاهدة مع بريطانيا مدتها خمس سنوات.

□ **الملكية في العراق:** عندما كان فيصل ملكًا على سورية كان أخوه الأكبر الامير عبد الله يعد نفسه ليكون ملكًا على العراق. فأوعز فيصل إلى ٢٥ شخصية عراقية مناصرة دعم رغبة أخيه. فألفت هذه الشخصيات «المؤتمر العراقي» الذي أصدر بيانًا طالب فيه باستقلال العراق وان يكون عبد الله ملكًا عليه. وقبل ذلك بنحو سنتين، أي في ١٩١٨، كان لورنس قد اقترح انشاء ثلاث دول عربية هي سورية تحت حكم فيصل، ودولتان في العراق، الاولى من البصرة إلى عانة وتعطى لعبد الله، والثانية في الموصل وتعطى لزيد.

وفي أثناء دخول الجيش الفرنسي دمشق وفرار فيصل من سورية كان في نية عبد الله مقاتلة الفرنسيين في سورية برجال القبائل المناصرة له. فحاول المندوب السامي البريطاني هربرت صاموئيل، عبر الشخصية السياسية الفلسطينية عوني عبد الهادي، إقناع عبد الله بعدم الاقدام على أي عمل من شأنه إحراج بريطانيا مع حليفتها فرنسا. وطلب وزير المستعمرات البريطانية ونستون تشرشل عدم تقرير أي شيء حتى يصل إلى القدس، وبوصوله اجتمع مع عبد الله الذي طلب عرش العراق. لكن تشرشل أوضح له أن عرش العراق من حصة أخيه فيصل وان بريطانيا تعرف ان هناك معارضة عراقية قوية لهذا الترشيح (بعد القدس، توجه تشرشل إلى القاهرة ليرأس المؤتمر الاستعماري البريطاني الشهير، راجع «مؤتمر القاهرة، ١٩٢١» في هذا الباب).

تعترف المصادر التاريخية والسياسية البريطانية بأن الثورة الشعبية العراقية (راجع «ثورة العشرين» في هذا الباب) أجبرت بريطانيا على التفكير بحكومة عراقية وطنية. فطلب المندوب السامي البريطاني والحاكم العسكري على العراق، برسي كوكس، من عبد الرحمن النقيب الكيلاني نقيب اشراف بغداد تشكيل حكومة عراقية تحت إشرافه وإشراف المستشارين البريطانيين. ودخل الوزارة واحد من أقوى الشخصيات العراقية المنافسة هو طالب النقيب، نقيب اشراف البصرة الذي أصبح وزيرًا للداخلية. وحين شعر الإثنان، الكيلاني والنقيب، بنية بريطانيا لترشيح فيصل ملكًا على العراق، اتفقا على الدعوة إلى ملك عراقي يكون أحدهما، كما اتفقا على إصدار جريدة تدعو لهما وتعارض اختيار فيصل، وقد استدعي لرئاسة تحريرها الشاعر معروف الرصافي الذي كان في القدس نافيًا نفسه اختياريًا.

هذه المعارضة العراقية القوية لترشيح فيصل التي تمحورت حول شخصية طالب النقيب رافع شعار «العراق للعراقيين» أكثر من شخصية الكيلاني الذي كان قد بلغ الـ٧٨ سنة من عمره، جعلت الادارة البريطانية تطرح عدة مقترحات أوجزها الشاعر والكاتب العراقي نبيل ياسين («الحياة»، العدد ١٠٩٧٩، تاريخ ٤ آذار ١٩٩٣، ص١٠) بالتالي:

«اقتراح لورنس القاضي بتقسيم العراق إلى دولتين لزيد وعبد الله (كما تقدم ذكره).

– أرنولد ولسن قدّم مقترحات عدة أولها إنشاء دولة عربية في العراق تشمل ولاية الموصل تحت حكم أمير عربي بوجود مندوب سام بريطاني وبمجموعة كاملة من المستشارين. فتمّ درس ادعاءات هادي العمري عميد العمريين في الموصل وأحد أشرافها، وادعاءات امير مصري أو أحد اولاد الشريف حسين (وسرعان ما استبعدت جميع هذه المقترحات أو الادعاءات لمصلحة مشروع يقضي باقرار برسي كوكس حاكمًا لمدة خمس سنوات من دون أي حكم عربي).

– البريطاني الشهير فيلبي (عنه، راجع «العربية السعودية، المملكة» في هذا الجزء)، صديق طالب النقيب، اقترح إقامة جمهورية، وكتب عن ملاءمة طالب النقيب ليكون رئيسًا للوزراء أو رئيسًا للجمهورية.

- أوساط في كركوك وفي بغداد اقترحت ترشيح أحد الامراء العثمانيين الاتراك هو برهان الدين بن عبد الحميد الثاني،
- أوساط بريطانية رشحت آغا خان، زعيم الاسماعيلية،
- والي بشت كورة غلام رضا خان رشح نفسه.
- مؤتمر القاهرة (آذار ١٩٢١، راجع مادته في هذا الباب) برئاسة تشرشل وحضره من العراق برسي كوكس والمس بل وهالدن قائد القوات البريطانية في العراق وجعفر العسكري وساسون حزقيل وزير المال وعميد العائلات اليهودية، هذا المؤتمر رشح فيصلاً».

بهذا الترشيح ألغيت المشاريع والمقترحات الأخرى-وكلها بريطانية في الواقع- وكان قائمًا على الفكرة الأساسية التي وردت في تقرير مجموعة اللورد كرزون الداعية إلى وضع دستور لدولة عربية أو مجموعة من الدول على أساس رغبات السكان مع بقاء السيطرة البريطانية التي لا يوجد نزاع حولها.

وقد جاءت معارضة هذا الترشيح من طالب النقيب الذي هدّد بأنه سوف يثير العشائر العراقية ويعبئها لمنع بريطانيا من استخدام نفوذها لصالح فيصل. و لم يفسح البريطانيون مجالاً له لتنفيذ تهديده. إذ سرعان ما تلقى دعوة من المس بل، سكرتيرة المفوض السامي برسي كوكس وبناء على تعليماته، دعوة لتناول الشاي في بيتها. وما إن وصل طالب النقيب إلى منزل المس بل حتى أحاط به الجنود البريطانيون وأخذوه عنوة وعنفورًا في سيارة عسكرية ونقلوه فورًا منفيًا إلى سيلان (سري لانكا) مع عدد من أنصاره.

□ **مؤتمر القاهرة (١٢ آذار ١٩٢١):** مؤتمر إداري استعماري بريطاني، دعت إلى عقده وزارة المستعمرات البريطانية (التي كان يرأسها ونستون تشرشل، وكان لورانس مستشارًا أول له) لرسم السياسة الانكليزية لمرحلة ما بعد الحرب العالمية الاولى ولتطبيق صك الانتداب المقرر في مؤتمر سان ريمو (١٩٢٠)، وكان الوضع العراقي (ثورة العشرين) على رأس أسباب انعقاده. إذ كان من نتيجة الخسائر التي سببتها ثورة العراق ان اشتدت الحملة في بريطانيا لتخفيض النفقات على الالتزامات في الخارج. واتخذ المؤتمر قرارات أدّت إلى تغيير جذري في السياسة في العراق وإلى تغييرات ذات أهمية-من نوع مختلف-في فلسطين وشرقي الاردن.

في الاسابيع التي سبقت عقد المؤتمر، أجرى فيصل في لندن محادثات عديدة مع شخصيات حكومية وغير حكومية، وبخاصة مع وزير المستعمرات، تشرشل، ومستشاره الكولونيل لورنس. وتمخضت تلك المحادثات عن تفاهم بجمله ان الحكومة البريطانية ستسلم إدارة العراق إلى حكومة عربية وستستعمل نفوذها لتضمن تعيين فيصل ملكًا على العراق وتدخل في مفاوضات معه لإبرام معاهدة تحالف تحلّ محل الانتداب.

ترأس تشرشل المؤتمر وحضره نحو أربعين بريطانيًا من العاملين في البلاد العربية، وكان أبرزهم السير برسي كوكس المندوب السامي في العراق، والسير هربرت صموئيل المندوب السامي في فلسطين. وقد توزعوا على ثلاث لجان، مالية وعسكرية وسياسية، وترأس تشرشل بنفسه اللجنة السياسية التي لعب فيها لورانس دورًا رئيسيًا.

وقرّر المؤتمر أن يوصي بإنفاذ المسائل التي تم عليها التفاهم في لندن بين فيصل وتشرشل بأسرع وقت. واقترح المؤتمرون ان يتوجه فيصل إلى العراق مرشحًا للعرش، وأن يُنادى به ملكًا عن طريق استفتاء شعبي. «وكانوا يعللون النفس بأنهم، إذا أنشأوا حكومة عربية في العراق تمهد لالغاء الانتداب، فقد تتمكن الحكومة البريطانية من تخفيض اعداد حامياتها كثيرًا وتوفر بذلك نفقات طائلة. ذلك ان ثورة ١٩٢٠ قد اقنعتهم بأن حفظ العهود التي قطعوها سبيل من السبل إلى تجنب النفقات الباهظة، وكانت هذه هي سياسة الجمع بين الاقتصاد وكلمة الشرف» (جورج انطونيوس، «يقظة العرب»، ص٤٣٣).

وكذلك تم في هذا المؤتمر تأكيد فصل شرقي الاردن عن ادارة فلسطين والاعتراف بالامير عبد الله أميرًا عليها، وتأكيد التزام الانتداب بدقة بشرط إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين. والجدير ذكره هنا ان وفدًا فلسطينيًا اتصل بتشرشل في القاهرة، ولكنه أجاب بأنه يفضل لقاءهم في القدس (التي وصل إليها بعد ١٢ يومًا من المؤتمر، أي في ٢٤ آذار ١٩٢١)، وكان الوفد يمثل المؤتمر العربي الفلسطيني المنعقد في حيفا، كانون الاول ١٩٢٠. وعلى جدول أعمال مؤتمر القاهرة أدرجت ايضًا المصالح البريطانية في «ساحل الامارات المتصالحة على شاطىء الخليج وعدن».

وقد حاول لورانس ان يُظهر ان بريطانيا، بعد نتائج هذا المؤتمر، قد وفت بوعودها العربية في رسائل حسين-مكماهون الشهيرة، وإن متأخرة: «عهدت وزارتنا المنهكة إلى المستر ونستون تشرشل بتسوية شؤون الشرق الاوسط، فاستطاع في بضعة أسابيع في مؤتمر القاهرة ان

يفكّ العقد جميعًا، وان يجد حلولاً تحقق، في ما أرى، وعودنا مبنىً ومعنىً دون ان يضحي بأية مصلحة من مصالح امبراطوريتنا أو بأية مصلحة من مصالح الشعوب التي تشملها التسوية. وبذلك تحللنا من المغامرة الشرقية التي خضناها ايام الحرب بأيدٍ نظيفة إلا أنّنا تأخرنا عن الوقت المحدد ثلاث سنوات حرمتنا من الفوز حينئذ بالشكران الذي تستطيع الشعوب، بل الدول ان تردّه» (عن كتاب لورانس «أعمدة الحكمة السبعة»، ط١٩٣٥، هامش ص٢٧٦، وقد أوردها كذلك جورج انطونيوس في كتابه «يقظة العرب»، ص٤٣٥).

☐ **ميثاق العمل القومي المشترك:** ميثاق وحدوي أعلن بتاريخ ٢٦ تشرين الثاني ١٩٧٨ إثر سلسلة من اللقاءات بين القيادات السياسية والحزبية الحاكمة في كل من العراق وسورية. وذلك في أعقاب إقدام الرئيس المصري محمد أنور السادات على توقيع اتفاقيتي كامب دافيد للصلح مع اسرائيل في ١٧ ايلول ١٩٧٨، وخروج مصر من المواجهة العربية ضد اسرائيل. وقد نصّ الميثاق على إنشاء هيئة سياسية عليا مشتركة من قيادتي القطرين، وتشكيل أربع لجان مركزية: لجنة الشؤون السياسية والاعلامية والثقافية، لجنة الشؤون الاقتصادية والتعاون الفني، لجنة التعاون العسكري ومهمتها اعداد اتفاقية دفاع مشترك تمهّد لقيام وحدة عسكرية كاملة بين البلدين، ولجنة التربية والتعليم العالي والبحث العلمي.

الجدير ذكره ان الاعلان عن هذا الميثاق جاء بعد ٢٤ يومًا من انعقاد مؤتمر القمة العربي التاسع في بغداد، وانه لم يجد طريقه إلى التنفيذ (راجع العنوان الفرعي «المصالحة مع العراق» في النبذة التاريخية من مادة «سورية»، ج١٠، ص١١٨-١١٩)، وان مختلف الكتابات السياسية العربية أجمعت على أن هذا الميثاق، كان بامكانه، لو نفذ، ان يخلق ظروفًا جديدة داخل الوضع العربي من شأنها ان تؤدي إلى إيقاف حالة التدهور التي أصابت هذا الوضع بخروج مصر من ساحة الصراع في المنطقة وانتقال اسرائيل إلى مرحلة متقدمة من الهجوم.

☐ **النفط العراقي، البداية والتأميم:** كانت الدراسات وأعمال البحث والتنقيب قد أظهرت أن أغوار التربة العراقية غنية بالنفط، وعليه توقع العارفون ان العراق سيصبح واحدة من من أكبر دول المنطقة المنتجة للنفط ومن أغناها. وهذا التوقع بدأ يأخذ طريقه للتنفيذ منذ ١٩٢٥ عندما تشكل «كونسورسيوم» دولي يسيطر عليه الانكليز، وعندما بدأت في الوقت نفسه، شركة «توركيش بتروليوم» بأعمال تنقيب نشطة وحديثة. ولقد أسفرت تلك الاعمال التي أدارها الاميركي أ.و.شو، عن ظهور النفط في العراق، اعتبارًا من يوم ١٥ تشرين الاول ١٩٢٧ في آبار بابا قرقر بالقرب من مدينة كركوك.

أجرى الملك فيصل مفاوضات صعبة مع الانكليز في شأن النفط، وأصرّ على إعادة النظر في الامتيازات الممنوحة للشركة. لكن الانكليز، رفضوا وهدّدوا بعدم الموافقة على مشروع الدستور العراقي الذي كان موضوع صراع وأخذ ورد بين الملك ومعه القوى السياسية العراقية وبين الانكليز. وفي نهاية الأمر، تمّ التوقيع على اتفاقية امتيازات منحت شركة «توركيش بتروليوم» حق التنقيب واستخراج النفط في أنحاء العراق كافة باستثناء ولاية البصرة. ولقد بدأت عمليات التنقيب عمليًا في تشرين الثاني ١٩٢٥ لتستغرق سنين انتهت بدخول العراق عصر النفط الذي جعل من العراق ثاني دولة نفطية في منطقة الشرق الاوسط بعد ايران، وواحدًا من أغنى بلدان المنطقة، ولا سيما بعد عقود من السنين حين زال الحكم الملكي، واستمر النفط وكأنه في أساس أو وراء كل لعبة سياسية أو حدث كبير سواء داخل العراق أو في المنطقة، إلى ان كان يوم الاول من حزيران ١٩٧٢.

ففي ذلك اليوم أعلن العراق، وكان يحكمه أحمد حسن البكر ونائبه صدام حسين، عن تأميم «شركة النفط العراقية» التي كان الانكليز قد أسّسوها في العشرينات، أي في الزمن الذي كان فيه إنتاج النفط قد بدأ في حقول الشمال، في الموصل وكركوك. والحال ان ذلك الاعلان، الذي كان بمثابة انتصار كبير حققه حزبُ البعث العربي الاشتراكي الحاكم، كان نقطة الذروة في تحرك بترولي عراقي كان قد بدأ جنينيًا غداة انتصار ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ التي سعت للسيطرة على مقدرات العراق الاقتصادية ولا سيما في مجال الثروة النفطية. وقد تمكن عبد الكريم قاسم من ان ينتزع من شركة النفط العراقية أراض كانت تحتفظ بها من دون ان تسعى لاستخراج النفط منها. ولقد عرض قاسم استغلال تلك الاراضي على شركات أخرى، غير ان أحدًا لم يستجب لعرضه، لأن التضامن كان لا يزال قائمًا في ذلك الحين بين شركات النفط الكبرى.

وعقب هزيمة حزيران ١٩٦٧، عمدت القوات العسكرية العراقية إلى احتلال المناطق التي تقوم شركة النفط

العراقية باستغلالها فارضة حظرًا على تصدير النفط إلى أي بلد في العالم يساند اسرائيل. وفي ١٩٦٩، تمكن العراق من الحصول على زيادة في أسعار نفطه المسلّم في موانىء شرقي البحر الابيض المتوسط بعد أن أقفلت قناة السويس وبات النفط الوارد إلى اوروبا يمر عبر دورانه حول رأس الرجاء الصالح، مما أعطى للنفط العراقي قيمة كبرى.

ووصلت السياسة النفطية العراقية إلى ذروتها في قرار تأميم الشركة (الاول من حزيران ١٩٧٢) إضافة إلى الحقول التابعة لشركة نفط الموصل. وفي الوقت نفسه، أمّمت سورية أنابيب النفط التي تمر في اراضيها والتي تنقل النفط العراقي من العراق إلى سواحل البحر المتوسط. وكانت فرنسا، من دون الدول الغربية جميعًا، الوحيدة التي أيدت قرار التأميم العراقي. وذلك لأن العراق قد ضمن لها دون غيرها تزويدها بالنفط لمدة عشرة أعوام مقبلة. ومن المعروف ان شركة النفط العراقية كانت مملوكة للانكليز والاميركيين، وان فرنسا كانت على الدوام مستبعدة من أفق اللعبة النفطية في العراق. وقد رسم هذا الامتياز الممنوح لفرنسا خطوط التقارب العراقي–الفرنسي الذي بقي بعد ذلك حتى حرب الخليج الثانية (١٩٩٠–١٩٩١).

ووجدت شركة نفط العراق نفسها مرغمة على قبول الواقع الجديد مقابل تعويضات بلغت ١٥ مليار طن من النفط تسلّم في المصافي المتوسطية. وبعد ذلك بشهور، واصل العراق تحركه، فألغى كل التنازلات العراقية التي كانت ممنوحة لشركات اميركية مثل «ستاندارد أويل»، أو «نيو جرسي»، و«شل» وغيرها.

☐ **«الهاشميون عائدون!؟» (مناقشة)**: موضوع سياسي جرى تداوله على نطاق ضيق في أعقاب حرب الخليج الثانية وتداعياتها، ودار حول «وجود تيار سياسي عراقي مطالب بعودة الملكية الدستورية إلى العراق».

واللافت ان مثل هذا الطرح، المعبّر عن نوع من «انقلاب في التفكير» لدى البعض والذي ما كان لأحد ان يتصور حدوثه، كثيرًا ما ينتعش في أعقاب أزمات كبرى (حروب خارجية أو أهلية مدمّرة أو تغييرات دراماتيكية عميقة ومفاجئة في الأنظمة) تصيب الشعب وتفاجئه بأفدح الاضرار. فغالبية دول اوروبا الشرقية والبلقانية (رومانيا، بلغاريا، البانيا...) شهدت، في أعقاب انهيار المنظومة الاشتراكية الشيوعية، افكارًا وتيارات طالبت بعودة الملكية وإن كانت بقيت ضعيفة وقليلة الأثر قياسًا على تيارات واحزاب أخرى. وقد يذهب البعض، في بلدان أخرى كانت مستعمرة وعرفت احداثًا دراماتيكية شديدة الضرر في ايام استقلالها، إلى حدّ التندر على ايام الاستعمار وحكم الأجنبي. والأمثلة كثيرة وهي تكاد تطال جميع البلدان التي فتكت الحروب الأهلية بمؤسساتها الرسمية والاهلية ونالت من بناها وقيمها الاجتماعية.

في أعقاب حرب الخليج الثانية، أعادت مجموعات عراقية معارضة، كردية وعربية، «فكرة عودة الهاشميين» إلى حكم العراق إثر أحداث أو مناسبات ثلاث متصلة مباشرة بهذه الفكرة:

الاولى، عندما عقد الشريف علي مؤتمرًا صحافيًا، في لندن صيف ١٩٩٣، أعلن فيه مطالبته رسميًا بعرش العراق وادعى أن لديه أنصارًا في الداخل وأنه بصدد تشكيل حزب ملكي عراقي. «والشريف علي بن الحسين، والده الحسين بن ناصر من أشراف الأسرة الهاشمية العديدين الذين نزحوا من الحجاز بعد سقوطها بيد ابن سعود في العام ١٩٢٤، ولم يكن لهم أي دور أو قيمة سياسية في العراق أو خارجه. إلا ان ادعاءه الصلة بنسب الملك فيصل الثاني تعود فقط إلى ان والدته هي شقيقة الامير عبد الاله، خال الملك فيصل الثاني، الذي كان وصيًا على العرش بعد موت الملك غازي. وبالتالي فالشريف علي هو ابن خالة الملك. ولم يسمع أحد بالشريف علي حتى المؤتمر الصحافي المذكور» (رياض نجيب الريس، «الهاشميون قادمون والسعوديون خائفون»، «السفير»، ٤ ايلول ١٩٩٥، ص١٤).

الثانية، دعوة العاهل الهاشمي الاردني الملك حسين (ايضًا في ١٩٩٣) الناس إلى إطلاق لقب «الشريف حسين» عليه ومناداته به، تشبهًا وتيمنًا بأجداده الهاشميين أشراف مكة والحجاز حتى ١٩٢٤.

الثالثة، إثر فرار صهري الرئيس العراقي صدام حسين، إلى عمّان في ٨ آب ١٩٩٥، والتهافت الدبلوماسي والاستخباراتي الدولي (خاصة الاميركي) والعربي (خاصة السعودي)، رغم قطيعة بين البلدين امتدت إلى سنوات طويلة سابقة) على عمان لأهمية ما كان يمثله الصهران حسين كامل وصدام في داخل النظام العراقي سياسيًا وأمنيًا واستراتيجيًا، وبروز الملك حسين كأهم لاعب سياسي في المنطقة نتيجة حدث الفرار هذا، وخطابه الذي ألقاه، بعد ايام قليلة، وركّز فيه على دورالهاشميين في الحفاظ على لحمة العراق بقوله: «لقد تركنا الشعب العراقي الشقيق ان يختار طريقه ويعيش تجربته، وتمنينا أن لا ينفرط عقده الذي جمعه الهاشميون سنّة وشيعة، عربًا وأكرادًا، وكل عناصر نسيجه

الوطني»، رغم تأكيده في مطلع خطابه «بأنه لا مطمع لي» في العراق.

إلام استندت هذه المجموعات في تطارحها، أو تدارسها فكرة عودة الملكية الهاشمية إلى العراق؟

«- الزعيمان الكرديان مسعود البرزاني وجلال الطالباني يتمتعان بعلاقات ودية مع الملك حسين (...).

«- تمت مفاتحة الملك حسين بهذا الأمر مرات عدة من قبل مجموعة زعماء يمثلون بعض عشائر السنّة في العراق كلما زاروه (...).

«- تعتبر أغلبية الشيعة العراقيين من غير المرتبطين بايران، الذين يتمتعون بعلاقات طيبة مع الملك حسين بأن بينهم وبين الهاشميين قربى دينية (...) وهذا ما يعزّز البعد الشيعي العربي ويوقف التأثير الايراني. وللملك حسين علاقات متينة مع عدد من المؤسسات الشيعية، أهمها مؤسسة الامام الخوئي (في لندن وسواها). وقد أنشأ، بتمويل من هذه المؤسسات وبعد حرب الخليج الثانية مباشرة، «جامعة آل البيت» في الاردن التي يؤمها عدد كبير من الطلبة الشيعة من مختلف أنحاء العالم العربي (...).

«- توفر صيغة «دولة الاتحاد العربي» التي كانت قائمة قبل ثورة ١٩٥٨، عندما كان فيصل الثاني ملك العراق رئيسها والحسين ملك الاردن نائبه (راجع «الاتحاد العربي الهاشمي» في مطلع هذا الباب) أفضل مخرج للعراق من صراع دموي على السلطة لا بد وان يحصل بعد غياب صدّام (...) كما توفر نظامًا ملكيًا دستوريًا يضمن حكمًا ديمقراطيًا منضبطًا على نموذج الاردن وعلى غرار ما يمارسه الملك حسين في الاردن حاليًا» (عن رياض الريس، «السفير»، ٤ ايلول ١٩٩٥، ص١٤).

هل من شريفي آخر منافس للملك حسين في أفق «فكرة عودة العرش الهاشمي العراقي» الذي جاء كلامها دائمًا محبوكًا بصورة أقرب إلى رواية في الأدب السياسي منه إلى كلام في السياسي؟

رياض نجيب الريس كتب في الموضوع (المرجع المذكور أعلاه) يقول:

«لا يوجد هاشميون كثيرون يتنافسون على العرش العراقي خارج دائرة الملك حسين (ملك الاردن) شخصيًا. فلم يعد من الفرع الهاشمي العراقي أي شخص ذي قيمة أو وزن سوى الأمير رعد بن زيد، ابن الامير زيد بن الحسين، الابن الأصغر لشريف مكة الحسين بن علي، قائد الثورة العربية الكبرى، وشقيق الملك فيصل الاول، الذي كان نائبه عندما كان فيصل ملكًا على سورية، ثم اصبح سفيره في لندن عندما أصبح ملكًا على العراق. وهو الحفيد المباشر والوحيد الذي ما زال على قيد الحياة لمؤسس الأسرة الهاشمية الحالية (...) والأمير رعد يقيم في الاردن كأحد مستشاري الملك حسين منذ العام ١٩٥٨، فهو نجا من مذبحة قصر الرحاب في بغداد التي تم فيها تصفية كل الأسرة الهاشمية عند قيام الثورة لأنه كان تلميذًا في انكلترا في ذلك الزمن عندما كان والده سفيرًا في بريطانيا. وليس معروفًا عن الامير رعد ان له طموحات سياسية أو انه يتعاطى بالشأن السياسي العام مباشرة»

إلا ان الشريف علي، المطالب العلني الوحيد بالعرش الهاشمي العراقي، فيقول بصدده رياض نجيب الريس (المرجع المذكور) ان المعارضة العراقية بكل فصائلها سخرت منه في حينه (أي عندما أعلن ترشيحه في مؤتمر صحفي في لندن صيف ١٩٩٣)، و لم يعد يسمع عنه شيئًا إلى ان لجأ صهرا صدام إلى الاردن في آب ١٩٩٥، وفجأة عاد إسمه إلى الظهور في تصريحات صحافية أهمها أن «منافسه» على العرش، الملك حسين «لن يتخلى عن صدام، وهو شخص لا يثق به أحد في المنطقة»، وان «ايران واسرائيل وسورية والسعودية لن تسمح بقيام اتحاد بين العراق والاردن» (نقلاً عن جريدة الغارديان-لندن، ٢٦ آب ١٩٩٥). ويتابع الريس: «واتضح انه (الشريف علي) على خلاف عائلي قديم مع الملك حسين، وهو يقيم في لندن، متزوج من سيدة عراقية شيعية من كربلاء، غادر العراق وله من العمر سنتان إلى لبنان، وعاش فيه سنوات، حتى جاء لندن ودرس فيها الاقتصاد وعمل في أحد المصارف، وقد روجت له وكالة الأنباء الكويتية (كونا) تصريحاته مؤخرًا كجزء من حملة الكويت لتصغير دور الملك حسين في التطورات العراقية الأخيرة (المترتبة على فرار صهري الرئيس صدام حسين)، والاعلان ان ليس هناك «مطالب رسمي» بعرش العراق غيره، في حين ان بريطانيا ترعاه وتؤمن له التسهيلات، كجزء من سياسة الشعرة التي لا تقطعها مع أحد، ولتقليص نفوذ الملك حسين، ومنع احتمال قيام وحدة مستقبلاً بين الاردن والعراق».

شريفي هاشمي آخر هو الدكتور الشريف محمد بن فيصل الاول بن الحسين بن علي اعترض على اسلوب طرح فكرة عودة الملكية إلى العراق وطالب بملكية دستورية مشروطة يقررها الشعب العراقي في الداخل وليس بضغوط سياسية من الخارج، وذلك في معرض رده على ما نشرته

«الحياة» (١٥ شباط ١٩٩٣) من دراسة تطرقت إلى نشاط تيار يطلق على نفسه «العناصر الوطنية العراقية-دعاة الفكر الدستوري الملكي». ومما قاله (في «الحياة»، العدد ١٠٩٧٩، تاريخ ٤ آذار ١٩٩٣، ص١٠): «الأسرة الشريفية لأسمى وأرفع في مكانتها من أن تكون في وجهة نظر البعض مطية وخشبة خلاص كسلّم للوصول إلى تحقيق مطامع شخصية على ظهرها. فعودة الملكية إلى العراق ليست محلاً للمساومة كآخر سهم في جعبة بعض السياسيين من المعارضة لكي يجرّبوا حظهم فيه. فلم تكن لدى هؤلاء هذه التوجهات من قبل. ولكن بعد ان استنفدوا كل السبل في محاولاتهم لاسقاط نظام الحكم في العراق، وتشكيل حكومات منفى في اجتماعاتهم في دمشق وبيروت وأربيل وواشنطن، إذ كان رد الادارة الاميركية عليهم بصريح العبارة بأن السياسة الاميركية لا تؤيد قيام نظام ملكي في العراق... وتفضل الحفاظ على بقاء حزب البعث كمؤسسة حاكمة مع التوجه مستقبلاً في تغيير رأس النظام فقط...».

هذه الفكرة، فكرة إمكانية عودة العرش الهاشمي على العراق، تداولت بها، وعملت لأجلها، مجموعات صغيرة من المعارضة العراقية، وفقط، كما ظهر اعلاميًا، في مناسبات ظرفية (خاصة في ١٩٩٣ و١٩٩٥)، إذ لا تلبث ان تختفي مع ضمور المناسبة أو الحدث الذي دعا إليها. وكانت هذه المجموعات تستند في دعواها على ما اعتبرته حقيقة واقعية: أي المآل الكارثي الذي بات يعيشه العراق نتيجة حرب الخليج الثانية ونتيجة سياسات النظام الجمهوري في مختلف عهوده مع ما تكمن فيها من مخاطر الحروب الاهلية والتقسيم؛ وحقيقة تاريخية: أي ان وحدة العراق وتآلفه قد حققها الحكم الهاشمي، والهاشميون اليوم قادرون على إعادة انتاجه ديمقراطيًا ودستوريًا، وإنقاذ العراق تاليًا.

أما مجموعات المعارضة الأخرى، وهي غالبية المعارضة، فلم تحمّل الحكم الجمهوري مسؤولية المآل العراقي «الكارثي»، وحصرت هذه المسؤولية بنظام الرئيس الجمهوري الحالي صدّام حسين. وقد أوجز آراء هذه المعارضة، في مجال المقارنة بين الملكية والجمهورية، الشاعر والكاتب العراقي نبيل ياسين بقوله:

«هناك من يعتقد ان النظام الملكي في العراق كان خيمة تفيّأ ظلالها جميع العراقيين. وهو اعتقاد عاطفي ينفيه التاريخ الذي عاشه بعضنا. أما إذا قارنا تاريخ الملكية بتاريخ نظام البعث ونظام (الرئيس) صدّام فإننا لم نقبل بهذا النظام ولم يدر بخلد أحد أنه سيكون بديلاً عن الملكية العراقية وهي مقارنة غير واقعية على اية حال. وإذا كان هناك من يعتقد ان تاريخ الجمهورية العراقية هو تاريخ الانقلابات العسكرية فإن تاريخ الملكية العراقية شهد أخطر انقلابين عسكريين هما انقلاب بكر صدقي ١٩٣٦، وانقلاب العقداء الاربعة ١٩٤١، كما شهد أخطر الانتفاضات التي قوبلت بالرصاص وأسقطت القتلى والجرحى. ومن يعتقد ان الملكية العراقية شهدت استقرارًا سياسيًا فيمكن عدّ ٥٤ وزارة خلال مدة لا تتجاوز ٣٥ عامًا أي ان معدل عمر الوزارة الواحدة لم يكن يصل إلى شهر ونصف الشهر وكل ذلك بسبب سياسة حفنة معينة من المحيطين الذين كانوا يتناوبون الوزارة والرئاسة فإذا لم يكن أحدهم رئيس وزراء فهو وزير في حكومة. وخلال هذه الفترة وحدها كان البرلمان يُعيّن ويُحلّ في بضعة ايام طبقًا لرغبة رئيس الوزراء الجديد أو طبقًا لرغبة خصومه إذا ارادوا حجب الثقة عنه، وهذه حقيقة يجب الاعتراف بها مهما كان مؤيدو الملكية العراقية يملكون من حماس وحنين لها. فضلاً عن ذلك كله، كان شعور الأسرة (الهاشمية) في العراق شعورًا محبطًا بأنهم غرباء عن البلاد. وإذا كان هذا الشعور قد دفع الملك فيصل الاول للتريث والهدوء فإنه كان ملازمًا للوصي عبد الاله الذي كان يردّد دون انقطاع إثر كل أزمة سياسية أو انتفاضة أو تحرك عسكري: «ماذا يريدون منا. إذا لم يقبلوا بنا، فإننا سنخرج ونعود إلى ارضنا»، وهو شعور جعل من الملكية ظاهرة فصل بين العراقيين وبينها. وهذه العقد قادتها إلى الريبة بالشعب والحذر منه والاعتماد كلية على البريطانيين لاستمرار الحكم حتى بعد ان «استقل» العراق رسميًا وأصبح عضوًا في عصبة الامم المتحدة وفي الامم المتحدة. ومهما يكن من الأمر إن إثارة موضوع عودة الملكية في العراق إنما يقصد به، إلى جانب مقاصد أخرى، عرقلة جهود العراقيين بإقامة نظام ديمقراطي تعددي وتمزيق الوحدة الوطنية وإلهاء المعارضة بقضايا ثانوية وجعلها تدور في حلقة مفرغة» («الحياة»، العدد ١٠٩٧٩، تاريخ ٤ آذار ١٩٩٣، ص١٠).

الجدير ذكره أخيرًا ان موضوع عودة الملكية إلى العراق تلاشى كل حديث عنه في وسائل الاعلام منذ اوائل ١٩٩٦ حين بدأ يتصاعد حديث تماسك نظام الحكم العراقي وتضعضع صفوف المعارضة.

مدن ومعالم

تمهيد

١-علم الآثار (الأركيولوجيا): ليس أصوب من اختيار هذا الباب (مدن ومعالم)، الذي اعتدنا على أن نذكر فيه أهم آثار الدول والبلدان، وفي هذه المادة بالذات (العراق) لقول كلمة في أهمية علم الآثار (الأركيولوجيا).

كما ليس أصوب، هذا الهدف، من اللجوء إلى علماء الآثار، وخاصة لأبرزهم، في آثار العراق، صموئيل كريمر مؤلف كتاب «من ألواح سومر» (ترجمة طه باقر، مراجعة وتقديم الدكتور أحمد فخري، مكتبة المثنى ببغداد ومؤسسة الخانجي بالقاهرة، بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر). يقول مترجم الكتاب وكاتب مقدمته، طه باقر الذي كان تلميذاً لكريمر، في تعريف علم الآثار (ص٦-٧):

«إن ما يُدعى «علم الآثار» (الأركيولوجيا) إنما هو فرع حديث الولادة من فروع العلوم والمعارف الحديثة، إذ لا يكاد عمره يتجاوز مائة عام (والكتاب بنسخته الانكليزية صدر في ١٩٥٦). ولكن في وسعنا ان نؤكد القول إن هذا العلم، على الرغم من حداثته، قد حقق أروع اكتشافات في تاريخ تطور الانسان منذ أن وجد على هذه الارض، فقد كشف لنا عن تلك المراحل الصعبة التي اجتازها للانتقال من عهود الهمجية والفطرة، تلك العهود التي شغلت الجزء الأعظم من حياته إلى ان دخل في تلك التجربة المثيرة في حياته بإنشائه الحضارة والمدنية. والمجمع عليه بين الباحثين العلماء ان ذلك قد تمّ في ربوع الشرق الادنى، يوم ظهرت فيه أولى الحضارات البشرية في وادي الرافدين وفي وادي النيل، وأقيمت أسس الحضارة والعمران (...) ويصح القول إن علم الآثار بكشفه عن مراحل التطور البشري قد أحدث انقلاباً مدهشاً في المعرفة الانسانية وفتح في تأريخ التقدم البشري آفاقاً واسعة بعيدة في اتجاه الانسان ونظرته إلى الحياة بوجه عام، وإلى التاريخ وفلسفة التاريخ بوجه خاص. ولعل ألمع جانب من هذه الكشوف الحديثة ان «معاول» المنقبين قد استطاعت ان تستظهر من الركام وأنقاض التراب حياة عدد كبير من الحضارات والأمم والشعوب الغابرة لم يكن العالم ليعرف عنها شيئاً حتى بمجرد أسماء البعض منها. بيد أننا الآن نعرف تاريخها السياسي والحضاري-علومها وفنونها وآدابها والادوار التي مثلتها في مسرح التأريخ البشري. وتلك لعمري مادة تاريخية غزيرة مكّنت الباحثين في العمران وعلماء الاجتماع المحدثين من درس النواميس الخاصة بنشوء الحضارات ونموها وركودها وانحلالها وزوالها، بحيث قارب فلاسفة التأريخ ان يصلوا إلى نتائج خطيرة في حل اللغز الذي ينطوي عليه هذا العالم الأصغر الذي نسميه الانسان. وعلى ضوء هذه المقاصد الجليلة والغايات الخطيرة أدركت المؤسسات العلمية في الغرب أهمية التحري عن آثار البلاد العربية والكشف عنها فجنت من تحرياتها ثمرات بالغة الأهمية في الكشف عن أصول الحضارات البشرية المستمدة من تراث حضارات الشرق الادنى. وإذا كان الأمر كذلك بالنسبة إلى أمم الغرب ومؤسساته العلمية، فما أحرانا، نحن الذين لا نزال نعيش في تراث تلك الحضارات، ان تكون الحوافز الدافعة لنا أضعافاً مضاعفة على التحري عن ذلك التراث».

٢- ما يريده الغرب من هذه التسميات: «بلاد ما بين النهرين» و«الشرق الاوسط» و«الشرق الأدنى»: من مقال كتبته زينب بحراني، استاذة الفن القديم والآثار في جامعة ولاية نيويورك، ولها مؤلفات منشورة بالانكليزية عن آثار العراق («الحياة»، العدد ١٢٩٤٥، تاريخ ١٣ آب ١٩٩٨، ص١٧):

ماضي ما بين النهرين بحسب التاريخ المتعارف هو المكان الذي اتخذت فيه الحضارة العالمية خطواتها الطفولية الأولى: اللغة المكتوبة، القوانين، العمارة، وكل تلك الانجازات «الأولى» التي تحفل بها الكتب المتداولة عن ما بين النهرين (...) وحتى في ثلاثينات القرن الماضي، قبل بداية التنقيبات العلمية في الشرق الأدنى، كانت فلسفة هيغل للتاريخ حددت هذه المنطقة بأنها المكان الذي شهدت فيه الانسانية طفولتها. وقدمت الكتابة التاريخية الاوروبية إطاراً تفسيرياً يشبه تطور التاريخ بنمو الانسان، ويحدد الشرق مهداً لذلك الانسان. وعندما اكتشفت آثار ما بين النهرين فعلاً بعد ذلك بسنين، كان هذا المنظور راسخاً تماماً وتم تفسير هذه المكتشفات على أساسه (...).

تزامنت أولى تنقيبات البعثات في منتصف القرن التاسع عشر مع استخدام عدد من التسميات لهذه المنطقة: بلاد ما بين النهرين، والشرق الأدنى، والشرق الأوسط. وفي الوقت الذي كان فيه الاسمان الأخيران قابلين للتبادل أصلاً، ويشملان منطقة جغرافية أكبر، فإن تسمية بلاد ما بين النهرين أصبحت تطلق على حضارة ما قبل الاسلام في المنطقة التي كانت تعرف في عهد الحكم العثماني بالعراق.
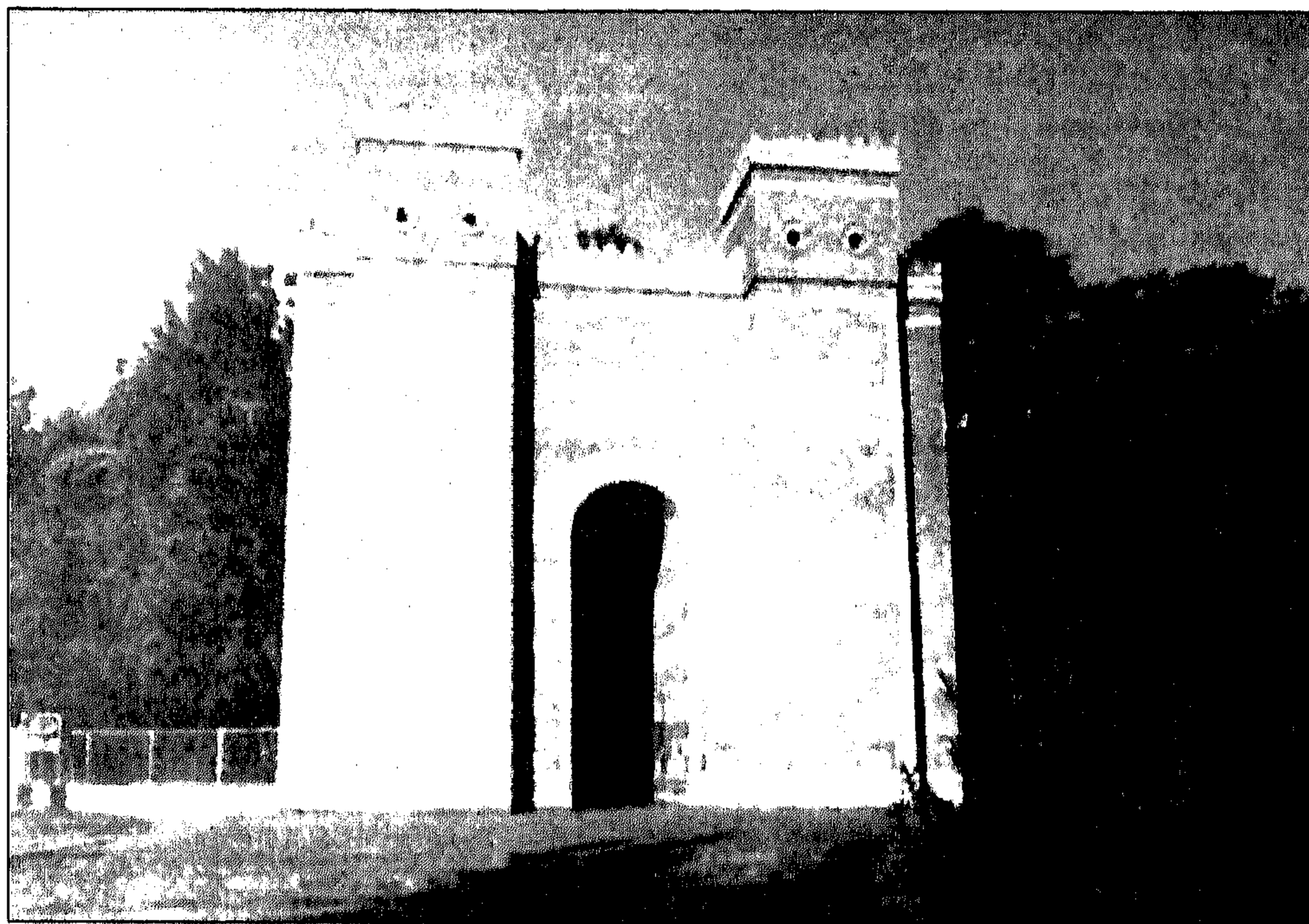
باب عشتار.

ملك يهودي يقدم الطاعة ساجداً للملك الآشوري شلمناصر الثالث (٨٥٩-٨٢٤ ق.م.)

وكان هذا الإسم، العراق، أصبح شائع الاستعمال بالفعل من قبل السكان المحليين في زمن كتابات الجغرافي ياقوت الرومي في القرن الثاني عشر وأوصاف ابن حوقل عن المنطقة في مطلع القرن العاشر.

بدأ استخدام مصطلحي الشرق الأوسط والشرق الأدنى بهدف إعطاء تحديد أكثر وضوحًا للمنطقة الجغرافية الشاسعة التي كان يجري الاكتفاء بتعريفها بـ«الشرق»، وكانت تشمل كل آسيا وشمال افريقيا. ولتمييز ما كان أقرب إلى اوروبا، في وقت اشتد فيه الاهتمام بهذه المنطقة، أصبح تطوير تعريف أكثر دقة ضروريًا. وسرعان ما خرج عن نطاق التداول العام مصطلح الشرق الأدنى الذي استخدم للمرة الأولى في نهاية القرن التاسع عشر (...).

ابتكر إسم الشرق الاوسط في ١٩٠٢ من قبل مؤرخ البحرية الاميركي ألفرد تاير ماهان الذي اعتبر، لغايات استراتيجية عسكرية، ان مركز هذه المنطقة هو الخليج. وبهذه الطريقة جرى التمييز بين المنطقة قبل ظهور الاسلام وبعده بما يعني ضمنًا موت حضارة واستبدالها واستئصالها من قبل حضارة أخرى. وفي إطار هذا النظام الصارم أصبح الإسم المقبول للعراق في فترة ما قبل الاسلام هو بلاد ما بين النهرين. وأكد هذا الانبعاث لاسم استخدم للمنطقة في التراث الكلاسيكي مكانة حضارة آشور-بابل ضمن سرد الحضارات باعتبارها الجذور المشوهة الابعاد للثقافة الغربية. هكذا، يشير مصطلح بلاد ما بين النهرين إلى وجود زماني أكثر منه جغرافي، وهو حسب تعبير ليو أوبنهاين «حضارة ميتة». لم تكن بعثات التنقيب الأولى عن الآثار تعاني إذن أي غموض في ما يتعلق بأهدافها. فبما أن الحضارة الانسانية ابتدأت أصلاً بحسب ما كان يعتقد في بلاد ما بين النهرين، كان المبرران اللذان يقدمان مرارًا لإيفاد بعثات التنقيب هما البحث عن «جذور» الحضارة والعثور على الأماكن التي وردت في التوراة.

هذه الرغبة في فصل ماضي المنطقة عن حاضرها، وتقديمه بدلاً من ذلك كمرحلة بدائية في تطور البشرية، مهّد لمفهوم بلاد ما بين النهرين كمنطقة تابعة بشكل شرعي للغرب، بمعنى تاريخي وجيوسياسي على السواء. وعبر إطلاق التسميات أنجز بنجاح فصل هذه الحضارات القديمة وتجزئتها وعزل التاريخ اللاحق للمنطقة.

هكذا، لم ينظر إلى عمليات الاستحواذ على الآثار والاعمال الفنية التي شُحنت إلى اوروبا باعتبارها تمثل فقط، أو حتى قبل كل شيء، الاستيلاء على الآثار الفنية التاريخية للعراق. بل إنها تمثل بقايا ماضٍ خيالي لمرحلة ما قبل اوروبا. ساهمت الآثار الثقافية لبلاد ما بين النهرين، إذن، في إظهار كيف تطور الغرب الحديث من تلك المرحلة في التطور، وإن روايات الكتاب المقدس كانت صحيحة مع ذلك. لم تكن هذه بالتأكيد الدوافع الوحيدة لمساعي التنقيب عن الآثار في بلاد ما بين النهرين. والأكثر أهمية أن المفاهيم التي شكلت بلاد ما بين النهرين ليست مقصورة على الفترة الأولى من أعمال التنقيب في المنطقة. ويفوق ذلك أهمية أن ندرك أن إنشاء بلاد ما بين نهرين ضمن خطاب القرن التاسع عشر ليس شيئًا من الماضي. فهذه البنى تستمر إلى الوقت الحاضر، ولا تزال باقية من دون تفنيد تقريبًا.

*** آثار العراق: مآل كارثي يستدعي ورشة عالمية علمية وحضارية للإنقاذ:** مواضيع الساعة، أكانت حارّة أم باردة، لا بدّ لكل كتابةٍ بشأنها أن تستند إلى وسائل الاعلام اليومية. والحقيقة ان «الحياة» برزت في طليعة الصحف العربية والعالمية التي أولت إهتمامًا حادًا بما ينزل بآثار العراق، أرض أم الحضارات البشرية، من كوارث بعدة وجوه: السرقة والتهريب، القصف والتدمير، خاصة جرّاء حرب الولايات المتحدة وحلفائها ضد العراق (١٩٩١) وسنوات حصارهم الذي لا يزال مضروبًا على هذه الدولة حتى الآن (صيف ١٩٩٨). ومن هذه الصحيفة، بأعدادها: ١١٦٩٠، تاريخ ٢١ شباط ١٩٩٥، ص١٢، و١٢٣٩٧، تاريخ ٥ شباط ١٩٩٧، ص١٦، و١٢٤٠٥، تاريخ ١٤ شباط ١٩٩٧، ص٢١:

بداية وقوف الغربيين على آثار العراق:

كان دارسو التاريخ القديم للعراق لا يجدون أمامهم سوى ما جاء ذكره عن هذه البلاد في الكتب التوراتية وفي ما كتبه الرحالة القدامى من أمثال هيرودوتس وديودوروس الصقلي واسترابو وبليني الأكبر. إلا ان الوضع تغير بعد ذلك تمامًا عندما بدأت محاولة ترجمة النصوص الآشورية في العام ١٨٠٢ على يد جورج فريدريك غروتفند في جامعة غوتنغن الالمانية، ولم يتم حل رموز هذه اللغة إلا بعد ذلك بنصف قرن. وعندما تمكن اللغويون من ترجمة كتابات الألواح الآشورية القديمة ازداد اهتمام الباحثين الغربيين في التعرف على أسرار تاريخ أرض الرافدين القديم، وبدأت أعمال الكشف الأثري. وكان أول الأثريين الذين عملوا في العراق بول إميل بوتا الذي شغل منصب قنصل فرنسا في الموصل بالشمال، وهو الذي عثر على بقايا مدينة نينوى القديمة، عاصمة الآشوريين،

بالقرب من الموصل، وفيها قصر الملك سنحاريب. ومنذ منتصف القرن الماضي وحتى نشوب حرب الخليج في ١٩٩٠ انتشرت بعثات الحفر الأثري في كل جزء من أرض العراق، تعمل في حوالي ٥٠٠ موقع للكشف على أسرار حضارة بلاد الرافدين منذ آلاف السنين. فجاءت البعثات من فرنسا وانكلترا والمانيا والولايات المتحدة وايطاليا، كما بدأ العراقيون أنفسهم في العمل. وتمّ العثور على نحو نصف مليون قطعة أثرية توزعت على متاحف بغداد ولندن وبرلين وباريس واسطنبول ولينتغراد وفيلادلفيا وييل، إلى جانب مئات الآلاف من القطع التي ظلت في مواقعها الاصلية.

السرقة والنهب قبل ١٩٩٠:

متحف «متروبوليتان» في نيويورك الذي يضم نصبًا وجدرانًا بكاملها منتزعة من مواقع آشور وبابل ونينوى ونمرود، هذا المتحف أصدر دليلاً تذكر مقدمته أن «جدران المتاحف في بلدان عدة في العالم تشهد على نجاح هنري لايارد في إزالة المنحوتات الجدارية ونقلها إلى الهند أولاً ثم اوروبا». وهنري لايارد هذا هو مغامر انكليزي قام في منتصف القرن التاسع عشر بالتنقيب عن الآثار في نينوى حيث أطلال نمرود، واشتهر، بعد قيامه بأكبر عمليات نقل وبيع كنوز التراث القديم المنتزعة بالجملة من العراق إلى بريطانيا وأصبح من نجوم المجتمع الانكليزي وعين دبلوماسيًا واختير عضوًا في البرلمان البريطاني. شخصية هنري لايارد هذا، المغامر أو «شذاذ الآفاق» كما يقال بالعربية، والأضرار التي سببها لأقدم تراث حضاري في التاريخ قد تكون هي التي دفعت معاصرًا له لأن يقول: «إذا كنت أغتفر لهنري عثوره على نينوى فلن أغتفر لنينوى عثورها على هنري». ومما يرويه دليل متحف متروبوليتان ان لايارد كان يستخدم أحيانًا المتفجرات اقتصادًا في الوقت، وانه كان ينقل الجداريات على ظهور الثيران إلى ضفاف نهر دجلة حيث تنقل على جلود حيوانات منفوخة طافية فوق الماء إلى الخليج، ومن هناك تحملها السفن إلى الهند، وبعض الجداريات غرق أثناء نقلها.

ويخصص دليل متروبوليتان صفحات لمشاركة مبشرين أميركيين في انتزاع ونقل المنحوتات الجدارية الأشورية، ولمراسلات المبشرين التي تكشف عن المنافسة الضارية بين المنقبين الانكليز والفرنسيين في نزع تماثيل الثيران المجنحة الأشورية ونقلها إلى متحف اللوفر الفرنسي والمتحف البريطاني. ويروي مبشر أميركي فرحه الطاغي عندما سمح له الانكليز أن يختار ما يريد من المنحوتات الجدارية في قصر نمرود، وكيف كان يقطّع الجداريات، وكيف أفلح في نقل نحو ١٠٠ تمثال.

استمرت عمليات نهب الآثار العراقية. ولم توقفها ولادة دولة العراق الحديث ولا حتى الاستقلال. ففي عددها الصادر في ١٩٩٥ والمخصص لموضوع سرقة الآثار العراقية ورد في نشرة «أكد» AKKAD العراقية عن قيام برنار غريتنر، السفير الفرنسي السابق في بغداد ما بين ١٩٦٩ و١٩٧٤، بتهريب الآثار داخل الحقائب الدبلوماسية الكبيرة، وان هذه الآثار سرقت من موقع جمدة نصر في أور ويعود تاريخها إلى ما قبل ٥ آلاف سنة، وعرضت المسروقات للبيع علنًا في غاليري «رويال أثينا» في لندن ونيويورك. وكان مهربون فرنسيون حاولوا، في الثلاثينات، تهريب قطع مهمة من موقع خورسباد قرب الموصل. ولا يزال مصير القطع التي غرقت في شط العرب مجهولاً، ولم تنفع محاولات اليابانيين لاستخراجها في الستينات. ويذكر ان الدبلوماسيين الاجانب المعتمدين في بغداد كانوا، حتى سنوات قريبة، يعتبرون التنقيب عن الآثار وتهريبها نوعًا من رياضة أو هواية يطلقون عليها مصطلح «تيلينغ» Teling، من «تل» بالعربية، في إشارة إلى ان معظم الآثار العراقية موجود في باطن التلال التي قد تضم مستوطنات وقرى تعود إلى التاريخ القديم.

وقد يفسر تاريخ سرقة عشرات الآلاف من كنوز التراث الحضاري في العراق لماذا لم تنضم، إلى الآن، الولايات المتحدة وبريطانيا إلى «الاتفاقية الدولية الخاصة بتحريم استيراد ونقل وملكية الممتلكات الثقافية» التي أقرتها منظمة الأمم المتحدة للثقافة والتربية والعلوم (الأونيسكو) في العام ١٩٧٠.

في الحرب ١٩٩٠-١٩٩١ وبعدها:

في شباط ١٩٩٥، وعلى رغم الحصار الدولي المطبق على العراق، غامر علماء آثار معروفون في العالم (من اليابان وبريطانيا والولايات المتحدة واسبانيا وروسيا والنمسا والمانيا...) و٢٠ استاذًا أكاديميًا من جامعات ومتاحف عالمية وقصدوا بغداد للاجتماع والتداول في سبل إنقاذ الآثار العراقية من التخريب والنهب. فدعوا إلى إنهاء الحظر الاقتصادي والثقافي الذي يحرم المؤسسات العراقية المختصة من وسائل صيانة الآثار، ووجهوا رسائل إلى المدير العام لمنظمة الأمم المتحدة للثقافة والعلوم (الأونيسكو) ومدير البوليس الدولي (انتربول) وحكومات البلدان العربية والاسلامية المجاورة للعراق تطالب بالمساعدة على وقف عملية نهب الآثار. وذكروا ان فقدان سيطرة الحكومة المركزية على بعض مناطق شمالي العراق وجنوبيه والحظر

رئيس مؤسسة الآثار العراقية مؤيد سعيد يعرض حقيبة ديبلوماسية هرّب بها موظفو الامم المتحدة آثاراً عراقية (شباط ١٩٩٧).

الاقتصادي والثقافي بحرمان البلد من وسائل حماية وصيانة آثاره الثمينة. وقالت عالمة اميركية طلبت عدم الكشف عن اسمها ان جهل كثير من السياسيين بالتاريخ العالمي يحول دون إدراكهم حجم الكارثة الحضارية التي تترتب على تدمير الآثار العراقية وسرقتها. وأوضحت العالمة ان هذا الجهل ظهر في دهشة الرئيس الاميركي بيل كلينتون خلال زيارة القاعات العراقية في متحف اللوفر في باريس واعترافه بأنه لم يكن يتصور حجم الآثار الموجودة في العراق.

وعُرضت، إبان مؤتمر بغداد هذا لعلماء الآثار العالميين، أفلام فيديو كشفت عن حجم الدمار الذي أوقعته الاضطرابات الداخلية في أعقاب حرب الخليج (١٩٩٠-١٩٩١). وبدت آثار الحرب واضحة في متاحف المحافظات والمدن العراقية التي كانت قد نقلت إليها مقتنيات مهمة من المتحف المركزي في بغداد خشية تعرضها للقصف الجوي. وأكثر المتاحف تعرضًا للتخريب هو متحف كركوك شمالي العراق، ويبلغ عدد القطع التي فُقدت أو أُتلفت ٧٤٨ قطعة، إضافة إلى ٤٨٤ مخطوطة إسلامية، وفقدت في متحف دهوك ٢٤٠ قطعة، والسليمانية ٢٢، وآشور ٣٠، وسنجار ٤، والكوفة ١٩٨، والقادسية ٩٤، وميسان ٧٢٣، والبصرة ٩٤٧، وواسط ٧٤. ووقعت هجمات مسلحة على مواقع أثرية مهمة، منها تل جوهر غربي مدينة شطرة. وذكر العلماء في المؤتمر أن عمليات السرقة والنهب والتخريب لا تزال مستمرة. كما كشفت الوثائق المقدمة إلى المؤتمر عن تعرض منطقة أور نفسها إلى انتهاكات، وهي تعد من أهم المناطق الأثرية العالمية التي شهدت ميلاد الكتابة ونشوء المدن، وإليها يُنسب ابراهيم الخليل. وظهرت آثار القصف الجوي الذي أحدث ٤٠٠ ثقب ظاهر في زقورة أورنمو المشهورة التي بنيت عام ٢٠٥٠ق.م. ولكن أفدح الأضرار وقع عند الإنزال الاميركي في منطقة أور التي تقع قرب مدينة الناصرية جنوبي العراق، إذ استخدمت الوحدات الاميركية الجرارات في إزالة جزء كبير من تل اللحم في أور لاقامة مرائب للشاحنات العسكرية. وذكر مسؤولو الآثار ان الموقع غير مدروس سابقًا ولا يُعرف نوع القطع الأثرية التي استخرجها منه الاميركيون ويُجهل مصيرها. وقالوا إنهم لم يعثروا في الموقع إلا على نفايات وعلب وطلقات فارغة. ونُقل عن السكان المحليين الذين لم يغادروا المنطقة خلال العمليات الحربية ان القوات الاميركية كانت تنظم جولات لمجموعات من الجنود الاميركيين يبلغ عدد أفرادها بين ٥٠٠ و٧٠٠ فرد يوميًا، ويرافقهم خلال الجولات دليل آثاري أميركي برتبة ضابط. ورجح

المسؤولون ان عمليات التنقيب الواضحة في منطقة أور قد تكون مصدر الآثار التي ذكرت الصحافة الاميركية ان الجنود العائدين من الخليج عرضوها للبيع على المتاحف في الولايات المتحدة. وذكر ان الاحتجاجات الرسمية العراقية إلى الأمم المتحدة لم تثمر إلا عن إعادة ١٩ قطعة فقط من بين مئات يقدر وجودها في أيدي أفراد القوات الاميركية.

* أربيل: مدينة عراقية. أهم مدن كردستان العراق، وقد أصبحت مؤخرًا عاصمة هذه المنطقة (كردستان العراق). تقع في سهل أربيل المتموج شمالي الجمهورية العراقية وتحاذيها الجبال من الجهتين الشمالية والشرقية ويبلغ معدل ارتفاعها عن مستوى سطح البحر ٤١٤م، وتبعد حوالي ٨٧كلم إلى الشرق من مدينة الموصل مركز محافظة نينوى، وحوالي ٩٦كلم شمالي مدينة كركوك، وحوالي ٣٤٦كلم شمالي العاصمة بغداد. تعد نحو ٣٧٥ ألف نسمة، وهي من أقدم المراكز الحضارية الحية، أي التي ما زالت قائمة ومأهولة بالسكان، ولم تنقطع منهم منذ نحو ٤ آلاف سنة.

إن إسم أربيل قديم قدم المدينة. وقد ورد بكثرة في الكتابات التاريخية في مختلف العهود. ولعل أربيل المدينة الآشورية الوحيدة التي ظلت مستوطنة بهذه الكثافة السكانية ومحتفظة باسمها القديم إلى يومنا هذا. والمرجح ان أقدم ذكر لها كان في كتابات الملك السومري شولكي نحو ٢٠٠٠ق.م. باسم «أوربيلم». ووردت ايضًا باسم أربيلا حيث كانت ضمن امبراطورية أور الثالثة. وجاء ذكرها ايضًا في الكتابات البابلية والآشورية باسم أربا-إيلو التي تعني «الآلهة الاربعة». واشتهرت بكونها من مراكز عبادة الالهة عشتار فعرفت باسم «عشتار أربلا». وتلفظ باللغة الكردية، حاليًا، بـ«هولير».

حظيت أربيل باهتمام خاص من معظم الملوك الآشوريين، وكانت من أبرز مراكزهم. أنشأ فيها سنحاريب (٧٠٥-٦٨١ق.م.) مشروع ري خاصًا، ووُجد بعض الاثار التي تعود لآشور بانيبال وآشور دان الثالث.

تعاقب على أربيل الكثير من الدول والحكومات التي مرت على العراق، واتخذت من المدينة مركزًا رئيسيًا للسيطرة على شمال العراق والانطلاق منها إلى دول أخرى خصوصًا في العصور القديمة في ظل الكوتيين والميتانيين والأخمينيين والفرثيين والرومان والساسانيين. وكانت المدينة مركز صراع ومعارك بين دول عدة، ومن أشهرها المعركة

جانب من قلعة أربيل كما تُشاهد من قلب المدينة.

التي دارت بين آخر الملوك الأخمينيين دارا الثالث وبين الاسكندر المقدوني (٣٣١ق.م.) وسميت معركة أربيلا.

وورد ذكر أربيل في الكثير من المصادر والمراجع التاريخية وكتب المستشرقين والرحالة المسلمين وغيرهم. ووصفها ياقوت الحموي في «معجم البلدان» قائلاً «أربيل قلعة حصينة ومدينة كبيرة في فضاء من الارض وبقلعتها خندق عميق وفي هذه القلعة أسواق ومنازل للرعية وجامع للصلاة».

وزار الرحالة الالماني كارستن نيبور مدينة أربيل في ١٧٦٦، وقال في وصفها: «وصلنا أربيل وهذه المدينة هي أربيلا دون شك والتي اشتهرت في المعركة التاريخية الحاسمة بين الاسكندر ودارا. وقد كانت إمارة اسلامية عاشت سنوات كثيرة، وكان امراؤها الذين حكموا بالوراثة يتصفون ببأس شديد، فوسّعوا رقعة إمارتهم وجعلوها تشمل مناطق واسعة امتدت إلى داخل بلاد فارس حتى مدينة تبريز. وكانت المدينة آنذاك كبيرة جدًا ولها قلعة مشيدة على تل مرتفع. أما اليوم فلم يبق منها شيء ما عدا القلعة، ولكن حتى هذه ليست مسورة وإنما أقيمت عليها البيوت ولا سيما حول حافة التل بصورة متماسكة فلا يستطيع أحد أن ينفذ خلالها داخل المدينة إلا من باب المدينة الحالي».

وكانت أربيل خلال الحكم العثماني للعراق تُحكم مباشرة من والي بغداد الذي يعيّن لها حاكمًا.

أما أبرز معالم أربيل التاريخية فهي القلعة والمئذنة المظفرية. ولا تزال القلعة تحتفظ بشكلها القديم، ويعتقد بأنها شُيّدت من قبل أسرى الحروب الآشورية مع الأمم الأخرى، وذلك لأغراض دفاعية. وأما المئذنة فتعود إلى المسجد الذي يدعى جامع المظفرية نسبة إلى حاكم أربيل الأتابكي مظفر الدين كوكبري (١١٨٥-١٢٣٣) الذي أمر ببنائه. ولكن الجامع تهدم وظلت المئذنة قائمة في مكانها على رغم سقوط قسمها العلوي.

في القلعة ثلاثة أحياء سكنية. وقد شيدت البيوت الحالية في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين فوق أنقاض بيوت سابقة. وكانت هذه الأحياء داخل القلعة تستوعب بين ٥-٦ آلاف شخص في ١٨٤٧ وإن عدد سكانها بلغ نحو ٤٥٠٠ شخص في ١٩١٦، بينما كان عدد سكان المدينة (أي مدينة أربيل خارج القلعة) في العام نفسه عشرة آلاف شخص.

توسعت المدينة وتطورت بشكل كبير في المساحة والسكان مع بقاء التوسع بشكل دائري مركزه القلعة خلال العقدين الأخيرين، وازدادت الدوائر الحكومية، وازداد النزوح إليها من الريف والتوسع الصناعي الحكومي والأهلي، وافتتحت فيها «جامعة صلاح الدين»، وأنشئت المعاهد والمستشفيات (عن سامي شورش-كاتب كردي عراقي-ورؤوف محمد علي الانصاري، «الحياة»، ١٥ كانون الثاني ١٩٩٤، و٢٨ ايلول ١٩٩٧؛ ود.فاضل حسن أحمد، «المدينة العربية»، مجلة متخصصة تصدرها منظمة المدن العربية، العدد ٣٤، تشرين الثاني ١٩٨٨، ص٦٠-٦٥).

* إريدو (أبو شرين): مدينة قديمة في منطقة بلاد الرافدين الواطئة (جنوبي العراق)، قرب أور. أظهرت التنقيبات التي جرت فيها بين ١٩٤٦ و١٩٤٩ أن المدينة كانت مزدهرة في عصور ما قبل التاريخ (يقال لهذه العصور في العراق مرحلة «تل العبيد»، راجع هذا الباب). من مكتشفاتها ١٨ مزارًا متطابقة تعود إلى بداية الألف الرابع ق.م. هُجرت إريدو منذ اوائل الألف الثاني ق.م.

* آشور: تعتبر قلعة شرقاط الواقعة على الضفة الغربية لنهر دجلة وإلى الجنوب من مدينة الموصل (على مسافة ١١٠ كلم منها) هي موقع مدينة آشور القديمة، عاصمة الآشوريين الاولى. يبدأ تاريخها منذ استيطان الانسان الاول قبل نحو ١٠ آلاف سنة وحتى اوائل القرون الميلادية، وتعد من أهم المراكز الحضرية في شمال العراق. وقد ظلت آشور عاصمة الأشوريين حتى قيام الملك آشور ناصر بال الثاني (٨٨٣-٨٥٩ق.م.) باتخاذ مدينة نمرود (كالح) عاصمة جديدة له، الواقعة على الضفة اليسرى لنهر دجلة قرب التقاء الزاب الاعلى بنهر دجلة.

أبرز معالم آشور التاريخية: سوران، خارجي وداخلي؛ و١٣ بوابة؛ والزقورة التي كانت مخصصة لعبادة الإله آشور، ومعروفة باسم زقورة الإله «بيل»؛ و٣٥ معبدًا، أشهرها معبد آشور، ومعبد عشتار ومعبد نبو ومعبد مردوخ؛ وقصور كثيرة أشهرها القصر الملكي، أو قصر سنحاريب.

* أكد (والأكديون): مدينة قديمة في وسط العراق كانت عاصمة الامبراطورية الأكدية التي أسسها سرجون الاول نحو ٢٤٠٠ ق.م. وموقعها في منطقة تل الدير حاليًا. والأكديون شعب سامي استوطن أواسط بلاد الرافدين (٢٤٠٠-٢٢٠٠ق.م.)، كانت لهم حضارة

الملاك المجنح، حكيم آشور وطبيبها. الالوان لا تزال عاصية على الزمن ومثار دهشة العلماء.

أثر أكدي.

مزدهرة ولغة حلّت محل اللغة السومرية، وأصبحت لغة دول الشرق الرسمية، وعنها تفرعت البابلية والآشورية. وسرجون هذا يعتبر مؤسس أول وأقدم امبراطورية عرفها التاريخ. ومن أبرز وأثمن الكتابات الأكدية الأدبية المتأخرة قصيدة سومرية في أصلها كتبها شاعر (لا يعرف إسمه) عاش بعد سقوط الامبراطورية الأكدية، نالت شهرة في العهد البابلي، ووجدت نسخة منها في مكتبة الملك الآشوري أشور بانيبال، ووجدت نسخ منها ايضًا باللغة الحثية. وقد أطلق الأثريون عليها تسمية «لعنة أكد» لتناولها إرتقاء الإمبراطورية الأكدية وسقوطها، وتقع القصيدة في ٢٨١ بيتًا («المنجد»، دار المشرق، بيروت، ١٩٨٦، ط١٣، قسم الاعلام، ص٥٨؛ وغانم وحيدة، باحث عراقي، «الحياة»، ٢٩ نيسان ١٩٩٧).

* **الأهوار**: (هي غير الأهواز، مدينة في جنوب غربي ايران، عاصمة اقليم خوزستان الايراني والذي يقول له العرب «عربستان»، وقد جاء عن ذلك في مادة «ايران»، ج٤، خاصة في موضوع «خزعل خان» في باب «زعماء ورجال دولة»، ص٢١٧-٢١٨).

«الأهوار» جمع «هور». والأهوار منتشرة جنوبي العراق، وأكبرها مساحة الهور الذي يقع ضمن المنطقة المحصورة بين محافظات البصرة والناصرية والعمارة، وأوسعها هور الحمار وهور الحويزة وهور السعدية. وهناك بعض الاهوار الاخرى قرب مدن الديوانية والكوت والحلة.

والاهوار العراقية هي منخفضات مائية تغمر جزءًا من الحدود الدولية بين العراق وايران إلى الشمال من شط العرب (أي في المنطقة المعروفة تاريخيًا باسم سومر). ولقد عرف العرب في القديم هذه المنطقة باسم «البطائح»، لأن المياه تبطحت بها، أي سالت واتسعت في الارض. وهي تكونت نتيجة الفياضانات التي شهدتها المنطقة منذ ما قبل التاريخ وامتدت إلى وقتنا الحاضر، وهي ترتبط ارتباطًا مباشرًا بدجلة والفرات، وتتغذى منهما سنويًا في مواسم الفيضان الناتجة عن ذوبان الثلوج في المرتفعات التركية عن طريق شبكة معقدة من الفروع والقنوات. لذلك، فإن مساحة الأهوار تتغير سنويًا-بين نحو ١٧-٢٠ ألف كلم م.- تبعًا لحجم الفيضان. وهذا تشكيل هيدروليجي وإيكولوجي فريد في نوعه في العالم عمومًا وفي الشرق الاوسط خصوصًا، ويعتبره الدارسون أكبر نظام إيكولوجي في الشرق الاوسط ويرتبط مباشرة بنهري دجلة والفرات،ويشكل بيئيًا ملجأ لآلاف الانواع من الحيوانات والطيور والاسماك والنباتات، فضلاً عن انها مأوى لنحو مليون إنسان ايضًا لا يمكنهم التنقل، احيانًا، ولو لأمتار قليلة، من دون استعمال الزوارق، ويسكنون في جزر طافية، ويعيشون في إطار الاكتفاء الذاتي بما يتم إنتاجه محليًا في ذلك المحيط الذي شكل الانسان فيه جزءًا مكملاً للمحيط البيئي السائد، ما جعله يبقى لأكثر من ٥ آلاف سنة من دون تغيير ملموس في طبيعة الحياة.

والبيئة السكنية في أهوار العراق، أو الحي السكني والبيت الذي يسكن فيه الأهواري، هي «أراض تتشكل في مناطق يابسة مرتفعة تصل مساحة الواحدة منها إلى ٣ آلاف متر فقط وتسمى باللهجة المحلية «الدبن» ومفردها الدبون، وهي جزر صغيرة طافية على الماء بمقدار البيت مصنوعة من القصب والبردي المربوط باحكام وهي تشبه الكلك والفرق بينهما ان الدبون مصنوع من القصب بينما الكلك من الجذوع أو قطع الخشب. وهذه الدبون متناثرة في الأهوار ويستخدمها الاهالي لسكنهم وإيواء مواشيهم. وهناك مساحات يابسة عائمة فوق الماء تتسع لاقامة دبن واحد فوقها، وهي تتكون من تشابك الجذور وتراكم الغرين بعد ان ينبت فوقها القصب والنعناع والاعشاب الزاهية، وهي تدور مع المياه ببطء، وتسمى التهلة وتستخدم للسكن ايضًا» («الوسط»، العدد ١٠٠، تاريخ ٢٧ كانون الاول ١٩٩٣، ص١٥).

دلت التنقيبات الأثرية في منطقة الأهوار على أن أول من سكن مدينة «الوركاء» الأثرية الاهوارية هم سكان بيوت القصب. وتعتبر الوركاء الواقعة إلى الشرق من مدينة السماوة بحوالي ٣٠كلم إحدى أشهر المدن السومرية القديمة، وهي أطلال المدينة التاريخية أوروك التي ذكرتها التوراة (أرك). وسكن المنطقة، إلى السومريين، البابليون والكيثيون وشيدوا المعابد والقصور، ثم حكمها الأشوريون فالكلدانيون والفرس الأخمينيون.

من أبرز الدارسين لمنطقة الأهوار العراقية البريطانيان: الكاتب والرحالة الشهير كيفن يونغ الذي عاش في الأهوار لمدة تزيد عن أربع سنوات، والباحثة المستشرقة ليدي درور (توفيت في شباط ١٩٧٢)، وهي زوجة السير أدوين درور الذي عمل مستشارًا في وزارة العدل العراقية بين ١٩٢٢ و١٩٤٦، ورافقته زوجته هناك، فتعرفت على العراق وشعبه، ودرست الاقليات الدينية، وحاضرت عن الأهوار لدى عودتها إلى وطنها في ١٢ حزيران ١٩٤٦. وترجم ثائر صالح هذه المحاضرة ونشرتها «الحياة» على حلقتين متواليتين وهي كناية عن مشاهدات ميدانية (تاريخ ٣١ ايار وأول حزيران ١٩٩٧).

أما أول اهتمام صحافي عراقي في الأهوار فكان ذلك الذي قامت به جريدة «الاهالي» لصاحبها السياسي كامل الجادرجي وذلك عندما نشرت سلسلة مقالات بعنوان «خمسة عشر يومًا بين المعدان» في ١٩٣٣، وأول دراسة أكاديمية حول هذه المنطقة كانت بعنوان «سكان الأهوار-الجبايش» لمصطفى سليم في جامعة بغداد. أما على مستوى الصحافة العربية فكان أول استطلاع ميداني لأهوار الجبايش والصحين قامت به مجلة «العربي» في ١٩٦٦. وفرضت قضية الأهوار نفسها على الصحافة العالمية منذ احداث انتفاضة آذار ١٩٩١.

منذ أن تولى الرئيس العراقي الحالي، صدام حسين، مهام نائب الرئيس، قبل ان يصبح رئيسًا للجمهورية في ١٩٧٩، أولى مسائل التاريخ والحضارة، ودراستهما، أهمية بالغة. فخصصت موازنات ضخمة، وحصلت الأهوار على نصيب وافر منها. وكانت البعثة العلمية التي نظمها الرحالة النروجي الشهير هايردل، في ١٩٧٧، واحدة من أروع وأهم ما تمّ إنجازه لصالح توثيق تاريخ المنطقة. ويذكر ان تلك البعثة العلمية أبحرت في سفينة تاريخية مصنوعة من قصب أهوار العراق بدءًا من نهر دجلة عبر الخليج والبحر العربي ثم إلى خليج عدن لتتبع طرق الملاحة والتجارة في العصر السومري، في محاولة البحث عن مصدر واحد للحضارة البشرية. وكتب هذا العالم الكبير بأن وزارة الاعلام العراقية «سمحت له بقطع القصب من الاهوار،

واجهة مضيف في الاهوار.

قرية أهوارية قبل التجفيف.

واستيراد كل ما يحتاجه من دون ضريبة، وتجميع أعضاء طاقمه مهما كانت جنسياتهم، والبقاء ضيوفًا على وزارة الاعلام حتى الابحار». وعن عرب الأهوار كتب هايردل: «عشت مع ما يُسمى اناس بدائيين في بولونيزيا واميركا وافريقيا، لكن عرب الأهوار هؤلاء، وبأي صورة من الصور، ليسوا بدائيين، إنهم متحضرون لكن بطريقة تختلف عنا. ليس لديهم خدمات الازرار لكنهم اختاروا أقصر الطرق للغذاء والمتعة ومن المصدر مباشرة. وأثبتت حضارتهم بأنها قابلة للحياة والاستمرار، فيما انهارت الحضارات الآشورية واليونانية والفارسية بعد ان وصلت قمة إزدهارها» (عن حسن الجنابي، كاتب عراقي مختص بالبيئة يقيم ويعمل في أوستراليا، «الحياة»، العدد ١٢٥٣٦، تاريخ ٢٦ حزيران ١٩٩٧، ص١٨).

لكن حرب الخليج، الاولى والثانية، حملت نتائج مأسوية ومدمرة للأهوار، بيئة وسكانًا، فقررت السلطات ردم وتجفيف المنطقة وترحيل سكانها إلى مناطق عراقية أخرى. وبدأ العمل في أواخر سنوات حرب الخليج الاولى (١٩٨٨)، واستؤنف بعد الحرب الثانية (١٩٩١)، خاصة بعد استكمال السدود التركية على نهر الفرات وتقليل مناسيبه. فدعي مشروع التجفيف «مشروع النهر الثالث». وصاحبت أعمال المشروع ضجة عالمية وعربية معارضة للمشروع ومبرزة «أهدافًا طائفية ولضرب كل إمكانية معارضة ومقاومة» للنظام الحاكم؛ في حين ان هذا الأخير كان يركز على اهدافه التنموية من وراء هذا المشروع الكبير. وفي ايلول ١٩٩٥، تناقلت وسائل الاعلام العالمية صورًا بالاقمار الاصطناعية، وتعليقات، وأنباء، تظهر ان السلطات العراقية نجحت في تجفيف معظم المسطحات المائية المهمة في الأهوار. وبينت الصور المقارنة للأهوار «كما كانت في اوائل السبعينات عندما كان الرئيس صدام حسين لا يزال يشق طريقه نحو قمة السلطة، والوضع الذي آلت إليه هذه المنطقة بعد المشاريع الهندسية العسكرية التي أمر صدام نفسه بتنفيذها من أجل إحكام قبضته الامنية على المنطقة التي لجأت إليها المعارضة». وقدّرت مختلف المصادر الغربية ان عدد سكان الأهوار تراجع من ٧٥٠ ألف نسمة إلى ما يقل عن ٥٠ ألفًا، وان السكان انتقلوا إلى العيش في أحزمة الفقر المحيطة بمدينتي البصرة وبغداد بعدما جفت مصادر عيشهم ونفقت مواشيهم.

* **أور (تل المقيّر):** مدينة سومرية. التنقيبات التي أجراها وولي Woolley (السير ليونارد وولي، عالم آثار بريطاني ١٨٨٠-١٩٦٠) في تل المقيّر القائم على أنقاض أور، واستمر فيها بين ١٩٢٢ و١٩٣٤، كشفت عن وجود معابد وقصور وزقورة ومقابر ملكية، وأتاحت في المجال لإعادة كتابة تاريخ المدينة الأثرية ومنطقتها. ومما كشفته أن المكان كان مأهولاً منذ ما قبل التاريخ، وأن ثمة طوفانًا تطابق إلى حد كبير مع ما أتت على ذكره الروايات البابلية والتوراتية. كانت سيطرة الأسرة الأولى من أور على سومر في حوالي ٢٧٠٠-٢٥٠٠ق.م. ثم عادت السيطرة للأسرة الثالثة (٢١٠٠-٢٠٠٠ق.م.) التي أسسها أور نامو. بدأت أور في التراجع عندما سقطت في أيدي الاموريين، وتقهقرت في العهد الأخميني. الرواية الدينية الغالبة أن من أور نزح ابراهيم الخليل (راجع «آثار العراق»، و«سومر» في هذا الباب).

* **أوروك (وركة):** موقع في المنطقة الجنوبية من العراق، على الضفة اليسرى من الفرات. كان مدينة سومرية، بدأ التنقيب فيه منذ ١٩٢٨، وكشف عن حضارة تعود إلى ٣٣٠٠-٣١٠٠ق.م. شهدت ولادة الكتابة وتحول قرى ما قبل التاريخ إلى مدن زراعية يتوسطها المعبد (راجع «سومر» في هذا الباب). وإلى أوروك ينتمي البطل الأسطوري جلجامش.

* **بابل (وشريعة حمورابي):** من أبرز وأشهر مدن العراق التاريخية. تقع على بعد ٩٠كلم من بغداد لجهة الجنوب. إسمها السومري «كادنكورا». أما «باب إيلو» أو «باب إيلي» ومعناه باب الاله أو باب الآلهة، فهو إسمها البابلي. يرجع أول وجود استيطاني فيها إلى نحو ٤ آلاف سنة ق.م. وذكرت في أخبار سلالة أور الثالثة، واصبحت ذات مكانة تاريخية مع ملكها السادس حمورابي، ومركزًا لوادي الرافدين ما يقرب من ١٥ قرنًا، وعاصمة لعشر سلالات حاكمة. ومن أشهر ملوكها، بعد حمورابي، نبوخذ نصر الذي ينسب إليه معظم الأبنية الباقية حتى الوقت الحاضر. وقد اختارها الاسكندر المقدوني عاصمة لملكه.

عانت المدينة من غزوات العيلاميين من الشرق الذين نهبوا كنوزها، من بينها مسلة الملك الأكدي نرام سن ومسلّة حمورابي ووجد المنقبون الفرنسيون هذه الكنوز في مدينة سوسة عاصمة عيلام.

وبابل مدينة واسعة جدًا (مساحتها ٤١كلم م.)، تضم الكثير من المعابد والقصور والشوارع والبوابات

جانب من سور بابل بعد ترميمه.

وسلسلة من المصاطب التي بناها نبوخذ نصر. ويحيط بالمدينة سوران، خارجي وداخلي، وبوابة عشتار هي البوابة الفخمة الرئيسية في السور الداخلي للمدينة. ولبابل شوارع فخمة مستقيمة، وأشهرها الشارع المسمّى بشارع الموكب، وهو شارع مهيب بابراجه وجدرانه المزينة، كانت تمر فيه تماثيل الآلهة من معبد مردوخ في عيد رأس السنة البابلية (بين آذار ونيسان).

أما برج بابل فيقع ضمن حارة ضخمة، قاعدته مربعة، طول ضلعها ٩١،٥٥م. ويرجع بناؤه إلى اواخر الألف الثاني ق.م. وأعاد بناؤه بنو بلاصر، وأكمل بناءه ابنه نبوخذنصر (راجع «الزقورات» في هذا الباب). وفي بابل معابد كثيرة، ويعد معبد إيساكلا الرئيسي فيها وهو مخصص لعبادة مردوخ كبير الآلهة البابلية، وبعده معبد عشتار. ومن أهم قصورها، القصر الشمالي حيث يربض في ساحته أهم أثر في بابل ورمز عظمتها ويتمثل في أسد منحوت من البازلت الأسود (طوله ٢،٥م).

بدءًا من ١٩٧٠ أخذت الحكومة العراقية تولي اهتمامًا بالغًا بمدينة بابل التاريخية، وبدأت مشروعًا شاملاً وضخمًا لإحيائها، وعقدت أول ندوة وطنية لهذا الغرض حضرها عدد من الاختصاصيين العراقيين والعرب والعالميين. وفي ١٩٧٤، تم تخصيص مبلغ ١٢ مليون دينار للمشروع الذي اعتبر أضخم المشاريع الأثرية في العالم، والذي هدف إلى إنقاذ المدينة من تأثير العوامل الطبيعية والمياه الجوفية وأملاح الارض، فضلاً عن ان التنقيبات الأجنبية مطلع هذا القرن لم تكن شاملة، ولم تعتمد الأساليب العلمية الصحيحة، إذ لم يكن يهمها سوى نقل اللقى الأثرية إلى المتاحف الأجنبية. وبدأت الدراسات وأعدت الخطط حتى كان يوم ١٤ شباط ١٩٧٨ الذي بوشر فيه التنفيذ. وشمل العمل، في ١٩٧٩، نقاطًا كثيرة جدًا في بابل، وتم الكشف عن عدد كبير من المرافق السكنية والمدافن وغيرها. وتواصل العمل في ١٩٨٠ و١٩٨١، وكان غنيًا باللقى الأثرية، ومن أنفسها كنز بابل الذهبي الكبير الذي يعود إلى ايام نبوخذنصر. وفي ١٩٨٢-١٩٨٣، كان عدد الورش العاملة في المشروع قد وصل إلى ١٦ ورشة تنقيب وصيانة، وتجاوز الـ٢٠ ورشة في ١٩٨٤.

لكن حربي الخليج المتعاقبتين أوقفتا العمل بالمشروع، ولم يُستأنف إلا في ١٩٩٤. وفي أواسط كانون الاول من هذه السنة عقد في بغداد مؤتمر دولي حضره علماء آثار من اليابان والولايات المتحدة ودول اوروبية، وأصدر بيانًا دعا فيه علماء الآثار في العالم إلى التزام حماية التراث الانساني والامتناع عن المساهمة في عمليات تهريب الآثار وسرقتها. وكان علماء اميركيون وبريطانيون ذكروا ان آلاف القطع الأثرية سرقت من العراق خلال الاضطرابات التي أعقبت الحرب. وأثناء المؤتمر ذكرت عالمة الآثار النمساوية هيلغا تريتكوالدر ان آخر ابراج بابل في العراق يغوص تحت الارض بمعدل ٥ أقدام سنويًا. وقالت إن الفريق النمساوي الذي عمل في المواقع الأثرية في العراق

منذ ١٩٨٠، وجد، عندما استأنف اعماله اخيرًا (أي في ١٩٩٤)، الآثار في وضع محزن جدًا، إذ تعرضت للسرقة والإهمال.

لا تُذكر بابل إلا ويُذكر معها الملك حمورابي وقوانينه أو شريعته، أو «الشريعة البابلية» الشهيرة.

ملَكَ حمورابي بابل بين ١٧٩٢ و١٧٥٠ق.م. شن، في بداية حكمه حربًا على بلاد سومر الجنوبية، فضمها إلى مملكته، وأخضع دويلات ما بين النهرين، وافتتح المدن القريبة من بلاد الشام، وأسس الامبراطورية البابلية القديمة. ورغم أهمية أعماله الحربية إلا أن إصلاحاته هي التي طغت على كل ذكر له ولبابل في التاريخ البشري والحضاري عامة.

فقد نشر حمورابي الحضارة البابلية وثقافتها في البلاد التي فتحها. وعني عناية شديدة بادارة المملكة، وقام بمشاريع عديدة وخاصة مشاريع الري، فنشر الرخاء في البلاد، كما عُني بالشؤون الدينية والعدل. وأصبحت بابل في عهده من أغنى المدن والعواصم التي عرفها تاريخ العالم القديم، وكان حمورابي عادلاً حكيمًا.

تعتبر شريعة حمورابي أول شريعة حاولت تحديد المسؤولية الجنائية، وتميزت بالتكامل الحقوقي قياسًا إلى القوانين الثلاثة التي سبقتها، وهي قوانين أورنامو وأشنونا ولبت عشتار. لذلك يعتبرها الباحثون أول قانون جنائي في تاريخ الانسانية. وقد حمل حمورابي الناس كافة على اتباعها والعمل بموجب موادها. وبلغ عدد هذه المواد ٢٨٢ مادة حفرت باللغة الأكدية، وأهم ما جاءت به تقسيم المجتمع إلى ثلاث طبقات (الاحرار، التابعون والعبيد)، وتضمنت انظمة صارمة في ما يتعلق بشؤون الري والزراعة. فحتمت، على سبيل المثال، على كل مزارع كبيرًا كان أم صغيرًا ان يظهر الترعة المارة في أرضه ويحافظ على سدوده. أما المواد التي نصت على الاحوال الشخصية، أو العائلية، فقد بينت حقوق المرأة في الطلاق (وفي الإرث)، ايام لم يكن للمرأة حق في ذلك، وإنما كان من حق الرجل وحده، وألزمت الزوج عند الطلاق بأداء نفقتها لتعول اطفالها، كما أصبح باستطاعة المرأة ممارسة التجارة. أما القانون التجاري، في شريعة حمورابي، فقد شجع على ممارسة التبادل التجاري وقوّى من نفوذ التجار.

هذه الشريعة منقوشة على مسلة كبيرة مكوّنة من ثلاثة أحجار من نوع الديوريت الأسود تنتصب بشكل مخروطي بارتفاع ٢،٥٥م ومعروضة اليوم في متحف اللوفر في باريس. ولها نسخة من حجر الجبس معروضة في القاعة الخامسة في المتحف العراقي في بغداد. وفي المتحف البريطاني في لندن توجد ٥٥ رسالة أملاها حمورابي بنفسه وأنفذها إلى حكام الولايات في الامبراطورية البابلية. وكانت تخص شؤون التقويم ومعاقبة المقصرين والكسالى ومراقبة واردات المعابر والاوامر العسكرية وشؤون الزراعة والري وغير ذلك.

تعتبر شريعة حمورابي أحد أهم المصادر الرفيعة للقانون والادارة على مر العصور. وقد اقتبست منها الاقوام القديمة الكثير من الاحكام واعتمدتها في تشريعاتها الوضعية.

ولاكتشاف المسلّة التي تحمل شريعة حمورابي قصة تعود بدايتها إلى العام ١١٦٣ق.م. ففي هذا العام احتل شوتروك ناهونتي، ملك عيلام، مدينة بابل وحمل معه إلى عاصمته سوسة كثيرًا من الكنوز البابلية، بما فيها المسلّة المذكورة (سوسة Suse الحالية أنقاض مدينة تاريخية في خوزستان ايران قرب تستر، وكانت عاصمة العيلاميين ثم الأخمينيين. وهناك مدينة ومرفأ سوسة على المتوسط في تونس، وتعد حاليًا أكثر من ١٢٥ ألف نسمة).

وفي العقد الأخير من القرن التاسع عشر، وأثناء إجراء البحوث على الألواح الطينية التي تحفل بها مكتبة نينوى التي أسسها الملك الفنان آشور بانيبال وتضم آلاف المدونات في شتى المجالات إبان وصول الامبراطورية الآشورية إلى أوج عظمتها، وفي غمرة البحث في هذه الآثار التي تعود إلى نحو ألف سنة بعد حمورابي، تم العثور بين الرُقم الطينية على ألواح كثيرة منها ما كتب عليها مباشرة ومنها ما استنسخ عنها، وظهر ان بعضها يعود إلى تشريعات من عصر حمورابي. وبعد ذلك بفترة وجيزة، وبسببه ربما، تمكنت البعثة الفرنسية الأثرية العاملة في سوسة بإدارة مورغان (١٩٠١-١٩٠٢) من العثور على أحجار المسلّة الثلاثة ونقلتها إلى متحف اللوفر في باريس.

* **البصرة**: مدينة ومرفأ في العراق على شط العرب، قاعدة محافظة ومركز قضاء البصرة. تبعد عن بغداد ٥٤٠كلم جنوبًا، وإلى الشمال منها، في مدينة القرنة يلتقي نهرا دجلة والفرات مكوّنين شط العرب الذي يمر في مدينة البصرة. تأسست في عهد عمر بن الخطاب ٦٣٨. فأصبحت إحدى أهم المدن في العراق. عندها جرت معركة الجمل ٦٥٦. ازدهرت على عهد العباسيين وأضحت مع الكوفة مهدًا للدروس اللغوية. أحرقها الزنج ٨٧١. ثم القرامطة ٩٢٣. بدأت بالانحطاط بعد ١٢٥٨. احتلها

الاتراك ١٦٦٨ ثم الانكليز ١٩١٤. حقول نفط. والبصرة محافظة في جنوبي العراق لها ٦ أقضية: البصرة، القرنة، شط العرب، الزبير، أبو الخصيب، الفاو.

ان الاسم، «البصرة»، يطلق على أرض فيها الحصى والحجارة الرخوة وفيها بياض وسواد. وأنها شيدت بالقرب من قرية «البصيرة» التي تعود إلى العصور القديمة في التاريخ. وأن البصرة من أقدم المدن الاسلامية، اختطها عتبة بن غزوان ٦٣٦ وبناها أبو موسى الأشعري، وشيّدت أول الأمر من خصائص القصب، وجُعل لكل قبيلة حي خاص بها سُمّي باسمها. في العهد الأموي بدأت بالاتساع، وفي العهد العباسي شهدت ازدهارًا كبيرًا. تأتي أهميتها ايضًا من موقعها المطل على الخليج، فهي بهذا الموقع منفذ العراق الوحيد للاتصال بالعالم الخارجي بحرًا عن طريق ميناءي أم قصر والفاو.

مرت المدينة بالكثير من الحروب والاضطرابات والخراب. فبعد بنائها بخصائص القصب تعرضت للاحتراق وأعيد بناؤها من اللبن ثم من الطابوق (الآجر) والجص. وفي ٨٦٩ احترقت على اثر الاحداث التي جرت فيها في زمن الخليفة العباسي المهتدي والتي عرفت بـ«ثورة الزنج»، ثم ثورة القرامطة ٩٢٣. وبدأ الانحطاط يشملها منذ ١٢٥٩، ثم احتلها الاتراك ١٦٦٨، فالانكليز ١٩١٤. وفي السنوات الأخيرة تعرضت كذلك لأعمال تدمير كبرى خلال حرب الخليج الاولى والثانية.

أبرز معالم البصرة التاريخية: مساجدها وسوق المربد والشناشيل. والشناشيل هي الشرفات الخشبية المزخرفة تمتاز بها المدينة وتعتمد على إبراز واجهة الطابق الثاني بأكمله أو غرفة من غرفه بشكل ناتىء إلى الامام، يكون هذا البروز بالخشب عادة وبزخارف هندسية. ومن البصرة انتقل هذا الطراز إلى مدن عراقية أخرى خاصة بغداد. والشناشيل كلمة فارسية مركبة من «شاه نشين» بمعنى محل جلوس الشاه (د.مصطفى جواد، مجلة سومر، المجلد ٢٤، ص٢٤٤). وتعتبر الشناشيل من الظواهر الرئيسية والمألوفة في البيوت البصرية والتي تدل على الثراء.

وأبرز مشاهد البصرة القديمة اليوم بقايا من مسجد الامام علي، واطلال مسجدها الجامع ودار إمارتها وقصور الخاصة ودور العامة. وهذه كلها تقع في الجهة الجنوبية الغربية من البصرة الحديثة التي تتصل بمدينة الزبير على بعد نحو ٣٥كلم. أما أبرز المعالم العمرانية في البصرة والتي ما زالت شاخصة إلى اليوم: جامع الكواز، وجامع ومرقد الزبير بن العوام ومرقد الحسن البصري.

احدى شناشيل البصرة التي أعيد ترميمها.

في ٢٦ تشرين الثاني ١٩٩٤، نشرت جريدة «الجمهورية» العراقية ان مفتشي الآثار عثروا على مجموعة مهمة من الأواني والفخار تعود إلى القرنين الثاني والثالث للهجرة في محافظة البصرة، وان هذه المجموعة ضمت جرارًا فخارية مطعمة ومزخرفة،، ومسكوكات نحاسية ضربت في

مدينة البصرة عام ١٣٦هـ (القرن الثامن للميلاد) في عهد الخليفة ابو العباس السفاح، ومسكوكات أخرى ضربت في مدينة السلام (بغداد) في عهد الخليفة ابو جعفر المنصور، ومسكوكات في عهد الخليفة هارون الرشيد.

* **بعقوبا (بعقوبة):** مدينة عراقية. تقع شمال شرقي بغداد بمسافة لا تزيد عن ٦٣كلم. أسسها الآراميون في القرن التاسع ق.م. وإسمها الآرامي يعني «بيت الحارس».

تطل بعقوبا على ضفتي نهر ديالي الذي تتفرع منه عدة جداول. وفيها ايضًا النهر العظيم ونهر كنكير. تشتهر بخصوبة تربتهـا، وتشكل البساتين أكثر من نصف مساحتها، وتعتبر من أهم المدن المنتجة للبرتقال في العراق. وشهدت السنوات الأخيرة نهضة صناعية في بعقوبا، وكذلك تعليمية وصحية ورياضية. وفيها مركز للرعاية العلمية يقوم بتنظيم دورات علمية لأبناء المدينة في مجالات الالكترونيات والفلك والفيزياء والكمبيوتر وغيرها.

* **بغداد:** عاصمة العراق. تقع على الضفة اليسرى من نهر دجلة الذي طالما حال فيضانه دون توسع المدينة حتى كانت سنة ١٩٥٦ عندما بدأ تنفيذ خزّان سامراء ومصرف الوادي اللذين تحكّما بفيضان النهر وأراحا بغداد من خطره. وبغداد عاصمة ثقافية قبل أي أمر آخر (مدرسة المستنصرية منذ ايام العباسيين، ومتحف مهم للغاية أصيب بأضرار فادحة إبان قصف الولايات المتحدة وحلفائها بغداد في ١٩٩١)، إذ إن الصناعة فيها حديثة. عدد سكانها نحو ٤،٢٥ ملايين نسمة.

نمت، في بغداد، وازدهرت مستوطنات بشرية عديدة قبل العهد الاسلامي بأمد بعيد. ويعود تاريخ أقدمها إلى النصف الثاني من الألف الثالث ق.م. وأصبحت هذه المستوطنات مدنًا عامرة في مطلع القرن الثاني ق.م.، منها مدينة شادوبم Shadopum التي تعرف أطلالها اليوم باسم «تل حرمل» القائم في بغداد الجديدة. وقد قدمت شادوبم نموذجًا متقدمًا لفن تخطيط المدن ولنضوج علمي، إذ استظهرت التنقيبات، والدراسات عليها، عن وجود أكاديمية جامعة في هذه المدينة التاريخية كانت منهلاً للعلوم التطبيقية وضروب الثقافة، إضافة إلى وثائق ادارية وتجارية ومعاجم لغوية وجغرافية وبقايا تشريع قانوني مكمل لشريعة أشنونا التي سبقت شريعة حمورابي بنحو قرنين من الزمن، إلى جانب اكتشاف وثائق علمية تضمنت جداول رياضية وقضايا هندسية وجبرية ابرزها نظرية هندسية حلت وفق مبدأ تطابق المثلثات القائمة الزاوية، وهي النظرية المنسوبة اليوم إلى إقليدس.

بالقرب من شادوبم كان هناك مركز حضري آخر يعرف باسم زارلو Zarlu، ومن أبرز مكتشفاته العلمية لوح رياضي يعود إلى الألف الثاني ق.م. يتضمن نظرية هندسية جبرية ذات مجهولين a deux inconnus تحل على غرار نظرية فيثاغورس.

وفي الجانب الغربي من دجلة، كان العديد من المراكز الحضرية الرئيسية، منها مدينة دوركوريكالزو Durkurigolzu في منطقة عقرقوف التي كانت عاصمة العراق لمدة تقرب من أربعة قرون من العصر الكاشي (١٥٩٥-١١٧١ق.م.) والتي زخرت أبنيتها بقصور مزينة وبرج مدرّج (زقورة) ومعابد ودور سكن وشوارع. والمنقبون في التل، منذ منتصف القرن التاسع عشر، تأكدوا بأنه زقورة المدينة الكاشية المعروفة بهذا الاسم، «دوركوريكالزو»، وقد أيدت تنقيبات مديرية الآثار العراقية منذ النصف الاول من هذا القرن (العشرون) هذا القول، وتوصلت إلى ان زمن تأسيس المدينة يعود إلى عهد الملك كوريكالزو الاول الذي حكم في بداية القرن الخامس عشر ق.م.، وان المدينة ظلت مأهولة إلى العصور المتأخرة من العهد البابلي الحديث (١١٠٠-٥٣٨ق.م.). كما اكتشف في بغداد عدد من الآثار تمثل بقايا مراكز حضرية من العصرين الآشوري والبابلي.

«هي (بغداد) من تأسيس المنصور، ٧٥٤-٧٧٥، الذي اسّس أولاً مدينة المستديرة وكانت خالية من كل منشآت الترفيه. ثم التفّت حولها الاحياء والأسواق والمنازه، وغصّت بالناس حتى انه كان يقدر عدد سكانها في اواخر القرن الرابع بمليون ونصف، وكان فيها ١٥٠٠ حمّام، ومساجدها عشرات الآلاف، و٨٦٠ طبيبًا يحملون رخصة تمنح حق ممارسة المهنة، وزوارقها بلغت ٣٠ ألفًا» (عن كتاب صدر عن الأونيسكو لمجموعة من مؤرخين وكتاب عرب وأجانب: Les Différents Aspects de la Civilisation Islamique، صدر مترجمًا إلى العربية، في بيروت ١٩٩٨، والمؤلف أحد الذين راجعوا وصححوا الترجمة).

عندما قرّر الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور تنفيذ رغبته في بناء عاصمته الجديدة ارتأى ان تكون قريبة من أنصاره، حصينة في طبيعتها وفي تخطيطها... وبعد ان استقر رأيه على الموقع الصالح (بغداد) أمر بتخطيطها على الارض بمادة قابلة للاشتعال، فأشعل فيها النار ليلاً فظهر له شكل

من أهم معالم بغداد المعاصرة: الجزء الاوسط من نصب الحرية الشهير للفنان جواد سليم (أعلى)، ونصب الشهيد (وسط)، ونصب الجندي المجهول.

مدينته. وبعدها اختار المهندسين، منهم الحجاج بن أرطأة وعبد الله بن محرز وشهاب بن كثير وأبو حنيفة النعمان بن ثابت الذين اشرفوا على بنائها.

وشيدت المدينة، التي دعاها المنصور «دار السلام»، على شكل دائري وفي حلقات متوالية تتوسع كلما ابتعدت عن المركز الذي تمّ فيه تشييد المسجد الجامع وقصر الخليفة وحولهما الدواوين والمرافق الحكومية الأخرى. وأحاط المنصور مدينته بخندق وأسوار تحميها من الاخطار.

شهدت بغداد، خلال سنوات قليلة، تطورًا حضريًا واسعًا، مما حدا بالمنصور، في ٧٦٨، إلى تأسيس مدينة في الجانب الشرقي من نهر دجلة سماها الرصافة بعد ان عسكر فيها ولي عهده الخليفة المهدي. ومنذ ذلك التاريخ، وعلى امتداد نحو خمسة قرون، حفلت بغداد بالتطور والازدهار في مختلف المجالات الاقتصادية والاجتماعية والعلمية والثقافية. وقد بلغت في ذلك حدًّا من الرقي فاقت فيه حواضر الدنيا كلها، وخاصة في عهد الرشيد الذي بلغ فيها العمران ذروته خاصة في الجانب الشرقي. وقد تسابق الخلفاء والميسورون في إقامة المباني الفخمة فارتفعت على أرضها المساجد والجوامع ودور العلماء، وشيدت فيها أعظم المستشفيات والصيدليات والمراصد الفلكية والقصور والدور الشاهقة، وشقت الشوارع المنسقة والقنوات والبرك والمناطق الخضراء وأقيمت الحدائق. وكذلك انتشرت الأسواق التجارية والمرافق المدنية والعسكرية. وعرفت بغداد فترة انحطاط بعد ان نقل المعتصم العاصمة إلى سامراء في ٨٣٦، لكنها عادت لتكون العاصمة من جديد في ٨٩٢.

وفي عهد الخليفة المعتمد تركز التوسع الحضري في الجانب الشرقي، أي في الرصافة التي أحاطها الخليفة المستظهر (١٠٩٥) بسور ضخم محصّن بخندق عميق. وتمّ ربط دفتي دجلة بثلاثة جسور رئيسية إضافة إلى عدد من الجسور الأخرى، واستعملت الزوارق والقوارب في دجلة كوسائط للتنقل بين الرصافة والكرخ. فجاءت بغداد متوافقة في منشآتها ومرافقها مع دورها كعاصمة للعالم الاسلامي وأكبر تجمع سكاني فيه.

لكن كل هذا النهوض الحضاري المتميز (الطابع المعماري الغالب هو الطابع العربي الاسلامي المتأثر بالطابع الرافدي القديم والمتوارث عن العمارة السومرية والبابلية والآشورية؛ ومدرسة المستنصرية أكثر الشواهد الآثارية على هذا التمازج)، الذي استمر نحو خمسة قرون، أخذ يتآكل بعد استحواذ جماعات غير عربية على السلطة. فتحولت دولة العرب إلى دويلات تنازع الدولة سلطانها ممهدة بذلك للغزو المغولي لبغداد (١٢٥٨). ومنذ هذا التاريخ أخذ بريق بغداد يخبو لما مرّت به من شدائد ومحن قلما تعرضت لها مدينة أخرى في الدنيا حتى باتت بعد ذلك حاضرة ريفية لا يتعدى دورها مركزًا لولاية في اطراف الدولة العثمانية بعد ان كانت عاصمة العالم. وقد ظلت محصورة داخل أسوارها القديمة طيلة عدة قرون من القهر والاستعباد الأجنبي ولم يتجاوز عدد سكانها ٨٠-١٠٠ ألف نسمة في القرن الماضي كما تشير إلى ذلك كتابات الرحالة الأجانب. من ابرز هؤلاء على الاطلاق جون آشر، عضو الجمعية الجغرافية الملكية في لندن، الذي بدأ في ١٨٦٤ رحلة شملت سواحل البحر الأسود والأناضول وارمينيا وديار بكر والموصل فبغداد. وعندما وصل آشر بغداد «كانت أول عمارة لفتت نظره وحاشيته في الجانب الشرقي هي بناية كبيرة كئيبة يبدو فيها الإهمال والخراب. وكانت البناية قصر الباشا (...) وحوله عدد كبير من المتسكعين والخيالة غير النظاميين،... واستقبله الباشا في غرفة كبيرة عارية الجدران، خالية من الأثاث».

مع ذلك، فقد شهد القرن التاسع عشر بوادر نهوض لبغداد، سببه السياسي تصارع بين احزاب الامبراطورية العثمانية الذي أدّى إلى استحداث بعض الاصلاح في بغداد (الأمر نفسه تقريبًا بالنسبة إلى معظم حواضر ومدن البلدان العربية في الامبراطورية العثمانية خلال القرن التاسع عشر). كذلك فإن فتح قناة السويس قد أدّى إلى تفكك اقتصاد المقايضة في العراق وربطه بالاقتصاد العالمي. وبعد هزيمة العثمانيين في الحرب العالمية الاولى وسقوط العراق تحت النفوذ البريطاني عادت بغداد لتصبح عاصمة لدولة العراق الحديث.

إن أول تطوير عمراني خارج المدينة القديمة (في الربع الاول من القرن العشرين) كان استيطان القوات البريطانية المحتلة في منطقتي الهنيدي والوشاش، ثم أعقبه التوسع العمراني في منطقة حزام دجلة شمالي المدينة القديمة وجنوبيها. وقد كان صدور نظام الطرق والأبنية، في ١٩٣٥، مؤشرًا على اهتمام السلطات بالسيطرة على التوسع العمراني من خلال التخطيط له. وأول خطة عمرانية لبغداد تم إعدادها في ١٩٣٩ من قبل فريق الماني أعطي هذا الامتياز. فتم بموجبها توسيع خدمات الماء والكهرباء وفتح شارعي الكفاح والشيخ عمر في الرصافة. وفي مطلع الخمسينات بات الامتداد الشريطي في حزام نهر

دجلة يغطي المنطقة الممتدة من مدينة الكاظمية في الشمال حتى معسكر الرشيد في الجنوب (٢٥-٣٠كلم). وقد ساعد إنجاز سدّ الثرثار، في ١٩٥٤، وانحسار خطر الفيضان إلى حد كبير في هذا التوجه. وتمّ إعداد تصميم أساسي في ١٩٥٦ من قبل شركة مونوبريه البريطانية، وتصميم أساسي آخر في ١٩٥٩ أعدته مؤسسة دوكسياس. وبالرغم من أن هذين التصميمين لم يعقبهما إجراء تشريعي فقد اعتمدا في توجيه التوسع العمراني خارج منطقة حزام دجلة. وكان لفتح الطرق السريعة في جانبي الكرخ والرصافة الأثر الكبير في التحضر (التمدين) العمودي على النهر. بيد ان هذين التصميمين لم يكن بمقدورهما مواكبة تصاعد عملية التمدين السريع، لذا فقد ركنت بغداد إلى إعداد تصميم أساسي جديد في ١٩٦٧ تم تحديثه في التصميم الإنمائي الشامل لعام ١٩٧٣ الذي شرع بقرار مجلس قيادة الثورة في ١٩٧٤. وأولى تنفيذ هذا التصميم أهمية بالغة للمتنزهات والمناطق الترويحية، إذ تغطي المساحات الخضراء أكثر من ٤ ملايين متر مربع من المساحات المفتوحة الخضراء والعديد من الملاعب الرياضية والمسابح ومراكز الترفيه والتسلية، تأتي في مقدمتها «جزيرة بغداد» السياحية التي تغطي مساحة ١٢٥ هكتارًا في وسط نهر دجلة وتشمل منشآتها كازينوهات ومطاعم ومسابح ودار استراحة ونوادي ومرافق رياضية ومسرحًا مفتوحًا وبرج الماء المشيد بارتفاع ٦٥ مترًا (المراجع: «المدينة العربية»، مجلة متخصصة تصدرها منظمة المدن العربية، العدد ٣٧، ايار ١٩٨٩؛ «أنسيكلوبيديا أونيفرساليس» الفرنسية؛ «أنسيكلوبيديا بريتانيكا» الانكليزية؛ «أميريكانا» الاميركية؛ «لو روبير»؛ «الحياة»، رؤوف محمد علي الانصاري، ٩ ايلول ١٩٩٧،/ وعلي عبد اللطيف، ٦ تشرين الثاني ١٩٩٦؛ و«الوسط»، العدد ٣٠٤، ٢٤ تشرين الثاني ١٩٩٧، ص٥٦).

*** تكريت:** مدينة عراقية تقع على نهر دجلة إلى الشمال من بغداد بنحو ١٦٠كلم. وإسم «تكريت» من «تجريت» وهي كلمة سريانية. تعود إلى زمن الملك الأشوري توكولتي نورتا الثاني (٨٩٠-٨٤٤ق.م.). دخلها المسلمون في عهد عمر ٦٣٧، وسرعان ما عمرت واتسعت لوقوعها على طريق القوافل التجارية المحاذي لنهر دجلة والذي يربط بغداد بالموصل وحلب.

عثر فيها على أطلال بيوت سكنية من ثلاث طبقات تعود إلى أيام الأتابكة. ومن آثارها العمرانية المهمة:

-القلعة التي تقع في وسط المدينة، والتي دمرت على يد تيمورلنك ١٣٩٣. وثمة من يعتقد أن أصولها تعود إلى أيام الحكم الساساني وربما إلى العصر الآشوري.

- سور المدينة المدعم بأبراج عديدة وله ثلاثة مداخل، وتبين أنه شُيد في ثلاث فترات زمنية.

-المصلى الواقع في تل محيسن والمحراب، وزخارفهما الموجودة على الأخشاب وتدل انها تعود إلى القرن العاشر.

-الكنيسة الخضراء، بناها الأب المغريان ماروثا المتوفي سنة ٦٣٩، وتحظى بأهمية تاريخية ودينية لأنها كانت مركزًا دينيًا وثقافيًا مهمًا تجري فيه المناظرات الدينية بين المسيحيين، ومن الذين زاروا هذه الكنيسة المسعودي صاحب «مروج الذهب». تتميز بكثرة زخارفها والصور.

- مسجد ومشهد الأربعين الذي يقع في الجهة الجنوبية-الغربية من تكريت. يسميه البعض «مزار الأربعين» أو «مقام الأربعين»، ويحتمل ان التسمية جاءت من عدد الذين دفنوا في هذا المكان من شهداء معركة فتح تكريت في ٦٣٧. وبعض الكتابات على جدران المبنى يذكر تاريخ بناء المسجد وهو سنة ٦٦٠هـ ١٢٦٢م (عن رؤوف محمد علي الأنصاري، معماري عراقي، «الحياة»، العدد ١١٧١٤، تاريخ ١٨ آذار ١٩٩٥، ص٢٠).

تسلم عدد من أبناء تكريت السلطة في العراق، وأبرزهم الرئيس العراقي الحالي صدام حسين الذي أولى المدينة عناية فائقة.

*** تل العُبيد El-Obeid:** موقع أثري (جنوبي العراق، أي المنطقة نفسها التي يقال لها بلاد الرافدين الواطئة) قرب أور. بدأت التنقيبات فيه في ١٩١٩. تمثل حضارة العبيد الفترة الأقدم من الحضارة السومرية ما قبل التاريخ، وقد امتدت من بداية الألف الرابع إلى حوالي ٣٣٠٠ق.م.، وتميزت بشغل السيراميك ذات اللون الواحد (أسود أو بني) والأبعاد الهندسية، ونحت الأحجار. ازدهرت بصورة خاصة في إريدو، وانتشرت إلى المناطق الشمالية من بلاد ما بين النهرين وحتى سواحل المتوسط في رأس شمرا (راجع «سومر» في هذا الباب).

*** تل المُقيّر:** راجع «أور» في هذا الباب.

*** جمدت نصر Djemdet Nasr:** موقع أثري قديم قرب كيش. بدأت عمليات التنقيب فيه منذ ١٩٢٥،

مسجد الاربعين في تكريت.

معبد في مدينة الحضر الآثارية.

وكشفت عن حضارة تعود إلى حوالي ٣١٠٠-٢٩٠٠ق.م.، وهي تمثل المرحلة الثالثة من مراحل التاريخ السومري. تتميز بأن صناعة السيراميك والكتابة فيها كانتا أكثر تطورًا مما كانتا عليه في أوروك. وعرفت جمدت نصر ايضًا تقدمًا عن سواها من المدن السومرية في مجال الفنون، وانتشارًا واسعًا في التجارة. ويكاد يجمع علماء الدراسات السومرية والدراسات المصرية على ان عصر جمدت نصر في بلاد ما بين النهرين يوافق عصر الأسرة الاولى في مصر.

* **حصن الأخيضر**: راجع «عين التمر» في هذا الباب.

* **الحضر**: مدينة عراقية أثرية. إحدى المدن العربية الصحراوية مثل تدمر في سورية والبتراء في الاردن. تقع على بعد ٣كلم إلى الغرب من وادي الثرثار، وتبعد نحو ١١٠كلم إلى الجنوب الغربي من الموصل و٣٤٥كلم شمال غربي بغداد. والاعتقاد الراجح لدى المؤرخين ان هذا الموقع كان مستوطنًا للقبائل العربية منذ سقوط دولة الآشوريين في ٦١٢ق.م. إذ تتواجد في المدينة آلهة كانت تعبد في زمن الآشوريين، جنبًا إلى جنب مع آلهة استقدمت إلى المدينة من الجزيرة العربية. وهذا الموقع على طرف البوادي كان فاصلاً بين امبراطوريتين اقتسمتا العالم القديم في القرون الاولى للميلاد: الرومان والفرثيون.

ويبدو أن أرض الحضر كانت منذ الأشوريين قرية نشأت في الاماكن التي تتوافر فيها المياه أكثر من سواها. ثم توسعت هذه القرية، لا سيما بعد فتح الاسكندر المقدوني (٣٣١-٣٢١ق.م.) لبلاد الشرق وما أعقب ذلك من تأسيس مدن وظهور شبكة من الطرق تتشعب من بابل إلى جميع الجهات. ويحتمل ان أول معبد من الحجر شيّد في الحضر كان في زمن الملوك السلوقيين الذين خلفوا الاسكندر في حكم بلاد المشرق. وقد وجدت قطع من أعمدة وأجزاء من منحوتات وأوان من الفخار تدل على هذا الأمر.

واتسعت الحضر وصارت مدينة كبيرة بعد بزوغ أهميتها العسكرية للدفاع عن الامبراطورية الفرثية ضد الرومان. ونتيجة لذلك برزت أهمية القبائل العربية، التي كانت الحضر قد أصبحت أكبر مركز لها، في الحرب، حتى ان قذائف نارية أتى على ذكرها المؤرخون ودعوها «القذائف الحضرية». أما مع الساسانيين (سقطت الحضر بيدهم في ٢٤١م)، فقد بدأت المدينة بالتقهقر سريعًا، وهُجرت بعد أقل من قرن من الزمن. ذلك ان الساسانيين اعتنقوا الزردشتية كمعتقد ديني (على خلاف الفرثيين)، وكانت المسيحية بدأت تتغلغل إلى وادي الرافدين من الغرب. أما العامل الأهم في تقهقرها، ومن ثم زوالها، فهو العامل الاقتصادي. ففي حين كانت الحضر تسيطر على طرق القوافل المتنقلة في بادية العراق وهي تنقل البضائع التي كانت تستلمها من السفن الآتية من الهند والصين إلى موانىء الخليج العربي محملة بالحرير والتوابل والأخشاب والعطور والاحجار الكريمة وتعود بمنتوجات الشرق القديم من ملابس صوفية وتحف عاجية ومعادن، فقد غيرت هذه السفن (وبالتالي القوافل طرقها)، في العهد الساساني، موانىء الخليج واعتادت الابحار حول شبه الجزيرة العربية والوصول إلى الموانىء الواقعة في أعالي البحر الأحمر. فأثر ذلك كثيرًا في المدن الصحراوية. وهذا ما يفسر لنا عدم ظهور مدينة أخرى في البادية.

في اواخر القرن التاسع عشر قام القنصل الفرنسي في الموصل بإجراء بعض التنقيبات في المدينة، خصوصًا في المعبد الثاني. وكان البحاثة الالماني والتز أندريه من بين أبرز المنقبين الذين تابعوا آثار مدينة الحضر (١٩٠٣-١٩١٤). وبدأت مديرية الآثار العامة في العراق حملة كبيرة للتنقيب في المدينة سنة ١٩٥١. وفي ١٩٨٧، قامت بعثة ايطالية بإجراء التنقيبات والمسوحات الأثرية.

يبلغ عدد الكتابات المكتشفة حتى الآن في الحضر أكثر من ٣٠٠ نص كلها بالآرامية باستثناء نص واحد باليونانية وثلاثة باللاتينية (كانت الآرامية لغة التدوين والمراسلة لدى معظم شعوب المنطقة). ومدينة الحضر الباقية حتى اليوم مستديرة تقريبًا، قطرها نحو كيلومترين، يحيط بها خندق عميق محكم الجانب وسور مدعم بـ١٦٣ برجًا وبعدد من القلاع. والمعابد هي ابرز وأهم وأكثر معالمها الأثرية («الحياة»-ايلي سعادة-العدد ١١٢٤٦، تاريخ ٢٨ تشرين الثاني ١٩٩٣، ص١٦؛ ورؤوف محمد علي الانصاري، العدد ١٢١٩٠، تاريخ ١١ تموز ١٩٩٦، ص١٤؛ وعبد اللطيف علي، العدد ١٢٤٦٣، تاريخ ١٣ نيسان ١٩٩٧، ص٢٠).

* **الحلّة**: مدينة عراقية، إلى الجنوب الغربي من بغداد التي تبعد عنها ١٠٠كلم، وعلى بعد ١٠كلم عن أطلال مدينة بابل الشهيرة، وهي حاليًا مركز محافظة بابل (كانت محافظة الحلة سابقًا)، كما تبعد عن الكوفة نحو ٥٥كلم إلى الشمال الشرقي منها، وعلى موقع من نهر

قبة مرقد ذي الكفل ومنارة مسجد النخيلة قرب الحلة.

زقورة عقرقوف، غربي بغداد.

الفرات الذي يخترقهـا فـرع كبير منـه. وتكتنفهـا بسـاتين النخيل وأشجار الفواكه والحمضيات، فهي، لذلـك «الحلة الفيحاء». وقديمًا عرفت باسم «الحلة السيفية» نسبة إلى الأمير صدقة بن دبيس المزيدي الملقب بـ«سيف الدولة» الذي بدأ ببنائها في ١١٠٠. ولعبت، مع النجف وكربلاء، دورًا حضاريًـا في تـاريخ العـراق والعـالم الاسـلامي، وأصبحت مقر كبار العلماء والفقهاء ومكـان تدريسهم، وأبرزهم ابن إدريس الحلّي، والشيخ نجيب الدين الحلّي. وتخرج منها الكثير من العلماء والفقهاء والأدباء قبل ان ينتقل التدريس منها إلى النجف وكربلاء. وقد أدت سيطرة التركمان على العراق في القرن الخامس عشر إلى تقهقر الحلة واضمحلال مدارسها وتشتت مكتباتها.

وكـان للحلة دور بـارز مع بقية مدن الفـرات الاوسـط في انـدلاع ثـورة ١٩٢٠ ضـد البريطـانيين، وشاركت في الكثير من الانتفاضات الوطنية.

الحلّة في وسط منطقةغنية جدًا بالمدن الآثارية والمعالم (بابل، كيش، كوثي-تل ابراهيم-، جامع ومرقد الحمزة، مرقد ذي الكفل ومنارة مسجد النخيلة، مشهد الشمس، مرقد القاسم بن الامام موسى الكاظم، مرقد بكر بن علي بن ابي طالب...). والجدير ذكره، هنا، ان ثمة ظاهرة عمرانية انتشرت على ما يبدو في أماكن عدة في العراق وهي انه عندما تندثر مدينة واقعة على نهر فإنه سرعان ما تقوم مدينة أخرى بديلاً عنها وقريبة منها، وقد تكون على الطرف المقابل من النهر. فلقد ظهرت مدينة الحلة قصبة صغيرة على الطرف المقابل، كما ظهـرت الموصل مقابل نينوى، والناصرية بين أور ونهر الفرات. وتعتبر الحلّة اليوم من أهم المدن المجاورة لبغداد ومركز الفرات الاوسط.

*** خانـات القوافـل والقيسـاريات:** الخانـات أبنيـة مخصصة لاستراحة المسافرين والتجار والحجاج (أي محطات، أو استراحات)، ازدهرت خلال العهود الاسلامية بسبب توسع الحركة التجارية بين البلدان الاسلامية، وتعد معالم معمارية بارزة في العراق. وازدادت أهميتها إبان الحكمين الصفـوي والعثماني للعراق. ويوجد منها في أطراف بغداد، وعلى الطريق الذي يربط بين الموصل وسنجار، وفي جنوبي سامراء. وأهمها الخانات الواقعة على طريق بغداد-كربلاء-النجف. وتتشابه الخانات في ما بينها من حيث الطراز المعماري، وهي على شكل مربع أو مستطيل. وتتميز ببنائها الواسع وبأسوارها العالية المدعومة بأبراج.

أمـا القيسـاريات فهي موجـودة داخـل الاسـواق الكبرى في المدن، شبيهة بالخانات من حيث المعمار ولكنها تختلف عنها من حيث الوظيفة. وجاءت كلمة قيسارية من الرومـان (تحريـف كلمـة قيصريـة، نسـبة إلى قيصـر). والقيسـارية عبارة عن مبنى ذي حوانيت يقع في إطـار الأسواق الرئيسـية استعمله الرومـان لبيـع السـلع التي يتقاضونها من التجار كضرائب. ويذكر بعض المصادر ان القياصرة الروس شيدوا في بلادهم وبلاد ما وراء النهر مبانٍ مشابهة ولوظيفة مشابهة. وبسـبب قوة الروابط التجارية بين العراق وهذه البلدان ظهر مثل هذه المجمعات (أي القيساريات) فيه. وتقع عادة، في المدن العراقية، خلف المحلات التجارية في الاسواق الرئيسية. وقد أزيل الكثير من هذه القيساريات العراقية نتيجة الهدم الذي طال المراكز القديمة في بعض المدن العراقية.

*** خورسباد (دور شروكين):** تقع هـذه المدينة الأثرية على بعد ١٥كلم شرقي مدينة الموصل. اتخذها سرجون الثاني (٧٢٢-٧٠٥ق.م.) مركزًا لحكمـه وسمّاها «دور شـروكين» أي «مدينة سرجون». غير أن أحفاده تركوها وعادوا ثانية إلى نينـوى. أطلق عليهـا الساسـانيون إسم «خسرو آباد»، ومنها جاء إسم «خورسباد».

أبرز معالمها: سور ذو أبراج يزيد عددها على ١٥٠ برجًا. وفي السور ٨ أبواب، كل باب سمّي باسم إلـه آشوري، وتزين مداخل المدينة ثيران مجنحة بـرؤوس بشرية؛ وقصر سرجون وبعض الاقسام المجاورة له، وبعض المعابد، وزقورة.

*** دور شروكين:** راجـع «خورسـباد» في هـذا الباب.

*** دوركوريكالزو:** راجع «بغداد» في هذا الباب.

*** الرصافة:** راجع «بغداد» في هذا الباب.

*** زارلو:** راجع «بغداد» في هذا الباب.

*** الزقـورات (الأبـراج):** معابد أثرية، تعود إلى العصور القديمة، منتشرة في وادي الرافدين، ذات خصـائص معمارية متميزة، أهمها انها تقوم على قواعد مرتفعة ومتدرجة، وانها من طبقات لا تقل عن ثلاث عدا طابق

المعبد، وانها متدرجة سواء من خارجها أو من داخلها أو من الخارج والداخل معًا. ويقول المؤرخون إن الفراعنة استلهموا أهرامهم وهياكلهم الأولى من زقورات الرافدين. وكانت زقورة بابل المعروفة باسم «برج بابل» الحصيلة النهائية لذلك النوع من العمران، ونقطة تحول كبيرة نحو عمارة حضارية متقدمة. وتحيط بالزقورة عادة ساحات واسعة للمصلين تسمى صحن الزقورة، حولها مبان وغرف لخدمات مختلفة، ومعظمها للكهنة، ومخازن للنذور والهدايا التي تقدم للآلهة.

من أشهر زقورات العراق:

– زقورة أور، وهي من أولى الزقورات. واقعة قرب مدينة الناصرية. شيدها الملك أرنمو مؤسس سلالة أور الثالثة (٢١١٣-٢٠٩٦ق.م.). ما تزال شاخصة إلى الآن، وارتفاعها الحالي ١٧،٥م. ويقدر بـ٢٦م بالأصل.

– زقورة بابل، في مدينة بابل الأثرية بالقرب من الحلّة وإلى الجنوب من بغداد بحوالي ٩٠كلم، وتتواجد ضمن حارة ضخمة مقدسة عند البابليين. طولها ٩١،٥م. يرجع بناؤها إلى اواخر الألف الثاني ق.م.

– زقورة عقرقوف، على بعد نحو ٣٠كلم إلى الجنوب من بغداد. إرتفاعها ٥٧م، وفي الأصل ٨٧م.

– زقورة بورسيبا، «برس نمرود»، الأثرية على بعد ١٥كلم إلى الجنوب من مدينة الحلة. ترتفع بقاياها ٤٧م. وبالقرب منها يوجد تل مرتفع عليه مزار يعتقد البعض انه مقام ابراهيم الخليل أو قبره.

* سامراء: مدينة عراقية. تقع على الضفة اليمنى (الشرقية) من نهر دجلة، وتبعد عن بغداد ١٢٠كلم. المدينة الحالية نشأت على جزء من اطلال العاصمة العباسية المندثرة. وفي اواخر العصر العثماني، أصبحت سامراء ولاية لها سور طوله كيلومتران. وفي عهد الاحتلال البريطاني للعراق قسمت البلاد إلى ١٦ وحدة ادارية، كانت سامراء واحدة منها. وبعد قيام الدولة العراقية أصبحت قضاء تابعًا لبغداد، ثم تبعت محافظة صلاح الدين منذ سنوات قليلة.

في ١٩١٢-١٩١٤، وفي موضع سامراء، عثر العالم الاثاري هرزفلد على انواع من الأواني والفخار ترقى في تاريخها إلى الألف السادس ق.م.

يقول فيليب حتي في «تاريخ العرب» ان إسم «سامراء» يعود إلى أصل أشوري وهو «سرمارتا» Suurmata، فحرّفه العرب إلى «سرّ من رأى». وذهب آخرون إلى ان إسمها بالآرامية «سامرا». ويذهب «معجم لبلدان» و«التنبيه» إلى ان اسمها «سرّ من رأى».

أنشأ الفرس عند سامراء حصنًا سمّي «حصن سومير» Sumer، وهو الحصن الذي شهد تقهقر الجيوش الرومانية بعد مقتل قائدها الامبراطور جوفيان في العام ٣٦٣. وانتقلت المدينة بعد ذلك إلى ايدي الروم بعد ان دحروا الفرس في عهد خسرو برويز، فأنشأوا الكنائس وأقاموا الأديرة حسبما جاء في كتاب «مآثر الكبراء في تاريخ سامراء» للشيخ المهلاتي.

عن انتقالها إلى العرب المسلمين، جاء في «المنجد» انها «كانت قرية صغيرة عندما احتلها العرب ٦٣٧». وجاء لدى المستوفي: «إن مدينة سامرا أنشأها في الأصل سابو ذو الأكتاف (٣٠٩-٣٧٩) وكما كان اقليمها طيبًا

الروضة العسكرية في سامراء

عرفت بـ«سرّ من رأى»، وربما كانت سامرا من كلمة آرامية مثل عكبرا وبعقوبا وبقسايا. وهذه المواضع تنتهي بالألف المقصورة وهي العلاقة المميزة للكلمات السريانية الآرامية في بلاد ما بين النهرين وبلاد الشام، وكانت سامرا عامرة بالاديرة وربما كانت منها كربلا».

وعن أسباب بناء المدينة في الموقع الذي أقيمت عليه، جاء في تاريخ الطبري ان المعتصم «أزمع الابتعاد عن بغداد لأن الجند شغبوا حين بويع له بالخلافة، فطلبوا العباس بن المأمون ونادوه بالخلافة، فأرسل المعتصم إلى العباس فبايعه هذا وأسكت الجند. وعند ذلك طلب المعتصم إلى وزيره أحمد بن خالد ان يشتري له بناحية سامرا موضعًا يبني فيه مدينة لأنه تخوف ان يصيح الحربية (جند العرب) صيحة فيقتلوا غلمانه، ولكي يكون فوقهم، فان رابه منهم ريب أتاهم في البر والبحر حتى يأتي عليهم».

وثمة رأي أجمع عليه مؤرخون آخرون يتفق مع ما جاء في تاريخ الطبري، مفاده ان سبب بناء المدينة يرجع إلى كثرة جيوش المعتصم من الأتراك الذين كانوا يضايقون أهل بغداد حتى بلغ بهم الأمر أن طلبوا من ا لخليفة ان يخرج عنهم بجنده وإلا حاربوه، فثقل ذلك على المعتصم وعزم على الخروج من بغداد، وبنى سامراء واتخذها عاصمة له في ٨٣٦.

ودلّ تخطيط المدينة على براعة فائقة في تخطيط المدن. وازدهرت بشوارعها، وأنشئت الحمامات والمرافق الأخرى، وحفرت الأقنية ونصبت الدواليب والدوالي عليها، وحملت إليها الغروس والنخيل من سائر البلدان. وزادت المدينة سعة ومرافق وأبنية في عهد المتوكل بعد المعتصم، فاندفع الناس يشيدون البيوت والقصور، واتسعوا في ذلك أكثر من اتساعهم في بغداد.

أبرز معالم سامراء العمرانية والحضارية: المسجد الجامع ومئذنة الملوية، ومجموعة القصور، والشارع العظيم، والأسوار، ودور العامة.

المسجد الجامع، وسّعه الخليفة المتوكل وكان بناه أبوه المعتصم بعد ان ضاق المسجد بالمصلين، وكانت مساحته نحو ٣٨ ألف م.م ويتسع لنحو ٨٠ ألف مصل. أما مئذنته الملوية فتقع على بعد ٢٥م من الجدار الشمالي للمسجد، ويبلغ ارتفاعها نحو ٥٢م. ومن مساجد سامراء الأثرية مسجد جامع ابي دلف الكبير الذي بناه المتوكل في «المتوكلية» وهي مدينة بناها المتوكل وملحقة بسامراء وتبعد عنها نحو ٢٥كلم.

أما أشهر قصور سامراء: قصر الخليفة المعتصم، وقصر الواثق المعروف بالهاروني، وقصور المتوكل، وأبرزها: الجعفري والعروس والصبيح والمليح والمختار والوحيد والمعشوق وغيرها.

بدأ اهتمام الاوروبيين بآثار سامراء منذ اواسط القرن التاسع عشر، لكن أعمالهم في التنقيب تأخر إلى نهاية العقد الاول من القرن العشرين عندما قام المهندس الفرنسي، فيوله، بتنقيبات استكشافية في قصر الخليفة (صيف ١٩١٠)، وأعقبه في السنة التالية العالم الالماني هرتزفيلد. وفي ربيع ١٩٣٦ بدأت مديرية الآثار العامة في بغداد تنقيباتها في سامراء انتهت في ١٩٣٩. ومن أبرز ما عثر عليه خلال كل عمليات التنقيب حتى تاريخه (الحرب العالمية الثانية) زخارف جبسية، ومواد خزفية، وكتابات على الجدران أو على الفخار والرخام والخزف والمعادن، إلى جانب كميات كبيرة من النقوش والزخارف على الاواني الفخارية، والقطع الخشبية المزخرفة بطريقة الحفر والخرط، ومجموعة خواتم واقراط وسلاسل...

وفي ١٩٧٢، عثر عمال الهاتف، وهم يقومون بمد اسلاك في سامراء، على لوحة شبه مربعة من الرخام. وبعد إتمام معالجتها مختبريًا في المتحف الوطني في بغداد تبين انها ساعة شمسية، ومن خطوطها وكتاباتها عبارة «صنعة علي بن عيسى» الذي عاش في سامراء في اواسط القرن التاسع الميلادي. والمعروف ان الساعات العربية كانت ذائعة الصيت تفاخر في إهدائها الخلفاء والحكام والأثرياء، وليس أدلّ على ذلك من الساعة التي أهداها الخليفة هارون الرشيد إلى شارلمان، أو الساعة التي أهداها صلاح الدين الايوبي إلى فردريك الثاني سنة ١٢٣٢.

* **سلمان بك**: راجع «المدائن» في هذا الباب.

* **سنجار**: مدينة عراقية (نحو ٥٠ ألف نسمة أكثريتهم من اليزيديين). هي سنجارا القديمة. أعلنها مرقس أوريليوس (امبراطور وفيلسوف روماني ١٦١-١٨٠، حارب البرابرة واصطدم بالفرثيين، السلالة التي حكمت ايران) مستعمرة رومانية. هاجمها الفرس عدة مرات. احتلها شابور الثاني ونقل سكانها إلى فارس. ثم أعادها الامبراطور الروماني يوليانوس من جديد ٣٦٣. اشتهرت في العهد العباسي بتقدمها، فأصبحت إحدى حواضر العراق المهمة. وهناك جبل سنجار، وهو كتلة صخرية في العراق قرب الحدود مع سورية ويشرف على مدينة سنجار.

أبرز معالمها الأثرية: المنارة، والمسجد، وأطلال كنيسة زكريا وكنيسة القديس جورجيوس (شفيع مسيحيي المدينة)، والسور الروماني (القرن الثالث)، ومبان ومدافن يزيدية.

تعود المنارة إلى العام ١١٦٩، ما دعا المؤرخين إلى اعتبار قطب الدين مسعود ابن زنكي (أحد أحفاد عماد الدين زنكي) هو بانيها (مجلة «بغداد»، بالفرنسية، تصدرها وزارة الثقافة والاعلام العراقية، العدد ٢٧٩، تشرين الاول ١٩٨٨، ص٢٦-٢٧).

* **سومر**: هي المنطقة التي تشكل جنوب العراق. كثيرًا ما يجري تعريفها، حاليًا، بـ«المنطقة المتطابقة لبلاد ما بين النهرين والمتاخمة للخليج العربي-الفارسي»، مع ملاحظة التغييرات الجغرافية الحاصلة في هذه المنطقة، إذ إن ساحلها القديم، على ما يقول العلماء، كان على بعد نحو ٢٥٠كلم شمال-غربي الساحل الحالي. و«سومر» نسبة إلى السومريين، وهم شعب غير سامي امتزج بشعب سامي هو «الأكديون»، وبات الكلام يجري على حضارة «سومرية-أكدية» رغم اختلاف اللغتين. عرفت هذه الحضارة صناعة النحاس والقرميد، وهي أول حضارة إنسانية ابتكرت هندسة العمارة والبناء (المعابد، وبعدها الزقورات) والكتابة (الرسمية ثم المسمارية). وانتشر أثر الحضارة السومرية، على يد الأكديين، في كل آسيا الداخلية، واستمر هذا الأثر في ايام البابليين.

«من ألواح سومر» (وتعداد هذه الألواح يبلغ عشرات الآلاف) لمؤلفه صمويل نوح كريمر Samuel Noah Kramer، الاختصاصي الشهير في الأبحاث السومرية، والموضوع في اواسط هذا القرن، والذي ترجمه إلى العربية، بمساعدة مؤسسة فرانكلين، طه باقر (مكتبة المثنى ببغداد ومؤسسة الخانجي بالقاهرة)، هذا الكتاب هو في أساس كل علم أو معرفة عن سومر والسومريين.

شيء واحد يريد ان يقوله، ويثبته، الكتاب (بفصوله الـ٢٥ وصفحاته الـ٤٥٨)، هو ان كل علم، وكل أدب، وكل معتقد، وكل رأي، وكل سلوك، وكل مؤسسة... أوله يعود إلى سومر وحضارة السومريين. وكأن حضارة الانسان اليوم، بكل عناصر الحياة الشخصية والفردية أو العامة، هي الطابق الأعلى في عمارة واحدة أساسها الحضارة السومرية (الألف الرابع-الألف الثالث ق.م.).

فكل بحث في حضارة سومر يستطيع «ان يشبع

ختمان سومريان يحملان نقوشاً زراعية وحيوانية

لهفة الانسان في بحثه الدائم المتطلع عن أصول الأشياء أو بعبارة أخرى «أوائل الأشياء» في تاريخ الحضارة. مثلاً: ماذا كانت أولى مُثُل الانسانية الاخلاقية المدونة؟ وماذا كانت آراؤه الدينية؟ وكيف كانت أفكاره السياسية والاجتماعية الفلسفية؟ كيف كانت اوائل المدونات في التاريخ والأساطير وقصص الملاحم والتراتيل الدينية؟ كيف كانت تصاغ أولى العقود القانونية؟ مَن كان أول مصلح اجتماعي؟ متى حدث لأول مرة في التاريخ أول تخفيض في

الضرائب؟ مَن كان أول مشرّع؟ متى اجتمع أول برلمان ذي مجلسين ولأي غرض كان اجتماعه؟ وكيف كانت أولى مدارس التعليم عند البشر؟ وكيف كانت مناهجها وهيئة مدرسيها وطلابها؟ إن هذه وكثيرًا من نظائرها من «أوائل الأشياء» في تاريخ الانسان المدوّن لهي من صلب اختصاص الباحث في السومريات. ففي وسعه أن يجيب بالجواب الصحيح عن تلك الاسئلة الكثيرة الخاصة بالاصول الثقافية (...) وهناك حقيقة عجيبة هي انه قبل قرن مضى لم يكن أحد يعرف أي شيء حتى عن وجود هؤلاء السومريين في العصور القديمة، وإن المنقبين عن الآثار والعلماء والباحثين الذين بدأوا قبل نحو مائة عام ينقبون ويبحثون في ذلك الجزء من الشرق الاوسط المعروف باسم بلاد ما بين النهرين (العراق) لم يكونوا ينقبون ويبحثون عن السومريين وإنما عن الأشوريين والبابليين. وكان لدى هؤلاء الباحثين عن هذين القومين وعن حضارتيهما اخبار غير قليلة من المصادر الاغريقية والعبرانية. أما عن بلاد سومر والسومريين فلم يكن لديهم أية إشارة أو لمحة، إذ لم يرد أي اثر معروف عن بلاد السومريين أو عن أهلها في جميع المصادر المتوافرة لدى الباحث الحديث. فإن نفس «إسم» سومر قد امّحى من فكر الانسان وذاكرته طوال أكثر من ألفي عام» (من مقدمة المؤلف، صمويل كريمر، المعرّبة، ص٢١-٢٢).

المؤلفات عن سومر، بعد كريمر، أي في هذا النصف الأخير من القرن العشرين، بلغت العشرات، بل المئات، آخرها حتى الآن كان «الدين السومري» لمؤلفه خزعل الماجدي (دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، ط١، ١٩٩٨)، وفيه أن السومريين عاشوا ما يقرب من خمسة قرون في نظام سياسي مبتكر وجديد هو نظام دولة المدينة، الذي ساد بعدهم الشرق الأدنى كله، حيث لكل مدينة استقلال ذاتي وحاكم خاص وإله خاص، لكن هذه المدن يجمعها تفاهم سياسي وحضاري وديني واضح. وقد كان ظهور هذا النظام المتحضر سببًا في دفع التطور الانساني وابتكار المجالس البرلمانية وممارسة نوع من الديمقراطية. وكان المعتقد السومري بمثابة المعتقد الاول للأنسان من حيث امتلاكه أنظمة لاهوتية وميثولوجية وشعائرية متكاملة ومنسجمة في ما بينها. وفي التراث السومري أدب ديني غزير مما يبرهن على كون الانسان في تلك العصور مشبعًا بالمبادىء والتعلق بالقيم. ومع أن تلك الاجيال السحيقة في القدم كانت تؤله القوى الطبيعية، إلا أنها كانت تحمل عاطفة روحية سامية، وميولاً دينية قوية، ونزوعًا إلى ما وراء المادة. وخلص المؤلف، خزعل الماجدي إلى اعتبار الثقافة السومرية أول ثقافة بشرية أصيلة ساهم الانسان والطبيعة وتراث العصور القديمة في صياغتها، ولذلك كانت هذه الثقافة مصدر ثقافات العالم القديم كله.

* **شادوم:** راجع «بغداد» في هذا الباب.

* **شط العرب:** راجع «مسألة شط العرب» في باب معالم تاريخية.

* **شفاثا:** راجع «عين التمر» في هذا الباب.

* **طيسفون:** راجع «المدائن» في هذا الباب.

* **عقرقوف:** راجع «بغداد» في هذا الباب.

جانب من واجهة حصن الاخيضر في عين التمر.

* **عين التمر (وحصن الاخيضر)**: مدينة عراقية تقع في بقعة شبه صحراوية تحتوي على مياه جوفية، في الجانب الغربي من العراق. تبعد عن كربلاء نحو ٦٧كلم إلى الغرب منها. وكانت تدعى قبل إسمها الحالي شفاثا. واستمر إسم شفاثا على أكبر وأهم واحات الهضبة الممتدة إلى الغرب من نهر الفرات. وهي عبارة عن غابة من النخيل وأشجار الرمان والزيتون، تقطعها طرق ريفية ضيقة ترتفع عن مياه صافية، وتنتشر فيها عيون معدنية (نحو ٧٠ عيناً كبيرة وصغيرة) كان حصن الأخيضر يعتمد على مياهها.

أعيد إسم عين التمر (في السنوات الأخيرة) ليحل محل شفاثا تخليدًا لمدينة عين التمر المندثرة، والتي كانت في القرن الثالث من المدن العامرة والمحصنة، وكانت قضاء في الولاية الساسانية العاشرة. وصل خالد بن الوليد إليها وهو في طريقه لفتح الشام وكانت فيها حامية عسكرية ساسانية محصنة، فافتتح خالد الحصن عنوة وقتل وسبى من كان موجودًا داخله. فأصبحت المدينة، بحصنها، حامية اسلامية.

أبرز معالم المدينة (عين التمر-شفاثا) التاريخية: حصن الأخيضر الواقع على بعد نحو ١٧كلم من عين التمر، ويعتبر من المباني الاسلامية التي أنشئت في الصدر الاول من الاسلام، اشتهر بضخامة بنائه وتفرده من حيث التصميم والبراعة في هندسته. مرافقه الداخلية مكونة من البهو الكبير والمسجد ومجموعة دور، وإيوان كبير ومجموعة أواوين. زاره عدد من ا لمستشرقين منذ اوائل القرن السابع عشر، منهم لويس ماسينيون (١٩٠٨). وكتب عنه مصطفى جواد (١٩٤٧). أما محمود شكري الألوسي فذهب إلى أن لفظة «الأخيضر» محرفة عن «الأكيدر»، وهو إسم أحد أمراء كندة الذي أسلم في صدر الاسلام. وفي العام ١٩٣٤، بدأت مديرية الآثار العراقية بالكشف عليه، وفي ١٩٣٨، تمّ رفع الأنقاض المتراكمة عليه وحوله، وفي ١٩٦٠ بدأت أعمال صيانته وكشف أجزاء منه، واستمرت في ١٩٧٤، ثم في ١٩٨١.

بعض المؤرخين يستند إلى ما جاء في «معجم البلدان» لياقوت الحموي ليقول إن حصن الأخيضر أقيم على أنقاض «قصر مقاتل» الذي هدمه عيسى بن علي بن عبدالله في القرن الثاني الهجري وأقام حصن الأخيضر فوقه. أما ما جاء بصدده في معجم البلدان ان «قصر مقاتل من الاماكن الواقعة بالقرب من عين التمر وينسب إلى مقاتل بن حسان بن ثعلبة الذي يعود نسبه إلى امرىء القيس بن زيادة مناة بن تميم، ويدعى ايضًا قصر بني مقاتل».

* **الفاو**: مدينة ومنطقة في جنوبي العراق، حيث تغطي مساحة ٩٢ ألف كلم م.، أو ما يعادل ٢٠،٩٪ من مساحة العراق. أجمعت الدراسات الجيولوجية على ان منطقة الفاو جزء من مياه الخليج، وانها خضعت إلى حركة تقعر نشطة أدت إلى حدوث منخفض مستمر وواسع، وأسهمت الانهار والوديان من الشرق والغرب على قطع جزء من الخليج العربي بشكل بحيرة واسعة، ثم أسهمت أنهار دجلة والفرات بملء هذه البحيرة بالرواسب الغرينية التي تجلبها من منطقة المرتفعات الشمالية التي تنبع منها. وقد ظهرت منطقة الفاو كأحدث جزء من العراق باعتبارها تقع عند نهاية الدلتا القريبة من ساحل الخليج العربي. والفاو أحد الأقضية السبعة التابعة لمحافظة البصرة.

جاءت أهمية الفاو الادارية عندما تأسست فيه أول محطة للتلغراف في ١٨٦١ في موضع يقع بين جدولى حاجي عبدالله وحاجي رشيد جنوبي البصرة بنحو ٩٧كلم وقرب بناية الحجر الصحي العثمانية. وظلت الفاو ناحية صغيرة من نواحي البصرة حتى ١٩٠٣ عندما صيّرها العثمانيون قضاء لتزايد أهميتها العسكرية، إلا انها أهملت وعادت ناحية مرة أخرى.

لكن أهميتها العسكرية، في نظر العثمانيين، سبقت أهميتها الادارية. إذ أخذت الدولة العثمانية تهتم باستحكامات شط العرب في أعقاب حملة الإحساء في ١٨٧١ موجهة اهتمامًا آخر إلى الفاو باعتبارها تتحكم في مدخل شط العرب والمنفذ المهم إلى الاراضي الزراعية الغنية في العراق وإقليم عربستان. وبدأت زيارة المسؤولين في الدولة العثمانية لهذه المنطقة، حيث زارها الوالي رديف باشا في ١٨٧٤ لتفقد الاستحكامات فيها، ثم زارها القائد البحري العثماني في البصرة بأمر من السلطات العثمانية العليا لاختيار أرض مناسبة لاقامة حصن يتناسب وأهمية المنطقة التجارية. ونتيجة لذلك نشط الوكلاء السياسيون البريطانيون في المنطقة لاحباط جهود الدولة العثمانية وأطماعها في الفاو. وتوالت تقارير القنصلية البريطانية في البصرة على السفير البريطاني في اسطنبول وحكومة الهند لإخبارهم بعزم العثمانيين على تجديد الحصن وتشييد فنار لإهداء السفن إلى شط العرب. ذلك ان العثمانيين كانوا بدأوا بتشييد حصن عسكري في الفاو في ثمانينات القرن التاسع عشر. وقد ثبت للبريطانيين ان زيارة قائد الاسطول العثماني في الفاو كانت من أجل تثبيت بعض العلامات في رأس الخليج العربي عند الحاجز الغريني الخارجي ومصب شط العرب، لتسهيل الملاحة للسفن القادمة إلى النهر. وقد

اعتبرت الحكومة البريطانية ان اهتمام الدولة العثمانية في المنطقة وتسهيلها للملاحة في شط العرب هو محاولة للاضرار بالمصالح البريطانية، فكانت توعز للحكومتين الهندية (المدعومة منها) والايرانية بالتهويل على العثمانيين.

في الحرب العراقية-الايرانية (حرب الخليج الاولى)، احتلت ايران الفاو لفترة قصيرة ومنطلقًا لأهداف عسكرية وسياسية أوسع. لكن الجيش العراقي تمكن من استعادتها (ثم التوغل في داخل الاراضي الايرانية) في إطار خطة عسكرية ومعارك طاحنة مشهود لها في التاريخ العسكري بحسب ما صدر من أنباء وتعليقات عالمية عليها.

لمنطقة الفاو أهمية اقتصادية للعراق ومنطقة الخليج، تتمثل بموقعها، وبتربتها الرسوبية الغنية (النخيل، الحنّاء، الخضراوات، الجت-للعلف-)، والملح حيث تعتبر مملحة الفاو أهم الممالح في العراق، وبدور الفاو في نقل النفط العراقي. ففي ١٩٤٩، اكتشف النفط في منطقة الزبير في محافظة البصرة بكميات تجارية. فأنشىء في ١٩٥١ خط الزبير-الفاو بطاقة سنوية ٥،٢٥ مليون برميل، وبلغت كمية النفط المصدرة في ١٩٥٤ نحو ٣١،٥ مليون برميل، ومثلت ١٦،٦٪ من كمية ما نقل عبر الأنابيب إلى البحر المتوسط.

كان ميناء الفاو أول ميناء عراقي أنشىء لتصدير نفط الحقول الجنوبية. وتوقف العمل به بسبب تشغيل مينائي خور العميه والبكر على أسس حديثة. فالميناء الاول ميناء عائم في الخليج العربي على بعد ٤٠،٢ كلم جنوبي ميناء الفاو، أنشىء في ١٩٦٢ ويتكون من ٥ جزر صناعية صغيرة تتصل بجسور، يضخ إليه النفط من ميناء الفاو. أما ميناء البكر فهو من الموانىء العائمة ايضًا في الخليج وعلى بعد ١٥،٥ كلم جنوبي الفاو، وأنجز في ١٩٧٥ بالاتفاق بين شركة النفط الوطنية ومؤسسة ايراب الفرنسية، ويتميز بقدرته على استقبال الطائرات العمودية واستعمال أجهزة السيطرة الحديثة (عن د.فلاح شاكر أسود، استاذ في كلية الآداب-جامعة بغداد، مجلة «المورد» العراقية، العدد ٢، ربيع ١٩٨٨، ص٣-١٦).

*** الكاظمية:** مدينة عراقية تبعد نحو ١٠ كلم عن بغداد. كانت تعتبر مجاورة لبغداد، أما الآن، ومع التوسع العمراني، فقد اندمجت بالعاصمة وأصبحت جزءًا منها أو ضاحية لها.

تعد الكاظمية إحدى أهم المدن الدينية في العراق والعالم الاسلامي. تضم مشهد الإمامين: موسى بن جعفر الملقب بـ«الكاظم» (ومنه الكاظمية) المعروف بحلمه وعفوه وكظمه للغيظ والمتوفي سنة ٧٩١، وحفيده محمد بن علي بن موسى الملقب بـ«الجواد» لجوده وحلمه والمتوفي في سنة ٨٢٥.

يعتبر مشهد الإمامين نواة الكاظمية التي شيدت على أرض كانت تُعرف ايام الساسانيين بـ«قُطربل» وقد حولها الخليفة العباسي ابو جعفر المنصور إلى مقابر قريش وخصصت لدفن العباسيين والعلويين. ودُفن فيها كل من جعفر بن الخليفة العباسي المنصور وكذلك الخليفة العباسي الأمين ووالدته زبيدة، إضافة إلى الكثير من العلماء والفقهاء والشعراء والمؤرخين، من بينهم الشريفان الرضى والمرتضى والإمام أحمد بن حنبل وابن الأثير وابن الجوزي والشاعر عبد المحسن الكاظمي وغيرهم.

لعبت الكاظمية، تزامنًا مع بغداد خلال العهود الاسلامية، دورًا حضاريًا في تاريخ العراق والعالم الاسلامي. وكانت مصدرًا لنهضة علمية وأدبية وفكرية، وأصبحت في فترات زمنية مختلفة مقر كبار العلماء والفقهاء ومكان تدريسهم. وكان للكاظمية دور بارز في اندلاع ثورة ١٩٢٠، وكان لتأكيد علمائها ومساندتهم للفتوى التي اصدرها من مدينة كربلاء المرجع الديني الشيخ محمد تقي الحائري الشيرازي في ٢٣ كانون الثاني ١٩١٩ التي حرّم فيها على المسلم ان يختار غير المسلم لحكم البلاد أكبر الأثر في تأسيس الدولة العراقية الحديثة في ١٩٢١.

أبرز معالم المباني الدينية في الكاظمية مشهد الإمامين بمآذنها وقبابها الذهبية ومواد بنائها من الرخام والمرمر والزخارف، والحسينية الحيدرية (بنيت في ١٨٦٣)، والأسواق التجارية. ويقع مشهد الإمامين (أو الروضة الكاظمية) في وسط المدينة، وتضم رفات الامامين موسى الكاظم وحفيده محمد الجواد. شيدت في ١٢٤٩ في عهد الخليفة العباسي المستعصم با لله.

*** كربلاء:** مدينة عراقية إلى الجنوب الغربي من بغداد بنحو ١٠٥ كلم. موغلة في القدم، إذ كشفت التنقيبات الأثرية عن ان الانسان القديم سكن في منطقة كهوف الطار القريبة من كربلاء الحالية خلال العصر الحجري الحديث. وفي عهد البابليين كانت مجموعة قرى بابلية قديمة أشهرها وأكبرها نينوى الواقعة إلى الشمال الشرقي من مدينة كربلاء الحالية (ونينوى هذه غير نينوى عاصمة الآشوريين التي تقع في شمالي العراق قرب مدينة الموصل). وللتدليل على ذلك جاء في كتاب «مراصد

الروضة في وسط الكاظمية.

جانب من دار الامارة في الكوفة بعد التنقيبات والترميمات.

الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع» لصفي الدين بن عبد الحق: «إن بسواد الكوفة تقع ناحية تسمى نينوى منها كربلاء التي قتل فيها الإمام الحسين». وورد في كتاب «بغية النبلاء في تاريخ كربلاء» لعبد الحسين الكيلدار آل طعمة انه يوجد على بضعة أميال في القسم الشمالي الغربي من مدينة كربلاء أطلال وأكم قيل إنها كربلاء الأصلية. وذكر لويس ماسينيون (مستشرق فرنسي شهير) في كتابه «خطط الكوفة» ان كربلاء كانت قديمًا معبدًا للكلدانيين في مدينة تدعى «نينوى». وظلت المدينة محتفظة بمكانتها في عهود التنوخيين واللخميين والمناذرة يوم كانت الحيرة عاصمة مملكتهم. أما الأقوام التي سكنتها فكانت تعتمد على الزراعة لخصوبة تربتها وغزارة مائها وكثرة العيون التي كانت منتشرة في أحيائها. وفي عهد الساسانيين الذين قسموا العراق إلى ١٠ استانات (ولايات) كانت كربلاء تابعة للولاية العاشرة.

أما بالنسبة إلى الإسم، «كربلاء»، فيقول الدكتور مصطفى جواد المؤرخ واللغوي العراقي المعروف «إن إسم كربلاء ليس عربيًا وإن محاولات ردها إلى الاصول العربية غير صحيحة وتصطدم بعقبات تاريخية ولغوية، إذ إن موقعها خارج عن الجزيرة العربية وإن في العراق كثيرًا من البلدان ليست أسماؤها عربية كبغداد وبابل وبعقوبا». ويرى فريق من المؤرخين ومنهم الأب أنستاس ماري الكرملي ان لفظ كربلاء ذكر في كتب الباحثين، ومنحوت من كلمتين آشوريتين هما «كرب» بمعنى معبد أو حرم، و«إل» بمعنى إله في اللغة الآرامية، ومجموع الكلمتين «معبد الاله». ويقول الشيخ آغا بزرك الطهراني ان كلمة كربلاء متكونة من كلمتين هما «كار» أي الفعل، و«بالا» أي السامي والعلوي باللغة الفارسية، فيكون معنى اللفظة «الفعل العلوي» أو «العمل السماوي» المفروض من الأعلى.

وكان إسم كربلاء معروفًا قبل الفتح الاسلامي وقبل ان يسكنها العرب المسلمون، وذكرها بعض المسلمين الذين رافقوا خالد بن الوليد. وورد في «معجم البلدان» لياقوت الحموي ان كربلاء سميت بـ«الطف» لأنها مشرفة على العراق وذلك من «أشرف على الشيء أي أطل»، والطف: طف الفرات أي الشاطىء». وجاء ايضًا في المصدر نفسه ان الطف أرض من ضاحية الكوفة في طريق البرية فيها كان مقتل الحسين بن علي بن ابي طالب. ويشير بعض المصادر التاريخية إلى ان كربلاء الحالية كانت قبل الاسلام منطقة تحيط بها قرى قديمة عند قدوم الحسين بن علي إليها في ٦٨٠، منها نينوى (غير نينوى-الموصل كما تقدم ذكره) وعمورا وماريا وصفورا وشفيا. وكانت على مقربة من هذه القرى منطقة تدعى «النواويس» وهي مجموعة مقابر للمسيحيين الذين سكنوا هذه الاراضي قبل الفتح الاسلامي للعراق، وتقع هذه المقابر اليوم في شمال غربي كربلاء في اراضي الكمالية بالقرب من المنطقة التي يقع فيها مرقد الحر بن يزيد الرياحي.

وأطلق على مدينة كربلاء الحالية، بعد استشهاد الإمام الحسين ٦٨٠ أسماء عدة منها: مشهد الحسين، ومدينة الحسين، والبقعة المباركة، وموضع الابتلاء، ومحل الوفاء، والحائر، والحير... إلا ان اشهرها هو «الحائر» لما أحيط بهذا الإسم من الحرمة والتقديس. وقد اختص «الحائر» في ما بعد بالمرقد في الغالب.

ولم تكتسب كربلاء هذه المكانة التي لها الآن لولا استشهاد الحسين وصحبه في هذه البقعة (٦٨٠). كما وتدين المدينة بنشأتها إلى واقعة الطف، وكان نواتها قبر الإمام الحسين، إذ قام رهط من بني أسد سكان القرى المجاورة للمنطقة بنصب معالم عليه كي يُستدل بها ولا يضيع اثره وذلك بعد يومين من انتهاء المعركة. ويذكر بعض المصادر التاريخية ان المختار بن ابي عبيدة الثقفي، ايام إمرته على الكوفة، أقام بناء القبر وعليه قبة من الطابوق (الآجر)، وهذه القبة تعدّ الأولى في الاسلام، وذلك سنة ٦٨٦، وشيد مسجدًا بجانب القبر. ويعتبر هذا البناء أول بناء في كربلاء، كما شيد قرية صغيرة تحيط بالقبر.

وبدأت المنطقة تتطور شيئًا فشيئًا، وذلك لكثرة الزائرين إليها واختيار بعض المسلمين، خصوصًا العلماء والرواة والمحدثين للاقامة فيها حتى أصبحت حاضرة إسلامية لها شأنها بين المدن الاسلامية. ومن أبرز ما تميزت به الدراسات الدينية ذات الطابع التقليدي «نظام الحلقات».

فعند بداية الحكم البويهي في ايران والعراق، تأسست المدارس الاسلامية في المدن التي كانت تحت سيطرتهم. وأول مدرسة اسلامية شيدت في العراق كانت في كربلاء وهي «المدرسة العضدية» من قبل عضد الدولة البويهي (٩٨٠)، وقد أزيلت آثار هذه المدرسة في ١٩٣٥ لغرض فتح شارع يحيط بالروضة الحسينية. كما شيد عضد الدولة مدرسة أخرى ألحقها بصحن الروضة الحسينية (أزيلت كذلك في ١٩٤٨). وعند زيارة ابن بطوطة إلى كربلاء (١٣٢٧) نوه بوجود «مدرسة عظيمة وزاوية كريمة فيها الطعام للوارد والصادر»، والمدرسة المقصودة

بكلامه هي «جامع ومدرسة ابن شاهين» الملاصق لأبنية الروضة الحسينية، والذي تحول إلى مدرسة علمية ودينية مهمة. وأما الزاوية فهي «دار السيادة» التي اقامها السلطان المغولي محمود غازان خان وجعلها وقفا على الفقراء والمساكين.

وأدى تطور الحركة الفكرية والدينية إلى انتشار المدارس العلمية والدينية في كربلاء. لكن عددًا كبيرًا منها أزيل في فترات زمنية مختلفة نتيجة فتح شوارع جديدة خصوصًا في المنطقة المحيطة بالروضتين الحسينية والعباسية، وقسم منها تحول إلى الخراب نتيجة الاهمال. وكانت هناك مدارس شيدها الاهالي والسلطات العثمانية والايرانية وجاليات الهنود المسلمين، وأشهرها المدرسة الجعفرية (تأسست في ١٩١٤) والمدرسة الحسينية (١٩٠٩) والمدرسة الرشيدية (١٩١٠).

ومنذ تأسيس الدولة العراقية الحديثة (١٩٢١)، بدأت الحكومة بإنشاء مدارس رسمية أخذت على عاتقها تعليم أبناء مدينة كربلاء جنبًا إلى جنب مع المدارس الاسلامية الاهلية الأخرى.

أما أشهر المدارس العلمية الاسلامية في كربلاء فهي: مدرسة السردار حسن خان القزويني (شيّدها في ١٧٦٧)، ومدرسة السيد المجاهد التي شيدت في ١٨٥٤ وتقع بالقرب من مرقد السيد محمد المجاهد الطباطبائي، ومدرسة صدر الأعظم النوري (١٨٥٢)، والمدرسة الزينبية، لكنها هدمت في ١٩٤٨.

أما جامع ومرقد الإمام حسين، بجانب جامع ومرقد أخيه العباس، من أبرز معالم المدينة العمرانية.

وإضافة إلى دور كربلاء في تطوير الحركة العلمية والأدبية والفكرية، فقد ساهمت في النهضة الوطنية واستقلال العراق ١٩٢١ (عن رؤوف محمد علي الانصاري، «الحياة»، الأعداد ١١٢٩٩، ٢٢ كانون الثاني ١٩٩٤، ص١٨؛ و١١٧٩٥، ٨ حزيران ١٩٩٥، ص٢١؛ و١٢٣٩٦، ٤ شباط ١٩٩٧، ص٢١).

* **كركوك**: مدينة عراقية. تقع في الشمال عند أطراف كردستان العراق الجنوبية، بين الموصل وبغداد. تعد نحو ١،٥ مليون نسمة. يقطنها عرب وتركمان وأكراد وأشوريون. سوق تجاري مهم لمنتوجات كردستان العراق الزراعية (الحنطة والفواكه). صناعات متعددة، ومصفاة مهمة لتكرير النفط الذي تعتبر كركوك أهم منتج له في البلاد (اكتشف النفط فيها منذ ١٩٢٧)، ومنها تتفرع أنابيب لنقل النفط إلى تركيا وسورية (بانياس) ولبنان (طرابلس، أقفل العمل به في ١٩٨٢). وكانت عدة آبار نفطية في كركوك قد تعرضت للحريق إبان المعارك بين الجيش العراقي والمتمردين الأكراد في ١٩٩١.

اشتهرت المنطقة منذ العهدين البابلي والآشوري. دعاها الساسانيون «كرمكان»، والمصادر السريانية «بيت كرماي»، وعُرفت كذلك باسم «كرخا دبيت سلوخ». اصبحت في العهد الساساني مركزًا مسيحيًا نسطوريًا مهمًا. ضمها العباسيون إلى ممتلكاتهم في ١٢٣٢، واحتلها المغول، ثم الصفويون (القرن السادس عشر)، فالعثمانيون بعد معاهدة أماسيا. شهيرة بنيرانها الدائمة في باب كركر التي تحدث عنها هيرودوتس والتي لا تزال ملتهبة حتى اليوم. ويعيد العلماء سبب ذلك إلى غنى أرض هذه المنطقة بالنفط وقربه من سطح الارض.

* **الكوفة**: تعتبر إحدى أهم مدن العالم الاسلامي التي اختطها المسلمون منذ بداية الفتح الاسلامي للعراق. تقع على شاطىء الفرات مباشرة وتبعد عن مركز مدينة النجف الأشرف نحو ١٠كلم وعن بغداد نحو ١٧١ لجهة الجنوب الغربي. تعد نحو ٥٠ ألف نسمة.

عندما انطلق جيش سعد بن أبي وقاص محررًا مناطق العراق في معركتي القادسية والمدائن برزت ضرورة اتخاذ مركز لانطلاق الجيش. فاعتمد سعد على رائدي الجيش سليمان وحذيفة بن اليمان لاختيار الموقع المناسب لانشاء دار الهجرة هذه. فوقع اختيارهما على موضع مرتفع بين الحيرة والفرات وصف بأنه لسان بري يشتهر بنباتاته من الشيح والأقحوان والقيصوم والشقائق. وروعي في تخطيطها ان يكون مشابهًا لتخطيط مدينة البصرة. فأمر الخليفة بأن يكون المسجد الجامع في القلب وتكون دار الإمارة قريبة منه. بنيت بيوتها أولاً من قصب. وبعد احتراقها بعد سنة، أذن الخليفة عمر (٦٣٤-٦٤٤) في أن يُعاد بناؤها من حجر، على ألاّ «يزيدنّ أحد على ثلاثة أبيات، وألا يتطاولوا في البنيان» (ابن خلدون، المقدمة، ص٣٢٣). ولكن سرعان ما تنوسيت هذه البساطة الأولى التي كانت ترمي إلى بناء مجتمع دون طبقات. وكان في الكوفة قبل ذلك ثلاثة أديرة للمسيحيين هي: دير حرقة، دير أم عمرو ودير سلسلة. وفي أواخر ٦٣٨، بدأ يقوم تجمع هائل من ا لقبائل العربية حول مركز المدينة المتكون من المسجد الجامع ودار الامارة (شيدهما سعد بن ابي وقاص) والاسواق. وجاء قسم من هذه القبائل من مناطق

بعيدة، والقسم الآخر من المناطق المجاورة للكوفة.

علت مكانة المدينة عندما اتخذها الخليفة علي بن ابي طالب حاضرة للدولة العربية الاسلامية الفتية (٦٥٧)، وحافظت على أهميتها كمركز إداري لجزء كبير من العراق. وكان الوالي الأموي يقيم فيها، وظهرت فيها رغم ما تعرضت له المدينة من ويلات ونكبات كبقية مدن العراق، فإن الحياة فيها استمرت وساهمت في البناء الحضاري للمنطقة. واهتم بالكوفة الكثير من الحكام والولاة الذين حكموا العراق في فترات زمنية مختلفة. وتذكر المراجع التاريخية انه كان في الكوفة، في العقود الاولى من العهد الاسلامي، أكثر من ثلاثين مسجدًا. ولا تزال آثار مسجدها الجامع ودار إمارتها قائمة لحدّ الآن، أما دورها القديمة وبقية مرافقها العامة فقد غطتها أبنية المدينة الحديثة. ومن أبرز معالمها العمرانية: مسجد الكوفة الجامع، دار الامارة، مسجد السهلة الذي يبعد نحو ٢كلم عن المسجد الجامع ويعتبر ثاني أقدم المساجد في المدينة وتم تشييده في زمن الامام علي وكان يُسمّى «المسجد الظفر»، ومئذنة الكفل. والكفل بلدة على الطريق بين الحلة والكوفة عند الضفة اليسرى لنهر الهندية، وبها مدفن ذي الكفل ومزاره. وذو الكفل شخص ذكره القرآن الكريم في كلامه عن الأنبياء، وقد عينت الروايات الاسلامية قبورًا وأضرحة لذي الكفل في شتى البقاع الاسلامية في المشرق العربي، منها قبة في قرية كفل حارس في نابلس (فلسطين)، وقبر ذي كفل في بلدة الكفل في العراق، حيث كان اليهود يزورونه ويترددون عليه ويحملون إليه النذور. وفي الكفل (البلدة العراقية القريبة من الكوفة) منارة تروي لنا المصادر التاريخية ان السلطان المغولي أولغايتو محمد خدابنده أخذ هذا المكان من اليهود وأعطاه للمسلمين وبنى هناك مسجدًا مع منارة. فبدأ هناك نزاع بين المسلمين واليهود استمر إلى ايام السلطان عبد الحميد. في ١٩٣٩، بدأ المسؤولون العراقيون أعمال الترميم والصيانة لمئذنة الكفل التي تحمل خصائص المآذن العراقية.

* **المدائن:** سبع مدن أثرية عراقية، بين كل منها مسافة قريبة، تقع على الضفة الشرقية لنهر دجلة على بعد نحو ٤٠كلم إلى الجنوب الشرقي من بغداد. تعرف اليوم باسم «سلمان بك» نسبة إلى الصحابي سلمان الفارسي الذي دفن فيها وله ضريح يُزار، كما عرفت باسم أهم مدنها وهي طيسفون التي شيدها الفرثيون في منتصف القرن الثاني ق.م. بعد ان استولوا على العراق ١٤١ق.م. والتي استمرت فيها السكنى إلى فترة الحكم الساساني للعراق، الذي اتخذ منها مقرًا لحكمه. وفي ٥٤٠ استولى أنوشروان العادل على انطاكيا الشام وسلوقية نهر الكلب، وأجلى أهل سلوقية هذه إلى عاصمته طيسفون، فأنزلهم فيها في ربض جديد عرف بـ«رومية» أي المدينة الرومية اليونانية، وشيدت على غرار انطاكيا. وكان هذا الموقع باقيًا حين فتح المسلمون العرب العراق بعد ذلك بقرن واحد (أي في ٦٣٧) بقيادة سعد بن ابي وقاص الذي اتخذ المدائن مقرًا لجيوشه وأرسل منها حملات فرعية إلى مختلف المناطق العراقية. وبعد فتح العراق بالكامل، رأى سعد ان يتخذ موقعًا آخر، فاختار الكوفة لموقعها على مشارف الصحراء بحيث يبقي الاتصال ببلاد العرب المسلمين. وكانت المدائن في العصور الاسلامية بلدة صغيرة آهلة بالسكان ولها مسجد جامع، وبالقرب منه ضريح الصحابي سلمان الفارسي وعلى مقربة منه قبران للصحابيين حذيفة بن اليمان وعبدالله بن جابر الانصاري، وحوله بلدة صغيرة تسمى سلمان باك أي سلمان الطاهر.

أبرز معالم المدائن: جامع ومرقد سلمان الفارسي، وطاق المدائن (طاق كسرى).

يقع جامع ومرقد سلمان الفارسي بالقرب من نهر دجلة وطاق كسرى. والمرقد يعود إلى أبي عبدالله سلمان الفارسي الصحابي الجليل وهو من بلاد فارس (من رامهرمز، وقيل إنه من أصفهان من قرية يقال لها جي) أسلم عند قدوم النبي محمد المدينة المنورة. ويذكر المؤرخون ان سلمان صار واليًا على المدائن في العراق ٦٣٨ (في عهد الخليفة عمر).

أما طاق المدائن (طاق كسرى) فيعتبر أحد أهم القصور الكبيرة التي شيدها الملوك الساسانيون، وكان يعرف ايام العباسيين بـ«القصر الأبيض» أو «إيوان كسرى»، وورد ذكره في الكثير من المصادر التاريخية والجغرافية. ومما يُذكر بصدده ان الخليفة العباسي المنصور أمر بهدمه واستعمال آجره في بناء مدينة جديدة (بغداد). وحاول وزيره خالد البرمكي عبثًا إقناعه بالعدول عن هدمه. ولكن الخليفة عاد وعدل عن الاستمرار في الهدم عندما تبين له أن ذلك يكلف أكثر من صنع الآجر الجديد للبناء. في ١٨٨٥، زارته الرحالة المعروفة مدام دولافوا مع زوجها وصورته قبل ان يسقط جناحه الشمالي بعد ذلك بسنتين على أثر فيضان نهر دجلة. ويعتبر طاق المدائن اليوم معلمًا من المعالم الرئيسية المعمارية والسياحية في العراق، وهو من أشهر الأقواس وأكبرها وأعلاها في العالم القديم (يبلغ ارتفاع قوسه ٣١م).

جامع ومرقد سلمان الفارسي (المدائن).

طاق كسرى (المدائن).

* **الموصل**: الموصل، بلمحة سريعة، مدينة عراقية تقع على الضفة اليمنى من نهر دجلة على مقربة من مدينة نينوى الأثرية وعلى بعد نحو ٤٦٠ كلم من بغداد، وعلى ارتفاع ٢٠٥م عن سطح البحر، بين جبل سنجار ومحاصرة منطقة كردستان العراق. عاصمة محافظة نينوى، وتعد نحو ١،٧٥٠ مليون نسمة. فيها جامعة، ومتحف لآثار المنطقة. المركز التجاري الأساسي لمنطقة شمالي العراق (زراعات الحنطة، والقنب، وأشجار الفاكهة). صناعات غذائية ونسيجية (المركز الوطني لصناعة الأنسجة) وجلدية والإسمنت. وفيها مصفاة كبيرة ومهمة للنفط. تاريخيًا: خلفت نينوى القديمة وأصبحت مدينة مسيحية. فتحها العرب المسلمون في ٦٤١ وجعلوا منها المركز الرئيسي لمنطقة العراق الشمالية. في القرن العاشر، اصبحت عاصمة إمارة شبه مستقلة، ثم في نهاية القرن الحادي عشر أصبحت عاصمة دولة سلجوقية. دمّرها المغول في ١٢٦٢، ثم أخضعها الفرس، وبعدهم العثمانيون. حاصرها نادر شاه في ١٧٤٣. واحتلها البريطانيون في تشرين الثاني ١٩١٨ وضموها إلى العراق رغم اعتراضات تركيا (وقد ثبتت عصبة الأمم هذا الضم في ١٩٢٥). وأصابت الموصل أضرار كبيرة خلال حرب العراق-ايران ١٩٨٠-١٩٨٨، وخلال الأحداث التي أعقبت حرب الخليج الثانية.

المعروف أن الموصل هو الاسم الحديث لنينوى عاصمة الدولة الآشورية القديمة. منذ نحو عقد واحد (أي في اواخر الثمانينات) اكتشفت بعثة آثار تعمل في منطقة نينوى أقدم قرية زراعية آثارية في العالم، يعود تاريخها إلى ٩ آلاف سنة ق.م. وتقع القرية على بعد ٣٥كلم من الموصل. كما عثرت البعثة على مجموعة من الدمى الحيوانية الحجرية. وفي كانون الاول ١٩٨٨، عثر فريق من علماء الآثار الايطاليين على نموذج لمركبة آشورية يرجع تاريخها إلى أكثر من ٢٨٠٠ عام في مدينة الموصل. والنموذج مصنوع من البرونز يبلغ طوله ١٣٠سم وعرضه ٤٠سم ويرجع إلى عهد الملك شلمنصّر (٨٥٨-٨٢٤ق.م.).

حظيت الموصل باهتمام المؤرخين الذين دوّنوا عنها العديد من المصنفات والكتب التي تتناول تاريخها والدول التي تعاقبت على حكمها. فالمدينة موغلة في القدم تحيط بها مجموعة أطلال لأشهر المدن الأثرية في شمال العراق وهي آشور ونينوى ونمرود وخرسباد والحضر، وتعد من أهم مدن «الجزيرة» المحصورة بين نهري دجلة والفرات، وهي الاراضي المشتركة بين العراق وسورية. ومن أبرز مدنها الأخرى سنجار وأمد وحران والرقة ورأس العين وديار بكر.

ومما جعل للموصل أهمية بالغة (قبل العهد الاسلامي وأثناءه) موقعها الاستراتيجي على طريق القوافل التجارية بين الشام والعراق وهي الطريق الموازية لنهر دجلة. لذلك اتخذت الموصل منطلقًا للجيوش الاسلامية الزاحفة نحو الأناضول وأذربيجان والجزيرة منذ سقوطها بيد العرب المسلمين في عهد خلافة عمر.

ازدهرت الموصل في العهد الأموي وشيدت فيها مساجد لا تزال ماثلة إلى يومنا. وازداد الاهتمام بها في عهد مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين الذي أنشأ جسرًا وبنى قلعة فيها، واتسعت الموصل في عهده اتساعًا كبيرًا حتى أنه حاول اتخاذها عاصمة لخلافته.

وفي العصر العباسي الاول كانت الموصل تحت الحكم العباسي المباشر حتى ٩٠٠، إلا انها بعد هذا التاريخ وحتى انتهاء الخلافة العباسية بسقوط بغداد (١٢٥٨) على يد المغول، شهدت قيام كيانات سياسية من الحمدانيين والعقيليين وخضعت لنفوذ السلاجقة وولاتهم الأتابكة من بني زنكي. ومن أشهر حكامها في تلك الفترة بدر الدين لؤلؤ (١٢١٨-١٢٥٩).

وأوردت المصادر التاريخية تسميات عدة اشتهرت بها الموصل يجمع أغلبها على القول إن التسمية، «الموصل»، مشتقة من المكان الذي يوصل بين موضعين أو أكثر، فهي تصل بين العراق والشام والجزيرة وأذربيجان.

أما أبرز معالم الموصل الاسلامية التي لا تزال شاخصة إلى يومنا فهي: الجامع الأموي الذي يعرف اليوم باسم جامع المصفي نسبة إلى الحاج مصفي الذهب الذي جدده في ١٨٣٩، ولم يبق من معالمه القديمة سوى المئذنة. وجامع النوري نسبة إلى مؤسسه الملك الأتابكي نور الدين بن زنكي (١١٧٣). والجامع المجاهدي الذي يقع على شاطىء نهر دجلة، وينسب إلى مجاهد الدين قيماز (١١٨٠). وجامع النبي يونس الذي يقع في منطقة نينوى مقابل الموصل القديمة بجانب دير يونان بن أمتاي المعروف لدى المسلمين بالنبي يونس، وشيد على طبقات معمارية آشورية. وجامع النبي جرجس، وفيه قبره المشيد من المرمر ويقع وسط المدينة، ذكره الرحالة ابن جبير في القرن الثاني عشر. وسّعه وجدّده تيمورلنك بعد استيلائه على الموصل، ووُسّع مرة جديدة في ١٧٤١.

في التاريخ المعاصر ثمة مسألة متعلقة بالموصل ومصيرها بين العراق وتركيا بعد الحرب العالمية الاولى (راجع «مسألة الموصل» في باب معالم تاريخية)؛ كما ان

هناك نقاط تاريخية معاصرة بارزة عرفت بها المدينة:

– حركة قائد المنطقة الشمالية اللواء الركن أمين العمري في ١٩٣٧ المنادية بوحدة العراق وبكون الموصل جزءًا لا يتجزأ منه.

– وجود كثرة من أبناء الموصل في الجيش العراقي، خاصة منذ تسلم البعث السلطة في ١٩٦٨. لكن الأمر نفسه تقريبًا كان ملاحظًا قبل عقود من هذا التاريخ، ذلك ان وجود العسكريين الموصليين بكثرة ترافق مع تأسيس الدولة العراقية الحديثة، ومنذ التحاق الضباط العاملين في الجيش العثماني، ومعظمهم من الموصل، إلى أسرة جعفر العسكري للعمل مع الجيش العربي ضد العثمانيين إبان الحرب العالمية الأولى. أما بعد ١٤ تموز ١٩٥٨ فكان أكثر من ٩٠٪ من الضباط الذين احيلوا على التقاعد من الموصل.

– حركة عبد الوهاب الشواف في ١٩٥٩ (راجع «عبد الوهاب الشواف» في باب زعماء، رجال دولة وسياسة).

– الدور البارز للضباط الموصليين في حركة ١٤ شباط ١٩٦٣ الذي خطط لها ونفذها حزب البعث، ودورهم كذلك في الردة على هذه الحركة التي قادها عبد السلام عارف في ١٨ تشرين الثاني ١٩٦٣.

– اعتبار الموصل، من جانب أكثر الدارسين، بمثابة «قلعة القومية العربية» في العراق، مع إشارتهم دائمًا إلى تلك الحساسية العربية–الكردية في المنطقة. وهذه الحساسية تثار دائمًا مع كل حدث في المنطقة، كما إبان حوادث ربيع ١٩٩١ عندما أعلن قادة أكراد بأنهم ينوون الدخول إلى الموصل و«تحريرها». لكن ا لزعيم الكردي مسعود البرزاني صرّح في لندن، إبان هذه الحوادث، بأن الأكراد «استثنوا الموصل».

– كانت الموصل، ومسألتها التاريخية وبترولها، حاضرة دائمًا، إما مباشرة أو تلميحًا، في عدة تصريحات أطلقها الرئيس التركي سليمان ديميريل في سنوات الحصار الدولي على العراق إثر حرب الخليج الثانية.

* **النجف (النجف الأشرف)**: مدينة عراقية تقع إلى الجنوب الغربي من بغداد بنحو ١٦١كلم، وتعتبر إحدى أشهر المدن الحضارية الاسلامية. وذكر اللغويون في مادة «نجف» عن سبب تسمية هذه المدينة فوجدوا لها معاني كثيرة ويكاد ينعقد الاجماع على أنها سميت بهذا الاسم لأنها مرتفعة كالمسناة تمنع ماء السيل من أن يعلو منازل الكوفة ومعالمها الأثرية والعمرانية. ومما يؤيد ذلك هو انها تقع في مكان مرتفع بينما المناطق المحيطة بها منخفضة عنها.

ولا يكاد يُعرف عن تاريخ النجف القديم قبل الاسلام سوى انها كانت متنزهًا لملوك الحيرة اللخميين وان أديرة نصرانية (مسيحية) كانت قائمة في الموقع، وبقيت مزدهرة يقوم على شؤونها القسس والرهبان ويؤمها نصارى الكوفة وشعراؤها حتى بعد زوال الحيرة. وجاء في أشعارهم ذكر هذه الأديرة مثل دير ابن مزعوق ودير مار ماثيون ودير مارت مريم ودير حنا وديارات أخرى.

ومن الأسماء التي أطلقت على النجف إسم «المشهد»، لأن فيها مرقد الإمام علي بن ابي طالب. والمشهد هو اللفظ الصريح للجامع والمرقد. وكانت هذه الارض تعرف عند رجال الدين، يوم دفن الإمام علي فيها، بالذكوات البيض وهي ربوات ثلاث معروفة في النجف حتى اليوم، تسمّى إحداها «جبل الديك» وهي الواقعة في شمالي القبر، والثانية «جبل النور» وهي الواقعة إلى جنوبه الشرقي، أما الثالثة فتقع في الجنوب الغربي، وتسمى «جبل شريشفان».

وفي العصر الاسلامي أصبحت النجف ذات شأن كبير. فذكرتها كتب التاريخ بإفاضة بالغة وأسهب في وصفها البلغاء، وكتب عنها الكثير من أصحاب الحكمة والبيان، إذ كانت جامعة للعلم والفقه والأدب. ولا غرو ان تحتل مثل هذه المكانة والمنزلة وثراها يحتضن رفات الإمام علي بن ابي طالب.

ويروي المؤرخون ان داود بن علي العباس كان أول من اكتشف قبر الإمام علي وذلك قبل العام ٧٥٠، وكان الخليفة هارون الرشيد أول من شخص وأكد موقع المرقد في حدود ٧٨٦ عندما كان في نزهة صيد في أرض النجف. فتوقف عند الذكوات البيض، وأمر ببناء قبة من الطين الأحمر على قبر الإمام علي تقديرًا لمكانته في نفوس المسلمين. وهكذا اصبح قبر الإمام هذا نواة لنشوء مدينة النجف.

ويستدل من التاريخ على اهتمام العباسيين، في مستهل عهدهم، بضريح الإمام علي. وعندما اختلفوا مع العلويين صارت النجف مأوى المضطهدين منذ اواخر القرن الثالث الهجري. وبلغ الأمر بالعباسيين في آخر الأمر انهم حاولوا هدم الضريح في اواخر القرن المذكور.

وعندما تسلم البويهيون حكم بغداد في القرن الرابع الهجري أبدوا إهتمامهم بمرقد الإمام علي وأعادوا

جامع ومرقد الامام علي بن ابي طالب في النجف.

بناءه حتى صار مزارًا يؤمه الناس من دون خوف. وعلى أثر ما لحق بالكوفة من اضطهاد على ايدي العباسيين وخرابها على ايدي القرامطة، هاجر بعض القبائل إلى النجف، ثم كان ان هاجر إليها الشيخ الطوسي فنقل معه مركز الحركة العلمية التي كانت مزدهرة في بغداد.

وشهدت النجف في القرن السابع الهجري حركة هجرة واسعة أخرى بعد ان تعرضت الكوفة لغزوات قبيلة خفاجة المجاورة. فأصبحت في الربع الاول من القرن الثامن الهجري-كما يقول ابن بطوطة-«من أحسن مدن العراق وأكثرها ازدهارًا، وأتقنها بناء ولها أسواق حسنة نظيفة».

وعندما تسلم اسماعيل الصفوي مقاليد بغداد في اواخر القرن التاسع الهجري زار النجف وأصلح النهر الذي كان يرفدها فعرف بـ«نهر الشاه». وبعد انحسار نفوذ الصفويين وعودة العثمانيين إلى العراق حظيت النجف باهتمامهم وعناياتهم خصوصًا في عهد السلطان سليمان القانوني. وفي سنة ٩٨٤هـ (أواخر القرن السادس عشر الميلادي)، وبعد وفاة الشاه طهماسب الصفوي، آلت مدينة النجف إلى الخراب بسبب شحة المياه وإهمال نهر الشاه، إلى ان قام والي بغداد ابراهيم باشا (في اواخر القرن السابع عشر) بتطهيره.

أصبحت مدينة النجف مركزًا من مراكز العلم والأدب، وكانت لها مساهمتها في تأسيس الدولة العراقية العام ١٩٢١ وقيام الحركات الوطنية في ذلك العهد. إلا أنها مرّت خلال السنوات العشرين الأخيرة (أو ربع القرن الأخير) بـ«أسوأ مراحل تاريخها، إذ عطلت جامعتها الدينية ومدارسها، وحورب العلم والعلماء فيها، ودمرت أجزاء كثيرة من مبانيها التراثية» (كل ما ورد حتى الآن عن النجف عن رؤوف محمد علي الانصاري، مهندس معماري عراقي، «الحياة»، العدد ١١٦٢٢، تاريخ ١٣ كانون الاول ١٩٩٤، ص١٨).

إن أهم ما تميزت به النجف (مثلها مثل المدن الدينية الأخرى في العراق، كربلاء والكاظمية وسامراء) الدراسات الدينية ذات الطابع التقليدي في طريقة التدريس المسماة بنظام الحلقات، وهذه الطريقة كانت ولا تزال معتمدة في معظم الحوازات العلمية في المدن الاسلامية.

وكانت الدراسات تتخذ من بعض الجوامع والمساجد في النجف، كجامع الهندي ومسجد الترك وجامع الطوسي ومسجد الخضراء، وفي صحن وغرف وأروقة الروضة الحيدرية (جامع ومرقد الإمام علي)، أماكن لها. وكذلك في بيوت كبار العلماء التي غالبًا ما كانت

تضم قاعات وغرفًا كبيرة أعدت لهذا الغرض. وتخرج عن طريق هذه الدراسات الكثير من العلماء والفقهاء والمراجع ممن تخصصوا في الفقه والنحو والأدب وعلوم القرآن.

وأدى تطور الحركة الفكرية والدينية منذ القرن الثامن عشر، إضافة إلى توافد الكثير من الطلاب على مدينة النجف، إلى انتشار المدارس العلمية فيها حتى قاربت الاربعين مدرسة ومعهدًا. فاصبحت النجف بمثابة مدينة جامعية اسلامية كبيرة. وشيدت مدارس اسلامية أخرى من قبل بعض البلدان لجالياتها التي كانت توفدها إلى هذه المدينة لدراسة العلوم الدينية، كالمدرسة الهندية والمدرسة الأفغانية والمدارس اللبنانية ومدرسة الترك (البادكوبة) الأذربيجانية.

وأهم المقررات التي كانت تدرس فيها: علوم القرآن، والبلاغة، والحديث، والفقه المقارن، وعلم الكلام، وعلم الاجتماع، وعلم النفس، والأدب، والعروض، والتاريخ، والاقتصاد، واللغة الانكليزية، وبعض العلوم الطبيعية والرياضية كالفلك والهندسة والحساب، بالاضافة إلى أصول الفقه والعقائد واللغة العربية.

وقد قام الشيخ العالم المجدد محمد رضا المظفر بتأسيس «كلية منتدى النشر» في ١٩٥٧، وقد استمرت في عملها إلى أن قرّر الشيخ تأسيس «كلية الفقه» التي اعترفت بها وزارة المعارف العراقية بعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨.

أشهر مدارس النجف أربع:

– مدرسة المقداد السيوري (السليمية) المعتبرة إحدى أقدم مدارس النجف. بناها الشيخ جمال الدين ابي عبد الله المقداد السيوري الأسدي الحلي (من مدينة الحلة العراقية) المتوفي في ١٤٢٥. وقد أعاد بناءها سليم خان الشيرازي في ١٨٣٤، ونسبت إليه بعد ذلك وسميت بالمدرسة السليمية.

– مدرسة الشيخ عبدالله التي يعود بناؤها إلى القرن السابع عشر، وتنسب إلى الشيخ عبدالله وهو ابن شهاب الدين اليزدي، وكان من كبار العلماء آنذاك.

– المدرسة الغروية التي يعود بناؤها إلى عهد الشاه عباس الصفوي الاول. تهدمت، وأعاد بناؤها هاشم زيني في ١٩٣١، وجعلها دار ضيافة ومنزلاً للزوار.

– مدرسة الصحن الكبرى، وكانت جزءًا من صحن الروضة الحيدرية، شيدها الشاه صفي الدين حفيد الشاه عباس الصفوي في ١٦٣٣.

وتنتشر في أرجاء النجف الكثير من المدارس الأخرى العلمية الدينية القديمة والحديثة (المرجع المذكور، العدد ١٢٧٨٤، ٤ ىذار ١٩٩٨، ص٢١).

أما أبرز معالم النجف الأشرف على الاطلاق فهو جامع ومرقد الإمام علي.

يقع هذا المعلم في وسط النجف، ويمتاز بفخامته وطراز بنائه المعماري الاسلامي، ويضم رفاة الإمام علي بن ابي طالب الذي استشهد في ٦٦١. وكان أول من أمر بإقامة بناء على قبر علي هو الخليفة هارون الرشيد. وقد جُدد البناء في العهد المغولي (الايلخاني) وأصبح بالشكل الذي هو عليه الآن. وتم إكساء القبة والمئذنتين بالذهب سنة ١٧٤٣؛ وفي ١٧٨٨ صُنع للقبر صندوق مشبك بشكل فني وهندسي. ويشغل مبنى الجامع والمرقد ارضًا مربعة الشكل طول ضلعها ١١٠ أمتار وتتألف أبنيتها من الحضرة وصحن واسع وسور ضخم يضم عددًا من المساجد. وتحتل غرفة الضريح مركز الحضرة.

ومن المباني الدينية الأخرى البارزة في النجف: مسجد عمران، ومسجد الخضراء، ومسجد الراس، وإيوان العلماء، وتكية البكتاشية. وأما أبرز المعالم الأثرية: سور النجف القديم، وبحيرة النجف التي تستمد ماءها من نهر الفرات والواقعة عند حافة الهضبة الصحراوية في الجنوب الغربي للنجف، ومقبرة النجف المعروفة بـ«وادي السلام» والمعتبرة من أوسع المقابر في العالم. وتنتشر في النجف الكثير من المقامات، أهمها: مقام زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب، ومقام المهدي، ومرقد هود وصالح (المرجع المذكور، العدد ١١٦٢٢، ١٣ كانون الاول ١٩٩٤، ص١٨).

* نفر: راجع «نيبور» في هذا الباب.

* نمرود (كالح): تقع اطلال مدينة نمرود الآشورية في الجانب الشرقي من نهر دجلة على بعد ٣٤كلم إلى الجنوب الشرقي من الموصل. شيّدها الملك الأشوري شلمنصر الاول (١٢٨٠–١٢٦٠ق.م.)، وازدهرت في عصر آشور ناصر بال الثاني (٨٨٣–٨٥٩ق.م.) وابنه شلمنصر الثالث. وورد إسم هذه المدينة في الكتابات المسمارية والمدونات الأشورية باسم «كالح» أو «كالحو».

أبرز معالمها التاريخية: سور يحيط بها طوله ٨كلم ومدعم بابراج دفاعية، وفي الزاوية الجنوبية منه يوجد «تل نمرود» الذي عثر فيه، بعد التنقيب، على عدد من القصور والمعابد الأشورية. والبرج المدرّج، أي الزقورة التي يبلغ ارتفاعها ٣٤م. ومعبد عشتار، ومعبد نابو (إيزيدا)، إله

الحكمة والمعرفة والعلوم والفنون، وكبير الآلهة الآشورية. وقصر الملك أشور ناصر بال الثاني، وقصر الملك شلمنصر الثالث، وقصر الملكة سمورامات التي عُرفت عند الاغريق باسم سميراميس.

* نيبور (نوفار أو نفر): مدينة قديمة في المنطقة الواطئة من بلاد ما بين النهرين (جنوبي العراق). كانت المدينة المقدسة الأساسية لسومر (أواخر الألف الرابع-الألف الثالث ق.م.): أطلال معابد أنليل، إينانا، عشتار. من قبور هذه المدينة أخرجت عشرات آلاف الألواح المحفورة عليها كتابات بالخط المسماري: المصدر الأساسي للأدب السومري والبابلي (راجع «سومر» في هذا الباب).

* نينوى: تنتشر آثار هذه المدينة الآشورية القديمة في الضفة الشرقية من نهر دجلة قبالة الموصل. تتوسط مراكز الحضارات القديمة في بلاد الأناضول وأرمينيا والمراكز الحضارية في سواحل البحر الأبيض المتوسط. وكانت نينوى تحتل مكانة بارزة في مضمار الحضارة الانسانية وتقدمها باعتبارها من أعظم العواصم التي تطورت فيها المعارف والفنون. اتخذها الآشوريون مركزًا للحكم، وكانت منزلتها من حيث الأهمية بعد آشور، العاصمة الدينية لهم. وتؤكد التنقيبات في المدينة انها كانت مستوطنًا لكثير من الأقوام التي يرجع زمنها إلى ما قبل ٦ آلاف سنة ق.م.

وقد اشتقت هذه المدينة اسمها من إسم مدينة كانت تابعة إلى مملكة كلش في بلاد سومر، فعرفت نينوى باسمها هذا لأن تلك المدينة كانت موضعًا لعبادة الالهة «نينا» التي اصبحت تعرف في ما بعد بالإلهة عشتار.

اتخذ الآشوريون نينوى عاصمة لهم بدلاً من مدينة آشور (التي اعتبروها عاصمة دينية لهم)، ولكن سرجون الثاني تركها واتخذ بدلاً منها «دور شروكين» مركزًا لحكمه. غير أن أحفاده عادوا إليها، كما وعادت لها في عهد سنحاريب (٧٠٥-٦٨١ق.م.) عظمتها وعمارتها المتمثلة بأسوارها وقصورها وقلاعها. وكان أشور بانيبال (٦٦٩-٦٢٤ق.م.) آخر ملوكها الاقوياء، وشهدت المدينة في ظله أوج قوتها وحضارتها حتى سقوطها في ٦١٢ق.م. وأهم وأبرز معلم تركه هذا الملك هو «مكتبة أشور بانيبال». فهي من أجمل النفائس التي اكتشفتها الحفريات في المدينة، وهي تمثل مجامع من ألواح الطين التي دونت عليها بالخط المسماري مختلف فنون المعرفة، وهي تبحث في مجالات شتى تكوّن بمجموعها أعظم خزانة للوثائق المدونة في العالم القديم لشمولها وتعدد ابحاثها، حيث كانت تحوي على ما يربو ٣٠ ألف رقيم طيني نقلت جميعها إلى المتحف البريطاني عندما قام لفيف من الأجانب بأعمال الحفر والاكتشاف في موقع نينوى.

وكانت أعمال التنقيب الأولى في نينوى جرت في ١٨٢٠ في تل قوينجق من قبل الانكليزي كلوديس جيمس الذي عثر على صف من المنحوتات الآشورية البارزة. ثم قام القنصل الفرنسي بوتا في ١٨٤٢ بالحفر في المنطقة الشمالية من التل. وفي ١٨٤٥، بدأ هنري لايارد الحفر، وعاد إليه ثانية (١٨٦٥) وثالثة (١٨٧٨)... وفي ١٩٠٣، استمر الحفر والتنقيب بتوجيه وإدارة المتحف البريطاني هذه المرة. وبدأت بعثة بريطانية، ترأسها كامبل طومسون، تنقيباتها العلمية في ١٩٢٧ واستمر عملها حتى ١٩٣٣. وفي ١٩٤١، قامت مديرية الآثار العامة في بغداد بأعمال الحفر فاستظهرت باب نرجال وأجرت أعمال صيانته. واستأنفت أعمالها في ١٩٥٦. وفي ١٩٦٥-١٩٦٦، أجرت تنقيبات من جديد تركزت على بوابات سور المدينة وعلى صيانتها. وفي ١٩٦٨، قامت جامعة الموصل للمرة الأولى بأعمال التنقيب في جزء من سور نينوى، ثم أعمال الصيانة. وفي يوم ٢١ تشرين الاول ١٩٨٦، وعن طريق الصدفة، ظهرت بداية مقدمة صدر الثور المجنح بارتفاع حوالي ٢٠سم عن أرضية التل. وواصلت دائرة الآثار العمل لإخراج هذا الجسم الحجري الضخم ومعرفة حقيقته. وبعد أربعة ايام ظهر أنه ثور مجنح من حجر الحلان بطول ٤،٥م وارتفاع ٢،٨م وعرض ١،٢م، ويتألف من قطع مستطيلة ومربعة، وبذلك يختلف عن الثيران المجنحة التي ظهرت في المدن الآشورية الأخرى في العراق والتي تمّ نحتها قطعة واحدة ومن حجر المرمر، وسجلت في بعض اقسامها كتابات مسمارية.

تعتبر أسوار المدينة وقصورها (أهمها قصر سنحاريب وقصر اسرحدون وقصر آشور بانيبال) ومكتبتها، التي سبق ذكرها، أشهر وأبرز معالم نينوى التاريخية. ولا يزال الكثير من معالم هذه المدينة لم يكتشف بعد. والجدير ذكره ان التطور العمراني الذي تشهده الموصل المجاورة، وتشهده نينوى نفسها، في الوقت الحاضر، قد يؤدي إلى امتداد خطر العمران والسكنى والحركة على الاراضي الأثرية. وهذه الملاحظة تنسحب على أكثر المدن الأثرية.

وأخيرًا، كان لبلاد آشور، إلى نينوى، ثلاث

صليحة عاجية وجدت في نمرود (المتحف البريطاني، لندن).

سجناء حرب. إحدى اللقى في قصر آشور بانيبال في نينوى (متحف اللوفر، باريس).

عواصم أخرى هي: آشور، خورسباد ونمرود (راجع عنها في مواقعها من هذا الباب «مدن ومعالم»).

* **هيت:** مدينة في العراق. من مدن أعالي الفرات. تبعد عن بغداد ١٧٠كلم. مركز محافظة الأنبار. بالقرب منها ينابيع النفط الشهيرة، وعندها كانت القوافل تقطع الفرات في طريقها إلى حلب.

شهيرة بقلعتها التي نشأت لتكون حلقة وصل ومركزًا لاستراحة القوافل التجارية بين وسط العراق وحدوده الغربية، ومن القلعة امتدت الحاضرة التي أصبح إسمها «قلعة هيت». وأبرز معالم المدينة مئذنة «جامع الفاروق» نسبة إلى الخليفة عمر بن الخطاب الذي أرسل جيشًا لفتح هيت. أما المنارة (منارة فاروق، بارتفاع ٣٠م) فيقال إن تاريخها يعود إلى ما قبل الاسلام، إذ كانت فنارًا هاديًا لسفن الفرات. وتقع هذه المنارة في قلب القلعة من جهة النهر.

* **واسط (أطلال مدينة واسط):** ثالث المدن الاسلامية الرئيسية، بعد البصرة والكوفة، التي نشأت على يد الحجاج بن يوسف الثقفي، والي العراق في عهد عبدالله بن مروان الأموي (٧٠٣) والذي سماها «واسط» لتوسطها بين الكوفة والبصرة ولتكون مقرًا لجيشه وجيوش الخلافة الأموية التي انطلقت نحو الشرق حتى مشارف الصين. تقع على مسافة ٥٠كلم إلى الجنوب الشرقي من مدينة الكوت

واجهة باب قصر ألوي في واسط.

الحالية، وتبعد عن بغداد نحو ٢٢٠كلم إلى الجنوب الشرقي منها. وآخر شواخصها المهمة أعلنت عن اكتشافها إحدى بعثات التنقيب العراقية، وهي دار الامارة وثلاثة جوامع إضافة إلى جامع المدينة الذي سمي بجامع الحجاج الذي ألقى من منبره خطبته المشهورة في أهل الكوفة يحذرهم ويتوعدهم.

تنتشر أنقاض مدينة واسط في أرض مساحتها ٣كلم م.، وأهم بقاياها الشاخصة إلى الآن المساجد والقصر. وكان التنقيب في واسط بدأ في ١٩٣٦، واستمر في السنوات التالية. ومنذ ١٩٦٥ بدأت الصيانة الفعلية، وتواصل التنقيب والصيانة مع مطلع الثمانينات.

جاء في معجم البلدان لياقوت الحموي بأنه كان هناك قرية قبل واسط خرّبها الحجاج. الرحالة ابن بطوطة أشاد بمبانيها، وقال إن فيها مدرسة عظيمة حافلة فيها نحو ٣٠٠ خلوة (غرفة) ينزلها القادمون للتعلم. ونوه الرحالة حمدالله المستوفي، الذي عاصر ابن بطوطة، إلى ما حولها من بساتين النخيل والفواكه.

دخلتها جيوش تيمورلنك وعسكرت فيها وحولتها إلى خراب. وكان تغيير دجلة مجراه آخر فصل من فصول حياة هذه المدينة.

* **وركة:** راجع «أوروك» و«سومر» في هذا الباب.

زعماء، رجالة دولة وسياسة

* **أحمد حسن البكر (١٩١٤-١٩٨٠):** عسكري (مهيب) وسياسي ورئيس الجمهورية العراقية (من ١٧ تموز ١٩٦٨ إلى ١٧ تموز ١٩٧٩) ونائب الأمين العام لحزب البعث العربي الاشتراكي.

ولد في تكريت، وتخرج في دار المعلمين (١٩٣٢)، ودخل الكلية العسكرية العراقية (١٩٣٨). كان عضوًا في تنظيم الضباط الأحرار، وشارك في ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ التي أطاحت الملكية. قُدّم سريًا للمحاكمة أمام محكمة المهداوي بتهمة الاعداد لاسقاط الفريق عبد الكريم قاسم، فأُحيل على التقاعد ووُضع تحت المراقبة. تفرّغ للعمل السياسي السري، وأصبح قبل حركة ٨ شباط ١٩٦٣ عضوًا في القيادة القطرية لحزب البعث، ليصبح، على اثر هذه الحركة، رئيسًا للوزراء. لكن انقلاب ١٨

أحمد حسن البكر.

تشرين الثاني، الذي قاده المشير عبد السلام عارف، ابعده عن رئاسة الحكومة وأسند إليه منصب نائب رئيس الجمهورية، لكنه رفض هذا المنصب. وفي ليلة ٤-٥ ايلول ١٩٦٥، شنت السلطة حملة ضد البعثيين بتهمة الاعداد لقلب نظام الحكم، وأوقفت الآلاف منهم وكان البكر في مقدمتهم. بعد خروجه من السجن، رفض عرضًا للمشاركة في الحكم من قبل عبد الرحمن عارف الذي خلف أخاه في رئاسة الجمهورية. قاد التظاهرات التي شهدتها بغداد في أعقاب حرب ٥ حزيران ١٩٦٧. أشرف، بصفته أمين سر القيادة القطرية للبعث على التخطيط لـ«ثورة ١٧ تموز ١٩٦٨»، وقادها بنفسه، وانتخبه مجلس قيادتها رئيسًا للجمهورية. فسارع إلى إقصاء عبد الرزاق النايف من رئاسة الوزارة فتولى مهمة تشكيل الوزارة الجديدة والقيادة العامة للقوات المسلحة.

أولى البكر المسألة الكردية اهتمامًا كبيرًا، وأعلن في ١١ آذار ١٩٧٠ عن توصل مجلس قيادة الثورة إلى حل للمشكلة الكردية يتضمن إعطاء الحكم الذاتي للمنطقة الشمالية (المنطقة الكردية). لكن تنفيذ بيان آذار اصطدم ببعض العقبات الناجمة عن قيام مصطفى البرزاني (وقد نشرت في السنوات الأخيرة، خاصة في ١٩٩٦ و١٩٩٧، دراسات ووثائق تثبت ان البرزاني كان على صلة بجهاز المخابرات الاسرائيلي) بتقديم مطالب تعجيزية واعلان التمرد المسلح عام ١٩٧٢. وقد طبق الرئيس البكر العمل العسكري والعمل السياسي ضد التمرد بشكل متناسق فصمد العراق عسكريًا في وجه التمرد والقوى الخارجية التي وقفت إلى جانبه، واستطاعت الدبلوماسية العراقية عقد مصالحة عراقية ايرانية في آذار ١٩٧٥ أدّت إلى قطع الامدادات الايرانية الحيوية عن العصاة الأكراد وأحدثت انهيارًا مفاجئًا في صفوفهم انتهى إلى استسلامهم وفرار البرزاني إلى ايران.

وعلى صعيد رص الصف الداخلي، أعلن البكر ميثاق عمل وطني لتحقيق ائتلاف القوى والعناصر الوطنية والقومية والتقدمية في ١٥ تشرين الثاني ١٩٧١، وأدّى ذلك إلى تشكيل جبهة وطنية في ٢٢ تموز ١٩٧٣ ضمت حزب البعث والحزب الشيوعي العراقي والفئات الديمقراطية الكردية والقوميين المستقلين. وفي أول حزيران ١٩٧٢، أعلن البكر تأميم النفط بعد مفاوضات مع شركات النفط. وقد نتج عن ذلك، وعن مجمل السياسة الاقتصادية، قفزات كبيرة في مستوى الدخل الفردي.

على الصعيد العربي، زار الرئيس البكر ليبيا والجزائر (حزيران ١٩٧٠)، وحضر اجتماعات رؤساء دول المواجهة في طرابلس وأجرى محادثات سياسية مع الرئيس الجزائري. وعندما اندلعت حرب تشرين ١٩٧٣، تصدر البكر جهود العراق لارسال قوات رئيسية من الجيش العراقي للمشاركة في القتال بأقصى سرعة وفي ظل ظروف عسكرية صعبة، وعلى الرغم من معارضة العراق للخط السياسي للدول العربية المعنية ومعارضته للتسويات المطروحة بموجب قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ الصادر عام ١٩٦٧، أعلن في خطاب رئيسي ألقاه في ١٧ تموز ١٩٧٥ استعداد العراق لارسال كل الجيش إلى جبهة القتال مع اسرائيل ودعا إلى التوجه نحو المعركة كشرط لقيام الجبهة الشمالية الشرقية.

على اثر اتفاقيات كامب دافيد بادر حزب البعث في العراق إلى الدعوة لمؤتمر قمة عربي وإلى تقارب سوري عراقي وحدوي بهدف الحفاظ على تماسك الصف العربي ومعارضة التسويات الاستسلامية، وقد ترأس البكر مؤتمر قمة بغداد (تشرين الثاني ١٩٧٨) وساهم بشكل بارز في إنجاحه كما عرف عنه حماسه للوحدة مع سورية، ووقع ميثاق العمل القومي الوحدوي (٢٦ تشرين الاول ١٩٧٨).

أما على الصعيد الخارجي، فقد ساند العراق في عهد الرئيس البكر، حركات التحرر في العالم الثالث، وانفتح على شعوب افريقيا وآسيا، وعقد معاهدة صداقة وتعاون مع الاتحاد السوفياتي (نيسان ١٩٧٢)، وصمد في وجه اعتداءات ايران مدة طويلة مما ساهم في اقناع ايران بالعدول عن سياستها هذه والتوصل إلى اتفاقية الجزائر عام ١٩٧٥، كما زار بلغاريا وبولندا في حزيران ١٩٧٣ (عن «موسوعة السياسة» المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ج١، ط١، ١٩٧٩، ص٩٢-٩٣).

كتابات صحافية كثيرة ظهرت في السنوات الأخيرة، بعضها يقول إنه يستند إلى مصادر سياسية وحزبية عراقية، وبعضها الآخر يقول إنه يستند إلى وثائق، خاصة إلى الوثائق البريطانية، تتحدث عن إنشقاق حزب البعث في العراق إلى جناح اليسار وجناح اليمين، وعن أن أحمد حسن البكر كان يمثل اليمين.

*** باسل رؤوف الكبيسي (١٩٣٤-١٩٧٣):**
سياسي وناشط قومي عربي من العراق. ولد في بغداد. درس في الجامعة الاميركية في بيروت وكان من اوائل المنتسبين، وهو على مقاعدها، لحركة القوميين العرب.

حصل على شهادة البكالوريوس في العلوم السياسية وعين في وزارة الخارجية العراقية. بعدها، التحق بالجبهة الشعبية لتحرير فلسطين عند تأسيسها في العام ١٩٦٧، ثم كتب أطروحة الدكتوراه عن حركة القوميين العرب. نشط في اوروبا في مجال تأييد المقاومة الفلسطينية. اغتالته المخابرات الاسرائيلية في نيسان ١٩٧٣.

* **برزان ابراهيم التكريتي (١٩٥٢-)**: رجل أمن وسياسي ودبلوماسي عراقي. الأخ غير الشقيق للرئيس العراقي الحالي صدام حسين. بدأ حياته الحزبية والسياسية باكرًا، إذ أشركه أخوه صدام معه في بعض العمليات الأمنية بعد أيام من حركة ١٧ تموز ١٩٦٨ البعثية، خاصة في اعتقال رئيس الوزراء عبد الرزاق النايف. وبعد سنوات قليلة، تسلم برزان مديرية المخابرات العامة حتى اواسط الثمانينات، حيث انتقل إلى القصر الجمهوري مستشارًا للرئيس، وبعدها أصبح مندوبًا دائمًا في جنيف وممثلاً للعراق في لجنة حقوق الانسان. وفي جنيف، تكلمت الصحافة عن دور له في ترتيب مفاوضات بين الأكراد وبين أخيه الرئيس صدام (نيسان ١٩٩١)، وعن اتصالات أجراها الاميركيون معه خلال ١٩٩٣-١٩٩٤، وبعدهم الفرنسيون ثم الايرانيون.

عرفت عنه قسوته البالغة وهو يشغل منصب مدير المخابرات، ونهجه الداعم سياسة أخيه الرئيس إلى آخر حدود الدعم.

* **بكر صدقي (١٨٨٥-١٩٣٧)**: عسكري وسياسي عراقي. تعلّم في بغداد والتحق بمدرسة أركان الحرب في اسطنبول وشارك مع الجيش العثماني في الحرب العالمية الاولى، والتحق بالجيش العربي في سورية بعد الحرب، ثم بالجيش العراقي برتبة رئيس في ١٩٢١. تابع دراسته العسكرية في المعاهد العسكرية البريطانية في الهند وانكلترا، وتوصل إلى رتبة فريق. تولى إخماد أكثر من عصيان مسلح في العراق فلمع إسمه وصادقه الملك غازي الذي كان قد أخذ يتململ من «وصاية» ياسين الهاشمي عليه، وهذا ما شجع بكر صدقي على الاقدام على أول انقلاب عسكري عربي في التاريخ المعاصر، وكان ذلك في ٢٩ تشرين الاول ١٩٣٦ عندما ألقت طائرات حربية عراقية بمنشورات تطالب، باسم الجيش وتوقيع بكر صدقي قائد القوة الوطنية الاصلاحية، بإقالة الحكومة وتعيين حكمت سليمان رئيسًا لها مهددة بالزحف على بغداد إذا لم ينفذ المطلب. وعندما حاول جعفر العسكري إقناع بكر صدقي بالعدول عن حركته قتله بعض الجند، فاستقال ياسين الهاشمي وغادر البلاد وآلت المقاليد إلى بكر صدقي الذي بادر إلى حل مجلس النواب وتشكيل مجلس موال له. ووقعت في عهده أكثر من حركة عصيان قمعها بكر بشدة مما حمل بعض الوزراء على الاستقالة. قبل دعوة من تركيا لزيارتها وكذلك دعوة من المانيا، ولكن أحد الجنود الأكراد من الموصل (عبدالله ابراهيم) اغتاله في ١١ آب ١٩٣٧.

يقول عبد الرزاق حسني في كتابه «تاريخ الوزارات العراقية» إن الفريق بكر صدقي كان «رجلاً طموحًا مؤمنًا بقوته الشخصية وبقدرته العسكرية. نظر إلى الجارتين تركيا وايران فوجد في الأولى ضابطًا لم يكن أرفع درجة منه خلق من تركيا المتفسخة دولة لها عزها وبأسها. ورأى في الثانية رجلاً لم يكن من أصحاب الماضي المعروف وقد خلق مملكة من العدم إلى الوجود (...) فحدثه طموحه ان يحذو حذو كمال أتاتورك ورضا بهلوي، فأقدم على حركة لم يفكر بعواقبها، و لم ينظر إلى اختلاف العراق عن جارتيه، تركيا وايران، اختلافًا كبيرًا».

* **جعفر أبو التمن (١٨٨١-١٩٤٥)**: سياسي عراقي. ولد في بغداد. سعى مع نخبة من الشباب إلى تأسيس مدرسة لتعليم الأميين القراءة والكتابة والحساب، وتعليم المتعلمين اللغات الاجنبية. وكان إسم المدرسة «مكتب الترقي الجعفري العثماني»، وأطلق عليها إسم «المدرسة الجعفرية».

عند سقوط بغداد في أيدي الانكليز (آذار ١٩١٧)، اشترك في عضوية المجالس التي أسستها السلطات الانكليزية، ثم استقال منها عندما تبين له أن غرضها الأساسي صرف الشعب عن هدفه في الاستقلال. قام بدور مهم في «جمعية حرس الاستقلال»، وهي منظمة سرية أسسها الوطنيون في شباط ١٩١٧ للمطالبة باستقلال العراق، وكان حلقة الوصل بين الحركة الوطنية في بغداد والفرات الاوسط حيث نشبت الثورة في ١٩٢٠. فسارع إلى الانضمام إليها والمساهمة في قيادتها حتى انتهائها. حاولت السلطات البريطانية القبض عليه مع زعماء الثورة، فهرب إلى الحجاز وحلّ ضيفًا على الشريف حسين بن علي.

جهد أبو التمن في تأسيس أول حزب سياسي في العراق، وهو الحزب الوطني العراقي، وعارض المعاهدة

العراقيــة-البريطانيــة المعقــودة في ١٩٢٢. أعطــي وزارة التجارة في حكومة النقيب الثانية لكسـب تـأييده للمعـاهدة ولسياسة الملك فيصل إزاء الانكليز مـن جهـة والحركـة الوطنية من جهة ثانية، لكنه استقال منها. ألقي القبض عليه وعلى مجموعة من رفاقه في الحزب الوطـني العراقـي، ونفـوا جميعًا إلى جزيرة هنجام القاحلة في الخليـج. ولما عاد، بعد عشرة أشهر، عارض انتخابات المجلس التأسيسي لعلمه بأنها لـن تكـون حـرة. عـارض وزارة نـوري السـعيد الاولى والمعاهدة العراقيـة-البريطانية لعـام ١٩٣٠؛ فجـرّه هـذا الموقف إلى التنسيق مع حزب الإخاء الوطني بزعامة ياسين الهاشمي. إلا ان هذا التحـالف لم يلبث ان انفـرط عقـده في ١٩٣٣، عندما ألف أحد أقطاب حزب الإخاء، رشيد عالي الكيلاني، وزارته الاولى، متعهـدًا بالحفـاظ علـى المعـاهدة العراقيـة-البريطانية. وفي نيسـان ١٩٣٤، اختفـى حـزب الاتحاد الوطني العراقي عن المسرح السياسي لخلافات قادته. فانضم جعفر أبو التمن إلى جماعة الأهالي وأصبح قائدًا لهـا، وساهم بشكل فعال في الاجتماعات العشائرية التي أدت إلى سقوط وزارات جميل المدفعي الثلاث، ووزارة علي جودت الأيوبي، ثم اشترك بشكل فعـال في انقـلاب ١٩٣٦ الـذي أدّى إلى إسقاط وزارة حكمت سليمان التي تقلد فيهـا أبـو التمـن وزارة المالية. ولكـن بـروز الخلافات بـين الجنـاح العسكري المتمثـل في جماعـة بكـر صدقـي والجنـاح المدنـي المتمثل في جماعة الأهـالي، دفعـت جعفـر إلى الاستقالة مـن الوزارة واعتزال العمل السياسي والانصراف إلى النشـاطات التجارية في بعض المشـاريع الصناعيـة، فكـان رئيسًـا لغرفـة تجارة بغـداد ثـم عضـوًا فيهـا حتـى وفاتـه («موسـوعة السياسة»، ج٢، ص٦٧).

* **جعفر العسكري** (١٨٨٥-١٩٣٦): عسكري وسياسي عراقـي. ولـد في بغـداد، وتلقـى تعليمـه في بغـداد والموصل. تخرج في المدرسة الحربية في اسطنبول (١٩٠٤)، وعين في الجيش التركي، واختير عضوًا في بعثة عسكرية إلى ألمانيا (١٩١٠-١٩١٢)، وعـين بعـد ذلـك مدرسًـا في مدرسة الضباط في حلب. اشترك في حرب البلقان ثم أوفـد

جعفر العسكري يتوسط علي جودت الايوبي (يسار الصورة) ونوري السعيد.

إلى بنغازي (١٩١٥) لحمل السنوسيين على مهاجمة حدود مصر الغربية لمشاغلة الجيش البريطاني، ووقع اسيرًا في يد الانكليز في مرسى مطروح (١٩١٦). وبعد قيام الحركة العربية ضد الاتراك في الحجاز أفرج عنه، والتحق بالملك فيصل في العقبة، فعين قائدًا للقوات النظامية في الجيش الشمالي. وبعد الحرب تولى منصب الحاكم العسكري على عمان ثم ولاية حلب (١٩١٩) ومنصب كبير أمناء الملك فيصل الاول عندما بويع ملكًا على سورية. خرج مع فيصل بعد دخول الفرنسيين دمشق، وعاد إلى بغداد وتولى وزارة الدفاع في وزارة النقيب الاولى التي شكلت إثر مبايعة فيصل الاول في العراق عام ١٩٢١. تولى رئاسة الوزارة في ١٩٢٤، وفي ايامه وضع الدستور العراقي وعقدت المعاهدة البريطانية-العراقية الاولى. عين ممثلاً سياسيًا للعراق في لندن (١٩٢٥)، فرئيسًا للوزارة مرة ثانية في ١٩٢٦. وفي ١٩٣٠، عين وزيرًا للخارجية والدفاع. وأصبح رئيسًا لمجلس النواب، وفي ١٩٣٤، عين عضوًا في مجلس الاعيان ووزيرًا للدفاع (١٩٣٥). وعندما قام بكر صدقي بانقلابه، حاول العسكري إقناعه بالعدول عنه، فقتله بعض أنصار الانقلاب («موسوعة السياسة»، ج٢، ص٦٨).

*** جميل المدفعي** (١٨٩٠-١٩٥٨): عسكري وسياسي عراقي. درس الهندسة في اسطنبول. التحق بالجيش العثماني، وانضم إلى جمعية العهد العربية العسكرية السرية، والتحق بالجيش الشريفي (الثورة العربية الكبرى التي قادها الشريف حسين). عندما وصل الامير فيصل بن الحسين إلى دمشق (١٩١٨)، عمل المدفعي مستشارًا عسكريًا له. وعلى اثر معركة ميسلون، وسقوط الحكم العربي في سورية (١٩٢٠)، عاد إلى العراق، وشارك في الثورات الوطنية ضد الحكم البريطاني. لجأ إلى شرقي الاردن، وعاد ثانية إلى العراق في ١٩٢٣ بعد ان والى الانكليز. فعين حاكمًا اداريًا وأصبح في عداد الذين تولوا المناصب العليا إبان الحكم الهاشمي. أصبح وزيرًا للداخلية ١٩٣٠-١٩٣٣، ثم رئيسًا للوزراء ١٩٣٣-١٩٣٥ و١٩٣٧-١٩٣٨، و١٩٤١، و١٩٥٣. اضطر إلى الفرار للاردن مع الوصي على العرش عبد الإله ونوري السعيد بعد نشوب ثورة ١٩٤١، ثم عاد معهما. عين رئيسًا لمجلس الاعيان في ١٩٤٤-١٩٤٥، وفي ١٩٤٨ وزيرًا للداخلية، ثم رئيسًا لمجلس الأعيان مرة ثانية ١٩٥٥-١٩٥٨ إلى ان لاقى حتفه في ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨.

*** حكمت سليمان** (١٨٨٩-١٩٦٤): سياسي عراقي. ولد في بغداد. درس الحقوق في اسطنبول، لكنه ما لبث ان انصرف إلى الجندية، فدخل مدرسة المشاة وتخرّج ضابطًا احتياطيًا في ١٩١١. بعد ذلك، عين قائمقامًا لمركز بغداد ثم مديرًا لمدرسة الحقوق ومديرًا لمعارف بغداد، قبل ان يُستدعى للخدمة كضابط احتياطي في الجيش التركي ويرسل إلى المانيا التي بقي فيها إلى ما بعد الهدنة. وهناك تكونت عنده ملامح إعجابه الفائق بالالمان. في ١٩٢٠، عاد إلى بغداد، وبدأ يشغل مناصب عدة في الدولة وصولاً إلى تعيينه وزيرًا للمعارف ثم وزيرًا للداخلية (١٩٢٥)، وتقلب، حتى ١٩٣٠، في مناصب منها رئاسة مجلس النواب ووزارة العدلية والنيابة. وفي ١٩٣٠، أسس مع ياسين الهاشمي حزب الإخاء الوطني، وشارك كوزير للداخلية في أول حكومتين شكلهما رشيد عالي الكيلاني الذي كان يشاطره ميوله الالمانية التي ستقوده عند بدايات سنوات الاربعين إلى محاولته الانقلابية الشهيرة (ثورة ١٩٤١) ضد الانكليز.

في ١٩٣٣، ترك حكمت سليمان الحكم، ثم اصدر في ١٩٣٥ عددًا واحدًا ويتيمًا من جريدة «البيان» وتحول إلى المعارضة الحادة ضد ياسين الهاشمي ورشيد عالي الكيلاني، وهذا ما جعل الفريق بكر صدقي يكلفه، إثر انقلابه الشهير، بتشكيل حكومة تخلف حكومة الهاشمي، وشكل تلك الحكومة في اواخر ١٩٣٧. وتخلى حكمت سليمان عن الحكم بعد اغتيال بكر صدقي في الموصل، لكنه استمر يتعاطى السياسة التي كان دائمًا لاعبًا أساسيًا فيها ويتقلب بين اتجاهاتها إلى درجة انه في الوقت الذي كان يتهم فيه بـ«الشيوعية» بسبب تعاونه مع جماعة «الأهالي» ومع جعفر أبو التمن، كان يخطط لأن يتعاون بعد التخلص من الجماعة، مع كل من نوري السعيد وجعفر العسكري المعوّلين على ديمومة العلاقة مع بريطانيا. ويقول محمود شبيب في كتابه «صفحات مطوية من تاريخ العراق» إن حكمت سليمان قد تنكر بعد وصوله إلى الحكم حتى للبرامج الإصلاحية التي طرحها في جريدة «البيان»، مما يعني في نظر شبيب ان علاقة سليمان مع الأهالي وجعفر أبو التمن إنما كانت وسيلته للوصول إلى السلطة لا أكثر. وفي آذار ١٩٣٩، اتهم حكمت سليمان مع آخرين بالتآمر على الحكم وحكم عليه بالاعدام ثم خفف الحكم إلى السجن خمس سنوات أمضى إثنتين منها في السليمانية ثم أفرج عنه في ربيع ١٩٤١ وسافر إلى ايران ليعود منها منصرفًا إلى شؤونه الخاصة وإلى الكتابة وترجمة مؤلفات والده التاريخية حتى رحيله.

على الرغم من ان حكمت سليمان كان من أصل تركي، ويكاد يتقن التركية أكثر من اتقانه العربية، وعلى رغم اعجابه الشديد بتجربة مصطفى كمال في تركيا واعلانه انه لن يكون شأن للعراقيين إن هم لم يتبعوا مثال العلماني التركي الأكبر، فإن غرترود بل البريطانية التي كان لها شأن كبير في مرحلة من مراحل السياسة العراقية تقول في رسالة كتبتها اوائل ١٩٢١ إن حكمت سليمان كان أكبر المعارضين حين طرحت فكرة استقدام أمير عثماني ليرأس دولة العراق التي كانت تتكون في ذلك الحين تحت إشراف بريطانيا. عارض سليمان الفكرة وقال إن الاتراك لا يستطيعون حكم أنفسهم فكيف تريدون أحدهم أن يحكمنا!؟.

وينقل مير بصري عن كامل الجادرجي تحليله لشخصية حكمت سليمان على النحو التالي: «إنه نشأ في بيئتين مختلفتين فأبوه كولمندي تركي الثقافة ثائر بطبيعته ناقم على استبداد السلطان عبد الحميد وقد توفي وحكمت صغير السن. لكنه نشأ في أسرة تتكلم اللغة التركية وتتخلق بالاخلاق التركية، ثم كبر في ظل أخيه محمود شوكت باشا بطل الحرية. ومن ناحية ثانية كثر اختلاط حكمت منذ عهد طفولته بزرّاع أراضي أبيه وبساتينه من الفلاحين العرب حتى صار يتكلم العربية بلهجة ريفية (...) وأشار الجادرجي-ودائمًا حسب رواية مير بصري-إلى اعجاب حكمت سليمان بالجندية الالمانية والدبلوماسية الانكليزية فصار يقدّس الالمان ويخشى الانكليز» (عن ابراهيم العريس عن مير بصري «الحياة»، العدد ١٢٨٧٧، تاريخ ٦ حزيران ١٩٩٨، ص١٨).

* **حميد مجيد موسى**: راجع «الحزب الشيوعي العراقي» في باب الاحزاب.

* **رشيد عالي الكيلاني (١٨٩٣-١٩٦٥)**: سياسي عراقي. ولد في عائلة بغدادية ذات مكانة مرموقة. درس الحقوق ودرّس القانون. عين عضوًا في محكمة التمييز، فوزيرًا للعمل (١٩٢٤)، ولكنه سرعان ما استقال احتجاجًا على اتفاقية البترول المبرمة مع بريطانيا على أساس انها مجحفة بحق العراق. في ١٩٣٣، تولى رئاسة الوزارة، فعمد الانكليز إلى إثارة الفتنة الطائفية في شمالي البلاد كان الأشوريون ضحيتها، وقمعها الكيلاني بعنف. وزير الداخلية في حكومة ياسين الهاشمي (١٩٣٥)، ثم رئيس الديوان الملكي في عهد الملك غازي.

رشيد عالي الكيلاني.

بعد اعلان الحرب العالمية الثانية، رأى الوصي على العرش عبد الإله ان يساير الرأي العام العراقي الذي استنكر الغموض والدسائس البريطانية المحيطة بمقتل الملك غازي، والذي كان يرى في نوري السعيد صنيعة للانكليز، فطلب إلى رشيد عالي الكيلاني، رئيس الديوان العالي، ان يرئس حكومة اقطاب تضم كبار السياسيين العراقيين. وتم تأليف الوزارة في آذار ١٩٤٠، إلا انها سرعان ما اصطدمت بالانكليز نتيجة محاولة هؤلاء فرض الارادة البريطانية على الشعب العراقي. فقد طلب الانكليز من رشيد عالي قطع العلاقات مع ايطاليا أسوة بسلفه نوري السعيد الذي قطع العلاقات مع المانيا، إلا ان رشيد عالي رفض طلبهم على اعتبار ان المعاهدة العراقية-البريطانية لا تحتّم ذلك، وانه يتوجب تزويد العراق بالسلاح أو بالمال اللازم لشراء السلاح وإصدار بيان مشترك مع فرنسا يعلن التعاطف مع أماني العرب القومية في سورية وفلسطين. إلا ان بريطانيا رفضت طلبات العراق وعمدت فورًا بالتعاون مع الوصي عبد الإله على إسقاط وزارة الكيلاني عن طريق دعوة الوزراء إلى الانسحاب من الحكومة، فيضطر رئيس الوزراء إلى الاستقالة بدوره. وبالفعل، اقدم الوزراء، وفي طليعتهم نوري السعيد وزير الخارجية، على الاستقالة. وكاد رشيد عالي ان يضطر إلى تقديم استقالته لولا تدخل التنظيم القومي العربي في الجيش العراقي بقيادة العقداء الاربعة (صلاح الدين صباغ، محمود سلمان، كامل شبيب وفهمي سعيد) وإبلاغهم إياه بأن الجيش يؤيده، وان عليه ان يختار وزراء جددًا بدلا من المستقيلين. وقد فعل الكيلاني ذلك

وأعدّ مرسومًا بحل مجلس النواب ايضًا. إلا ان الوصي عبد الإله لم يوقع على المراسيم، بل لجأ إلى الديوانية، فما كان من الكيلاني إلا ان قدم استقالته، فقام الوصي بتعيين طه الهاشمي رئيسًا للوزراء ليعمل على إقصاء العقداء الاربعة عن مناصبهم. وعندما حاول الهاشمي ان يفعل ذلك، تضامن الضباط مع زملائهم وحاصروا منزله وأجبروه على الاستقالة، وأحاطت قوات الجيش بالقصر، إلا أن الوصي استطاع الفرار بسيارة المفوض الاميركي إلى القاعدة البريطانية في الحبّانية، ثم إلى البصرة بطائرة تابعة لسلاح الجو البريطاني وحاول التحريض ضد الحكومة الوطنية في بغداد، ولم يتجاوب معه سوى صالح جبر، متصرف البصرة. فأصدر قادة الجيش أمرًا لحامية البصرة بالقبض عليه، ففر الوصي إلى القدس. وقد سيطر الجيش على المرافق العامة في البلاد. ولدى اجتماع المجلس النيابي في ١٠ نيسان ١٩٤١، أعلن تنصيب الشريف شرف وصيًا على عرش العراق بدلاً من عبد الإله. وألفت بعد يومين حكومة «الدفاع الوطني» برئاسة رشيد عالي الكيلاني (وكانت حكومته الرابعة) وعضوية ناجي شوكت، ناجي السويدي، علي محمود الشيخ علي، محمد علي محمود، رؤوف البحراني، يونس السبعاوي، د.محمد حسن سلمان وموسى الشابندر.

كانت هذه التطورات موضع معارضة بريطانيا. فأخذت تماطل في الاعتراف بالانقلاب وتعد العدة للقضاء عسكريًا على الحكم الوطني الجديد، وذلك بواسطة الفيلق العربي بقيادة غلوب في الاردن وقواعدها العسكرية في العراق وقوات انزال في البصرة. ثم بدأت تلك القوات بالتحرك شمالاً في الوقت الذي راحت فيه أجهزة دعايتهم في طول اوروبا وعرضها تقدم حركة رشيد عالي الكيلاني على انها حركة مرتبطة بالمانيا النازية، على رغم ان الكيلاني نفسه صرّح غير مرة بأنه سوف يحترم بنود المعاهدة المعقودة مع بريطانيافي ١٩٣٠.

وفي ٢ أيار ١٩٤١، أعلنت بريطانيا الحرب على العراق، وفتحت النار من قاعدة الحبانية وأنزلت قوات كبيرة في البصرة وتحركت القوات في الاردن نحو الرطبة والرمادي فبغداد. وأبدى الشعب العراقي حماسًا كبيرًا في الدفاع عن الحكم الوطني، وسانده فلسطينيون كانوا قد تجمعوا في بغداد بعد الثورة الفلسطينية الكبرى، كما تشكلت لجان شعبية في سورية للدفاع عن ثورة العراق. وكانت القاعدة العسكرية البريطانية في الحبانية على مسافة أقل من ساعتين بالسيارة عن بغداد، في حين لم يكن الجيش العراقي يملك سوى بضعة أسلحة عتيقة.

استمرت الحرب حتى ٢٩ ايار (١٩٤١)، حيث انتهت بانتصار الانكليز، وبتوقيع هدنة في ٣٠ ايار (١٩٤١). وعادت الامور واستتبت للانكليز وللوصي عبد الإله ولنوري السعيد، وتشكلت حكومة موالية لهم وأعلنت، في ٢ حزيران (١٩٤١) الاحكام العرفية وحاكمت القادة الوطنين وأصدرت عليهم احكامًا غيابية بالاعدام. وقد تمكنت السلطات البريطانية من استلام الفارين من ايران، فابعدتهم أول الأمر إلى روديسيا، ثم جاءت ببعض منهم إلى بغداد، ونفذت حكم الاعدام شنقًا بحق فهمي سعيد ومحمود سليمان ويونس السبعاوي في ٥ ايار ١٩٤٢، وكامل شبيب في آب ١٩٤٤. وعلى اثر تسلم العقيد صلاح الدين الصباغ من تركيا قامت السلطات باعدامه يوم ١٦ تشرين الاول ١٩٤٥ (حول موقف الشيوعيين من هذه الثورة، راجع «الحزب الشيوعي العراقي» في باب الاحزاب).

أما رشيد عالي الكيلاني فغادر إلى ايران، ثم إلى المانيا فالسعودية فمصر. ولم يعد إلى العراق إلا بعد انقلاب ١٩٥٨ الذي أعاد له اعتباره. ثم حاول الكيلاني الانقلاب عليه وفشل. بعده، قصد لبنان، وتوفي في بيروت في صيف ١٩٦٥.

* **زكي خيري (١٩١١-١٩٩٥)**: سياسي وشيوعي عراقي. ولد لأب عربي سني وأم كردية شيعية. بدأ حياته السياسية، وكان لا يزال مراهقًا، عندما شارك في أول مظاهرة ضد الصهيونية في بغداد عام ١٩٢٨، واعتقل وتعرّض للضرب بسببها. وفي معتقله تعرّف على فتيان في عمره ساهم معهم، بعد سنوات قليلة، في تأسيس الحزب الشيوعي العراقي، وأصبح وهو في الرابعة والعشرين عضوًا في أول لجنة مركزية للحزب، وأسس خلال ذلك أول التنظيمات الشيوعية السرية داخل الجيش العراقي. وعند اعتقال اعضاء اللجنة المركزية الاولى، وانفراطها، وقعت مسؤولية قيادة الحزب عليه وهو في السادسة والعشرين. أعقب ذلك نحو ٦٠ سنة من حياة اختفاء ونفي وسجن، ساهم خلالها في محاولات هرب مشهورة عبر أنفاق تحت الارض، وتعرّض لخطر الموت في مذابح السجون السياسية في العهد الملكي، ونزعت عنه الجنسية العراقية مرتين، في العهدين الملكي والجمهوري (عن محمد عارف، كاتب عراقي، «الحياة»، العدد ١١٨١٣، تاريخ ٢٦ حزيران ١٩٩٥، ص١١، نقلاً عن د.حنا بطاطو، استاذ التاريخ في

الجامعة الاميركية في بيروت، في كتابه «الطبقات الاجتماعية القديمة والحركة الثورية في العراق» (The Old Social Classes and The Revolutionery Movement of Iraq).

يقول محمد عارف في المرجع المذكور أعلاه:

«على رغم الطابع الأكاديمي لكتاب حنا بطاطو فإنه لا يخفي تعاطفه مع خيري الذي التقاه في رحلته الاولى إلى العراق لجمع مواد كتابه: «جلس إلى جانبي وهو مقيد الرسغين والكاحلين بالاغلال في غرفة الحرس في سجن بعقوبة في يوم من ايام شهر حزيران ١٩٥٨». وحرص بطاطو الذي وضعت تحت تصرفه وثائق الأمن العام العراقي على عرض تقويمات خيري لامتناع الحزب الشيوعي عن استلام السلطة في العراق عام ١٩٥٩. ويعتبر عدم اقدام الشيوعيين على تسلم السلطة آنذاك رغم سيطرتهم على فرق بكاملها في الجيش من أهم الاسئلة في تاريخ العراق الحديث. كما تابع بطاطو تقديرات خيري للظروف التي أدت إلى مذابح الشيوعيين على أيدي البعثيين عام ١٩٦٣، وهي المأساة التي لم يشف منها الشيوعيون العراقيون حتى الآن».

انتقد خيري حزبه، الحزب الشيوعي العراقي، حين دخل في تحالف غير مشروط مع البعثيين عام ١٩٧٣. فبدلاً من أن تستفيد قيادة الحزب في ١٩٧٣ من فرص المناورة التي قدمها التيار اليساري القوي المعارض للتحالف، فإنها عقدت ميثاقًا مع البعثيين قدمت فيه تنازلات كبيرة تخلت بموجبها عن حق الشيوعيين في العمل السياسي ليس في القوات المسلحة فحسب بل حتى في المنظمات الاجتماعية، مثل اتحاد الطلبة والنقابات المهنية والجمعيات الثقافية. ومع ان خيري كان عضوًا آنذاك في أعلى سلطة في الحزب (المكتب السياسي) وساهم في إعداد ميثاق الجبهة مع البعثيين والمباحثات حولها فإنه رفض التوقيع على ميثاقها.

ومن المعروف أن أزمة الشيوعيين مع الدولة (والنظام) العراقية بلغت أوجها خلال الحرب العراقية-الايرانية التي عارضها الشيوعيون واعتبروها «اعتداء ظالمًا على ايران». لكن مع تطور الحرب ودخول القوات الايرانية الاراضي العراقية وتعرض كيان الدولة للخطر وجد كثير من الشيوعيين أنفسهم في مأزق. وقد عبّر عن الاحساس بذلك المأزق زكي خيري، وأقصي بسببه عن عضوية المكتب السياسي للحزب، وذلك بسبب دعوته إلى الوقوف إلى جانب الجيش العراقي. فذهب خيري (وهو في الخامسة والسبعين) إلى كردستان العراق لحضور مؤتمر الحزب ويدعوه إلى وقف حرب الانصار ضد الجيش العراقي وتحويل البندقية باتجاه الغازي الايراني، مقتديًا بموقف مماثل اتخذه الزعيم الصيني ماو تسي تونغ في ١٩٣٧ حين انتقل إلى جانب الحكومة الصينية بعد حرب أهلية ضدها دامت عشر سنوات. و«تلك لم تكن المرة الاولى التي اقتدى فيها خيري بموقف «الرفاق الصينيين» الذين ألف عنهم واحدًا من اوائل الكتب المنشورة بالعربية عن الثورة الصينية في الاربعينات، ويعتبر تعاطفه مع الصينيين في بداية الخلاف السوفياتي-الصيني في الستينات من المآزق الصعبة التي واجهها هو وحزبه مع القيادة السوفياتية» (المرجع المذكور).

وفي سنواته الأخيرة، استمر يعارض خطًا مهمًا في الحزب الشيوعي العراقي يرى «في الجيش أداة قمع بيد النظام للدفاع عن نفسه». فمما كتبه خيري ونشره عن دور الجيش العراقي في قمع الاضطرابات التي أعقبت حرب الخليج في ١٩٩١، ان موقف الجيش لم يكن «لمجرد الدفاع عن النظام الراهن ورأسه بل خوفًا من تمزق الوطن ايضًا وخشية ان تُمزق الدولة العراقية إلى دويلات طائفية وان يتمزق الوطن ويضيع الاستقلال والسيادة الوطنية ويتمزق الجيش موئل حياتها». واستعان خيري بواقعة من تاريخ الحرب العالمية الثانية في تعليقه على ما يُقال من ان افراد الجيش العراقي قاتلوا ليس دفاعًا عن بلدهم بل خوفًا من فصائل الرمي التي ترتصدهم من ورائهم. ذكر في هذا الصدد جواب ستالين على سؤال مراسل غربي عما إذا كان جنوده صمدوا خلال قتال الالمان في الحرب العالمية الثانية خوفًا من قوة الأمن السوفياتي التي كانت تدعى «أوغبور»: «كان رد ستالين المقتضب: ولكن الجيش الالماني أقوى من الأوغبور» (المرجع المذكور).

وربما ذروة ما يرسم شخصية زكي خيري السياسية والوطنية والعقائدية الفقرتان التاليتان اللتان أنهى بهما محمد كامل عارف مقالته (المرجع المذكور):

بدا زكي خيري، بعد الثمانين، أقرب إلى مارا، الزعيم الراديكالي في الثورة الفرنسية الذي قال حنا بطاطو أن خيري كان يعتبره مثله الأعلى أيام الشباب المبكر. يظهر طابع مارا اللاذع في انتقاد خيري لانضمام حزبه إلى «المؤتمر الوطني العراقي». فهو يتساءل كيف يدخل حزب شيوعي في تنظيم «صنعته وتموله الولايات المتحدة»... ويقوده رأسمالي من عائلة كومبرادورية وإقطاعية. ويلاحظ ان هذه لا تعكس التضحية بالجانب الديمقراطي من أجل الجانب الوطني كما في التحالفات السابقة بل التضحية

بالاثنين معًا وفي آن واحد حتى لا يقال «إننا منعزلون بل نشترك في رسم مصائر العراق». ويورد خيري شهادات من تقرير بعثة الامم المتحدة عن الدمار الذي أوقعته الحرب في العراق. ويتساءل كيف أمكن لحزبه ان يتحالف مع «المؤتمر الوطني» المتحالف مع الاميركيين الذين «دمروا معالم الحضارة في بلادنا واقتصادنا الوطني وهبطوا بمستوى معيشة شعبنا إلى الحضيض ويصرون على بقائه هكذا منذ أربع سنوات».

واستعار خيري في معرض انتقاده لرفاقه عبارة مشهورة في التراث الاسلامي عن أولئك الذين «يأكلون مع معاوية ويصلون وراء علي»، وأشار إلى أنهم «كانوا يتظاهرون براديكالية ابعد جذورًا من راديكالية الراديكاليين المتطرفين، أما الآن فقد غدوا «واقعيين» إلى ابعد حد... فهم يعترفون ان لبريطانيا مثلاً مصالح تاريخية في العراق لا يجب نسيانها، وينتظرون الديمقراطية من الدول الامبريالية ليس بالمجان بل لقاء ثروات البلاد الطبيعية، مدّعين ان الامبريالية مزمعة منح شعوبنا قسطًا «معقولاً» من الديمقراطية وبسطة العيش، وان ذلك من صالحها هي بالذات. ومنهم من هو أكثر «واقعية» فيقدم النصائح للامبرياليين ويطالبهم باعطاء المعارضة العراقية استقلالية القرار فهذا في صالحهم هم. واعتبر خيري هذه الدعوات الصادرة عن قياديين شيوعيين «تذكر بالنصائح التي يقدمها الزعماء العرب لحكام أميركا بأن من الأفضل لمصالحهم ان يعتمدوا على العرب لا على الصهيونية».

توفي زكي خيري في استوكهولم حيث كان يقيم لاجئًا منذ ١٩٩٣. وفي خبر وفاته وصفته «الحياة» بأنه آخر الزعماء الشيوعيين العراقيين المخضرمين. ونقلت الصحيفة معلومات عن اختلاف الشيوعيين على دفنه بعد وفاته في استوكهولم. ففي حين أكدت أرملته انه أوصاها بأن يدفن في مسقط رأسه بغداد، رفض الحزب الشيوعي ذلك خشية ان يستخدم النظام العراقي عودة جثمانه إلى وطنه، ودعا إلى دفنه في السويد أو سورية، فيما اقترح فريق ثالث ان يدفن في كردستان العراق كحل وسط. وأضافت الصحيفة ان الحزب الشيوعي الاردني أبدى استعداده لتسلم الجثمان في عمان ونقله في «موكب مهيب» إلى بغداد لإقامة عزاء جماهيري له. وإذا كان صحيحًا ما ذُكر اخيرًا انه دُفن في دمشق التي غادرها قبل سنتين (من وفاته وقاصدًا السويد) فإن الحدث شبيه بوصف زكي خيري لسياسة الشيوعيين الحالية انها تبدو مثل «صورة أعدها رسام كاريكاتوري ماكر».

سعدون حمادي.

* **ساطع الحصري**: راجع «سورية»، ج١٠، ص٢١٣.

* **سعدون حمادي** (١٩٣٠-): سياسي عراقي. ولد في كربلاء. تلقى دراساته العليا في الجامعة الاميركية في بيروت، ثم في جامعة وسكنسن الاميركية حيث حاز على الدكتوراه في الاقتصاد (الاصلاح الزراعي). انتسب لحزب البعث اثناء دراسته في بيروت. درّس الاقتصاد في جامعة بغداد (١٩٥٧) وبرز في صفوف حزب البعث في أواخر الخمسينات، ثم عمل في ليبيا حيث أودع السجن إبان العهد الملكي لقيامه بنشاط ثوري فيها. عين وزيرًا للاصلاح الزراعي في أول وزارة شكلت على اثر سقوط حكم عبد الكريم قاسم في شباط ١٩٦٣، وأعفي من منصبه بعد أشهر قليلة. عمل في الامم المتحدة كخبير اقتصادي في دمشق، وعمل مستشارًا اقتصاديًا للحكومة السورية في منتصف الستينات. في تشرين الثاني ١٩٦٨، عين رئيسًا لمجلس إدارة شركة النفط الوطنية العراقية، وبقي في هذا المنصب حتى ايار ١٩٧٥. في نهاية ١٩٦٩، عين وزيرًا للنفط والمعادن. وفي ١١ تشرين الثاني ١٩٧٤، اصبح وزيرًا للخارجية فشارك في المؤتمرات العربية والدولية. وكانت ظهرت له كتابات عديدة حول الاصلاح الزراعي والوحدة العربية وقضايا الثورة العربية، خاصة وانه كان من مؤسسي مركز دراسات الوحدة العربية. شغل لفترة وجيزة منصب رئيس الوزارة بعد حرب الخليج

الثانية، ثم اصبح رئيس المجلس الوطني العراقي وهو لا يزال يشغل هذا المنصب حتى اليوم (أواسط ١٩٩٨).

ردًا على سؤال صحافي («الوسط»، العدد ٣٣٦، ٦ تموز ١٩٩٨، ص٣٠) حول استحداث مؤسسة رئاسة الحكومة-في أعقاب حرب الخليج الثانية-لفرض إناطة منصب رئاستها بشخصية شيعية-أي به هو شخصيًا- لامتصاص التداعيات، وإذا ما كان يعتبر نفسه ممثلاً للشيعة في العراق، أجاب الدكتور سعدون حمادي: «كيف أكون بعثيًا أؤمن بأن الامة العربية من المحيط إلى الخليج أمة واحدة يجب أن تتحد في دولة واحدة وفي الوقت نفسه أكون ممثلاً لشريحة من الشعب ا لعراقي؟ هل عرف عني يومًا، قولاً أو عملاً، أنه بادر في ذهني تفكير قطري أو مذهبي أو عشائري؟ أنا لا أؤمن بذلك اطلاقًا».

* صالح جبر (١٨٩٦-١٩٥٧): سياسي عراقي. ولد في الناصرية ودرس الحقوق في جامعة بغداد. نائب في ١٩٣٠. وزير المعارف في ١٩٣٣-١٩٣٤. محافظ كربلاء ١٩٣٥-١٩٣٦. وزير العدل ١٩٣٧-١٩٣٨. وزير المعارف للمرة الثانية ١٩٣٨-١٩٤٠. ثم وزير الشؤون الاجتماعية، فمحافظ للبصرة. بعد فشل ثورة رشيد عالي الكيلاني، عين وزيرًا للخارجية في حكومة نوري السعيد، ثم وزيرًا للمالية. رئيس الوزراء بعد استقالة نوري السعيد في ٢٩ آذار ١٩٤٧، وذهب إلى لندن على رأس وفد عراقي لتعديل المعاهدة العراقية-البريطانية بصحبة وزير خارجيته فاضل الجمالي. ارتبط إسمه بالتوقيع على معاهدة بورتسموث في ١٥ كانون الثاني ١٩٤٨ التي أثارت نقمة الشعب والاضطرابات في البلاد، فعمد إلى الاستقالة لتخلفه حكومة ترفض المعاهدة. عاد في ١٩٥٠ إلى الاشتراك في الوزارة فعين وزيرًا للداخلية لفترة قصيرة. وفي ١٩٥١ أسس «حزب الأمة العراقي» اليميني الاتجاه والذي لم يعمر طويلاً، وكان يمثل مصالح كبار الاقطاعيين التقليديين الذين اختلفوا مع نوري السعيد.

تميزت فترة رئاسته للوزارة بالانحياز الكامل للسياسة البريطانية، وبإصداره قانونًا خاصًا سمح بموجبه لليهود العراقيين بمغادرة العراق إلى فلسطين المحتلة، وكانت نتيجة ذلك هجرة أكثر من مائة ألف يهودي (راجع العنوان الفرعي «ندوة بيروت الخاصة باليهود العرب: الجذور والتهجير» في «العالم العربي» في هذا الجزء).

الرئيس صدام حسين.

* صدام حسين (١٩٣٧-): رئيس الجمهورية العراقية الحالي (منذ ١٩٧٩). ولد يتيمًا بالقرب من تكريت. انتقل، في سن العاشرة، إلى تكريت للالتحاق بالمدرسة هناك، حيث أقام برعاية خاله خيرا لله طلفاح، وانتقل معه إلى بغداد في ما بعد. في بغداد، انضم إلى حزب البعث في ١٩٥٦، وفي أجواء العدوان الثلاثي على مصر. في ١٩٥٨، ألقت به سلطات عبد الكريم قاسم في السجن، حيث عرف من رفاق له ان الحزب مزمع على تكليفه خطة تصفية قاسم، ولم يتردد في الموافقة. وعندما نفذ الخطة (بعد الافراج عنه)، اصيب برصاصة في ساقه، ولكنه تمكن من الهرب إلى سورية، ومكث في دمشق أربعة أشهر انتقل بعدها إلى القاهرة حيث أنهى الدراسة الثانوية ودخل كلية الحقوق ونشط بين الطلاب العرب ووصل إلى قيادة فرع مصر، كما استفاد من دراسة تجربة الرئيس جمال عبد الناصر.

بعد قيام «ثورة رمضان» (٨ شباط ١٩٦٣) وسقوط عبد الكريم قاسم، عاد صدام إلى العراق. حضر

المؤتمر القومي السادس لحزب البعث في دمشق (صيف ١٩٦٣). وفي بغداد توثقت علاقته بأحمد حسن البكر؛ وفي ١٩٦٤، سافر سرًا إلى دمشق للمشاركة في المؤتمر القومي السابع، ليعود بعده إلى بغداد ويتولى الاشراف على التنظيم الحزبي العسكري إضافة إلى مسؤولية المكتب الفلاحي، ويحضر لعملية تغيير النظام. لكن مع انكشاف الخطة، اعتقل، مع عدد كبير من البعثيين. انتخبه المؤتمر القومي الثامن (١٩٦٥) عضوًا في القيادة القومية. وفي تموز ١٩٦٦، تمكن من الهرب من السجن.

وفي فجر ١٧ تموز ١٩٦٨، كان صدام حسين يدخل القصر الجمهوري في دبابة وزي عسكري وفق خطة مدنية-عسكرية لإنهاء حكم عبد الرحمن عارف، وليتسلم البعث السلطة من جديد. وأشرف صدام حسين بنفسه على إقصاء عبد الرزاق النايف والداود، اللذين فرضا نفسيهما على قيادة البعث كشريكين في ثورة تموز. وأذاع مجلس قيادة الثورة بيانًا بتعيين أحمد حسن البكر أمين سر القيادة القطرية للحزب رئيسًا للجمهورية ورئيسًا للوزراء وقائدًا عامًا للقوات المسلحة. وبعد الاجتماع الاول للقيادة الجديدة تقرر اختيار صدام حسين نائبًا لرئيس مجلس قيادة الثورة بعد ٣٠ تموز انسجامًا مع موقعه الحزبي الرسمي باعتباره كان نائبًا لأمين سر القيادة القطرية منذ العمل السري. ومنذ ذلك الحين وحتى ١٩٧٩ (أي خلال ١١ عامًا) «اعتمدت صيغة قائدين ضمن قيادة واحدة». فتولى صدام حسين المهام الحساسة والكبيرة: أمن الثورة، المفاوضات مع الحركة الكردية، زيارة موسكو الممهدة للمعاهدة العراقية-السوفياتية، قيادة المعركة ضد شركات النفط وتأميم النفط (حزيران ١٩٧٢)، مبادرة الاشتراك في حرب ١٩٧٣، الاشراف على مجلس التخطيط، إدارة الصمود العراقي إبان التشجيع الاميركي والاسرائيلي للتمرد الكردي في الشمال ومشاركة قوات ايرانية في معارك ضد الجيش العراقي، العمل على توثيق الصلات مع دول عدم الانحياز وفرنسا إلى جانب الحفاظ على العلاقات الودية مع الاتحاد السوفياتي... وكان نتيجة كل ذلك انهيار التمرد في الشمال وتوقيع اتفاقية الجزائر (آذار ١٩٧٥) وبروتوكول طهران بعد أسابيع قليلة.

تمكن العراق، بقيادة صدام ومسؤولياته في مهامه وقبل توليه مهام الرئاسة في ١٩٧٩، من مضاعفة الجهود التنموية، والتخطيط لإيجاد تكنولوجية عربية متقدمة بما فيها التكنولوجيا النووية التي ألحقت طاقتها بمكتبه شخصيًا وتولى التفاوض مع الحكومة الفرنسية حول حيازة العراق للمعدات وتدريب العلماء والفنيين في هذا الخصوص. في المؤتمر القومي الحادي عشر لحزب البعث (١٩٧٧)، اختير صدام أمينًا عامًا مساعدًا للحزب في القيادة القومية الجديدة.

على اثر اتفاقيات كامب دافيد، عمل صدام جاهدًا على تأمين مستلزمات إيقاف تداعيات هذه الاتفاقيات وتأمين الصمود العربي من خلال إنجاح مؤتمر قمة بغداد (١٩٧٨) الذي خرج بموقف عربي موحد ملتزم بدعم شامل لمنظمة التحرير الفلسطينية وعرب الاراضي المحتلة والاردن وسورية وباعتبار النضال من أجل استعادة الحقوق العربية مسؤولية قومية عامة. وفي الاجتماع الاستثنائي لوزراء الخارجية والاقتصاد في بغداد في ٢٧ آذار ١٩٧٩، عمل صدام حسين على ترجمة قرارات قمة بغداد إلى أفعال، وأصدر العراق تعهدًا بتحمل أعباء دعم دول المواجهة وصمود الارض المحتلة وحده إذا ما قصّرت حكومات الاقطار الأخرى بالإيفاء بتعهداتها المالية في هذا السبيل.

في ١٦ تموز ١٩٧٩، أعلن أحمد حسن البكر تنحيه عن رئاسة الجمهورية لصالح نائبه ورفيقه صدام حسين. وسرعان ما أُعلن عن «مؤامرة رفاق سابقين»، تعاطى صدام حسين بسرعة وحسم وعنف فأعدم عددًا من «المتآمرين». ولم تمضِ بضعة أسابيع من توليه الرئاسة حتى قصد هافانا للمشاركة في مؤتمر قمة عدم الانحياز. وقد ثبت هذا المؤتمر بغداد كعاصمة لمنظمة عدم الانحياز في الدورة التالية والتي تبدأ من ايلول ١٩٨٢ وتستمر لثلاث سنوات.

في مؤتمر القمة العربية العاشر (تونس، ٢٠ تشرين الثاني ١٩٧٩)، حرص صدام حسين على اعداد صيغة تعامل قومي جاءت على شكل اعلان قومي لتنظيم العلاقات بين الدول العربية (تحريم استخدام القوة المسلحة من قبل أية دولة عربية ضد دولة عربية أخرى). وفي مؤتمر القمة العربية الحادي عشر (عمان، خريف ١٩٨٠) بذل صدام جهدًا لتطوير العمل الاقتصادي العربي المشترك لتعزيز التعاون العربي.

وكانت مسألة العلاقات مع ايران من المسائل الرئيسية التي واجهها صدام حسين منذ مطلع تسلمه الرئاسة. فقد بادرت ايران، من وجهة نظر العراق والعرب (المجاورين خاصة لايران)، بالسلبية وإثارة النعرات الطائفية واستخدام الدين كغطاء للاطماع التوسعية للسيطرة على الخليج العربي. وفي هذا الاطار أخذت الاستفزازات العسكرية والسياسية والحملات الاعلامية الايرانية المتواصلة

تتصاعد، الأمر الذي دفع صدام إلى بذل المحاولات المتكررة عبر المذكرات الرسمية والاصدقاء المشتركين، مثل ياسر عرفات، للتنبيه إلى خطورة الاستمرار على هذا المنوال، ولكن دون طائل. وفي ٤ ايلول ١٩٨٠، أخذت المناطق العراقية المتاخمة لايران والمدن تتعرض لنيران المدفعية الايرانية في الوقت الذي أعلن فيه رئيس جمهورية ايران الاسلامية تراجع بلاده عن اتفاقية الجزائر التي وقعها الشاه ولم يطبقها، وكذلك قامت ايران بإغلاق شط العرب. وفي ١٧ ايلول ١٩٨٠، وقف صدام حسين أمام المجلس الوطني المنتخب حديثًا (بعد غياب طويل جدًا للحياة البرلمانية) ليعلن قرار القيادة العراقية باعتبار اتفاقية الجزائر ملغاة واستعادة السيادة الكاملة على شط العرب. وعلى الرغم من الانتصارات العسكرية التي حققها الجيش العراقي على جبهة واسعة وفي عمق الاراضي الايرانية فإن صدام حسين حرص على التأكيد باستمرار وثبات بعدم رغبة العراق في ضم الاراضي الايرانية واستعداده لعقد صلح عادل ومشرّف مع ايران شريطة تسليمها بحقوق العراق المشروعة في السيادة على أرضه ومياهه، وابداء رغبتها الحقيقية في حسن الجوار مع الاقطار العربية المجاورة لها. ولم تغيّر الحرب مع ايران من تصميم صدام حسين على المضي في مشاريع التصنيع والتنمية الاقتصادية والنهضة العلمية في العراق.

كانت هذه أهم النقاط الواردة في سيرة الرئيس صدام حسين في «موسوعة السياسة» (المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ج٣، ط١، ١٩٨٣، ص٦٢٧-٦٣١). أما ما يمكن إضافته باختصار، أن هذه السيرة ربما كانت أكثر سير زعماء الدول، في العقود الأخيرة، التي انشغلت بها الاقلام العالمية سواء لجهة الكشف عن جوانب الشخصية الخاصة لصدام حسين أو شخصيته العامة. ومن الملاحظ ان هذه الاقلام أبرزت، في مرحلة أولى وخلال العقد الاول من ولايته الرئاسية التي اتسمت أكثر ما اتسمت بحرب العراق مع ايران، مواصفات شخصية تركّز على قوته وطموحه اللامحدود لرفع شأن العراق والعرب، معتبرة إياه «ديغول العرب» حينا، و«بسمارك العرب» أحيانًا. أما في مرحلة ثانية، أي خلال العقد الثاني والحالي من ولايته الذي طُبع بحرب الخليج الثانية، فقد أخذت الاقلام الصحافية العالمية (وبعض الاقلام الصحافية العربية) تشكك بصدق ولائه، وتبرز نزعة دكتاتورية لديه تطبع شخصيته التي لا تركن إلا إلى العشيرة والأقارب والأخوة والأبناء، محمّلة إياه مسؤولية كل ما أصاب العراق نتيجة حرب الخليج الثانية. والحقيقة أن حوادث داخلية كثيرة شهدها العراق كانت شواهد تستند إليها هذه الاقلام في إدانة نظامه. وربما كان ما رواه عزيز محمد سكرتير الحزب الشيوعي العراقي من ١٩٦٤ إلى ١٩٩٣ لمجلة «الوسط» (أعداد ٢٨٧ و٢٨٨ و٢٨٩، تاريخ ٢٨ تموز و٤ آب و١١ آب ١٩٩٧) عن صدام حسين وممارساته الحزبية والسلطوية، سواء إزاء رفاق له في حزب البعث أو اصدقاء في الجبهة الوطنية والتقدمية أو أخصام أو مواطنين عاديين، يشكل أخطر التهم التي يمكن ان توجه لزعيم سياسي أو مسؤول. لكن أحدًا، في المقابل، لم يستطع ان يقدم دليلاً على تراخٍ أبداه صدام حسين أو انهزام، في كل موضوع متعلق بكرامة وطنية أو قومية، رغم الشدائد والكوارث التي نزلت، ولا تزال، بالعراق والعراقيين، والضغوط الهائلة التي تعرضوا لها (فالمعروف عن صدام حسين حرصه الشديد على تزويد الوزراء والدبلوماسيين والمفاوضين العراقيين مع أي جهة كانت وفي أي مجال كان بضرورة «الحفاظ على سيادة العراق وعدم المساس بوحدة اراضيه ولا كرامة شعبه»). وقد يكون هذا الموقف بالذات في أساس قوته وصمود نظامه من جهة، وكاشف «هزال» و«سخف» معارضيه العراقيين من جهة أخرى. و«هزال» و«سخف»، إضافة إلى «عمالة»، هي من أكثر المفردات التي تراشق بها أكثر أطراف المعارضة أنفسهم في وصف بعضهم البعض طيلة السنوات التي أعقبت فشل انتفاضتهم في ١٩٩١.

* صلاح الدين الصباغ (١٨٨٩-١٩٤٥):

عسكري ثوري عراقي. ولد في الموصل لأب لبناني (من صيدا) وأم من الموصل. درس في بيروت والموصل واسطنبول. دخل الخدمة العسكرية (في الجيش العثماني) ورفع إلى ملازم في ١٩١٧. التحق بالجيش العربي في سورية. اعتقله الفرنسيون بعد سقوط الحكم العربي في دمشق. بعد إطلاق سراحه ذهب إلى العراق والتحق بالجيش هناك، وأرسل للدراسة في عدد من المعاهد العسكرية البريطانية. درّس في الكلية العسكرية في العراق وأصبح آمرًا للقوة الجوية، فمعاونًا لرئيس أركان الجيش.

انتصر لحركة الكيلاني، وكان في مقدمة الضباط وقادة الحركة الوطنية في تشكيل مجلس الدفاع ليدير شؤون البلاد إبان ثورة ١٩٤١. وتولى قيادة الفرقة الاولى والثالثة والفرقة المصفحة وأصبح قائدًا للجبهة الغربية في فترة المجابهة مع القوات الانكليزية والتعزيزات التي جاءت من شرقي

صلاح الدين الصباغ.

الاردن. مع هزيمة الحركة الوطنية وإعدام رفاق الصباغ (فهمي سعيد، محمود سليمان ويونس السبعاوي)، تمكن من الفرار إلى ايران ثم إلى تركيا التي سلمته بعد تردد طويل إلى بريطانيا بالتعاون مع سلطات الانتداب الفرنسي في سورية. وتم إعدامه في بغداد في ١٦ تشرين الاول ١٩٤٥.

* **طارق عزيز (١٩٣٦-):** سياسي عراقي. درس في بغداد، وتخرج في كلية الآداب (١٩٥٨)، وكان منتسبًا لحزب البعث وهو طالبًا في الجامعة. عمل محررًا في جريدة «الجمهورية» العراقية التي صدرت بعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨؛ وفي ١٩٦٣ عمل مديرًا لتحرير جريدة «الجماهير». وبعد حركة تشرين الثاني ١٩٦٣ انتقل إلى سورية وعمل في الصحافة السورية وسجن على أثر انقلاب ٢٣ شباط ١٩٦٦. عاد إلى العراق بعد ١٧ تموز ١٩٦٨ وتولى رئاسة تحرير جريدة «الثورة» الناطقة بلسان حزب البعث العربي الاشتراكي. وتولى مهمة نائب رئيس مكتب الثقافة والاعلام القومي، وانتخب عضوًا مرشحًا للقيادة القطرية لهذا الحزب في مطلع ١٩٧٤. عين في تشرين الثاني ١٩٧٤، وزيرًا للاعلام، وأصبح في ١٩٧٧ عضوًا في مجلس قيادة الثورة وانتخب عضوًا في القيادة القومية للحزب. فاستقال من وزارة الاعلام للتفرغ للعمل الحزبي. وعلى اثر تولي صدام حسين مهام رئاسة الجمهورية خلفًا لأحمد حسن البكر في ١٦ تموز ١٩٧٩، عين طارق عزيز نائبًا لرئيس الوزراء، وأشرف على نشاط المجلس الأعلى لمحو الأمية. أسهم في النشاطات والعلاقات الدولية للعراق، فزار فرنسا والعديد من الدول، وشارك في مؤتمر قمة عدم الانحياز، كما تابع مهام الاتصال والمفاوضات مع اللجان الدولية المكلفة بالتوسط في النزاع العراقي-الايراني (عن «موسوعة السياسة»، ج٣، بيروت، ط١، ١٩٨٣، ص٧٥١-٧٥٢).

لمع إسمه، كوزير للخارجية إبان حرب الخليج الثانية، متصفًا بدبلوماسية مرنة وحازمة في آن، وكان قد شد أنظار العالم إليه قبيل اندلاع هذه الحرب في اللقاء الذي عقده مع وزير الخارجية الاميركي جيمس بايكر في جنيف في ٩ كانون الثاني ١٩٩١. وقد وُصف هذا اللقاء بـ«لقاء الأمل الأخير» واستغرق ست ساعات ونصف الساعة. ويعتبر طارق عزيز من أبرز أركان نظام الرئيس صدام حسين، والمنصب الحالي الذي يشغله هو نائب رئيس الوزراء.

* **طالب النقيب (١٨٦٢-١٩٢٩):** سياسي عراقي. ولد في البصرة. شغل منصب حاكم إقليم الإحساء في ١٩٠٢ إبان العهد الحميدي، وأصبح عضوًا في مجلس «المبعوثان» في ١٩٠٩. اتهمه الاتراك في ١٩١٣، بتدبير مؤامرة لاغتيال القائد العسكري التركي في البصرة. نفي إلى الهند عقب الاحتلال البريطاني للعراق. عين وزيرًا في أول حكومة عراقية، ونافس فيصل في عرش العراق، فنفاه البريطانيون مجددًا إلى الهند. توسط بين الهاشميين والسعوديين في ١٩٢٤. توفي في ميونيخ (المانيا) إثر عملية جراحية.

* **طه الهاشمي (١٨٨٨-١٩٦١):** عسكري وسياسي عراقي. ولد في بغداد ودرس فيها ثم في المدرسة الحربية في اسطنبول وحصل على شهادة الاركان في ١٩٠٩. في ١٩١٠، اصبح من أركان الفيلق الثامن في سورية، وشارك في ١٩١٢ في الحرب البلقانية، وانتمى، في ١٩١٣، إلى جمعية العهد القومية العربية السرية. تولى مناصب مهمة في القوة العسكرية العثمانية في اليمن، وأصبح بعد ذلك رئيس أركان حرب الفيلق العثماني السابع. في ١٩٢٠، توجه إلى سورية حيث عين مديرًا للأمن العام في ظل الحكم الفيصلي. ثم توجه إلى العراق واصبح رئيسًا لهيئة أركان الجيش العراقي (١٩٢٣، وأعيد تعيينه في هذا المنصب في ١٩٣٠). عين مرافقًا للأمير غازي، ولي العهد، في ١٩٢٤. أحالته حركة بكر صدقي

طه الهاشمي.

على التقاعد. انتخب، في ١٩٣٧، نائبًا عن بغداد وتولى وزارة الدفاع في ثلاث وزارات شكلها نوري السعيد، كما تولى هذا المنصب في وزارة رشيد عالي الكيلاني. وأصبح رئيسًا للوزارة شباط-نيسان ١٩٤١. ترأس حزبًا معارضًا أسسه في ١٩٥١ عرف بـ«الجبهة الشعبية المتحدة». نشرت مذكراته في بيروت ١٩٦٧. وكان أعدّ هذه المذكرات خلدون ساطع الحصري الذي قدّم لها بقوله: «إن مذكرات الهاشمي هذه لا تتعلق بالعراق فقط، ولكنها تشمل ايضًا سورية والقضية الفلسطينية في فترة دقيقة جدًا، فترة الحرب العربية-الصهيونية الاولى وقيام دولة اسرائيل والسنوات الاولى من استقلال سورية وانقلاب حسني الزعيم وما تلاه».

* **طه ياسين رمضان (١٩٣٨-)**: سياسي عراقي. ولد في الموصل ودرس الثانوية فيها، ثم التحق بالكلية العسكرية. أحيل على التقاعد في ١٩٥٩ و١٩٦٤. بعدها، انتخب عضوًا في القيادة القطرية لحزب البعث، وأعيد للخدمة في الجيش بعد ١٧ تموز ١٩٦٨، وفي تشرين الثاني ١٩٦٩، عين عضوًا في مجلس قيادة الثورة، وترأس محكمة خاصة في مطلع ١٩٧٠ لمحاكمة «أعداء الثورة».

وفي آذار ١٩٧٠ عين وزيرًا للصناعة، وفي ١٩٦٧، وزيرًا للاسكان، وفي ١٩٧٤ وزيرًا للتخطيط بالوكالة حتى ايار ١٩٧٦، وأصبح قائدًا للجيش الشعبي. وفي ١٩٧٧، انتخب عضوًا في القيادة القومية للحزب. وعلى أثر تولي صدام حسين مهام الرئاسة، عين طه ياسين رمضان نائبًا أول لرئيس الوزراء، وعمل بهذه الصفة على متابعة نشاط الوزارات ومؤسسات الدولة، كما قام بزيارات مهمة للاتحاد السوفياتي ودول غربي اوروبا بغية تطوير العلاقات بينها وبين العراق (عن «موسوعة السياسة»، ج٣، بيروت، ط١، ١٩٨٣، ص٧٨٨). ثم أصبح، منذ ١٩٩٠، النائب الاول لرئيس الجمهورية.

معروف بصلابة مواقفه في كل مهماته ومهما كانت الظروف صعبة وحرجة. قال، وهو نائب رئيس الجمهورية، وبعد جولة مغاربية شملت المغرب والجزائر وتونس، إن «بلاده لن تعتذر لأحد حتى ولو استمر الحصار خمسين سنة»، وحمل بعنف على المعارضة العراقية في الخارج ووصفها بـ«العميلة والتافهة»، كما حمل على الكويت بسبب تصريحاتها في شأن القمة العربية، قائلاً إن «الكويت لم تصبح دولة عملاقة حتى تعترض أو تقبل بحضور العراق القمة» (من مقابلة صحافية أجرتها معه «الوسط»، العدد ٣٣٣، تاريخ ١٥ حزيران ١٩٩٨، ص٢٤). ووصفته مجلة «المشاهد السياسي، بي.بي.سي»

طه ياسين رمضان.

عارف عبد الرزاق.

(العدد ١١٣، ١٠-١٦ ايار ١٩٩٨) في مقابلة معه انه «الشخص الثاني الذي يحوز على ثقة كاملة من رفيق النضال (صدام حسين) منذ الخمسينات».

* **عارف عبد الرزاق (١٩٢٤-):** عسكري وسياسي عراقي. تخرج في الأكاديمية العسكرية في ١٩٤٣، وفي مدرسة الطيران الانكليزية في ١٩٤٥، وانتسب لكلية الأركان في ١٩٥١-١٩٥٢. عمل آمرًا لقاعدة الحبانية بعد نجاح ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨. وفي آذار ١٩٥٩، أحيل للتحقيق بعد حركة عبد الإله الشواف. إلا انه أعيد إلى الخدمة في السنة نفسها، وإلى آمرية قاعدة الحبانية في صيف ١٩٦٢. وبسبب قرابته من باسل الكبيسي، قائد حركة القوميين العرب في العراق، فقد تقرب من الضباط الناصريين الذين وقفوا ضد البعث بعد ٨ شباط ١٩٦٣. عينه عبد السلام عارف، الذي قاد انقلاب ١٨ تشرين الثاني ١٩٦٣ ضد البعث، وزيرًا للزراعة وآمرًا للقوة الجوية، ثم عينه رئيسًا للوزراء ووزيرًا للدفاع (١٩٦٥). لكن عارف عبد الرزاق وكتلة الضباط الناصريين حاولوا بعد تسعة ايام فقط، وفي اثناء حضور عبد السلام عارف مؤتمر القمة العربي في الدار البيضاء، القيام بانقلاب والانفراد بالسلطة، ولكنهم فشلوا.

* **عبد الإله بن علي (١٩١٢-١٩٥٨):** أمير هاشمي وسياسي ووصي العرش العراقي بعد مقتل الملك غازي بن فيصل الاول (١٩٣٩) حتى بلوغ فيصل الثاني سن الرشد في ١٩٥٣. ولد في الحجاز، وكان الابن الوحيد للملك علي بن الحسين الذي تولى عرش الحجاز لفترة قصيرة جدًا. انتقل إلى العراق بعد اعتلاء عمه فيصل بن الحسين عرشها. تلقى العلم، دون نجاح، في كلية فكتوريا في الاسكندرية.

بدأ ظهوره السياسي في العراق كحليف لنوري السعيد في اواخر الثلاثينات، عندما كان نوري يسعى لفرض هيمنته على الملك غازي وعلى السلطة. وعبد الإله كان ناقمًا على ابن عمه الملك الذي كان قد طلق زوجته الاميرة عالية أخت عبد الإله.

في مطلع آذار ١٩٣٩، أعلن نوري السعيد عن وجود مؤامرة عسكرية هدفها إطاحة الملك غازي والشخصيات السياسية المهمة بما فيها هو نفسه (أي نوري السعيد) وتعيين عبد الإله مكان الملك. وقد أكد عبد الإله هذه الرواية مفسحًا بذلك المجال أمام نوري للتخلص من خصومه في الجيش. وعندما أعلن عن مقتل الملك غازي في حادث سيارة (١٩٣٩) حامت الشبهات حول عبد الإله ونوري ولازمتهما طيلة حياتهما.

وقف عبد الإله، كوصي على العرش، إلى جانب نوري السعيد ونفذ رغبة الانكليز إبان ثورة رشيد عالي الكيلاني. وبعد نحو عامين من فشل هذه الثورة، بدا أن عبد الإله ابتعد عن نوري السعيد ودفع وزارته إلى الاستقالة (حزيران ١٩٤٤)، واعتمد شاكر الوادي، من الضباط الشريفيين، والمعادي لنوري السعيد؛ وأخذ، لفترة، يشكل الوزارات ويفرض نفسه على المسرح السياسي. إلا انه لم يفلح في السيطرة على مقاليد الامور، فأعاد الانكليز نوري السعيد لرئاسة الوزارة، وعاد الوصي عبد الإله إلى كنفه ايضًا، مع محاولات بذلها أحيانًا مثل الدعم الذي قدمه لصالح جبر لمنافسة نوري. وحاول هذا الأخير إزاحة عبد الإله واقترح، في ١٩٥٤، تعيينه سفيرًا في الخارج. قتل، مع أركان النظام الملكي، صبيحة ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨.

* عبد الأمير الأنباري: سياسي ودبلوماسي عراقي. ولد في محافظة بابل جنوب شرقي بغداد، وفيها انهى المدرسة الابتدائية والثانوية قبل ان ينتقل إلى العاصمة بغداد ليدخل كلية الحقوق عام ١٩٥٢ ويتخرج حاصلاً على أعلى درجة بين اقرانه في القانون الدولي بشقيه الخاص والعام، لكن ترتيبه كان الثاني في دفعة خريجي ١٩٥٦، إذ احتل المركز الاول زميله فوزي سامي الذي يعمل الآن استاذًا في الجامعة.

بعد انهائه الخدمة العسكرية ودورة ضباط الاحتياط، عمل في المحاماة وفي وظائف موقتة إلى ان توافرت له بعثة دراسية، فسافر إلى الولايات المتحدة لدراسة القانون في جامعة هارفرد، وهناك حصل على الماجستير ثم الدكتوراه. وفي مطلع شبابه، وإبان دراسته الجامعية، قرأ الأنباري كتب سلامة موسى، وأعجب بافكاره، ووجد فيه المفكر العقلاني الذي أغنى المكتبة العربية لا بمؤلفاته فحسب، بل بترجماته ايضًا. وقد تأثر بأفكاره إلى حد القول إنه يدين لسلامة موسى بفضل كثير في تكوين طموحاته الاولى وتصرفاته كشاب.

بعد عودته من أميركا، بدأ الأنباري مسيرة صعوده المتأني، وبرز كمفاوض جيد للمرة الاولى في ١٩٦٨، أثناء مفاوضات العراق وبولندا حول عقد استثمار الكبريت. ويومها، كانت شركات اميركية وسوفياتية واوروبية تتنافس للفوز بامتياز تطوير حقل المشراق قرب الموصل، وهو الحقل الذي يربض على احتياطي هائل من الكبريت الخام. وقد ارتأت الحكومة العراقية منح الامتياز إلى شركة بولندية حكومية متطورة في أسلوب عملها. وسافر الأنباري مع وفد عراقي إلى وارسو وتفاوضوا طوال ٤٥ يومًا عادوا بعدها بعقد ما زال يعتبر من أنجح العقود التي أبرمتها بغداد.

وبعد مفاوضات الكبريت، شارك الأنباري في مفاوضات تأميم النفط عام ١٩٧٢، وأسفرت عن امتلاك العراق مفاتيح ثروته النفطية الضخمة.

وخلافًا لما يتصوره كثيرون، فإن الأنباري ليس بعثيًا. وهو لم يرتبط طوال حياته بأي حزب سياسي. وفضّل ان يرتبط طوال حياته بكونه رجل قانون مستقلاً غير ملتزم بأي حزب أو فئة، ولو كان يطيب له الحديث عن «الجانب المشرق» في المذهب الشيعي (وهو شيعي بالولادة)، أي الجانب الفقهي. ويقول إن المشرع العراقي أخذ بمبادىء الفقه الجعفري، نسبة إلى الإمام جعفر الصادق، في كثير من أمور الاحوال الشخصية. وهي موقع تقدير كل العراقيين.

عبد الامير الانباري.

آخر مهماته الدبلوماسية الصعبة، عمله كسفير للعراق في الأمم المتحدة في أحرج الأوقات وأصعبها، أي منذ لحظة فرض العقوبات على بغداد جراء حرب الخليج الثانية وحتى مغادرته نيويورك. يومها كان معزولاً، والعالم كله ضد بلده، ومع هذا كان عليه ان يواجه مجلس الأمن وان يتحدث أمام الصحافة والتلفزيون مدافعًا عن موقف حكومته، مثل مقاتل وحيد في ساحة مكشوفة.

ثم عمله في «مفاوضات النفط مقابل الغذاء» التي بدأها في شباط ١٩٩٦، وتضمنت أربع جولات من ٥١ جلسة عمل، وتوصل إلى توقيع اتفاق بصددها رغم ما كانت تبذله وزيرة الخارجية الاميركية مادلين أولبرايت لإفشالها. لم يصطدم الأنباري بأولبرايت شخصيًا. كما انه لم يلتق الرئيس صدام حسين أثناء جولات هذه المفاوضات. إذ كانت التوجيهات تأتيه عبر نائب رئيس الوزراء العراقي أو عن طريق وزير الخارجية، والوصية الأهم هي «الحفاظ على سيادة العراق وعدم المساس بوحدة أراضيه ولا كرامة شعبه» (عن إنعام كجه جي، «الحياة»، تيارات، تاريخ ٢ حزيران ١٩٩٦).

* عبد الرحمن عارف (١٩١٦-): عسكري وسياسي عراقي. شقيق المشير عبد السلام عارف. ولد في بغداد من جذور عائلية بورجوازية صغيرة من منطقة

الرمادي. انتسب إلى الكليـة الحربيـة في ١٩٣٦. انضم إلى تنظيـم الضبـاط الاحـرار في ١٩٥٧. رفـض تنفيـذ خطـة انقلابيـة أعدتهـا اللجنـة العليـا في اواخـر ١٩٥٧ لمناسـبة استعراض يوم الجيش في ٦ كانون الثاني ١٩٥٨ بحجة عدم وجود ذخيرة كافية وقلة عدد المنتسبين للضباط الاحـرار في وحدته.

على اثر بداية الخلاف بين أخيه عبد السـلام عارف وبين عبد الكريم قاسـم بعد نجاح ثـورة ١٤ تموز ١٩٥٨، نقل مع وحدته إلى الحدود الاردنية، ثم أحيل على التقاعد في ٢١ آب ١٩٦٢. وبعد حركة ٨ شـباط ١٩٦٣ ضد عبد الكريم قاسم عين قائدًا للفرقة الخامسة. سـاهم في تنفيذ خطة انقلاب عبد السلام عارف علـى حـزب البعث في ١٨ تشـرين الثـاني ١٩٦٣، وعـين علـى الفـور رئيسًـا للاركان رغم محدودية كفاءته العسـكرية. وعلـى اثـر وفـاة أخيـه عبـد السـلام عـارف في حـادث طـائرة (١٣ نيسـان ١٩٦٦) اجتمع الوزراء ومجلس الدفاع لانتخاب خلف لـه. ولم يتمكن عبد الرحمن عارف رغم تأييد الضباط والقـاهرة له من إحراز النجاح ضد منافسه الرئيسي عبد الرحمن البزاز في الدورة الأولى للاقتراع. وقد انسـحب البزاز في الـدورة الثانية وسمي عبـد الرحمـن عـارف رئيسًـا للجمهوريـة (١٦ نيسان ١٩٦٦). وإضافة إلى رئاسة الجمهورية تسلم رئاسة الـوزارة لفـترة قصـيرة (ايـار-تمـوز ١٩٦٧)، وبقـي رئيسًـا للجمهوريـة إلى ان أطاحتـه حـركـة ١٧ تمـوز ١٩٦٨ الـتي قادها البعث ضده. وقد سمح لـه بمغـادرة البـلاد ليعيـش في تركيا منذ ذلك الوقـت. تميز حكمـه بـالضعف واستشـراء الولاءات العشائرية وتراجعًا في النمو الاقتصادي.

*** عبـد الرحمـن النقيـب (١٨٤٥-١٩٢٧):**
سياسـي عراقـي. عميـد الأسـرة الكيلانيـة ونقيـب اشـراف بغداد. وقع اختيار الانكليز عليـه ليكـون أول رئيـس وزارة للحكومة المحلية بعد ثورة العشرين الوطنيـة في العـراق. وفي عهد هـذه الـوزارة، تم اعـلان العفـو العـام وإعـادة المنفيين السياسيين وتتويـج الملـك فيصـل الاول ملكًـا علـى العـراق وعقد المعاهدة العراقية-البريطانية الاولى (١٩٢٢). بين ٢٧ تشرين الاول ١٩٢٠ و١٧ تشـرين الثـاني ١٩٢٢، ألـف النقيب ثلاث وزارات.

*** عبـد السـلام عـارف (١٩٢١-١٩٦٦):**
عسكري وسياسي عراقي. ولد في بغداد. التحق بالاكاديمية العسـكرية ١٩٣٨-١٩٤١ وبكليـة الاركـان. خـدم في الجيش العراقي في حرب فلسـطين (١٩٤٨). انضـم إلى تنظيم الضباط الاحرار (١٩٥٧)، وعرف بصداقته وموالاته لعبد الكريم قاسم، وكان أول من أطلق العبارة الشهيرة «ما كو زعيم إلا كريم».

لعب عبد السلام دورًا رئيسيًا في تخطيط وتوقيت وتنفيذ ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨، وقد أذاع البيـان الاول للثورة بنفسه من اذاعة بغداد، وكان وقتها ضابط ركن وقائد الكتيبة الثالثة من اللواء العشرين التابع للفرقـة الثالثة والتي كانت في طريقها إلى الاردن. عين بعـد نجـاح الثـورة نائبًا لرئيس الـوزراء ووزيرًا للداخليـة. وعلـى الرغـم مـن صداقته لعبد الكريم قاسم الـذي اصبح القـائد الأعلـى للقوات المسلحة ورئيسًا للوزراء ووزيرًا للدفاع، فـإن عـدم وضوح العلاقات والنهج السياسي أديا إلى نشـوء خـلاف مبكر بين الاتجاهات والشخصيات الرئيسية في العهد الجديد حول عدد من القضايا، وفي المقدمة حـول الموقـف مـن الوحدة العربية مع الجمهورية العربية المتحدة والموقـف مـن الرئيس جمال عبد الناصر. وقد ناصر عبد السلام عـارف التيار الوحدوي الذي كان يحركه في العراق حـزب البعث في وجه المعارضة المتزايدة للوحدة من قبل الحزب الشـيوعي العراقي وبعض الفئات والتجمعات السياسية الأخـرى الـتي بدأت تلتف تدريجيًا حـول عبد الكريم قاسـم وتعمّـق الخلافات السياسية مع التيـار الوحـدوي مـن خـلال شـعار «ما كو زعيم إلا كريم، جمهورية لا إقليم». ونتيجة لضعـف شخصية البعث في تلك الفترة، ونقص المقـدرة القياديـة عنـد عبد السلام عارف، فإن التيار الوحـدوي واجـه محنـة ونكسـة، فنحي عبد السلام عارف عن مناصبه بعـد حـوالي شهرين من ثورة ١٤ تموز. وفي تشرين الثاني (١٩٥٨) اعتقل عبد السلام وحكم عليه بالموت. إلا ان عبد الكريم قاسم لم يصدّق على الحكم وأطلق سراحه في ١٩٦١.

وعندما نجح البعثيون في حركتهم العسـكرية المناهضة لحكم عبد الكريم قاسم في ٨ شباط ١٩٦٣ نصّبوا عبد السلام عارف رئيسًا للدولة، إلا انه مـا لبـث ان استغلّ الخلافات الداخلية في الحـزب فتنكّـر لهـم وقـام بانقلاب ١٨ تشرين الثاني ١٩٦٣ متحالفًا مـع بعض الضباط البعثيين السابقين مثل طاهر يحيى ورشيد مصلح وحردان التكريتي، والضباط الناصريين مثل عبد الكريم فرحان وعارف عبد الرزاق وهادي خماش ورشيد محسن وصبحي عبد الحميد إضافة إلى كتلـة الضبـاط «العارفيين» وعلى رأسهم المقدم سعيد الصليبي وعبـد الرحمن عـارف الأخ الأكبر لعبد السلام عـارف، الـذي

أصبح رئيسًا للاركان في العهد الجديد. وأخذ عبد السلام عارف يعمل بدهاء على التخلص من أركان التحالف العسكري المتنافر الذي أوصله للحكم. وفي غضون أربعة اشهر أخرج الضباط الأقوياء من البعثيين السابقين (حردان التكريتي وعبد الستار عبد اللطيف).

بعدها، أخذت الأمور تبدو كما لو ان السياسة الرسمية تتجه نحو خلق أوضاع مشابهة لتلك القائمة في مصر بهدف إقامة نوع من الوحدة بين مصر والعراق. وفي ٢٦ ايار ١٩٦٤، أعلن عن إقامة المجلس الرئاسي المشترك للتخطيط والتنسيق في المجالات السياسية والعسكرية والاقتصادية والثقافية، بغية التوصل إلى الوحدة الدستورية بين البلدين. كما نص الاتفاق على إقامة الاتحاد الاشتراكي العربي-القطر العراقي، أسوة بمصر. وفي هذا الجو أعلنت حكومة بغداد تأميم البنوك وشركات التأمين والمؤسسات الصناعية والتجارية الكبرى. غير ان رئيسي القطرين لم يجتمعا سوى مرة أو مرتين، وكان شبح فشل تجربة الوحدة بين مصر وسورية مخيمًا على قناعاتهما الوحدوية. كذلك فإن قرارات التأميم لم يكتب لها النجاح، وسجلت ركودًا اقتصاديًا طبع العهد العارفي.

وحاول عبد السلام عارف الاحتفاظ بالتحالف مع بعض الضباط الناصريين رغم الخلاف مع حركة القوميين العرب. فعين عارف عبد الرزاق قائدًا للقوة الجوية ثم رئيسًا للوزارة ووزيرًا للدفاع، وعبد الرحمن البزاز نائبًا لرئيس الوزراء. وأثناء حضوره مؤتمر قمة الدار البيضاء (ايلول ١٩٦٥) حاول الضباط الناصريون وحركة القوميين العرب القيام بانقلاب. لكن المحاولة فشلت، إذ تنبه لها خصومهم، لا سيما سعيد الصليبي، قائد حامية بغداد والقريب عشائريًا لعبد السلام عارف. وبعد ذلك، اتخذ حكم عبد السلام عارف طابع النظام الشخصي المحافظ. وعندما قام البعثيون بمحاولتهم ايضًا لاستلام الحكم في ٤ ايلول ١٩٦٥، اعتقل الآلاف منهم. وفي ١٣ نيسان ١٩٦٦، قضى عبد السلام عارف بحادث طائرة اثناء تجواله فوق منطقة القرنة في جنوبي العراق وسط عاصفة رملية (عن «موسوعة السياسة»، بيروت، ج٣، ط١، ١٩٨٣، ص٨٣٤-٨٣٦).

*** عبد الكريم قاسم (١٩١٤-١٩٦٣):**
عسكري وسياسي عراقي. ولد في بغداد من أب عربي وأم كردية. التحق بالاكاديمية العسكرية في ١٩٣٢-١٩٣٤، وبكلية الاركان ١٩٤٠-١٩٤١، وبمدرسة كبار الضباط

عبد الكريم قاسم (الى يمين الصورة) وعبد السلام عارف.

في انكلترا ١٩٥٠. شارك في حرب فلسطين ١٩٤٨. انضم إلى تنظيم الضباط الاحرار، وانتخب بحكم رتبته وأقدميته رئيسًا للجنة العليا للتنظيم.

أشرف، بالتعاون مع عبد السلام عارف، على تخطيط وتنفيذ ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ التي قضت على النظام الملكي، وأصبح قاسم قائدًا عامًا للقوات المسلحة ورئيسًا للوزراء ووزيرًا للدفاع. وعندما بدأ الصراع بين التيارات والشخصيات العقائدية والسياسية، مباشرة بعد نجاح الثورة، لتحديد اتجاه النظام الجمهوري الجديد وهويته، استغلت الفئات المعادية للوحدة مع الجمهورية العربية المتحدة، وفي مقدمتها الحزب الشيوعي العراقي، غموض اتجاهات قاسم وأذكت الطموح الشخصي عنده رافعة شعار «ماكو زعيم إلا كريم، جمهورية لا إقليم». وقد أدّى التشجيع الشيوعي والاقليمي له إلى الاصطدام بحزب البعث والعناصر القومية العربية في الجيش، فأبعد حليفهم في السلطة، ونائبه، عبد السلام عارف عن مراكز السلطة، ثم أحاله إلى المحاكمة، ونكل بكل خصومه في محكمة الثورة («محكمة المهداوي»)، وأطلق العنان للحزب الشيوعي، وجرت حوادث بالغة العنف ضد أخصامه وأخصام الحزب الشيوعي، خاصة ضد البعثيين.

وكنتيجة لذلك، حصل تمرد في الموصل (آذار ١٩٥٩) بقيادة العقيد عبد الوهاب الشواف وبمؤازرة الجمهورية العربية المتحدة. ولكن قاسم تمكن من سحقه والتنكيل بالمتظاهرين المؤيدين لحركة الشواف. كذلك تعرّض قاسم إلى حادث اغتيال على يد مجموعة من البعثيين

(راجع «صدام حسين» في هذا الباب) نحا منه بأعجوبة.
ويرجح انه نتيجة تفرده بالحكم، وتركيز الشيوعيين وغيرهم من مناهضي التيار الوحدوي العربي، على تمجيد شخصه («الزعيم الأوحد») إضافة إلى ضحالة ثقافته أصيب بداء العظمة، وهذا ما يستفاد من أقوال المقربين منه من أمثال محمد حديد، وزير المالية، وهاشم جواد وزير الخارجية في عهده.

أما علاقته بالشيوعيين الذين حاولوا ان يوطدوا مكانتهم تحت راية تأييده على انه «الزعيم الأوحد» ومن خلال تصفية خصومهم بالعنف والتسلل إلى المراكز المهمة في الجيش والدولة، فقد انقلب قاسم عليهم عندما أخذ تطرفهم العنفي (خاصة بعد احداث كركوك، تموز ١٩٥٩) يستنفر الرأي العام ضدهم في الوقت الذي ازداد فيه طموحهم للمشاركة في السلطة بعد أحداث الموصل (حركة عبد الوهاب الشواف)، فشقّ صفوفهم وهاجمهم علنًا وقام بحملة تطهير ضدهم.

من أشهر إجراءاته قانون الاصلاح الزراعي الذي أعلن في ايلول ١٩٥٨، وقانون رقم ٨٠ الخاص بتقليص مساحة الامتياز لشركة نفط العراق بنسبة ٩٠٪ الصادر في كانون الاول ١٩٦١. كما حاول التقرب من سكان الصرائف الفقراء في بغداد عن طريق بناء ضاحية بعشرة آلاف بيت أسماها «مدينة الثورة»، ومن الطبقات الوسطى والصناعية الغنية بواسطة وزير ماليته ومستشاره الاقتصادي محمد حديد. إلا انه ظل يفتقر إلى قاعدة سياسية وتنظيمية راسخة، وبقي في صف خصوم التيار الوحدوي العربي، ولم يتمتع الشعب العراقي في ظله بحكم القانون أو بنمو المؤسسات الدستورية والشعبية. وقد مكّن ذلك كله حزب البعث من تنظيم حركة عسكرية-مدنية في ٨ شباط ١٩٦٣، نجحت في إطاحة حكمه وتقديمه لمحكمة عسكرية قضت باعدامه فورًا (عن «موسوعة السياسة»، بيروت، ج٣، ط١، ١٩٨٣، ص٨٤٢-٨٤٣).

من النقاط البارزة في سياسة عبد الكريم قاسم اعلانه، في ١٩٦١، ان الكويت جزء من العراق، وذلك على اثر موافقة بريطانيا على اعلان استقلال المشيخة. فبعث بالقوات العراقية لترابط عند الحدود مع الكويت، مما وتّر الاجواء في المنطقة العربية، خاصة وان السلطات الكويتية سارعت إلى طلب النجدة من الانكليز. وهنا تحرك الرئيس المصري جمال عبد الناصر لـ«يحمي الكويت من أطماع قاسم» على حد تعبير الصحافة المصرية يومذاك، ولخشيته من ان يؤدي استفراد الانكليز بحماية الكويت إلى عودتهم القوية إلى المنطقة، إضافة إلى عدائه الشديد لقاسم. وجاء موقف عبد الناصر هذا ضد موقف موسكو التي كانت قد وضعت فيتو في مجلس الأمن ضد استقلال الكويت. لكن الجامعة العربية سارعت إلى الرد بقبول الكويت في عضويتها شرط ان يتم إبدال القوات الانكليزية بقوات عربية مشتركة تتولى حماية الكويت من عبد الكريم قاسم. وبعد سقوط قاسم، اعترفت الحكومة العراقية باستقلال الكويت.

من النقاط التي تُسجّل لعبد الكريم قاسم، رغم دكتاتوريته، انه لم يعتمد على أخوة أو أقارب في دعم نظامه. وهذا ما لفت إليه الكاتب العراقي نبيل ياسين-في معرض المقارنة مع الرئيس الحالي صدام حسين وما منحه لابنه عدي خاصة ولأفراد من أسرته وعائلته من سلطات ومكاسب-بقوله: «هل يعرف العراقيون أو العرب أن لعبد الكريم قاسم أخًا أكبر إسمه عبد اللطيف ظل نائب ضابط في الجيش حتى مقتل عبد الكريم؟!» («الحياة»، ٤ آذار ١٩٩٣، ص١٠).

*** عبد المحسن السعدون (١٨٧٩-١٩٢٩):**
سياسي عراقي. ولد في الناصرية من أسرة عربية نافذة حكمت مقاطعة المنتفق (منطقة واسعة تقع في الشمال الغربي للبصرة). التحق بـ«مدرسة العشائر» في اسطنبول، ثم دخل المدرسة الحربية العالية مع أخيه عبد الكريم. بعد تخرجهما، اختارهما السلطان عبد الحميد الثاني مرافقين له ومنحهما رتبًا إضافية. على اثر ثورة الاتحاد والترقي أنزل الاتحاديون رتبته، فقدم استقالته وعاد إلى بغداد. ثم ما لبث ان والى الاتحاديين وانتسب إلى جمعيتهم، فأصبح نائبًا في مجلس «المبعوثان» حتى ١٩١٩، وتميزت سياسته فيه بالابتعاد عن أقرانه العرب وممالأته للاتراك. والأمر نفسه تكرر مع الانكليز، فنال دعمهم، وكان وزيرًا في حكومات عبد الرحمن النقيب، حيث كان في مقدمة الساعين لتمرير المعاهدة الانكليزية-العراقية لاقتناعه بأن عناصر قيام حكم وطني استقلالي لم تكن متوافرة، وبأن الاخطار التركية على الموصل، والايرانية على العتبات الدينية المقدسة، والخلافات بين العائلة الهاشمية والعائلة السعودية تتطلب مساعدة بريطانيا والتفاهم معها.

في ١٨ تشرين الثاني ١٩٢٢، شكل وزارته الاولى، فعمل على تثبيت انتماء الموصل للعراق، وعودة الشخصيات المنفية، والتخفيف من نفوذ المفتشين الاداريين البريطانيين، وتوصل إلى بروتوكول يقضي بوجوب انهاء

المعاهدة الانكليزية-العراقية عندما يصبح العراق عضوًا في عصبة الامم، وتمكن من كسر شوكة نفوذ رجال الدين، وخصوصًا الايرانيين منهم (بدعم من الملك والانكليز)، وتوصل إلى اتفاق مع ابن سعود بخصوص تعيين الحدود بين العراق ونجد. لكن الازمة الاقتصادية والمعارضة التي كانت ترى فيه مطياعًا للارادة الانكليزية في نهاية الأمر دفعته لتقديم استقالته في تشرين الثاني ١٩٢٣.

في ١٩٢٤، انتخب السعدون رئيسًا للمجلس التأسيسي. فأيد التصديق على المعاهدة مع بريطانيا (رغم المعارضة الشعبية لها) مقابل تعهد بريطانيا بالمحافظة على حقوق العراق في ولاية الموصل. وأسندت إليه وزارة الداخلية في حكومة ياسين الهاشمي (آب ١٩٢٤)، وأشرف على انتخابات مجلس الأمة، فجاءت، وبتدخل منه، بأكثرية لمصلحة حزبه «حزب التقدم» ضد «حزب الأمة» (برئاسة الهاشمي) فشكل وزارته الثانية التي استمرت حتى تشرين الثاني ١٩٢٦ حين استقالت بسبب الخلاف الناشب بينه وبين رشيد عالي الكيلاني الذي انتخب رئيسًا لمجلس الامة، وبسبب الانشقاقات في حزب التقدم.

عاد وشكل حكومته الثالثة في ١٤ كانون الثاني ١٩٢٨. وبتأييد من الملك فيصل، اصطدم بالانكليز حول العديد من القضايا التي تمس المصالح العراقية، خصوصًا لجهة تقوية الجيش العراقي. وعلى اثر ظهور الاتفاقية الانكليزية-المصرية في صيف ١٩٢٩، ارتفعت آمال العراقيين بنيل الاستقلال وألح الملك على السعدون بتشكيل الوزارة للمرة الرابعة. فشكلها، بعد تردد، في ١٩ ايلول ١٩٢٩. وكانت الوزارة التي برز من خلالها كداعية حقيقي للاستقلال. أما انتحاره، باطلاق النار على نفسه في ١٣ كانون الاول ١٩٢٩، فلم يعطِ لها المؤرخون، حتى الآن، من اسباب سوى انه كان يعيش في حالة نفسية سيئة تفاعلت فيها المصاعب السياسية (في مقدمتها خيبته المريرة من الانكليز) والمصاعب العائلية والنفسية التي كان يعيشها على المستوى الشخصي.

*** عبد الوهاب الشواف (-١٩٥٩):** عسكري عراقي. أحد أعضاء الهيئة العليا للضباط الأحرار الذين أطاحوا الحكم الهاشمي (١٤ تموز ١٩٥٨).

مع استفحال الخلاف بين عبد الكريم قاسم وأنصار الفكرة الوحدوية العربية من ضباط ومدنيين، ومع وجود العقيد الركن عبد الوهاب الشواف آمر اللواء الخامس ومركزه مدينة الموصل (وكان معظم ضباط هذا اللواء من الضباط الأحرار)، أخذت الاوضاع تتأزم في المدينة التي شهدت مهرجانًا في ذكرى الجلاء عن بور سعيد. حاول الشيوعيون وأنصار قاسم إفساده بتوزيع المنشورات ضد الجمهورية العربية المتحدة بعد ان كان الرئيس عبد الناصر قد هاجمهم في هذه الذكرى (٢٣ تشرين الاول ١٩٥٨). ثم أخذت صحف الحزب الشيوعي تهاجم الشواف وضباط اللواء الخامس مطالبة قاسم بالتخلص منهم؛ وتلا ذلك إعلان الحزب الشيوعي انه سيعقد مؤتمرًا للسلام في الموصل. فزار الشواف عبد الكريم قاسم، أكثر من مرة، لاقناعه بالاقلاع عن هذا «التحدي» الموجه للمدينة وإلغاء المؤتمر. فكان جواب قاسم ان المؤتمر سوف يعقد في موعده (٦ آذار ١٩٥٩) وأن الشواف يتحمل مسؤولية أي حادث يعرقل المؤتمر.

وفي الموعد المحدد، تجمع المسلحون حول ثكنات الجيش في الموصل وأطلقوا النار عليها. وخرج الجيش من ثكناته وردّ على النار. وفي اليوم التالي، صدر عن اللواء الخامس البيان الأول لثورة الموصل التي سميت ايضًا «ثورة الشواف»، والتي كانت انتفاضة محلية أكثر من كونها عملاً مخططًا. وابتدأت المواجهة بمقتل القيادي الشيوعي كامل قازنجي. وأفضى الشواف إلى ضباطه بأن المعركة يائسة، إلا في حالة الصمود لمدة أربعة أو خمسة ايام ريثما يتاح للجيش العراقي بأن يتحرك دعمًا له. ولكن، سرعان ما ظهر الطيران الحربي فوق الموصل وقصف تجمعات الوحدات فيها، ولم يكن لدى اللواء الخامس وسائل دفاع جوي فعال. وأصيب الشواف بجراح، فسارع إلى المستشفى حيث طلب من ممرض كان هناك ان يضمد له جراحه. فتعرّف الممرض إليه وعاجله من مسدسه طمعًا في الحصول على جائزة مالية أعلنت عنها الاذاعة العراقية لمن يأتي بالشواف حيًا أو ميتًا. وأعقب هذا الاغتيال مذابح كبرى في الموصل، وكانت خاتمة مفجعة لثورة الشواف. ثم عقدت بعد ذلك محاكمات أسفرت عن حكم بالاعدام في ١٦ ايلول ١٩٥٩ صدر عن المحكمة العسكرية الخاصة (محكمة المهداوي) على عدد من الضباط.

*** عزت ابراهيم الدوري (١٩٤٢-):** سياسي عراقي، من وسط فلاحي فقير. درس في قضاء سامراء وبغداد، وانتسب لحزب البعث. اعتقل في ١٩٥٩ و١٩٦٢، وسجن على أثر حركة تشرين الثاني ١٩٦٣ وحتى ١٩٦٧. بعد حركة ١٧ تموز ١٩٦٨، عين رئيسًا للجنة العليا للعمل الشعبي وأصبح عضوًا في القيادة القطرية

لحزب البعث، وقبل نهاية ١٩٦٩ أصبح عضوًا في مجلس قيادة الثورة، وفي نهاية السنة نفسها عين وزيرًا للاصلاح الزراعي، ثم وزيرًا للزراعة والاصلاح الزراعي بعد دمج الوزارتين في ١٩٧٢. ترأس محكمة خاصة لمحاكمة ناظم كزار في مطلع تموز ١٩٧٣. وفي ١٩٧٤، أعيد انتخابه عضوًا في القيادة القطرية للحزب. وفي تشرين الثاني ١٩٧٤، عين وزيرًا للداخلية. ولدى تسلم صدام حسين منصب رئاسة الجمهورية في ١٦ تموز ١٩٧٩، عين عزت ابراهيم نائبًا لرئيس مجلس قيادة الثورة، وزار العديد من الدول العربية والاجنبية بهدف تطوير علاقات العراق معها.

* **عزيز الحاج علي حيدر**: سياسي شيوعي، ومفكر وأديب عراقي. ولد في بغداد من أصل كردي وفي عائلة بورجوازية صغيرة. أكمل تحصيله العالي في دار المعلمين العالية في بغداد، وعمل مدرسًا للانكليزية في المدارس الثانوية في مدينة الكوت (محافظة واسط). انضم إلى الحزب الشيوعي في ١٩٤٦. اعتقل في ١٩٤٨، وحكم عليه بالسجن المؤبد، وأفرج عنه بعد نجاح ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨. كتب مئات المقالات والعديد من الدراسات في مجلة الحزب «اتحاد الشعب»، وانتخب في ١٩٥٩ مرشحًا للجنة المركزية. سافر إلى موسكو وواصل فيها تعليمه الماركسي-اللينيني. أبدى منذ ١٩٦٤ معارضته لسياسة قيادة الحزب في تأييدها للحكم العارفي. انتخب في ١٩٦٧ عضوًا في المكتب السياسي، واشتدت خلافاته مع قيادة حزبه حول جملة من المواضيع الفكرية والتنظيمية والسياسية. قاد حركة انشقاق في الحزب الشيوعي العراقي (١٧ ايلول ١٩٦٧)، وعرفت حركته بـ«الحزب الشيوعي العراقي-القيادة المركزية»، وتميزت بدعوتها إلى الاستقلالية في الحركة الشيوعية وإلى الأخذ بالمنطلق القومي في القضية الفلسطينية. اعتقل في اواخر ١٩٦٨. وفي آذار ١٩٦٩، أدلى بتصريحات علنية ونشر مقالات في الصحف ينتقد فيها الخط السياسي المتشدد الذي انتهجه حزبه تجاه حزب البعث، وترك نهائيًا كل عمل حزبي منظم.

عين في اوائل ١٩٧١ ممثلاً دائمًا للعراق لدى منظمة الأونيسكو، وانتخب في ١٩٧٨ عضوًا في مجلسها التنفيذي، وترأس في داخلها المجموعة العربية لعدة سنوات، ثم مجموعة الـ٧٧. وأكمل تعليمه العالي بالحصول على شهادة الدكتوراه من جامعة السوربون، وواصل الكتابة وإعداد الدراسات ونشرها.

عزيز محمد.

* **عزيز محمد** (١٩٢٤-): سياسي عراقي. سكرتير الحزب الشيوعي العراقي من ١٩٦٤ إلى ١٩٩٣.

ولد لعائلة فلاحية في قرية قريبة من مدينة أربيل في كردستان العراق. أدخل الكتّاب، وفيه تعلّم القراءة والكتابة (القرآن وبعض قواعد اللغة العربية)، ثم دخل المدارس الحكومية في النصف الاول من الثلاثينات، و لم يتجاوز تعليمه الدراسة الابتدائية لظروف العائلة الاقتصادية الصعبة؛ فاشتغل مستخدمًا في دوائر الدولة حتى استقال منها للانصراف للعمل الحزبي. أمضى في السجن عشر سنوات (١٩٤٨-١٩٥٨)، أنشئت أثناءها، وفي السجن «صفوف لدراسة الاقتصاد السياسي وتاريخ الحركة الثورية العالمية واللغة العربية. وعهد التدريس فيها إلى رفاق مثقفين من امثال حسين الشبيبي ومحمد حسين ابو العيسى وغيرهما. بل أكثر من ذلك أنشأنا صفًا لتدريس اللغة الانكليزية. وكنا نحرص على ان تكون لدينا مكتبة لشتى فروع المعرفة. وفي السجن استطعت ان أقرأ طه حسين ونجيب محفوظ، والكثير الكثير من الروايات المترجمة من الأدب العالمي، خصوصًا الأدب الروسي والسوفياتي: مكسيم غوركي، تولستوي، تورجينيف، شولوخوف، رسول حمزاتوف وناظم حكمت، ونشطت حركة الترجمة في السجن... وكنا نصدر نشرات ثقافية ومجلات داخل السجن يحررها السجناء الذين أصبحوا في ما بعد كتابًا وصحافيين مرموقين... ولا بد من ذكر نواح أخرى في حياة السجن كالرياضة التي كانت يومية يمارسها الجميع...».

في ١٩٥٨، وبعد خروج عزيز محمد من السجن، انتدب لعضوية اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي. وفي ١٩٦٤، انتخب سكرتيرًا للجنة المركزية للحزب، وبقي في هذا المنصب حتى المؤتمر الوطني الخامس للحزب في تشرين الاول ١٩٩٣، حين طلب اعفاءه من مهماته القيادية، فانتخب المؤتمر حميد مجيد موسى لهذا المنصب.

انتسب عزيز محمد إلى الحزب الشيوعي العراقي في شتاء ١٩٤٥-١٩٤٦ بعدما مرّ بتشكيلات ماركسية أخرى مثل «جمعية الشعب» و«وحدة النضال» وحزب «شورش» (الثورة). وكان الحزب، في هذا الوقت، يشهد نهوضًا قويًا بعد الحرب العالمية الثانية (عن مقابلة شخصية مع عزيز محمد، «الوسط»، العدد ٢٨٨، تاريخ ٤ آب ١٩٩٧، ص٣٠-٣١) (راجع: «الحزب الشيوعي العراقي» في باب الاحزاب).

* علي جودت الأيوبي (١٨٨٦-١٩٦٩):
عسكري وسياسي عراقي. ولد في الموصل وتخرج في الكلية العسكرية في اسطنبول. انضم إلى الثورة العربية الكبرى (١٩١٦). عين حاكمًا لحلب ايام الحكم الفيصلي، ورحل مع فيصل إلى العراق حيث تقلب في مناصب وزارية عدة حتى أصبح رئيسًا للوزارة ١٩٣٤-١٩٣٥، ورئيسًا لمجلس النواب ١٩٣٥. غادر العراق على أثر ثورة الكيلاني، ثم عاد بعد ان نجح الانكليز في سحقها وأصبح وزيرًا للخارجية ١٩٤٨-١٩٤٩، ورئيسًا للوزراء ١٩٥٧. استقر في لبنان بعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨.

* علي صالح السعدي (١٩٢٨-١٩٨٠):
سياسي عراقي. ولد في بغداد من عائلة فلاحية كردية فيلية مستعربة. انتسب إلى كلية التجارة في مطلع الخمسينات. انتسب إلى حزب البعث وأصبح من قيادييه الرئيسيين بعد ثورة تموز ١٩٥٨ بفضل شجاعته وبقائه في العراق بعد ان اضطر العديد من قادة الحزب إلى الهرب خارج البلاد إثر المد الشيوعي ومجازر الموصل وكركوك في ١٩٥٩. شارك في المؤتمر القومي الخامس، فعارض فيه اتجاه بعض القياديين البعثيين نحو الماركسية. أصبح أمين سر القيادة القطرية للحزب ١٩٦٠-١٩٦٣، وشارك في التخطيط لحركة ٨ شباط ١٩٦٣، ولكن السلطات قبضت عليه قبل شهور من تنفيذ الخطة. عين وزيرًا للداخلية ونائبًا لرئيس الوزراء في وزارة البعث ١٩٦٣، ولعب دورًا رئيسيًا داخل القيادة القطرية آنذاك. اتهم بالتحقيق القاسي والثأري مع الشيوعيين، وبمواقف متطرفة ساهمت في تفاقم الانقسامات البعثية وضياع الحكم (١٩٦٣) والتحالف مع بعض الكتل اليسارية خارج العراق. حاول، مع بعض الحزبيين العراقيين القياديين تعطيل انعقاد المؤتمر القومي السابع (١٩٦٤) الذي انعقد في دمشق، إلا انه فشل في مسعاه. ونتيجة لعدم انضباطه فصل من الحزب، فحاول تشكيل تنظيمات سياسية منافسة ولكنه فشل ايضًا. عين بعد ثورة تموز ١٩٦٨، سفيرًا في وزارة الخارجية كنوع من التقدير لدوره قبل حركة ٨ شباط ١٩٦٣ (عن «موسوعة السياسة»، بيروت، ج٤، ط٢، ١٩٩٠، ص١٨٦-١٨٧).

* غازي بن فيصل، الملك (١٩١٢-١٩٣٩):
ملك العراق. ابن الملك فيصل الاول وأبو الملك فيصل الثاني. ولد ونشأ في مكة. قصد بغداد في ١٩٢٤ بعد تسميته وليًا للعهد في المملكة العراقية. أوفد إلى هارو في انكلترا للدراسة، فاقام فيها سنتين عاد بعدها إلى بغداد وتخرج في المدرسة العسكرية. تولى تصريف شؤون البلاد في غياب أبيه في ١٩٣٣، فوقعت «فتنة الأشوريين». فاتخذ منها موقفًا حازمًا. نودي به ملكًا في السنة نفسها (١٩٣٣) على أثر موت والده. تبرم من هيمنة ياسين الهاشمي على الحكم وصادق الفريق بكر صدقي، الأمر الذي شجع الأخير على القيام بانقلابه ١٩٣٦-١٩٣٧. وأخذ الملك الشاب يقرب نفسه من الناس الذين أخذوا يعتقدون انه على خلاف مع الانكليز. وعندما قُتل على اثر اصطدام لسيارته، مال الناس إلى الاعتقاد بأنه حادث مدبر من قبل الانكليز (عن «موسوعة السياسة»، بيروت، ج٤، ط٢، ١٩٩٠، ص٢٨٣). وأكثر السير المنشورة عن حياة الملك غازي ومقتله تفيد انه كان من انصار ضم الكويت إلى العراق، وانه كان يستقبل على الدوام شبانًا كويتيين يطالبونه بتحقيق ذلك، علمًا ان الانكليز كانوا يعتبرون هذا المطلب من التحديات الكبرى، المرفوعة في وجههم. وفي مقالة مطولة لرياض نجيب الريس («السفير»، ٤ ايلول ١٩٩٥، ص١٤) جاء: «أما الكويت فلم تنس ان أول من طالب بها واعتبرها جزءًا لا يتجزأ من العراق وأقام إذاعة لهذا الغرض، وأعدّ لغزوها واحتلالها، لم يكن عبد الكريم قاسم في العام ١٩٥٨، بل الملك غازي ملك العراق في العام ١٩٣٧. ولم يردعه عن هذا العمل إلا الوجود العسكري لبريطانيا في بلاد الرافدين وتهديد المندوب السامي البريطاني في بغداد».

فاضل الجمالي.

* **فاضل الجمالي (١٩٠٣-١٩٩٧):** معروف ايضًا بـ محمد فاضل الجمالي. سياسي عراقي. ولد في مدينة الكاظمية (قرب بغداد) لأسرة دينية ملتزمة. والده هو الشيخ عباس الجمالي الذي كان رجل دين معروفًا.

درس فاضل في مدرسة الإمام الخالصي وفي دار المعلمين في بغداد، وأجاز له الشيخ مهدي الخالصي السفر للدراسة في الجامعة الاميركية. فالتحق بالجامعة الاميركية في بيروت (١٩٢٢) وتخرج منها في ١٩٢٧، ثم غادر إلى الولايات المتحدة لاكمال دراسته. حاز على الاستاذية وشهادة الدكتوراه في ١٩٣٢ من جامعة كولومبيا. وكانت رسالتاه لنيل الماجستير والدكتوراه في التربية وعلم النفس. عاد إلى العراق ليعين مرشدًا عامًا ثم مديرًا للمعارف حتى ١٩٤٢. في ١٩٤٣، نُقل إلى وزارة الخارجية وتولى حقيبتها ثماني مرات في حكومات عدة. ترأس مجلس النواب مرتين.وتولى رئاسة الوزارة مرتين خلال العهد الملكي، كانت الاولى في ١٧ ايلول ١٩٥٣ واستقالت حكومته في ٢٧ شباط ١٩٥٤. وشكل حكومته الثانية في ٨ آذار ١٩٥٤ واستقالت في ١٩ نيسان ١٩٥٤.

ألقي القبض عليه في ١٩٥٨ وأحيل إلى «محكمة المهداوي» فوجهت إليه تهمًا شتى، منها انه كان يسعى لوحدة سورية والعراق، وحُكم عليه بالاعدام والسجن ٥٥ عامًا مع غرامة مالية قدرها ٢٠٠ ألف دينار. وكانت شفاعة ملك المغرب لدى عبد الكريم قاسم هي التي أنقذت رأسه من الاعدام، وخفضت الاحكام إلى عشر سنوات، ثم أطلق سراحه في ١٩٦١. اختار تونس منفى له. ومنحه الرئيس التونسي الحبيب بورقيبه درجة المواطنة ووسام الاستحقاق وسمّى شارعًا باسمه. توفي في ٢٤ ايار ١٩٩٧ في أحد مستشفيات تونس ودفن بعيدًا عن وطنه الذي لم يزره ولو مرة واحدة منذ غادره في ١٩٦١.

كان الجمالي مدركًا ان العراق الحديث، الذي هو ثمرة وحدة ولايات البصرة وبغداد والموصل العثمانية سابقًا، بحاجة إلى دعم دولي للوقوف على قدميه من ناحية وحماية كيانه من جيران طالما كانت ارض العراق ميدانًا لحروبهم وغزواتهم. ويقول إنه لولا التحالف مع بريطانيا لما تمتع العراق بحال من الاستقرار دامت حوالي اربعة عقود تم فيها رسم حدود البلاد مع معظم جيرانه، الأمر الذي كان له الفضل في تفرغ العراق للبناء حتى أصبح على رأس دول العالم الثالث المرشحة للانتماء للعالم الاول.

عند اشتداد الحرب الباردة، كان خيار الجمالي واضحًا بالانحياز إلى الغرب، وكان صريحًا في اجتماعات باندونغ ومحادثاته مع جمال عبد الناصر. ورغم اختلافه مع عبد الناصر إلا انه كان ضد التورط في صراع بين البلدين، ووقف علنًا في الجمعية العامة للامم المتحدة يدين العدوان الثلاثي على مصر في ١٩٥٦. ويبدو ان هذه الوقفة كانت وراء برقية جمال عبد الناصر لعبد الكريم قاسم، قائد ثورة تموز ١٩٥٨، يرجو فيها عدم تنفيذ حكم الاعدام بالجمالي.

وردًا على ما كان يُتهم به من «عمالة» للولايات المتحدة، كتب الجمالي اخيرًا في هذا الشأن يقول: «علاقتي بالولايات المتحدة هي علاقة ثقافة وصداقة عمرها ٧٣ سنة، وعلاقتي بالسياسة الخارجية الاميركية علاقة الصديق مع الصديق، اقترح وانتقد ولا أسكت إذا اعتدي على أمتي خاصة والانسانية عامة، وعندما كنت العربي النادر الذي يخاطب الاميركان مخاطبة الند للند وليس مخاطبة الضعيف للقوي. لم أسكت على الظلم الذي ألحقوه بالشعب الفلسطيني في انحيازهم المفرط لاسرائيل. كما لم أسكت على المظالم التي أوقعوها على الشعب العراقي». وطالت انتقاداته الامم المتحدة كذلك: «أنا عضو مؤسس للامم المتحدة، وأنا أحد إثنين ما زالا على قيد الحياة من الذين صاغوا ميثاق الامم المتحدة ووقعوا عليه في سان فرانسيسكو العام ١٩٤٥... فنحن حينما وقعنا على الميثاق وأقررنا مبادىء الامم المتحدة لم نوقع على منحها صلاحية قتل الشعوب وفرض الحصار والعقوبات غير الشرعية على الدول وشن الهجوم عليها... ما يحصل الآن خرق فاضح

لكل المبادىء والاعراف والقوانين الدولية. لهذا أطالب الامم المتحدة بالعودة إلى صيغة الميثاق وعدم الانجرار وراء سياسات الولايات المتحدة التي تفرض عليها ارادتها وتتسبب في انحرافها عن الاهداف التي من أجلها أنشئت».

وإذا كان الجمالي قد عانى، في اواخر ايامه، من الخيبة في السياسة الاميركية، فإن خيبته من الاطروحات والممارسات القومية العربية لم تكن اقل. فقد كتب يقول: «إنه مما يؤلم القومي العربي أشد الألم ان يرى انه مضطر إلى ان يتوقف ثماني مرات في سفرة بين عمان وبيروت في العهد الوطني بعد ان كان يمر بسهولة في ايام الاحتلال الاجنبي».

ترك مؤلفات شتى وعشرات المقالات في الصحف، ومن كتبه:

- العراق الجديد، مشكلة تربية العشائر البدوية فيه (أطروحة للدكتوراه باللغة الانكليزية).
- التربية والتعليم في تركيا الحديثة.
- اتجاهات التعليم في المانيا وانكلترا وفرنسا.
- الخطر الصهيوني.
- مواقف وعبر في القضية الفلسطينية.
- فلتشرق الشمس من جديد على الأمة العربية، وهو آخر كتبه وطبع في ١٩٩٦ (عن «الوسط»، العدد ٢٨٥، تاريخ ١٤ تموز ١٩٩٧، ص٣٣-٣٧؛ و«الحياة»، تاريخ ٢٦ ايار ١٩٩٧).

*** فهمي سعيد** (١٨٩٨-١٩٤٢): عسكري وسياسي عراقي، أحد ضباط ثورة ١٩٤١. ولد في السليمانية من قبيلة «العنبك» في الفرات الاوسط. عمل في الجيش العثماني، ثم الجيش السوري إبان حكم فيصل، ثم التحق بالجيش العراقي. عارض انقلاب بكر صدقي الذي أطاح وزارة ياسين الهاشمي في ١٩٣٦، وكان واحدًا من تكتل من الضباط يضم صلاح الدين الصباغ ومحمود سلمان وكامل شبيب وآخرين. ثم شارك في تخطيط وتنفيذ عملية اغتيال بكر صدقي في ١١ آب ١٩٣٧. كما شارك في إرسال المتطوعين والذخائر لدعم ثورة الشعب الفلسطيني (١٩٣٦-١٩٣٩). بدأ، ورفاقه الضباط الثلاثة، في ١٩٣٧، بتكوين تنظيم سري حمل إسم «حزب الاستقلال العربي»، أسندت زعامته، في ١٩٤١، إلى الحاج أمين الحسيني.

عند تشكيل «حكومة الدفاع الوطني» (برئاسة رشيد عالي الكيلاني) في ٣ نيسان ١٩٤١، كان فهمي سعيد أحد أعضائها. في اوائل ايار ١٩٤١، أي في الأيام الأولى من الحرب العراقية-البريطانية، نشر فهمي سعيد قواته على التلال المحيطة بقاعدة الحبانية، ولم يُعرف إلى اليوم سبب تأخره مدة يومين عن مهاجمة القاعدة، الأمر الذي مكّن القوات البريطانية المحاصرة في القاعدة من تنظيم هجوم جوي شديد كان له الدور الأساسي في هزيمة الجيش العراقي. في ٣٠ ايار ١٩٤١ غادر فهمي سعيد ورفاقه العراق متوجهين إلى ايران. وفي اليوم التالي، تم توقيع اتفاقية وقف إطلاق النار بين العراق وبريطانيا. والقت السلطات الايرانية على فهمي سعيد ومحمود سلمان وآخرين في آب ١٩٤١ وسلّمتهم إلى السلطات البريطانية التي احتجزتهم في جنوب افريقيا نظرًا إلى امتناع جميل المدفعي، رئيس الوزراء العراقي آنذاك تسلمهم حفاظًا على حياتهم. ثم سلّمهم الانكليز إلى السلطات العراقية في ربيع ١٩٤٢ بعد أن تولى نوري السعيد رئاسة الحكومة. وأعدم فهمي سعيد مع العقيد محمود سلمان والمحامي يونس السبعاوي في ٥ ايار ١٩٤٢.

*** فيصل الاول، الملك** (١٨٨٥-١٩٣٣): ابن الشريف حسين بن علي أمير مكة. تلقى تعليمه في اسطنبول. انتخب عضوًا في مجلس «المبعوثان» العثماني. بعد سقوط حكمه في دمشق (راجع «سورية»، ج١٠) ولاّه الانكليز ملكًا على العراق (١٩٢١-١٩٣٣، راجع «الملكية في العراق» في باب معالم تاريخية)، فانصرف إلى الاصلاح الداخلي بوضع دستور للبلاد، وأنشأ مجلس الأمة، وأقام العلاقات بين العراق وبريطانيا على أساس معاهدات ١٩٢٢ و١٩٢٦-١٩٢٧ و١٩٣٠، وأصلح ما بين العراق وجيرانه خاصة لجهة ترسيم الحدود.

إن أكثر ما أثير اللغط حوله في سياسة فيصل لا يتعلق بفترة وجوده وحكمه في سورية ولا بعد ذلك في العراق، بل بفترة تحركه الدبلوماسي والسياسي في اوروبا (وكان لا يزال أميرًا يعمل على إقناع بريطانيا بتنفيذ وعودها لأبيه الشريف حسين) خاصة في موضوع اجتماعه بالزعيم الصهيوني وايزمن مرة في العقبة (صيف ١٩١٨)، ومرتين في لندن (في فندق كارلتون ١١ كانون الاول ١٩١٨، ثم في ٣ كانون الثاني ١٩١٩)، وتوقيع اتفاقية معه.

حول هذه الاجتماعات يقول سليمان موسى في كتابه «الحركة العربية» أن فيصلاً حاول، في اجتماع العقبة، ان لا يتطرق إلى الامور السياسية مكتفيًا بإبداء

سروره إزاء تصريحات لوايزمن قال فيها إن «اليهود لا يرمون إلى تأسيس حكومة يهودية في فلسطين ولكنهم يريدون ان يعمّروا البلاد ويطوّروها تحت الحماية البريطانية دون ان يتعدوا على أية مصالح مشروعة للآخرين». كما ارضاه ان يخبره وايزمن بأنه سوف يسافر قريبًا إلى اميركا حيث سيستعمل «نفوذ اليهود مع الرئيس ولسون لمصلحة الحركة العربية».

أما اجتماع لندن (١١ كانون الاول ١٩١٨) الذي نظمه لورانس فاسفر عن توقيع اتفاقية «فيصل - وايزمن» في ٣ كانون الثاني ١٩١٩، وتنص على «القرابة والصلات القديمة بين العرب واليهود»، وعلى ضرورة التعاون في سبيل تقدم الدولة العربية وفلسطين وإنشاء وكالات عربية ويهودية معتمدة في المنطقتين، وعلى ان يسود التفاهم بين الدولة العربية وفلسطين، وان تقدم الضمانات لتنفيذ وعد بلفور، وتشجيع الهجرة اليهودية إلى فلسطين، وحرية ممارسة العقيدة الدينية.

ويذكر سليمان موسى (في المرجع المذكور) ان فيصلاً أضاف إلى مواد الاتفاقية الثماني بخط يده هذه الفقرة (التي يتضح من تاريخها انها أضيفت لاحقًا):

«إذا نالت العرب استقلالها كما طلبناه بتقريرنا المؤرخ في ٤ كانون الثاني ١٩١٩ المقدم لنظارة خارجية حكومة بريطانيا العظمى، فإنني موافق على ما ذكر في باطن هذا من المواد، وإذا حصل أدنى تغيير أو تبديل فلا أكون ملزمًا أو مربوطًا بأي كلمة كانت بل تعد هذه المقاولة كلا شيء ولا حكم لها ولا اعتبار ولا أُطالَب بأي صورة كانت». وجاء توقيع فيصل تحت هذا الكلام وجاء توقيع وايزمن تحت توقيع فيصل.

ويستند سليمان موسى بعد ذلك إلى المؤرخ البريطاني الشهير ارنولد توينبي ليقول بأن هذه الاتفاقية وصلت بعد ذلك بأيام إلى مؤتمر الصلح في فرساي مرفقة بنسخة من مذكرة فيصل إلى هذا المؤتمر، وبأن توينبي لاحظ ان وايزمن كان قد استعمل عبارتي «الدولة اليهودية» و«الحكومة اليهودية»، وهما العبارتان اللتان أبدلهما فيصل بـ«فلسطين» و«حكومة فلسطين». ثم ان فيصلاً بعث برسالة إلى الحكومة البريطانية موضحًا: «وفي ما يتعلق بمسألة رضاي عن إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين، فإنني اعتقد ان هناك شيئًا من سوء الفهم. إن كل ما وافقت عليه هو ان أحمي حقوق اليهود المقيمين في البلاد بمستوى المحافظة على حقوق السكان العرب الوطنيين، وان أمنحهم الحقوق والامتيازات ذاتها».

فيصل الاول.

غازي الاول.

فيصل الثاني.
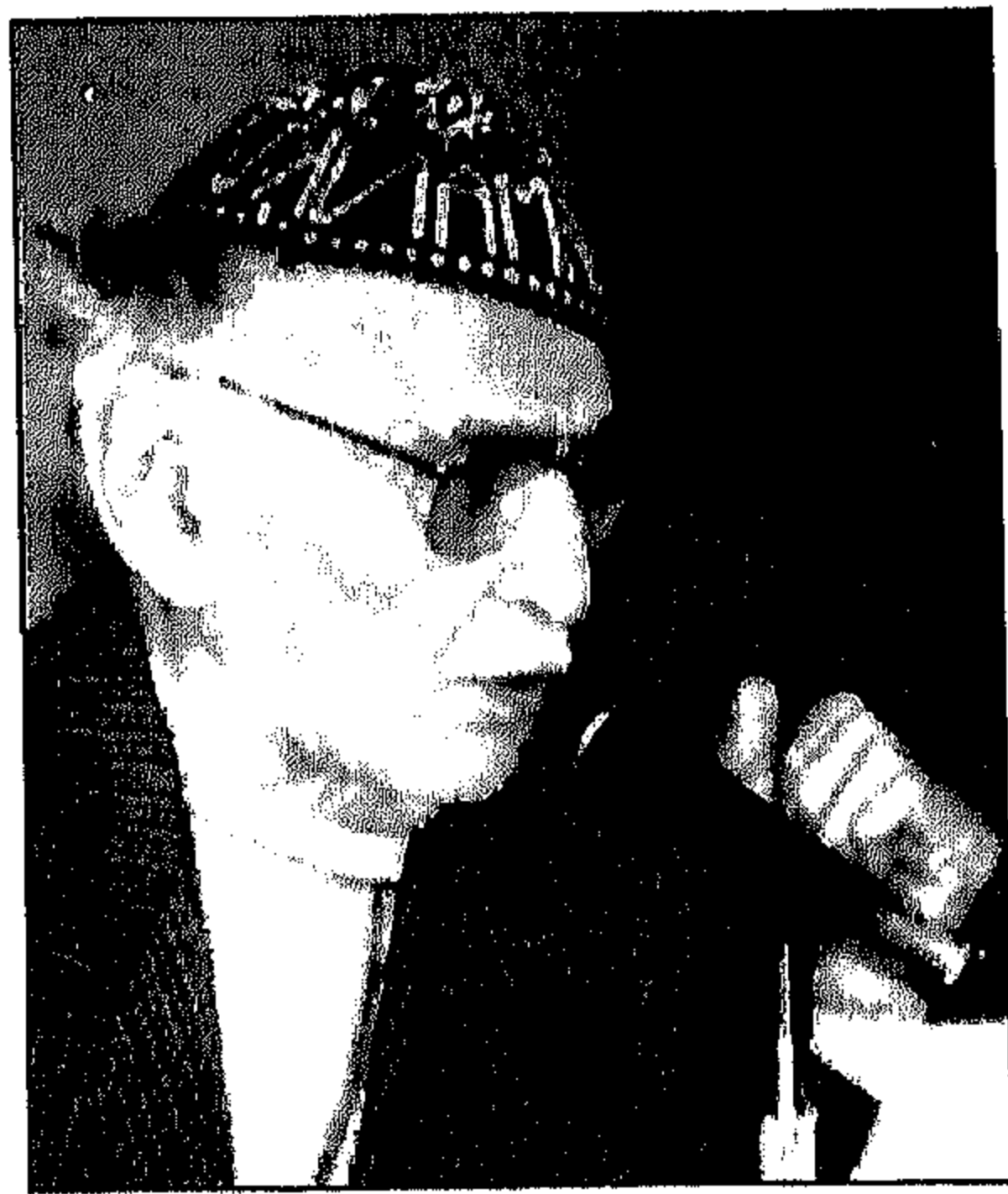
وهذا ما عاد وأكده فيصل، بعد شهور قليلة من توقيع الاتفاقية في حديثه لصحيفة «جويش كرونايكل» اللندنية، وقال فيه إن «فلسطين بلد عربي منذ أقدم العصور، وكل شيء فيها جزء لا يتجزأ من حياة العرب، وأكثر من هذا ففلسطين جزء لا يتجزأ من سورية ويجب ان تبقى كذلك. ونحن العرب لا نستطيع ان نتخلى عن ان تكون فلسطين جزءًا من مملكتنا، وسنحارب حتى الخندق الأخير ضد أي مشروع يرمي إلى فصل فلسطين عن المملكة، ومن أجل سيادة العرب على تلك الارض. صحيح ان بامكان اليهود ان يتمتعوا في فلسطين بحقوق وامتيازات متساوية مع العرب ولكن فلسطين أرض عربية ويجب ان تبقى في صلب الدولة العربية الجديدة». وأضاف فيصل في حديثه إياه انه اجتمع مؤخرًا بوايزمن (وقد يكون هذا هو الاجتماع الرابع بينهما) الذي عرض عليه مقترحات وجدها فيصل معقولة لأنها «لا تعني سيادة اليهود في فلسطين».

كامل الجادرجي.

معروف الرصافي.

* **فيصل الثاني، الملك** (١٩٣٥-١٩٥٨): ملك العراق وحفيد الملك فيصل الاول الهاشمي. بويع بعد وفاة أبيه الملك غازي، وكان في الرابعة من عمره فأقيم خاله عبد الإله بن علي وصيًا على العرش. درس في كلية إيتون العريقة في بريطانيا. توج في ايار ١٩٥٣، وتولى سلطاته الرسمية من دون ان يتمكن من الخروج من هيمنة خاله عبد الإله على الحكم حينًا، أو نوري السعيد احيانًا. لقي حتفه، مع اركان النظام الملكي، إبان ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨، وبه انتهى العهد الملكي الهاشمي على العراق.

محمد مهدي الجواهري.

* **كامل الجادرجي** (١٨٩٧-١٩٦٨): سياسي عراقي. ولد في بغداد ودرس فيها وتخرج في كلية الحقوق وعين معاونًا لوزير المالية. انتمى إلى حزب الإخاء الوطني في ١٩٣٠ وانتخب عضوًا في لجنته المركزية، وما لبث ان تركه في ١٩٣٣ وانضم إلى جماعة «الأهالي» التي كانت تصدر بهذا الاسم. دخل وزارة بكر صدقي في ١٩٣٦، واستقال في السنة نفسها. أسس مع جماعة الأهالي تنظيمًا سياسيًا عرف بـ«جمعية الاصلاح الشعبي». وفي ١٩٤٢، اصدر جريدة «صوت الأهالي» تمهيدًا لإنشاء الحزب الوطني الديمقراطي برئاسته والذي أجيز رسميًا في ١٩٤٦. وقد لعب هذا الحزب دورًا مرموقًا في وثبة كانون الثاني ١٩٤٨ التي أدت إلى إسقاط معاهدة بورتسموث. عارض الجادرجي الحكم الملكي واعتقل أكثر من مرة وحكم عليه

بالسجن ٣ سنوات بسبب موقفه القومي من العدوان الثلاثي على مصر (١٩٥٦). حاول ان يلعب دورًا بعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ من خلال إعادة تكوين حزبه في اوائل ١٩٦٠ وإشرافه على جريدة المواطن التي صدرت في حزيران ١٩٦٢ إلا انه لم يتمكن من ممارسة دور رئيسي في توجيه الاحداث (عن «موسوعة السياسة»، بيروت، ج٥، ط٢، ١٩٩٠، ص٥٨-٥٩).

* **كامل شبيب (١٨٩٥-١٩٤٤):** عسكري عراقي وأحد قادة ثورة ١٩٤١. ولد في بغداد. خدم في الجيش العثماني، ثم في الجيش السوري إبان الحكم العربي الفيصلي، ثم انضم إلى الجيش العراقي في ١٩٢١. انضم إلى تكتل الضباط القوميين الذي تشكل في ١٩٣٤ (راجع: صلاح الدين الصباغ، فهمي سعيد، محمود سلمان، في هذا الباب). نُفذ به حكم الاعدام، في آب ١٩٤٤، بسبب مشاركته في الحرب العراقية-البريطانية (حركة رشيد عالي الكيلاني) التي اندلعت في أول ايار ١٩٤١ واستمرت حتى ٣١ ايار ١٩٤١.

* **محمد مهدي كبّه:** سياسي عراقي. بدأ حياته السياسية عند قيام ثورة ١٩٢٠ في العراق. فانتمى إلى الحزب الوطني الذي كان يرأسه جعفر أبو التمن، وأصبح عضوًا في لجنته العليا، وقد استمر فيه حتى إعلان حظره في ١٩٣٣ بسبب معارضته النفوذ البريطاني. شارك في تشكيل جمعية الدفاع عن فلسطين، وانتخب نائبًا في البرلمان (١٩٣٧) وكان معارضًا. وفي ١٩٤٦، ألف مع المعارضة حزب الاستقلال وترأسه. اشترك في وزارة الصدر الأولى (١٩٤٨) التي جاءت على أثر نجاح المعارضة لمعاهدة بورتسموث، ولكنه استقال احتجاجًا على إعلان الهدنة في فلسطين. ثم استقال من مجلس النواب احتجاجًا على تزوير الانتخابات واتفاقية النفط. وعلى الرغم من التزوير المكشوف الذي لجأ إليه نوري السعيد في انتخابات ١٩٥٤ فقد نجح محمد مهدي كبّه؛ وعاد ونجح مرة جديدة بعد أن حلّ نوري السعيد المجلس وأجرى انتخابات جديدة. لكنه استقال احتجاجًا على التزوير والبطش الذي اشاعه نوري السعيد في البلاد.

حاول تشكيل حزب سياسي جديد بعد تعطيل نوري السعيد للحياة الحزبية، ولكنه لم ينجح في ذلك. وعندما وقعت ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨، عُين كبّه عضوًا في مجلس السيادة، ثم استقال احتجاجًا على مواقف عبد الكريم قاسم. اصدر مذكراته بعنوان «مذكراتي في صميم الاحداث».

* **محمد مهدي الجواهري (١٩٠٣-١٩٩٧):** شاعر عراقي ذو حضور مميز وأثر كبير في الحياة السياسية العراقية والعربية. بدأ كتابة الشعر و لم يبلغ العشرين من عمره، وعمل في القصر الملكي في بغداد في عهد فيصل الاول، كما عمل في التدريس، وفي الصحافة منشئًا جريدة «الرأي العام» (١٩٤٥). وكانت قصائده السياسية بالغة الجرأة، فاضطر بعد إلقاء أكثر من قصيدة إلى مغادرة وطنه. كما تعرض لمضايقات في بعض العواصم العربية. وما لبث في العقدين الاخيرين ان غادر العراق نهائيًا مقيمًا في غير مدينة اوروبية وعربية إلى ان استقر في دمشق حيث أمّن له الرئيس السوري حافظ الأسد رعاية خاصة. دفن في منطقة السيدة زينب، جنوبي العاصمة السورية.

* **محمود سلمان:** أحد ضباط ثورة رشيد عالي الكيلاني والحرب العراقية-البريطانية (ايار ١٩٤١). راجع: صلاح الدين الصباغ، فهمي سعيد، كامل شبيب... في هذا الباب.

* **مصطفى البرزاني (١٩٠٢-١٩٧٩):** سياسي عراقي كردي، وزعيم الانفصاليين الأكراد في شمالي العراق. ينتمي إلى قبيلة كردية عراقية (النقشبندية) ذات المكانة الدينية وتسكن منطقة بارزان في شمالي العراق (كردستان العراق). ورث الزعامة عن أخيه أحمد. قاد الجيش الكردي في جمهورية مهاباد (راجع «ايران، ج٤) في ايران. وهرب بعد انهيار هذه الجمهورية إلى الاتحاد السوفياتي، ثم عاد إلى العراق على اثر ثورة ١٩٥٨. تمرد على الحكومة المركزية في اوائل الستينات (في عهد عبد الكريم قاسم) بالاتفاق مع قوى خارجية. وقّع اتفاقية سلمية مع الحكومة العراقية في ١١ آذار ١٩٧٠، إلا انه لم يتقيد بها، وعمل مع قوى عالمية وإقليمية على استنزاف العراق عسكريًا واقتصاديًا وإضعافه سياسيًا محاولاً منعه من التوجه بكل طاقاته نحو فلسطين حين جدّد التمرد والصدام المسلح في كردستان العراق. انهار تمرده على اثر الاتفاق العراقي-الايراني في ١٩٧٥. لجأ بعد ذلك إلى ايران وفيها توفي، وورثه في زعامة حزبه الكردي أولاده، وبالأخص منهم مسعود البرزاني. في السنوات الأخيرة (١٩٩٦-١٩٩٨)، نشرت مقالات كثيرة تحدثت عن علاقة مصطفى البرزاني،

وارتباطه بأجهزة المخابرات الاسرائيلية، مستندةً إلى مراجع ومصادر ووثائق (راجع باب «كردستان العراق»).

*** معروف الرصافي (١٨٧٧-١٩٤٥):** شاعر وسياسي (نائب) عراقي. ولد في بغداد ونشأ في الرصافة واشتغل في التعليم ونظم قصائده في الاجتماع والوطنية والثورة على الظلم قبل الدستور العثماني. انتخب بعد ثورة الاتحاد والترقي نائبًا في مجلس «المبعوثان» العثماني، و لم يكن على وفاق في تلك الفترة مع الوطنيين العرب من دعاة الاصلاح واللامركزية. بعد الحرب العالمية الاولى، درّس في دار المعلمين في القدس، وعاد إلى بغداد وأصدر جريدة «الأمل» لمدة قصيرة، وانتخب عضوًا في مجلس النواب عدة مرات وأيدّ ثورة الكيلاني (١٩٤١)، فنظم أناشيدها وكان من أبرز خطبائها، ثم انزوى بعد فشلها. له مؤلفات كثيرة وديوان شعر.

في مجلة «آفاق عربية» (بغداد، العدد ١٢، السنة ١٣، كانون الاول ١٩٨٨، ص٤٤-٥٣) نص وثيقة هي عبارة عن حديث بين كامل الجادرجي ومعروف الرصافي، يقول الرصافي فيه: «ولدت في بغداد في بيت يقع في محلة القراغول يدعى بيت جاسم القراغولي الذي هو والد والدتي. أما ابي فكان حسب ما أذكر عريفًا في الدرك الذي كان يسمى الجندرمة. ولما كان أبي دائمًا في الوظيفة كان اتصالي به قليلاً جدًا فوالدتي هي التي تعهدت نشأتي... ولدت وعشت فقيرًا، أشعر بضنك العيش، فيصادف ان طعامنا لم يكن غير الخبز والخيار».

وعن وجوده في الآستانة، قال: «ذهبت إلى الآستانة (١٩٠٨)... لغاية إصدار جريدة باللغة العربية... وقد نفدت دراهمي في تلك المدة فاتصلت ببيت المطران، ندرة مطران وتخلة مطران، من أهل بعلبك، وقد قاما بمساعدتي لتسديد مصاريفي الشهرية، وكان لهما دور في القضية العربية». في هذه الاثناء قامت ثورة الاتحاديين، فكان «كل شخص صاحب عمامة يشتبه به. فنزعت العمامة وأبدلت الملابس الشعبية بالملابس الافرنجية». وفي الآستانة، أصدر الرصافي جريدة «العرب» التي سرعان ما توقفت عن الصدور، وعيّن مدرسًا في مدرسة «الملكية الشاهانة». وكان قبل وصوله إلى الآستانة وصل إلى بيروت حيث «استبقاني أدباء بيروت الذين احتفوا بي احتفاء كبيرًا (وفي بيروت طبع ديوانه بعد أن اعطته إحدى المطابع ٣٠ ليرة فرنسية ذهبًا)... وبعد قضاء ١٥ يومًا تقريبًا سافرت إلى الآستانة». وفي الآستانة «رشحني طلعت بك وزير الداخلية إلى النيابة... فانتخبت نائبًا عن المنتفك (في العراق) وأنا في الآستانة... لم أدخل في جمعية الاتحاد والترقي... كنت اتصل بالجماعات الذين كانوا يشتغلون بالقضية العربية وأجتمع بهم دائمًا ولكن لم أدخل معهم بصورة رسمية في حزب أو جمعية... وكان في تلك الآونة قد تألفت جمعية في بيروت (وهي الجمعية التي طاردها جمال باشا في أثناء الحرب) وقد حبذت أعمالهم في بداية الأمر فنظمت قصيدة عنوانها «في معرض السيف» دعوت فيها إلى النهضة العربية ولكن بعد ذلك أطلعت على منهاج تلك الجمعية ولما علمت بأن لهم إتصالاً بالاجانب نظمت قصيدتي التي عنوانها «ما هكذا...».

وبعد أن بقي الرصافي حتى ١٩١٩ في الآستانة، ذهب إلى دمشق، ومنها انتقل إلى التدريس في دار المعلمين في مدينة القدس حيث بقي سنة ونصف السنة. في هذه الأثناء كان عبد الرحمن النقيب قد ألف حكومة وطنية في بغداد، وكان هذا يطمح لأن يصبح ملكًا للعراق. وعاد الرصافي إلى العراق عن طريق القاهرة التي التقى فيها «فهمي المدرس وجعفر العسكري، وكانا قد أتيا إلى القاهرة لمواجهة بعض الشخصيات وكان السر برسي كوكس موجودًا في القاهرة وهؤلاء جميعًا حضروا مع المس بل لمواجهة المستر شرشل لتقرير الملوكية في العراق».

وبعد أن تألفت الحكومة الوطنية بعد مجيء فيصل، عين الرصافي مفتشًا للغة العربية، «ولكن بعد أن أخذ الاستاذ ساطع الحصري الشغل في المعارف علمت انه لم يبق لي شأن في المعارف فقررت أن أهجر العراق وأذهب إلى تركيا فذهبت فعلاً إلى اسطنبول كي أتجنس الجنسية التركية». ولما لم يوفق الرصافي بهذا المسعى ايضًا قصد بيروت حيث «سعى بعض الاصدقاء لأن اتجنس بالجنسية اللبنانية، وقد ألقيت هناك قصيدتي المشهورة («هي النفس») بمناسبة مجيء أمين الريحاني إلى بيروت وفي تلك الأثناء ابرق لي عبد المحسن السعدون بلزوم العودة إلى العراق فسافرت إلى بغداد وأراد عبد المحسن بك أن أتصل بالملك فيصل لأجل ان يزول بيننا البرود فواجهته و لم يتسن لي أن أواجهه بعد ذلك... وبقي عبد المحسن السعدون يرعاني ويعينني في المعيشة».

وبعد قصيدة ألقاها الرصافي وراقت للملك فيصل، أوعز إلى ساطع الحصري بإعادته إلى المعارف، فعاد وبقي فيها موظفًا من ١٩٢٣ إلى ١٩٢٨. في ١٩٣٠، انتخب نائبًا في المجلس الذي صدق معاهدة ١٩٣٠، وكان هو من المعارضين لها. وانتخب مرة ثانية، و لم يرشح نفسه لمرة

نوري السعيد.

أخرى، وترك بغداد لأن راتبه لم يكفيه لمعيشته، وذهب إلى الفلوجة (١٩٣٣)، وبقي هناك يشتغل بكتابه «الشخصية المحمدية» حتى ١٩٤١. ولما وقعت الحرب بين العراق والانكليز «اضطررت على العودة إلى بغداد».

من خلال هذه الحوارات التي أجراها الجادرجي، ودوّنها، بينه وبين الرصافي الذي كان يكابد المرض والهزال (١٩٤٤)، تبدو «شخصية الرصافي الفذة وآراؤه الطريفة ومواقفه الشجاعة. كما يبدو زهده وإباؤه وصدقه (ركّز الجادرجي على صفة الصدق هذه التي عرف بها الرصافي وكرهه الشديد للكذب) وقدراته الشخصية الخاصة».

* **نوري السعيد (-١٩٥٨)**: سياسي عراقي. ولد في بغداد، وكان أبوه موظفًا مدنيًا يعود نسبه إلى عائلة كردية. دخل المدرسة الابتدائية العسكرية، وفي ١٩٠٣ التحق بالكلية العسكرية في اسطنبول وتخرج بعد ثلاثة أعوام برتبة ضابط. عمل بعدها في جمع الضرائب على المواشي من البدو الرحل. بدأت خدمته العسكرية الفعالة في حرب البلقان (١٩١٢) والتحق، في العام التالي، بحركة الضباط العرب المسماة «جمعية العهد». اعتقله البريطانيون في مطلع الحرب العالمية الاولى، ثم التحق بالشريف حسين على اثر إعلانه الثورة العربية الكبرى ضد الأتراك (١٩١٦) وأصبح المستشار المقرب من الأمير (الملك في ما بعد) فيصل ورافقه في زياراته للندن وباريس. وفي ١٩٢٠، استدعاه عديله جعفر العسكري الذي عين وزيرًا للدفاع ليصبح رئيسًا لأركانه. وفي العشرينات وجه جهوده لتنظيم الشرطة ثم لإنشاء الجيش بصفته وزيرًا للدفاع. وفي ايار ١٩٣٠ أصبح نوري رئيسًا للوزارة وهو منصب احتله ١٣ مرة قبل ان يعين رئيسًا لوزراء الاتحاد العربي (الهاشمي) قبل مصرعه في ١٩٥٨.

وإلى جانب توليه رئاسة الوزارة تولى عدة مناصب وزارية كالدفاع والداخلية والخارجية في حقبات مختلفة. والواقع ان نوري السعيد كان بمثابة المهندس السياسي العام للنظام الملكي في العراق. ذلك ان مسألة المناصب الرئيسية أو امتناعه عنها كانت تخضع لاعتبارات ظرفية أو تكتيكية دون ان تغير إلى حد بعيد من حقيقة اعتماد النظام عليه كمستشار ومخطط رئيسي طيلة هذه المدة باستثناءات قليلة وبارزة (بعد انقلاب بكر صدقي ١٩٣٦ وثورة رشيد عالي الكيلاني ١٩٤١).

عرف نوري السعيد بسياسته الموالية كليًا لبريطانيا، وفي الفترة الأخيرة لبريطانيا وأميركا، ومسايرته للشركات الاحتكارية الغربية، وبعدائه للحركة الجماهيرية التحررية، وللاتجاه الوحدوي التقدمي العربي. وقد ربط العراق بسلسلة من المعاهدات مع بريطانيا ثم أدخل العراق في الاحلاف الاستعمارية (حلف بغداد) في الخمسينات بقصد محاربة حركة التحرر العربي تحت ستار محاربة الشيوعية، ووافق وزير خارجية الولايات المتحدة جون فوستر دالس على مجمل مواقفه ومن ضمنها الفكرة القائلة بأن «اسرائيل وجدت لتبقى». لاقى حتفه مع أركان النظام الملكي أثناء ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ (عن «موسوعة السياسة»، بيروت، ج٦، ط١، ١٩٩٠، ص٦٣٢-٦٣٣).

* **ياسين الهاشمي (١٨٨٢-١٩٣٧)**: ياسين حلمي «باشا» ابن السيد سلمان الهاشمي: زعيم العراق السياسي في عصره. ولد في بغداد، وتعلم فيها ثم في اسطنبول وبرلين. تخرج ضابط أركان حرب في ١٩٠٥، وخاض الحرب البلقانية (١٩١٢). دخل جمعية «العهد»، ونقل إلى الموصل ثم إلى دمشق حيث اتصل بالامير (الملك في ما بعد) فيصل، ودخل هو وفيصل في جمعية «العربية الفتاة». ونقل إلى رومانيا، وظهرت مواهبه العسكرية في ميدان «غاليسيا» دفاعًا عن النمسا أمام الروس. وأعيد إلى سورية عندما

كانت ثورة الحجاز تمتد إلى أطراف الشام، وتولى ياسين قيادة فيلق للترك كان مقره في الشونة (شرقي الاردن)، ولم يلبث ان ارتدّ بغير قتال نزولاً عند أمر القيادة العامة. ولحق العرب والبريطانيون بالترك يطاردونهم، وجرح ياسين وهو مع الاتراك، فتخلف في دمشق مختبئاً. ووصل فيصل وعين ياسين رئيسًا لديوان الشورى الحربي (١٩١٨). أمدّ ثورة العراق بالعون والرأي، فدعاه القائد البريطاني في دمشق (٢٢ تشرين الثاني ١٩١٩) إلى منزله في المزة (من ضواحي دمشق) فلما اراد الخروج من منزل القائد كانت على الباب سيارة مسلحة حملته مكرهًا إلى المعسكر البريطاني في اللد في فلسطين، واختفى أثره. وهاجت دمشق تطالب باعادته، فأطلق بعد أكثر من خمسة أشهر. فاقام في القاهرة ايامًا وعاد إلى دمشق واستمر فيها إلى ان دخلها الفرنسيون وغادرها فيصل. وقامت الدولة العراقية (آب ١٩٢١)، فأذن له الانكليز بدخول العراق، فتولى بعض الوزارات فيها، وألف «حزب الشعب» (أول حزب سياسي في العراق)، وانتخب عضوًا في المجلس التأسيسي عن بغداد، وتقلد رئاسة الوزارة مرتين، وضع في أولاهما قانون الانتخاب، وجمع أول مجلس للامة، وفي الثانية نفذ قانون التجنيد الاجباري وزود الجيش بثلاثة اسراب من الطيارات وأنشأ معملاً لصنع العتاد، وباشر بإنشاء معامل لصنع البنادق والرشاشات وذخيرة المدافع، ووضعت في ايامه «اتفاقية الحلف العربي» مع المملكة العربية السعودية واليمن، وأحكمت الصلات بين العراق ومصر. وعاش يحرّك سياسة العراق إلى ان قامت ثورة بكر صدقي في عهد وزارته الثانية (١٩٣٦)، فرحل إلى بيروت، وتوفي فيها ودفن في دمشق (عن «موسوعة السياسة»، بيروت، ج٧، ط١، ١٩٩٤، ص٣٨٧-٣٨٨).

* **يوسف بن نعمان السويدي (١٨٥٤-١٩٢٩)**: زعيم عراقي. مولده ووفاته في بغداد. تفقّه وتأدّب، وعمل مدة في القضاء الشرعي. كان من اوائل القائمين في العراق بالفكرة العربية في عهد الترك العثمانيين. فلما أعلنت الحرب العالمية الاولى اعتقل وحُمل إلى الآستانة، ومنها إلى الأناضول منفيًا. ثم أعيد إلى الآستانة. ولما انتهت هذه الحرب عاد إلى العراق، وقد احتله الانكليز، فقاومهم وكان من المنادين بالثورة. واشتعلت المعارك وتعددت، وكان في بغداد فجدّ الانكليز في طلبه، فخرج إلى عشيرة المشاهدة فطاردوه، فتوجه إلى سامرا، ثم إلى جهة الفرات حيث بقايا الثورة، ومنها إلى الشام، فأقام إلى أن أثمرت الثورة تأليف حكومة عربية في بغداد. فعاد، وعين عضوًا في مجلس الاعيان، ثم انتخب رئيسًا له. وكان كبيرًا في نفسه، وفي قومه، مقدامًا مخلصًا. له اشتغال بالأدب. جمع مذكراته في كتاب سماه «الخاطرات» أودعه ما شهد من حلائف الاحداث من طفولته إلى اواخر ايامه (عن «موسوعة السياسة»، بيروت، ج٧، ط٤، ١٩٩٤، ص٤٦٣).

* **يوسف سلمان (الملقب فهد)**: راجع «الحزب الشيوعي العراقي» في باب الاحزاب.

العربية السعودية، المملكة

بطاقة تعريف

الاسم: «المملكة العربية السعودية» منذ أن أعلن الملك عبد العزيز قيامها في اليوم الأول من الميزان، ٢١ من جمادى الاولى سنة ١٣٥١هـ الموافق ٢٣ ايلول ١٩٣٢. وأصبح هذا اليوم هو اليوم الوطني للدولة.

الموقع: تقع المملكة العربية السعودية في الجنوب الغربي من قارة آسيا في موقع متوسط بين قارات العالم القديم (آسيا، افريقيا وأوروبا) ويحدها من الشمال الاردن والعراق والكويت، ومن الجنوب سلطنة عُمان واليمن، ومن الشرق الخليج العربي والبحرين وقطر والامارات العربية المتحدة، ومن الغرب البحر الأحمر.

تطل المملكة على بحرين هما الخليج العربي من الشرق والبحر الأحمر من الغرب. يبلغ طول سواحلها على الخليج ٦١٠كلم ويقع عليه عدة موانىء أهمها ميناء الملك عبد العزيز في الدمام وميناء الملك فهد الصناعي في الجبيل. وطول سواحلها على البحر الأحمر ١٨٠٠كلم، وعليه عدة موانىء أهمها: ميناء جدة الاسلامي وميناء الملك فهد الصناعي في ينبع وميناء جازان.

المساحة: ٢ مليون و٢٤٠ ألفاً و٣٥٠كلم م.، أي ما يعادل نحو ٨٠٪ من المساحة الاجمالية لشبه الجزيرة العربية التي تبدو وكأنها قارة صغيرة.

اللغة: العربية (رسمية). وتدرس اللغة الانكليزية في جميع مراحل التعليم.

الخريطة موضوعة قبل توحيد اليمن في ١٩٩٠.

العاصمة: الرياض. وأهم المدن: جدة والدمام. أما المدن والأماكن المقدسة فهي: مكة المكرمة والمدينة المنورة. وفي المملكة نحو ٦ آلاف بين مدينة وقرية وهجرة (راجع باب «مدن ومعالم».

المناطق: تتكون المملكة العربية السعودية من ثلاثة عشر منطقة حسب نظام المناطق الجديد الصادر في ١٩٩٣، وهي:

- منطقة الرياض، مقر إمارتها مدينة الرياض.
- منطقة مكة المكرمة، مدينة مكة المكرمة.
- منطقة المدينة المنورة، مدينة المدينة المنورة.
- منطقة القصيم، مدينة بريدة.
- المنطقة الشرقية، مدينة الدمام.
- منطقة عسير، مدينة أبها.
- منطقة تبوك، مدينة تبوك.
- منطقة حائل، مدينة حائل.
- منطقة الحدود الشمالية، مدينة عرعر.
- منطقة جازان، مدينة جازان.
- منطقة نجران، مدينة نجران.
- منطقة الباحة، مدينة الباحة.
- منطقة الجوف، مدينة سكاكا.

وتتكون كل منطقة إداريًا من عدد من المحافظات والنواحي والمراكز ويعين لكل منطقة أمير بمرتبة وزير ونائب له بالمرتبة الممتازة وعدد من الاعضاء. ويكون للمجلس أمانة مقرها إمارة المنطقة.

السكان: بلغ تعدادهم ١٦ مليونًا و٩٢٩ ألفًا و٢٩٤ نسمة بحسب إحصاء ١٩٩٢؛ منهم ١٢ مليونًا و٣٠٤ آلاف و٨٣٥ نسمة من المواطنين السعوديين، و٤ ملايين و٣٢٤ ألفًا و٤٥٩ نسمة من المقيمين من غير السعوديين موزعين على مختلف مناطق المملكة ومدنها. أما معدل الكثافة السكانية فلا يزيد عن ٧ أفراد في الكلم م. الواحد. وأما النمو السكاني فهو عال مقارنة مع بقية دول العالم، ويتجاوز ٤٪ سنويًا ليجعل المملكة من بين أكثر خمس دول نموًا سكانيًا في العالم إذ تقدر الزيادة حاليًا بنحو نصف مليون نسمة سنويًا (هذه المعلومة عن النمو السكاني عن د.إحسان علي بو حليقة، سعودي متخصص في المعلوماتية والانتاج، «الحياة»، العدد ١٢٨١٢، ١ نيسان ١٩٩٨، ص١٢).

يدين المواطنون السعوديون بالدين الاسلامي الحنيف. أما مَن هم على المذهب الشيعي، فتقول بعض المراجع (خاصة الأجنبية منها) أن عددهم لا يتجاوز ٢٠٠-٣٠٠ ألف. وأما المسيحيون (كاثوليك وبروتستانت) فهم جميعًا من المهاجرين إلى المملكة بقصد العمل ولا يتعدى إجمالي عددهم ١-١،٢ مليون نسمة.

أما السكان البدو الرحل فأماكن وجودهم هي البادية التي تقع في اطراف المدن والقرى، والبادية التي تقع بجوار موارد المياه، والبادية التي تقع في أماكن بعيدة عن القرى وموارد المياه. والمعروف ان البدو ينقسمون إلى فئتين رئيسيتين: البدو الرحل وأشباه الرحل، والفئة الأخيرة هي الأكثر عددًا. وأما النهضة العمرانية في إطار خطط التنمية الواسعة التي تشهدها المملكة فآخذة في تقليص عدد البدو بتشجيعهم على الحياة الحضرية.

الحكم: النظام الملكي هو نظام الحكم في السعودية، ويشكل مجلس الوزراء ومجلس الشورى مع الملك السلطة التنفيذية والسلطة التشريعية في الدولة. ورئيس مجلس الوزراء هو خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز، ونائب رئيس مجلس الوزراء هو صاحب السمو الملكي الأمير عبدا لله بن عبد العزيز آل سعود، أما النائب الثاني لرئيس مجلس الوزراء فهو الامير سلطان بن عبد العزيز وزير الدفاع والطيران والمفتش العام.

الاسلام هو دين الدولة وتحكم به وتستمد المملكة جميع أنظمتها وتشريعاتها من القرآن الكريم وسنّة رسول الله.

في ١٩٩٢-١٩٩٣، صدرت في المملكة الأنظمة الأساسية للحكم وتوزعت على: ١- النظام الأساسي للحكم، ٢- نظام مجلس الوزراء، ٣- نظام مجلس الشورى، ٤- ونظام المناطق. وليست هذه الأنظمة-كما أكد الملك فهد في كلمته بمناسبة إصداره لهذه الانظمة-سوى توثيق لشيء قائم وصيغة لأمر واقع معمول به.

١- النظام الأساسي للحكم: يتكون من تسعة أبواب تتضمن على ٨٣ مادة. وتنص المادة الأولى على: «المملكة العربية السعودية دولة عربية اسلامية ذات سيادة تامة؛ دينها الاسلام ودستورها كتاب الله تعالى وسنة رسوله (صلعم) ولغتها هي اللغة العربية، وعاصمتها مدينة الرياض». وتنص المادة الثالثة على: «يكون علم الدولة كما يلي: أ- لونه أخضر. ب- عرضه يساوي ثلثي طوله. ج- تتوسطه كلمة «لا إله إلا الله ومحمد رسول الله» تحتها سيف مسلول، ولا ينكس العلم أبدًا». وتنص المادة الرابعة على: «شعار الدولة سيفان متقاطعان، ونخلة وسط فراغهما الأعلى». وتنص المادة الخامسة على: «أ- نظام الحكم في المملكة العربية السعودية ملكي. ب- يكون الحكم في أبناء الملك المؤسس عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود وأبناء الأبناء. ويُبايع الاصلح منهم للحكم على كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلّى الله عليه وسلّم. ج- يختار الملك ولي العهد ويعفيه بأمر ملكي...».

٢- نظام مجلس الوزراء: من ٣٢ مادة. تنص المادة الاولى على: «مجلس الوزراء هيئة نظامية يرأسها الملك». والمادة التاسعة: «مدة مجلس الوزراء لا تزيد عن أربع سنوات يتم خلالها

علم الدولة وشعارها.

إحدى الواجهات الخارجية لمبنى مجلس الشورى الجديد.

إعادة تشكيله بأمر ملكي...». والمادة التاسعة والعشرون: «الملك رئيس مجلس الوزراء هو الذي يوجه السياسة العامة للدولة...».
٣- نظام مجلس الشورى: النظام الأساسي لهذا المجلس من ٣٠ مادة، تنص المادة الاولى منه على: «... ينشأ مجلس الشورى ويمارس المهام المنوطة به وفقًا لهذا النظام والنظام الأساسي للحكم ملتزمًا بكتاب الله وسنة رسوله محافظًا على روابط الأخوة والتعاون على البر والتقوى». والمادة الثالثة: «يتكون مجلس الشورى من رئيس وستين عضوًا يختارهم الملك من أهل العلم والخبرة والاختصاص وتحدد حقوق الاعضاء وواجباتهم وكافة شؤونهم بأمر ملكي». والمادة الثالثة عشرة: «مدة مجلس الشورى أربع سنوات هجرية...». والمادة التاسعة عشرة: «يكون مجلس الشورى من بين أعضائه اللجان المتخصصة...». وهناك لائحة داخلية لمجلس الشورى تتناول اختصاصات رئيس المجلس ونائبه والأمين العام، والهيئات العامة للمجلس، والجلسات، واللجان، والتصويت وإصدار القرارات، وأحكام عامة، وجميعها مشمولاً بـ٣٤ مادة. وهناك كذلك لائحة حقوق اعضاء مجلس الشورى وواجباتهم (٦ مواد)، وتنظيم الشؤون المالية والوظيفية للمجلس (١٠ مواد)، وقواعد التحقيق والمحاكمة لعضو مجلس الشورى وإجراءاتها (٥ مواد).
٤- نظام المناطق: من ٤١ مادة. تنص المادة الاولى على: «يهدف هذا النظام إلى رفع مستوى العمل الاداري والتنمية في المملكة، كما يهدف إلى المحافظة على الأمن والنظام وكفالة حقوق المواطنين وحرياتهم في إطار الشريعة الاسلامية». وتنص المادة الثانية على:

«تنظم مناطق المملكة ومقر إمارة كل منطقة بأمر ملكي بناء على توصية من وزير الداخلية» (راجع «المناطق» في هذا الباب «بطاقة تعريف»).
أما الاحزاب السياسية، بمفهومها الحديث وتركيبها التنظيمي العصري فغير معروفة في المجتمع السعودي الذي يطغى فيه الولاء القبلي على غيره من الولاءات. وهناك معارضون موجودون في الخارج.

الاقتصاد: تتمتع المملكة بثروات طبيعية هائلة وعديدة، وفي طليعتها البترول (الذهب الأسود). ففي باطن الارض في المنطقة الشرقية من المملكة تقع أغنى منابع النفط في العالم، حيث ربع المخزون الاحتياطي العالمي من البترول ومن الغاز الطبيعي، كما تعد أكبر وأكثر دولة في الشرق الاوسط إنتاجًا وتصديرًا للنفط.
وعلاوة على ذلك فالمملكة غنية بمختلف المعادن الكامنة تحت سطح الارض في معظم مناطقها كالذهب والفضة والحديد والنحاس والبوكسيت والبيريت والزنك والنيكل والفوسفات والمنغنيز (المغنيسيوم) والجبيس والملح وغير ذلك. وأهم هذه المعادن الذهب الذي يقدر احتياطي المملكة منه أكثر من ٤،٥٩ مليون أوقية.
أما ثروة المملكة السياحية فعمادها الآثار وأماكن السياحة والترفيه.

بالنسبة إلى الآثار فإن المملكة غنية بها ولكنها لم تكتشف بعد في جميع مناطقها نظرًا إلى كثرة الممالك والحضارات القديمة التي نشأت وبادت على ترابها. ومع ذلك فهناك آثار قديمة جدًا لا تزال ماثلة للعيان كآثار مدائن صالح، كما توجد آثار قديمة نسبيًا كآثار خيبر والدرعية. ونتيجة لاهتمام المملكة مؤخرًا بالآثار والتنقيب عنها

وإنشاء المتاحف لحفظ ما يمكن حفظه منها، فقد تمّ بواسطة علماء الآثار السعوديين اكتشاف مدينة الفاو وآثار مملكة كنده وبعض الآثار والنقوش الثمودية. ومن ناحية أخرى، اكتشف ———— بعض علماء الآثار الاميركيين منذ فترة قريبة وبواسطة الأقمار الصناعية آثار قوم «عاد» المطمورة تحت رمال الربع الخالي والتي يعتقد انها آثار مدينة «إرم» ذات العماد التي ورد ذكرها في القرآن الكريم. وتضم المدينة المنورة ومكة المكرّمة آثارًا إسلامية مهمة تتمثل في المساجد القديمة المشهورة وآثار السدود والعيون واعداد كثيرة من الكتابات الاسلامية التي لا يوجد لها مثيل في العالم. وهناك المعالم البارزة ذات الصلة بتاريخ المسلمين منها جبل أحد وغار حرّاء وغار ثور ومواقع المعارك المشهورة في الاسلام مثل موقعة أحد وبدر. وتضم المملكة ايضًا آثار طرق الحج القديمة وما عليها من حصون وقلاع ومنشآت مائية. ومن أهمها طريق الحج القديم المسمّى «درب زبيدة»، وكشفت الحفائر الأثرية في العصر الحاضر عن أبرز المعالم الحضارية لمدينة الربذة الاسلامية التي تقع على ذلك الطريق.

أما بالنسبة إلى الاماكن السياحية فهي كثيرة في المملكة وتجتذب الكثيرين من السياح وهواة التنزه والآثار، سواء من الداخل أو من الخارج بفعل توفر وسائل النقل والفنادق والمرافق والخدمات السياحية. ومن أهم الاماكن السياحية في المملكة: منطقة عسير حيث توجد بالقرب من مدينة أبها منطقة السودة الساحرة بجبالها وخضرتها ووديانها وطقسها البارد والمعتدل: ومنطقة الكورنيش في شاطىء جدة، وتكثر فيها الحدائق وملاعب الاطفال وحمامات وبرك السباحة؛ وكورنيش الدمام وفيه شاطىء خليج نصف القمر الذي يحظى بشهرة كبيرة وإقبال متزايد من سكان المنطقة ومواطني دول مجلس التعاون الخليجية بشكل خاص. هذا إلى جانب عدد من المناطق السياحية في ربوع القصيم وحائل والباحة وبلجرشي وفيفا وظهران الجنوب وغيرها.

الزراعة: إلى عهد قريب، كانت المملكة العربية السعودية تعد بلدًا صحراويًا قاحلاً. لكنها استطاعت، خلال سنوات قليلة، ان تتحول من بلد مستورد للغذاء إلى بلد مصدّر له بعد ان حققت الاكتفاء الذاتي في كثير من المنتجات الزراعية الرئيسية وفي مقدمتها القمح الذي اصبحت السعودية تحتل (١٩٩١) المرتبة السادسة بين دول العالم المنتجة والمصدرة له، كما حققت المملكة الاكتفاء الذاتي من منتجات الألبان والدواجن وتصدر الفائض منها إلى الدول المجاورة.

وتحتل المملكة المرتبة الاولى في العالم في انتاج التمور حيث تنتج أكثر من ٥٠٠ ألف طن سنويًا. وهناك العديد من المنتجات الزراعية مثل الخضراوات والفواكه.

وتستخدم الزراعة في المملكة أحدث الطرق والتقنيات الزراعية وتقدم الدولة للمزارعين العديد من الحوافز والاعانات والمساعدات التي تشجعهم على مضاعفة الانتاج ومنها: توزيع الاراضي البور الصالحة للزراعة على المزارعين والشركات الزراعية مجانًا، وتحمّل الدولة نسبة ٤٥٪ من تكاليف المعدات والآلات الزراعية الثقيلة و٥٠٪ من قيمة الأسمدة المحلية والمستوردة، كما تقدم الدولة، ممثلة في البنك الزراعي السعودي، القروض طويلة الأجل بدون فوائد.

الصناعة: تسعى المملكة العربية السعودية إلى تحقيق الاكتفاء الذاتي من المنتجات الصناعية.

وتدعم الدولة الصناعة وتوليها كل الاهتمام

حيث أقامت مدنًا صناعية متكاملة الخدمات على أرقى مستوى من التخطيط، وخير شاهد على ذلك مدينتا الجبيل وينبع الصناعيتان اللتان تضمان العديد من المصانع العملاقة. إلى جانب المناطق الصناعية في جميع مدن المملكة الرئيسية والتي أنشئت كدعم من الدولة للمواطنين الراغبين في الاستثمار في المشاريع الصناعية وتتوافر في هذه المناطق الخدمات والمرافق كافة كالمياه والكهرباء التي تقدم للمصانع بأسعار رمزية.

كما تقدم الدولة، ممثلة في صندوق التنمية الصناعية، القروض طويلة الأجل بدون فوائد للمشاريع الصناعية وإعفاء المصانع من الرسوم الجمركية. وتصدر المملكة بعض صناعاتها وبخاصة البتروكيماويات للاسواق العالمية حيث تحظى بإقبال شديد من الدول المستهلكة لما تتمتع به من جودة عالية. ويبلغ عدد المصانع في المملكة نحو ٢٣٠٠ مصنع يزيد رأسمالها على ١١٠ مليار ريال.

النقل والمواصلات: وجّهت المملكة اهتمامًا خاصًا لبناء الطرق ومرافق النقل والمواصلات باعتبارها أحد أهم عناصر البنية الأساسية التي تعتمد عليها بقية القطاعات. ورغم اتساع مساحة المملكة وصعوبة التضاريس تمكنت خلال فترة وجيزة من الزمن من إنجاز شبكة واسعة من الطرق تربط المدن والقرى ببعضها كما تربط المملكة بالدول المجاورة. فبينما لم يكن في المملكة عام ١٩٥٣ (العام الذي أنشئت فيه وزارة المواصلات) سوى ٢٣٩كلم من الطرق المسفلتة نجد ان هذا الرقم قد قفز إلى نحو ٤٢ ألف كلم في العام ١٩٩٢، منها ٤٤٠٠كلم من ا لطرق السريعة والمزدوجة (الأوتوسترادات)، كما بلغت أطوال الطرق الزراعية نحو ٨١ ألف كلم.

جدول تقريبي بأعداد ونسب ابرز الجنسيات في السعودية حسب احصاءات ١٩٩٤ / ١٩٩٥

الجنسية	العدد	النسبة %
الهند	١٣٣٨٦٥٢	١٩,٦
مصر	١٢٩٥١٨٩	١٩,١
باكستان	٧٧٨٦٦٨	١١,٤
الفيليبين	٤٥٠٣٦٧	٧,٣
بنغلاديش	٤٤٦٢٨٢	٧,١
اليمن	٤٤٤٣٩٨	٦,٨
اندونيسيا	٢٤٩٤٥٨	٤,٠
السودان	٢٤٢٥٠٨	٣,٩
سورية	١٦٨٢٥٤	٢,٧
الاردن	١٥٥٤١٢	٢,٥
سيريلانكا	١٣٥٢٤٦	٢,٢
الكويت	١١٢٥١٩	١,٩
فلسطين	١١٠٦١١	١,٨
تركيا	٩٢٢٥٨	١,٥
لبنان	٧٥٠٠٠	١,٠
قبائل النازحة	٦١١٤٦	١,٥
اميركا	٣٤٧١٠	٠,٨
بريطانيا	٢٨٦٨٥	٠,٥

اما بقية الجنسيات وعددها ١٧٣ فإن نسبها اقل من ٠,٥ في المئة.

المصدر: «الوسط»، العدد ٣٠١، ٣ تشرين الثاني ١٩٩٧، ص ١٠.

وفي مجال السكك الحديدية يوجد خط حديدي يربط المنطقة الشرقية من المملكة بالرياض العاصمة، ويعمل على هذا الخط الذي يبلغ طوله ٥٧٨كلم قطارات حديثة وسريعة لنقل المسافرين والبضائع والسلع. كذلك أولت الدولة، ممثلة في المؤسسة العامة للموانىء، اهتمامًا بالغًا بالنقل البحري وإنشاء الموانىء على البحر الأحمر والخليج العربي، وتعتبر المملكة من أنشط الدول في أعمال النقل البحري بينها وبين مختلف دول العالم.

أما في مجال النقل الجوي فقد أنشأت الدولة مطارات حديثة بلغ عددها ٢٥ مطارًا منها ثلاثة مطارات دولية هي: مطار الملك خالد الدولي في الرياض (تم افتتاحه في ١٩٨٣) ومساحته ٢٢٥كلم م. وطاقته التشغيلية ٧،٥ مليون راكب سنويًا. ومطار الملك عبد العزيز الدولي في جدة (أنشىء في ١٩٨١) ومساحته ١٠٥كلم م. ودوره الأساسي في خدمة حجاج بيت الله الحرام. ومطار الظهران الدولي في المنطقة الشرقية، ومساحته ٧٨٠كلم م.، وقد شيّد حاليًا مطار الملك فهد الدولي في الظهران ليحل محل المطار السابق.

(ثلاثة كتب من إعداد وإصدار «إدارة الأبحاث والنشر بدار الأفق للنشر والتوزيع»، الرياض، وثمانية كراريس وعدد من المنشورات الاعلامية، حصل عليها المؤلف من الملحقية الثقافية في سفارة المملكة العربية السعودية في بيروت شكلت مراجع كل ما ذُكر أعلاه في هذا الباب «بطاقة تعريف»).

اعتمدت المملكة إطارًا تخطيطيًا للتنمية التي نفذتها دون الاستعانة بأية قروض من الخارج، فبدأت بخطط التنمية الخمسية: الأولى ١٩٧٠-١٩٧٥... السادسة (الحالية) ١٩٩٥-٢٠٠٠ التي هدفت إلى أن تضع السعودية على عتبات القرن الحادي والعشرين بتوفير التمويل الطويل الأجل وبشروط ميسرة لدعم نشاط القطاع الخاص ومساهماته في تنويع الاقتصاد الوطني، وبصورة متوازية مع تنفيذ ما ورد في النظام الأساسي للحكم في ما يتعلق بإعادة تشكيل الوزارة ودعمها بعناصر شابة برئاسة خادم الحرمين الشريفين الملك فهد.

مع بداية ١٩٩٧، أي بعد نحو سنتين من بدء تطبيق الخطة الخمسية السادسة، انشغل الاقتصاديون السعوديون بثلاث قضايا رئيسية:

١- توسيع مساهمة المواطنين والمواطنات في قوة العمل.

٢- توسيع مساهمة القطاع الأهلي في الاقتصاد المحلي.

٣- «سعودة» قوة العمل المدنية وسط تناول تقارير غير رسمية عن وجود بطالة في أوساط المواطنين.

وهذه القضايا استتبعت قضية الوافدين من العمال الذين يشكلون الشريحة الأكبر في العديد من المهن. وتقدر قوة العمل (اليد العاملة) حاليًا بنحو ٧ ملايين، منها قرابة ١٢٪ تشتغل في القطاع الحكومي، أما مساهمة العمالة الوافدة فتعادل ضعفي مساهمة نظيرتها السعودية.

وقضية «سعودة» قوة العمل دونها تحدٍ مهم لأسباب ديمغرافية واقتصادية، منها ان قرابة ٤١٪ من السكان هم تحت الـ١٥ من العمر، يضاف إلى ذلك ان تحويلات العمالة الوافدة من العملات الاجنبية تشكل عبئًا متزايدًا على الحساب الجاري.

أما أهداف الخطة الخمسية السادسة (الحالية) فقد نصت على «تكوين المواطن العامل المنتج ومساعدته للوصول إلى تلك المرحلة، وإيجاد مصدر الرزق له وتحديد مكافآته على أساس عمله». ويأتي هذا الهدف ثالثًا ضمن الاهداف العامة للخطة المذكورة مباشرة بعد هدف المحافظة على القيم الاسلامية، وهدف الدفاع عن الدين والوطن. وتطمح السعودية إلى توظيف ٦٥٠ ألف مواطن خلال الخطة الخمسية الحالية ستوجه معظمهم إلى القطاع الخاص بعد

انحسار التوظيف في القطاعات الحكومية، وقد جرى تأسيس صندوق لتأهيل القوى العاملة السعودية وتوظيفها، وأدرج هذا الصندوق في إطار «مجلس القوى العاملة السعودية».

واصل الاقتصاد السعودي، للسنة الثالثة على إطلاق الخطة الخمسية السادسة، أداءه الذي لعبت فيه استثمارات القطاع الخاص والصادرات غير النفطية دورًا مميزًا بدعم من الحكومة. ونجحت المملكة في السيطرة على التضخم وتحقيق نمو خلال الاعوام ١٩٩٤-١٩٩٧ يصل إلى ٤،٥٪. ولعل أبرز أحداث الاقتصاد السعودي في ١٩٩٧ كان في التطورات النفطية، وتحديث الانظمة والقوانين للاقتراب من رحى العولمة ومنظمة التجارة العالمية باقتصاد مطمئن، والاعلان عن تخصيص قطاع الاتصالات لتتولاه «شركة الاتصالات السعودية» التي ربما اصبحت كبرى الشركات المساهمة في السعودية.

أخيرًا، تعتزم المملكة اتخاذ المزيد من الاجراءات لزيادة ايراداتها غير النفطية في إطار برنامج الاصلاحات الاقتصادية. ويتوقع أكثر الاقتصاديين السعوديين بأن الخطة التنموية المقبلة (الخطة الخمسية السابعة) التي تبدأ في العام ٢٠٠٠ امتدادًا للخطة الحالية لجهة تنمية الايرادات غير النفطية وإعطاء القطاع الخاص دورًا أكبر في عملية التنمية الاقتصادية، خاصة وان الخطة المقبلة ستتزامن مع تحديات تواجه الحكومة خصوصًا ضعف أسعار النفط وتزايد متطلبات التنمية وتأمين وظائف للمواطنين وتقليل الاعتماد على الوافدين وتحقيق نمو لا يتأثر بالتقلبات في أسواق النفط العالمية.

ميزات رئيسية ثلاث: مستقر أكبر تجمع من القبائل في العالم، وأول وحدة حقيقية بعد صدر الاسلام، واقتران الدولة بالاسلام: راجع باب «معالم تاريخية».

نبذة تاريخية

التكوّن الجيولوجي: ثمة نظريتان تفسّران التكوّن الجيولوجي لشبه الجزيرة العربية التي تشغل المملكة العربية السعودية الجانب الأكبر منها.

الأولى، ويقول بها بعض الجيولوجيين الذين يعتقدون انه في الوقت الذي كانت فيه اوروبا تعيش عصرها الجليدي، كانت شبه الجزيرة العربية ارضًا زراعية خصبة تنتشر فيها الغابات ويعيش فيها كثير من الحيوانات التي انقرضت في ما بعد. وحين انحصر الجليد عن اوروبا إلى الشمال تناول التغيير المناخي والجيولوجي شبه الجزيرة، فارتفعت فيه الحرارة، وتلاشت معظم الاراضي الزراعية، وكثرت الصحاري الشاسعة.

الثانية، يذهب اصحابها الجيولوجيون إلى الاعتقاد بأن شبه الجزيرة كانت متصلة بالقارة الافريقية من جهتها الغربية، وبالهضبة الايرانية من جهتها الشرقية، وإن ذلك كان يشكل قارة قديمة تدعى «جندوانا». ويستدل اصحاب هذه النظرية بوجود الصخور البركانية الضخمة في المنطقة الغربية من المملكة والتي تقابلها صخور مماثلة في بعض أجزاء الشاطىء الافريقي الشرقي والسهول الرسوبية الواسعة في المنطقة الشرقية من المملكة والتي تقابلها سهول مماثلة في الشاطىء الشرقي للخليج العربي. وليس هناك بعد ما يقطع بصحة النظريتين أو بنفيهما (وحول المناخ وتأثيره، راجع «شبه الجزيرة العربية»، ج١١).

التاريخ القديم: التأثير الكبير على مجرى احداث تاريخ شبه الجزيرة هو دون شك تأثير جغرافي. فوسطها محاط بمساحات شاسعة من الصحارى كالربع الخالي في المنطقة الشرقية والجنوبية الشرقية، وصحراء الدهناء، وصحراء النفود الغربي، وهو الأمر الذي حال دون التوغل أو الهجرات من أو إلى المنطقة الوسطى نظرًا إلى صعوبة أو استحالة اجتياز الموانع الطبيعية المحيطة بالمنطقة (راجع «شبه الجزيرة العربية»، ج١١). وهكذا اقتصر أكثر النشاط البشري والتفاعل الحضاري على أطراف شبه الجزيرة العربية شمالاً وجنوبًا وشرقًا وغربًا، بينما ظلت المنطقة الوسطى غالبًا منعزلة.

التاريخ القديم للملكة وفقًا على ما ستبينه أعمال التنقيب الجارية. هذه الأعمال التي لم تعرف بعض الزخم إلا بعد اكتشاف النفط، وكانت قبلاً نادرة قياسًا على ما كان يجري من اهتمام البعثات الغربية في المناطق الشمالية من شبه الجزيرة، أي في بلاد الرافدين ومنطقة الهلال الخصيب عمومًا. وكان العامل الديني (اعتقاد كان سائدًا يقول بـ«جاهلية» كل سابق على الاسلام) سببًا مهمًا في تأخر أعمال تنقيب هذه البعثات. وفي العام ١٩٦٢، صدر مرسوم ملكي بتأليف مجلس أعلى للآثار استهدف القيام بالمسوح الأثرية الشاملة في المملكة. ومنذ ذلك الحين، بدأت الآثار تكشف عن حقائق تاريخية لم تكن معروفة من قبل، وتشير ان الانسان قد سكن شبه الجزيرة في العصرين الحجريين المتأخر والمتقدم. وسجل عام ١٩٧٠ انطلاقة السعي الحثيث والجدي لدراسة الآثار في المملكة مع تعيين الدكتور عبدالله مصري مديرًا للآثار والمتاحف في المملكة. وللدكتور مصري دراسة مهمة عن مدينة «أبيد» Ubeid الأثرية الواقعة شرقي المنطقة.

وأما عن علاقة شبه الجزيرة بالمناطق الشمالية المتاخمة (بلدان الهلال الخصيب) سواء لجهة أصل شعوبهما أو لجهة العلاقة الحضارية، فلقد جرت دراسات كثيرة بصددها وحوارات ونقاشات أخذت مذاهب شتى (راجع «شبه الجزيرة العربية»، ج١١)؛ و«سورية»، ج٩)، نختار من بينها ما كتبه الدكتور فيليب حتي («العرب، تاريخ موجز»، ص٩-١٥):

«وفي جزيرة العرب نشأ أولاً اجداد الشعوب السامية، من بابليين وآشوريين وكلدانيين وعموريين وآراميين وفينيقيين وعبرانيين وعرب وأحباش. وفيها قطنوا برهة من الزمن، قبل ان نزحوا وصاروا إلى ما صاروا إليه...

«وإذا كانت الجزيرة موطن الساميين الاصليين، فالهلال الخصيب، الممتد من الخليج العربي إلى سيناء، وفيه العراق وسورية ولبنان وفلسطين، كان مربع مدنيتهم الاولى. ففي وادي الفرات، الذي نزح إليه الساميون حوالي ٣٥٠٠ق.م. ازدهرت الثقافة البابلية. وتحدّر إلى شمالي سورية، حوالي ٢٥٠٠ق.م. العموريون ومنهم الكنعانيون (الذين سمّاهم اليونان فينيقيين)، فاحتلوا شواطئ لبنان واصبحوا أسبق المستعمرين والتجار العالميين. وإن مأثرتهم في نشر الحروف الهجائية وحدها تكفي لتجعلهم بين عظماء المحسنين إلى الانسانية...

«إن العرب المسلمين قد اصبحوا بعد فتحهم للهلال الخصيب، ورثة هؤلاء الساميين الاوائل. وقد ورثوا كذلك ثقافة بلاد العرب الجنوبية، التي ازدهرت قبل الاسلام بألف سنة.

«وقد كان أصل ملكة سبأ التي تذكرها التوراة من جنوبي الجزيرة العربية».

الألف الثالث والثاني ق.م.: تضمنت النقوش المسمارية التي اكتشفت في بلاد الرافدين إشارات غامضة إلى بعض المدن والاماكن في شبه الجزيرة العربية، كما ان النقوش التي اكتشفت في مصر كانت هي الأخرى أشارت إلى بعض المناطق في شبه الجزيرة العربية. إلا ان جميع هذه النقوش جاءت مبهمة ولا تكفي لاستقصاء معلومات واضحة عن طبيعة العلاقات بين كل من مصر وبلاد ما بين النهرين بشبه الجزيرة. إلا ان الثابت لدى علماء الآثار والمؤرخين هو ان علاقات مصر بشبه جزيرة سيناء وبالبحر الأحمر قديمة جدًا، كما ان حاجتها إلى البخور المستورد من جنوبي شبه الجزيرة العربية قد دفع بسكان هذه الأخيرة، منذ أقدم الازمان، إلى إقامة علاقات مع مصر.

وشهد الألف الثاني ق.م.، من مطلعه إلى أواخره، ثلاث ظاهرات حضارية كبرى:

- استنباط الابجدية التي عرفها المؤرخون بـ«الابجدية السامية» التي انبثقت منها كل ابجديات الشعوب السامية الأخرى: العرب، الأكاديون، البابليون، الأشوريون، الكنعانيون (الأموريون، المؤابيون، الأدوميون، العمونيون، الفينيقيون)، والقبائل الأرامية المختلفة وفيها العبرانيون، وجزء كبير من سكان إثيوبيا. وقد كان لهذا الاستنباط تأثير عظيم، في ما بعد، في التطور الحضاري لهذه المنطقة وفي نشوء اللغة العربية.
- حدوث هجرات واسعة (يؤكدها المؤرخون لكن لا يملكون معلومات واضحة عنها) مصحوبة بتحولات جذرية في حياة الجزيرة بسبب دخول بلدان شمالي شبه الجزيرة (بلدان الهلال الخصيب) في العصر الفولاذي، وبسبب توطن القبائل الأرامية السامية في بعض مناطق الهلال الخصيب.
- تدجين الجمل الذي كان «أول مساهمة عربية في التقدم المادي للانسانية نظرًا إلى أهمية ذلك في مجال المواصلات داخل الصحراء وفي ربط المناطق النائية والصعبة بعضها ببعض، وتشجيع التجارة والمبادلات».

الألف الأول ق.م.: يقول المؤرخون، استنادًا إلى ما كشفه العلماء من خلال تنقيباتهم وأبحاثهم، إن الاشارات الأولى إلى العرب وممالكهم ودويلاتهم جاءت في الأدبيات الأشورية والبابلية وتصفهم بأنهم «يملكون الجمال (من هنا قول المؤرخين إن الاسهام الحضاري الانساني الاول للعرب كان في تدجينهم الجمل) ويسكنون شمالي الجزيرة العربية ويدفعون الجزية لملوك بلاد ما بين

من الآثار القديمة المعروضة في متحف الرياض.

النهرين» (أي لملوك الأشوريين والبابليين).

هذا بالنسبة إلى المناطق الشمالية في الألف الاول ق.م. أما بالنسبة إلى المناطق الجنوبية فقد نشأت في النصف الثاني من الألف الأول ق.م. ممالك ودول منظمة من بينها أربع رئيسية، هي: مملكة سبأ، مملكة معين، مملكة قتبان وأخيرًا مملكة حضرموت (راجع «اليمن» في جزء لاحق)، وكانت كلها تعيش من الزراعة والتجارة. وكان سدّ مأرب في مملكة سبأ أهم إنجاز هندسي وزراعي في ذلك الزمان ومساهمة عظيمة في تطوير نظام الري السائد آنذاك. وقد استطاع تجار الجنوب احتكار تجارة البخور والسيطرة على طرق التجارة والمرور ما بين الهند والغرب قرونًا من الزمن، وأنشأوا جاليات لهم في شمالي شبه الجزيرة، كما انه تمّ اكتشاف آثار لنشاطاتهم في مصر وبحر إيجه والخليج العربي. كما ان الاكتشافات الأثرية الحديثة قد أكدت وجود تأثيرات اغريقية ورومانية في ثقافتهم. وقد هاجر العديد من القبائل العربية الجنوبية إلى الضفة المقابلة من البحر الأحمر وأطلقوا إسم «الحبشة» عليها، كما امتد نفوذهم وتأثيرهم ليشمل الساحل الشرقي للقارة الافريقية.

أما في شمالي الجزيرة، فقد كان التأثير الأرامي أكثر وضوحًا، وخاصة في واحة التيماء التي كانت لفترة من الزمن عاصمة الامبراطورية البابلية الحديثة في عهد الملك نبونيدس (٥٥٦-٥٣٩ق.م). وكانت ثمود تتخذ من «مدائن صالح» عاصمة لها، وقد وصفتها النقوش الأشورية بأنها من «قبائل العرب»، وبأنها كانت تعيش في القرن الثامن ق.م.، أما اللغة التي كانت تتداولها ثمود فقد كانت العربية المشتقة من العربية الجنوبية (راجع باب «مدن ومعالم»).

ومناطق ثمود هذه، أي المناطق الشمالية من المملكة العربية السعودية الحالية، سقطت بأيدي الفرس في ٥٣٩ق.م.، أي في السنة التي سقطت

بابل في ايديهم. فحوّل الفرس شمالي شبه الجزيرة إلى ولاية تابعة لهم دعوها «عرباية»، إلا ان هذه الولاية لم تدم سوى فترة قصيرة جدًا.

بدأ العلم والمعرفة التاريخية بأحوال شبه الجزيرة العربية (وتاليًا بأحوال المناطق التي تشكل اليوم المملكة العربية السعودية) تتثبت وتتأكد ويجري تدوينها بصورة واضحة مع البعثة البحرية التي أرسلها داريوس الاول الفارسي (حكم من ٥٢١ إلى ٤٥٨ق.م.) لاستكشاف طريق الهند بهدف تشجيع التجارة. فاستطاعت البعثة الإبحار إلى الهند والمرور بالطرف الجنوبي للبحر الأحمر واستقصاء بعض المعلومات عن شبه جزيرة العرب. وقد زادت المعارف بصددها بفضل البعثات الاستطلاعية التي قام بها نيارك الاغريقي والحملات العسكرية التي شنّها الاسكندر الكبير حول شبه الجزيرة. وقد توفي الاسكندر في ٣٢٣ق.م. بُعيد نجاحه في تنظيم حركة الملاحة حول شبه الجزيرة وإخضاعه لسكانها. وهذا ما مكّن العالم الطبيعي اليوناني تيوفراست من تأليف كتاب عن جنوبي شبه الجزيرة العربية وعن منتجاتها.

وتابع خلفاء الاسكندر سياسة الاهتمام بشبه الجزيرة العربية، فعمد البطالسة (انطلاقًا من مصر) الذين حاولوا السيطرة على البحر الأحمر إلى تهديد الاحتكار التجاري الذي كان يمارسه العرب في تلك المنطقة بسبب تحكمهم بطرق المواصلات البرية والبحرية المحيطة بالبحر الأحمر والخليج العربي، في حين أخذ السلوقيون المستقرون في سورية يتوسعون في استعمال الطرق الشمالية المؤدية إلى الهند. وقد أصاب الضعف والانحلال الدولة السلوقية في منتصف القرن الثالث ق.م. بسبب قيام الدولة الفرثية (Parthe) في تلك الفترة على شاطىء الخليج العربي. إلا ان ذلك لم يمنع انطيوخوس الثالث السلوقي من تجهيز حملة عسكرية ضد الفرثيين (٢٠٥-٢٠٤ق.م.) على الضفة الغربية للخليج العربي.

في القرنين الأخيرين من الألف الأول ق.م. برز الأنباط، وهم من العرب الذين وفدوا من شبه الجزيرة العربية منذ القرن السادس ق.م. وأقاموا في المناطق التي كانت تحت سيطرة الكنعانيين والأراميين، في لعب دور متعاظم في سورية والمنطقة، وتبوأ العديد منهم مراكز القيادة في دول الهلال الخصيب، وأنشأوا عدة دويلات شبه مستقلة.

وفي ١٠٥ق.م. ضمّت دولة الأنباط إلى الامبراطورية الرومانية ووسعت لتشمل اجزاء واسعة من شبه الجزيرة العربية وأصبح إسمها «المقاطعة العربية» وكانت تمتد من العقبة في الجنوب إلى النمارة في الشمال الشرقي، وكانت عاصمتها «البتراء» ثم «بُصرى».

من الميلاد إلى ظهور الاسلام: حاول الفرس، وكانوا آنذاك القوة العظمى الثانية في المنطقة (فضلاً عن الرومان)، مدّ نفوذهم على الطرف الشرقي لشبه الجزيرة من خلال بسط حمايتهم على بعض الممالك والامارات العربية المتناحرة. وقد أدّى الصراع بين الرومان والفرس الساسانيين إلى تحول الاقتتال بين القبائل العربية من اقتتال بسبب عصبيات ومغانم إلى اقتتال دفاعًا عن مصالح الدولتين العظميين آنذاك وحماية تخومهما من الغزوات الوافدة من الصحراء. وقد حاول ملوك تدمر الخروج من هذه الدوامة ورفض هذا الواقع والاستقلال عن الرومان والفرس في آن معًا، ونجحوا في ذلك فترة قصيرة جدًا قبل ان يتمكن الامبراطور الروماني أوريليانوس من هزيمة زنوبيا ملكة تدمر والقضاء على امبراطوريتها العربية الوليدة في المهد (عام ٢٧٢).

وفي القرنين الرابع والخامس، مرت شبه الجزيرة باحدى أكثر فترات تاريخها غموضًا، وكان الانحلال يدب في أوصال الامبراطورية الرومانية،

هذا الانحلال الذي تـرك أثـرًا كبيرًا لصالح الحياة القبلية العشائرية في شبه الجزيرة وعلى حساب الحياة الحضرية فيها، كما أن المسيحية النسطورية واليهودية بدأتا تتغلغلان في معظم حواضر شبه الجزيرة (مكة ويثرب وسواهما)، كما احتل الأحباش اليمن (في القرن الرابع) فترة قصيرة، وفي الوقت نفسه تمكن الملك الساساني شابور الثاني (ملك من ٣١٠ إلى ٣٧٩) الذي لقبه العرب بـ«ذي الأكتاف» من احتلال شرقي شبه الجزيرة، وبقيت هذه المنطقة خاضعة للحكم الساساني حتى قبيل ظهور الاسلام.

لقد وجد الساسانيون الفرس والروم البيزنطيون مناطقهم تتعرض باستمرار لغزوات القبائل العربية، ووجدوا أن أفضل طريقة لحماية حدودهما هي في قيام دويلات يحكمها أمراء عرب، وتكون بمثابة حاجز بين كل من الامبراطورية البيزنطية والامبراطورية الفارسية وبين القبائل العربية.

هكذا قامت الدولة اللخمية على حدود بلاد ما بين النهرين لتحمي الحدود الفارسية، وقامت دولة الغساسنة لتحمي الحدود البيزنطية. وليس هذا وحسب، بل أن ملوك هاتين الدولتين العربيتين كانوا، بالاضافة إلى مهمتهم الأصلية المتلخصة في حماية أسيادهم، يتحاربون في ما بينهم ويتوسعون على حساب بعضهم البعض. وفي إطار هذا الصراع العربي-العربي استطاع الحارث بن جبلّة، وهو أعظم ملوك الغساسنة، التغلب على المنذر بن ماء السماء زعيم اللخميين، وذلك في النصف الاول من القرن السادس. وكانت قبيلة كِنْدة في نهاية القرن الخامس قد تمكنت، بزعامة حجر آكل المرار من إقامة مملكة في اواسط الجزيرة استمرت حوالي خمسين عامًا، وذلك قبل ان يتمكن المنذر من القضاء عليها.

هذا بالنسبة إلى المناطق الشمالية من شبه الجزيرة العربية (والمملكة العربية السعودية الحالية) في الفترة السابقة لظهور الاسلام. أما بالنسبة إلى المناطق الجنوبية (اليمن الحالي)، فقد تعرضت، في القرن السادس، لهجمات ملوك الحبشة النصارى وهجمات الامبراطور الفارسي كسرى أنو شروان الاول (حكم من ٥٣١ إلى ٥٧٩). وقد قام أبرهة، ملك الحبشة، بصفته حاكم اليمن الجديد، بمحاولة أخيرة يائسة لاصلاح سد مأرب، كما قاد حملة عسكرية إلى قلب نجد ضد عرب معد الذين كانوا محسوبين على اللخميين، وحملة أخرى فاشلة على مكة حوالي العام ٥٧٠ وهو العام المعروف في التأريخ العربي بـ«عام الفيل». إلا ان كسرى قام بهجوم معاكس فطرد الأحباش من اليمن الذي اصبح بذلك تابعًا للفرس إلى أن جاء الاسلام.

في ظل هذا الوضع المتمثل في صراع قوتين عظميين من أجل الهيمنة يقبع العرب بينهما في تبعية تامة لهما واحتقار منهما وفي تخلف وتناحر، كانت مدينة مكة العريقة في القدم والواقعة على الطريق الرئيسية الموازية لساحل البحر الأحمر تزداد أهمية وازدهارًا، مع أفول القرن السادس ومطلع القرن السابع، مستفيدة من واقعين مهمين: الأول، وقوع بلاد الجنوب (خاصة اليمن) تحت السيطرة الأجنبية (الحبشة)؛ والثاني، شيوع الفوضى التي كانت تسود الطرق الشمالية بسبب المناوشات الدائمة بين الفرس والبيزنطيين ودخول العرب، بحضرهم وبدوهم، طرفًا تابعًا فيها. وقد أفاد تجار مكة القريشيون إفادة عظمى من هذا الوضع فدخلوا التجارة العالمية آنذاك من أوسع أبوابها. وكانت مكة آنذاك مركزًا رئيسيًا من مراكز عبادة الأوثان والاصنام في الحجاز وأغنى مدن شبه الجزيرة قاطبة.

من الواضح بعد هذا العرض الوجيز أنه، ورغم الوضع السياسي التبعي والضعيف وغير المستقر في القرون التي سبقت الاسلام، كان للعرب دور حضاري قبل الاسلام ونشاط واسع وتفوق في التجارة الدولية حتى وصف شبرنغر

Sprenger العرب بأنهم «مؤسسو التجارة العالمية في الأزمنة القديمة»، ويرى جان فرنسوا سال أن «العرب لا الرومان أبحروا للتجارة في المحيط الهندي قبل الميلاد وبعده». ولعل هذه التجارة العالمية هي التي توضح الاسباب الأساسية للصراع الدولي حول الجزيرة قبل الاسلام، ذاك الصراع الذي نجح في توزع ولاءات القبائل العربية بين أطرافه.

وتجدر الاشارة إلى انه في العصور الأخيرة التي سبقت ظهور الاسلام، أخذت اللغة العربية الفصحى تكتسب شكلها النهائي الذي به أنزل القرآن الكريم. «على الرغم من ان اللغة العربية هي أحدث اللغات السامية، من حيث الأدب المدوّن، فقد حافظت أكثر من العبرانية وشقيقاتها من اللغات السامية جميعًا على خصائص اللغة السامية الأم. والاسلام هو غاية الكمال دينًا في مطابقة العقلية السامية» (د.فيليب حتي، «العرب، تاريخ موجز»، ص٩-١٥).

الاسلام: في شهر رمضان من العام الثالث عشر قبل الهجرة (٦١١م) «أنزل الله تعالى على رسوله محمد صلّى الله عليه وسلّم أولى سور محكم التنزيل حيث كان صلّى الله عليه وسلم يتعبد في غار حرّاء فهبط جبريل بوحي الله تعالى (وكانت كلمة الوحي والتبليغ الأولى «إقرأ»):

«إقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الانسان من علق إقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم».

وفي هذا يقول إبن قيّم الجوزيّة: «أول ما أوصى إليه ربه ان يقرأ باسم ربه الذي خلق وذلك أول نبوته (صلعم) فأمره أن يقرأ في نفسه و لم يأمره بالتبليغ، ثم أنزل عليه: يا ايها المدثر قم فأنذر. ثم أمره أن ينذر عشيرته الأقربين ثم أنذر قومه ثم أنذر مَن حولهم من العرب ثم أنذر العرب قاطبة ثم أنذر العالمين».

هكذا بدأت ملحمة الاسلام الكبرى والتحول العظيم في تاريخ البشرية. فقدر للاسلام في فترة زمنية قصيرة جدًا، بل قياسية، الانتشار في أنحاء شبه الجزيرة كافة والانطلاق نحو العالم الخارجي، وإنزال الهزيمة بالدولتين العظميين (فارس وبيزنطية) وإقامة نظام سياسي واجتماعي عماده الدين الاسلامي (راجع باب «مدن ومعالم»، وراجع «شبه الجزيرة العربية» ج١١، و«العالم الاسلامي»، و«العالم العربي»، في هذا الجزء، وكذلك مختلف بلدان شبه الجزيرة العربية والهلال الخصيب والبلدان العربية والاسلامية).

بعض المؤرخين يعيد سرعة انتشار الاسلام ونجاح دولته منذ سنوات الدعوة الأولى وعلى يد الرسول الذي وضع بنفسه أسس الدولة الاسلامية فكان بانيها ورئيسها الاول إلى العامل القومي العربي كأهم العوامل الذي يأتي مباشرة بعد الإيمان الجارف بالرسالة الجديدة الذي دفع بأوائل المؤمنين إلى حمل لوائها والجهاد في سبيل التبشير بها في كل مكان يطؤونه. وبعد العامل القومي تأتي العوامل الاقتصادية التي كان لها دور كبير في توفير عوامل النجاح للدعوة الاسلامية، فقد ضاقت شبه الجزيرة العربية، بمواردها المحدودة وثرواتها الطبيعية والزراعية وكثافتها السكانية، بمن فيها، فكان المنقذ الوحيد والمجال الحيوي المتاح هو الانطلاق إلى خارج حدود الجزيرة حيث الطبيعة أرحم وأغنى .

حروب الردة: لقد توفي الرسول في العام ١١هـ (٦٣٢) ولمّا يترسخ الاسلام في قلوب جميع مَن أعلنوا إيمانهم به، وقبل ان تبدأ كبرى الفتوحات العربية. وقد اغتنمت بعض القبائل العربية تلك الفرصة لتعلن تمردها على الدولة الاسلامية الاولى وارتدادها عن الوحدة السياسية التي اقامها الاسلام لعرب شبه الجزيرة. ومن معارك الردة ما حدث قبل وفاة الرسول، ومنها ما حدث في عهد الخليفة الاول أبو بكر، ومدتها جميعًا لم

تبلغ العام. ولقد لعبت الدوافع السياسية دورًا رئيسيًا في انتفاض هذه القبائل وارتدادها عن الوحدة السياسية التي اقامها الاسلام، إذ نَعَت قبائل على قريش استئثارها بالقيادة، وبلغ بعضها في العداء الذي حركته المطامح والمطامع حدّ إدعاء النبوة لقادة منها، كي يكون لهم، هم ايضًا، «نبي» كما ان لقريش نبيًا. وحسبوا ان النبوة هي الارض والملك، فطلبوا اقتسام ذلك مع قريش. فإذا كانت دولة قريش، بزعمهم، على رأسها نبي، فلتكن ردتهم عن وحدة هذه الدولة خلق «نبي» كذلك، ولكنه من قبيلتهم.

هذا بالنسبة إلى المرتدين في ايام الرسول. أما الذين ارتدوا في أعقاب وفاته فلم تكن بهم حاجة إلى إدعاء التنبؤ، ولذلك ظلوا على اسلامهم، لكنهم امتنعوا عن دفع الزكاة إلى دولة الخلافة في المدينة المنورة. فهم لم ينكروا الزكاة كفرض وركن من أركان الاسلام، وإنما حجبوها عن سلطة الخلافة اعلانًا لرفضهم وحدة الدولة.

ولقد اشتبه أمر قتال المرتدين على قيادة الدولة في بادىء الأمر. فعمر بن الخطاب رأى أنه لا حق للدولة في قتال الذين ارتدوا عن الولاء لها ما دام ولاؤهم للدين قائمًا. لكنه عاد واستجاب لقرار أبي بكر الذي رأى في الوحدة السياسية للدولة الاسلامية الناشئة سبيلاً وحيدًا لنموها.

وخرج الخليفة أبو بكر إلى «ذي القصة» تجاه نجد على مسافة نحو ١٩ كلم من المدينة، حيث عسكر جنود الدولة، فعقد أحد عشر لواء (منها لواء خالد بن الوليد، وخالد بن سعيد بن العاص، وعمرو بن العاص، وغيرهم...) انخرط خلفها المسلمون في أحد عشر جيشًا، ثم زحفوا لقتال كل المرتدين.

فبعد ان كانت الردة قد غطت أرض شبه الجزيرة، و لم يبق على الولاء لدولة الخلافة سوى قريش وثقيف والأوس والخزرج وقليل غيرها، وبعد ان كان المسلمون يتناوبون حراسة منافذ المدينة مخافة ان يقتحمها الاعراب المرتدون المحدثون منهم وبقايا الذين ارتدوا قبل وفاة الرسول، عادت للدولة العربية الاسلامية وحدتها السياسية. وتمّ لها هذا النصر الذي أحرزته جيوش الألوية الأحد عشر في أقل من عام واحد. وبعده، بدأت الفتوحات الاسلامية خارج شبه الجزيرة العربية.

غنائم ورفاهية: نتيجة لانتصار المسلمين في حروب الردة واستعادة شبه الجزيرة لوحدتها، ونتيجة لانطلاقة الفتوحات الكبرى خارج شبه الجزيرة واندحار بيزنطية وفارس وفتح دمشق والقدس ومصر، بدأت الغنائم تنهال على مركز الدولة، أي على مدن الجزيرة وبشكل خاص على مكة والمدينة المنورة (العاصمة). فقامت حالة من ازدهار اقتصادي لم تشهد له شبه الجزيرة العربية مثيلاً من قبل. وقد أدّى تدفق الاموال والغنائم من البلدان المفتوحة إلى تراخ في تطبيق التعاليم الاسلامية الصارمة مما دفع بأبي ذر الغفاري إلى لفت أنظار الخليفة الثالث عثمان بن عفان إلى ذلك. وكانت حالة التراخي هذه المقرونة برفاهية نعمت بها فئات قليلة من الناس في حين قاست منها فئات أخرى شظف العيش، في أساس وضع سياسي غير مستقر أدّى إلى اغتيال الخليفة عثمان (٥٦هـ). فبويع علي بن أبي طالب بالخلافة.

علي ينتقل من المدينة إلى الكوفة: عارض بعض وجهاء مكة وأعيانها وعلى رأسهم عائشة زوجة الرسول، والزبير وطلحة، بيعة علي. فخاض الطرفان ما عُرف بمعركة الجمل التي تمكن فيها الإمام علي من هزيمة خصومه. إلا انه فضّل الانتقال إثر ذلك من المدينة إلى العراق، حيث بدأت مواجهته مع معاوية بن ابي سفيان والي سورية الذي رفض ايضًا مبايعته وأعلن نفسه خليفة. وقد اختار الإمام علي الكوفة عاصمة له مما أفقد شبه الجزيرة العربية (وخاصة المناطق التي

تشكل حاليًا المملكة العربية السعودية) مركز الصدارة في اتخاذ القرار والقيادة.

الأمويون يحكمون الحجاز وباقي أنحاء شبه الجزيرة: لما انتهى الصراع بين علي ومعاوية بانتصار الأخير واغتيال الأول على يد أحد الخوارج (٦٦١)، وبعد وفاة معاوية بعد ذلك بنحو عشرين سنة، اندلعت المعارك مجددًا بين كل من الحسين بن علي-الذي سقط شهيدًا في معركة كربلاء عام ٦١هـ وعبدالله بن الزبير في الحجاز من جهة، وبين يزيد بن معاوية من جهة ثانية. وهزم يزيد مناوئيه وفتح المدينة وضرب الحصار على مكة المكرمة، معقل ابن الزبير. إلا ان وفاة يزيد المفاجئة أوقفت المعارك وأدت إلى فك الحصار عن مكة، وعلى أثر ذلك تمت مبايعة عبدالله بن الزبير خليفة على المسلمين في معظم البلاد الاسلامية باستثناء سورية. ولم يبادر ابن الزبير إلى مواجهة الأمويين مفضلاً التريث في مكة مما أتاح للخليفة الأموي الجديد عبد الملك (٦٨٥-٧٠٥) وهو من الفرع المرواني، تثبيت حكمه تدريجيًا خارج شبه الجزيرة. ومن جهة ثانية فإن الخوارج الذين كانوا قد تحالفوا مع ابن الزبير ضد يزيد بن معاوية انقلبوا عليه وعمد زعيمهم آنذاك نجدة بن عامر الحنفي إلى مد سيطرته على أجزاء واسعة من شبه الجزيرة، وذلك قبل ان يطيحه زعيم خارجي آخر؛ وفي تلك الأثناء كان عبد الملك بن مروان قد أكمل استعداداته فأرسل الحجاج بن يوسف على رأس جيش كبير إلى شبه الجزيرة، ففتح مكة (٦٩٢) وسقط ابن الزبير في المعركة. وبذلك سيطر الأمويون سيطرة فعلية على الأماكن المقدسة في الحجاز. وفي الوقت نفسه أرسل الأمويون جيشًا آخر إلى شرقي شبه الجزيرة (المنطقة الشرقية) فهزموا الخوارج الذين كانوا يسيطرون على المنطقة هناك. ومنذ هذا التاريخ (أواخر القرن السابع) أخذ الخلفاء الأمويون يعينون بانتظام حكام مكة والمدن، لكنهم يمارسون سيطرة غير كاملة على بقية أنحاء شبه الجزيرة (المنطقة الشرقية والوسط والجنوب). وقد شهد الحجاز خلال هذه الفترة ازدهارًا اقتصاديًا واجتماعيًا كبيرًا كما أصبح مركزًا رئيسيًا من مراكز الفكر الاسلامي والثقافة العربية.

ومع اقتراب نهاية الحكم الأموي بدأ عرب الجنوب بالتحالف مع الخوارج في التمرد على الدولة الأموية، فاحتلوا مكة والمدينة المنورة (٧٤٧)، إلا ان الخليفة الأموي مروان الثاني تمكن من القضاء على المتمردين بعد ان انهكوا جيشه، وكانوا من العوامل المهمة في هزيمته أمام العباسيين بعد نحو ثلاث سنوات، أي في ٧٥٠.

لكن من هم الخوارج الذين جاء انقلابهم على حليفهم عبدالله بن الزبير عاملاً مهمًا في اندحاره أمام الأمويين، والذين استمروا في ازعاج الأمويين وبعدهم العباسيين؟.

الخوارج: أول فرقة اسلامية اكتملت فيها عناصر ان تكون «فرقة» أو «حزب»، وقامت في صدر الاسلام، وتحديدًا في العام ٣٨هـ. أثناء الصراع بين أمير المؤمنين علي بن ابي طالب ومعاوية بن أبي سفيان. فلقد رفضوا مبدأ «التحكيم» في الصراع لأن عليًا هو الخليفة الشرعي ومعاوية وأنصاره هم الفئة الباغية، والقرآن صريح في الدعوة لقتال البغاة حتى يقتلوا أو يفيئوا إلى أمر الله، ومن ثم فعلي، في رأيهم مخطئ عندما قبل «التحكيم» في أمر قد ورد فيه حكم القرآن الصريح. ومن مؤسسي فرقة الخوارج نفر كانوا قد قبلوا «التحكيم»، ثم رجعوا عن موقفهم عندما ظهرت نتائجه لصالح معاوية، وتابوا عن ذنبهم، وطلبوا جميعًا من علي الرجوع عن موقفه من «التحكيم»، والاعتراف بالخطأ ومواصلة القتال، فلما رفض انشقوا عليه، وبايعوا أول إمام في تاريخ الفرق الاسلامية لا ينتمي لقبيلة

قريش وهو عبدالله بن وهب الراسبي (من قبيلة الأزد، كان صحابيًا، حضر فتوحات العراق تحت قيادة سعد بن ابي وقاص، وكان مع علي ضد معاوية، وحضر مع علي مواقعه بما فيها موقعة صفين).

وقد توالت واستمرت ثوراتهم وحروبهم ضد علي، ومعاوية، والأمويين والعباسيين. ولقد انقسمت حركة الخوارج على نفسها، واشتهر من فرقها: الأزارقة، وهم أتباع إمامهم نافع بن الأزرق ابن قيس الحنفي (٦٨٥)؛ والنجدات، وهم أتباع إمامهم نجدة بن عامر الحنفي (٦٥٦-٦٨٨)؛ والإباضية، وهم أتباع إمامهم عبدالله بن إباض (٧٠٥)؛ والصفرية، وهم أتباع إمامهم زياد بن الأصفر (معاصر لعبدالله بن إباض).

قال الخوارج إن الإمامة والحكم بالاختيار والشورى والبيعة لا بالميراث أو النص من الله أو رسوله، وان نظام الحكم والولاية من الفروع وليس من أصول الدين... وقالوا بحرية الانسان واختياره ومسؤوليته عن أفعاله التي هي مخلوقة له على سبيل الحقيقة لا المجاز... كانت التقوى والنسك من أهم صفاتهم، وكانت شجاعتهم في القتال وطرقهم في الكر والفر مضرب الامثال. نجحوا، في تاريخهم السياسي والعسكري، في إقامة «دول» لهم لم تدم طويلاً. لا زالت جماعات من المسلمين تدين بمذاهبهم حتى يومنا هذا. ففي عُمان وزنجبار وبعض مواطن المغرب العربي يوجد أتباع لفرقة الخوارج الإباضية بالذات (راجع «عُمان» في جزء لاحق).

جاء انتقال مركز الخلافة من دمشق إلى بغداد ليعزز من مكانة الخليج العربي كطريق بحرية للتجارة مع الصين وبلدان افريقيا الشرقية، وذلك على حساب طريق التجارة عبر البحر الأحمر. ولم تستمر السلطة المركزية العباسية في فرض هيمنتها على شبه الجزيرة بشكل كامل سوى مائة عام كانت أثناءها تعين الحكام على المدن (مكة والمدينة وسواهما) وكل بلاد اليمن وعلى المناطق الشرقية والوسطى. وقد شجّع الخلفاء العباسيون الاوائل الحج إلى المدن المقدسة من خلال تحسينهم لطرق المواصلات وتأمين السلامة عليها.

في أثناء ذلك نجح الخوارج الإباضيون في الافلات من السلطة العباسية وفي مضايقتها، فاقاموا في عُمان مركز دعوتهم مدة تقارب الاربعة قرون. إضافة إلى ذلك فقد كانت الاوضاع السياسية في شبه الجزيرة العربية تزداد تدهورًا واضطرابًا مع تفكك الخلافة العباسية وعجزها عن ممارسة سيادتها على سائر ارجاء الامبراطورية وميل الولاة المحليين إلى الاستقلال عن السلطة المركزية ومحاربتها.

القرامطة: إلا ان الخطر الرئيسي الذي تعرضت له الخلافة الاسلامية آنذاك جاءها من المناطق الشرقية من شبه الجزيرة حيث برزت الدعوة القرمطية على يد أبي سعد الحسن الجنابي وابنه ابي طاهر سليمان حوالي العام ٨٩١. وكان العباسيون أضعف من ان يواجهوا الدول القرمطية الناشئة ويحولوا دون غزو القرامطة لمدينتي البصرة والكوفة ونهبهما، ثم احتلالهم مكة (٩٣٠) ونقل الحجر الأسود إلى عاصمتهم الجديدة الإحساء. وبعد ذلك تمكن القرامطة من احتلال عُمان فأصبحوا بذلك يسيطرون على القسم الأكبر من شبه الجزيرة العربية برمتها.

توفي أبو طاهر سليمان في ٩٤٤، فاغتنم الفاطميون الاسماعيليون المرابطون في المغرب العربي الفرصة للضغط على القرامطة وإرغامهم على إعادة الحجر الأسود إلى مكة (٩٥٠). وقد انضم القرامطة إلى الفاطميين في محاولة للالتفاف على سورية ومصر، فيضغط القرامطة من الشرق ويتقدم الفاطميون من الغرب. إلا ان التحالف القرمطي-الفاطمي لم يدم طويلاً خاصة بعد ان نجح الفاطميون في احتلال مصر (٩٦٩). وقد اصطدم

القرامطة بالفاطميين لمنعهم من السيطرة على سورية. واحتل القرامطة دمشق في ٩٧١، ثم حاولوا احتلال مصر، فوصلوا إلى مشارف القاهرة، إلا ان الفاطميين تمكنوا اخيرًا من دحرهم وردهم على أعقابهم. ثم انتقل الفاطميون إلى الهجوم فألحقوا هزيمة عسكرية كبرى بالقرامطة وأرغموهم على الانكفاء إلى الإحساء. وفي ٩٨٥ خسر القرامطة عُمان ثم طردوا من العراق. وفي ١٠٧٧ (أي بعد نحو قرنين على نشأتهم) نزلت ببقايا القرامطة في الإحساء الضربة القاضية على يد أحد فروع قبيلة عبد القسيس، وبذلك اندثرت آخر معالم القرمطية عند سكان شبه الجزيرة. أما بعض سكان القطيف والإحساء، الذين يذهب بعض المستشرقين إلى اعتبارهم من بقايا القرامطة فهم في الواقع من الشيعة الجعفرية الإثني عشرية.

والجدير ذكره ان القرامطة هم في الأصل شيعة اسماعيلية، تبلور تنظيمهم وانتشرت دعوتهم في اليمن ومنطقة الخليج كتيار ثائر ضد الدولة العباسية منذ بداية القرن العاشر. وكانت حركتهم من أوسع الحركات الاجتماعية في التاريخ العربي وأكثرها عمقًا، قامت باسم المبادىء الاسلامية وتحت راية الدعوة إلى العدالة الاجتماعية (أقاموا ملكية جماعية وضمان حق العمل للجميع بمن فيهم النساء والاولاد). اتهمهم الغزالي بانهم استغلوا جهل العامة وفسّروا الدين تفسيرًا ماديًا، وربطوا بين العقائد والمصالح المادية.

حكم الشريفيين لمكة: في منتصف القرن العاشر استحدث منصب «شريف» مكة الذي تحول مع الزمن إلى مؤسسة قدر لها أن تستمر حوالى ألف عام. وكان أبرز أشراف مكة آنذاك أبا الفتوح الحسن الموسوي الذي حاول أن ينصب نفسه أميرًا للمؤمنين في ١٠١١، ولكن الفاطميين أفشلوا مشروعه.

وفي ١٦٠٣ آل حكم مكة إلى أشراف آل هاشم الذين استمروا في هذا المنصب حتى طردهم منه آل سعود.

وأفادت مكة أكثر ما أفادت في تلك الفترة من حكم الملك السلجوقي ملك شاه ووزيره نظام الملك، فالتفتا إلى الاماكن المقدسة يولانها اهتمامهما وينفقان عليها بسخاء وينظمان مواسم الحج إليها.

في ١١٧١، تمكن صلاح الدين الأيوبي من هزيمة الفاطميين في مصر. وكان انتصار الأيوبيين هناك، ثم في سورية، انتصارًا للاسلام السني في معظم انحاء شبه الجزيرة وخاصة في الحجاز ونجد. وقد بادر السلطان صلاح الدين الأيوبي، بعد ان اعتُرف به «حارس الحرمين»، إلى إيفاد أخيه طوران شاه لطرد آخر المهديين واحتلال اليمن (١١٧٣). وقد استمر حكم الأيوبيين في اليمن وبعض أنحاء شبه الجزيرة حتى ١٢٢٨ حين تمكن الرسوليون من السيطرة على اليمن (قامت الدولة الرسولية على أنقاض الدولة الأيوبية في اليمن) ومن ثم على الحجاز وما فيها من المدن المقدسة.

وقد ازدهرت الحضارة العربية تحت حكم الرسوليين ازدهارًا كبيرًا، وتمكن أحد ملوكهم وهو عمر بن علي من بسط سيطرته من حضرموت إلى مكة المكرمة. وعندما اجتاح هولاكو بغداد وقتل الخليفة العباسي فيها (١٢٥٨)، أعلن يوسف بن عمر بن علي نفسه خليفة على المسلمين، إلا ان هذا المنصب كان يتجاوز مكانة الدولة الرسولية وإمكانياتها، ولذلك لم يجد من يعترف به خارج دولته.

ولما آل الحكم إلى المماليك في مصر وترقى بايبار إلى سدة الحكم أصبحت الأماكن المقدسة، إسميًا، تحت حماية المماليك الذين تركوا شؤون تصريف الأمور في مكة إلى الشريف أبي نميّ محمد الأول (حكم من ١٢٥٤ إلى ١٣٠١) الذي وضع أسس الدولة القتادية.

وكان العديد من القبائل العربية متحررة

من كل سلطة مركزية، وتعيش من الغزو وفرض الأتاوة على القوافل التجارية ومواكب الحجاج، كما كانت تصل احيانًا في غزواتها إلى قلب الحجاز. وفي تلك الفترة كان المصلح الاسلامي ابن تيمية في دمشق (١٣٢٨) الحنبلي المذهب والسلفي النزعة والشديد العداء للخرافات والبدع، يضع الأسس الأولى لحركة فكرية تجديدية عميقة في الفكر الاسلامي (تلك الحركة قدّر لها في ما بعد ان تمارس تأثيرًا واضحًا وحاسمًا على الدعوة الوهابية التي انطلقت من نجد).

وقد حدثت اضطرابات سياسية في مكة أثناء تولي الشريف عجلان بن رميشة (١٣٤٥-١٣٧٥) إمارة المدينة، ما دفع المماليك إلى التدخل عسكريًا وأسر سلطان الأسرة الرسولية في اليمن بعد معركة عرفة (١٣٥١) ولكنهم لم يقضوا نهائيًا على حكم الرسوليين.

وفي اواسط القرن الخامس عشر هاجر مانع بن ربيعة المريدي، الجد الأكبر لآل سعود، من جوار القطيف إلى بلاد نجد حيث استقر في وادي حنيفة. ولقد قدر لهذه الهجرة ان تلعب في ما بعد دورًا رئيسيًا في تاريخ شبه الجزيرة العربية الحديث السياسي والعسكري والذي توج في اوائل القرن العشرين بإنشاء المملكة العربية السعودية (راجع «الشريفيون والوهابيون وآل سعود» في ما يلي في هذا السياق التاريخي).

البرتغاليون والبريطانيون والعثمانيون: في اوائل القرن السادس عشر دار البرتغاليون حول القارة الافريقية مرورًا برأس الرجاء الصالح واستكشفوا الخطوط البحرية في المحيط الهندي، واستولوا على المراكز التجارية الواقعة على هذه الخطوط وخاصة في خليج عُمان والخليج العربي.

وفي الوقت الذي كان فيه البرتغاليون يتسللون إلى سواحل شبه الجزيرة العربية الجنوبية الغربية كان العثمانيون يقضون على دولة المماليك (١٥١٧) في مصر بعد ان كانوا قد احتلوا بلاد الشام والعراق وفرضوا سيطرتهم، الفعلية احيانًا والشكلية في أغلب الأحيان، على شبه الجزيرة العربية. بمعنى آخر فقد كانت الهيمنة العثمانية على شبه الجزيرة تتفاوت في درجتها وقوتها حسب الموقع الديني والاستراتيجي لأجزائها. فالحجاز كان بصورة عامة تحت الرقابة المباشرة للسلطنة العثمانية نظرًا إلى احتوائه على المدن المقدسة ونظرًا إلى اللقب «خادم الحرمين» الذي كان يحمله سلاطين بني عثمان. إضافة إلى ذلك فقد كانت المناطق الساحلية من شبه الجزيرة العربية، خاصة في مرحلة توسع السلطنة العثمانية وازدهارها، تحظى باهتمام عثماني ودولي كبير. أما المناطق الداخلية فلم يكن من اليسير على الدولة العثمانية ان تسيطر عليها عسكريًا وبشكل مستمر، كما انها لم تكن قادرة حتى على حماية القوافل التجارية من غزوات القبائل العربية المتمردة.

من جهة ثانية، فقد تحالف البرتغاليون مع ملك هرمز وهاجموا البحرين حيث قتل أميرها أثناء دفاعه عنها (١٥٢١). وقد ردّ الاتراك على تحركات البرتغاليين بأن دعموا وجودهم في الخليج العربي والبحر الأحمر. وفي ١٥٣٤، بايع أمراء القطيف والبحرين العرب السلطان سليمان الذي تقدمت جيوشه باتجاه اليمن فاحتلتها. أما عدن ومسقط فقد وقعت تحت السيطرة العثمانية لفترة قصيرة كما ان الإحساء وضعت تحت سلطة وال تركي.

وبعد موت سليمان القانوني بدأت السلطنة العثمانية في الانحسار البطيء والأكيد. فكانت شبه الجزيرة أكثر البلدان تحسسًا لهذا الانحسار. ثم جاء تحول طرق التجارة الدولية من البر والبحر الأحمر والمتوسط إلى الطريق البحري الذي يلف افريقيا ثم إلى الأطلسي ليؤدي إلى ركود كبير في النشاط الاقتصادي في القسم العربي من السلطنة العثمانية. وإضافة إلى ذلك فقد كان

على الاتراك ان يحاربوا على جبهتين: الجبهة الاوروبية ضد النمسا (خاصة في البلقان) والجبهة الشرقية ضد الأسرة الصفوية الفارسية التي استطاع أحد أكبر ملوكها، شاه عباس الأول، ان يمارس سياسة توسعية في الخليج العربي فيحتل البحرين (١٦٠٢). أما في اليمن فقد استبسل أئمتها في مقاومة الاتراك إلى ان طردوهم من البلاد نهائيًا (١٦٣٥).

وكان تأسيس شركة الهند الشرقية (١٦٠٠) مقدمة لتوسع مذهل في نشاط التجار (والسياسيين) الانكليز في البحر الأحمر والخليج العربي، وقد تحالف هؤلاء التجار مع الفرس فطردوا البرتغاليين (١٦٢٢) من هرمز و لم يبقَ امامهم سوى التجار الهولنديين الذين كانوا في تلك الفترة أسياد التجارة.

وفي تلك الفترة كان الضعف قد بدأ يدب بشكل متسارع في جسم السلطنة العثمانية، فأخذ الولاة يتمردون على سلطتها ويميلون إلى الاستقلال عنها. وكان حسين بن علي، ثالث وآخر وال تركي من أسرة «أفراسياب» قد حاول الاستقلال بولاية البصرى عن العثمانيين في مطلع القرن السابع عشر، فحرّض أسرة آل حميد، من عشيرة بني خالد، على إطاحة والي الاحساء العثماني (١٦٦٤). وقد ظل شيوخ هذه العشيرة يتنازعون شرقي شبه الجزيرة مع غيرهم من القبائل المتناحرة إلى ان جاء الوهابيون وأقاموا الدولة السعودية الأولى في القرن الثامن عشر.

السعوديون

حالة شبه الجزيرة قبل ظهور الحركة الوهابية: يقول أمين الريحاني في كتابه «تاريخ نجد الحديث» في معرض وصفه للحالة التي كانت عليها شبه الجزيرة قبل ظهور الحركة الوهابية:

«قبل ظهور هذا المصلح النجدي (محمد بن عبد الوهاب)، كان العرب في نجد، بل في الشطر الشرقي من شبه الجزيرة، منغمسين في عقائد وعبادات جاءتهم من بلاد فارس. فكان لا يزال للقرامطة أثر في الاحساء، وكانت للقبور شفاعة لا شفاعة فوقها فحلّها الناس المحل الأعلى في العبادة والتوسل...». إزاء ذلك لم تكن الدعوة الوهابية مجرد حركة دينية اصلاحية هدفها دعوة المسلمين إلى ينابيع الاسلام الاصلية بل كانت ايضًا حركة تحمل في طياتها معنى الثورة على واقع التمزق والضياع التي كانت تعيشها شبه الجزيرة العربية آنذاك لا بل المنطقة العربية بأسرها، بدليل سرعة انتشار هذه الدعوة خارج حدود شبه الجزيرة وامتدادها إلى تخوم سورية والعراق، وبدرجة أقل إلى مصر. وحول هذه النقطة يقول الريحاني:

«... لم يكن للدولة العثمانية أثر يذكر أو يشكر في شبه جزيرة العرب... (كما ان) شبه الجزيرة نفسها لم تكن في حال تغبطها عليه جارتاها سورية والعراق. فقد كان الأشراف (شريفيو مكة) يحكمون في الحجاز وعسير، والسادة العلويون يحكمون اليمن. وكان الأمراء وشيوخ القبائل كل في قطره، وفي قبيلته، يحكم مستقلاً عن الأمراء الآخرين ومعاديًا لهم في أكثر الاحايين. وكانت بلاد نجد والإحساء من الشعر إلى قطر والكويت، ومن الأفلاج إلى جبل شمر مقطعة الاوصال مشتتة الاحوال، لا صلة لقبيلة بأخرى تثمر خيرًا أو تدوم، ولا بين الحواجز المستقلة بعضها عن بعض صلات ولاء إلا نادرًا...».

الأمراء السعوديون قبيل الوهابية وعند ظهورها: في ظل هذه الاوضاع عاش مقرن بن مرخان أحد أجداد الأسرة السعودية وأمير الدرعية التي كان قد أسسها الجد الأكبر مانع بن ربيعة المريدي (القرن الخامس عشر). فبسط مقرن سيادته على الاحساء وقطر والقطيف.

ولكن ملكه، الذي تجاوز حدود نجد في بعض الاحيان، لم يدم طويلاً، و لم يكن ملك أبنائه ليختلف كثيرًا عن ملك سواهم من أمراء ذلك الزمان، فما اشتمل على غير بلديـن أو ثلاثة والقرى التابعة لها.

هكذا كان وضع محمد بن سعود بن محمد بن مقرن أمير الدرعية عندما ظهر محمد بن عبد الوهاب، محيي المذهب الحنبلي وصاحب الدعوة الوهابية التوحيدية.

محمد بن عبد الوهاب والوهابية: ولد الشيخ محمد بن عبد الوهاب في العُيينة من أعمال نجد في ١٧٠٣ (وتوفي في ١٧٩٢) في أسرة شغل عدد كبير من افرادها وظيفة قاضي العُيينة كما نبغ فيها العديد من الفقهاء الذين اشتهروا على صعيد نجد بأسرها. تلقى تعليمه الاولي على والده ثم رحل إلى الحجاز والعراق والإحساء سعيًا وراء العلم. ولما توفي والده في ١٧٤٠ أعلن الشيخ محمد بن عبد الوهاب دعوته المعروفة بـ«الدعوة الوهابية».

تقوم هذه الدعوة على ضرورة العودة إلى ينابيع الاسلام الحقيقية وتخليصه من الشوائب التي ألحقتها بعض الممارسات به. كما شدّد محمد بن عبد الوهاب على ضرورة التمسك الحرفي بالتعاليم القرآنية وعلى طريقة ابن تيمية الذي كان له تأثير حاسم على فكر ابن عبد الوهاب. فالوهابية تأخذ بظواهر النصوص الاصلية وترفض البدع كلها وتنفر من الفلسفة والتأويل.

والوهابية، في السياسي، طليعة حركات اليقظة العربية المناوئة للعثمانيين، تناقضت معهم فكريًا لأصوليتها هي ولإغراقهم هم في البدع والخرافات. وتعد الوهابية المصدر الاول الذي تأثر به كل دعاة الاصلاح الاسلامي-وإن كان هناك فروقات واختلافات- في الشرق الاسلامي دون استثناء. فمن هؤلاء الدعاة من مزجها بالتصوف، ومنهم من زاوج بينها وبين العقلانية التي بهرت ثمراتها في اوروبا عقول مصلحي الشرق والاسلام.

الحلف ما بين الديني والسياسي (ابن عبد الوهاب وابن سعود): ما إن بدأ الشيخ محمد بن عبد الوهاب دعوته حتى لاقى معارضة ضارية وعنيفة في حريملة حيث كان يسكن بعد انتقاله من العُيينة، وقد بلغت هذه المعارضة حد التهديد بقتله. فعاد إلى العُيينة مسقط رأسه. إلا انه لم يطل به

طراز معماري قديم في الدرعية عاصمة آل سعود الاولى.
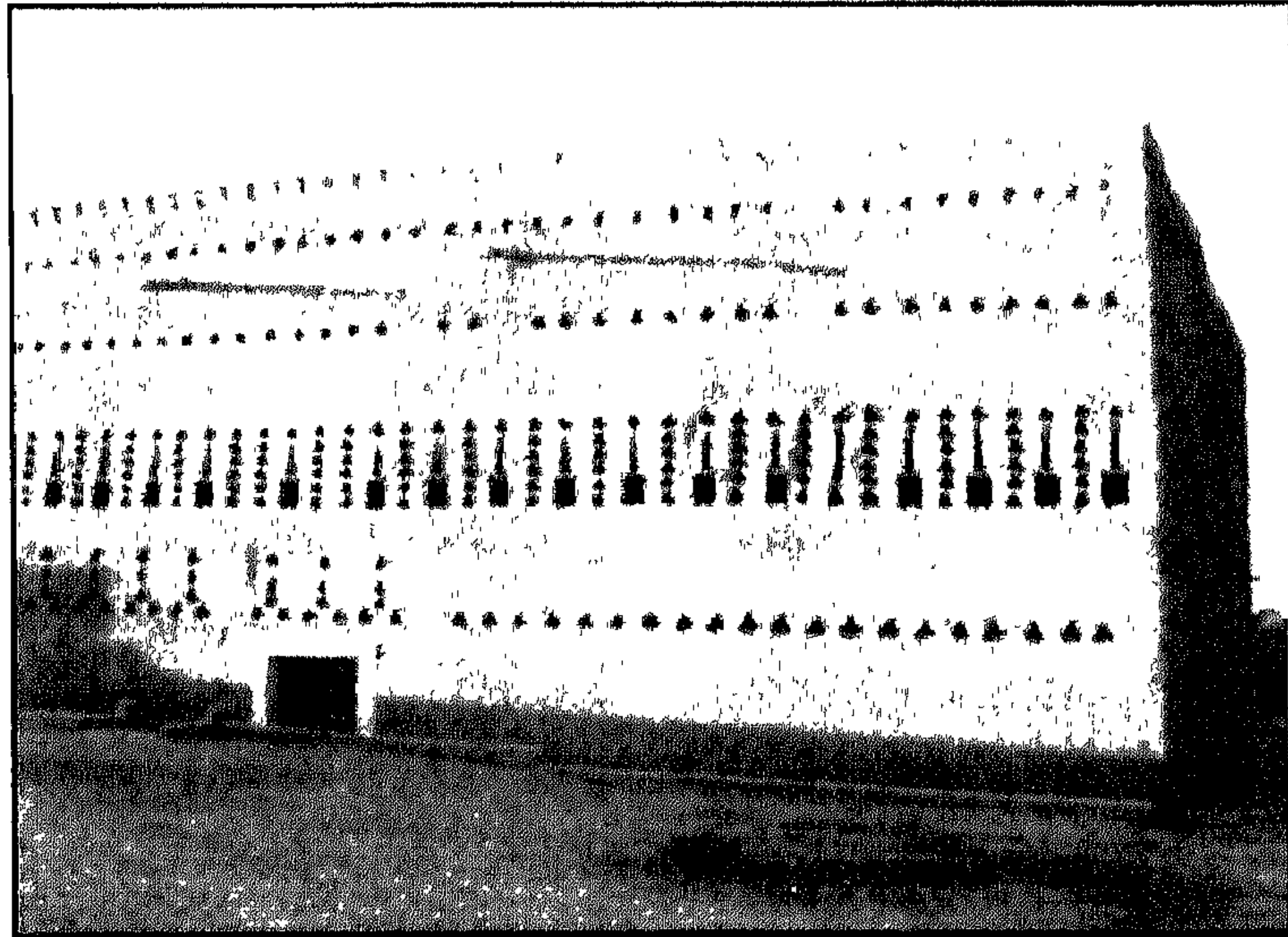
المقام في هذه البلدة، فاضطر إلى اللجوء إلى الدرعية حيث كانت تقوم إمارة آل سعود التي بادرت إلى تبني دعوته.

هكذا، عقد العهد بين رجل الدين ورجل السياسة، «بين عقيدة المصلح وسيادة الأمير» على حد قول أمين الريحاني. فتعهد الأمير محمد من سعود، وكان أميرًا للدرعية، بـ«نشر دين التوحيد في البلاد العربية وتعهد ابن عبد الوهاب بأن يقيم في الدرعية مصلحًا وأن لا يحالف أميرًا آخر من أمراء العرب» (أمين الريحاني، «تاريخ نجد الحديث»).

هذا هو الأساس الديني والسياسي للامارة السعودية الاولى التي بقيت أكثر من سبعين عامًا، والتي بدأت مع الأمير محمد بن سعود في اتفاقه وحلفه مع الشيخ محمد بن عبد الوهاب، واستمرت مع عبد العزيز بن محمد، ثم سعود بن عبد العزيز، ثم عبدا لله بن سعود.

وكان الأمير عبد العزيز بن محمد، الذي تسلم الامارة بعد وفاة والده الأمير محمد بن سعود، قد عمد إلى نشر الافكار التوحيدية في سائر نجد. ففتح الرياض واصطدم ثلاث مرات بحكام نجران العلويين وتمكن من الصمود أمامهم، وامتدت رقعة الدولة السعودية في عهده لتشمل الخرج والقصيم وسدير وشمر والإحساء وساحل عمان وقطر والبحرين والحجاز (بما فيها مكة المكرمة) والمدينة، وعسير.

أما في عهد سعود بن عبد العزيز فقد امتدت دولة آل سعود إلى قلب اليمن ووصلت إلى مشارف العراق وسورية مهددة السلطنة العثمانية في أهم ولاياتها. وقد تحقق للدولة السعودية الصاعدة ثلاثة أمور: انتشار الافكار الوهابية في المناطق التي فرضت عليها سيادتها، توحيد نجد وجعلها قلب هذا التوسع في شبه الجزيرة العربية بعدما كانت الحجاز هي المركز الاول ونقطة الثقل فيها.

الشريفيون والدعوة الوهابية وآل سعود: أطلق جغرافيو العرب إسم الحجاز على الجبال الحاجزة بين عالية نجد وبين ساحل البحر الأحمر المنخفض لأن تلك الجبال تحجز بين اليمن والشام وتمتد حتى سواحل عسير. ولكن الحجاز في العرف السياسي يشمل السواحل المنخفضة ايضًا. واشهر مدنه مكة المكرمة والمدينة المنورة وجدة والطائف وينبع.

كان أشراف مكة يحكمون الحجاز حكمًا مطلقًا، و لم تكن السلطة العثمانية عليه سوى سلطة إسمية. أما صلة حكام مكة الشريفيين بنجد فكانت صلة قديمة، وروابطهما قوية ومتينة. والحدود بين الحجاز ونجد لم تكن واضحة ولا مرسومة. وكان أشراف مكة يسيطرون على بوادي نجد المجاورة لهم ويجبون من قبائلها الزكاة ويتقبلون منهم الهدايا ويقومون بتأديب بعض المتمردين منهم، كما شملت سيطرتهم السراة وبعض أجزاء من تهامة.

ولما أعلن الشيخ محمد بن عبد الوهاب دعوته وبدأ ينتشر صداها في نجد أخذ أشراف مكة يتابعون سير تلك الدعوة باهتمام ولكنهم كانوا كبعض الناس في ذلك العهد لا يتوقعون لها نجاحًا فلزموا جانب الحياد منتظرين نتائج المعارضة للدعوة الدائرة في قلب نجد.

ولما حلّ الشيخ محمد بن عبد الوهاب في الدرعية وآمن بدعوته الأمير محمد بن سعود صاحب الدرعية وأعلن نصرته لها، ارتفعت رايات الجهاد لنشر الدعوة في داخل نجد وفي اطرافها. وطهرت نجد من البدع والخرافات، وهدمت القباب المقامة على القبور التي افتتن الناس بها وقدّسوها وتضرعوا بها دون ا لله، «عندئذ تبدّل موقف أشراف مكة نحو الدعوة ورهبوها لأنهم وجدوها قد رفضت كل ما لا يعرفه السلف وحشوا على ما هو موجود في الحجاز من تلك المقامات والقباب القائمة على بعض القبور التي يقدسونها والتي كانت تدر عليهم موارد من الرزق لا تنضب تساق إليهم من حجاج المسلمين

القادمين إلى الحرمين من أنحاء العالم الاسلامي». فانضموا إلى مواكب العدوان ضد الدرعية ومشوا في ركابها وأعلنوا حربهم للدعوة القائمة وقرروا القضاء عليها لاتقائها قبل ان تتسرب مبادئها إلى الحجاز وتخرجهم منه.

وأقرتهم الدولة العثمانية على هذا وشايعتهم لتستميل جمهرة علماء الدين، ولتحول في الوقت نفسه دون تكتل القبائل في البلاد العربية حول دعوة موحدة تجمع صفوفهم خشية انتباههم للمطالبة باسترجاع الخلافة الاسلامية من يد تلك الدولة إلى العرب. وكانت الخلافة يومئذ هي الركن الأساسي لسيادة الدولة العثمانية على الاقطار الاسلامية الخاضعة لها. فأخذت الدولة العثمانية تعمل من وراء الستار لتغذية الحركات التي تدور بين أشراف مكة وأقطاب الدعوة في الدرعية دون ان تزج بنفسها في قتال ظاهر مكشوف.

كان الشريف مسعود بن سعيد هو أول من تصدى بالعداء الواضح لمحاربة الدعوة، واتهم المؤمنين بها بالمروق عن الدين الاسلامي. ثم رفع في ١٧٤٨ تقارير إلى الباب العالي في اسطنبول عن قيام هذه الدعوة يشرح له مدى الخطر الذي ينجم منها على مقام الخلافة الاسلامية ويطلب من دار الخلافة ان تشدّ أزره في مكافحتها وتطلق يده لمحاربة المؤمنين بها. فصدق الباب العالي مقالته وبارك خطواته. وأول خطوة خطاها الشريف مسعود بعد هذا منعه أهالي نجد من دخول مكة لأداء فريضة الحج.

وعندما بلغ الدرعية أخبار هذه الخطوات العنيفة، أبت ان تستفز الشريف مسعود، وأرسلت وفدًا من ثلاثين عالمًا دينيًا من علمائها لمناظرة علماء مكة حول مبادىء الدعوة.

لكن علماء مكة أصدروا فتوى، بعد مناظرات مع وفد الدرعية، كفروا بها صاحب الدعوة، وصادق على تلك الفتوى قاضي الشرع في مكة. ونشرت بين الناس ليشهدوا بها. و لم يكتف الشريف مسعود بذلك بل أصدر أوامره باعتقال العلماء النجديين وزجهم في السجون حتى مات أكثرهم، و لم يسمح لأهالي نجد بدخول مكة لأداء مناسكهم وتأدية فروضهم، وقد استطاع من بقي من أولئك العلماء النجديين الفرار من سجن الشريف وعادوا إلى الدرعية. وكان لما اخبروا به اسوأ الأثر في نفس الشيخ محمد بن عبد الوهاب والأمير محمد بن سعود. و لم تكن الدرعية يومئذ تملك من القوة والسلاح ما يمكنها ان تثأر من الشريف مسعود فسكتت على مضض.

بعد وفاة الشريف مسعود تولى الأمر في مكة أخوه الشريف مساعد (١٧٦٠-١٧٧٠) الذي رفض هو الآخر طلب الدرعية السماح لاهالي نجد بأداء فريضة الحج. وبعده استقرت الشرافة بيد الشريف احمد بن سعيد الذي كتب إلى محمد بن عبد الوهاب وعبد العزيز آل سعود (١٧٧٠) عارضًا إصلاح الحال، فاستجابا له، وتحسنت العلاقات وأزيحت الدعاية التي كانت تنشرها مكة ضد الدعوة.

لكن في ١٧٧٣، أزيل الشريف أحمد وحلّ محله أخوه الشريف سرور بن مساعد الذي اشترط ان يأخذ من حجاج نجد «ما يأخذ من حجاج الأعاجم من الضرائب والمكوس» (وكانت القاعدة المتبعة قبل هذا ان يدخل أهل نجد الحجاز دون قيد ولا شرط)، فرفضت الدرعية هذا الطلب.

بعد سرور بن مساعد تولى زمام الحكم في مكة أخوه الشريف غالب (من ٣٠ كانون الثاني ١٧٨٨) الذي كان يمني نفسه الاطاحة بالدرعية والقضاء على الدعوة. فأصرّ على عدم السماح بدخول أهالي نجد إلى مكة (١٧٨٩). وجهز حملة عسكرية من أتراك ومغاربة ومصريين ومّن انضم إليه من القبائل. وخرج يقود الجيش بنفسه، وعسكر على أطراف نجد، و لم يتمكن من دخولها، وكانت القبائل تتفرق من حوله، ويشتبك بعضها في قتال مع السعوديين (بقيادة الامام عبد العزيز

وولده الأمير سعود)، وبعضها الآخر مع جيش الشريف الذي كان يحاول إعادتها إلى الطاعة بعدما أخذت تتفرق عنه، حتى استطاعت من هزيمته فعادت فلوله إلى مكة مذعورة.

عندها، جنح الشريف غالب للصلح وأرسل كتابًا إلى الدرعية يوجه فيه الدعوة إلى الإمام عبد العزيز وولده سعود وأهله وعشيرته ومن يشاء من أهل نجد لزيارة الاماكن المقدسة وأداء فريضة الحج؛ فأجيب طلبه وتوجه الإمام عبد العزيز وولده سعود وعدد كبير من أهله وحاشيته، ومن أهل نجد الذين اعتنقوا الدعوة، إلى مكة وهم يحملون معهم رسالة من الشيخ محمد بن عبد الوهاب معنونة إلى علماء مكة يوضح فيها حقيقة الدعوة التي يدعو إليها.

في أجواء هذا الصلح بين الشريف غالب والدرعية، أخذت القبائل تتهافت للايمان بالدعوة الوهابية الجديدة، ما أغضب الشريف غالب، فأقدم على نقض الصلح وسيّر حملات على عدد من القبائل، لكنه مني بفشل، فعاد لطلب الصلح مرة جديدة من الدرعية على الشروط التي تمليها عليه.

واقتصرت شروط الدرعية على:

١- الاتفاق على رسم حدود فاصلة بين نجد والحجاز.

٢- تعيين تابعية القبائل المرابطة على الحدود لكل من الطرفين.

٣- السماح لأهالي نجد بدخول مكة لأداء فرائضهم.

٤- معاملة أولئك الحجاج معاملة حسنة طيبة.

وبعد مفاوضات أُقرت تلك الشروط وتم عقد الصلح بين الدرعية ومكة في ١٧٩٨. وفي ١٧٩٩، بدأ حجاج نجد يفدون (كان منهم كبار علماء نجد منهم الشيخ علي والشيخ ابراهيم ابنا الشيخ محمد بن عبد الوهاب). وتكرّر الحج، بأعداد أوفر، في ١٨٠٠.

وفي ١٨٠١، عزم الأمير عبد العزيز ان يحج بالناس. وفي الطريق، آنس منه ضعفًا أعجزه عن مواصلة السير فعاد إلى الدرعية، وحج ابنه الامير سعود بالجموع. وأخذت القبائل الحجازية تتكاثر من حول ابن سعود وتعلن ولاءها له. فنقض الشريف غالب الصلح مجددًا، وقاتل القبائل «المرتدة»، ونشبت بينه وبينها أكثر من ثلاثين موقعة باء أكثرها بالفشل. وتمكن الامير سعود من احتلال الطائف، وفتح مكة، فعرض عليه الشريف عبد المعين (أخ الشريف غالب) الطاعة، فأقره ابن سعود في شرافة مكة.

وفشل ابن سعود في دخول جدة بعد حصار عدة ايام (وكان الشريف غالب متحصنًا بها) وعاد إلى مكة ومنها قفل راجعًا إلى الدرعية. ومن جدة عاد الشريف غالب، بعد ان علم بارتحال الامير سعود عن الديار الحجازية، وخرج بجيشه إلى مكة فتمكن من استردادها، وبعدها استرد ايضًا الطائف. وفي تلك الأثناء وافت الأنباء من الدرعية باغتيال الإمام عبد العزيز، ومبايعة ولده الامير سعود. وبذلك استمر حكم الشريفيين للحجاز إلى عهد الشريف حسين بن علي في الربع الاول من القرن العشرين حيث عاد السعوديون وتمكنوا من الحجاز نهائيًا هذه المرة. أما اغتيال الإمام عبد العزيز فكان على يد رجل كردي من العراق (من مدينة العمادية الواقعة في لواء الموصل) ساءه هجوم الإمام على كربلاء، فتنكّر وادعى اعتناقه الدعوة. وفيما كان يصلي بالقرب من الإمام في مسجد الطريف وثب عليه وطعنه بخنجر (المرجع الرئيسي لهذه المادة الفرعية «الشريفيون والدعوة الوهابية وآل سعود»، حسين خلف الشيخ خزعل، «تاريخ الجزيرة العربية في عصر الشيخ محمد بن عبد الوهاب»، دار ومكتبة الهلال، مطابع دار الكتب، بيروت، بدون تاريخ، ص٣١٧-٣٢٩).

السلطنة العثمانية وآل سعود (الحملة

المصرية على عسير): نظرت السلطنة العثمانية بقلق عميق إلى توسع الدولة الوهابية إذ إنها، وهي المفترض فيها حماية الاماكن المقدسة، قد وجدت نفسها أعجز من أن تبسط سيادتها عليها، كما ان جيوش آل سعود قد بدأت تهدد فعليًا مواقعها في سورية والعراق. وفوق هذا كله فإنها المرة الأولى، منذ قيام السلطنة العثمانية، التي يرفض فيها حاكم سني الاعتراف بخلافة السلطان العثماني مع كل ما يترتب عن هذا الموقف من نتائج سياسية تهدد شرعية حكمها في البلاد العربية.

وإزاء عجز الجيش العثماني عن القضاء على هذه الدولة السعودية، استنجد السلطان العثماني بواليه في مصر محمد علي للوقوف في وجه هذا الزحف المتواصل. وقد لبى محمد علي، بعد تردد قصير، طلب الباب العالي فأرسل حملة (١٨١١) بقيادة ابنه طوسون، ثم بقيادة ابنه الثاني ابراهيم باشا (الذي ساعده في هذه الحملة أمير جبل لبنان بشير الشهابي الثاني)، تمكنت بعد سنة من القضاء على الدولة السعودية الاولى وتدمير عاصمتها الدرعية بعد خسائر جسيمة ومقاومة مستميتة (راجع «الحملة المصرية على عسير» في باب معا لم تاريخية).

كان آخر أمراء هذه الدولة السعودية الأولى الأمير عبدا لله بن سعود الذي وقع في أسر ابراهيم باشا فأرسله إلى الآستانة حيث أعدم (١٨١٨). أما بقية أمراء الأسرة الحاكمة السعودية فقد نفوا إلى مصر باستثناء الأمير مشاري بن سعود الكبير الذي تمكن من الافلات من أسره، والامير تركي بن عبدا لله بن محمد الذي كان نجح في الافلات من قبضة الجيش المصري لدى إطباقه على الدرعية. إلا ان الاتراك استطاعوا الايقاع بالأمير مشاري فقتلوه بتواطوء من أمير محلي هو محمد بن مشاري بن معمر الذي كان يطمح إلى الحلول على رأس الامارة. إلا أن الأمير تركي عاد فقتله انتقامًا لمشاري وفرض نفسه الوريث الشرعي لآل سعود. وبذلك انتقلت الامارة من بيت عبد العزيز بن محمد إلى بيت عبدا لله أخي عبد العزيز. وما لبث الأمير تركي ان قُتل بدوره على يد ابن عمه مشاري بن عبد الرحمن الذي استولى على الامارة ولكنه لم يتمتع بها أكثر من اربعين يومًا، إذ سقط بدوره قتيلاً على يد فيصل بن تركي الذي سارع للثأر لوالده واستعادة الامارة. ومع فيصل بن تركي استقرت نوعًا ما الدولة (الامارة) السعودية الثانية.

يقسم المؤرخون عهد فيصل بن تركي إلى دورين: الاول يمتد من ١٨٣٠ إلى ١٨٣٨ وفيه تميزت الحياة السياسية في نجد بعدم الاستقرار وانتشار الفتن والقلاقل، وانتهى هذا الدور بتدخل القائد العسكري العثماني العامل في خدمة محمد علي خورشيد باشا الذي أجبر الأمير فيصل على الاستسلام وعين مكانه الامير خالد بن سعود، وهو من الامراء السعوديين الذين كان ابراهيم باشا قد نفاهم إلى مصر باعتباره من المحسوبين على السياسة المصرية في نجد. إلا ان النجديين نفروا من سياسة الامير خالد العصرية (أي انه كان متأثرًا بأفكار محمد علي المتاثر بدوره بالافكار الاوروبية العصرية). فتولى الامارة بعده عبدا لله بن ثنيان بن ابراهيم بن سعود ولكنه لم يستمر فيها أكثر من عام ونصف، إذ تمكن الامير بن تركي (الذي كان محمد علي قد أطلق سراحه) من خلعه واستعادة إمارته. وبذلك بدأ الدور الثاني من عهده الذي استمر ٢٤ عامًا تميزت بالاستقرار والازدهار النسبي، ودان له فيه القسم الأكبر من شبه الجزيرة العربية كالاحساء والقطيف ووادي الدواسر وعسير والجبل والقصيم.

وبوفاة الامير فيصل (١٨٦٥) انتهى العصر الذهبي في الدولة السعودية الثانية، فتنازع أنجاله الحكم وبدأ عهد يمكن تسميته بالحرب الأهلية استمر حتى ١٨٩٠ بانتصار ابن الرشيد، أمير حائل، ولجوء آخر أمراء الدولة السعودية الثانية

الامام عبد الرحمن بن فيصل، ومعه ابنه عبد العزيز، إلى الكويت بانتظار الانبعاث المقبل للدولة السعودية الثالثة.

عبد الرحمن وعبد العزيز في الكويت: فقد آل سعود، أمام آل الرشيد، في ١٨٩٠، معظم اراضيهم بما في ذلك عاصمتهم الرياض الذي استولى عليها محمد بن رشيد (توفي في ١٨٩٧) وهرب الامير السعودي الامام عبد الرحمن مع ابنه عبد العزيز وبقية افراد عائلته إلى الربع الخالي، ثم خلّصهم أمير الكويت الشيخ محمد الصباح في ١٨٩٥ من قساوة ذلك المنفى الاجباري وأتى بهم إلى الكويت وأكرمهم.

كانت بريطانيا في تلك الفترة ترنو بأبصارها إلى الكويت خاصة عندما أخذت كل من روسيا والمانيا تخطط للوصول إلى الخليج العربي تحت ستار مد خط حديدي بموافقة الباب العالي الذي كانت الكويت تعود إليه إسميًا. ولقطع الطريق على تينك الدولتين اتصلت بريطانيا (١٨٩٥) بأمير الكويت الشيخ محمد الصباح وارادت ان تقيم معه «علاقات صداقة» على غرار اتفاقية ١٧٩٨ مع سلطنة مسقط واتفاقية ١٨٢٠ التي فرضت على شيوخ الامارات السبع (الشاطىء المتصالح)، ومعاهدة ١٨٩١ التي فرضت الحماية على عُمان. وعندما رفض الأمير محمد الصباح ذلك العرض تعرّض للاغتيال وقُتل في ١٨٩٦ وحلّ محله أخوه الشيخ مبارك الصباح الذي تمكنت بريطانيا من فرض «اتفاقية سرية» معه في١٨٩٩ هي في الواقع معاهدة حماية تجعل من بريطانيا الدولة الوحيدة التي تتمتع بامتيازات في الكويت.

في تلك السنة (١٨٩٩)، رفض الشيخ مبارك الخضوع إلى الوالي التركي في البصرة حيث كانت الدولة العثمانية قد جعلت من الكويت «سنجقية» أي قضاء تابعًا لولاية البصرة، كما عينت شيخها قائمقامًا للقضاء. وعندما توجهت بعثة المانية في ١٩٠٠ إلى الكويت باعتبارها آخر محطة للخط الحديدي المزمع إقامته من طرف المانيا أعلنت بريطانيا عن الاتفاقية وحذرت الدولة التركية من مغبة السماح للالمان بمواصلة اعمالهم. ولما أصبح واضحًا ان ميزان القوى تحول إلى جانب البريطانيين وقعت تركيا معهم اتفاقية في ١٩٠١ حول الكويت تعترف فيها بريطانيا بالسيادة الاسمية لتركيا على الكويت، كما اعترفت تركيا بالاتفاقية البريطانية الكويتية لعام ١٨٩٩ وبالسيادة البريطانية الفعلية على الكويت.

إلا ان الاتراك الذين كانوا مجبرين على التوقيع على تلك الاتفاقية حرّكوا من ناحية أخرى قبائل شمر الموالية لهم والخصم التقليدي لقبيلة عنيزة وآل سعود، وكانت إمارة آل الرشيد الشمرية في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين أقوى إمارة في وسط وشرقي شبه الجزيرة العربية منذ سقوط الرياض في أيديهم بمساعدة الاتراك.

وتوجه فعلاً أمير شمر الشيخ عبد العزيز بن رشيد على رأس جيشه إلى الكويت (١٩٠٠) لطرد الامير مبارك الصباح وإعادة الكويت إلى الحظيرة العثمانية. ورد الأمير الكويتي على ذلك الهجوم معتمدًا على تحالف من البدو ضم قبائل مطير وبني مرة الوهابية وقبيلة المنتفق التي كان يرأسها آنذاك ناصر السعدون في جنوبي العراق. كما ان الامام عبد الرحمن وابنه الامير عبد العزيز آل سعود اغتنما ايضًا تلك الاحداث ليدخلا معمعة القتال ردًا لجميل صديقهما أمير الكويت وليحاولا استعادة الرياض من يد عدوهما ابن الرشيد. وقد وقفت بريطانيا إلى جانب قوات القبائل الكويتية المحافظة. إلا ان الشمريين هزموا تلك القوات بعد ان استدرجوها إلى منطقة الطريف، في قلب القصيم، وانتصروا عليهم في معركة قاسية. ولم ينج الامير مبارك الصباح إلا بتدخل السفن الحربية البريطانية.

الرياض في أوائل عهد عبد العزيز.

العودة المظفرة والدولة السعودية الثالثة (١٩٠١-١٩٣٢): لم يستسلم الامير عبد العزيز بن عبد الرحمن لتلك الهزيمة، بل أعاد الكرة، وتمكن، في ١٩٠٢، وهو على رأس كوكبة من ٤٢ فارسًا، من استعادة الرياض التي ساعده سكانها من الداخل، إذ كانوا يتوقون للتحرر من قساوة تسلط آل الرشيد عليهم. وفي مطلع ١٩٠٤، كان عبد العزيز بن سعود قد استعاد معظم اراضي دولة اجداده التي اصبحت في ١٩٠٦ من القوة إلى درجة ان أمير شمر الشيخ معتب، الذي خلف والده عبد العزيز بن الرشيد على الحكم في السنة نفسها، اعترف رسميًا بسلطة آل سعود على نجد والقسيم كما ثبتت تركيا ذلك الاعتراف في ما بعد. لكن عبد العزيز آل سعود ظل يقاتل بعد ذلك طيلة سنوات قبل ان يتمكن في النهاية من اخضاع ابن الرشيد وتقويض سلطته (١٩٢١). وكان الامير عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود قد تمكن منذ ١٩١٣ من طرد الاتراك من الاحساء وبسط حكمه على كل اواسط شبه الجزيرة.

وعندما اندلعت الحرب العالمية الاولى (١٩١٤) بقيت الدولة السعودية الثالثة على الحياد (في حين ان الشريف حسين في مكة خاض هذه الحرب إلى جانب الحلفاء بدءًا من ١٩١٦). وبالمقابل فقد اعترفت بريطانيا باستقلال نجد وسلامة اراضيها. وكان عبد العزيز قد أنشأ منذ ١٩١٠ قوات مسلحة شديدة المراس أطلق عليها إسم «الإخوان» (راجع باب «معالم تاريخية») كانت تقيم في مستوطنات في نجد وتشكل القوة الضاربة الطليعية في غزوات الملك عبد العزيز وحروبه. وكانت بالاضافة إلى ذلك تلعب دورًا كبيرًا في نشر الافكار الدينية التي دعا إليها الشيخ محمد بن عبد الوهاب وفي فرض العدالة الاسلامية وتطبيقها.

مشكلات حدود ومؤتمرات: بعد أن قضى عبد العزيز على ابن الرشيد وضمن ولاءه للدولة السعودية (١٩٢١)، اصبحت الحدود الحجازية-النجدية مفتوحة بعضها على بعض، لا بل ان عبد العزيز (أصبح يقال له «السلطان»)، بضمه الجوف إلى سلطته في مطلع ١٩٢٢ أصبح على حدود الاراضي الخاضعة للسلطة الهاشمية،

تلك الحدود غير المرسومة وغير الواضحة السيادة، خاصة على الحدود النجدية-العراقية. ونتيجة لذلك تصاعدت المناوشات على الحدود وكثرت الغزوات بين العشائر القاطنة على جانبيها.

وعلى أثر استمرار التوتر الحدودي وتصعيده، عقد مؤتمر المحمرة لتسوية الخلاف بين البلدين (نجد والعراق). ولكن السلطان عبد العزيز لم يوافق على نتائجه، فعقد مؤتمر ثان بعد بضعة اشهر في العقير، اعتبر تكملة للمؤتمر الاول، توصل فيه السلطان عبد العزيز والسر جيلبرت كلايتون المندوب المفوض من الحكومة البريطانية والمخول بأن ينوب عن الحكومة العراقية، إلى الاتفاق على ضبط العشائر في المناطق الحدودية وعدم السماح باستعمالها في تهديد الأمن الداخلي لأي من الطرفين. وقد عرف هذا الاتفاق بـ«اتفاقية بحرة»، وتمّ التوقيع عليه في اواخر ١٩٢٢، إلا انه لم ينفذ بشكل جدي. فعقد مؤتمر ثالث في الكويت (اواسط ١٩٢٣) يكون الغرض منه البحث في تنفيذ بنود اتفاقية بحرة والبحث في مسألة حدود نجد وشرقي الاردن، وكذلك البحث في حل المشكلات العالقة بين نجد والحجاز، على ان يوافق السلطان عبد العزيز على مناقشة هذه المسألة. وقد وافق السلطان على ذلك، إلا ان الشريف حسين أخذ يماطل في حضور المؤتمر مما أدى إلى فشله، لا بل أن بعض القبائل المحسوبة على السلطان عبد العزيز عمدت، بعد ان أدركت فشل المؤتمر، إلى القيام بغزو على أطراف العراق. وقد أغضب هذا الحادث الحكومة البريطانية، إلا ان السلطان عبد العزيز أبدى عدم اكتراث بردود فعلها، خاصة وانها لم تعد في موقع القادر على التأثير على قراراته. وكل ما استطاعت ان تفعله هو قطع المعونة المالية التي كانت تقدمها له.

عبد العزيز يُسقط الحجاز ويضمه: ما إن ألغى مصطفى كمال أتاتورك منصب الخلافة الذي كان في آل عثمان (٣ آذار ١٩٢٤) حتى أعلن الشريف حسين بن علي نفسه خليفة للمسلمين. فزاد هذا الاعلان من حدة الخلافات بين السعوديين والهاشميين. وفي ٤ حزيران ١٩٢٤، عُقد في الرياض مؤتمر عام برئاسة الامام عبد

الحجاز أواخر القرن ١٩ واوائل القرن ٢٠: من اليمين، واجهة مبنى تقليدي في جدة (١٩٣٨)، ملابس حجازية (١٨٧٣)، ومقر الحكومة في جدة (١٨٩٠).

الرحمن آل سعود والد السلطان عبد العزيز حضره العلماء ورؤساء القبائل والسلطان عبد العزيز نفسه، وطرحت فيه مسألة الحج وعدم تمكن أهل نجد من تأدية فريضته. وخرج المؤتمرون بضرورة غزو الحجاز «لتخليص البيت الحرام» وتأدية فريضة الحج بالقوة بعد «أن استنفدت الوسائل السلمية».

وهكذا بدأ زحف «الإخوان» على مدن الحجاز التي أخذت تتساقط الواحدة بعد الأخرى. فسقطت الطائف في ٧ ايلول ١٩٢٤، وكان لسقوطها تأثير كبير على معنويات القوات الهاشمية. وقد طلب الشريف حسين دعم القوات البريطانية، لكنها لم تحرّك ساكنًا. وفي ٣ تشرين الاول ١٩٢٤، اجتمع أعيان مكة وجدة ومَن فرّ من أعيان الطائف في مدينة جدة وطالبوا الحسين بـ«التنازل وتنصيب ابنه الامير علي ملكًا على الحجاز فقط، مقيدًا بدستور وبمجلسين وطنيين». فماطل الحسين في بادىء الامر، ثم رضخ وتخلّى عن الملك لولده علي وانتقل بحرًا إلى العقبة. ولكن الانكليز أنذروه بضرورة الرحيل عنها بحجة احتمال مهاجمة ابن سعود لها فنقلته بارجة بريطانية وهو ساخط إلى قبرص فاقام فيها ست سنوات أذن الانكليز له بعدها بالسفر إلى عمان حيث وافته المنية بعد ٦ أشهر، أي في ١٩٣١ فحمل جثمانه إلى القدس ودفن في المسجد الأقصى. والمعروف ان الشريف حسين هو مؤسس الأسرة الهاشمية في العراق والاردن، وهو الذي أعلن «الثورة العربية الكبرى» (١٩١٦)، وتمكن في ١٩١٨ من الاستيلاء على الحجاز كله، ولكنه سرعان ما انهزمت جيوشه أمام أتباع عبد العزيز بن سعود.

وجد الأمير علي بن الحسين ان الحالة العسكرية في مكة ميؤوس منها، فتراجع إلى جدة حيث أخذ ينظم دفاعاته. وفي تلك الأثناء كانت قوات «الاخوان» تقترب من مكة لتدخلها في ١٦ تشرين الاول ١٩٢٤. وبذلك انحسر النفوذ الهاشمي عن الحجاز ما عدا جيبًا صغيرًا ساحليًا ضم جدة وبعض الاراضي المحيطة بها بالاضافة إلى المدينة المنورة.

وقد جرت مفاوضات بين الطرفين لحقن الدماء ومحاولة تسوية الامور سلميًا، إلا انها باءت جميعها بالفشل. فاضطر السلطان عبد العزيز إلى الدخول في معركة حاسمة مع الجيش الهاشمي فسقطت المدينة في اواخر ١٩٢٥، واستسلمت جدة بعد ذلك بقليل، وتنازل الأمير علي عن ملك الحجاز وسافر إلى الخارج. وبذلك تم توحيد نجد والحجاز تحت سلطة الأسرة السعودية، وأصبح لقب عبد العزيز «سلطان نجد وملك الحجاز»، واختصارًا «الملك عبد العزيز».

سياسة عبد العزيز داخليًا وخارجيًا (١٩٢٦-١٩٣١): ما إن استتبت الامور للملك عبد العزيز حتى دعا في ١٩٢٦ إلى مؤتمر عربي اسلامي لبحث شؤون الحج في مكة المكرمة. وفي المؤتمر رفض بشدة إثارة قضية الخلافة التي كان العديد من المسلمين-وبشكل خاص مسلمي الهند- يريدون إثارتها. وبالرغم من ان هذا المؤتمر لم يخرج بنتائج حاسمة، إلا انه كان له الفضل الأكبر في طمأنة الدول الاسلامية على سلامة الحرمين الشريفين، وتشجيع المسلمين على الحج بأعداد وفيرة. وهذا ما حدث فعلاً منذ ١٩٢٧. وإضافة إلى ذلك فإن بعض البلدان العربية والاسلامية، وعلى رأسها مصر والهند وايران، حاولت وضع العراقيل في وجه النظام السعودي الجديد بحجة غياب الأمن في المملكة والمضايقات التي قد يتعرض لها الحجاج من قبل السلطات الجديدة (خاصة من قبل الاخوان).

أزال المؤتمر المذكور جزئيًا هذه المخاوف، لكن مشكلات داخلية (نتيجة ضم الحجاز إلى نجد) استمرت تعكّر صفو الأمن. ولقد بدأت أولى هذه المشكلات مع بعض الاخوان الذين اخذوا

على الملك عبد العزيز تساهله مع الاجانب، وإدخال بعض مظاهر الحياة العصرية إلى المملكة. وكان هؤلاء الاخوان يظهرون استياؤهم وغضبهم في مواسم الحج. فقد تعرضوا مرة لبعثة الحج المصرية التي كان من عادتها ان تدخل الحجاز على اصوات الموسيقى والإنشاد يحيط بها بعض المسلحين. وقد ذهب ضحية هذا الاشتباك عدد من افراد البعثة. ونتيجة لذلك منع الملك عبد العزيز البعثة من إحاطة نفسها بالمظاهر المسلحة، باعتبار ان هذا يعتبر ماسًا بسيادة المملكة وعدم ثقة بقدرتها على حماية الحجاج. وقد ردت مصر على ذلك بقطع علاقاتها الدبلوماسية مع المملكة.

و لم يكتف الاخوان بما جرى مع البعثة المصرية بل أخذوا يحتجون علانية على السياسة العصرية والتحديثية التي ينتهجها الملك عبد العزيز الذي بادر إلى عقد مؤتمر عام في الرياض حضره زعماء القبائل والعلماء الذي أكدوا فيه ولاءهم للسياسة السعودية.

ثم جاء توقيع اتفاقية رسم الحدود بين المملكة السعودية وكل من العراق وإمارة شرقي الاردن اللذين كانا تحت الانتداب البريطاني (٢٧ ايار ١٩٢٧) ليزيد من نقمة المعارضين الذين حرموا بذلك من «حق» التنقل والغزو خاصة بعد ان كان الملك عبد العزيز قد منعهم من ذلك، وأمّن لهم موردًا ماليًا تدفعه إليهم الدولة بانتظام. وهكذا أعلنت بعض العشائر بزعامة سلطان بن بجاد التمرد السافر على سلطة الدولة، واستمرت مناوشاتهم ضد الدولة مدة عام ونصف إلى أن جهز الملك عبد العزيز حملة قوية قضت عليهم نهائيًا (١٩٢٩). وأودع زعماء المتمردين سجن الرياض. وبذلك نجحت السلطة الجديدة في تثبيت أقدامها داخليًا وأصبح بإمكانها التفرغ لاصلاح الحياة البدوية وتنظيمها من جهة، وإيلاء السياسة الخارجية المزيد من الاهتمام من جهة أخرى (راجع «الاخوان» في باب معالم تاريخية).

فإزاء ضم الحجاز إلى نجد وقيام نظام الملكية وجدت الدول الكبرى نفسها أمام أمر واقع جديد بالغ الأهمية في منطقة شبه الجزيرة العربية. وكان الاتحاد السوفياتي الدولة الكبرى الاولى التي اعترفت بالنظام الجديد، ثم لحقتها بريطانيا ففرنسا.

مع شرقي الاردن والعراق وقع الملك عبد العزيز اتفاقية رسم الحدود (٢٧ ايار ١٩٢٧). وأما مع اليمن فقد اتسمت علاقاته معها في مطلع العشرينات (واستمرت إلى الثلاثينات) بالتوتر الشديد. ففي ١٩٢٠، واثر اندلاع اضطرابات في منطقة عسير ضد حكامها من الأسرة الأدريسية أعلن السلطان عبد العزيز (كان لا يزال سلطان نجد) حمايته عليها.

المملكة العربية السعودية

إعلان المملكة العربية السعودية وأولى المشكلات مع اليمن: في ٢٣ ايلول ١٩٣٢، توّج الملك عبد العزيز إنجازاته بإعلانه توحيد البلاد تحت إسم «المملكة العربية السعودية»، وأصدر أمرًا ملكيًا قضى بتوحيد مناطق البلاد تحت هذا الاسم. وأصبح الملك عبد العزيز، بفضل كفاحه الطويل وإنجازاته الكبرى، زعيمًا عالميًا، وراح الكثير من القوى الاجنبية يتطلعون بأنظارهم نحو مملكته.

وما كاد يخطر في بال عبد العزيز ان فتوحاته قد انتهت حتى ثارت مشكلة في المنطقة الجنوبية. لقد استولى الإمام يحيى حاكم اليمن على نجران، وأخذ يحرّض ويساعد القبائل على الثورة والقيام بأعمال الشغب. وتطورت الاحداث بين البلدين إلى حرب مفتوحة في آذار ١٩٣٤، خاصة وان السعوديين كانوا قد أفشلوا تمردًا قام به حسن الادريسي، بمساعدة حكام اليمن في ١٩٣٣، وضموا عسير رسميًا إلى مملكتهم، ولجأ الادريسي نتيجة ذلك إلى اليمن.

قاد ولدا عبد العزيز سعود (الذي اقترح

الملك عبد العزيز تعيينه وليًا للعهد في ١٩٣٣، وكان له ذلك) وفيصل حملة عبر الجبال استولت على ميناء الحديدة في اليمن خلال اسابيع قليلة. وإزاء ذلك قبل الإمام يحيى الدخول في مفاوضات سلمية مع الملك عبد العزيز الذي أظهر مرونة وتساهلاً فقبل بالانسحاب إلى المواقع التي كان يسيطر عليها قبل اندلاع المعارك (ويعني ذلك عمليًا اعتراف اليمن بضم عسير إلى المملكة العربية السعودية)، ووقعت معاهدة سلام في الطائف في ٢٢ ايار ١٩٣٤، وفرض على اليمن دفع ١٠٠ ألف جنيه استرليني ذهبًا لتعويض الدولة عن نفقات الحملة. وفي ١٩٣٧، وقع البلدان معاهدة صداقة وعدم اعتداء.

وبعد نحو ثلث قرن من الحروب التي خاضها عبد العزيز وكانت شبه متواصلة، بدت جروح الحرب وقد اندملت. فركّز عبد العزيز اهتمامه على الموارد والتطوير. وتكرّر في هذه المجالات ايضًا، بمجالات السلم، لقاؤه مع الحظ والألمعية. فلم يُصبْ فقط آبار الماء التي كان ينشُدها بل بَطْنَ صحراءَ حافلاً بالذهب الأسود.

أسس عامة في سياسة عبد العزيز: لقد اقتضت مشاريع تحسين احوال الشعب وإجراءات الاصلاح والتطوير تنويعَ موارد المملكة وزيادة إنتاجيتها، وحتى ذلك الوقت كان معظم الدخل اللازم لتسيير شؤون البلاد يأتي من تربية الحيوان وبعض زراعة الكفاف في المناطق الخصبة ومن إيرادات الحج الطفيفة. وقد أضرّ الكساد العالمي، في الثلاثينات باقتصاديات البلاد إذ انخفض عدد الحجاج في تلك الفترة بشكل ملموس. وقد استطاع الملك عبد العزيز تطوير علاقات مناسبة مع الدول الغربية بهدف إقامة الاقتصاد والتطوير السياسي في العربية السعودية على أسس راسخة وثابتة.

كان الفرنسيون والبريطانيون مصممين على الحد من كل رغبة عربية في الاستقلال. وفي المقابل، كانت الولايات المتحدة الاميركية لا تنفك تعلن عن مساندتها للتحرير وحق الشعوب في تقرير مصيرها. فعمل عبد العزيز بحرص على بناء علاقات أفضل مع الولايات المتحدة، وظلّ في الوقت نفسه ينمّي علاقته مع بريطانيا، القوة الأعظم في ذلك الوقت، لتفادي أي استثارة أو عداء من جانبها.

وكان تواقًا جدًا لتقديم إسهامات أساسية في سبيل إتاحة الخدمات التعليمية والصحية لجميع أفراد شعبه. وقد اعتزم تحديث وسائل النقل وشبكات المواصلات البدائية. فأراد زيادة عدد

الملك عبد العزيز في البصرة (١٩١٦).

السيارات والطائرات وأجهزة البرق.

اكتشاف البترول: حدت الحاجة الماسة إلى موارد مالية الملك عبد العزيز على منح أول حقوق التنقيب عن البترول إلى شركة بريطانية في ١٩٢٣، هي شركة «إيسترن أند جنرال سنديكت»، و لم تستخدم الشركة هذا الامتياز، و لم يجرِ تجديد العقد حتى انتهى مفعوله في ١٩٣٣.

وكان الاميركيون الذين سبق لهم زيارة شبه الجزيرة العربية في العشرينات وأوائل الثلاثينات قد تركوا انطباعًا إيجابيًا في نفس الملك، مما دعاه لاحقًا إلى اختيار شركة اميركية للتنقيب عن البترول واستغلاله. وكان مهندس مناجم أميركي اسمه كارل تويتشل قد ناقش موارد المملكة الكامنة في باطن الارض مع الملك عبد العزيز في جدة (١٩٣١)، وجرى التركيز بخاصة على موارد المياه غير المستغلة في الحجاز. وقد تأسست لاحقًا (١٩٣٤) المؤسسة العربية الاميركية المحدودة للتعدين لاستغلال مهد الذهب، وهو منجم ذهب يبعد حوالي ٨٠كلم جنوبي المدينة المنورة.

ثم جاء قرار الملك عبد العزيز ببدء مباحثات جديدة حول استكشاف البترول في المملكة. وكان هذا القرار، كما تجلّى لاحقًا، أحد أهم القرارات التي اتخذها الملك. ففي ١٩٣٣ مُنحت امتيازات التنقيب إلى شركة «ستاندرد أويل أوف كاليفورنيا» (شركة كاليفورنيا الموحدة للبترول)، ووقع الاتفاق وزير المال السعودي عبدالله السليمان ولويد هاملتون العامل لحساب الشركة المذكورة. وفي ٧ تموز ١٩٣٣ وقّع الملك المرسوم رقم ١١٣٥ مانحًا الامتياز للشركة، وبعد ثلاثة أيام تمّ نشر المرسوم في الجريدة الرسمية «أم القرى». وفي ٢٣ ايلول من السنة نفسها بدأ عالمان جيولوجيان أميركيان هما برت ميلر وكروغ هنري بالعمل في المملكة، وانضمّ إليهما لاحقًا كارل تويتشل. وبعد شهر انضم إلى الفريق سوك هوفر الذي اصطحب معه المعدات الضرورية من الولايات المتحدة، واستخدمت معها المعدات التي قدمتها الحكومة وأحضرت من جدة. وتوزع الخبراء فرقًا كان لكل فريق منها حارس ومرشد. و لم يلاق المنقبون أي مصاعب مع البدو إذ كان الملك قد وطّد السلام والأمن في طول البلاد وعرضها.

في اوائل صيف ١٩٣٤، اتُخذ قرار باختبار قمة الدمام بالحفر. فالتكوين الجيولوجي لهذه القمة شبيه بمثيله في البحرين على بعد نحو ٤٠كلم فقط. وبتزايد العاملين في عمليات التنقيب تزايدت احتياجاتهم الشخصية ومتطلباتهم الحياتية اليومية، وهكذا افتتح خط التموين بين المملكة والولايات المتحدة. ونصبت معدات الحفر على بئر الدمام رقم «١» في السفح الغربي لجبل الظهران. وفي الوقت نفسه كان يجري بناء معسكر الدمام على قدم وساق. وكانت نتيجة الاختبارات من قمة الدمام غير مشجعة، لكن التنقيب استمر، وتواصل الحفر إلى عمق كيلومتر واحد، كما جرى حفر آبار أخرى بلغ مجموعها الثمانية، لكن النتائج لم تكن مشجعة ايضًا.

وفي ربيع ١٩٣٧، وباكتمال معسكر الدمام السكني، انضمت زوجات الاميركيين العاملين وأولادهم إليهم في منطقة العمل. وقد بلغ عدد هؤلاء العاملين (تموز ١٩٣٧) ٥٣ أميركيًا مهمتهم التنقيب عن النفط في المملكة.

كانت عمليات الحفر في الدمام «٧» قد توقفت في ١٩٣٦، ولكنها استؤنفت في خريف ١٩٣٧، وعندما بلغ الحفر في هذه البئر إلى عمق ١٤٤٠ مترًا تدفقت منها كميات ضخمة من النفط، وكان ذلك فاتحة عهد جديد في تاريخ المملكة العربية السعودية والعالم. وقد تمّ إنجاز هذه البئر («٧») في آذار ١٩٣٨.

وهكذا بعد خمس سنوات من الجهد الشاق
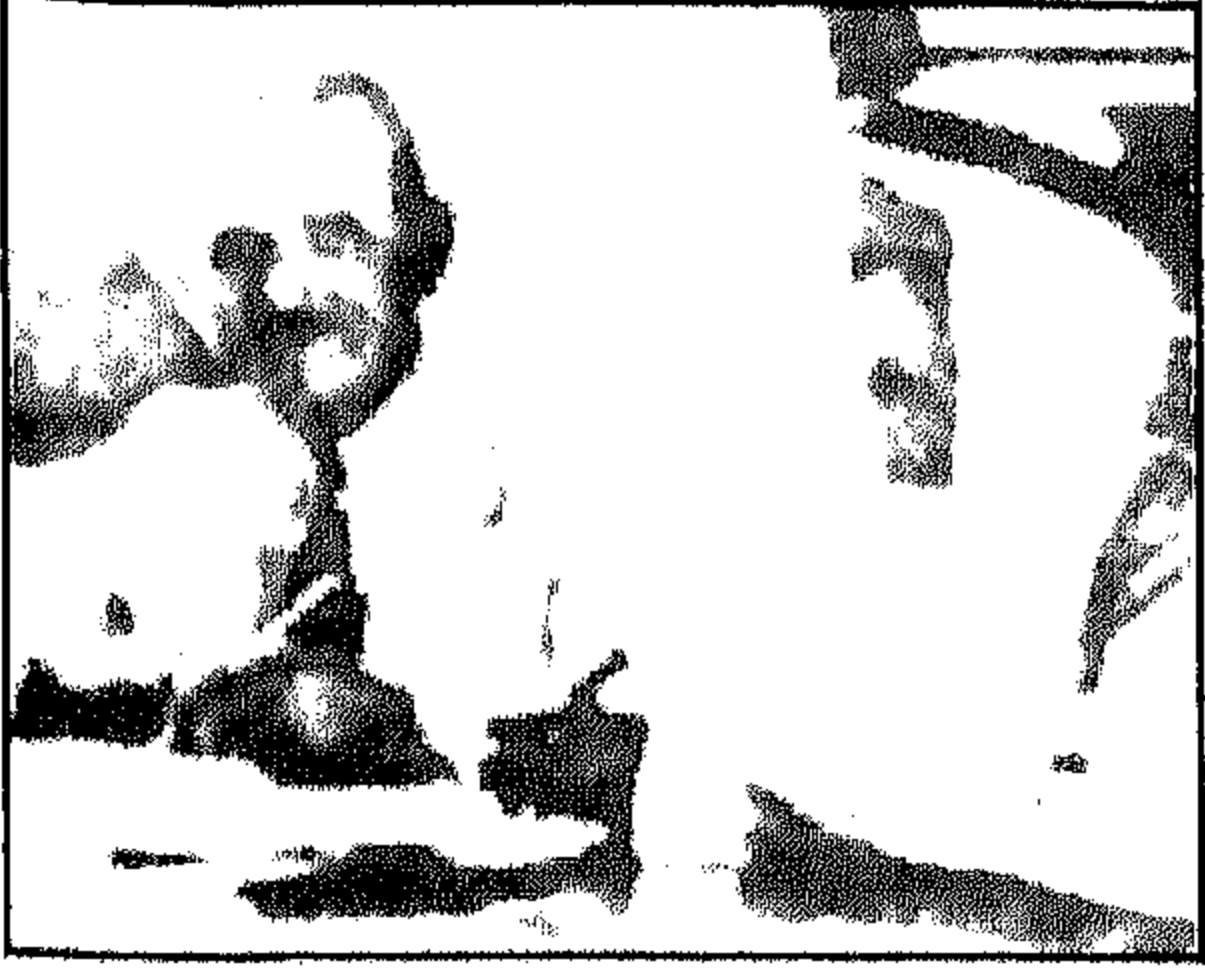
أثمرت عمليات التنقيب وتمّ اكتشاف البترول بكميات كبيرة وتأسست شركة الزيت العربية الاميركية (أرامكو) في ١٩٣٨ والمعروفة اليوم بـ«شركة أرامكو السعودية».

وكان تطوير حقول النفط بطيئًا بسبب الحرب العالمية الثانية، فلم تتجاوز إيرادات البترول حينئذ ٤ ملايين دولار سنويًا. وبتزايد الطلب على البترول لمجابهة متطلبات الحرب الحديثة بدأت أرامكو الانتاج على نطاق واسع في ١٩٤٤. وبحلول العام ١٩٤٨، بلغت ايرادات البترول نحو ٨٥ مليون دولار. وظلت هذه الايرادات تتنامى باستمرار وتحقق للملك عبد العزيز حلمه في التنمية الاقتصادية ورفاه الشعب.

واطّرد تزايد ايرادات النفط فتجاوزت كافة الايرادات الأخرى. واستخدم الملك عبد العزيز هذه الثروة والامكانات في بناء الأسس والإنشاءات الأساسية.

أما أسس الموقف البترولي لعبد العزيز فيمكن لحظه عبر التطورات التالية:

رافقت عملية منح الامتيازات النفطية بعض المظاهر السياسية التي يمكن تلخيصها بثلاث نقاط: ١- فضل الملك عبد العزيز، في ١٩٣٣، في ان يمنح حقوق التنقيب للاميركيين وليس للبريطانيين معبّرًا بذلك عن حرصه على استقلاليته إزاء القوة المستعمرة المهيمنة آنذاك. ٢- إن تردده الطويل (بين ١٩٢٣ و١٩٣٣) بسبب انه لم يرضخ لبيع الامتياز إلا في حالة الحاجة القصوى، مرتبط بفكرة «السيادة الوطنية» التي طالما كان يشدّد عليها. ٣- إصراراه على انتزاع مكاسب مالية مباشرة كان بأمسّ الحاجة لها.

أسس الموقف السعودي البترولي: إن الموقف السعودي الرسمي معاد، تقليديًا، لسياسة التأميم. وكان هذا الموقف يُبرَّر انطلاقًا من النقص في الملاك السعودي المختص، ومن أن شركات النفط، التي تحقق القسم الأكبر من أرباحها من

توقيع اتفاقية التنقيب عن البترول في ٢٩ ايار ١٩٣٣ ، بين وزير المالية السعودي الشيخ عبد الله سليمان ولويد هاملتون من شركة كاليفورنيا الموحدة للبترول بالولايات المتحدة الاميركية.

الملك عبد العزيز يدشن اكتشاف البترول في الدمام رقم «٧» في اذار ١٩٣٨ . اكتشاف غيّر مجرى التاريخ في المملكة العربية السعودية.

الملك عبد العزيز في زيارة مصنع الدمام النفطي في ١٩٣٩.

مرحلة الانتاج الاولى، كانت تتخذ موقفًا معاديًا من أية زيادة في أسعار النفط إذا ما حرمت من حق التصرف في المرحلتين الاخيرتين: التكرير والنقل والتوزيع من ناحية، والتسويق والبيع من ناحية ثانية. إلا ان هذه الأسباب كانت قد بدأت تفقد صدقيتها منذ ان زادت اعداد التقنيين السعوديين ومنذ أن بدأت السعودية تسعى إلى تخفيض الاسعار وليس إلى زيادتها. والجدير ذكره ان تدابير التأميم هي مبادرة سياسية قبل أي أمر آخر.

وبدل التأميم الذي كان رائجًا لدى دول الأوبيك، طرح وزير النفط السعودي أحمد زكي اليماني (والحكومة السعودية) حلاً آخر يقوم على المشاركة.وحتى سنة ١٩٧٠ كانت وجهة النظر السعودية سائدة بين الدول المنتجة للنفط. لكن اليماني كان يجد صعوبة كبرى في إقناع الشركات الأخذ بمبدأ المشاركة. واستمرت المفاوضات عشر سنوات (١٩٦٣-١٩٧٢) قبل ان توافق الأرامكو على المبدأ. وهذه الصعوبات التي واجهتها المملكة مع الشركات أضعفت حجتها لدى دول الأوبيك باستبدال التأميم بالمشاركة. ووصل الأمر بالملك فيصل نفسه إلى حد التهديد باللجوء إلى التملك الجزئي في حال فشل مفاوضات المشاركة (٢٥ كانون الثاني ١٩٧٢). واخيرًا قبلت أرامكو بالمشاركة في ١١ آذار ١٩٧٢، وبدأت المفاوضات بعد ذلك بعشرة ايام لتعود وتصطدم برفض جديد من قبل الشركات. و لم يتوصل الفريقان إلى اتفاق إلا بعد تسعة أشهر؛ فاقر، أخيرًا، اتفاق المشاركة بنسبة ٢٥٪ في ٢٣ شباط ١٩٧٣. وفي ٢٣ شباط ١٩٧٩، أعلنت المملكة رسميًا ملكيتها الكاملة لشركة أرامكو على ان تنشأ شركة جديدة هي «شركة البترول الوطنية السعودية» (بترومين) مكانها (عن د.ناصر ابراهيم الرشيد ود.إسبر ابراهيم شاهين، «الملك فهد ومسيرة الانجازات الحضارية في المملكة العربية السعودية» الصادر بالانكليزية عن المعهد الدولي للتكنولوجيا في الولايات المتحدة، نقله إلى العربية أحمد شفيق الخطيب، ص٥٣-١٥٨؛ وكذلك عن «موسوعة السياسة»، ج٣، ط١، ١٩٨٣، ص١٩٨).

المملكة إبان الحرب العالمية الثانية: التزم الملك عبد العزيز سياسة حياد حذر من فريقي هذه الحرب (الحلفاء ودول المحور). فرفض تأييد دول المحور حتى عندما كانت في ذروة توسعها، كما انه رفض تأييد حركة رشيد عالي الكيلاني (راجع «العراق» في هذا الجزء) حتى لا يستعدي الانكليز عليه، وذلك بالرغم من عدائه التقليدي للأسرة الهاشمية التي كانت حاكمة في بغداد.

ورفض عبد العزيز منح اليابان والمانيا امتيازات نفطية. وفي الاول من آذار ١٩٤٥، انضمت السعودية شكليًا إلى الحلفاء بدون ان تعلن الحرب على المانيا محافظة بذلك على حيادها وحياد الاماكن المقدسة الاسلامية من هذا النزاع العالمي. وقد مكّنها هذا الموقف من المشاركة في وضع ميثاق الامم المتحدة ومن الحصول على معونات مالية ومادية من الحلفاء وعلى رأسهم الولايات المتحدة الاميركية. وقد تمثلت المملكة بالامير فيصل بن عبد العزيز (الملك في ما بعد) الذي حضر حفل توقيع الميثاق في سان فرنسيسكو ٦ حزيران ١٩٤٥. وكان الملك عبد العزيز، أثناء ذلك، من أشد العاملين في سبيل تأسيس جامعة الدول العربية في ٢٢ آذار ١٩٤٥.

أما العلاقات السعودية -الاميركية فقد بدأت تتطور وتزداد رسوخًا ابتداءً من ١٩٤٠ حيث أنشئت أول بعثة دبلوماسية اميركية في المملكة. وفي ١٩٤٣، منح الملك الاميركيين حق بناء قاعدة جوية كبيرة في الظهران واستعمالها لمدة ثلاث سنوات تعود ملكيتها بعد ذلك إلى السعوديين. وفي الوقت نفسه بدأت بعثة عسكرية اميركية تدرب الجيش السعودي وتزوده بالاسلحة.

وكان الهدف من تقوية العلاقات مع الولايات المتحدة، دون غيرها من الدول الكبرى، هو اعتقاد الملك عبد العزيز بأن مثل هذه الخطوة قد تؤدي إلى تحييد النفوذ البريطاني المهيمن والاستعماري في المنطقة.

مراسلات عبد العزيز–روزفلت واجتماعهما: عقد هذا الاجتماع على ظهر بارجة حربية اميركية («مورفي») كانت راسية في البحيرة المالحة الكبرى في قناة السويس في ١٥ شباط ١٩٤٥، فيما كان الرئيس الاميركي فرانكلين روزفلت يتجه إلى بلاده عائدًا من مؤتمر يالطا. وكل كلام كتبه المؤرخون حول هذا الاجتماع أظهر ان الموضوع الأساسي الذي دار بين الرجلين كان متعلقًا بالقضية الفلسطينية. والجدير بالذكر ان أول التحركات السياسية للولايات المتحدة في الشرق الاوسط كان في مؤتمر فرساي للسلام (١٩١٩) إثر إعلان الرئيس الاميركي ولسن مبادئه الاربعة عشر في البرنامج الذي قدّمه إلى الكونغرس ٨ كانون الثاني ١٩١٨، وان روزفلت كان قد انتخب رئيسًا للولايات المتحدة في ١٩٣٣ أي بعد نحو سنة واحدة من إعلان المملكة العربية السعودية، وان مراسلات سياسية حول القضية الفلسطينية كانت قد بدأت بينهما قبل نحو ٧ سنوات من الاجتماع.

ففي ٢٩ تشرين الثاني ١٩٣٨، بعث الملك برسالة إلى الرئيس روزفلت بيّن له فيها حقيقة استحالة استتباب السلام في فلسطين دون الحفاظ على حقوق العرب فيها ودون ضمان عدم تسليم فلسطين إلى فئة من الناس تختلف مبادؤهم واخلاقياتهم اختلافًا شديدًا عن المبادىء والاهداف والاخلاقيات العربية.

وفي رسالته الجوابية (٩ كانون الثاني ١٩٣٩) أوضح روزفلت ان موقف الولايات المتحدة من القضية الفلسطينية قد تحدّد في تصريح خلاصته ان أي تغيير يتعلق بالانتداب البريطاني على فلسطين ينبغي ان يحظى بموافقة الولايات المتحدة، كما أوضح التصريح حينئذ ان مشروع تأسيس وطن قومي لليهود في فلسطين يجتذب كميات ضخمة من الذهب ورأس المال الاميركي مما يلعب دورًا رئيسيًا في الموضوع.

وفي ٣٠ نيسان ١٩٤٣، أرسل الملك عبد العزيز رسالة إلى الرئيس روزفلت يحثه فيها مجددًا على اتخاذ الموقف العادل من القضية الفلسطينية. كما عبّر له في الرسالة نفسها عن اهتمامه البالغ واهتمام العرب والمسلمين في كافة أرجاء العالم بهذه القضية، حيث ان المؤامرات الصهيونية تخطط لجعل فلسطين وطنًا قوميًا لليهود وطرد الشعب الفلسطيني من وطنه. وأنهى الملك رسالته قائلاً: «نحن لا نبغي القضاء على الشعب اليهودي ولا نطلب ذلك، كل ما نطلبه ان لا يُلغى الوجود العربي في فلسطين ليحل اليهود محل سكانها العرب. فلو ان كل شعب من شعوب الدول الحليفة اسهم بالمسؤولية عُشرَ ما عاناه الشعب الفلسطيني حتى تاريخه لكانت المشكلة اليهودية قد حُلّت. إن كل ما نطلبه في الوقت الحاضر هو مساعدة فخامتكم في وقف تدفق المهاجرين ووقف الهجرة بالكامل».

وفي ردّه الجوابي (١٥ تموز ١٩٤٣) اعاد روزفلت تأكيداته بأن الولايات المتحدة لن تتخذ أي قرار من شأنه ان يغيّر الوضع الأساسي في فلسطين دون التشاور الكامل مع العرب واليهود (ما جاء حول هذه المراسلات عن د.ناصر ابراهيم الرشيد ود.إسبر ابراهيم شاهين، مرجع مذكور آنفًا، ص٦٢–٦٤).

وفي السنة نفسها (١٩٤٣)، ومع تزايد اكتشاف الثروات الاسطورية في المملكة وتزايد المصالح الاميركية النفطية، أعلن الرئيس روزفلت أن الدفاع عن العربية السعودية هو من المصالح الحيوية للولايات المتحدة الاميركية.
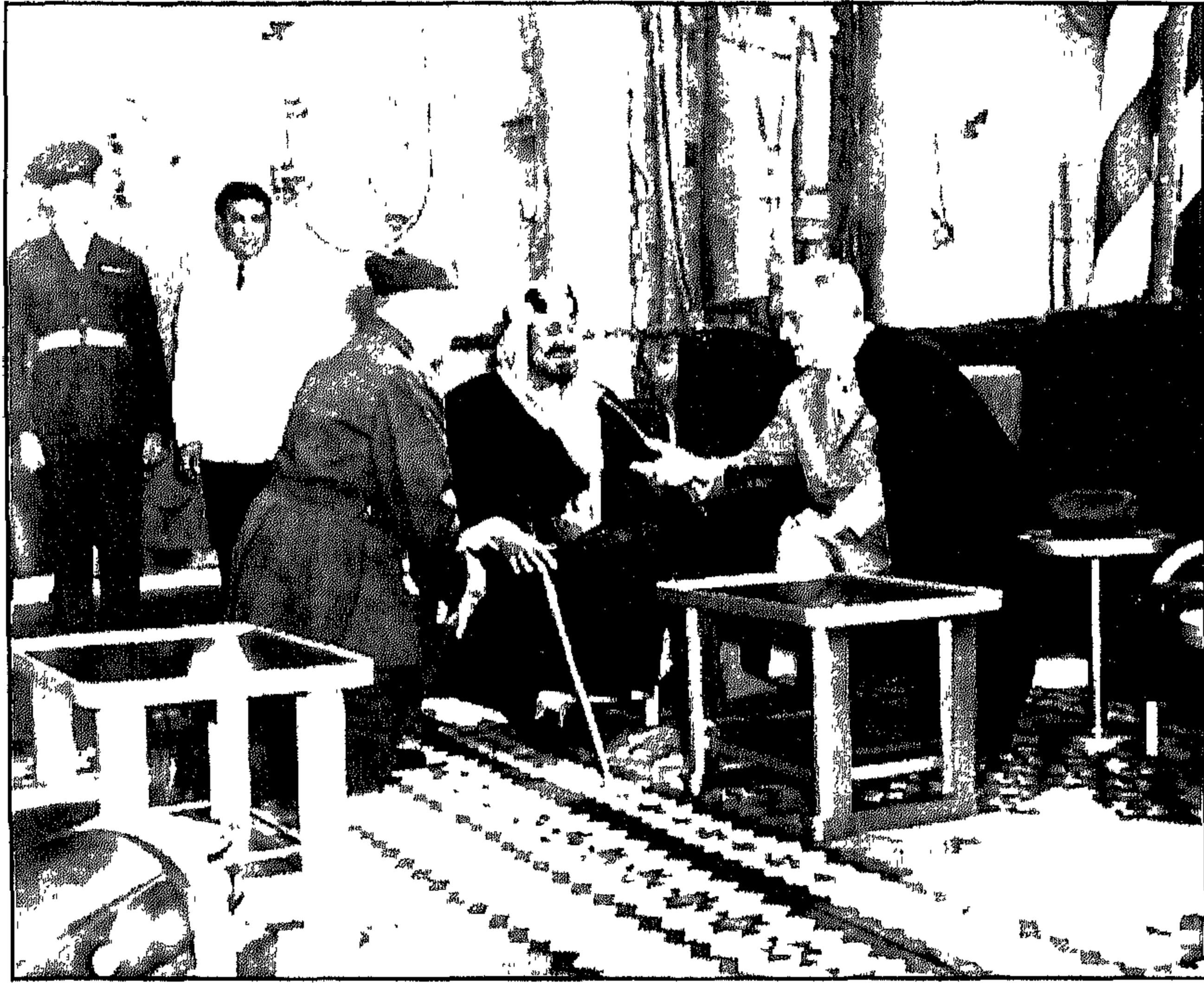
لقاء عبد العزيز وروزفلت (شباط ١٩٤٥).

لقاء عبد العزيز وتشرشل (شباط ١٩٤٥).

جرى التحضير لاجتماع ١٥ شباط ١٩٤٥ بالسرية القصوى بسبب الاخطار السائدة في ظروف الحرب. واستغرق الاجتماع ساعات طويلة، وظهرت فيه خلافات كبيرة في وجهات النظر حول مسألة الهجرة اليهودية إلى فلسطين. فقد بادر روزفلت، فور بدء الاجتماع، بالطلب من عبد العزيز قبوله بهجرة مائة ألف يهودي إلى فلسطين، فرفض الملك ذلك بشدة: «أعطوهم وأبناءهم أحسن أراضي وأحسن بيوت الألمان الذين نكّلوا بهم». وردّ الرئيس ان لدى اليهود رغبة شديدة بالاستيطان في فلسطين، وانه يعتمد على الكرم العربي ومعاونة الملك في حل المشكلة الصهيونية. فأجاب الملك: «بل دع العدو الطاغي نفسه يدفع ثمن طغيانه. هكذا كانت سنّة العرب في حروبهم، المجرم يدفع الثمن لا المراقب البريء» (المرجع المذكور، ص٦٦).

وما إن علم تشرشل، رئيس الوزراء البريطاني، بنبأ اللقاء بين الملك عبد العزيز والرئيس روزفلت، حتى تملكه الغيظ فأرسل البرقيات إلى دبلوماسييه معبرًا عن رغبته في مقابلة الملك السعودي، وتم له ذلك بعد يومين فقط، والتقى عبد العزيز في ١٧ شباط ١٩٤٥.

وفور عودته إلى بلاده، التقى الملك عبد العزيز في جدة (اواخر شباط ١٩٤٥) عددًا من الممثلين الأجانب، منهم العقيد وليم إدي رئيس البعثة الاميركية الذي نقل عن لسان الملك انه قال للممثلين الأجانب: «على اميركا وبريطانيا ان تختار بين أرض عربية يسودها السلام والهدوء أو أرض يهودية غارقة في الدماء» (كشف الستار عن مذكرة العقيد إدي في ١٨ ايار ١٩٦٩ حين نشرها مكتب وزير الخارجية الاميركي).

استمرت مراسلات عبد العزيز-روزفلت بعد لقائهما في ١٥ شباط ١٩٤٥. وفي رسالة جوابية (في ٥ نيسان ١٩٤٥)، أعاد روزفلت تأكيد مواقفه السابقة. لكن بعد اسبوع واحد (أي في ١٢ نيسان) توفي روزفلت، وتسلّم هاري ترومان زمام السلطة الاميركية. وكان من أول ما بادر إليه ترومان انه استدعى سفراءه من العالم العربي إلى واشنطن وأعلن لهم: «إنني آسف ايها السادة إذ عليّ ان أستجيب لأصوات مئات الألوف من الناس المتلهفين لانجاح الصهيونية. وكما تعلمون فإنه ليس هناك مئات الألوف من العرب في دوائري الانتخابية».

السنوات الأخيرة من عهد الملك المؤسس عبد العزيز: لم يحل الخلاف حول القضية الفلسطينية دون الاتفاق على مسائل عديدة أخرى. فقد استمرت العلاقات السعودية-الاميركية في التطور والنمو خاصة في المجالات النفطية والعسكرية. وفي ١٩٤٩، رفع التمثيل الدبلوماسي الاميركي في جدة إلى مستوى السفارة، ومددت في ١٩٥١ اتفاقية استعمال قاعدة الظهران خمس سنوات أخرى، واستمرت الولايات المتحدة في تسليح السعودية وتدريب قواتها المسلحة.

شاركت المملكة العربية السعودية في الحرب العربية-الاسرائيلية الأولى على الجبهة المصرية. وبذل عبد العزيز جهودًا لانتهاج سياسة حذرة ومحايدة مع الدول العربية، مواجهًا في الوقت نفسه مشاريع الاحلاف والمحاور التي كانت ناشطة في تلك الفترة (الهلال الخصيب، سورية الكبرى،...). وفي ١٩٥٢، أمر الملك عبد العزيز بإلغاء رسم الحج الذي كان بلغ آنذاك ٢٨ جنيهًا استرلينيًا مما أكسبه شعبية كبيرة وسمعة طيبة في العالم الاسلامي.

توفي الملك عبد العزيز في ٩ تشرين الثاني ١٩٥٣ بعد حكم حافل بالاحداث المصيرية استمر ٥١ عامًا أرسى خلالها دعائم المملكة ورسم الخطوط العريضة لسياستها الداخلية والخارجية. وقد حكم طوال هذه الفترة حكمًا مطلقًا لم يكن

يحد من صلاحياته الواسعة سوى التزامه بالشريعة الاسلامية واحترامه للاعراف والتحالفات القبلية والعشائرية. وفي عهده لم يكن قد بدأ التمييز فعليًا بين أموال الملك وبين أموال الدولة، ولم يتغير ذلك جزئيًا إلا في أواخر حياته حين أصدر في ١٩٥١-١٩٥٢ أول ميزانية عامة في تاريخ المملكة وتبع ذلك إنشاء أول مصرف في البلاد. وفي تشرين الاول ١٩٥٣ (أي قبيل وفاته بأيام) أمر الملك عبد العزيز بإنشاء مجلس للوزراء يكون مسؤولاً مباشرة أمامه وله ان يمارس حق النقض على قراراته. وإضافة إلى ذلك فقد عمد الملك عبد العزيز إلى إدخال تحديثات مهمة على أساليب الحياة البدوية رغم المعارضة الشديدة التي كان يلقاها احيانًا من بعض غلاة رجال الدين، فأنشأ خطًا حديديًا بين الدمام والخليج العربي وشجع إنشاء الطرق الداخلية والمرافىء والمطارات، كما سمح بإنشاء إذاعة رسمية، بعد ان كانت الأرامكو هي التي تتولى البث عبر إذاعتها الخاصة. أما أبرز أعماله العمرانية والانمائية فكانت ولا شك مساهمته الكبيرة في توطين البدو في مدن وحواضر وقرى، وإقناعهم بالاستقرار والكف عن الغزو والتحارب، وكان بذلك يرسي قواعد بناء المجتمع السعودي وتوحيده وزرع فكرة الانتماء الوطني في ابنائه، بعد ان كان الانتماء القبلي هو العامل الحاسم.

حكم الملك سعود بن عبد العزيز (١٩٥٣-١٩٦٤): خلف عبد العزيز ابنه الملك سعود على عرش المملكة، وكان وليًا للعهد منذ ١٩٣٣. وكان سعود قد قاد حملات كثيرة في معارك توحيد أرجاء المملكة.

ولتوه، أخذ الملك سعود يُدخل على السياسة السعودية اسلوبًا جديدًا. فقام بعدة زيارات رسمية وخاصة إلى الخارج، وبدأ يشارك بنشاط في السياسة العربية والدولية، فزار الباكستان (١٩٥٤) وايران والهند (١٩٥٥) والولايات المتحدة واسبانيا والمغرب وتونس وليبيا وإثيوبيا (١٩٥٧)، كما عرض مرارًا وساطة لحل الخلافات بين الدول الاسلامية (بين باكستان وأفغانستان في ١٩٥٧ وبين تركيا وسورية في العام نفسه). وقد لاقت سياسته العامة مشكلات أضعفته واضطرته على التنازل عن العرش لأخيه الأمير فيصل.

تميزت سنوات حكمه الاولى بالتحالف مع مصر ضد الاردن والعراق الهاشميين. وتكرس هذا التحالف بمعاهدة صداقة ودفاع متبادلين بين السعودية ومصر في ١٩٥٥. وعندما وقع العدوان الثلاثي على مصر (١٩٥٦) اكتفى الملك سعود بقطع علاقاته الدبلوماسية مع فرنسا وبريطانيا، مما أدّى إلى فتور في العلاقات السعودية-المصرية. وعندما أعلنت الوحدة بين مصر وسورية (١٩٥٨)، تحول هذا الفتور إلى عداء بلغ ذروته مع اتهام مصر الملك سعود بـ«تمويل مؤامرة لاغتيال الرئيس عبد الناصر»، ثم ازدادت هذه العلاقات تدهورًا في حرب اليمن (١٩٦٢).

ومع الاردن، أخذت العلاقات، بدءًا من ١٩٥٦، تتحسن بعد ان كان الحذر والعداء المبطن هو طابعها المميز نظرًا إلى العداوة التاريخية التي كانت قائمة بين الهاشميين والسعوديين.

ومع الكويت، توثقت العلاقات بعد أن أيدها الملك سعود في نزاعها مع العراق (١٩٦١)، وكذلك مع البحرين. لكنها تدهورت مع عُمان وأبو ظبي (الامارات العربية المتحدة) بسبب النزاع حول واحة البريمي (راجع «الامارات العربية المتحدة»، ج٣، ص١٧٢).

وفي عهد الملك سعود بدأت حرب اليمن التي اتخذت فيها المملكة جانب الملكيين وأمدتهم بالسلاح والعتاد والرجال منذ ١٩٦٢، ضد الجمهوريين الذين دعمهم الرئيس المصري عبد الناصر وأرسل جنوده ليقاتلوا إلى جانبهم. وكان ذلك من أسباب الصراع العنيف على المنطقة

العربية بين مصر الناصرية والمملكة السعودية.

وتوثقت علاقات المملكة، السياسية والاقتصادية والعسكرية، مع الولايات المتحدة الاميركية على حساب حليفاتها الغربيات كبريطانيا وفرنسا، مما سمح للملكة بالاستفادة من مساعدة برنامج «النقطة الرابعة»، إلا ان ذلك لم يصل إلى حد قبول المملكة بمشروع أيزنهاور. وبالمقابل فإن العلاقات مع الاتحاد السوفياتي كانت مقطوعة بسبب عداء السعودية المعلن للمبادىء الشيوعية.

أما «النقطة الرابعة» فكانت تعني برنامج المساعدات الفنية الاميركي في الخمسينات لبعض الدول المتخلفة التي تدور سياسيًا في فلك الولايات المتحدة. وتعود التسمية إلى خطاب الرئيس الاميركي هاري ترومان في مطلع ١٩٤٩ حيث جاء في النقطة الرابعة منه ان على الدول الغنية ان تتحمل مسؤولياتها في مساعدة الدول الفقيرة. وقد تطور البرنامج بحيث شمل القروض والهبات العينية والمساعدات المالية تحت «برنامج الأمن المتبادل» وبهدف تعزيز النفوذ الاميركي في الدول التي يشملها البرنامج.

وأما «مشروع أيزنهاور»، الذي رفضت المملكة قبوله، فيتضمن على الخطوط العامة للسياسة الاميركية في منطقة الشرق الاوسط (من ليبيا غربًا إلى باكستان شرقًا وتركيا شمالاً واثيوبيا وشبه الجزيرة العربية جنوبًا) التي أعلنها الرئيس الاميركي دوايت أيزنهاور بعد موافقة الكونغرس في ٥ كانون الثاني ١٩٥٧ على أثر فشل العدوان الثلاثي على مصر في خريف ١٩٥٦، وهي السياسة التي استهدفت ملء الفراغ الاستعماري المتأتي من هزيمة بريطانيا وفرنسا المعنوية في حرب السويس (١٩٥٦) وأفول نجميهما كدول استعمارية رئيسية، وبالتالي فرض هيمنة الولايات المتحدة على المنطقة بذريعة الخطر الشيوعي. وتضمنت هذه السياسة: -حماية القوات الاميركية لأية دولة تتعرض لعدوان مسلح من دولة تابعة لنفوذ الشيوعية الدولية. -مساعدة دول المنطقة (التي تحالف الولايات المتحدة) في تعضيد قوتها الاقتصادية. -منح مساعدات عسكرية اميركية للدول التي تطلب ذلك.

الأمير فيصل في الواجهة والمسؤولية: كان الملك سعود، كلما وجد نفسه أمام صعوبات داخلية كبيرة (الاصطدام بمصر الناصرية من خلال الحرب الاهلية اليمنية، تدهور الاوضاع الداخلية، وفقدان الريال قيمته...)، يستدعي أخاه وولي عهده ورئيس مجلس الوزراء ووزير الخارجية الأمير فيصل ليتولى مواجهة الأزمة. وقد ازدادت سلطة الأمير فيصل رسوخًا في ١٩٥٨ عندما منحه الملك سعود كامل الصلاحيات لاصلاح الاوضاع المالية والادارية في المملكة. وقد عمد الأمير فيصل إلى فرض سياسة تقشف أضرّت بمصالح بعض الفئات المستفيدة من سياسة الانفلاش الاقتصادي في محاولة منه لوقف نزيف رؤوس الاموال.

وعندما اندلعت ثورة اليمن في ١٩٦٢ شعر الملك سعود بخطورة الأوضاع الناشئة عن هذه الثورة وعن انعكاساتها المحتملة على الوضع الداخلي (في ظل مدّ شعبي متصاعد في العالم العربي ومؤيد للرئيس عبد الناصر) فطلب من الأمير فيصل العودة إلى مسؤولياته بعد ان كان ابتعد عنها لمدة نحو سنة ونصف السنة. فبادر فيصل إلى اتباع سياسة متصلبة تجاه عبد الناصر، فقطع العلاقات الدبلوماسية مع مصر في ٦ تشرين الثاني ١٩٦٢ وطرد الرعايا المصريين من اراضي المملكة. وغادر الملك سعود البلاد إلى اوروبا للاستشفاء. وبعد عودته بقليل شارك في أعمال أول مؤتمر قمة عربي في مصر (١٩٦٤) مظهرًا فيه استعدادًا كبيرًا لفتح صفحة جديدة من العلاقات مع مصر واليمن. وكان هذا المؤتمر آخر نشاط عربي ودولي يشارك فيه، إذ ما إن عاد إلى الرياض

حتى أعلن تنازله عن العرش (في الاول من تشرين الثاني ١٩٦٤) بطلب من العائلة المالكة ورجال الدين لصالح أخيه فيصل، وانتقل إلى القاهرة ومنها إلى اليونان حيث توفي (١٩٦٩).

حكم الملك فيصل (١٩٦٤–١٩٧٥):

بادر الملك فيصل، فور مبايعته، بتعيين الامير خالد بن عبد العزيز وليًّا للعهد. وكان الملك فيصل بدأ الإمساك بالسلطة فعليًّا منذ نهاية ١٩٦٢ حيث أول إجراء اتخذه هو إلغاء الرق من البلاد. وكان هذا مبدأ أساسي من مبادئه العشرة (راجع «معالم تاريخية»).

عمل فيصل على الاستمرار في تنمية البلاد في مختلف القطاعات والصعد. وامتاز بتوسيعه عملية توطين البدو وتأمين كل وسائل الحياة العصرية لهم، وتطوير الزراعة وخلق قطاع صناعي متطور. أما على الصعيد النفطي فقد حاول، بحدود ضيقة، تقليص تبعية السعودية لشركة أرامكو فأمر بإنشاء شركة النفط السعودية «بترومين». واتبع الملك فيصل سياسة دفاعية وتسليحية نشطة فقوّى الحرس الوطني وعمّق التعاون التدريبي والتسليحي مع الولايات المتحدة.

إلا أن أبرز اثر تركه الملك فيصل كان في مجال السياسة العربية والاسلامية. فبعد ان عاصر الثورة المصرية وتعاطف معها، أخذ ابتداءً من ١٩٥٨ يبتعد عن تأييدها. ثم تحول الابتعاد إلى عداء واضح مع اتجاه مصر للتحالف مع الاتحاد السوفياتي واتخاذ قرارات ١٩٦١ الاشتراكية. ومع ثورة اليمن (١٩٦٢) ووقوف عبد الناصر عسكريًّا وسياسيًّا واقتصاديًّا إلى جانبها، تحول العداء إلى صراع مكشوف وأصبح الشغل الشاغل للملك فيصل الحيلولة دون توسع النفوذ الناصري داخل شبه الجزيرة العربية، فأمّد الملك فيصل «الملكيين» اليمنيين بالسلاح والمال. و لم يتوقف الصراع العنيف بين فيصل وعبد الناصر إلا مع هزيمة مصر في حرب حزيران ١٩٦٧ وانسحابها الكامل من اليمن في اواخر ذلك العام.

وقد رفع الملك فيصل شعار «الجامعة الاسلامية» في وجه شعار «الوحدة العربية» التي كان ينادي بها عبد الناصر. كما دعم في اليمن الجنوبي المحتل نشاط القوى المناوئة للجبهة القومية المحسوبة على مصر الناصرية. وبالمقابل، فقد قوّى علاقات المملكة بالأنظمة الملكية في المنطقة وعلى رأسها الاردن وايران ودول الخليج العربي. وقد بلغ من حدة الصراع بين البلدين ان اتهمت السعودية مصر بتمويل أعمال «تخريبية» في المملكة ودعم نشاط «اتحاد الشعب في الجزيرة العربية»، وهو تنظيم سري أمكن القضاء عليه في ١٩٦٧ واعدام العديد من أعضائه.

نفوذ متعاظم للملك فيصل (الحقبة السعودية): بدأ نفوذ الملك فيصل يتعاظم على الساحة العربية بعد حرب حزيران ١٩٦٧، وبعد انعقاد مؤتمر الخرطوم الذي كرّس المصالحة والذي بادر فيه الملك فيصل إلى اقتراح استعمال سلاح النفط من خلال العائدات المالية واستخدامها في المعركة بدلاً من قطعه عن البلدان المؤيدة لاسرائيل وقد وافق المؤتمرون على ذلك، وبعد أن بدأت مرحلة جديدة في سياسة المملكة قائمة على تقديم المساعدات المالية إلى العديد من البلدان العربية في إطار ما سمي بسياسة «التضامن العربي» ثم توسعت هذه المساعدات لتشمل كذلك الدول الاسلامية ودول العالم الثالث.

أما مع ايران فقد كانت العلاقات إجمالاً جيدة ومتينة رغم التنافس الواضح بين المملكتين على زعامة الخليج العربي. وقد شهدت هذه العلاقات توترًا واضحًا مع تجدد مطالبة النظام الشاهنشاهي عام ١٩٦٨ بضم البحرين. إلا ان هذا التوتر لم يدم طويلاً، إذ توصل البلدان في تشرين الاول من العام نفسه إلى اتفاق حول رسم

حدودهما البحرية. وبعد ذلك بشهر واحد قام الشاه بزيارة رسمية للسعودية.

من جهة أخرى فقد رعت المملكة العربية السعودية في عهد الملك فيصل قيام اتحاد الامارات العربية بعد الانسحاب البريطاني حرصًا منها على تأمين الاستقرار في هذا الجزء الحساس من الخليج، وخوفًا من ان يؤدي أي تصادم محتمل بين المشيخات والامارات المستقلة حديثًا إلى تدخل القوى العظمى والمحلية على حدود المملكة، وما قد يجره ذلك من مشكلات هي في غنى عنها، خاصة وان ثورة ظفار والاتجاهات اليسارية التي كان النظام الجديد في جنوب اليمن قد أخذ يتبناها، كانت تثير قلق القادة السعوديين.

واستمرت السياسة الخارجية السعودية (بعد ١٩٦٧) تفرض نفسها على المنطقة والعالم، ولكن بصمت وهدوء، حتى لقد عرفت تلك السياسة بـ«السياسة الصامتة» كما ان العديد من المراقبين لم يتردد في إطلاق تعبير «الحقبة السعودية» على السياسة العربية في تلك الفترة.

وبرز وزن المملكة وتأثيرها بعد وفاة الرئيس المصري جمال عبد الناصر (١٩٧٠) وعلى اثر حرب تشرين ١٩٧٣، وما رافق هذين الحدثين من تغيير جذري أو تدريجي في التحالفات السياسية العربية والدولية. وقد أتاحت المساعدات المالية السعودية لنظام الرئيس المصري أنور السادات العمل على إخراج السوفيات من مصر وتقوية علاقاتها بالولايات المتحدة واتباع سياسة الانفتاح داخليًا. وكذلك الحال مع السودان، فبعد فشل الانقلاب اليساري على الرئيس النميري (١٩٧١)، أخذت السودان تغير تحالفاتها العربية والدولية وتعتمد أكثر فأكثر على المساعدات المالية السعودية، وعندما اندلعت حرب تشرين الاول ١٩٧٣، وتضاعفت أسعار النفط، أصبحت المملكة تملك قوة مالية هائلة، وأصبحت الممول الرئيسي لعملية إعادة تسليح الجيش السوري والمصري، وإعادة بناء المؤسسات والمنشآت التي تهدمت أثناء الحرب.

سلاح النفط والقدس في سياسة فيصل:

شاركت المملكة في استعمال سلاح النفط في سبيل فرض حل للمشكلة الفلسطينية وتحرير القدس. ولهذه الغاية خفضت المملكة إنتاجها من النفط تدريجيًا وقطعته نهائيًا عن هولندا والولايات المتحدة فترة قصيرة لتأييدهما غير المشروط لاسرائيل. غير ان هذا الموقف لم يؤد إلى قطع العلاقات مع الولايات المتحدة، أو إلى أي تغيير في موقف المملكة من الاتحاد السوفياتي، فكان تعبيرًا عن تصلب في مواقف الملك فيصل الملتزم القضية الفلسطينية رافقها ازدياد في قيمة المساعدات لدول المواجهة (مصر، سورية، الاردن، ومنظمة التحرير الفلسطينية)، ومزيد من الانفتاح على الدول الاوروبية التي كانت الضحية الرئيسية لهذه «الصدمة» النفطية الاولى، بالاضافة إلى انفتاح واسع للسوق السعودية على السوق العالمية (صفقات التصنيع والتسليح) والدخول في ما سمي آنذاك «إعادة تدوير فوائض النفط». وفي ١٩٧٤، توصلت المملكة والولايات المتحدة إلى عقد اتفاق كبير للتعاون الاقتصادي والعسكري بالرغم من الخلافات الواسعة التي كانت لا تزال تفصل بين البلدين بالنسبة إلى حل مشكلة الصراع العربي-الاسرائيلي.

وكان الملك، رغم تساهل أبداه في مسألة أسعار النفط وحتى في ما يتعلق بالحل الشامل للقضية الفلسطينية، متشددًا في مفاوضاته مع وزير الخارجية الاميركي آنذاك هنري كيسنجر حول مسألة القدس، تلك المدينة التي طالما ردّد الملك انه يتمنى ان «يصلي فيها قبل وفاته». لذلك فإن دبلوماسية كيسنجر المكوكية كانت تصطدم دائمًا بموقف الملك فيصل الصارم من هذه النقطة، إضافة إلى عدم ثقة الملك بكيسنجر شخصيًا.

في ظل هذه الأجواء، وفيما كانت المساعي الدولية لحل الصراع في الشرق الاوسط على اشدها اغتيل الملك فيصل في ٢٥ آذار ١٩٧٥ على يد ابن أخيه فيصل بن مساعد بن عبد العزيز تاركًا وراءه فراغًا سياسيًا كبيرًا.

حكم الملك خالد بن عبد العزيز (١٩٧٥-١٩٨٢): خلف الملك خالد أخاه فيصل مرتقيًا العرش ومبادرًا لتوه على أمرين: الأول، اختيار الأمير فهد وليًا للعهد ونائبًا أول لرئيس مجلس الوزراء وتعيين الأمير عبدالله نائبًا ثانيًا لرئيس مجلس الوزراء ورئيسًا للحرس الوطني؛ والثاني، تأكيد استمرارية سياسة الملك فيصل القائمة على تدعيم و«وحدة الصف الاسلامي والتضامن العربي» و «استعادة الاراضي المحتلة» و«تحرير القدس من براثن الصهيونية».

في آذار ١٩٧٦، أقيمت العلاقات الدبلوماسية بين المملكة وجمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية رغم الاختلاف الكبير في طبيعة النظامين. وقد أزعج البلدين التدخل الايراني في عُمان وأقلقهما، فبادرا إلى إيجاد الظروف المناسبة لقطع الطريق أمام النفوذ الايراني في شبه الجزيرة العربية فقطعت عدن دعمها العلني لثورة ظفار وأخذت المملكة تقدم المساعدات لليمن الجنوبي (جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية).

واستمرت المملكة في محاولة ردم بؤر التوتر في المنطقة العربية، وبرز ذلك بوضوح في مؤتمر الرياض (تشرين الاول ١٩٧٦) الذي وضع حلاً - دون نجاح - للحرب اللبنانية بإنشاء قوات الردع العربية باعتبارها قوات الشرعية اللبنانية، والذي كرّس المصالحة - مصالحة هشة وغير ناجحة ايضًا - بين الرئيسين المصري والسوري اللذين كان قد اختلفا بعد اتفاقيات فك الارتباط الثانية في سيناء (١٩٧٥). وتجدر الاشارة إلى ان المملكة أيدت، منذ ١٩٧١، نظام الرئيس المصري أنورالسادات باعتباره ضمانة ضد عودة السياسة الناصرية وعودة الاتحاد السوفياتي إلى مصر والمنطقة. وعندما قام السادات بمبادرته الشهيرة (زيارة القدس في تشرين الثاني ١٩٧٧)، بدأت المملكة تتراجع عن تأييده، ثم تخلت عنه بعد أن تأكد اتجاهه نحو التوقيع على اتفاق سلم منفصل مع اسرائيل. وقد برز موقف المملكة واضحًا في مؤتمر بغداد ١٩٧٩.

لكن في هذه السنة، تعرضت المملكة لحادث خطير، هو حادث مكة الشهير (راجع باب «معالم تاريخية») الذي انتهى بقتل أو بإعدام معظم القائمين به وعلى رأسهم جهيمة بن نسيف العتيبي. وعلى أثر هذا الحادث ومضاعفاته، قررت المملكة تشكيل «نظام الشورى» وكلفت لجنة مؤلفة من ثمانية أشخاص برئاسة الأمير نايف بن عبد العزيز وزير الداخلية بإعداد النظام الأساسي للبلاد.

كما أقلقت المملكة التطورات الخطيرة التي جرت في البلدان المجاورة وعلى رأسها: أحداث ايران والثورة الاسلامية فيها، التدخل السوفياتي في أفغانستان، والحرب العراقية-الايرانية. فعمدت إلى تخصيص المزيد من ثروتها للتسليح، وتعاقدت على صفقات كبيرة من الاسلحة مع كل من الولايات المتحدة وفرنسا وبريطانيا. وحرصًا منها على عدم تعرض المنطقة لأحداث عنيفة بذلت جهودها في لبنان وسورية ولدى الولايات المتحدة أثناء «أزمة الصواريخ السورية»، ثم تقدمت، ولأول مرة في تاريخها، بمبادرة علنية لحل مشكلة الصراع العربي-الاسرائيلي عرفت باسم «مشروع فهد»، أي الأمير فهد (الملك بعد ذلك) الذي قدم في مؤتمر فاس في صيف ١٩٨١ (راجع باب «معالم تاريخية»)، لكنه فشل آنذاك في الحصول على إجماع عربي. وفي هذا الاطار ايضًا يمكن فهم إنشاء «مجلس التعاون الخليجي» (راجع «الخليج العربي»، ج٨) في ١٩٨١ الذي كرّس ثقل المملكة في الخليج وفي المنطقة العربية.

وفي عهد الملك خالد، انتهت خطة التنمية السعودية الثانية (ايار ١٩٨٠) التي ركزت على تنويع القاعدة الاقتصادية حتى لا يبقى اعتماد الدولة مقتصرًا على ايراداتها النفطية محققة إنجازات كبيرة، وبدأت الخطة الثالثة في إطار حركتي التطور الصناعي والتربوي اللتين كانتا سائرتين قدمًا حين توفي الملك خالد في حزيران ١٩٨٢.

حكم الملك فهد بن عبد العزيز (١٩٨٢–): في ١٢ حزيران ١٩٨٢، أصبح ولي العهد فهد بن عبد العزيز العاهل الجديد للمملكة العربية السعودية. وقد تميز عهده، خاصة في سنواته الأولى، باهتمام بارز أبداه الملك لشؤون الأمن والدفاع والتعليم.

كان محور شأني الأمن والدفاع عدم رغبة المملكة في ان تصبح شبه الجزيرة العربية ساحة نزاع بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي، فضلاً عن أجواء التوتر التي كانت تعيشها المنطقة في تلك الفترة إضافة إلى حرب الخليج الأولى أو الحرب العراقية–الايرانية.

وبسبب ضغط المعارضة الهائل في واشنطن ضد تصدير الأسلحة الاميركية إلى العالم العربي بما فيه المملكة العربية السعودية، جاء ملفتا تصريح الأمير بندر بن سلطان السفير السعودي في الولايات المتحدة، في نيسان ١٩٨٤، من انه «نتحول إلى السوفيات إذا لم نحصل على أسلحة اميركية»، مذكرًا ان حجم التجارة الاميركية مع الدول العربية يبلغ نحو ١٣ مليار دولار سنويًا مما يوفر نحو ٦٠٠ ألف فرصة عمل للاميركيين. وبعد ايام، دعا السفير إلى حفل عشاء حضره السفير السوفياتي في واشنطن (علمًا انه لم تكن هناك علاقات دبلوماسية بين المملكة والاتحاد السوفياتي). وقد بدا واضحًا ان هذا التهديد أتى ثماره، إذ بعد نحو شهر أعلنت واشنطن رسميًا إرسالها ٤٠٠ صاروخ ستينغر إلى السعودية لحماية رأس تنوره والقصر الملكي. وكذلك، وقع الأمير سلطان مع البرازيل (خلال زيارته لها في تشرين الاول ١٩٨٤) اتفاقًا للتعاون العسكري بين البلدين.

وفي العام نفسه ايضًا (١٩٨٤) وقعت فرنسا عقدًا مع المملكة لتزويدها بصواريخ مضادة للطائرات لحماية حقول النفط السعودية وأهداف حيوية أخرى. وكانت فرنسا والمملكة قد اتفقتا في ١٩٨٠ على عقد لتزويد المملكة بالطائرات العمودية والبوارج والمنشآت البحرية.

وكادت ان تقع معركة جوية كبيرة (حزيران ١٩٨٤) بين السعودية وايران على اثر إسقاط طائرة ايرانية تمكنت منها طائرتان سعوديتان. وكانت السعودية حازمة في الرد محذرة «الآخرين ألا يخطئوا في تفسير اعتدالنا». وبعد نحو اسبوع، اجتمع في الطائف، وزراء خارجية دول مجلس التعاون الخليجي ودرسوا خطوات عسكرية للدفاع عن الناقلات (والحرب العراقية–الايرانية في أشدها)، واتسمت لهجتهم بالاعتدال، واختاروا الغطاء الجوي كأنجح وسيلة دفاعية. وفي أواخر حزيران (١٩٨٤)، عقدت في مكة قمة ثلاثية ضمت الملك فهد والملك حسين (الاردن) والرئيس ضياء الحق (باكستان). وكان لهذه القمة أهمية خاصة لسببين على الأقل: العلاقة العسكرية الخاصة التي تربط بين السعودية وباكستان، والروابط القديمة بين الحسين وضياء الحق، وهو ضابط سابق في الجيش كان في عمان في العام ١٩٧٠. وجرى الحديث أثناء هذه القمة ان السعودية والدول الحليفة في الساحل الغربي للخليج قررت ان الغطاء الجوي هو أفضل وسيلة لحماية الملاحة خارج منطقة الحرب العراقية–الايرانية شمالي الخليج. وفي ايلول ١٩٨٤، عقد اجتماع لوزراء الخارجية والدفاع للدول الست في مجلس التعاون بحث في ميثاق دفاعي مشترك وفي إنشاء قوة ردع ذاتية. وبعد نحو اسبوعين، أجرى

بمجلس التعاون مناورات عسكرية في المنطقة الشرقية للسعودية.

في غمرة هذه الحركية الأمنية والعسكرية التي اتسمت بها السياسة السعودية في العام ١٩٨٤، قال الملك فهد، وللمرة الأولى في تاريخ المملكة، في حديث مع طلاب كلية الملك فيصل العسكرية في الظهران (آذار ١٩٨٤) إن «مشروع التجنيد الاجباري يدرس حاليًا بهدف تحديد أفضل السبل التي تضمن مشاركة كل القطاعات في الدفاع عن البلاد». وكان الملك فهد، وللمرة الأولى ايضًا، أثار (في كانون الاول ١٩٨٤) مسألة قيام برلمان على مراحل ووضع دستور دائم للمملكة، موضحًا انه في مرحلة أولى سيعين أعضاء المجلس، وفي مرحلة لاحقة ينتخب نصف أعضاء المجلس انتخابًا غير مباشر، وفي مرحلة أخيرة، ينتخب معظم أعضاء المجلس مباشرة.

في ١٩٨٥، حين اعتزمت المملكة العربية السعودية شراء معدات عسكرية اميركية بمبلغ يقارب الخمسة بلايين دولار وقامت قائمة اللوبي المعارض ذي النفوذ العارم في الكونغرس، متوعدين بوقف الصفقة، توجه الأمير سلطان والقيادة السعودية نحو بريطانيا التي رحبت بهذه الصفقة الضخمة. وبعد وقت قصير، لاقت صفقة بيع صواريخ اميركية إلى المملكة حربًا شعواء أخرى من اللوبي الصهيوني في الكونغرس الاميركي، مما كاد يلغي الصفقة لولا تدخل الرئيس الاميركي ريغان بنقض قرار الاعتراض وأبرمت الصفقة في حزيران ١٩٨٦ (عن «الجيش» في المملكة، راجع باب «معالم تاريخية»).

كرونولوجيا ١٩٨٧-١٩٩٨

١٩٨٧: في ٣١ تموز، وقعت حوادث دموية بين عدد من الحجاج وقوات الأمن في مدينة مكة المكرمة، وسقط عدد من القتلى، بينهم حجاج ايرانيون.

١٩٨٨: المملكة تواصل جهودها لتأمين السلاح اللازم لقواتها المسلحة، وتعقد، في ٣ تموز، صفقة مع بريطانيا لشراء سلاح بقيمة نحو ٢٠ مليار دولار (٥٠ طائرة تورنادو، ٦٠ هوك، ٨٠ هليكوبتر...)، وتشتري بريطانيا بالمقابل ٢٠ مليون طن من النفط سنويًا. وفي ١٦ تشرين الثاني، أعلنت المملكة اعترافها بإقامة «دولة فلسطين».

١٩٨٩: في ٤ كانون الثاني، أعلنت منظمة الجهاد الاسلامي مسؤوليتها عن اغتيال السكرتير السعودي الثالث في سفارة المملكة في بانكوك. وفي ٢٩ آذار، اغتيل ايضًا إمام مسجد بروكسيل (سعودي) وأحد معاونيه. وفي ١٠ تموز، جرى انفجاران في مدينة مكة المكرمة، وانفجار ثالث بعد اسبوع، واتُّهم ١٦ شيعيًا كويتيًا بها.

١٩٩٠: في كانون الثاني، تناول تقرير منظمة العفو الدولية، في جملة ما تناوله حول العالم، وجود ٧٠٠ موقوف سياسي، في السجون السعودية، جلّهم أعضاء في حزب الله وفي حزب العمل الاشتراكي العربي. في أول شباط، اغتيل ٣ دبلوماسيين سعوديين في بانكوك. في ٢ تموز، وقع عدد كبير من القتلى (مئات) ضحايا هلع وقع في نفق في مدينة مكة المكرمة. في ٢١ تموز، أقامت المملكة علاقات دبلوماسية مع الصين. في ٢٩ آب، اشترت المملكة أسلحة أميركية بقيمة ٢،٢ مليار دولار. في تشرين الثاني، جرت تظاهرة نسائية ضمت ٤٧ امرأة طالبن بحق المرأة في قيادة السيارة (يمنع القانون السعودي المرأة من قيادة السيارة).

١٩٩١: حرب الخليج الثانية (راجع «ايران»، ج٤، و«العراق» في هذا الجزء). في ٢٠ شباط، استأنفت المملكة علاقاتها الدبلوماسية مع ايران (كانت مقطوعة منذ نيسان ١٩٨٨).

١٩٩٢: في آذار، اصدر الملك فهد ثلاثة أنظمة جديدة لادارة الحكم في المملكة هي النظام الأساسي للحكم ونظام مجلس الشورى ونظام المناطق (راجع «بطاقة تعريف»).

١٩٩٣: في صيف هذا العام، تعرضت المملكة العربية السعودية إلى حملة إعلامية قاسية في الولايات المتحدة (والدول الغربية الحليفة لها) «ظاهرها إقتصادي وباطنها سياسي». وأنموذج هذه الحملة مقالا «نيويورك تايمز» في ٢٢ و٢٣ آب، ومقال «واشنطن بوست» في ٢٩ آب، وما اقترح في هذه المقالات من إجراءات اقتصادية ضد المملكة.

في ٢٠ آب، اصدر خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز أربعة أوامر ملكية في شأن نظام مجلس الوزراء، ومدة مَن يعين بمرتبة وزير أو في المرتبة الممتازة، وتشكيل مجلس الشورى من ٦٠ عضوًا ونظام مجلس الشورى (راجع «بطاقة تعريف»). وتدخل هذه الأوامر في إطار مرحلة جديدة من مراحل التطوير السياسي في المملكة.

في ٢٩ كانون الاول، افتتح الملك فهد أول مجلس للشورى في العهد السعودي الجديد بكلمة أشاد فيها بقيام المجلس، فيما أكد «مسؤول سعودي كبير» ان المملكة ماضية في طريق العمل الجاد من اجل تحديث جميع الأنظمة الادارية وتطويرها بما يتفق مع طبيعة العصر.

١٩٩٤: في كانون الثاني، زار رئيس الوزراء الفرنسي ادوار بالادور السعودية وعقد محادثات مع الملك فهد، كما عقد الأمير سلطان النائب الثاني لرئيس الوزراء وزير الدفاع والطيران اجتماعًا مع وزيري الدفاع والخارجية الفرنسيين في حضور الأمير سعود الفيصل وزير الخارجية السعودي، أعلن بعدها بالادور ان المحادثات التي أجراها في السعودية أسفرت عن اتفاق على تشكيل لجنة من الخبراء من البلدين لمتابعة استكمال عقود مشاريع التعاون العسكري والاقتصادي التي سبق ان أعدت دراستها.

في ١٢ تموز، زار حيدر علييف رئيس جمهورية أذربيجان المملكة، ووقعت الدولتان اتفاقًا ينظم التعاون بينهما في المجالات الاقتصادية والتجارية والثقافية والعلمية والشبابية.

في ٢٦ ايلول، أصدرت وزارة الداخلية السعودية بيانًا حول توقيف «١١٠ أشخاص من الذين حاولوا إثارة الشغب والفتنة في السعودية... و لم يلتزموا تعهدات سابقة بعدم إثارة المشاكل وعلى رأس هؤلاء الشيخان سلمان بن فهد العوده وسفر بن عبد الرحمن الحوالي المعروفان بتشددهما ومعارضتهما السياسية والدينية استنادًا إلى افكار أصولية متطرفة وليست اصلاحية». لم يبق، قيد التحقيق، في اواسط تشرين الثاني سوى ٢٧ شخصًا.

في ٢٧ ايلول، أعلن رئيس كازاخستان نور سلطان نزاربايف اثناء زيارته السعودية انه اتفق وخادم الحرمين الشريفين الملك فهد على تبادل السفراء بين البلدين.

في تشرين الاول، وبعد إنشاء وزارة الشؤون الاسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد (في ١٩٩٣)، قررت المملكة إنشاء «المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية»، وأصدر الملك فهد موافقته على أن يترأس المجلس الأمير سلطان بن عبد العزيز النائب الثاني لرئيس مجلس الوزراء وزير الدفاع والطيران، ويضم المجلس وزير الداخلية والخارجية والمال والاقتصاد والتعليم العالي والعدل والشؤون الاسلامية، إضافة إلى الأمين العام لرابطة العالم الاسلامي.

في ٢٨ تشرين الاول، صدر بيان مشترك بعد محادثات الملك فهد والرئيس الاميركي كلينتون (الذي زار السعودية في إطار جولة له في الشرق الاوسط) شرح الموضوعات التي بحث فيها الزعيمان ودارت حول ثلاثة محاور رئيسية هي العلاقات الثنائية والوضع في منطقة الخليج وتطورات عملية السلام.

١٩٩٥: أظهرت الموازنة التي صدرت في اوائل هذا العام ان السعودية نجحت في تحرير اقتصادها عبر العديد من البرامج كان أبرزها خفض الانفاق وتدعيم دور القطاع الخاص والتخلص من الدين الخارجي وتراجع العجز في الناتج المحلي الاجمالي.

وواكبت هذه الانجازات الاقتصادية إجراءات إعادة ترتيب الداخل عبر أكبر موجة من التغييرات، إذ شهد العام (٢ آب) أكبر تعديل وزاري دخل بموجبه ١٥ وزيرًا

من الاعلى، ثم من اليسار الى اليمين حتى الصورة الادنى، الملوك السعوديون مع الرؤساء الاميركيين:عبد العزيز وروزفلت، فيصل (وكان وزيرا للخارجية) وترومان، سعود وايزنهاور، سعود وكينيدي، فيصل وجونسون، فيصل ونيكسون، فهد (وكان وليا للعهد) وفورد، خالد وكارتر، فهد وريغان، فهد وبوش، وفهد وكلينتون.

الامير سلطان بن عبد العزيز مع الرئيس كلينتون وزوجته هيلاري (تشرين الاول ١٩٩٥).

جديدًا في عملية لضخ دماء شابة في المجلس أدت إلى حركة تطور واسعة في العمل الاداري في كل الوزارات، ورافق ذلك تفعيل لدور مجلس الشورى.

إسلاميًا، شهد العام أعمالاً عديدة، أبرزها افتتاح المركز الاسلامي في روما، وأكاديمية الملك فهد في بون، وإنشاء كرسي الملك فهد للدراسات الاسلامية في جامعة لندن، وكرسي الأمير نايف للدراسات الاسلامية في موسكو، ودعم بعض المراكز الاسلامية في لندن واسطنبول وغيرها.

سياسيًا، شهد العام تشديدًا سعوديًا على الثوابت السياسية وربط السلام في المنطقة بالانسحاب الاسرائيلي من الاراضي العربية المحتلة بما فيها القدس والتقدم على المسارين السوري واللبناني، ورفض السعودية سياسة التطبيع الاقتصادي مع اسرائيل وإقامة البنك الاقليمي للتنمية.

وعملت السعودية على إعادة صوغ العلاقات السعودية مع دول عربية عدة كان أبرزها توقيع مذكرة التفاهم السعودية اليمنية وعقد القمة السعودية اليمنية وانطلاقة عمل اللجان المشتركة بين البلدين (راجع باب «معالم تاريخية»). وقد صاحب ذلك انفتاح مماثل في اتجاه الاردن توج بلقاء الملك حسين والأمير سلطان في نيويورك بعد زيارة وزير الخارجية الاردني عبد الكريم الكباريتي إلى السعودية ولقائه مع الأمير سعود الفيصل وتأكيد البلدين رغبتهما في العودة بالعلاقات إلى ما كانت عليه من قوة.

أما الحادث الأمني الأبرز فتمثل في تفجير مقر البعثة العسكرية الاميركية في الرياض (١٣ تشرين الاول).

١٩٩٦: في اليوم الاول من كانون الثاني، عهد الملك فهد لولي العهد الأمير عبدالله القيام بأعمال الدولة أثناء قضائه فترة راحة بسبب وعكة صحية ألمت به. وفي اليوم التالي، أكدت واشنطن ثقتها باستقرار السعودية. وفي ١٩ كانون الثاني، أكد مصدر سعودي مسؤول ان الحملات الاعلامية لن تجعل المملكة تهرول نحو السلام مع اسرائيل. وفي ٣١ كانون الثاني، استقبل الملك فهد أمراء البلاد.

في ١٢ شباط، رأس الملك فهد جلسة مجلس الوزراء السعودي لأول مرة بعد قضائه فترة راحة، وأعلن ان إنفاق السعودية في ١٠ سنين على مكة المكرمة والمدينة المنورة تجاوز ٧٠ مليون ريال.

في ٤ آذار، أعلنت السعودية وقوفها إلى جانب سورية في مفاوضات السلام (وكانت هذه المفاوضات بين سورية واسرائيل توقفت قبل أقل من شهر واحد، أي في شباط ١٩٩٦). وفي ٢٧ آذار، أعلن الأمير سلطان (النائب الثاني لرئيس مجلس الوزراء وزير الدفاع والطيران) استعداد السعودية للوقوف مع البحرين بعد أحداث الشغب التي شهدتها.

في ١٧ نيسان، أعلنت الرياض إحباط محاولة لتهريب ٣٨ كيلوغرامًا من المواد المتفجرة نفذها شخص سعودي عن طريق منفذ الحديثة شمالي السعودية. وفي ٢٢ نيسان، أعلن الأمير نايف بن عبد العزيز اعتقال أربعة

سعوديين ارتكبوا حادث التفجير الذي وقـع في حـي العليا في مدينـة الريـاض في ١٣ تشـرين الاول ١٩٩٥ (وفي ٣٠ ايار، تم إعدام منفذي هذا التفجير).

في ٧ حزيران، شاركت السعودية في القمة العربية الثلاثية المصغرة في دمشق (الرئيس حـافظ الأسد والرئيس حسني مبـارك والأمـير عبـدا لله بـن عبـد العزيـز). وفي ٢٥ حزيران، انفجرت سيارة مفخخة في مدينة الخُبر في المنطقـة الشـرقية، وأدّى الانفجـار إلى مقتـل ١٩ عسـكريًا اميركيًـا وإصابـة ٤٨٦ شـخصًا مـن جنسـيات مختلفـة (أوضحـت السلطات السعودية في ما بعد ان منفـذي التفجـير هـم مـن السعوديين الذين دعمتهـم جهـات أجنبيـة، وان «خلفيـات الحـادث متوافـرة لـدى السـلطات السـعودية». واسـتمرت التحقيقات. وفي ٢٨ نيسان ١٩٩٨، سـئل وزيـر الداخلية الأمير نايف عن التحقيقات في انفجـار الخُـبر، وهـل اثبتـت الاتهام الموجه إلى ايـران بـالضلوع فيـه، فأجـاب: «نحـن لم نبرىء ولم نتهم». وكرّر ان «الحقـائق تحـت أيدينـا ولا بـد من استكمال كل ما له علاقة بهذا الأمر»).

في ٢ تموز، أعلن وزير خارجيـة بريطانيـا مـالكوم ريفكند في جدة بعد لقاء الملك فهد «تطابق وجهات النظر بين بريطانيا والسعودية حول مفهـوم الارهـاب». وفي ١٧ تموز، أعلن الأمير سلطان بن عبد العزيـز حـرص السـعودية على سـلامة كـل أجنبي على أرضهـا مثـل حرصهـا على المواطن السعودي.

في ٥ آب، شدّد الملك فهد على حرص السـعودية على مواصلة السعي إلى السلام في المنطقة.

في ١٣ ايلـول، صـادقت السـعودية علـى معـاهدة حظر الاسلحة الكيماوية.

في ٧ كانون الاول، رأس الأمير عبـدا لله بـن عبـد العزيز نيابة عن الملك فهد وفد السعودية إلى القمة الخليجيـة في الدوحة. وفي ١٥ كانون الاول، أكد الأمين العام لمجلس التعاون الخليجـي جميـل الحجيـلان ان السـعودية ماضيـة في وساطتها لحل الخلاف الحدودي بين البحريـن وقطر. وفي ١٧ كانون الاول، تشرّف الامـير عبـدا لله بـن عبـد العزيـز بغسل الكعبة المشرّفة إيذانًا بانتهاء أعمال الترميم الـتي تنفـذ للمرة الاولى منذ ٣٧٠ سنة. وفي ٢١ كانون الاول، أعلـن الأمير نايف بن عبد العزيز ترحيل السعودية نحو ٤٠٠ ألـف مقيم بصورة غير نظامية سنويًا.

انفجار الخُبر (٢٥ حزيران ١٩٩٦).
والخُبر مدينة في المنطقة الشرقية، قرب الدمام، تحولـت بسـرعة مذهلة إلى مدينـة حديثـة بعـد اكتشـاف النفـط، وخاصـة بعـد المشـاريع الصناعيـة الضخمـة في المنطقـة. تمتلـىء أحياؤهـا وشوارعها بالقادمين للعمل من جنسـيات متعـددة، مـن بلـدان عربيـة وآسـيوية وأوروبيـة، ومـن الامـيركيين العـاملين في الشركات ومن رجال القوات الاميركيـة الجويـة القـادمين مـن القاعدة الجوية.

١٩٩٧: تميز هذا العام بتكثيف السعودية اتصالاتها باليمن لاستكمال المحادثات في شأن مسألة الحدود وإغلاق هذا الملف (راجع باب «معالم تاريخية»)، وبتحرك سعودي نشط في الخارج مع تشديد الملك فهد على أولوية انقاذ القدس من محاولات تهويدها.

كما تميز هذا العام ببدء صفحة جديدة من العلاقات بين المملكة وايران (في عهد الرئيس الايراني المنتخب خاتمي) التي أقرت بوضوح بالدور البارز للسعودية اقليميًا وفي العالم الاسلامي. وكان أول لقاء في نوعه بين ولي العهد السعودي الأمير عبدا لله بن عبد العزيز ومرشد الجمهورية الاسلامية آية ا لله علي خامنئي على هامش القمة الاسلامية في طهران، وعرض ولي العهد استعداد المملكة للتوسط بين ايران واميركا.

قادت السعودية ايضًا تحركًا باتجاه إيجاد أسس واقعية للتضامن العربي، ونجحت في احتواء «هزة» في العلاقات القطرية-المصرية كادت تهدد بفرط «إعلان دمشق» (راجع «سورية»، ج١٠).

وعلى رغم الوجود العسكري الاميركي في مياه الخليج الذي تكثف خصوصًا بسبب مسلسل الازمات بين بغداد من جهة وواشنطن ومجلس الأمن من جهة ثانية، أعلنت السعودية على لسان النائب الثاني لرئيس مجلس الوزراء وزير الدفاع والطيران الأمير سلطان بن عبد العزيز ان أمن الخليج تحميه دوله.

أكد الملك فهد، مطلع السنة، نية تطوير أنظمة الحكم في المملكة. وفي ٢٥ كانون الثاني، نجح تحرك سعودي في إقناع قطر باقتراحات لتنقية الاجواء مع البحرين.

في ٢٦ شباط، اعلن الأمير سلطان من واشنطن، حيث التقى الرئيس الاميركي بيل كلينتون، ان أمن الخليج تحميه دوله.

في ٨ آذار، زار الامير سلطان باريس (في إطار جولة له إلى الخارج) واقترح من هناك صندوقًا لدعم الفلسطينيين. وفي ١٣ آذار، قابل في لندن رئيس الوزراء البريطاني جون ميجور وعرضا عملية السلام في الشرق الاوسط.

في ملف الحدود اليمنية السعودية، كانت من بين ابرز المحطات موافقة مجلس الوزراء السعودي، في ١٢ ايار، على اتفاق التعاون الأمني مع اليمن. وفي مطلع تموز، التقى وزير الداخلية السعودي الأمير نايف بن عبد العزيز في صنعاء الرئيس علي عبدا لله صالح لتسريع التفاهم على الحدود. وكان لقاء مماثل في العاصمة اليمنية (٢١ تموز)، وبعد اسبوع، زار المملكة وزير الداخلية اليمني لاستكمال المحادثات. وفي ١٣ تشرين الاول، نقل الأمير نايف للرئيس اليمني رسالة من الملك فهد، ثم وقع حادث حدودي (٢٥ تشرين الثاني) أدّى إلى مقتل سعوديين، وأكدت المملكة انه لم يؤثر في التفاوض وان لا تغيير في موقفها لجهة العمل من اجل التوصل إلى اتفاق نهائي مع اليمن يطوي ملف الحدود (حول هذا الملف راجع باب «معالم تاريخية»).

في ١٦ حزيران، أكد الأمير سلطان معارضة

الرئيس الفرنسي جاك شيراك مع الامير عبد ا لله ولي العهد.

ومع الامير سلطان وزير الدفاع والطيران.

البابا يوحنا بولس الثاني
مستقبلاً الامير سلطان
(١٢ ايلول ١٩٩٧).

ملك اسبانيا خوان كارلوس
والامير سلطان
(ايلول ١٩٩٧).

رئيس جنوب افريقيا نلسون
مانديلا والامير سلطان
(أيلول ١٩٩٧).

الامير عبد الله مستقبلاً رئيس الوزراء البريطاني بلير (١٨ نيسان ١٩٩٨).

المملكة قرار الكونغرس الاميركي اعتبار القدس عاصمة موحدة لاسرائيل. وفي ٢٥ حزيران، وفي إطار التحرك السعودي النشط لانقاذ عملية السلام، ودعم الاطراف العربية المعنية، زار الامير سلطان سورية، ثم لبنان بعد يومين. ثم كانت للامير سلمان بن عبد العزيز، أمير منطقة الرياض، في ١٧ ايلول، جولة بدأها بسورية، ثم لبنان، بعد جولة على باريس وسارايفو (مطلع ايار).

في ٧ تموز، أصدر الملك فهد أوامر ملكية شملت اعلان تشكيل مجلس الشورى والتمديد لـ٧٧ من كبار موظفي الدولة وأمراء المناطق والعلماء والمستشارين.

في ٥ آب، وافق الملك فهد على تعيين اعضاء مجالس المناطق في المملكة.

في ايلول، كانت للامير سلطان جولة ثانية مهمة في ١٩٩٧، شملت ايطاليا التي التقى رئيسها في روما (١١ ايلول)، ثم اجتمع في اليوم التالي مع البابا يوحنا بولس الثاني في لقاء هو الاول في نوعه بين البابا ومسؤول سعودي كبير ركّز على قضية القدس. وانتقل الأمير سلطان إلى اسبانيا، فالتقى الملك خوان كارلوس (١٥ ايلول)، وكانت عملية السلام المتعثرة في مقدم القضايا التي طرحها الرحلان؛ وفي ٢٦ ايلول، استقبل رئيس جنوب افريقيا نيلسون مانديلا الأمير سلطان في كيب تاون.

١٩٩٨: في اواخر شباط، زار الرئيس الايراني السابق رئيس هيئة مجمع تشخيص النظام علي أكبر هاشمي رفسنجاني السعودية تتويجًا لجهود من التقارب بين البلدين قاربت السنتين. وقد عنت هذه الزيارة من خلال حجم الاهتمام السعودي والايراني بها بداية حقبة جديدة ومهمة في العلاقات الثنائية أكد وزير الخارجية السعودي الأمير سعود الفيصل انها «بدأت بالفعل». ورفسنجاني هو أول مسؤول ايراني رفيع المستوى يزور المملكة منذ قيام الجمهورية الاسلامية الايرانية في ١٩٧٩. ومما قاله رفسنجاني: «جئت هنا ومعي وفد كبير يضم مختلف الفعاليات في ايران من أجل تحريك العلاقات بين البلدين في جميع المجالات». وقد امتد برنامج الزيارة لعشرة ايام. واستمرت العلاقات بين البلدين تتطور، وبلغت درجة عالية من الإيجابية مع تصريح السفير الايراني لدى السعودية محمد رضا نوري في أعقاب اختبار ايران الصاروخ «شهاب ٣» (٢٨ تموز ١٩٩٨) الذي يبلغ مداه ١٣٠٠كلم، إذ قال: «إن الصاروخ هو للدفاع عن النفس، ونحن نرى ان قوة ايران هي قوة للملكة، وإن قوة المملكة هي قوة لايران. علاقاتنا مع السعودية وصلت إلى مرحلة تاريخية، يكمل فيها بعضنا بعضًا، وإذا كانت لدينا قوة صاروخية أو غير صاروخية فهي بتصرف المملكة».

في ١٨ نيسان، استقبل الملك فهد في جدة رئيس الوزراء البريطاني توني بلير الذي قال قبيل لقائه الملك إن هناك سببين لزيارته: الاول يتعلق بمشكلة عملية السلام، والثاني توثيق العلاقات السعودية-البريطانية. ووصف دور الاتحاد الاوروبي في عملية السلام بأنه «مكمل للدور الاميركي ولا يتعارض معه».

وفي نيسان ايضًا، زار الامير سلمان عبد العزيز، أمير منطقة الرياض، اليابان في «سياق تطور العلاقات

وبهدف فتح قنوات استراتيجية للتعاون الشامل» (وكان رئيس الوزراء الياباني ريوتارو هاشيموتو زار الرياض في تشرين الثاني ١٩٩٧). وكانت العلاقات بين البلدين عبرت، منذ قيامها في ١٩٥٤، عن تقاربهما، إذا اتسمت بالودية والتقدير المشترك. وتبادل الطرفان زيارات ودية كثيرة أبرزها زيارة الملك فيصل لليابان في ١٩٧١، وزيارة ولي العهد الياباني وقرينته للسعودية في ١٩٨١ (الامبراطور حاليًا)، وولي العهد الحالي وقرينته في ١٩٩٤، إضافة إلى الزيارات الرسمية المتبادلة. وكان البلدان قد وقّعا إتفاقية التعاون الاقتصادي والفني في ١٩٧٥.

في اليوم الاول من حزيران، طالبت المملكة، في اجتماع لمجلس الوزراء رأسه الملك فهد بـ«الحظر الشامل والكامل لانتشار الأسلحة النووية وجعل الشرق الأوسط منطقة خالية من أسلحة الدمار الشامل»، وأعلنت انها إذ تقدر «وجهة نظر الحكومة الباكستانية للحفاظ على أمنها» (وكانت باكستان قد أجرت تجربة نووية قبل ايام ردًا على تجربة أجرتها الهند) فإنها تدعو إسلام آباد ونيودلهي إلى «التحلي بضبط النفس واستئناف المفاوضات بما يخدم الأمن والاستقرار في المنطقة ويحقق بالتالي التنمية والرفاهية لبلديهما وشعبيهما».

معالم تاريخية

□ **الإخوان:** من أبرز الجوانب في عبقرية عبد العزيز وحنكته وخبرته الواسعة، على ما يؤكده المؤرخون، هو ذاك الجانب الذي برز في الدور الذي لعبه في نشأة الإخوان، ثم في طرق التعامل معهم فالقضاء عليهم.

أدرك عبد العزيز، وهو ابن البيئة نفسها، ان الموالاة وعهود الولاء عرضة للتبدل من حين لآخر بسبب ارتحال البدوي وتنقله، في حين ان التوطين والمستوطنات ستساعد في الاستقرار وثبات الولاء وتحسين المستوى الاجتماعي والاقتصادي. وهكذا استنبط عبد العزيز خطة توطين البدو، وظلّ ذلك في صميم تخطيطه الطويل المدى لربط الناس بالارض. فاقام مستوطنات زراعية واحية دفع بالبدو إلى استيطانها. من هنا جاءت كلمة «هجرة» التي أخذت تعني «مستوطنة زراعية واحية» حلّت فيها بيوت اللبن مكان الخيام، وجرى تعليم أهلها أصول الزراعة وتزويدهم بالبذور، كما جرى انتداب نفر من رجال الدين لقيادة هذه الهِجَر ونشر تعاليم الاسلام الأساسية، وكان سكان الهجر يُدعون الإخوان.

وكانت أولى هجر الاخوان مستوطنة «الأرطاوية» التي أنشئت في كانون الاول ١٩١٢، وهي منطقة ذات اراضي ومراعي خصبة ومنابع مياه وفيرة. وكانت ضمن نفوذ «الديره» التابعة لقبيلة المطيري المشهورة بغزواتها المتكررة ضد جيرانها. ثم تلتها مستوطنات عديدة أخرى في جميع أنحاء شبه الجزيرة بلغ مجموعها ١٢٢ هجرة خلال حياة الملك عبد العزيز. وكانت الدعوة الاصلاحية وتعاليمها موضع الممارسة، فتهيأ لها قوة من الاخوان قادرة على حمل رسالتها لتوحيد البلاد. وفي عام التأسيس نفسه (أي في ١٩١٢) بلغت قوة

الإخوان ١١ ألف رجل.

كتب حافظ وهبة («الوهابية في الجزيرة: الماضي والحاضر»، المجلة الملكية لمجتمعات اواسط آسيا، ١٦ تشرين الاول ١٩٢٤، ص٣٦٥) يصف الإخوان:

«كان التبشير والدعوة للتعاليم الوهابية يجري بين سكان المدن فقط. ولهذا أصبح البدو هم وقود معظم حركات التمرد والانتفاضات التي وقعت في فترات مختلفة. ودائمًا كانوا ينحازون إلى جانب الفريق الذي يرهبون قوته وبأسه، أو الذي يرجون من ورائه مكاسب أكثر. وهذا هو السبب في اعتماد المصريين أو الاتراك احيانًا، أو الوهابيين أو آل الرشيد عليهم. وجاء تفكير ابن سعود ملائمًا لعلاج مشكلة البدو بإقامة مستوطنات لتوطينهم، وليمارسوا الزراعة (...) وبعد ان كانوا خطرًا ماحقًا على الفريق الذي يؤيدونه بسبب انقلابيتهم أصبحوا الآن أوفياء ويمكن الوثوق بهم والاعتماد عليهم في مواجهة الموت ذاته (...) وركّز ابن سعود أساسًا على الروح الوهابية النضالية ليغرسها في نفوسهم. وقام الشيخ عبدالله بن محمد بن عبد اللطيف آل الشيخ بوضع منظومة المعتقدات التي استخدمت لتبرير وعقلنة وتثقيف وإلهاب حماس الاخوان. وقام الشيخ بالمواءمة بين المبادئ الوهابية واهداف ابن سعود السياسية (...) وفوق ذلك ركّزت أقواله على الواجب الديني بطاعة الله وطاعة الحاكم (...) واستدعى ابن سعود مشايخ القبائل إلى الرياض وخطب فيهم قائلاً: «قبائلكم لا دين لها وجاهلة بالاسلام»، ثم أمرهم بالانتظام في مدرسة العلماء الملحقة بالمسجد الكبير في الرياض واجتياز برنامج في علوم الدين (...) وعندما تهيأ مشايخ القبائل لتلقي تعاليم دينية أكثر تفصيلاً، دعاهم ابن سعود لبناء منازل لهم في الرياض، وهذا ايضًا جزء من خطة السيطرة عليهم».

ذكر أمين الريحاني («ابن سعود والجزيرة العربية»، بوسطن هجتون ميفلين، ١٩٢٨، ص١٩٤) ان سكان «الهجر» المستوطنين ينقسمون إلى ثلاث مجموعات: ١-البدو الذين أصبحوا فلاحين؛ ٢-المطوّعون؛ ٣-التجار والحرفيون. «وكان التمييز بين المجموعات الثلاث يقوم على أساس الأصل القبلي والعشائري (...) ورغم تأكيد الاخوان على طابع المساواة فلم يسمح لأبناء القبائل ذات الاصل الوضيع ان يشاركوا في القتال والغزو، بل يُتركون في المستوطنات للقيام بالاعمال الضرورية مثل عمل حدوة الحصان وصنع السيوف والرماح وإصلاح الأسلحة والأواني».

في ١٩١٦، تقرّر بأن تصبح جميع قبائل البدو جزءًا من الاخوان وان يدفعوا الزكاة كما يفعل جميع المسلمين. وقد طُلب من شيوخ القبائل الالتحاق بمدرسة الشريعة الاسلامية في مسجد الرياض، وشُجع الكثيرون منهم على الانضمام إلى حاشية عبد العزيز لزيادة توثيق ولائهم. وقد أضحى الاخوان المنظمون، بحماستهم البالغة واندفاعهم الشديد، قوة بالغة الأهمية تحت راية عبد العزيز. لقد كان اعتقادهم راسخًا بالتقشف وبساطة العيش وصفاء المفاهيم الاسلامية الصريحة وتأسيس مجتمع اسلامي يطبق الحشمة والعدالة وبلغ حماسهم احيانًا حدود التطرف المتزمت المتصادم مع كل مظهر عصري.

استطاع عبد العزيز استخدام ذلك الاندفاع والحماسة الدينية بنجاح في مخططه التوحيدي. فأصبحت حروب التوحيد حروبًا مقدسة حقًا باندفاع الاخوان وبقيادة عبد العزيز. وبتواجد هذه القوة الهائلة شعر عبد العزيز، في ١٩١٣ وعشية الحرب العالمية الاولى، ان الوقت مؤات لضرب الاتراك في إقليم الاحساء على الخليج العربي، وهو منطقة كانت تتبع نجد، لكن العثمانيين احتلوها منذ نحو خمسين عامًا. وكان عبد العزيز بحاجة ماسة لاستعادة هذه المنطقة وموانئها كيلا يظل منقطعًا عن بقية العالم. فكانت معركة استيلائه (والاخوان أهم قواته) على الهفوف في ٤ ايار ١٩١٣ وسيطرته على الاحساء نقطة التحول الأساسية في معارك سيطرته وتوحيده للبلاد ككل، حيث لم تعد المعركة منذ ذلك الحين صراعًا بين السعوديين والاتراك، بل تشعبت اطرافها ليدخل الحجاز، بعد سنوات قليلة، طرفًا فيها.

جاء في كتاب «الملك فهد ومسيرة الانجازات الحضارية في المملكة العربية السعودية» (لمؤلفيه د.ناصر ابراهيم الرشيد ود.إسير ابراهيم شاهين، مرجع مذكور آنفًا، ص٤٢-٥٢):

«وبانتزاع إقليم الاحساء من العثمانيين والتوسع الذي رافقه أضحى عبد العزيز على اتصال وثيق بالبريطانيين. ومع ان عبد العزيز لم يشترك اشتراكًا فعالاً في الحرب العالمية الاولى فإنه وجد نفسه عند نهاية الحرب في نزاع مكشوف مع الشريف حسين. وكان عبد العزيز قد أحجم عن مهاجمته خلال الحرب لأنه كانت تجمعهما رغبة مشتركة بإخراج الاتراك من شبه الجزيرة العربية. وقام البريطانيون بتسليح الشريف حسين ومساعدته، وعقد هو بدوره اتفاقًا سريًا معهم (...) وبعد مفاوضات متعددة وُقّعت معاهدة بينه وبينهم عام ١٩١٦ اعترف فيها البريطانيون بعبد العزيز اميرًا على نجد والاحساء (...)

وامتد سلطان السعوديين بمساندة قوات الاخوان إلى ضواحي حائل ١٩١٧ (...) وبالرغم من استمرار توطد سلطان عبد العزيز فإنه أحجم خلال تلك المدة عن مهاجمة الحجاز. وفي العام ١٩١٩ تعرّض الطرف الغربي من مناطقه لهجوم من قبل الشريف حسين أنهى الهدنة المتقلقلة بالحرب. فتم القضاء على جيش الشريف حسين وفتح الطريق إلى مكة (...) وأثار شريف مكة في آذار ١٩٢٤ قضية أغاظت عبد العزيز، وذلك حين أعلن الشريف حسين نفسه خليفة على المسلمين (...) وكان عبد العزيز والاخوان توّاقين بشدة للاستيلاء على الحجاز، بخاصة مذ مُنعوا من أداء فريضة الحج والأماكن المقدسة تحت سيطرة الشريف حسين (...) وفي كانون الاول ١٩٢٥ دخل عبد العزيز جدة (...) وفي ٢٠ ايار ١٩٢٧، وقعت معاهدة بريطانية في جدة تعترف بالاراضي التابعة لسيطرة عبد العزيز والممتدة من الخليج العربي حتى البحر الأحمر. بعد هذا الفتح العظيم للحجاز تنامى حماس قادة الاخوان الذين كان لمساعدتهم وحماستهم فضل لا ينكر في هذا الانجاز فقاموا رغم تعليمات عبد العزيز الصريحة بمهاجمة حصن على الحدود العراقية. وكان هذا التحدي انتهاكًا خطيرًا لسلطته قابله عبد العزيز بالحكمة والتعقل بمختلف السبل الممكنة لتفادي المواجهة مع الاخوان. لكن الاخوان زادوا من تعنتهم ورفضوا الكف عن غاراتهم عبر الحدود العراقية والاردنية، وكانت هذه الغارات مناقضة صريحة لاتفاق كان عقد مع البريطانيين في العُقير عام ١٩٢٢ (...) فعند انتهاء حصار جدة عام ١٩٢٥، اعترض بعض الاخوان على استخدام الهاتف لأن الأخذ بمثل هذه المبتكرات العصرية يشكل في زعمهم انتهاكًا لاسلوب العيش المتزمت في أمور الدين الذي يمارسونه ويدعون إليه. فما كان من عبد العزيز، لنيل موافقتهم إلا ان أسمعهم آيات من القرآن الكريم تتلى عبر الهاتف وأقنعهم بذلك ان الشيطان قد هرب من الآلة التي كانت موضع ريبهم واعتراضهم. لكن الاخوان، مع الزمن، زادوا من تململهم وتمردهم. وراح تطرفهم يتعارض مع أمن الدولة ويلوّح بتعطيل خطط التقدم والتطوير المستقبلية. فقد اعتبروا السيارات والهواتف وأجهزة الاذاعة «من مخترعات الشيطان». وقد عقد في الرياض مع قادة الاخوان وعلمائهم مؤتمر في كانون الثاني ١٩٢٧ جرت فيه مناقشة جميع الأمور التي كانت تثير الخلافات والنزاع. لكن الفتوى التي أصدرها العلماء أحجمت عن إعطاء رأي قاطع بشأن أدوات الحضارة الحديثة هذه. وأمام استمرار الغارات على العراق كان على عبد العزيز مواجهة هذا التحدي بحزم. ومن ناحية ثانية فإن البريطانيين، وقد نصّبوا أحد أولاد الشريف حسين ملكًا على العراق وآخر ملكًا على شرقي الاردن، كانوا حذرين ومتخوفين من تنامي قوة ابن سعود. فكانوا، بحرص وتكتم، يثيرون المتاعب على طول الحدود العراقية، وكانت دسائسهم تهدف إلى إضعاف سيطرته. وقد أبرق ابن سعود عام ١٩٢٧ من مكة إلى بغداد (نقلاً عن وايس «متاعب في جزيرة العرب»، ليفنج أج ١٩٢٨) يقول: «بلغني ان قبائلي على الحدود في حالة هياج بسبب التحصينات اللاشرعية التي يجري بناؤها. إن الوضع خطير إذ تهدّد القبائل بالهجوم دون انتظار إيعاز من أحد (...) في أواخر تشرين الاول كان الشيخ فيصل الدّويش (أحد أبرز قادة الاخوان) قد تقدم نحو أعالي موقع قبيلته مُطير فدمّر تحصينات البُصيّة وقتل الجنود والعمال دون التعرض للقبائل العراقية القاطنة في الجوار. وقد ظهرت أسراب من الطائرات البريطانية وعاينت الموقع ثم، على خلاف عادتها، عادت دون إلقاء قنبلة واحدة. عند ذاك تقدم الدّويش داخل الاراضي العراقية وبعث بضع فرق من المغيرين واستمر ذلك عشرة ايام. ورغمًا من انه كان من اليسير على الطائرات الانكليزية قصف المغيرين بالقنابل فإن أي إجراء لم يتخذ ضدهم. وفي مناسبات أخرى، كما حصل في كانون الثاني ١٩٢٨، حلّق سرب من الطائرات البريطانية فوق حدود نجد وأسقط عددًا من القنابل؛ وكان الهدف من ذلك إعطاء قبائل البدو مبررًا لحملات انتقامية ضد العراق (...) وحين اتضحت الحقيقة كان ابن سعود قد قطع شوطًا بعيدًا، فقد اصبح حاكم الجزء الأكبر من الجزيرة العربية الذي يؤلف كتلة جبارة بين قناة السويس والهند. وبريطانيا العظمى تحاول حاليًا (يتابع وايس) عرقلة تطور هذه الكتلة. انها واعية تمامًا لحقيقة ان المواطنين المحليين في العراق يكرهون الشريف فيصل (المقصود الملك فيصل ابن الشريف حسين) ويحبون ابن سعود الذي يعتبرونه الحاكم الوحيد الحر حقًا في العالم العربي. بالاضافة إلى ان بعض قبائل البدو العراقيين يؤيدونه، ولكن البريطانيين يحاولون إخماد هذه المشاعر وإثارة المنافسات والمنازعات بين القبائل المختلفة لاقامة سدّ بين نجد والعراق. هذا هو في الواقع مصدر المتاعب في الجزيرة العربية» (إلى هنا ينتهي نقل المرجع المذكور عن وايس). انحاز فيصل الدّويش شيخ قبيلة مُطير، الذي كانت قيادته حاسمة وفاعلة في معركة حائل إلى شيوخ آخرين من الاخوان. وكان من بين هؤلاء سلطان بن بُجاد شيخ قبيلة عُتيبة القوية. وتناسى

هؤلاء بسرعة انجازات ابن سعود العظيمة رغم انهم يدينون له بالكثير من وجودهم وتنظيمهم. وفي تشرين الاول ١٩٢٨، دعا عبد العزيز إلى مؤتمر من شيوخ القبائل والعلماء عُقد في الرياض لحل هذه الخلافات وحضره زعماء القبائل جميعهم باستثناء سلطان بن بُجاد وفيصل الدّويش اللذين كانا يتصرفان كخارجين على النظام. لقد كانا عنيفين في مقاومتهما لعبد العزيز يتمردان عليه وينتقصان من قدره. وقد اتهماه بالزندقة لأنه عقد معاهدات مع الكفار، كما إنه، بزعمهم، أدخل إلى البلاد أدوات شيطانية كالهاتف والبرق والطيارة والسيارة. وقد أعلن العلماء خلال هذا المؤتمر ان هذه الادوات مسموح بها شرعًا بل إنها في الواقع مرغوب فيها من وجهة النظر الدينية لأنها تزيد من قوة المسلمين ومعارفهم. كذلك فإن المعاهدات مع دول غير اسلامية هي، استنادًا إلى سوابق أجراها النبي (صلعم) من الأمور المرغوب فيها بخاصة إذا كانت تعود بالسلام والحرية على دنيا الاسلام. وأخيرًا، بدأ صبر الملك ينفذ، فبعد عدة مناوشات بين المتمردين والقبائل الموالية وقعت المعركة الحاسمة في أرض تسمى السَّبَلة بالقرب من بلدة الزلفي في مطلع آذار ١٩٢٩، واستطاع عبد العزيز سحق التمرد بعد ثمانية عشر شهرًا من المناوشات المتقطعة آلت إلى التمرد العلني في ١٩٢٧. واستسلم ابن بُجاد ونُقل إلى الرياض، أما الدّويش فقد أصيب بجراح بليغة (توفي في السجن) (...) وتمّ لعبد العزيز القضاء على جميع القادة المتمردين، وفي نهاية الأمر جرّد المستوطنات المتمردة من قدراتها فاستتب الأمن والاستقرار في الجزء الشمالي الشرقي من البلاد وأصبح عبد العزيز الزعيم غير المنازع للجزيرة العربية» (إلى هنا ينتهي ما جاء في كتاب «الملك فهد...»، المرجع المذكور).

ولمزيد من البحث واستجلاء الحقائق حول تلك السنوات المهمة جدًا في تاريخ المملكة العربية السعودية وخورها علاقة عبد العزيز-الاخوان، ننقل ايضًا أهم ما جاء في كتاب أيمن الياسيني، «الدين والدولة في المملكة العربية السعودية»، بالانكليزية (دار الساقي)، نقله إلى العربية الدكتور كمال اليازجي، ١٩٨٧، ط٢، ١٩٩٠، ص٦٣-٦٥):

بعد ان حقق عبد العزيز هدفه السياسي باجتياح الحجاز، أصبح بحاجة إلى ان يخفف من تصلب الاخوان وتطرفهم. وعلى ذلك، استدعى «علماء» الرياض جماعة المطاوعين من مستوطنات الاخوان وأبلغوهم ان يذيعوا في الناس «أن الاسلام دين وسط»، وأنه لا يخالف الرفاهية المادية ولا اليسار الزمني.

إلا ان الاخوان رفضوا مفهوم الاسلام الوسط. ودعوا إلى الجهاد ضد شرقي الاردن والعراق والكويت. وأول مؤشر على خطورة الوضع برز إلى الواجهة سنة ١٩٢٥ في مكة. وكان قد مضى ما يزيد عن خمسة أشهر على اجتياح الاخوان لمكة، وكان ابن سعود (وكان قد أغضبهم أتصاله بالبريطانيين وتعامله معهم) قد رفض طلبهم بالزحف على جدة والمدينة، مع ان هذه المهمة كانت سهلة عليهم، ذلك انه توقع الحصول من زعماء المدينة وجدة على تسليم بالمفاوضة. لكن الاخوان أكدوا ان التسليم بحد السيف كان الطريقة الوحيدة. وفي ٢٤ نيسان ١٩٢٥، أرسل فيصل الدّويش، زعيم الاخوان، تحذيرًا لابن سعود مفاده ان سيوف مقاتليه على أتم الاستعداد لمواجهة أولئك الذين واصلوا شرور الملك المخلوع الشريف حسين.

وتوطيدًا للاعتقاد بأن الجهاد واجب على كل مسلم راشد، اجتمع الاخوان في كانون الاول ١٩٢٦ في الأرطاوية، وحملوا على ابن سعود لأنه لم يواصل الحرب على المناطق المجاورة، ووجهوا اللوم كذلك إلى إمامهم (ابن سعود) على ما يلي:

١- إرسال ابنه سعود إلى مصر، وهو بلد واقع تحت السلطة البريطانية،

٢- إرسال ابنه فيصل إلى لندن سنة ١٩٢٦ ليكسب ود البريطانيين،

٣- إدخال التلغراف والتلفون والسيارات إلى بلاد الاسلام، وهي جميعها في نظرهم أدوات شيطانية،

٤- جباية رسوم جمركية من مسلمي نجد،

٥- السماح لقبائل شرقي الاردن والعراق بإرسال مواشيهم لترعى في ديار الاسلام،

٦- منع التجارة مع الكويت (فقد ذكر الاخوان لابن سعود ان من رعايا الكويت إذا كانوا كافرين وجب عليه اعلان حرب مقدسة عليهم، أما إذا كانوا مؤمنين فليس للحاكم ان يمنع الاتجار معهم)،

٧- واخيرًا التسامح مع شيعة الحساء، فقد كان اعتقاد الاخوان انه كان ينبغي إما ان يعتنقوا الوهابية وإما ان يُقتلوا.

ونظرًا إلى خطورة مآخذ الاخوان، وجد علماء الرياض انه من الضرورة بمكان شرح موقفهم. وعلى ذلك أصدروا فتوى اتخذوا فيها موقفًا محايدًا من استخدام التلغراف والراديو والسيارة، لكنهم أشاروا على الملك باتباع المبادئ الوهابية، وهدم مسجد حمزة لأنه مزار

شيعي، ومنع دخول المحمل المصري إلى المدينتين المقدستين: مكة والمدينة، وإكراه الشيعة على الخضوع للاسلام أو الطرد من المملكة، ومنع شيعة العراق من إرسال مواشيهم لترعى في ديار الاسلام، وإرجاع الضرائب التي جبتها الحكومة من سكان نجد. ومع ان العلماء أبدوا في فتواهم موقف الاخوان، إلا انهم اعتبروا إعلان الجهاد من مسؤوليات الامام وحده.

وإذ رفض الاخوان فتوى العلماء بأن الإمام وحده هو المسؤول عن إعلان الجهاد، اقدموا في ٦ تشرين الثاني ١٩٢٧ على غزو مركز أمن عراقي بالقرب من الحدود السعودية، وقضوا على جميع افراد حاميته. وكذلك غزوا الكويت وشرقي الاردن. ومن اجل منع المزيد من غزوات الاخوان، أمرت الحكومة البريطانية قوتها الجوية بمطاردة الغزاة من الاخوان عبر بلاد نجد (من الملاحظ هنا أن الموقف البريطاني، بحسب رواية أيمن الياسيني، داعم لابن سعود، على عكس ما رواه أو حاول إثباته د.الرشيد ود.شاهين في كتابهما المذكور أعلاه من ان البريطانيين بقوا متفرجين على غزوات الاخوان لرغبتهم في إضعاف ابن سعود). فتحوّل الوضع تمامًا إلى ما كان زعيم الاخوان، فيصل الدّويش، يشتهي. لأن اتهام ابن سعود بالانحلال الديني كان أمرًا ممكنًا فقط إذا امتنع عن مواجهة الكفار البريطانيين في ميدان القتال.

أما ابن سعود فإنه بعد أن أنجز بناء العربية السعودية لم يشأ مجابهة البريطانيين، أو المضي في توسيع رقعة مملكته. فحرصًا منه على لجم تطرف الاخوان، دعا إلى اجتماع عام في ٦ تشرين الثاني ١٩٢٨ في مدينة الرياض، حضره أكثر من ٨٠٠ من الاخوان، فضلاً عن «العلماء» ووجهاء المدن والقبائل. وجه فيه إلى الحضور حديثًا عدّد فيه إنجازاته الدينية والسياسية، بما في ذلك توحيده لشبه الجزيرة. وفي محاولة منه لكسب المزيد من الدعم، قدّم استقالته، مشترطًا على المجتمعين اختيار خلفه من آل سعود. وكما أشار حافظ وهبة، فإن أحدًا لم يصدّق ان ابن سعود كان حقًا راغبًا في الاستقالة. فبادر «العلماء» والوجهاء إلى رفض طلب الاستقالة وأيّدوا حكم ابن سعود.

إن مؤتمر الرياض هذا، أقنع الاخوان ان القوة المجردة هي الوسيلة الوحيدة لخلع ابن سعود. فراح زعماؤهم يرّوجون في المستوطنات انهم وحدهم، الاخوان، اصبحوا الحماة الحقيقيين للمذهب الوهابي. فعمد على الأثر زعماء الاخوان: فيصل الدويش من قبيلة المطير، وسلطان بن حميد بن بُجاد من العتيبة، وديدان بن هثلين من العجمان، إلى القيام بعدد من الغارات لم تقتصر على العراق والكويت، بل تناولت قبائل نجدية من الموالين لابن سعود. ووقعت المواجهة بين ابن سعود والاخوان في ٣١ آذار ١٩٢٩ في معركة السَّبلة. وتم لجيش ابن سعود، المؤلف من المجندين المدنيين والريفيين والموالين من البدو، قهر الاخوان وتثبيت حكم ابن سعود. وتلا ذلك تفكيك المستوطنات وتحويل الاخوان إلى الحرس القومي (إلى هنا ينتهي ما جاء في كتاب أيمن الياسيني).

في كتاب «ملوك العرب»، ينقل مؤلفه، أمين الريحاني، قولاً للملك عبد العزيز قاله لجماعة من الاخوان كان اعتقلهم وسجنهم ثم أطلق سراحهم: «لا تظنوا يا اخوان ان لكم قيمة كبيرة عندنا. لا تظنوا انكم ساعدتمونا واننا نحتاج إليكم. قيمتكم يا اخوان في طاعة الله ثم طاعتنا. فإذا تجاوزتم ذلك كنتم من المغضوب عليهم. أي، با لله، ولا تنسوا ان ما من رجل منكم إلا وذبحنا له أباه أو أخاه أو ابن عمه. وما ملكناكم إلا بالسيف. ترى الصحيح، والسيف لا يزال بيدنا إذا كنتم يا اخوان لا ترعون حقوق الناس، لا، وا لله، لا قيمة لكم عندنا في تجاوزكم. انتم عندنا مثل التراب (...) أما إذا أعدلتم وعقلتم فحقكم بشرع الله نخلوه من هذا الخشم—وضرب بالسبابة أنفه—وحقي آخذه منكم دائمًا بإذن الله... أنتم ما دخلتم في طاعتنا رغبة بل قهرًا. وإني با لله أعمل بكم السيف إذا تجاوزتم حدود الله».

الجدير ذكره، اخيرًا، أن كثيرًا من المعارضين، مع إقرارهم بانتصار عبد العزيز على الاخوان وقضائه عليهم، وبزوالهم عن مسرح الاحداث بصورة تامة مع التقدم والرفاهية التي نعمت بها المملكة طيلة العقود اللاحقة على هزيمتهم، إلا انهم يقولون إن جملة من المؤشرات والاحداث، بدءًا من الستينات، تدل على أن ثمة تأثيرًا لهم، أو لفكرهم، لا يزال قائمًا وبخاصة في بعض أوساط رجال الدين. وأهم تلك المؤشرات التي يستدلون بها حادث الحرم المكي الشريف الذي وقع في ٢٠ تشرين الثاني ١٩٧٩، والذي تناولته، في حينه، الصحافة العالمية على نطاق واسع واستُدل من خلالها ان المسؤول الأول عن ذاك الحادث هو جهيمان العتيبي (لاقى مصرعه إبان الحادث) الذي سبق له و«أثار الاشكالات حول الحكم السعودي من منطلق الدعوة السلفية» (راجع «الاخوان الجدد» تاليًا).

☐ **«الإخوان الجدد»**: في ٢٠ تشرين الثاني ١٩٧٩ اقتحمت جماعة من الاصوليين المسجد الحرام،

وشجبوا نظام الحكم السعودي، وأعلنوا ظهور المهدي. وكان الأمير فهد، ولي العهد، والأمير عبدالله قائد الحرس الوطني، كلاهما خارج البلاد في ذلك الحين. ولم تكن الحكومة السعودية آنذاك مستعدة لمواجهة هذا النمط من العصيان المسلح.

جهيمان العتيبي عرّفت به الصحافة في حينه (بما فيها جريدة «الجزيرة» السعودية) على انه منظّم «الاخوان الجدد»، وواضع تصورهم المبدئي، وعضو سابق في الحرس الوطني وطالب في الفلسفة الدينية في جامعة مكة الاسلامية.

أما المهدي المنادى به، محمد بن عبدالله القحطاني، فكان تلميذاً في الفلسفة الاسلامية للشيخ عبد العزيز الباز، رئيس المجلس الأعلى للإفتاء والبحث. وكان القحطاني، قد عمل، قبل انضمامه إلى حلقة الشيخ الباز، في الدراسات الدينية، في اوائل السبعينات، في مستشفى شميسي المركزي في الرياض، واتهم فيه بالسرقة، وسُجن لبعض الوقت. وبعد إطلاق سبيله تحوّل إلى رجل تقي متزمت، والتحق بالجامعة الاسلامية حيث التقى بجهيمان. وفي ١٩٧٩ اقترن بشقيقة جهيمان.

وأول إشارة لعدد المتمردين (عن جريدة «الجزيرة»-وبختلف وسائل الاعلام في حينه، العربية وخاصة «النهار» و«السفير» البيروتيتان، والعالمية خاصة الاميركية-في أعدادها ٢٢، ٢٤، و٢٨ تشرين الثاني ١٩٧٩) قدمها وزير الخارجية السعودي الأمير سعود الفيصل الذي ذكر ان «من المعلومات التي حصلنا عليها ان عدد الرجال داخل المسجد لا يتجاوز ٢٠٠ وهم من جنسيات مختلفة ومزودين بأسلحة خفيفة»؛ والشيخ محمد بن سبيل إمام المسجد حدّد العدد تقريبًا ما بين ٣٠٠ و٤٠٠؛ والضابط محمد النفيع المتحدث باسم وزارة الدفاع حدّد العدد ما بين ٣٠٠ و٥٠٠. وظلّ العدد الحقيقي للمتمردين مجهولاً.

وأعلن عن إعدام ٣٦ شخصًا من الذين ألقي القبض عليهم فور فشل التمرد، معظمهم من السعوديين من منطقة نجد، وهناك ١٠ مصريين و٦ من اليمن الجنوبي، وواحد من اليمن الشمالي و٣ من الكويت وواحد من السودان وآخر من العراق.

وأعاد عدد من المؤلفات التاريخية والسياسية ما ذكرته الصحافة في حينه عن الحادث، وعن خلفية المتمردين الدينية، وعما تلا الحادث من معالجات حكومية. ومما جاء فيها ان جهيمان «كتب سبعة كراريس تعالج مسائل فلسفية دينية، فقد لخّصت إثنين من مؤلفات ابن تيمية، وشجبت حكم آل سعود، ودانت علماء الدولة على تعاونهم مع آل سعود، والظاهرة البارزة في خطة المتمردين هي إعادة بناء المجتمع الاسلامي كما عرف في القرن السابع في الجزيرة العربية. وبتعبير آخر، ان يتم إحياء المجتمع على يد المهدي (...) أما اختيار المهدي، فالمتمردون يدعون ان محمدًا بن عبدالله القحطاني (أو القريشي) تمّ فيه شرط الاسم وتجلّت فيه المواصفات الجسدية التي عينها محمد النبي في وصفه للمهدي» (أيمن الياسيني، مرجع مذكور آنفًا، في مادة «الاخوان» أعلاه).

أثناء حادث التمرد في المسجد الحرام دعا الملك خالد المجلس الأعلى للإفتاء إلى الانعقاد برئاسة الشيخ عبد العزيز الباز، وطلب إصدار فتوى تدعم آل سعود، وتجيز التدخل العسكري في الحرم المقدس. فاستجاب العلماء وأوضحوا انه سيكون للمهدي ظهور، ولكن بعلامات واضحة، وفي وجه حاكم فاسد. وزادوا بأن الحكومة السعودية تطبق احكام الشريعة، وان الثورة على رئيسها خيانة (النص الكامل للفتوى نشرته مجلة «الشرق الاوسط»، ٢٦ تشرين الثاني ١٩٧٩، وقد وقّع هذه الفتوى ثلاثون من العلماء البارزين. ذكر ذلك أيمن الياسيني في كتابه المذكور، ص١٦٢).

وبالحصول على تأييد العلماء تمكنت السلطة السعودية من اقتلاع المتمردين في ٣ كانون الاول ١٩٧٩ (أي بعد اسبوعين من بدء الحادث) والقضاء في أثناء ذلك على المسمّى بالمهدي.

وأخذ العلماء (في خطب الجمعة) والصحافيون في البلاد يشدّدون على موضوعات تدور كلها حول «تقوى آل سعود» و«طابع الاعتدال في الاسلام». ودعت الحكومة الاغراب إلى الالتزام بتقاليد البلاد وبالقيم الاسلامية. ثم أقفلت متاجر «الفيديو» التي اتهمت بتأجير أو بيع الأشرطة المخالفة للقيم والاخلاق الاسلامية. ورصدت المزيد من الاعتمادات لانشاء المساجد ونشر الاسلام في البلاد وخارجها. وفي اذار ١٩٨٠، أمر الملك خالد بتشكيل لجنة برئاسة الامير نايف، وزير الداخلية، «لإنجاز مسودة النظام الأساسي ووضع مخطط لمجلس شورى»؛ وسمح للصحافة السعودية بمناقشة الموضوع.

☐ **اكتشاف البترول:** راجع باب «النبذة التاريخية».

☐ **التقويم الهجري:** تعتمد بداية هذا التقويم على يوم هجرة الرسول من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة. يوافق هذا التاريخ ١٦ تموز عام ٦٢٢م (التقويم الغريغوري الغربي الميلادي). والتقويم الهجري قمري، حيث الشهر فترة بين هلالين تستغرق دوريًا ٢٩ يومًا و١٢ ساعة و٤٤ دقيقة و٢،٨ ثانية. وطول السنة القمرية ٣٥٤ أو ٣٥٥ يومًا. السنة القمرية تستغرق فلكيًا ٣٥٤ يومًا و١١ يومًا كل ٣٠ سنة. فتعتبر بعض السنين القمرية كبيسة (٣٥٥ يومًا) لاستغراق فرق الاحد عشر يومًا كل ثلاثين سنة. والشهور القمرية الإثنا عشر في التقويم الهجري هي: مُحرّم، صفَر، ربيع الاول، ربيع الآخر، جُمادى الاولى، جُمادى الآخرة، رَجَب، شَعبان، رمضان، شوّال، ذو العقدة، ذو الحجة.

ولأن المملكة العربية السعودية تعتمد التقويم الهجري في معاملاتها ومصادرها ومراجعها، ولا يكون هناك ذكر، في أحيان كثيرة، للتواريخ الميلادية المقابلة للتواريخ الهجرية، فيشكل الأمر على الكثيرين، ارتأينا ان نثبت لائحة ببعض السنين المتقابلة في التقويمين الهجري والميلادي، وتبين التواريخ بجانب السنين الميلادية تواريخ بدء السنين الهجرية:

هـ (السنة الهجرية)	م (السنة الميلادية)
١	٦٢٢، ١٦ تموز
١٥٠	٧٦٧، ٦ شباط
٥٠٠	١١٠٦، ٢ ايلول
٦٠٠	١٢٠٣، ١٠ ايلول
١٠٠٠	١٥٩١، ١٩ ت١
١٣٠٥	١٨٨٧، ١٩ ايلول
١٣١٩	١٩٠١، ٢٠ نيسان
١٣٢٠	١٩٠٢، ١٠ نيسان
١٣٢١	١٩٠٣، ٣٠ آذار
١٣٢٢	١٩٠٤، ١٨ آذار
١٣٢٣	١٩٠٥، ٨ آذار
١٣٢٤	١٩٠٦، ٢٥ شباط
١٣٢٥	١٩٠٧، ١٤ شباط
١٣٢٦	١٩٠٨، ٤ شباط
١٣٢٧	١٩٠٩، ٢٣ ك٢
١٣٢٨	١٩١٠، ١٣ ك٢
١٣٢٩	١٩١١، ٢ ك٢
١٣٣٠	١٩١١، ٢٢ ك١
١٣٣١	١٩١٢، ١١ ك١
١٣٣٢	١٩١٣، ٣٠ت٢
١٣٣٣	١٩١٤، ١٩ ت٢
١٣٣٤	١٩١٥، ٩ت٢
١٣٣٥	١٩١٦، ٢٨ت١
١٣٣٦	١٩١٧، ١٧ ت١
١٣٣٧	١٩١٨، ٧ت١
١٣٣٨	١٩١٩، ٢٦ ايلول
١٣٣٩	١٩٢٠، ١٥ ايلول
١٣٤٠	١٩٢١، ٤ ايلول
١٣٤١	١٩٢٢، ٢٤ آب
١٣٤٢	١٩٢٣، ١٤ آب
١٣٤٣	١٩٢٤، ٢ آب
١٣٤٤	١٩٢٥، ٢٣ تموز
١٣٤٥	١٩٢٦، ١٢ تموز
١٣٤٦	١٩٢٧، ١ تموز
١٣٤٧	١٩٢٨، ٢٠ حزيران
١٣٤٨	١٩٢٩، ٩ حزيران
١٣٤٩	١٩٣٠، ٢٩ ايار
١٣٥٠	١٩٣١، ١٩ ايار
١٣٥١	١٩٣٢، ٧ ايار
١٣٥٦	١٩٣٧، ١٤ آذار
١٣٥٧	١٩٣٨، ٣ آذار
١٣٦٢	١٩٤٣، ٨ ك٢
١٣٧٣	١٩٥٣، ١٠ ايلول
١٣٨٤	١٩٦٤، ١٣ ايار
١٣٩٥	١٩٧٥، ١٤ ك٢
١٣٩٦	١٩٧٦، ٣ ك٢
١٣٩٩	١٩٧٨، ٢ ك١
١٤٠٠	١٩٧٩، ٢٢ ت٢
١٤٠١	١٩٨٠، ٩ ت٢
١٤٠٢	١٩٨١، ٣٠ ت١
١٤٠٣	١٩٨٢، ١٩ ت١
١٤٠٤	١٩٨٣، ٨ ت١
١٤٠٥	١٩٨٤، ٢٧ ايلول
١٤٠٦	١٩٨٥، ١٦ ايلول
١٤٠٧	١٩٨٦، ٦ ايلول
١٤٠٨	١٩٨٧، ٢٦ آب

١٤٠٩	١٩٨٨، ١٤ آب
١٤١٠	١٩٨٩، ٤ آب
١٤١١	١٩٩٠، ٢٤ تموز
١٤١٢	١٩٩١، ١٣ تموز
١٤١٣	١٩٩٢، ٢ تموز
١٤١٤	١٩٩٣، ٢١ حزيران
١٤١٥	١٩٩٤، ١٠ حزيران
١٤١٦	١٩٩٥، ٣١ ايار
١٤١٧	١٩٩٦، ١٩ ايار
١٤١٨	١٩٩٧، ٩ ايار
١٤١٩	١٩٩٨، ٢٨ نيسان
١٤٢٠	١٩٩٩، ١٧ نيسان
١٤٢١	٢٠٠٠، ٦ نيسان

□ **الجيش:** أصبح الجيش السعودي قوة يُهاب جانبها متضمنًا مختلف الأسلحة البرية والجوية والبحرية المزودة بالاعتدة المتطورة. وفوج الحرس الوطني هو جزء من وحدات القتال السعودية في الحالات التي تتطلب ذلك.

تقع كلية الملك عبد العزيز العسكرية على بعد حوالي ٤٠ كلم من الرياض، وهي المصدر الرئيسي لضباط الجيش من رتبة ملازم. وقد حلّت هذه الكلية محل الكلية الحربية الملكية، ومصممة لاستيعاب ١٥٠٠ طالب عسكري، وتؤلف مدينة صغيرة قائمة بذاتها وتضم وحدات سكنية للقادة وأفراد الهيئة التعليمية. وتُدرّس فيها موضوعات أكاديمية وعسكرية وتستغرق فترة الدراسة فيها ثلاث سنوات. وفي الرياض، كلية القيادة والاركان التي تمنح درجة الماجستير في العلوم العسكرية. وهي منسقة على مثال نظائرها في الولايات المتحدة الاميركية. ويُبعث الضباط المتفوقون للتخصص في العلوم العسكرية العليا في الولايات المتحدة وفرنسا وبريطانيا والمانيا وغيرها من الدول الصديقة.

وقد أدخل برنامج التوسع البحري السعودي تغييرات جذرية مثيرة في قدرات الاسطول الملكي السعودي وعدد سفنه الحربية وتعداد رجاله. وتلقّى آلاف من الافراد السعوديين البحريين تدريبهم في الخارج بخاصة في الولايات المتحدة الاميركية وبريطانيا وفرنسا. ويتضمن برنامج التوسع البحري السعودي إنشاء ميناء عميق في جدة على البحر الأحمر وآخر في الجبيل على الخليج العربي إلى جانب إنشاء قاعدتين بحريتين رئيسيتين في كلتا المدينتين. وتوجد قواعد بحرية أصغر كذلك في رأس تنورة ورأس المشعب وينبُع والدّمام.

أما سلاح الجو الملكي السعودي فقد تأسس في ١٩٥٠ بأمر من الملك عبد العزيز. وكانت العمليات الجوية قبل ذاك منوطة بالجيش. وكان البريطانيون في البداية هم مصدر العون من حيث توفير الطائرات والتدريب. لكن بعد تداعي النفوذ البريطاني في المنطقة وتزايد المصالح الاميركية، تحول سلاح الجو الملكي السعودي إلى استخدام الطائرات وأطقم التدريب الاميركية. وقد قامت كلية الملك فيصل الجوية في الرياض بمهمة تدريب افراد سلاح الجو العربي السعودي. ويتم نقل هذه الكلية إلى موقع جديد في القاعدة الجوية الضخمة التي يجري بناؤها في الخرج.

وفي قاعدة الطائف يتم تدريب طياري الطائرات العمودية. وتقع القواعد الجوية الرئيسية في الظهران والرياض وحفر الباطن (على مقربة من الحدود الكويتية والعراقية). وهناك قواعد أخرى في تبوك قريبًا من الحدود الاردنية والاسرائيلية، وفي خميس مُشيط. ومن مرافق سلاح الجو مدينة الملك خالد العسكرية وهي تتسع لحوالي ٧٠ ألفًا من الافراد العسكريين وعائلاتهم، وتقوم طائرات الاستطلاع (أواكس) باعطاء الانذار المبكر وتوفّر مظلة أمان وحماية موثوقة.

وقد وُضعت الأسس لتطوير صناعة الأسلحة السعودية محليًا. وقد بدأت بالفعل صناعة أسلحة دفاعية صغيرة في موقع الخرج تنتج بنادق ورشاشات اميركية والمانية غربية بترخيص من الشركات صاحبة براءة الاختراع. وسيتم المزيد من هذا الانتاج بالتراخيص الممنوحة من الصانعين إلى جانب مصانع لتجميع المركبات الحربية والطائرات. وقد شكلت هيئة عامة للصناعة الحربية وهي تعتبر بذرة أولية لصناعة الأسلحة في المملكة محليًا أو بالتضافر مع مجلس التعاون الخليجي (عن د.ناصر ابراهيم الرشيد ود.إسير ابراهيم شاهين، «الملك فهد ومسيرة الانجازات الحضارية في المملكة العربية السعودية»، المعهد الدولي للتكنولوجيا، الولايات المتحدة الاميركية، النسخة المعرّبة، ص٣٣٥-٣٤٠، بدون تاريخ). والجدير ذكره ان الجيش السعودي اشترك بفعالية في حرب الخليج الثانية وكان الامير خالد بن سلطان بن عبد العزيز القائد العام فيها، ووضع كتابه «مقاتل من الصحراء» الذي أظهر فيه دور الجيش السعودي في الحرب والتجربة الغنية التي خرج بها منها على طريق المستقبل.

عبد الله فيلبي مع ابنائه، البكر كيم، وخالد وفريد.

□ **الحاج عبدا لله فيلبي، أشهر مؤرخي المملكة العربية السعودية:** مـن الملاحـظ، والمعروف، ان أكثر ما كتب عن الملك عبد العزيز، مؤسس وباني المملكة العربية السعودية، إلى الآن، كان باقلام غير سعودية، ومَن كتب من السعوديين فيما بعد اعتمد على ما نقلوه مـن زملائهم غير السعوديين.

السبب في ذلك، برأي المؤرخ السعودي محمد آل زلفة (وعضو مجلس الشورى السعودي واستاذ جامعي متخصص في أدب وتاريخ الجزيرة العربيـة)، إلى ان مَـن وظّفهم الملك عبد العزيز في خدمته مـن غير السعوديين كانوا في معظمهم على درجة كبيرة مـن العلم والمعرفة قياسًا، بطبيعة الحال، بنظرائهم مـن السعوديين حينذاك. ولقد مكّنتهم مكانتهم الوظيفية اللصيقة بالملك عبد العزيز من معرفة كثير من تطورات الاحداث ووقوفهم عليها أو بالقرب منها بحكم أعمالهم، فبرز منهم الذي تولى، إلى جانب عمله السياسي، رئاسة تحرير جريدة «أم القرى» الذي أسسها الملك عبد العزيز منذ الشهور الاولى لدخوله الحجاز. فكانت الجريدة الرسمية التي سجلت معظم الوقائع والاحداث، وتعد من أهم مصادر تاريخ المملكة طوال فترة حياة الملك عبد العزيز.

ويعدد محمد آل زلفة ثلاثة مؤرخين عرب غير سعوديين، هم: حافظ وهبه (من مصر)، وقد تولى مناصب سياسية مهمة في حكومة الملك عبد العزيز وكتب عن فترة عمله في خدمة الملك والتي امتدت لحوالي خمسين عامًا. وتعد كتبه من المصادر المهمة لتاريخ فترة حكم الملك عبد العزيز. ثم يأتي بعده فؤاد حمزة (من لبنان) الذي عمل في خدمة الملك عبد العزيز لسنوات طويلة وكتب عن تلك الفترة وعن القبائل وعن تطور الادارة في عهد عبد العزيز ما جعل كتبه من المصادر المهمة (وكذلك أمين الريحاني في كتبه الشهيرة). ثم يأتي مَن فاقهم في كتابة تاريخ الملك عبد العزيز وهو السياسي والمؤرخ والشاعر خير الدين زركلي (من سورية) الذي عاش معظم حياته إلى حين وفاته في هذه البلاد وفي خدمة الملك عبد العزيز فأرّخ لفترة حكمه سفرًا من أجزاء عدة ما زال من أهم مصادر تاريخ المملكة. أما ابرز من كتب عن تاريخ المملكة في عهد الملك عبد العزيز من الأجانب الاوروبيين فهو «الشيخ عبدا لله فيلبي Philby السياسي والمستشرق الانكليزي الذي عشق هذه البلاد وأهلها وأخلص في حبه لملكها ما جعله يناصب بلاده العداء، فكتب ما لم يكتبه غيره عمقًا وغزارة وشمولية، وخلّف بعد وفاته مكتبة كاملة من المؤلفات كلها عن المملكة وتاريخها وجغرافيتها وناسها وملكها» (عن مقابلة مع محمد آل زلفة أجرتها هناء قطب من الرياض، «الحياة»، العدد ١٢٦٦٠، تاريخ ٢٨ تشرين الاول ١٩٩٧، ص٢١). والاسم الأصلي للحاج عبدا لله هو سان جون فيلبي.

جاء بقلم الكاتب والمؤرخ السعودي محمد جاسر عن «الحاج عبدا لله فيلبي، سيرة الانكليزي الذي عرف السعودية وأقام فيها وكتب عنها» («الحياة»، العدد ١٢٣٥٦، ٢٤ كانون الاول ١٩٩٦، ص١٦) ما موجزه:

ولد فيلبي في جزيرة سيلان (سري لانكا) عام ١٨٨٥، وانضم إلى كلية اللغات الشرقية في جامعة أوكسفورد وهو في الثالثة والعشرين مـن عمره، ثم عمل موظفًا في حكومة الهند في السنة التي تليها، ومكث نحو سبع سنين، وعمل في العراق بعد ذلك سنة فرأس البعثة البريطانية في الجزيرة العربية فترة، عاد بعدها مستشارًا في وزارة الداخلية في العراق، فرئيسًا للبعثة البريطانية في الاردن حيث مكث أربع سنوات، وتقلب في وظائف عدة، ولم يكن أثناء قيامه بأعماله السابقة منقطع الصلة عن أحوال هذه البلاد (المملكة العربية السعودية) الذي اتخذها في ما بعد مستقرًا له. فبصرف النظر عما لتلك الاقطار التي عمل فيها مـن الصلات التجارية وغيرها، فالرجل كان طلعة عرف الكثير عن احوال البلاد مما قرأ من كتابات

المستشرقين الذين زاروها، ومن خلال الصلات القوية بينها وبين العراق والاردن إبان عمله فيها. وهناك من أبناء جلدته من الانكليز مَن كان ذا صلة قوية بهذه البلاد مثل الكابتن وليم هنري أرفن شكسبير وغيره.

كان قدوم فيلبي إلى البلاد يوم ١٧ تشرين الاول ١٩١٥ عن طريق البصرة إلى البحرين، ومنها إلى ميناء العقير (كان من أشهر موانىء المنطقة قديمًا)، حيث سار إلى الإحساء، ومنها اتجه إلى الرياض حيث اجتمع بالملك عبد العزيز، وقد فصّل ذلك في كتابه «أيام بلاد العرب» Arabian Days الذي قام بتلخيصه خيري حماد في كتاب دعاه «عبدالله فيلبي قطعة من تاريخ العرب الحديث»، نشر في بيروت سنة ١٩٦١، وخيري حماد أديب فلسطيني عمل في سفارة المملكة العربية السعودية فترة من الزمن ويشرف على نشرة كانت تصدرها في بيروت.

هيّأ الملك عبد العزيز لفيلبي مختلف الوسائل لكي يتجول في مناطق المملكة ويرتاد مجاهلها. فقام برحلات متعددة إلى جهات من غير السهل الوصول إليها لمن لا تُهيأ له الوسائل التامة. وكانت حصيلة تلك الرحلات مؤلفاته التي شحنها بالمعلومات المتعلقة بوصف جميع ما شاهده من احوال السكان المختلفة، ومن وصف البلاد جغرافيًا وجيولوجيًا، ومن تسجيل ما رآه من آثار ومن مظاهر طبيعة تلك البلاد بصفة عامة، وما عرفه من احوال السكان في مختلف جوانب حياتهم (كان يصف ما يكابده من مخاطر وتعب: «الزحف والتسلق الشاق المنهك بين الصخور...»).

كان من أثر ما عرفه الملك عبد العزيز من إخلاص فيلبي ونصحه له في شؤونه المتعلقة بصلاته بالحكومة الانكليزية، ما حمله إلى ان يهيء له جميع وسائل الاستقرار في البلاد. فأدرك فيلبي من تلك الرعاية ما زاده تعلقًا ورغبة في البقاء. وأعلن بعد ذلك إسلامه الذي قوبل بارتياح ورضى (وأصبح يُعرف باسم الحاج عبدالله فيلبي)، مع وجود من يُبدي شكًا حيال هذا الأمر لعدم ظهور فيلبي بأداء الواجبات الدينية والمحافظة عليها في ما يبدو لبعض من لهم صلة به. وتزوج سيدة مسلمة من اهل البلاد واستقر في مدينة الرياض في بيت منحه إياه الملك عبد العزيز في الحي الذي كان يُعرف قديمًا باسم «حلة الأجناب». وله من هذه السيدة المسلمة أبناء لا يزالون أحياء. وله من زوجته الأولى ابن كبير يدعى كيم فيلبي Kim Philby؛ ويقول محمد الجاسر بشأن كيم: «أذكر انه زار الرياض سنة ١٣٧٥هـ (اواسط الخمسينات)، فاتصل بي احد موظفي الشعبة السياسية، وكنت إذ ذاك أصدر صحيفة اليمامة، وأخبرني بأن ابن فيلبي سيزور الصحيفة ومعه أحد موظفي الديوان الملكي، فأتى ومعه الاستاذ عبد العزيز بن ابراهيم بن معمر أحد مستشاري الملك سعود، ووجه إليّ اسئلة تتعلق بالعمل الصحافي أجبت عليها، ومنها ما يتعلق بحرية الصحافة. فأخبرته بالحقيقة وبالواقع الذي كانت تتمتع به الصحيفة، فنشر مقالاً في مجلة الإيكونوميست The Economista يثني على الصحافة في بلادنا، وانها على خير حال تحظى بها في العالم العربي، وذكر بعض عناوين لمقالات نشرتها اليمامة ومنها «إحذروا وعي الجماهير» و«أغلقها وأرحنا». وعلمت في ما بعد انه امتهن أسوأ مهنة، وذهب إلى الاتحاد السوفياتي ومات هناك قبل بضع سنوات» (كيم فيلبي هو البريطاني الجاسوس السوفياتي الذي تناولته الصحافة العالمية، ولا تزال، على نطاق واسع فور انكشاف أمره، فدبّرت المخابرات السوفياتية عملية فراره إلى الاتحاد السوفياتي من بيروت في ٢٣ كانون الثاني ١٩٦٣).

وعن السنوات الأخيرة في حياة الحاج عبدالله فيلبي يذكر المؤرخ محمد الجاسر (في المرجع المذكور أعلاه) ان كتابًا لفيلبي صدر في بيروت عن دار العلم للملايين وفيه ذكر للملك سعود بن عبد العزيز ووصف له «وصفًا كان محلاً لمؤاخذة فيلبي وعدم السماح له بالعودة إلى البلاد، فاقام في بيروت فترة من الزمن، وكان ذلك إثر مقال نشر في مجلة «الشؤون الخارجية» الامريكية Foreign Affairs التي تصدر في واشنطن في ربيع ١٩٥٤، يحوي نحو ما ورد في مقدمة الكتاب، فأبرق بخلاصته السفير أسعد الفقيه للملك سعود، فحدث لفيلبي ما حدث حتى عفي عنه».

ويتحدث الجاسر عن مقابلته فيلبي في بيت هذا الأخير في الرياض (وكانت المقابلة الأخيرة) فيقول: «... فنزل إلى الدور الأرضي، وفتح لنا غرفة مستطيلة مملوءة بالاضبارات المرتبة بارقام متسلسلة، لا أبالغ إذا قلت إن الغرفة بجميع جوانبها مملوءة بها وقال: منذ بدأت حياتي السياسية إلى يومك هذا وأنا أسجل جميع ما يمر بي في هذه الاضبارات التي تحوي أشياء كثيرة، تقارير ومكاتبات سياسية، ودراسات أثرية وجغرافية، ورحلات، إلى غير ذلك مما عرض لي في جميع الأيام التي مرت بي» (هنا، يقول الجاسر في الحاشية: «قد يتطلع أحد القراء لمعرفة مآل هذه الاضبارات: عند وفاة فيلبي كان بينه وبين بعض

مستشاري الملك سعود نفرة. فأظهر هؤلاء للملك انه قد يكون في هذه الاضبارات مما يتعلق بالملك ما لا يحسن، فنقلت من بيت فيلبي حيث ركمت في دهليز واسع يوصل إلى مقر الشعبة السياسية. وهذا آخر العهد بها، مع انه بلغني بأنه قد أوصى بها وبجميع أوراقه لجامعة لوفانو البلجيكية»).

وينهي الجاسر كلامه بأن فيلبي أخبره بأنه مدعو لحضور مؤتمر المستشرقين في اسطنبول، و«ذهب لحضور المؤتمر وبعد عودته توفي في بيروت في تشرين الاول ١٩٦٠».

□ الحج: الحج في اصطلاح الفقهاء مقصور استعماله في الشرع على قصد الكعبة للحج أو العمرة، ومنه يقال: ما حجّ ولكنه دجّ. فالحج القصد للنسك، والدج القصد للتجارة.

بنى ابراهيم واسماعيل البيت الحرام (راجع «مكة المكرمة» في باب مدن ومعالم)، وتوافد العرب إلى منطقة البيت الحرام وبئر زمزم، ونشأت مكة المكرمة في ذلك المكان القاحل الذي نشأ فيه اسماعيل، وتزوج من قبيلة جرهم اليمنية، وتكاثر أبناؤه، واشتهرت في مكة قبيلة قريش العدنانية، وارتفع شأنها بعد ظهور قصي بن كلاب في منتصف القرن الخامس الميلادي فجمع شتات قريش، ووحّد كلمتهم.

ولما ولد النبي كانت السقاية والرفادة من نصيب جده عبد المطلب. وكانت الكعبة مقرًا لأصنام القبائل المتعددة. واستمر ذلك الوضع الوثني حتى جاء العام الثامن للهجرة، ففتحت مكة وسار النبي إلى الكعبة فكسر ما حولها من الأصنام، وأسلم أهل مكة جميعهم.

«ورد ذكر الحج في القرآن الكريم تسع مرات... وورد كذلك في الحديث النبوي الشريف، وبينت السنة النبوية كيفية أداء فريضة الحج ومناسكه التي بدأها النبي ابراهيم الخليل-عليه السلام-وهذا أمر واضح في الحديث النبوي، فقد روى الإمام أحمد بن حنبل في مسنده، والحاكم في مستدركه، واصحاب السنن في سننهم...» (عن محمود السيد الدغيم، باحث سوري، «الحياة»، العدد ١١٠٦٥، ٣٠ ايار ١٩٩٣).

حفلت الكتب التاريخية الاسلامية بوصف مستفيض للحج، لعل أشهر ما ذكر في هذا الصدد جاء على لسان الرحالة ابن جبير عند وصفه لشهر رمضان في مكة المكرمة تحت عنوان «رمضان المعظم» (راجع التحقيق الذي كتبه د.الياس قطار، استاذ التاريخ في الجامعة اللبنانية، «الحياة»، ١٢ و١٣ آذار ١٩٩٣).

أما الرحالة الأجانب الذين تكلموا على الحج فكان السير ريتشارد فرنسيس بيرتون (ولد في جنوبي انكلترا ١٨٢١ وتوفي في مدينة تريستا الايطالية ١٨٩٠) الذي استطاع ان يضمن كتابه («الحج إلى المدينة ومكة») تفاصيل دقيقة وشاملة عن الحياة في الحجاز في منتصف القرن التاسع عشر. وكان بيرتون من أول الرحالة الاوروبيين الذين استطاعوا تقديم وصف عميق لشعائر الحج ذاتها.

ويطلق على طريق الحج القديم إسم «درب زبيدة». وزبيدة أم جعفر بنت جعفر زوجة الرشيد. وفيه محطات للقوافل من الكوفة إلى مكة تظهر فيها بقايا مبان مثل خانات ومنائر وآبار وبرك. وأهم هذه المحطات: الكوفة، خان الرحبة، بركة زبيدة، محطة الحمام، أم القرون، بير النص، بركة العمية، موقع الظفير، وغيرها... ولعل أهمها تلك الواقعة بين الكوفة والحدود العراقية-السعودية وذلك لغناها بالمباني الأثرية التي تتميز بفنونها المعمارية وزخارفها الهندسية.

أما عن معاني الحج فيمكن استقاؤها من الكتاب الدعائي الفخم الذي أصدرته وزارة الاعلام السعودي (دار الجنوب للنشر، ١٩٧٨) بعنوان «الحج إلى بيت الله الحرام»، وجاء فيه:

-«وفي أداء هذا الركن شكر لله على نعمة المال وسلامة الجسم. وهما من أعظم نعم الدنيا. وفي الحج إجهاد للجسم وإنفاق للمال في طاعة الله، وفيه تربية للنفس على الصبر والنظام واحترام المواقيت، وعلى العمل الجماعي رغم مشاق الزحام في أداء المناسك (...) ولعل في مقدمة هذه المنافع اجتماع المسلمين من كل أقطار الدنيا في وقت واحد في مكان واحد وفيهم أهل الحل والعقد من البلاد الاسلامية ليتعارفوا ويغتنموا هذه المناسبة المباركة للتحاور في شؤون المسلمين، والداعي إلى هذا المؤتمر العظيم إنما هو الله...».

-«فإن الحج رحلة يقوم بها الجسم والروح معًا في جو من الروحانية الخالصة، والتجرد التام من الزينة والرياء، ومن كل أعراض الدنيا، وتطهير للجسد والروح».

وتشهد مواسم الحج في كل سنة ازدحامًا هائلاً من الحجاج، وتدأب المملكة على توفير مختلف أساليب وقايتهم وراحتهم باعتماد أحدث الأنظمة والوسائل العلمية، خاصة في المجال الصحي. فتوضع في كل عام خطة

رسم من القرن التاسع عشر يمثل جمعا من الحجيج يعبرون قنال السويس في طريقهم الى البقاع المقدسة.

صورة للمحمل المصري في بداية القرن العشرين.

قافلة الحجيج في طريقها الى مكة المكرمة. لوحة زيتية بريشة الفنان الفرنسي ليون بيلي، منتصف القرن ١٩. متحف اللوفر، باريس.

رسم يمثل المحمل في طريقه الى مكة.

رسم من القرن التاسع عشر يمثل هودجا في طريقه الى مكة وهو مأخوذ من كتاب «الحج» لـ.ر.ف. بورتون. لندن.

فريق من الطرازين يقضي طيلة العام في طرز آي القرآن الكريم التي ستحلى بها كسوة البيت.

جمع غفير من المتطوعين يحملون كسوة الكعبة التي سوف تكسوها لمدة عام.

رسم يرجع الى القرن الثامن عشر وهو يمثل منظرا عاما لمكة المكرمة. ١٧٩٠.
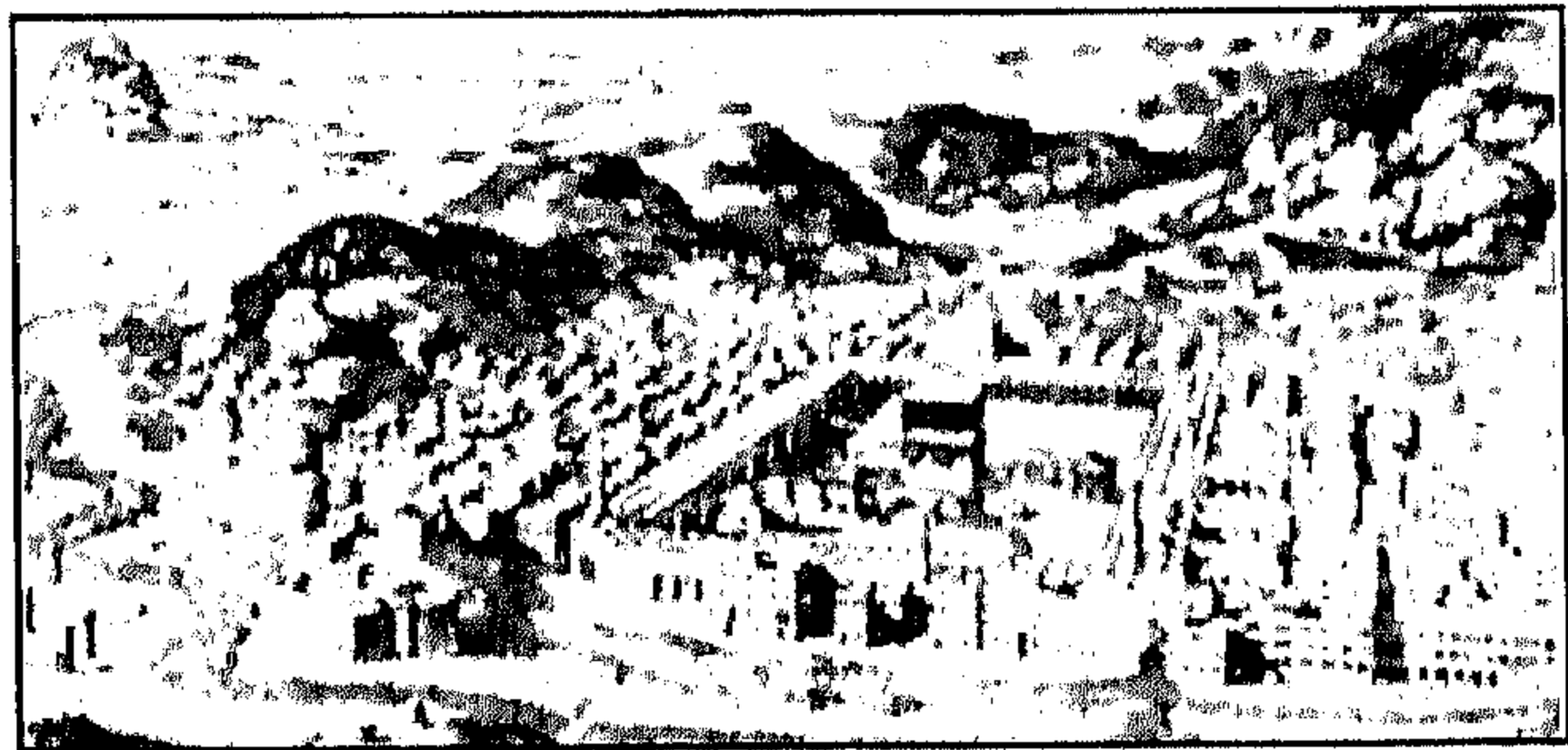
تطويرية لفك الاختناقات والزحام وتحقيق أنسيابية حركة الحجاج وتنقلهم من لحظة وصولهم حتى تفرقهم.

□ **الحملة المصرية على عسير:** في الثلث الاول من القرن التاسع عشر، جهّز محمد علي باشا والي مصر، سلسلة من الحملات العسكرية على أنحاء مختلفة من شبه الجزيرة العربية لصالح الدولة العثمانية التي كانت تسعى إلى إحكام سيطرتها على المناطق الاسلامية المقدسة في الحجاز وكذلك القضاء على الدولة السعودية الصاعدة في نجد. ووصلت جيوشه إلى مناطق لم يكن وصلها من قبل أي جيش أجنبي.

ولم يكن محمد علي يهدف إلى إرضاء الباب العالي في اسطنبول فقط، بل اراد ان يبني قواته الذاتية استعدادًا لمشاريعه الاستقلالية اعتمادًا على التقنيات الاوروبية الحديثة التي عرفتها مصر في أعقاب حملة نابوليون عليها في بداية القرن التاسع عشر. وكثيرًا ما كانت حملات محمد علي، خصوصًا على شبه الجزيرة العربية، تضم في صفوفها مجموعة من الخبراء الاجانب (من الفرنسيين إجمالاً) الذين كانوا يعملون بصفة مستشارين عسكريين أو طبيين أو حتى سياسيين. وكان هؤلاء يرفعون تقارير عن أوضاع مصر وجيشها وعن أوضاع المناطق التي يحتلونها أو يهاجمونها إلى حكومات بلادهم. لكن قلة منهم هي التي وضعت الكتب الخاصة عن تلك الحملات. وموريس تاميزيه الفرنسي واحد من هذه القلة، إذ إنه وضع كتابًا تفصيليًا عن الحملة المصرية على عسير في ١٨٣٤ التي رافقها بوصفه كاتبًا للبعثة الطبية. وطبع الكتاب للمرة الاولى في باريس ١٨٤٠، وأعيدت طباعته في فيينا ١٩٧٦، وترجمه إلى العربية د.محمد بن عبدالله آل زلفة وأصدره في الرياض ١٩٩٣.

أهمية الكتاب، على حد تعبير الدكتور آل زلفة «أنه اشتمل على سجل متكامل لوقائع واحدة من أكبر حملات محمد علي باشا على منطقة عسير (١٨٣٤) منذ بدايتها إلى نهايتها والتي تمت بتوقيع إعلان هزيمة قائدي الحملة أحمد باشا والشريف محمد بن عون وتوقيع وثيقة اعترافهما باستقلال عسير وذلك في ٢٦ ايلول ١٨٣٤ في مدينة أبها (...) ويتضمن الكتاب معلومات واسعة عن طبيعة البلاد والسكان والقرى والقبائل. إضافة إلى تفاصيل حساسة عن الظروف السياسية والاقتصادية والعسكرية التي احاطت بالحملة منذ بداية انطلاقها من الطائف...» (عن مراجعة سليم سعد للكتاب المذكور، «الحياة»، ٢٥ كانون الثاني ١٩٩٤) (راجع «النبذة التاريخية»).

□ **«خادم الحرمين الشريفين»:** راجع «فهد بن عبد العزيز، الملك في باب «زعماء، رجال دولة وسياسة».

□ **الصحافة في المملكة العربية السعودية:**
كانت الصحافة السعودية في العهد العثماني في معظمها ذات صبغة حكومية أو شبه حكومية، وكان الحجاز (في مكة والمدينة وجدة) مهدها في السنوات الأخيرة من العهد العثماني (١٩٠٨-١٩١٧) وفي العهد الهاشمي (١٩١٦-١٩٢٤)، ولم تأخذ طريقها إلى خارج الحجاز إلا مع بداية العهد السعودي أي منذ ١٩٢٤. وفي ما يلي لائحة بأهم الصحف السعودية التي صدرت منذ نشأة الصحافة في البلاد حتى السنوات الأخيرة:

١- في العهد العثماني (١٩٠٨-١٩١٦):

- جريدة «الحجاز»: أول جريدة في البلاد، صدرت في مكة المكرمة في ٣ تشرين الثاني ١٩٠٨ باللغتين العربية والتركية. أشرف على تحريرها رئيس ديوان ولاية الحجاز لخدمة أغراض جمعية الاتحاد والترقي، واستمرت في الصدور أكثر من سبع سنوات.

- «شمس الحقيقة»: صدرت في مكة المكرمة في شباط ١٩٠٩، وهي جريدة «وطنية يومية سياسية علمية انتقادية فكاهية»، وكانت تنطق بلسان الحزب الحاكم التركي، جمعية الاتحاد والترقي، لصاحبها محمد توفيق مكي.

- «الاصلاح الحجازي»: صدرت في مدينة جدة في ايار ١٩٠٩، لصاحبها راغب مصطفى توكل، ومحررها أديب داود هراري (لبناني)، هاجمت جمعية الاتحاد والترقي.

- «صفاء الحجاز»: صدرت في آب ١٩٠٩، ويقال إن صاحبها أحمد رأفت اسكندراني، كما يقال إنه صدر منها عددان فقط باللغة العربية.

- «المدينة المنورة»: صدرت في تشرين الثاني ١٩٠٩، لصاحبها الشيخ مأمون الارزنجاني، وباللغتين العربية والتركية.

- «الرقيب»: صدرت في كانون الثاني ١٩٠٩ في المدينة المنورة، لصاحبيها ابراهيم خطاب وأبو بكر داغستاني.

- «جريدة الحجاز»: صدرت في آخر العهد العثماني (١٩١٦) في المدينة المنورة، وكان مديرها المسؤول حمزة غوث، وتنطق باسم الحكومة العثمانية التي كانت تنفق عليها بسخاء.

قلما كان لهذه الصحف قيمة أدبية تذكر أو تأثير سياسي واجتماعي واضح. وفي ما عدا الجريدتين الأولين اللتين كانتا تطبعان على مطبعة الولاية التركية (ولاية الحجاز)، فإن الجرائد الباقية كانت تطبع على الجلاتين.

٢- في العهد الهاشمي في الحجاز (١٩١٦-١٩٢٤): صدرت أربع صحف هي:

- «القبلة»: أصدرتها الحكومة الهاشمية في ١٥ آب ١٩١٦، وأشير فيها إلى انها جريدة دينية سياسية اجتماعية تصدر لخدمة الاسلام والعرب. من محرّريها فؤاد الخطيب، أحمد شاكر الكرمي وخير الدين زركلي. صدرت ثماني سنوات دون انقطاع. وكان الشريف حسين يهتم مباشرة بما يُكتب فيها، وتعتبر سجلاً تاريخيًّا للحياة السياسية والادبية، وللاحداث التي مرت بها البلاد في تلك الحقبة من الزمن.

- «مجلة مدرسة حرول الزراعية بمكة المكرمة»: صدرت في ١٩٢٠، وكانت أول مجلة علمية صدرت في الحجاز، وكان مديرها المسؤول هاشم المعري، ويحررها طلاب المدرسة الزراعية، وتصدر في ٣٢ صفحة.

- «الفلاح»: جريدة اسبوعية صدرت بمكة المكرمة تحت شعار «جريدة عربية جامعة تخدم العرب والعروبة» في ايلول ١٩٢٠. صاحب امتيازها ورئيس تحريرها عمر شاكر الذي كان قد أصدرها بدمشق في تشرين الاول ١٩١٩. إلا ان سلطات الانتداب الفرنسية طاردته وحكمت عليه بالاعدام مع مَن حكمت عليهم من العرب في ١٩٢٠، فجاء إلى مكة المكرمة حيث أصدر جريدته.

- «بريد الحجاز»: صدرت في تشرين الثاني ١٩٢٤، لصاحبها ورئيس تحريرها محمد صالح نصيف. اهتمت بالاخبار الخارجية من عربية وعالمية، واستمرت في الصدور طيلة عام تقريبًا.

٣- في العهد السعودي (١٩٢٤-): عرف هذا العهد، حتى الآن، أربع مراحل صحافية:

أ- مرحلة الجريدة الوحيدة (١٩٢٤-١٩٣٢): وهذه الجريدة هي «أم القرى» التي صدرت في كانون الاول ١٩٢٤. وقد عنت بالأدب والسياسة، وتطورت بحيث اصبحت جريدة رسمية. ومن أولى المراسيم الملكية التي نشرها فيها الملك عبد العزيز كان مرسوم امتياز التنقيب عن النفط الذي أعطي في بادىء الأمر لشركة بريطانية (راجع «اكتشاف البترول...» في النبذة التاريخية).

ب- مرحلة صحافة الأفراد (١٩٣٢-١٩٥٩): حيث كانت الحكومة السعودية تمنح امتياز إصدار الجريدة أو المجلة إلى الأفراد. وأهم صحف هذه المرحلة:

- «صوت الحجاز»: هي امتداد لجريدة «بريد الحجاز» بعد توقفها بسبع سنوات. صدرت في نيسان ١٩٣٢، وتوقفت خلال الحرب العالمية الثانية، واستأنفت صدورها في آذار ١٩٤٦ باسم «البلاد السعودية»، وتحت شعار «صحيفة الشعب العربي السعودي»، وتولى رئاسة تحريرها في فترتها الثانية عبدا لله عريف. ومع بدء المرحلة الثالثة، مرحلة الاندماج في ٢٦ كانون الثاني ١٩٥٩، أطلق علىالجريدة إسم «البلاد» وتولى رئاسة تحريها فؤاد شاكر وحسن عبد الحي قزاز.

- «المدينة المنورة»: صدرت في نيسان ١٩٣٧، وكانت أدبية إخبارية سياسية اجتماعية شعبية، وكانت أول جريدة تدخل الصورة على صفحاتها (صورة الملك عبد العزيز). صاحباها علي وعثمان حافظ، ورئيس تحريرها أمين مدني، وبعده هشام علي حافظ، وتوقفت عن الصدور ثلاث مرات.

- «البلاد السعودية»: راجع أعلاه «صوت الحجاز».

- «البلاد»: راجع أعلاه «صوت الحجاز».-

«اليمامة»: أصدرها حمد الجاسر (المؤرخ السعودي المعروف) في الرياض في آب ١٩٥٣، فكانت أول جريدة تصدر في نجد، وأول صحيفة تهتم بشؤون البادية.

- «أخبار الظهران»: صدرت في كانون الثاني ١٩٥٤ في مدينة الدمام في المنطقة الشرقية، وكانت أول جريدة تصدر هناك.

- «الفجر الجديد»: صاحبها الشيخ أحمد يعقوب.

- «حراء»: صدرت في مكة المكرمة، صاحبها محمد صالح جمال. ظهر عددها الاول في كانون الاول ١٩٥٦. وبعد ثمانية شهور من صدورها اندمجت مع جريدة «الندوة».

- «الأضواء»: أول جريدة صدرت في جدة في العهد السعودي. وهي ثقافية أدبية اجتماعية يومية. استمرت في الصدور سنة وستة شهور، وكان آخر عدد لها في ٦ كانون الثاني ١٩٥٩.

- «عرفات»: اسبوعية شعبية تصدر في جدة. أصدرها حسن عبد الحي قزاز، ومن محرريها أحمد تركي يماني (الذي التزم بكتابة المواضيع القانونية والقضايا الاجتماعية)، وصدر عددها الاول في تشرين الثاني

١٩٥٧.

– «الندوة»: جريدة شعبية صدرت في مكة المكرمة في شباط ١٩٥٨. صاحبها أحمد سباعي.

– «الخليج العربي»: أصدرها عبدالله أحمد في شباط ١٩٥٧ في مدينة الخبر (المنطقة الشرقية).

– «القصيم»: أول جريدة صدرت في منطقة القصيم. أصدرها عبدالله العلي في مدينة بريدة أول كانون الاول ١٩٥٩.

– «عكاظ»: أصدرها أحمد عبد الغفور عطار في مدينة الطائف ١٩٥٩.

– وأهم المجلات المتخصصة والنشرات التي صدرت في هذه المرحلة عن المصالح والاندية والاشخاص والجامعات... «الاصلاح»، «الحرم»، «المنهل»، «النداء الاسلامي»، «مجلة الحج»، «مجلة الغرفة التجارية والصناعية»، «قافلة الزيت» عن شركة أرامكو (١٩٥٣)، وغيرها...

ج– مرحلة إدماج الصحف (١٩٥٩–١٩٦٤):

حيث رأت الحكومة السعودية ان المملكة مقبلة على تضخم صحفي كبير، إذ بلغ عدد الصحف التي كانت تصدر في ذلك الحين نحو أربعين صحيفة قوية تتضافر في إصدارها جهود القائمين بالاعمال الصحفية. وفي هذه المرحلة صدر، إضافة إلى الجرائد والمجلات المدمجة، عدد من المجلات المختصة، أشهرها: «قريش»، أدبية اسبوعية جامعة، ١٩٥٩؛ و«الجزيرة»، أدبية علمية فنية، ١٩٦٠؛ و«الرائد»، أدبية اسبوعية، ١٩٥٩؛ و«المعرفة»، تربوية ثقافية أصدرتها وزارة المعارف، ١٩٦١؛ و«راية الاسلام»، دينية اجتماعية، ١٩٥٩؛ و«حماة الاسلام»، تعنى بأخبار الشرطة وواجبها في المحافظة على الأمن، ١٩٦٠؛ و«مجلة كلية الملك عبد العزيز»، عسكرية تاريخية، ١٩٦٠؛ و«أخبار البترول والمعادن»، شهرية أصدرتها وزارة البترول والثروة، ١٩٦١؛ و«الندوة»، شهرية أدبية اجتماعية، ١٩٦١؛ و«مجلة الجيش العربي السعودي»، ١٩٦٢؛

العددان الاول والثالث من «أم القرى».

و«رابطة العالم الاسلامي»، شهرية دينية، ١٩٦٢.

د- مرحلة المؤسسات الصحفية الأهلية (١٩٦٤-): حيث تمنح هذه المؤسسات امتياز إصدار الصحف على الا يقل رأسمال المؤسسة عن مائة ألف ريال ولا يقل عدد أعضاء المؤسسة عن ١٥ عضوًا. وبدأت هذه المرحلة بناء على مرسوم ملكي رقم ٦٢ عام ١٩٦٤ الذي وضع نظامًا يقضي بتكون المؤسسة الصحفية بقرار من رئيس مجلس الوزراء فضلاً عن احكام أخرى تضع الصحافة كلية في خدمة الدولة. والمؤسسات الصحفية القائمة هي: مؤسسة البلاد للصحافة والنشر، وتصدر عنها جريدة «البلاد» (صدر عددها الأول في ٤ آذار ١٩٦٤). مؤسسة المدينة، وتصدر عنها جريدة «المدينة» (آذار ١٩٦٤). مؤسسة اليمامة الصحفية، وتصدر عنها جريدة «الرياض». مؤسسة مكة للطباعة والاعلام، وتصدر عنها جريدة «الندوة». مؤسسة عكاظ للصحافة والنشر، وتصدر عنها جريدة «عكاظ». مؤسسة الجزيرة للصحافة والطباعة، وتصدر عنها جريدة «الجزيرة». مؤسسة الدعوة الاسلامية، وتصدر عنها جريدة «الدعوة». مؤسسة دار اليوم، وتصدر عنها جريدة «اليوم».وهناك ثلاث جرائد تصدر باللغة الانكليزية (بموجب النظام الموضوع منذ ١٩٦٤): أراب نيوز، غازيت، وسعودي برس.

أما الصحف التي كانت تصدر بالانكليزية، قبل نظام ١٩٦٤، فكانت: «الشمس والمارج»، اسبوعية أصدرتها شركة أرامكو في الظهران (١٩٤٥)؛ «النشرة السعودية»، أصدرتها وزارة الاعلام (١٩٦٠)؛ وبعد نظام ١٩٦٤، صدرت «صورة طبق الاصل»، يومية (١٩٦٦)؛ «نشرة البحر الأحمر»، اسبوعية صدرت في جدة (١٩٦٧)؛ «النشرة الاقتصادية السعودية»، اسبوعية، صدرت في جدة (١٩٦٧)؛ «الرياض اليوم»، يومية (١٩٦٧)؛ «مجلة عالم أرامكو»، أصدرها قسم العلاقات العامة في شركة أرامكو، صُممت وطُبعت في بيروت، وصدرت مرة كل شهرين.

وإضافة إلى الصحافة المطبوعة، حققت المملكة، في العقدين الأخيرين خطوات كبيرة في مختلف وسائل الاتصال الجماهيري، خاصة منها في مجال الاتصال المرئي والمسموع (تلفزيون وإذاعة). فالاستديوهات التلفزيونية (أدخل التلفزيون إلى المملكة منذ نحو ربع قرن) في الرياض هي من أحدث طراز في العالم. وتدير الحكومة محطتي تلفزيون رئيسيتين إحداهما تبث بالعربية وأخرى تبث بالانكليزية. وتذاع نشرات الاخبار باللغات الثلاث العربية والانكليزية والفرنسية. وتملك المملكة ٣٧ محطة إذاعية لاسلكية إلى جانب عشر محطات ترحيل وتقوية للبث التلفزيوني وتسع محطات بث تلفزيوني نقالة بالاضافة إلى خمس محطات تلفزيونية موقتة (ومؤخرًا دخل البث التلفزيوني الفضائي).

وكانت المملكة العربية السعودية في مقدمة العارضين في المعرض الدولي للمواصلات والنقل (أكتوبر ٨٦) الذي أقيم في فانكوفر في كندا، وكانت البلد العربي الوحيد في ذلك المعرض إلى جانب ٥٤ دولة أخرى، وجاءت معروضات السعودية في مجال المواصلات والاتصالات انعكاسًا لانجازات متقدمة جدًا. وفي اواخر تموز ١٩٨٩، جاب معرض «المملكة بين الأمس واليوم» أهم المدن في الولايات المتحدة الاميركية، ونال تقدير واعجاب الاميركيين، وقالت السيدة باربرا بوش (زوجة الرئيس الاميركي جورج بوش) التي افتتحت المعرض: «المملكة هي أرض الاعجاز الحقيقي، حضارتها عريقة، وهي الآن موطن لأحدث ما في التكنولوجيا» (المراجع: عثمان حافظ، «تطور الصحافة في المملكة العربية السعودية»، ج١، ط٢، شركة المدينة للطباعة والنشر، جدة ١٩٧٨، ٥٩٠ صفحة، وكان هذا المرجع هو نفسه الذي اعتمده مؤلف هذه الموسوعة، في كتابته مادة «الصحافة العربية» لموسوعة السياسة، ج٣، ط١، ١٩٨٣، ص٥٩٦-٦٢٦، وكان يعمل فيها محررًا رئيسيًا؛ ود.ناصر ابراهيم الرشيد ود.إسر ابراهيم شاهين «الملك فهد ومسيرة الانجازات الحضارية في المملكة العربية السعودية»، المعهد الدولي للتكنولوجيا، ص٢٦٥-٢٦٦).

□ **مبادئ الملك فيصل العشرة:** كان فيصل، قبل تسلمه العرش في تشرين الثاني ١٩٦٤، وليًا للعهد وأعلن، في ١٩٦٢، مبادئه العشرة التي ارتبطت تاريخيًا ببرنامجه في الحكم. وهذه المبادىء هي باختصار:

١- سنّ القوانين بما يتوافق ونصوص القرآن الكريم وسنّة النبي.

٢- تنظيم الادارة المحلية في مختلف مناطق المملكة كي تساهم في التقدم الاداري والسياسي والاجتماعي للوطن.

٣- تأسيس وزارة للعدل ومجلس أعلى للقضاء وسلطة قضائية مستقلة.

٤- إعلان مجلس للفتوى من العلماء للنظر في شؤون المسلمين وإصدار الفتاوى المناسبة عند الحاجة.

٥- العمل على نشر رسالة الاسلام وتعزيز أسسه

والدفاع عنه بالقول والعمل.

٦- ممارسة الاخلاق الفاضلة تمشيًا مع الاهداف الاسلامية العليا.

٧- تحسين مستويات المعيشة بتقديم الخدمات الطبية المجانية والتعليم وبدعم المواد الغذائية الأساسية كي يتيسّر للمواطنين الحصول عليها بأسعار معقولة. كذلك تأسيس ضمان اجتماعي يكفل للمتقدمين في السن وللعمال العناية اللائقة.

٨- تنظيم التقدم الاقتصادي والاجتماعي.

٩- تنفيذ البرامج لبناء الطرق والسدود والتنقيب عن المياه وبناء الوحدات الصناعية لقيام صناعات ثقيلة وخفيفة وتأسيس مؤسسة عامة للبترول والمعادن (بيترومين).

١٠- إلغاء الرق إلغاء كاملاً وإعطاء الحرية للجميع.

وقد بذل فيصل قصاراه في تطبيق هذه المبادىء. وفوق كل ذلك وللمرة الاولى في تاريخ المملكة فتح ابوابًا جديدة أمام المرأة السعودية بحيث شرّع لها أبواب المعرفة لتلقي التعليم على قدم المساواة مع الرجل.

□ **مشروع فهد للسلام:** مشروع سياسي سلمي لحل الصراع العربي-الاسرائيلي وضعه الملك فهد بن عبد العزيز (وكان وليًا للعهد) في ١٩٨١ في أعقاب تحركات قام بها على الصعيدين العربي والدولي صبّت جميعها في إطار مبادرة عُرفت بهذا الاسم (مشروع فهد للسلام) والذي أعلن في ٧ آب ١٩٨١. ولما لم تنجح القمة العربية في خريف ١٩٨١ في الانعقاد لاقرار هذا المشروع، فإنه عاد وعُرض على قمة فاس في ٦-١٠ ايلول ١٩٨٢ التي أقرّت المشروع مع بعض التعديلات في بنوده الرابع والسابع والثامن، وأصبح منذ ذلك الحين يُعرف بـ«مشروع قمة فاس». وهو مؤلف من ثماني نقاط، وتشكلت على أثره لجنة سباعية من الجزائر والمغرب وتونس والسعودية وسورية والاردن ومنظمة التحرير الفلسطينية، كُلفت نقل المشروع إلى الدول الكبرى، علمًا ان المشروع قوبل بالرفض مباشرة من اسرائيل إذ وصفه وزير خارجيتها (اسحق شامير) بأنه «اعلان حرب جديد على اسرائيل»، وبأنه «خطة أخرى لتصفية اسرائيل على مرحلة أو مرحلتين». كما ان وزير خارجية اميركا (جورج شولتز) اعتبره يتعارض مع مشروع الرئيس الاميركي رونالد ريغان. وقد لاقى المشروع تأييدًا سوفياتيًا وأوروبيًا.

ونقاط المشروع هي الآتية:

١- انسحاب اسرائيل من جميع الاراضي العربية التي احتلت في ١٩٦٧ بما فيها القدس العربية.

٢- إزالة المستوطنات التي أقامتها اسرائيل بعد ١٩٦٧ في الاراضي العربية.

٣- ضمان حرية العبادة وممارسة الشعائر الدينية لجميع الاديان في الاماكن المقدسة.

٤- تأكيد حق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره وممارسة حقوقه الوطنية الثابتة غير القابلة للتصرف بقيادة منظمة التحرير الفلسطينية ممثله الشرعي الوحيد وتعويض مَن لا يرغب في العودة (نص هذه النقطة في الصيغة الاولى: «تأكيد حق الشعب الفلسطيني في العودة وتعويض من لا يرغب في العودة»).

٥- توضع الضفة الغربية وقطاع غزة لفترة انتقالية تحت إشراف الأمم المتحدة ولمدة لا تزيد عن بضعة شهور.

٦- قيام الدولة الفلسطينية المستقلة بعاصمتها القدس.

٧- يضع مجلس الأمن الدولي ضمانات سلام بين جميع دول المنطقة بما فيها الدولة الفلسطينية المستقلة (كانت في الأصل على الشكل الآتي: «تأكيد حق دول المنطقة بالعيش بسلام»).

٨- يقوم مجلس الأمن الدولي بضمان تنفيذ هذه المبادئ (في مشروع ولي العهد كانت كالآتي: «تقوم الأمم المتحدة أو بعض الدول الاعضاء فيها بضمان تنفيذ تلك المبادئ») (عن «موسوعة السياسة»، ج٤، بيروت، ط٢، ١٩٩٠، ص٦١٢-٦١٣).

□ **مؤتمر الرياض (١٩٢٨):** راجع «الاخوان» في هذا الباب، معالم تاريخية.

□ **ميزات رئيسية ثلاث: مستقر أكبر تجمع من القبائل في العالم، وأول وحدة حقيقية بعد صدر الاسلام، واقتران الدولة بالاسلام:** في المملكة العربية السعودية ما يزيد على مائة قبيلة يتشكل منها الشعب السعودي، وبذلك تعد المملكة مستقر أكبر تجمع من القبائل في العالم.

والثابت تاريخيًا أن هذه القبائل عربية الأصول، هاجرت من اليمن واستوطنت في ارجاء شبه الجزيرة العربية إثر انفجار سدّ مأرب أو «سيل العرم» كما ورد ذكره في القرآن ا لكريم.

ولا تزال معظم هذه القبائل العربية التي تستوطن

المملكة تحتفظ بأسمائها القديمة حتى الآن. ولبعض هذه القبائل فروع في دول الخليج العربية المجاورة، وفي بلاد الشام والعراق ومصر والسودان والمغرب. ومن أشهر القبائل التي هاجرت من هذه البلاد في الزمن القديم إلى شمالي افريقيا قبيلة بني هلال التي يدور حولها الكثير من القصص الشعبي.

أما الميزة الثانية: أول وحدة حقيقية بعد صدر الاسلام، فيؤكدها كثير من المؤرخين العرب والاجانب في القرن العشرين بقولهم إنه بتأسيس المملكة العربية السعودية (١٩٣٢) قامت أول وحدة حقيقية بعد صدر الاسلام.

فبعد انتقال مقر الخلافة الاسلامية من المدينة المنورة إلى دمشق ثم إلى بغداد تعرضت شبه الجزيرة العربية للعزلة والاهمال حوالى ألف عام، حيث سادت فيها الفوضى والحروب والصراعات، وعمّها الجهل والفقر والمرض، وانتشرت فيها البدع والخرافات، وتمزقت إلى أجزاء ودويلات وإمارات كثيرة مما زاد في ضعفها وشتاتها وعزلتها بعد ان كانت المدينة المنورة مركز العلم والاشعاع.

وقد نجح حكام الدرعية من آل سعود الذين حملوا لواء الدعوة الوهابية التجديدية منذ اواسط القرن الثامن عشر في إصلاح الاوضاع في شبه جزيرة العرب، ولكن عوامل خارجية أدت إلى عودة إلى وضعها السابق من التمزق والشتات، وظلت كذلك حتى قام عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود (منذ اوائل القرن العشرين) الذي استطاع، بعد كفاح طويل، من تأسيس المملكة العربية السعودية. فحقق بذلك أول وحدة شهدتها هذه البلاد منذ نهاية عهد الخلفاء الراشدين حتى الآن (عن «لمحات عن ثوابت السياسة السعودية»، إعداد إدارة الابحاث والنشر بدار الأفق للنشر والتوزيع، الرياض، ١٩٩٥، ص١٤٦-١٤٨).

وأما الميزة الثالثة فتمثلها تلك الصلة بين الدين والدولة في المملكة العربية السعودية. «ذلك أن هذه الدولة تقترن بالاسلام أكثر من أي دولة أخرى في العالم الاسلامي. وبذلك فهي موطن مكة المكرّمة والمدينة المنورة، وقبلة المصلين والحجاج المسلمين. هذه هي الميزة الدينية التي عُرفت بها المملكة، والتي عادت فتأكدت سنة ١٧٤٥، عندما دخل الشيخ محمد بن عبد الوهاب في حلف مع آل سعود، حكام الدرعية، في اواسط نجد، وهذا الحلف باق إلى اليوم. الاسلام، بمقتضاه، دين الدولة، ومصدر الشرعية السياسية، فهو يوجه سياسات الدولة ونشاطاتها، ويصوغ مبادىء المجتمع الاخلاقية» (عن التصدير الذي كتبه أيمن الياسيني في مستهل كتابه «الدين والدولة في المملكة العربية السعودية»، بالانكليزية، نقله إلى العربية د. كمال اليازجي، دار الساقي، ١٩٨٧، ط٢، ١٩٩٠).

وضمن هذه الميزة الثالثة (الدين والدولة) يمكن إضافة عامل وسيط ذي تأثير جدلي بالغ في الدولة السعودية الحديثة عبر التغييرات الجذرية التي تتواصل فيها، ألا وهو النفط. فإذا «كان تحالف الأسرة السعودية مع المذهب الوهابي أنتج دولة أصولية متشدّدة في تطبيق الشرع الاسلامي، فإن اكتشاف النفط دفع المجتمع، منذ الثلاثينات، إلى خضم عملية تحديث معقّدة، تشده إلى أقصى الطرف الآخر المقابل للتشدّد» (من كلمة الناشر على الغلاف الأخير لكتاب أيمن الياسيني، مرجع مذكور آنفاً).

☐ **النزاع الحدودي السعودي-اليمني**: نزاع طويل تعود بداياته في التاريخ الحديث إلى ايام دولة آل سعود في الدرعية (الدولة السعودية الاولى) والمعارك التي خاضتها والفتوحات التي حققتها. والمحطة الأساسية التي حققتها الدولتان على طريق الحل النهائي لهذا النزاع تمثلت في معاهدة الطائف التي وقعتاها في ١٩٣٤، أي بعد نحو سنتين من إعلان المملكة العربية السعودية. فقد نجحت هذه المعاهدة في طي مسلسل طويل في الصراع السعودي-اليمني، واعتبرت من الجانبين إطاراً قانونياً لوضع حدودهما المشتركة. وجاء في مقدمتها أنها تؤسس علاقات عهد ثابتة بين الحكومتين السعودية واليمنية، وتنص على إنهاء حالة الحرب والاعتراف المتبادل بين الدولتين والوضع النهائي للحدود بينهما. وحددت المادة الرابعة منها خط الحدود الذي يفصل بينهما.

وبعد ٤٣ عاماً من التوقيع على معاهدة الطائف، وبالتحديد في ١٠ آذار ١٩٩٧، أكدت حكومة القاضي عبدالله بن أحمد الحجري رئيس وزراء اليمن وحكومة الرياض (التي كان يمثلها عمر السقاف وزير الدولة للشؤون الخارجية) اعترافهما بمعاهدة الطائف، واقرتا بشرعيتها في بيان مشترك صدر في نهاية زيارة رسمية قام بها الحجري للمملكة، ونص على اعتبار الحدود بين البلدين فاصلة بصفة نهائية ودائمة كما ورد في المادتين الثانية والرابعة من معاهدة الطائف وملحقيها.

الجدير ذكره ان اليمن كان مقسماً إلى دولتين: شمالية (وكان رئيس وزرائها الحجري الذي وقّع هذا البيان) وجنوبية. والدولتان كانتا وقعتا اتفاق وحدة بينهما منذ ١٩٧٢، لكنها لم تتحقق إلا في ١٩٩٠. لذلك كان

الجانب السعودي، ولا يزال، يشدّد على أهمية هذا البيان الصادر في ١٠ آذار ١٩٧٧ واعتباره مندرجًا كثابتة من ثوابت القانون الدولي التي تقضي بأن لا أثر لتغيير نظام الحكم في المعاهدات التي سبق ان أبرمتها الدولة، وبالذات المعاهدات الاقليمية الخاصة بالحدود.

الجدير ذكره ان معظم حدود المملكة مع جارتها من الدول العربية اعتمدت على اتفاقات ومعاهدات مرسومة، ومنها معاهدة الطائف ١٩٣٤ التي رسمت الحدود بين السعودية واليمن، فضلاً عن أنها أعلنت في وقت واحد في كل من مكة المكرمة وصنعاء والقاهرة وبيروت ودمشق، مما أعطى للمعاهدة طابعًا دوليًا وإطارًا قانونيًا ملزمًا إذ شهدت وفود عربية على صحة ما اتفق عليه. وكان محمد علي علويه ممثلاً لمصر، وهاشم الأتاسي ممثلاً لسورية وشكيب ارسلان للبنان، وأمين الحسيني لفلسطين، وغيرهم.

لكن مشاكل الحدود بين الجانبين، السعودي واليمني، لم تنته عند معاهدة الطائف. إذ استمرت هناك أجزاء لا تشملها المعاهدة خصوصًا هذا الجزء من الحدود مع ما كان يسمّى سابقًا، قبل وحدة اليمن، اليمن الجنوبي. وطول الحدود السعودية مع اليمن يبلغ ١٢٤٠كلم.

وكان البلدان اتفقا، في مسار مفاوضاتهما الحدودية، على تشكيل مجلس التنسيق السعودي-اليمني الذي كان ينظم العلاقة بين البلدين قبل أزمة الخليج (١٩٩٠). ومن أهم اجتماعات هذا المجلس اجتماعات دورته العاشرة، في شتاء ١٩٨٩ التي رأس فيها الجانب السعودي الأمير سلطان بن عبد العزيز.

وبعد تعثر بسبب الظروف المعقدة لليمن التي عاشها منذ تحقيق وحدة شطريه الشمالي والجنوبي في ايار ١٩٩٠، والتي جعلت اليمن يمر في مرحلة انتقالية (راجع «اليمن» في جزء لاحق»)، عاد ملف الحدود بين البلدين ليفتح من جديد وليؤدي بالمفاوضات إلى محطة مهمة على طريق الحل النهائي تمثلت في مذكرة التفاهم التي وقعها الجانبان في ٢٦ شباط ١٩٩٥ في قصر الأمير سلطان في مكة المكرمة.

وجاءت مذكرة التفاهم من ١١ مادة، نصت المادة الاولى فيها على تأكيد الطرفين «تمسكهما بشرعية وإلزامية معاهدة الطائف» (١٩٣٤)، والمواد الأخرى على لجان حدودية مشتركة، هي لجنة ترسيم الحدود واللجنة العسكرية ولجنة تحديد العلامات الحدودية القديمة ولجنة الحدود البحرية واللجنة الوزارية المشتركة. وعقدت اللجنة العليا المشتركة برئاسة الامير سلطان والشيخ الأحمر (اليمن) أول اجتماعاتها في الرياض في كانون الاول ١٩٩٥. وعقد اجتماعها الثاني في صنعاء (اواخر آب ١٩٩٦). أما اللجان الخمس الأخرى فعقدت اجتماعات عدة في كل من الرياض وصنعاء على التوالي (الجدير ذكره ان الايام التي سبقت الاتفاق على مذكرة التفاهم هذه عرفت توترًا عسكريًا حدوديًا بين البلدين).

من جملة التعليقات والتحليلات التي ظهرت بعد التوقيع على مذكرة التفاهم والتي تناولت هذه المذكرة نستطيع أن نتبين عددًا من النقاط في موضوع العلاقة بين البلدين عمومًا، ومسألة الحدود خصوصًا:

١- جاءت المذكرة في إطار «عصر تغليب التفاهم والعلاقات الاقتصادية والتجارية على التشبث بالمعالم الحدودية وبما تمثله الحدود من انطواء وعزلة».

٢- تخلص اليمن، بفضل الوحدة التي حققها بين شطريه، من مزايدات الشطر الشمالي على الجنوبي ومزايدات الشطر الجنوبي على الشمالي بشأن معاهدة ١٩٣٤. فالجنوب كان يزايد على أي حاكم شمالي يقبل بالمعاهدة ويخوّنه، كما كانت مزايدات الشمال تمنع أي حاكم في الجنوب من التوصل إلى تسوية مع السعودية في شأن الحدود.

٣- جاءت مذكرة التفاهم (١٩٩٥) لتزيل مخاوف صنعاء من أن ثمة حساسية سعودية تجاه الوحدة اليمنية. فعندما اعترض اليمنيون، في اثناء المفاوضات على تسمية بعض اللجان التي يمكن ان تذكّر بمرحلة انقسام اليمن، وافق السعوديون على كل ما طلبوه بما يؤكد الوحدة وقالوا ان لا اعتراضات لهم عليها، وانهم إنما يتعاطون مع كيان سياسي واحد.

٤- من بين الأمور التي أثارت ارتياح اليمنيين ورود كلمة «التحكيم» في مذكرة التفاهم. فقد نصت المادة الثالثة من المذكرة: «تستمر اللجنة الحالية المشكلة من البلدين في عملها لتحديد الاجراءات اللازمة والخطوات التي تؤدي إلى ترسيم ما تبقى من الحدود بدءًا من جبل الثار وحتى منتهى حدود البلدين بما في ذلك الاتفاق على كيفية التحكيم في حال الاختلاف بين البلدين». إذ ثمة قناعة في صنعاء بأن لا بد في النهاية من التحكيم حتى ولو طال الزمن. ولهذا أعدّ اليمنيون أنفسهم لهذه المرحلة منذ ١٩٩٢، وكلفوا شركة محاماة اميركية هي «بايكر-بوش» إعداد الملفات الخاصة بالقضية.

٥- في مسار المفاوضات الحدودية في مرحلته التي
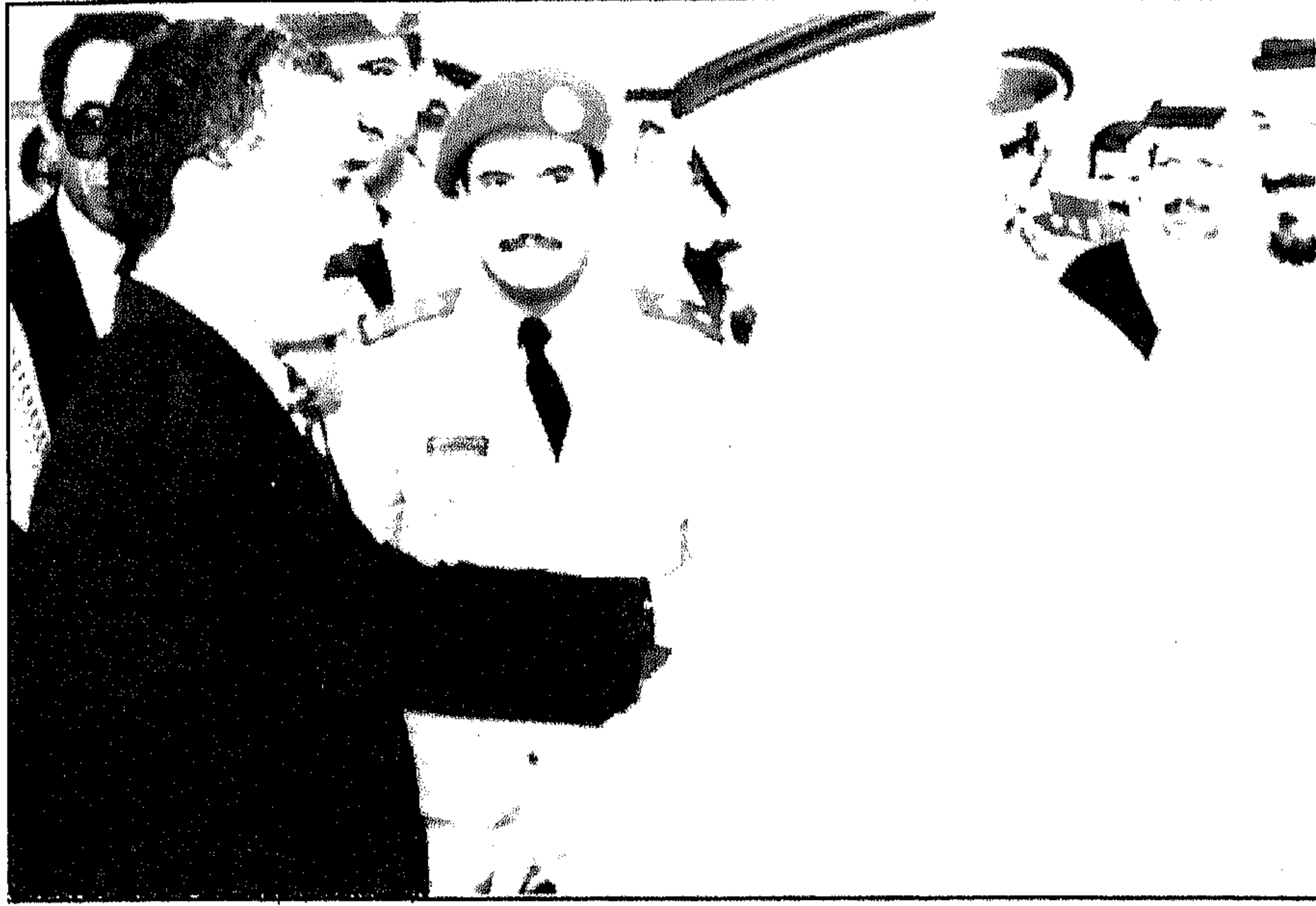
الملك فهد يستقبل الرئيس صالح (حزيران ١٩٩٥).

بدأت في أعقاب توقيع مذكرة التفاهم (١٩٩٥) عبر لجان فنية، وكان المسار نشطًا احيانًا ومتعثرًا احيانًا أخرى، بدا واضحًا ان اليمن يريد من السعودية ان تساهم في حل اشكالاته الاقتصادية وان يكون انهاء خلافات الحدود جزءًا من الاتفاقية الحدودية الشاملة، وبخاصة ان اليمن يمر بصعوبات اقتصادية من أبرزها عودة مئات الألوف من اليمنيين الذين كانوا يعملون في السعودية من دون تأشيرات أو كفلاء، وهي حال استثنائية في النظام السعودي. وبقيت السعودية من جانبها تعرب، في كل مناسبة، عن حرصها على إنهاء ملف الحدود الذي كثيرًا ما كان يأخذ طابعًا اقتصاديًا-سياسيًا، في محاولة لأن يصبح ورقة ضغط، فيتحول من مسألة فنية إلى حال توتر تكثر فيها الاتهامات بالاعتداءات والاختراق. وهذا ما أثبته المسار التفاوضي في أعقاب توقيع مذكرة التفاهم (٢٦ شباط ١٩٩٥) حتى آب ١٩٩٨.

- في ٢٠ آذار ١٩٩٥، جرى اتصال هاتفي بين الملك فهد والرئيس اليمني علي عبدالله صالح. وفي اليوم التالي، بدأت في قصر المؤتمرات في الرياض أول جلسات اللجنة العسكرية السعودية-اليمنية.

- في ٥ حزيران ١٩٩٥، زار الرئيس اليمني علي عبدالله صالح جدة، وأجرى محادثات مع الملك فهد. وفي البيان المشترك تأكيد على توفير سبل النجاح للجان الحدودية «باعتبارها الركيزة التي يتم من خلالها تطوير العلاقات بين البلدين الشقيقين».

- في تموز ١٩٩٥، تواصلت في صنعاء اجتماعات اللجنة الفنية السعودية-اليمنية في شأن تحديد العلامات الحدودية بين البلدين طبقًا لاتفاق الطائف (١٩٣٤) واستنادًا إلى مذكرة التفاهم (٢٦ شباط ١٩٩٥).

في ٢٠ آذار ١٩٩٦، بدأت في الرياض اجتماعات الجولة الثالثة للجنة ترسيم ما تبقى من حدود البلدين. وعاودت اجتماعاتها في ٢١ ايار ١٩٩٦، وظهرت مواقف متباعدة.

في ٢٧ تموز ١٩٩٦، وفي جدة، وقع الأمير نايف بن عبد العزيز وزير الداخلية السعودي ونظيره اليمني العقيد حسين محمد عرب اتفاقية أمنية مشتركة لتنظيم «الاطار العام لمختلف جوانب العلاقات الأمنية بين المملكة واليمن».

- في آخر آب ١٩٩٦، زار صنعاء الأمير سلطان بن عبد العزيز وأجرى محادثات مع كبار المسؤولين اليمنيين. وفي البيان المشترك «أن الطرفين أكدا التزامهما معاهدة الطائف (١٩٣٤) ومذكرة التفاهم (١٩٩٥) في مجمل العلاقات بين البلدين وأهمية تطويرها في مختلف المجالات الاقتصادية والثقافية وتوسيع فرص الاستثمار لمواطني البلدين».

- في ٧ تشرين الاول ١٩٩٦، قام وزير الداخلية السعودي الأمير نايف بن عبد العزيز بزيارة إلى اليمن وُصفت بأنها «مهمة جدًا» على صعيد حل النزاعات الحدودية؛ ونقل الأمير نايف رسالة من الملك فهد إلى الرئيس علي عبدالله صالح، وحمل مقترحات سعودية لتسوية هذه النزاعات في أسرع وقت ممكن دون انتظار اجتماعات اللجان المختلفة التي شكلت بموجب مذكرة التفاهم (١٩٩٥). إذ كانت هذه اللجان قد توصلت في مطلع الصيف «إلى طريق مسدود وتجمدت أعمالها بسبب اقتراحات متشددة متبادلة بين الجانبين».

- في ٦ تشرين الاول ١٩٩٧ (بعد نحو سنة من الاعلان عن «الطريق المسدود»)، أعلن الرئيس اليمني علي عبدالله صالح ان المفاوضات بين بلاده والمملكة العربية السعودية بلغت مرحلة وضع «اللمسات الأخيرة» لاتفاق بين البلدين وذلك «في شكل أخوي ومرضي وعادل». وأكد ان «اللقاء الأخير الذي عقده مع الأمير سلطان بن عبد العزيز في ايطاليا (ايلول ١٩٩٧) كان «ايجابيًا».

- في آخر تشرين الثاني ١٩٩٧، نقل نائب رئيس الوزراء وزير الخارجية اليمني الدكتور عبد الكريم الأرياني إلى الملك فهد رسالة شفهية من الرئيس علي عبدالله صالح تحمل ردًا رسميًا على اقتراحات سعودية لحل إشكالية الحدود.

- في ١٧ تشرين الثاني ١٩٩٧، وقع اشتباك على الحدود السعودية اليمنية، وحرص الجانب السعودي (على لسان الأمير نايف بن عبد العزيز وزير الداخلية) على التأكيد بأن المفاوضات لتسوية الحدود بين البلدين «لم تتأثر بالحادث المؤسف». وكانت وقعت عدة تفجيرات في عدن، ونفت السعودية صلتها بأحد المتهمين بها.

- في نيسان ١٩٩٨، قدمت السعودية وثيقتين رسميتين إلى الأمم المتحدة والأمانة العامة للجامعة العربية، ونقل وفدا المملكة لدى المنظمتين «سرور بلدهما لتوصل الشقيقتين، سلطنة عُمان والجمهورية اليمنية إلى اتفاق حدود بينهما»، لكنهما أكدا ان «السعودية تلتقي في حدودها مع كلا البلدين»، وشددا على ان الاتفاق الحدودي العُماني-اليمني «تضمن تحديدًا تبعية بعض المناطق التي تعتبرها المملكة جزءًا من اراضيها، لذلك فإن السعودية تود ان تؤكد انها لا تعترف بأية حقوق أو آثار تترتب نتيجة لهذا الاتفاق في المناطق المشار إليها، يكون فيها تجاوز أو مس بحقوقها».

- في ١٦ تموز ١٩٩٨، عبر «مصدر يمني مأذون» عن استغراب بلاده تجاه «ما قامت به حكومة المملكة العربية السعودية من احتجاجات لدى الأمم المتحدة والجامعة العربية بشأن الاتفاق الحدودي العُماني-اليمني»، واعتبر ذلك «انتكاسة خطرة وعودة بالمفاوضات الحدودية الجارية بين البلدين إلى وراء»، واتهم السعودية بالاعتداء على الاراضي اليمنية، فيما أكدت السعودية، في اليوم التالي (١٧ تموز ١٩٩٨) انه «لم يحدث أي اعتداء من المملكة على اراضي الجمهورية اليمنية بأي شكل من الأشكال».

- في ٢٢ تموز ١٩٩٨، نفت صنعاء أنباء عن انزال عسكري يمني في جزيرة الدويمة في البحر الأحمر، وأعلنت ان تفاهمًا تمّ التوصل إليه بين صنعاء والرياض «لاحتواء حادث الجزيرة بين قوات سعودية وحرس الحدود اليمني». وفي اليوم التالي، نفى ايضًا وزير الداخلية السعودي الامير نايف بن عبد العزيز أنباء انزال بحري يمني في جزيرة الدويمة. واعتبر الجانبان ان «ثمة حادثًا مؤسفًا وقع»، واتفقا على تشكيل لجان «لمنع أي استحداثات أو مشكلات تقع على الحدود».

- في ٢٧ تموز ١٩٩٨، جدّد ولي العهد السعودي نائب رئيس مجلس الوزراء الامير عبدالله بن عبد العزيز حرص السعودية على «حل ما تبقى من مشكلة الحدود» مع اليمن، وذلك عن طريق «اللجان المشتركة وبحسب ما نصت عليه معاهدة الطائف (١٩٣٤) ومذكرة التفاهم (١٩٩٥). وفي اليوم التالي، زار وزير الخارجية السعودي الأمير سعود الفيصل صنعاء حيث جرى التوقيع على «محضر اتفاق» من ٦ نقاط لاحتواء «التداعيات العسكرية والامنية» بين البلدين بعد الحادث الحدودي في جزيرة الدويمة، ولتفعيل نشاط لجان الحدود. وحدّد المحضر يوم ٤ آب ١٩٩٨ موعدًا لاجتماع اللجنة العسكرية اليمنية-السعودية المشتركة، يليه بعد شهر اجتماع للجنة تعيين الحدود البحرية، على ان تجتمع لجنة تحديد العلامات الحدودية لتحديد العلامات ابتداء من جبل الثار إلى رأس المعوج، كما وُصفا في معاهدة الطائف، خلال شهرين من توقيع المحضر (أي من ٢٨ تموز ١٩٩٨).

مدن ومعالم

* أبها: تقع هـذه المدينة في منطقة عسير (وهي عاصمة عسير) جنوب غربي المملكة في مرتفعات «السروات»، وتشرف على السهول الساحلية من تهامة، وعلى جبال «السودة» ذات الغابات الكثيفة من جهة الغرب. وترتفع أبها عن سطح البحر ٢٢٠٠م (يزيد ارتفاع أعلى قمة في منطقة السودة على ٣ آلاف م)، والصخور السائدة في المنطقة هي غرانيتية وشيستية. مناخها معتدل بوجه عام، ومعدل هطول الامطار فيها ٥٠٠مم، وهو أكبر المعدلات في المملكة.

في حسابات التطور العمراني القياسي زمنيًا الذي شهدته المملكة بوجه عام تأتي أبها في القائمة الأولى بين مدن ومناطق السعودية: «من يصدّق أن أبها التي هي اليوم معلم من المعالم السياحية المتميزة بأبنية متطورة وأسواق تجارية عامرة وأنفاق وجسور وطرق، هي نفسها تلك القرية المعزولة عن العالم قبل خمس عشرة سنة بسبب وعورة طرقها ومسالكها الجبلية ! ففي احصائية رسمية بلغ عدد المصطافين الخليجيين في أبها سنة ١٩٨١ ما يقارب ٧٠ ألفًا وفي عام ١٩٨٦ تجاوز الستة ملايين» («المدينة العربية»، عدد شباط-آذار ١٩٩٧، ص٩٣). فقد تحولت عسير، وتحديدًا أبها، نموذجًا حضاريًا متميزًا واصبحت المحطة السياحية الصيفية الاولى في منطقة الخليج العربي.

إضافة إلى صناعة السياحة التي باتت تشتهر بها أبها (٤٠٠ ألف كلم من الخضرة الدائمة على مدار السنة)، ثمة صناعة ثقافية آخذة في النمو في أبها، وأهم أركانها «قرية مفتاحة التشكيلية» التي هي «مركز ثقافي يحتوي على ١٢ مرسمًا وهذه المراسم تضم بين جوانبها عددًا من الفنانين التشكيليين وهي عبارة عن أجنحة كل جناح عبارة عن دورين، الدور الارضي وهو المرسم... والدور الثاني غرفة نوم متكاملة ومطبخ ومرفقاته. ثم هناك صالة عرض لاقامة المعارض التشكيلية (...) إن من أهداف هذا المركز تنمية الحركة الفنية والحرفية واستقطاب محبي الفن في جميع انحاء المملكة والعالمين العربي والاسلامي (...) القرية كذلك تضم مسرحًا مفتوحًا يتسع لأكثر من ألف شخص (...) كما ان اعمال البناء والتشييد لاقامة مسرح يتسع لأكثر من خمسة آلاف مشاهد تسير قدمًا» («العربي»)، العدد ٤٧٢، آذار ١٩٩٨، ص٥٢).

بيوت قديمة في منطقة قريبة من مشروع الحبلة السياحي في أبها.

قصر الشدا في أبها، مقر الامارة القديم وحاليا متحف تاريخي.

يقول المؤرخ والمحقق السعودي حمد الجاسر: «لا نجد في معجم البلدان لياقوت ولا في معجم ما استعجم ذكرًا لهذه المدينة وهذا ما دفع كثيرًا من الباحثين إلى الحكم بأن مدينة أبها حديثة». لكن، برأي الجاسر، أن «أبها مدينة قديمة جدًا لا يعرف اسمها الحقيقي الذي نشأت عليه. تطورت في العمارة وربما تغير مسماها من فترة إلى أخرى» («العربي»، المرجع المذكور، ص٤٥).

«يقولون إنه ورد في التوراة أن بلقيس ملكة سبأ عندما استدعيت لمقابلة الملك سليمان طلبت من سكان «هيفاء» أن يؤمنوا لها جمال الرحلة. وذُكر ان العمالقة قد

عمروها، وانه قد عاش بها «بنو ثابر» حتى جاءتهم «الأزد». وكان أهلها في الجاهلية اصحاب قوة بين القبائل. وفي عهد أبي بكر أمدته بالمقاتلين الأشداء ليرد أصحاب الردة. وكانت أحد توابع الدولتين الأموية والعباسية. وانها خضعت لحكم الأخشيديين والطولونيين والأيوبيين والمماليك. وعندما فتح العثمانيون بلاد الشام ومصر أرسل الشريف ولده أباغي إلى السلطان العثماني، وتمّ تسليم مفاتيح الكعبة له ومن تلك الفترة تبعت منطقة عسير الدولة العثمانية. وإبان الحملة المصرية، تمكن محمد علي وابنه ابراهيم باشا من دخول أبها واحتلالها وتم القبض على طامي بن شعيب القائد العشيري حيث بُعث به إلى اسطنبول ليعدم، حتى تحررت أخيرًا على يد آل سعود («العربي»، المرجع المذكور، ص٤٦).

من أشهر معالم أبها «قصر شدا»، الذي انتهى بناؤه في ١٩٢٧ على أنقاض ثكنة قديمة. بعد ترميمه، افتتح في ١٩٨٧ ليكون متحفًا يعرض ما يتبرع به أهالي أبها من مأثورات ومقتنيات تراثية.

* **أبو السعود:** راجع «الأخدود» في هذا الباب.

* **الإحساء:** راجع «المنطقة الشرقية» في هذا الباب.

* **الأخدود:** مدينة أثرية في واحة نجران الواقعة في جنوبي السعودية على اطراف صحراء ممتدة إلى كل الجهات، ففي الشرق منها صحراء الربع الخالي، وإلى الجنوب بلاد اليمن، أما من الغرب فتبدأ حدود منطقة عسير الشهيرة بجبالها الشاهقة، وتجاور قرية أبو السعود (نجران القديمة) ذات المنازل العالية والشهيرة بصناعاتها المحلية مثل الجنبية والزرابي والقفقف والسجاجيد من سعف النخيل وصوف الاغنام وغير ذلك من حرف هي اليوم حرف فولكلورية.

تحت مادة «نجران»، جاء في قسم الاعلام من المنجد (دار المشرق، بيروت، ١٩٨٦، ص٧٠٦-٧٠٧):

١- نجران: مدينة (سعودية) شمالي اليمن على حدود عسير. ذكرها بطليمس. خرّبها الامبراطور غالس ٢٥١-٢٥٣. قد تكون خرائب مدينة الأخدود انقاض نجران القديمة. دخلتها المسيحية عن طريق تجارها ثم ازدهرت في عهد يوستنيانس. لجأ إليها المونوفيزيون هربًا من الاضطهاد البيزنطي. كانت مسرحًا لاضطهادات

من اطلال رقمات في مدينة الاخدود (نجران).

عنيفة. أنجبت اساقفة عديدين في القرنين التاسع والعاشر.

٢- نجران (شهداء-): هم المسيحيون بنو حارث بن كعب، أصحاب كعبة نجران. أكرههم ذو نواس ملك حِمير على اعتناق اليهودية فأبوا، فحرقهم مع ملكهم الحارث في أخدود النار ٥٢٣.

٣- نجران (كعبة-): إسم البيعة التي بناها عرب الجاهلية النصارى، بنو حارث بن كعب ومنهم بنو عبد المدان، في نجران. وسميت «قيس» مضاهاة لكعبة مكة، وكان لها أساقفة وأحبار مقيمون.

٤- نجران (وادي-): مسيل ماء على حدود السعودية واليمن. تتقاسمه الدولتان. جرت فيه معركة الأخدود التي ذكرها القرآن الكريم.

مرجع آخر لا يتعارض، بصورة عامة، مع ما جاء في المنجد، لكنه يزيد عليه معلومات تاريخية مهمة، فيقول (عن أحمد مرتضى عبده، «الحياة»، العدد ١١٦١١، تاريخ ٢ كانون الاول ١٩٩٤، ص٢١):

ذكر ياقوت الحموي في معجم البلدان ان تسمية «نجران ترجع إلى نجران بن زيدان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان لأنه أول من نزلها وعمّرها».

وأخدود كان إسمها «رقمات» قبل حوادث «أخدود النار» (المحرقة التي نزلت بسكانها النصارى). وإذا عدنا لتاريخ رقمات نجد ان ما تخلّف من آثارها قليل قياسًا بقيمتها التاريخية التي تجلت في ما أشار إليه القرآن الكريم في قوله تعالى: «والسماء ذات البروج. واليوم الموعود. وشاهد ومشهود. قتل أصحاب الأخدود. النار ذات الوقود. إذ هم عليها قعود. وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود» (البروج: ٧/١)، وهي الاشارة التي فتحت باب البحث قديمًا وحديثًا لاكتشاف ما حدث لهذه المدينة الزاهرة (كما كانت -أي رقمات- في عصورها الزاهية)، ودفعت بعض الباحثين الاجانب مثل النمسوي غليسر للبحث عما تخفيه رمال الازمنة المتراكمة في هذا المكان. فتمت زيارة غليسر لنجران أواخر القرن التاسع عشر، فأمضى زمنًا في التنقيب والبحث الشاق قبل ان يعثر على كتابات على الصخور ونقوش ورسوم في مواقع مختلفة من الوادي. ومن اكتشافاته كتابات بالخط المسند ثبت استخدامه في دولة حمير التي كانت (كما رأى المؤرخ اليوناني سترابون) سيطرت على نجران بين ١١٥ق.م. و٣٤٠م. ويرى بعض الباحثين ان خط المسند الحميري قريب من الكتابة العربية.

وعثر غليسر ايضًا على رسوم هيروغليفية مصرية قديمة في المنطقة الواقعة بين قرية القابل في الشمال وقرى السودا والحمرا والعرق في الجنوب. ولكنه لم يحاول الربط بين هذه الآثار الهيروغليفية وبين الحضارة القديمة في نجران، وهو الاستنتاج الذي توصل إليه الدكتور عبد العزيز صالح عميد كلية آثار القاهرة سابقًا في كتابه «تاريخ الشرق الادنى القديم»، وتحدث عن إشارات متعددة تفيد بوجود علاقات اقتصادية وثقافية وحضارية بين الدولة المصرية القديمة -على امتداد أسر فرعونية عدة- وبين دول جنوبي الجزيرة العربية في ذلك الحين، وذلك عن طريق الحبشة ومنابع النيل مرورًا بمضيق باب المندب.

وعثر غليسر في جبل الحمراء (وهو مجاور للأخدود) على آثار من العصور الاسلامية المبكرة، منها كتابات كوفية ورسوم متعددة للحيوانات والثعابين. وأكد المؤرخ الرحالة عبدالله فيلبي ان رقمات هي مدينة الأخدود التاريخية وانها كانت عاصمة نجران القديمة، وان ما اكتشف من آثار يعود إليها، وأهمها البئر الارتوازية المبنية بطريقة هندسية دقيقة يشي بها الدرج الحجري المجاور لبعض الاسوار المتينة التي نجت من الدمار، والتي توحي ايضًا بأنها كانت مدينة حصينة ذات قلاع أو حصون أصبحت بفعل الحريق الضخم الذي لف المكان أثرًا بعد عين.

أما تدمير المدينة وخرابها وتحول إسمها من رقمات إلى الأخدود فتعود إلى العام ٥٢٥ حين أمر ذو نواس آخر ملوك حمير النجرانيين بالتحول من النصرانية (التي وصلتهم عن طريق التجار في القرنين الخامس والسادس) إلى اليهودية. لكن الأهالي رفضوا، فحاصرهم وأسر الكثيرين منهم ثم جمع شيوخهم وأهل الرأي والرافضين لدعوته في أخاديد وأحرقهم، وهو الحدث الذي أشارت إليه الآية القرآنية الكريمة. وتحولت المدينة الزاهرة بعد ذلك إلى أطلال طمرتها الرمال والأتربة على مدى العصور حتى قامت الادارة العامة للآثار والمتاحف في السعودية قبل سنوات باشراف الدكتور عبدالله المصري بعمليات بحث وتنقيب في موقع الأخدود. واستمر العمل مدة عامين متصلين إلى ان عثر على بقايا المدينة المنكوبة (رقمات).

* **أعمدة الرجاجيل**: راجع «الجوف» في هذا الباب.

* **الباحة**: مدينة ومنطقة في جنوب غربي السعودية. من أهم مدنها، إليا لباحة، بلجرش، المندق، المخواة، العقيق، بني كبير، بني حسن... وأهم قراها قرية ذي العين الأثرية. ومعظم سكان المنطقة من قبيلتي زهران في الشمال وغامد في الجنوب. بنيت على سفوح جبال المنطقة مدرّجات (يقال لها مصاطب، شبيهة بما هو معروف بـ«الجلول» في لبنان) لزراعة أشجار الفاكهة كالرمان واللوز والعنب، إضافة إلى الخضار والحبوب.

تبدو الباحة مدينة حديثة نشأت في أعقاب الطفرة الاقتصادية التي حدثت في السعودية خلال العقود الثلاثة الماضية. لكن أوراقها القديمة تثبت أنها كانت موطن الصحابي أبو هريرة، ومن أبرز قادتها التاريخيين سفيان بن عوف الغامدي الذي قاد جيش معاوية. ومن شعرائها الشنفري، أحد الشعراء الصعاليك وصاحب «لامية العرب» الشهيرة.

من قرى منطقة الباحة الأثرية قرية ذي العين التي تبعد ٢٥كلم من وسط مدينة الباحة، وهي تقع على قمة جبل صغير، وقد تهدمت معظم منازلها. وهناك قرية عشم التي كانت تشتهر منذ القدم بمناجم الذهب كما تتميز بموقعها على طريق الحجاج اليمنيين. وهناك منطقة ثروق الأثرية التي يرجع تاريخها إلى عهد ما قبل الاسلام، إضافة إلى مناطق برحرح ودرب الفيل الذي يقع على بعد ١٠٠كلم شرقي الباحة، وهو الدرب الذي سلكه جيش

أبرهة الأشرم عندما أراد هدم الكعبة في مكة المكرمة.

* **تاروت، قلعة:** راجع «الدمام» في هذا الباب.

* **تبوك:** مدينة ومنطقة، غربي السعودية شمالي البحر الأحمر. ومدينة تبوك، بموقعها هذا، هي أقرب المدن السعودية من بلاد الشام. والمشاريع والاستثمارات القائمة في تبوك تجعلها من جيل المدن المتولدة حديثًا. وأهم هذه المشاريع ميناء ضباء الذي يوفر عبور المسافرين والبضائع بين السعودية ومصر خلال ساعة أو ٣ ساعات عند أبعد تقدير (افتتح بدء العمل به في تشرين الثاني ١٩٩٤)، ومشروع مصنع الاسمنت في ضباء كذلك، ومشروع طريق تبوك-شرما الذي يقلص المسافة الزمنية بين مدينة تبوك والساحل إلى حوالي الثلث، والذي سينتج عنه صناعات سياحية واستثمارية كبيرة (المصنع والطريق دُشّن العمل بهما في ايار ١٩٩٨).

تاريخيًا، يذكر ياقوت الحموي في «معجم البلدان» ان تبوك موضع بين وادي القرى والشام. وذكر الرحالة المستشرق عبدالله فيلبي انه من المؤكد استغلال الأنباط لمركز تبوك في توسيع رقعة امبراطوريتهم حتى مدائن صالح، بل وإلى أبعد من ذلك إلى الجنوب.

معلمان تاريخيان مهمان في تبوك: القلعة وحطة سكة الحديد.

الخطاب الشعبي يقول إن القلعة بنيت على أنقاض قلعة إسلامية معتمدًا بذلك على منطق ضرورات الدفاع، إذ كانت تبوك ممرًا للروم، وكان غزو الرسول لها ان هرقل قيصر الروم جمع جيوشه فيها. وليس هناك اشارات إلى «القلعة الاسلامية المبكرة» سوى كلمة «تجديد» المنقوشة على باب القلعة الضخم في سنة ١٠٦٤هـ (١٥٤٣) حيث جاء: «أمر بتعمير وتجديد هذه القلعة المباركة مولانا السلطان محمد خان عز نصره، على يد العبد الضعيف محمد بن الناشف التذكرجي سنة أربع وستين وألف». وهذا يدل على انها «عُمرت وجُددت» في عهد النفوذ العثماني على الجزيرة العربية، حتى ان بعض العامة يسميها القلعة التركية.

أما محطة سكة حديد تبوك فقد بدأ العثمانيون بإنشائها في ١٨٩٦، وهي ذات طراز اوروبي، أشرف على بنائها المهندس الالماني ميسنر باشا، وكان الهدف منها دعم النفوذ العثماني في الصحراء. واستخدم الخط الحديدي الذي كان يمر في سورية والاردن وصولاً إلى المدينة المنورة لارسال القوات العثمانية إلى الحجاز وعسير واليمن، وكانت له أهمية كبيرة ايام الحرب العالمية الاولى. وكانت محطة تبوك إحدى المحطات المهمة في هذا الخط (أقصى شمالي الجزيرة العربية وأول جنوبي الشام). وبدأ تسيير خط السكة في ١٩٠٨. وفي ١٩٩٤، انتهت الادارة العامة للآثار والمتاحف في وزارة المعارف السعودية أعمال التسوير والترميم لمباني سكة حديد تبوك حفاظًا عليها من جهة ودفعًا لحركة السياحة الداخلية من جهة أخرى.

* **تيماء:** في الجزء الشمالي الغربي من المملكة وعلى بعد ٢٦٤كلم من تبوك. وهي مدينة أثرية تولى إمارتها في عهد النبوة الصحابي يزيد بن أبي سفيان.

يعود تاريخ منطقة تيماء إلى العصر الحجري الحديث تدل عليه المخلفات الأثرية. ولم يبدأ الاهتمام البحثي بتيماء إلا مع جون فيلبي (الحاج عبدالله فيلبي) الذي عثر هناك على لقى فخارية، ثم توالت المسوحات الأثرية هناك. ومن أهم ما عثر عليه حتى الآن: سور تيماء وبئر هداج وقصر الحمراء وقصر الرضم وقصر الأبلق الذي يمتاز بسوره الضخم، ويروى ان الزباء (زنوبيا) حاولت إخضاع سكان الابلق المحصنين داخل سورهم العملاق، ففشلت، فأطلقت العبارة «تمرد مارد وعزّ الأبلق» فصارت مثلاً. وكانت ملكيته للشاعر الجاهلي السموأل.

كانت تيماء مركزًا تجاريًا مهمًا في مرحلة موغلة بالقدم حيث كانت تسود في شبه الجزيرة العربية تجارة القوافل. وعثر على كتابات بالخط الآرامي عن تيماء القديمة منقوشة على «مسلة تيماء» الشهيرة التي وجدت ضمن اللقى الأثرية في بئر هداج. ووجدت على واجهة المسلة كتابة أخرى بالخط العربي القديم. وهذه المسلة محفوظة في متحف اللوفر في باريس. ومن النقوش التي عثر عليها ايضًا في تيماء مجموعة من النقوش الثمودية والاسلامية محفورة على واجهات الصخور بالخط الكوفي.

ذكر مؤرخو العرب أن تيماء كانت عاصمة لمملكة العمالقة، لأن أول مَن نزلها هم العمالقة من بني سام، لكن المؤرخين كانوا يطلقون إسم العمالقة والعماليق على الأمم القديمة التي يشاهدون لها آثارًا قوية.

ورد ذكر تيماء في نصوص العهد القديم (التوراة)، وعنها قال أشعيا: «كان سكان الارض تيماء يجلبون الماء إلى كل من به ظمأ». وربما كان ذلك إشارة إلى ما تواتر تاريخيًا عن أرض تيماء من انها كانت ملأى بالآبار العظيمة التي لا مثيل لها في ايام الجزيرة العربية كلها، وهذا ما جعلها في أيام الجاهلية مركزًا عظيمًا لتجارة
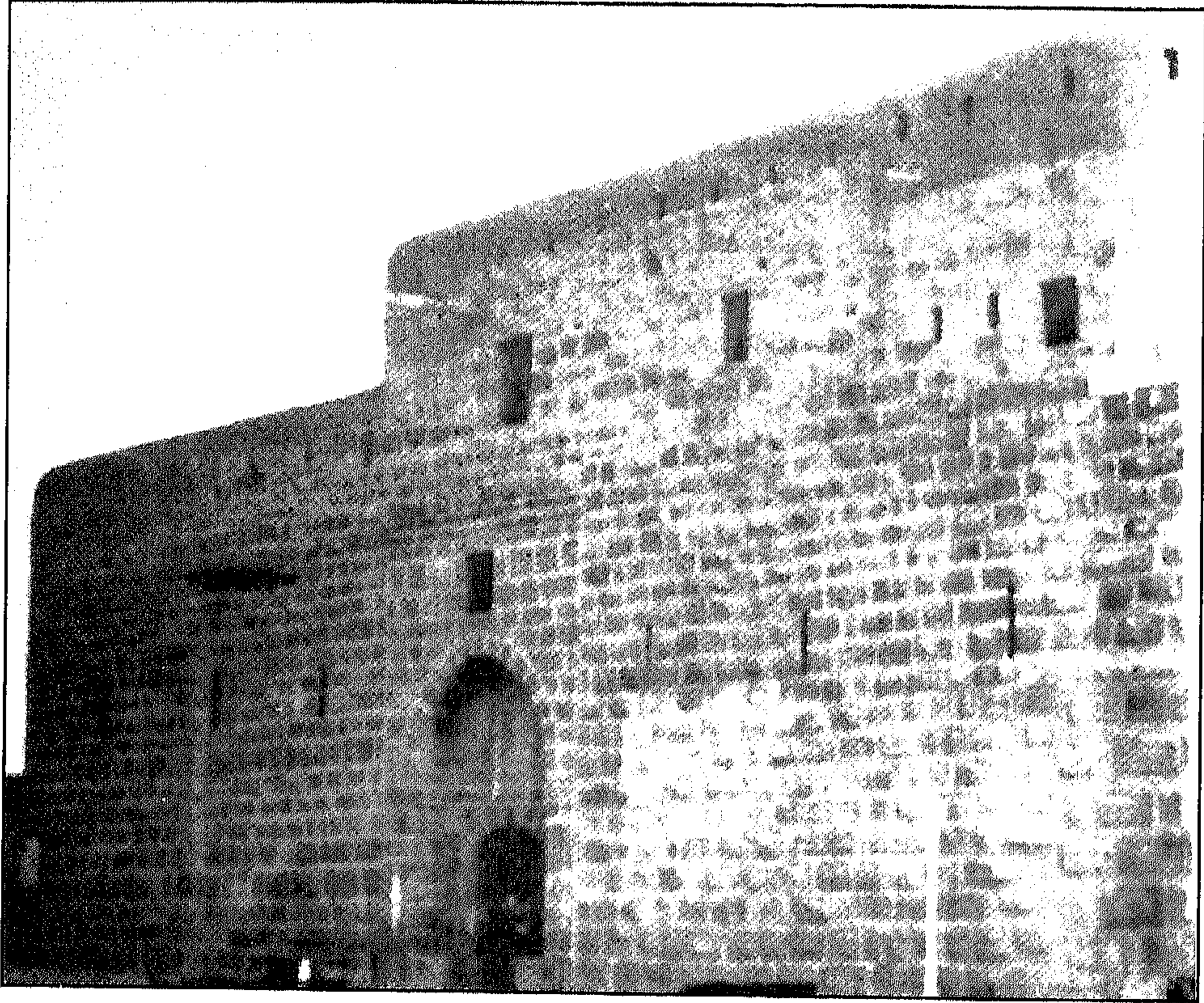
جانب من قلعة تبوك.

أطلال قصر الحمراء (الابلق) في تيماء.

القوافل ومقرًا للثقافة العربية القديمة. كما ذكر في التوراة ان واحة تيماء كانت تابعة لقبائل من بني اسماعيل.

يقول جون (عبدالله) فيلبي ان تيماء كانت يومًا ما العاصمة الصيفية للملك نبو نيد ملك بابل» (٥٥٦-٥٣٩ق.م.). ويقول عبد الرحمن السديري في كتابه «وادي النفاخ» ان الملك نبو نيد قام في السنة الثالثة من حكمه بحملة على دومة الجندل ومنها سار إلى تيماء التي اتخذها مقرًا له وأمضى بها أربع سنوات وابتنى «الأبلق»- وهو قصر ضخم كالقصر الذي في بابل- وبقي فيها حتى اضطر إلى تركها بعد اقتراب الفرس الذين أخذوا يهددون املاكه في العراق.

* **ثمود:** راجع «مدائن صالح وثمود» في هذا الباب.

* **الجبيل:** نشأت بلدة الجبيل (١٩١٠) على زاوية ساحلية في الشمال الشرقي من شاطىء الخليج العربي في منطقة الشرقية، وتوسعت تدريجيًا من مساحة لا تتجاوز الكيلومتر المربع الواحد إلى مساحة تصل إلى ألفي كلم م. تقريبًا بعد قيام مشروع الجبيل الصناعية، واكتشاف حقل البري المغمور وإنشاء القاعدة البحرية، وتبعد عن مدينة الدمام ٨٠كلم، وتشكل مع مجموعة القرى والمواقع التابعة لها سهلاً ساحليًا يمتد بضعة كيلومترات على شاطىء الخليج العربي.

أشار أول إحصاء سكاني للجبيل (قبل الحرب العالمية الثانية) إلى ان عدد سكانها كان نحو ألفي نسمة. وذكر إحصاء ١٩٧٤ إلى ان العدد وصل إلى ٨٧٢٤ نسمة، وشمل البلدة (الجبيل) والقرى الخمس عشرة وموارد المياه الستة التابعة لامارتها حسب ما جاء في إحصائية المنطقة الشرقية.

لكن سكانها اليوم تضاعفوا عدة مرات وأغلبهم من العمال والمستخدمين الذين جاءوا من جنوب شرقي آسيا ممن يعملون في مشروعات الجبيل. ويقيم في الجبيل الصناعية وحدها نحو ٥٠ ألف نسمة يمثلون ما يقارب من ستين جنسية. وتشير تقديرات الهيئة الملكية بالجبيل إلى انهم سيصبحون بحدود ٣٥٠ ألف نسمة بعد استكمال مشروعاتها أي في ١٩٩٩.

ذهب بعض المؤرخين إلى ان الاسم، «جبيل»، فينيقي، له أبعاده التاريخية، خصوصًا مع وجود مدن أخرى تحمل الاسم نفسه في الساحل الشرقي الجنوبي للبحر المتوسط، حيث عاش الفينيقيون قبل ٣٠٠٠ سنة متجولين على معظم سواحل البحر المتوسط نازحين إلى هذه المنطقة من منطقة الخليج العربي. ويستدل من الآثار التي عثرت عليها ادارة المتاحف والآثار في المملكة، في عدة مواقع، ما يثبت انتماء جبيل والمنطقة الشرقية إلى حضارة بلاد ما بين النهرين.

مرت الجبيل بعدة مراحل قبل ان تصل إلى مرحلة الازدهار التي هي عليها الآن:

– مرحلة الغوص للبحث عن اللؤلؤ والاتجار به، وهي المهنة التي اجتذبت الكثير من أبناء شبه الجزيرة العربية. وكان تجار اللؤلؤ من أهل الجبيل يصلون إلى الهند ودول جنوب شرقي آسيا.

– مرحلة شركة أرامكو وإقامتها في الجبيل، حيث توافرت فرص العمل ابتداء من كانون الاول ١٩٣٢ عندما وصلت أول بعثة جيولوجية مكونة من ر.ب.ميلر، وس.ب.هنري، وكارل تويتشل، ونزلت بقصر برزان ومكثت هناك ما يقرب من ثلاث سنوات قبل ان تفكر في نقل مقر البعثة إلى مدينة الظهران.

– مرحلة الازدهار الاقتصادي لمدينة جبيل كأحد الموانىء الرئيسية على الساحل الشرقي. ويدخل ضمن إطار هذه المرحلة الفترة التي تلت الحرب العالمية الثانية عندما اجتاحت الازمة الاقتصادية (والمجاعة احيانًا) معظم بلدان العالم، بينما كانت ترد عن طريق الجبيل الأغذية من الحبوب وغيرها، حيث قامت بدور الإمداد بالمواد الغذائية لمنطقة نجد ومعظم انحاء شبه الجزيرة.

–مرحلة التصنيع الحالية، حيث تمّ بدء بناء المدينة الصناعية وملحقاتها في عهد الملك خالد بن عبد العزيز الذي قام بوضع حجر الأساس للمدينة، وافتتحها في ١٩٧٦. فأصبحت أهمية الجبيل ترتبط بانتاج البترول والغاز وتصنيعهما. وكان الملك خالد أصدر، في ١٩٧٥، مرسومًا ملكيًا يقضي بتأسيس «الهيئة الملكية للجبيل وينبع». ولم يقتصر هذا المرسوم على منح الهيئة الملكية (ورئيسها، تبعًا لهيكلها التنظيمي، هو الملك نفسه) سلطات كاملة فقط لتطوير وإنشاء وادارة وتشغيل التجهيزات الأساسية في كل من الجبيل وينبع، بل منحها ايضًا صلاحيات خاصة يتمثل أهمها في تخصيص ميزانية مستقلة لها، ومنحها استقلالاً إداريًا، مما جعلها مؤسسة فريدة في نوعها في المملكة، وذلك لمواكبة التطوير وتوفير الخدمات في أقصر وقت ممكن.

في الثلاثينات، وما تلاها، لم تتأثر بلدة الجبيل

بسبب اكتشاف النفط في المنطقة الشرقية تأثرًا ملحوظًا، وبقيت إلى السنوات الأخيرة (أي إلى انطلاق المدينة الصناعية فيها) قرية صغيرة لا سيما بعد تطور مدينة الدمام وارتحال معظم رجال المال والاعمال إليها. لكن نظرًا إلى وجود مساحات شاسعة من الاراضي وتوسعها الجغرافي في المنطقة وعمق الشواطىء المحيطة بها (الضرورية للميناء) وبسبب قربها من حقل البري المعروف بتوافر النفط والغاز، اختيرت لتكون موقعًا للمدينة الصناعية بعد ان أكدت الدراسات التي أجريت مع عدة شركات عالمية على أفضلية هذا الموقع؛ واستكملت هذه الدراسات لا سيما بعد إنشاء «بترومين» باعتبارها مؤسسة وطنية معنية بتنفيذ مثل هذه المشروعات، وكان باكورة عملها إنشاء شركة «سابك»، ثم تتابعت المشاريع الصناعية الأخرى.

ويضم ساحل مدينة الجبيل الصناعية ميناءين عصريين هما ميناء الجبيل التجاري في الجنوب، وميناء الملك فهد الصناعي في الشمال الذي صمم ليكون منسجمًا مع حركة التطور الصناعي التي تشهدها مدينة الجبيل الصناعية. كما يوجد في هذه المدينة مطار لاستقبال الرحلات الخاصة ورحلات الشحن، وتقع منطقة المطار إلى الغرب من المنطقة السكنية.

أما المنطقة السكنية فتقع إلى الشمال من المنطقة الصناعية بمساحة إجمالية قدرها ١٦٨كلم م.، ويفصلها عن المنطقة الصناعية مساحة واسعة ومفتوحة، وتحيطها الأشجار من كل جانب ومطلة على الخليج بشاطىء طوله ٤٦كلم. وقد بنيت مساكن المنطقة على طراز يجمع بين الأساليب الحديثة والتقاليد العربية. ومن المتوقع أن تستوعب المنطقة عند نهاية هذا القرن نحو ٣٥٠ ألف نسمة (عن كتاب «الجبيل وينبع شواهد التصنيع والنبوغ»، وزارة الاعلام السعودي، ١٩٩٣، من ص٢٣ إلى ص٩٨).

نماذج من الوحدات السكنية في مدينة الجبيل الصناعية.
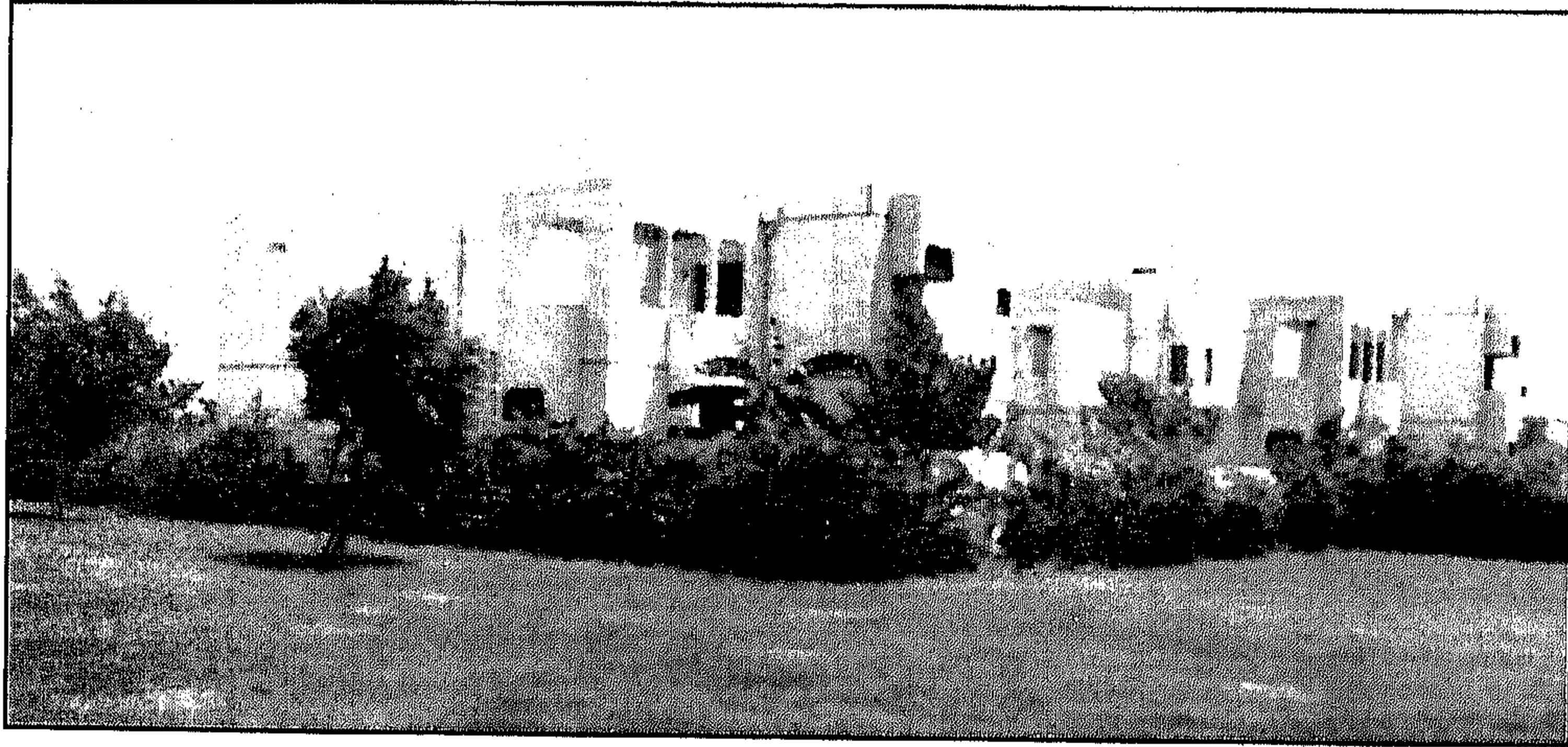
مبنى الهيئة الملكية بالجبيل.
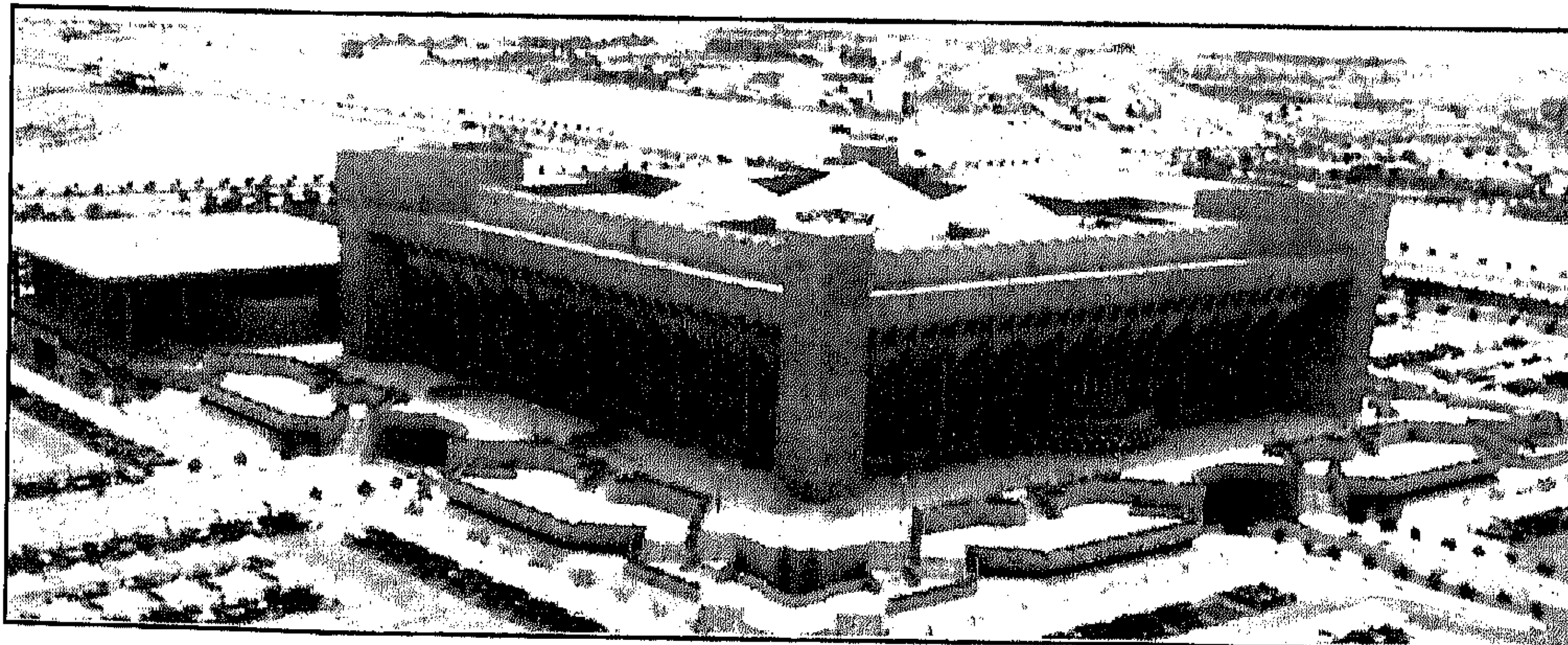
* **جدة:** تقع مدينة جدة على ساحل البحر الأحمر في السهل الساحلي (سهل تهامة)، وتغطي مساحة ٣٨١٠ كلم م.. شهدت تطورها العصري منذ ١٩٤٧ حين أمر الملك عبد العزيز بهدم سور المدينة لتبدأ نموها الكبير في اتجاه الشمال والجنوب والشرق.

تتميز مدينة جدة بانفتاحها على العالم، وتعتبر بوابة الحجيج، إذ يقدم منها الحجاج والمعتمرون إلى مكة المكرمة، مما يجعلها المدينة الثانية (بعد الرياض) في المملكة من الناحية الثقافية والتجارية. ويعتبر مطار جدة الجوي (مطار الملك عبد العزيز الدولي) من أكبر مطارات العالم، كما يعتبر ميناؤها الاسلامي ميناء بحريًا مهمًا في البلاد حيث يعود إنشاؤه إلى أكثر من ١٣٠٠ عام.

أهم معالم جدة العصرية والحضارية الكورنيش الذي استغرق تنفيذه واستكمال أهم مرافق خدماته حوالي خمس سنوات، ويمتد شمالاً وجنوبًا إلى أكثر من ١٠٠ كلم، ويحتوي مجموعة من البحيرات الصناعية وأماكن الترفيه والمنتزهات والملاعب، وتتوسطه نافورة تندفع مياهها إلى علو ٢٦١م، وبلغت كلفة إنشائها نحو ١٥ مليون ريال. وهي أكبر وأشهر وأجمل نافورة مياه في العالم.

ومثل أي مدينة عريقة، تنقسم جدة إلى ناحيتين: القديمة والحديثة. ومن أشهر أحياء جدة القديمة حارات الشام واليمن ومظلوم. ولا يزال الكثير من أبناء جدة يصرون على السكن في مبانيها القديمة.

ترجع نشأة جدة إلى طائفة من الصيادين اتخذوا العرائش (مباني من القش) مساكن لهم يأوون إليها بعد رحلات الصيد التي كانوا يقومون بها في عرض البحر الأحمر. وبعد اتخاذها ميناء لمكة المكرمة، بدأت السفن تبحر منها إلى الحبشة وإلى الشمال والجنوب ثم إلى الشرق نحو بلاد فارس. وذكر ابن جبير (توفي ١٢١٧م) في رحلته إلى الاراضي الحجازية في عصر صلاح الدين الأيوبي ان في جدة آثارًا تدل على انها مدينة قديمة. ومن هذه الآثار ما وجد في وادي قوس، ويقع على بعد ١٥ كلم شمال شرقي جدة، والأثر يشتمل على تضرع لأحد أبناء ثمود ان يمنحه الإله الكمال والود والسلام، ولذلك قيل أن ثمود سكنت جدة. وبعدها جاء قضاعة بن معد بن عدنان وأبناؤه، فأقاموا فيها. ومعد بن عدنان هو الجد التاسع عشر لرسول الله.

وتشتهر جدة قديمًا بسورها الذي يذكر ان سلطان مصر المملوكي قانصوه الغوري هو الذي أمر ببنائه (١٥٠٥)، وقد وجد إسمه منقوشًا على حجر في باب

المقر الرئيسي للبنك الاسلامي في جدة.

تتوسط كورنيش جدة اعلى واجمل نافورة ماء في العالم.

مكة، وهو أحد أبواب السور. والأرجح أن بناء السور جاء لحماية المدينة من الخطر البرتغالي.

مع انتصار العثمانيين على المماليك (١٥١٧)، انتقلت تبعية الحجاز إلى الدولة العثمانية. وفي ١٥٤١، جرّد البرتغاليون حملة بهدف تحطيم الاسطول العثماني في السويس ولكنهم فشلوا في ذلك، إلا ان ميناء جدة تعرّض للتخريب من قبل الحملة وهي في طريقها إلى السويس. وفي فترة الحكم العثماني المباشر لجدة التي بدأت في أعقاب خروج محمد علي باشا من الحجاز سنة ١٨٤٠، شهد الميناء تنظيمات ادارية وأمنية متعددة ترافقت مع تطورات الاحداث السياسية حتى رحيل الاتراك عن الحجاز في اواخر الحرب العالمية الاولى. وكانت عائدات الميناء الجمركية تقسم بين شريف مكة ووالي جدة العثماني.

تقوم إدارة حماية جدة ومنطقتها التاريخية (أنشئت في ١٩٩١) بأعمال الترميم للبيوتات القديمة ذات الطراز الاسلامي، وإحياء الاسواق القديمة. ومن أهم إنجازات هذه الادارة اكتشاف عين «فرج يسر» الواقعة في قلب جدة القديمة التي كان يتم فيها تخزين المواد الغذائية، وإعادة أجزاء من سور جدة القديمة، إضافة إلى إحياء الحرف القديمة.

* **الجوف:** الجوف منطقة في شمالي السعودية، ظهرت على مسرح التاريخ المدون في العهد الآشوري في نصوص مكتوبة ومفصلة من خلال الحديث عن الغزوات الآشورية لشمالي الجزيرة العربية. فيتميز موقع الجوف بأهمية بالغة كونه ملتقى ومنفذًا لطرق رئيسية، فكان معبرًا (ومقرًا) للحضارات الشمالية وحضارات وادي الرافدين.

تتكون منطقة الجوف من عدة مدن وقرى كبيرة، لعل أهمها تاريخيًا دومة الجندل وسكاكا (عاصمة الجوف) والطوير وقارا.

وتحتشد في المنطقة مواقع أثرية عدة بعضها يعود إلى ما قبل الميلاد مثل قلعة مارد، وبعضها إلى ما بعده مثل بلدة دومة الجندل العتيقة وقلعة الطوير التي تمتلىء جدرانها الخارجية بنقوش ثمودية وآشورية وعبرانية تعود لعصور مختلفة. لكن أقدم المواقع الأثرية في تلك المنطقة ذلك المسمّى بـ«أعمدة الرجاجيل».

وهذا الموقع، أعمدة الرجاجيل، يحتل دائرة كبيرة غير منتظمة يبلغ طول شعاعها ٤٠٠م تقريبًا، ويقع على مسافة ١٠كلم إلى الجنوب من سكاكا، ويحتوي على ٥٠ مجموعة من الأعمدة الحجرية المنتصبة ارتفاع كل منها ثلاثة امتار تقريبًا، وتتجه الأوجه المسطحة لتلك الأعمدة إما إلى الشرق أو إلى الغرب، مما يرجح وجود علاقة بطقوس دينية معينة، أو للاستدلال على الجهات الأربع أو لأي سبب

مسجد عمر من الداخل في دومة الجندل.
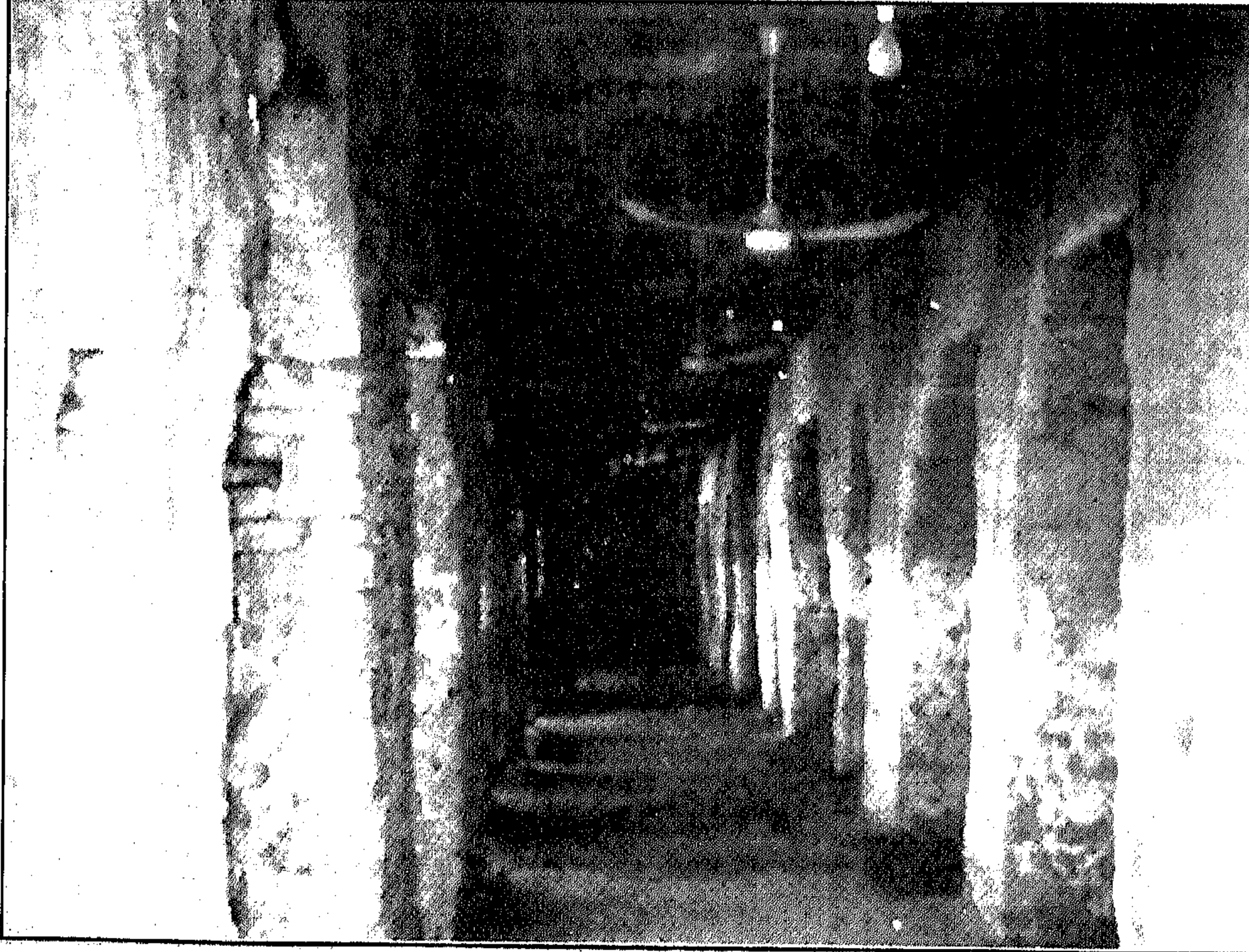
آخر. وثمة اعتقاد يقول إن هذه الاحجار المتكومة في دائرة تنتصف الموقع تمامًا قد تكون بمثابة المركز الأهم له، وهو ما قد يكون مذبحًا أو مكانًا لتقديم القرابين، أو أن تكون له علاقة بمحاولات سكان المكان القدامى تفسير الفلك أو مراقبة حركة النجوم، وما إلى ذلك من التحليلات الأركيولوجية أو الجيولوجية (من المهم جدًا، هنا، إحالة القارىء إلى العنوان الفرعي التالي: «ستونهنج» Stonehenge، الوارد في باب «مدن ومعالم»، في مادة «بريطانيا»، ج٥، ص١٩٧-١٩٩، حيث يقع على تشابه مدهش).

وهناك قلعة مارد في دومة الجندل الواقعة على ارتفاع نحو ٧٠٠م عن سطح البحر، ويرجح تاريخها إلى أكثر من ألفي عام، وورد ذكرها في المدونات الآشورية التي تحدثت عن دومة الجندل بوصفها عاصمة لعدد من الملكات العربيات. وقد حاولت زنوبيا اقتحام القلعة و لم تفلح. وكشفت الحفريات (١٩٧٦) عن بعض الخزفيات النبطية والرومانية، إضافة إلى نصوص ثمودية.

وتظهر دومة الجندل مرة أخرى في التاريخ في القرن الخامس عندما سيطر عليها امرؤ القيس الذي كان يستوطن العراق مع قبيلته في الحيرة ولكنها ارتحلت في النهاية إلى دومة الجندل، وقد ازدادت قوته في الجزء الشمالي من الجزيرة العربية حتى انه سيطر على المناطق المعروفة الآن باسم الاردن، كما استطاع الاستيلاء على جزيرة تيران من البيزنطيين والتي تقع عند مدخل خليج العقبة. وفي العصر الاسلامي، تعرضت قلعة دومة الجندل لثلاث حملات، وسقطت في الرابعة. الاولى (٦٢٦) التي يُقال إن الرسول قادها بنفسه، والثانية (٦٢٨) بقيادة عبد الرحمن بن عوف، والثالثة (٦٣٠) بقيادة خالد بن الوليد، والرابعة (٦٣٣) في عهد الخليفة أبي بكر وكانت بقيادة خالد بن الوليد وعياض بن غنم.

في دومة الجندل أحد الآثار الاسلامية المبكرة التي لم تصلها عوامل التغيير الحديثة إلا قليلاً، وهو مسجد عمر. «يقع المسجد في جوار باب البرج، أحد بابي مدينة دومة الجندل القديمة (الآخر هو باب النقيب). ويميل الاعتقاد إلى ان الخليفة عمر بن الخطاب أمر ببنائه في السنة السابعة عشرة للهجرة (٦٣٨م) عندما كان في طريقه إلى بيت المقدس. شيد المسجد بالحجارة القوية التي ربما كانت نقلت من قصر (أو قلعة) مارد الذي يشرف على المسجد بشكل مباشر، وقد طالته الاصلاحات والتجديدات على مر العصور وكان آخرها في عهد الامام عبد العزيز بن سعود في بداية فترة دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب إبان الدولة السعودية الأولى (...) واهتم عدد كبير من علماء الآثار الاجانب والعرب بهذا المعلم الأثري وتكررت زياراتهم له، كما تعددت بحوثهم العلمية الموثقة عنه، ومن هؤلاء الدكتور جيفري كنغ الذي أوفدته جامعة الملك سعود العام ١٩٧٥ فوضع وصفًا مفصلاً عن المسجد وساهم إلى حد بعيد في تأكيد الروايات التي ذهبت إلى تاريخ إنشائه. كما تعددت زيارات الرحالة الاوروبيين للمنطقة وللمسجد في القرن التاسع عشر، ومنهم الرحالة جورج والن الذي زار الجوف العام ١٨٤٥ وأورد وصفًا مختصرًا عن المسجد في كتابه الذي وضعه عن رحلاته في تلك الفترة. وقال والن إن مئذنة المسجد كانت الوحيدة في دومة الجندل في حين كان كثير من مساجد الجزيرة العربية وقتذاك بلا مآذن، ولكنه ذهب إلى ان المسجد ربما كان كنيسة قبل الاسلام لأن الديانة النصرانية وجدت في المنطقة آنذاك، اعتمادًا على قول ابن خلدون إن الديانة الرئيسية في دومة الجندل قبل الاسلام كانت النصرانية، في حين ذهب ياقوت الحموي إلى القول إن الديانة اليهودية كانت موجودة هناك ايضًا، أي ان الديانتين انتشرتا في دومة الجندل قبل ظهور الاسلام، ولكن الغلبة كانت للنصرانية وخصوصًا في القرن السابع الميلادي، وربما قبل ذلك» (عن أحمد مرتضى عبده، «الحياة»، ١٢ حزيران ١٩٩٤).

وفي ١٩٧٦ استطاعت بعثة أثرية «اكتشاف بلدة الطوير القديمة في منطقة مستوية من الارض مساحتها ٥٠٠×٢٠٠م.... عثر فيها على بقايا سور قديم من الطين وعلى خزفيات نبطية زرقاء وخضراء، من المحتمل انها ترجع إلى القرن الاول ق.م. ويرجح هذا الاحتمال ما أشار إليه الجغرافي اليوناني بطليموس من ان هذه المنطقة كانت مأهولة بالسكان في تلك الفترة. وفوق مجموعة كبيرة من الصخور قلعة الطوير... وتوجد على الصخور المقامة عليها القلعة نقوش ثمودية وأخرى نبطية... والقلعة ملكية خاصة بالشيخ عبد الرحمن المويشير» (أحمد مرتضى عبده، «الوسط» العدد ١٢٥، ٢٠ حزيران ١٩٩٤، ص٦١).

* **حريملاء (حريملة)**: تقع مدينة حريملاء على ضفتي وادي الشعيب إلى الشمال الغربي من العاصمة الرياض وتبعد عنها نحو ٨٦كلم.

يعتقد ان الاسم «حريملاء» تصغير لـ«حرملاء» الوارد في قصيدة للشاعر الجاهلي أوس بن حجر. وظل إسمها يتردد في العصور الاسلامية المتعاقبة، حتى جاء القرن

الخامس عشر إذ تذكر الروايات أن شخصًا يدعى يوسف أبو ريشة هاجر من الشام إلى نجد حيث اختار حريملاء واستصلحها وعمّرها وحفر فيها الآبار وأحاطها بسور كبير ما زال يعرف باسم «حامي أبو ريشة». غير انه اضطر لاحقًا للعودة إلى الشام، فصارت حريملاء جزءًا من إمارة العطيان، ثم حكمها آل معمر وبعدهم آل أبو رباع... وآل ملحم أمراء العيينة، إلى ان استقر فيها الشيخ محمد بن عبد الوهاب وانطلق بدعوته الوهابية. ومع تعيين الامير محمد بن عبدا لله مبارك أميرًا على حريملاء (في أربعينات القرن الثامن عشر، أي مع انطلاق الدعوة الوهابية) أخذت البلدة تتطور وتنمو بالتدريج.

من أهم معالمها الباقية دار الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وتتولى صيانتها والمحافظة عليها الادارة العامة للآثار والمتاحف في السعودية.

* **الخبر**: راجع «المنطقة الشرقية» في هذا الباب.

* **خيبر**: إحدى أقدم الواحات التي استوطنها الانسان في شبه الجزيرة العربية. تقع على بعد ١٧٠ كلم إلى الشرق من المدينة المنورة. دان أهلها العرب باليهودية-التي كانت منتشرة بين بعض القبائل العربية ومناطقها مثل تيماء ونجران بالاضافة إلى خيبر-قبل ان يفتح المسلمون حصونها (غزوة خيبر) في شهر محرم من السنة السابعة للهجرة (٦٢٨). وكانت من أخصب الواحات في شبه الجزيرة، ولها سوق تسمى «نطاة خيبر» تقام مرة كل عام وتجتمع فيها قبائل العرب من تيماء وتبوك ومدائن صالح.

زار جون (الحاج عبدا لله) فيلبي خيبر، اوائل هذا القرن، ووجد كثيرًا من الآثار العربية التي تعود إلى عهد ثمود، و لم يعثر على أية آثار عبرانية، أو أي نقش عبري يحمل إسم أي يهودي أو يتحدث عن نشاط اليهود في خيبر.

في خيبر حصون كثيرة، أشهرها حصن القموص المنيع الذي يسمى حاليًا حصن علي بن ابي طالب. جميع دور خيبر المبنية من الجص، وأضحت بلا سقوف، مهجورة الآن، فقد انتقل أهل خيبر إلى مدينة «خيبر» الحديثة على بعد كيلومترات قليلة إلى الغرب.

* **الدرعية**: تقع في الجهة الشمالية من وادي حنيفة غربي الرياض وتبعد عنها نحو ٣٢ كلم. تعدّ العاصمة الدينية والسياسية الأولى لآل سعود. أسسها الأمير مانع (١٤٤٦). وفي القرن الثامن عشر تزامنت ولاية الامام محمد بن سعود، حاكم الدرعية، مع ظهور الشيخ محمد بن عبد الوهاب. وقد كانت الدرعية مسرحًا لحروب الجيش المصري للقضاء على الحركة الوهابية.

آثار الدرعية – عاصمة آل سعود الاولى – كما هي اليوم وقد أنشأت الحكومة السعودية مدينة حديثة الى جانبها بالاسم نفسه اتصل عمرانها بعمران الرياض العاصمة.

جاء في فصل «الدرعية وموجز تاريخ أمرائها آل سعود» (من كتاب «تاريخ الجزيرة العربية في عصر الشيخ محمد بن عبد الوهاب» لمؤلفه حسين خلف الشيخ خزعل، دار ومكتبة الهلال، بيروت، بدون تاريخ، ص١٤٩–١٥٨) ان مانع المريدي ينتسب إلى فخذ آل علي من بطون مسلّم من قبيلة عنزة أكبر القبائل العربية التي انتسبت إلى أبيها عنزة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان. وديار عنزة في اواسط نجد بينها وبين شمال الحجاز وقد انتشرت منها فروع في بعض البلاد العربية.

وكان مانع يسكن بلدة الدروع من أعمال القطيف في منطقة الاحساء فضاق به العيش في تلك المنطقة ودارت بينه وبين ابن عم له يدعى درع رئيس حجر والجزاعة الواقعتين قرب الرياض مكاتبات حتى دعاه ابن عمه درع للقدوم إليه والنزول بجواره. فقبل مانع هذه الدعوة وهاجر بأولاده وأسرته مع رجال من قبيلته من القطيف، وأتى ابن عمه في حجر فوهبه أرضًا مهجورة قرب الملقي من وادي حنيفة تدعى المليبيد وعصيبة، فنزلها ومَن معه واتسع بالعمارة والغرس في نواحيها، وأشاد فيها قرية واتخذها سكنًا له ولمن معه وسماها «الدرعية» على إسم قرية كانت لهم في نواحي قطيف، وذلك عام ١٤٤٦.

وتوارث أبناء مانع وأحفاده رئاسة العشيرة، وكانت حروب قبائلية على عادة ذلك الوقت (خاصة مع آل يزيد)، وخلافات وفتن.

وبعد مانع جاء ابنه ربيعة، ثم موسى بن ربيعة، ثم ابراهيم بن موسى، ثم مرخان بن ابراهيم... وبعد استيلاء بني خالد على الدرعية لمدة نحو ١٥ سنة (١٦٩٥–١٧٠٩)، عادت إمارة الدرعية لكبير فرع آل وطبان من أحفاد مانع المريدي المدعو موسى بن ربيعة بن وطبان. ولكن موسى لم يحسن السيرة، فثار عليه أهل الدرعية، وكان على رأس الثائرين سعود بن محمد بن مقرن، فخلعوه عن الامارة (١٧١٩)، وتولّى سعود إمارة الدرعية.

بعد وفاة سعود (١٧٢٤) آلت الامارة إلى زيد بن مرخان الذي اراد غزو العيينة لما رأى فيها الاموال الكثيرة والخيرات الدفاقة. لكن أميرها تمكن من زيد بالحيلة وصرعه مع بعض رجاله، وكان بينهم محمد بن سعود الذي تمكن من النجاة. فعاد إلى الدرعية والتف حوله أهلها وبايعوه بالرئاسة (١٧٢٥).

كانت مدة حكم محمد بن سعود بن مقرن بن مرخان أربعين عامًا (١٧٢٥–١٧٦٥) قضى نصفها قبل مقدم الشيخ محمد بن عبد الوهاب إلى الدرعية ونصفها الآخر مع الشيخ، وتزوج إحدى بنات الشيخ.

حرم جامعة الملك سعود في الدرعية.

واستطاع الأمير محمد بن سعود بما أظهره من الدهاء والحكمة ان يقرّ الأمن في الدرعية، ويقضي على الدسائس. وكانت ادارته على اسلوب عشائري بدائي لبلدة صغيرة لم يتجاوز عدد بيوتها يومئذ السبعين بيتًا. أما ازدهار الدرعية فبدأ في السنة التي هاجر إليها الشيخ محمد بن عبد الوهاب (١٧٤٤)، ومبايعة الأمير محمد بن سعود له على حماية دعوته. فبدأت الدرعية تلقي رسالتها وتبني نهضتها وتشيد أسس دولة جديدة في نجد وغيرها من بلاد جزيرة العرب.

ولما ضاقت دار الشيخ بالطلاب والمصلين، أمر محمد بن سعود ببناء مسجد يتسع لجميع المصلين، واشترك ببنائه أهل الدرعية وتلامذة الشيخ وأتباعه. وجرى التآخي بين المهاجرين وأهل الدرعية، وحفّز الشيخ الجميع على العمل. وكان لحلف الشيخ محمد بن عبد الوهاب والأمير محمد بن سعود من شأن ديني وسياسي وعسكري تعاظم يومًا بعد يوم.

من أهم معالم الدرعية: قصر سلوى الذي وضعت دعائمه الاولى في عهد الامير محمد بن مقرن، واستكمل في عهد الامام محمد بن سعود بن مقرن (١٧٢٥-١٧٦٥) مؤسس الدولة السعودية الاولى، وكان مقرًا لأمراء وأئمة آل سعود طوال حكم هذه الدولة. ومسجد الإمام محمد بن سعود (مسجد الطريف)، وقصر الإمام عبدالله بن سعود، ويعد أكبر قصور منطقة الدرعية، ونجد عمومًا، وأقيم على مساحة تقارب عشرة آلاف متر مربع. ومسجد وسبالة موضي المرجح ان بناءهما اكتمل خلال الفترة السعودية الاولى، وبدأ استخدامهما في القرن الثامن عشر عندما كانت الدرعية في أوج ازدهارها وتوسعها العمراني.

في العصر الحديث، أعيد استيطان مدينة الدرعية، ومنح الامراء كثيرًا من مساكنها القديمة للمواطنين في شكل هبات أو عطايا.

* **الدمام:** راجع «المنطقة الشرقية» في هذا الباب.

* **دومة الجندل:** راجع «الجوف» في هذا الباب.

* **الربذة:** تبعد مدينة الربذة ٢٠٠كلم جنوب شرقي المدينة المنورة على حافة جبال الحجاز الغربية. ارتبط إسمها بالصحابي الجليل أبي ذر الغفاري الذي سكنها في سنة ٣٠هـ (٦٥١-٦٥٢) زمن الخليفة عثمان بن عفان واختط بها مسجدًا.

كانت الربذة أهم محطات طريق الحج بين الكوفة ومكة المعروف بـ«درب زبيدة» نسبة إلى زبيدة أم جعفر زوجة الخليفة الرشيد. وبلغ عددها ٢٧ محطة عدا الاستراحات الصغيرة المعروفة باسم «المتعشي» وهي المحطة بين محطتين رئيسيتين. وأطلال بعض هذه المحطات لا تزال ظاهرة.

كشفت الحفريات الأثرية عن وجود مسجدين في موقع الربذة. كما عثر على حصن أو نموذج لقصر عربي محصن في ساحته الداخلية خزانات أرضية لحفظ المياه، وعلى موضع لصهر الزجاج. وعثر على وحدات سكنية متصلة تجمع بين المساكن والأسواق، وخزائن لحفظ الحبوب. وهناك ايضًا سلسلة من التلال الأثرية كشفت عن ان المنطقة شهدت فترتين سكنيتين.

وعثر على كثير من شواهد القبور والكتابات الجدارية وكتابات أخرى على عظام الجمال، تعود إلى نهاية القرن الهجري الاول، وعلى أدوات خشبية، مثل الامشاط وأدوات للغزل وأنوال وبعض الأثاثات الخشبية والعاجية، وعلى أدوات حجرية استخدمت للطبخ، ومباخر تعود زخارف بعضها لفترات سابقة للاسلام.

وفي ما يتعلق بالمسكوكات عثر على درهم ساساني (٧٠٥-٧١٥)، ودراهم فضية تعود إلى العصر العباسي.

* **رُجال:** قرية على بعد ٧٠كلم إلى الغرب من مدينة أبها. ولارتباطها التاريخي بقبيلة ألمع أصبحت تعرف بـ«رُجال ألمع». ملتقى طرق التجارة القديمة وأحد مراكزها المهمة حتى العهد السعودي. أبنيتها الحجرية القديمة التي يزيد عمر بعضها على ٦٠٠ عام وما زالت مأهولة هي أهم معالمها التاريخية.

حوّل الأهالي قصر مسمار الذي شيّد في ١٥٢٢ من خمسة أدوار ويعود لأسرة «آل علوان» إلى متحف جمعوا له ما يحتفظون به من تراث الأجداد، وافتتحه الأمير الشاعر خالد الفيصل أمير منطقة عسير في ١٩٨٦، وأطلق عليه إسم «معرض ألمع الدائم للتراث».

* **رقمات:** راجع «الأخدود» في هذا الباب.

* **الرياض:** عاصمة المملكة العربية السعودية. تقع في وادي حنيفة الذي يبتدئ في غربي طويق ثم يتجه نحو الخليج العربي. فهي مدينة صحراوية، ورغم قسوة الجو

بعض أبنية قصر الحكم (أعلى) ومكتبة الملك فهد في الرياض.
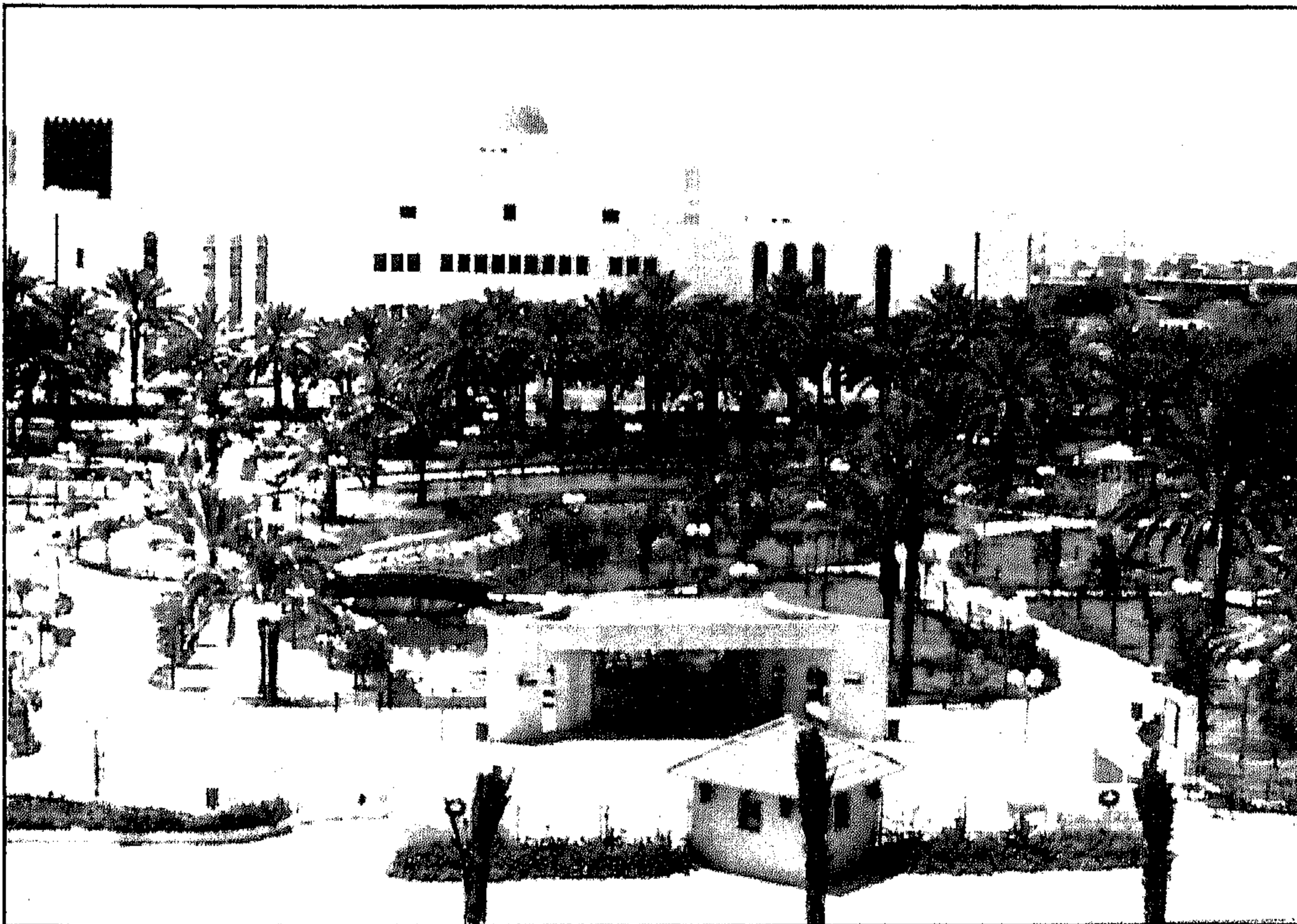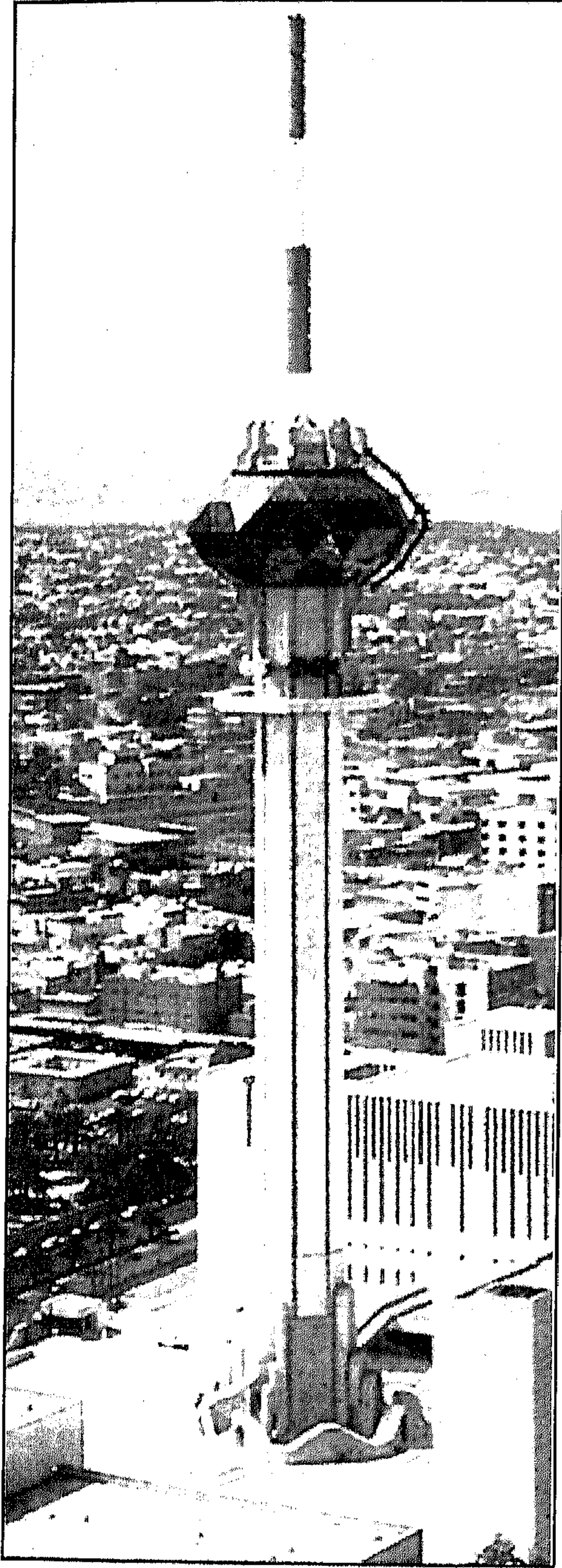
منظر عام لبرج التلفزيون في الرياض.
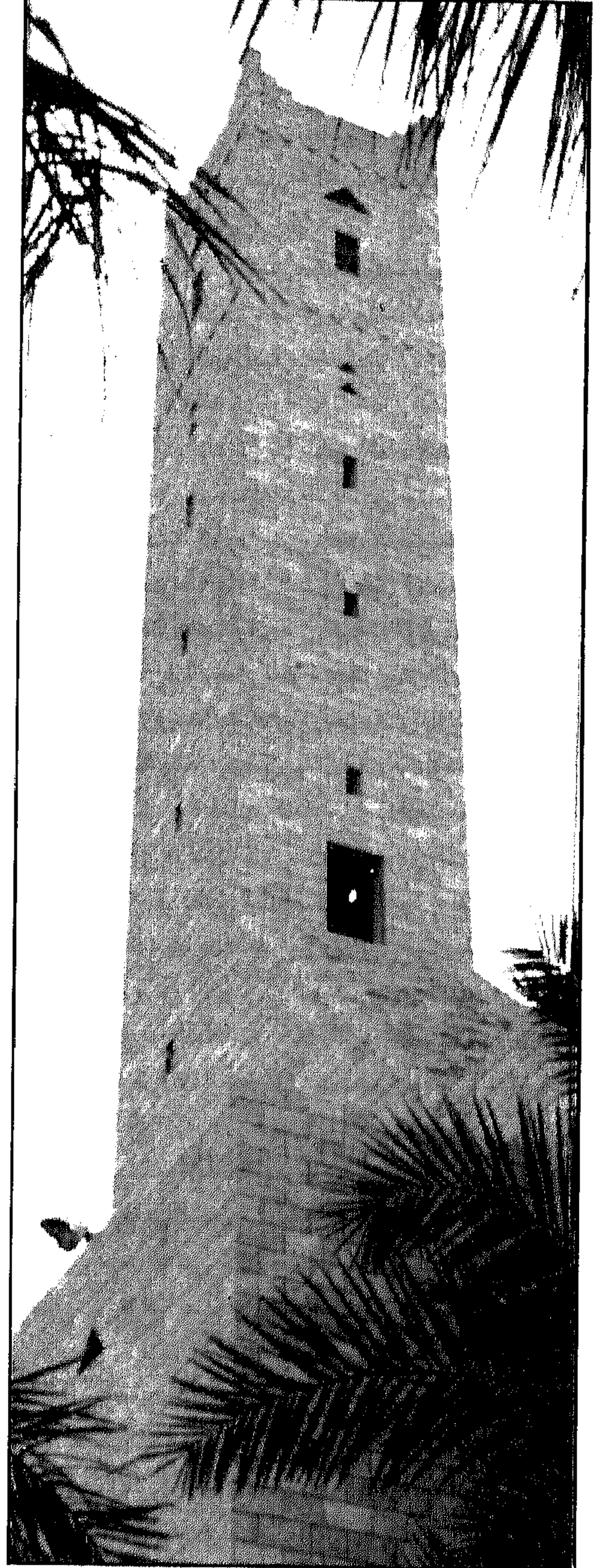
مئذنة جامع الامام تركي بن عبد الله.

أمكن وفق خطة مدروسة توفير مصادر المياه لنشر الرقعة الخضراء وتوفير مختلف جوانب الحياة الحضرية العصرية المزدهرة. فنمت المدينة بمعدلات تفوق القياس، وانتشر فيها العمران على مساحة بلغت ١٦٠٠كلم م..

قدر عدد سكانها في ١٩٩٣ بنحو ٢،٣ مليون نسمة، وكان نحو ١،٣٨٩ مليون في ١٩٨٧، وذلك بنسبة نمو سنوي تصل إلى ٨٨٪ والتي يرجع ارتفاعها إلى عوامل أهمها استمرار الهجرة الداخلية إلى مدينة الرياض بمعدلات كبيرة تصل إلى ٦٥ ألف نسمة سنويًا، وارتفاع معدلات المواليد إلى جانب التدفق الكبير للسكان غير السعوديين.

تشير التقديرات إلى ان عدد سكان مدينة الرياض سيصل إلى ما يفوق ٣ ملايين نسمة في العام ٢٠٠٠، وسيمثل السعوديون ما يقارب نسبة ٦٦٪ من مجموع سكانها. وزاد التوظيف في المدينة بين ١٩٨٧ و١٩٩٣ بنسبة ٣١٪، أكثر من نصفهم من القوى العاملة غير السعودية. لكن السعوديين يشغلون غالبية الوظائف الادارية حيث باتوا يشكلون في ١٩٩٣ نحو ٧٢٪ من مجموع المديرين والاداريين بعد ان كانت نسبتهم ٦٢٪ في ١٩٨٧، في ما حدث انخفاض في نصيب السعوديين في الفترة نفسها في وظائف المبيعات والخدمات حيث وصلت نسبتهم إلى ٣٥٪ بعد ان كانت تبلغ ٥٣٪. وتشتمل الرياض على مدينتين جامعيتين متكاملتين تضمان جامعتين عريقتين هما: جامعة الملك سعود وجامعة الإمام محمد بن سعود الاسلامية. كما تضم الرياض العديد من الكليات العسكرية والامنية والمتخصصة إضافة إلى المعاهد والمراكز الاعلامية والثقافية والمكتبات العامة. ولها أمانة و١٧ بلدية فرعية لخدمة أحيائها العديدة.

من أهم المباني الأثرية في الرياض «قصر المصمك» الواقع في الحي القديم وسط المدينة والذي يحتل مكانة متميزة في تاريخ المملكة. فعلى أبوابه بدأت قصة توحيد أرجاء المملكة في العام ١٩٠٢ عندما نجح الملك عبد العزيز في الاستيلاء عليه. وقصر المصمك (أو المسمك) اكتسب تسميته باعتباره المبنى القوي والقصر السميك المرتفع الجدران. كان دارًا للسكن ومقرًا للحكم وبيتًا للمال. انتهى بناؤه في العام ١٨٦٥ على يد الإمام عبدالله بن فيصل بن تركي، والمادة الأساسية في البناء اللبن والطين الممزوج بالتبن وهي الطريقة التقليدية السائدة آنذاك.

اتخذ عبد العزيز، بعد استرداد الرياض، قصر الديرة المجاور لقصر المصمك، مسكنًا له ولأسرته. وفي ١٩٣٨، انتقل من قصر الديرة واختار المنطقة الواقعة خارج السور الشمالي للرياض التي كان يطلق عليها إسم «أبو رفيع»، وعرفت في ما بعد باسم «المربع» بعد بناء المدينة السكنية الملكية، وبنى فيها أول قصر للملك. وكان البناء بدأ في ١٩٣٧ واستمر حوالي عشر سنوات استكمل فيها الشكل العام للمدينة الملكية الذي اتخذ شكلاً مربعًا، وعرف القصر باسم الديوان وأصبح قصرًا للحكم، وبلغ عدد العمال والفنيين الذين بنوا القصر حوالي أربعة آلاف شخص.

وفي حي المربع يقع متحف الآثار والتراث الشعبي في الرياض المعتبر واحدًا من أبرز المتاحف السعودية. بناؤه حديث، وترجع فكرته إلى عهد الملك فيصل بن عبد العزيز، وتحقق في عهد الملك خالد بن عبد العزيز. يضم أحدث الملتقطات الأثرية التي جمعت من مختلف مناطق السعودية خصوصًا ما تمّ العثور عليه في ميناء «عثر» الاسلامي، أحد أقدم الموانىء في شبه الجزيرة، وفي مناطق التمامة وتيماء... ولوحات لمواقع أثرية ترجع إلى أواسط العصر الحجري... ونماذج ورسومات للطراز المعماري القديم التي كانت منتشرة في شرقي السعودية خلال عصر «العُبيد».... وخرائط للطرق التجارية المعروفة في الألف الثالث وأوائل الألف الثاني ق.م.... وفي المتحف قسم يستعرض مراحل تطور الكتابة العربية من خلال مجموعة من اللوحات، مبينًا ان الفضل في اختراع الكتابة يرجع إلى الشعب السومري في جنوبي العراق. وفي إحدى القاعات عُلّقت نماذج من المعلقات الشعرية السبع الشهيرة في الأدب العربي. وهناك قسم آخر في المتحف مخصص للفتوحات الاسلامية الكبرى خلال عهد النبوة وما بعده.

في المتحف أدلة معروضة تؤكد ان هذه المنطقة كانت مأهولة بالسكان منذ حوالي ثلاثين ألف سنة، إذ تشير إلى مدينة تدعى «حجر» كانت عاصمة لاقليم اليمامة الذي يحمل الآن إسم نجد، وكانت موطنًا لقبيلتي طسم وجديس البائدتين. وقد عاصرت حجر عهد الخلفاء الراشدين والعهد الأموي واستمرت حتى عهد العباسيين.

كانت الرياض تابعة للدولة السعودية الاولى، ثم أصبحت قاعدة للدولة السعودية الثانية (١٨٢٤)، وهو العام الذي دخلها الامام تركي بن عبدالله واتخذها قاعدة لملكه. وتعرضت الرياض بعد ذلك لسلسلة من الحروب هدمت خلالها أسوارها وقصورها، و لم تعرف الاستقرار إلا بعدما استرجعها الملك عبد العزيز في كانون الثاني ١٩٠٢. غير ان المدينة لم تشهد أي تغيير من الناحية العمرانية حتى بداية الخمسينات من هذا القرن باستثناء بناء الأسوار من جديد وتوسيع وإعادة بناء القصر القديم ليصبح مقرًا

للحكم. ولهذا تكتسب منطقة وسط الرياض (منطقة «قصر الحكم» كما تسمى الآن) أهمية خاصة من الناحية التاريخية، فهي مقر الحكم منذ نشأة الدولة السعودية الثانية، ومنطلق جهاد الملك عبد العزيز لتوحيد المملكة العربية السعودية.

وقد بدأ الاعداد لتطوير منطقة وسط الرياض في ١٩٧٦، واشتمل العمل على: مباني إمارة وشرطة منطقة الرياض (وانتهى في ١٩٨٥)؛ وقصر الحكم وجامع الإمام تركي بن عبدالله، وميدان العدل، وساحة الامام محمد بن سعود، وساحة المصمك (بدأ العمل بها في ١٩٨٨ وانتهى في ١٩٩٢).

واستعدادًا للاحتفاء بمرور مائة عام على دخول عبد العزيز الرياض (شوال ١٣١٩هـ-١٤١٩هـ؛ كانون الثاني ١٩٠٢-١٩٩٩م.)، وضمن الخطة الشاملة لتطوير وسط المدينة الرياض، أعطى الأمير سلمان بن عبد العزيز، أمير منطقة الرياض، في ايار ١٩٩٧، إشارة البدء لإنشاء مركز الملك عبد العزيز التاريخي الذي تبلغ مساحته ٣٧٤ ألف متر مربع ويقع في منطقة المربع الذي يحتوي على مجموعة من المباني التاريخية.

* **سوق عكاظ:** راجع «الطائف» في هذا الباب.

* **صالح وثمود:** راجع «مدائن صالح وثمود» في هذا الباب.

* **الطائف:** من أهم مدن المملكة. تقع على قمة جبل غزوان على ارتفاع ١٧٠٠م فوق سطح البحر، ويصل ارتفاع الجبال المحيطة بها إلى ٢٥٠٠م ما أكسبها مناخًا جميلاً ومناظر طبيعية خلابة جعل منها أهم مصيف في المملكة. فقد كانت مصيفًا لأهل مكة على مر العصور، وتحولت بعد أن افتتحها عبد العزيز آل سعود في ١٩٢٢ إلى مدينة عصرية حديثة، وتعد حاليًا المقر الصيفي للحكومة السعودية وفيها مقار للديوان الملكي وديوان ولي العهد ومجلس الوزراء وقصر المؤتمرات ومجمع لفروع الوزارات الحكومية إضافة إلى عدد من أرقى الفنادق في العالم.

واشتهرت الطائف على مر العصور بزراعة الورد ولا سيما الفل والورد والقرنفل والنعناع، حيث تمتد المساحات المزروعة به إلى عشرات الكيلومترات في مناطق الهدا والشفا وبلاد الطلحات والطويرق وبعض الأودية.

في الطائف عقدت في ١٩٣٤ الاتفاقية المعروفة بـ«اتفاقية الطائف» بين السعودية واليمن. وعقد فيها بعض أهم المؤتمرات وأبرمت فيها اتفاقات مشهورة، مثل أول مؤتمر للقمة الاسلامية، ومؤتمر الطائف (لبنان) واتفاقية الطائف (اليمن وأفغانستان)، وأنشىء حديثًا قصر المؤتمرات وهو قادر على استضافة أكبر المؤتمرات والاجتماعات الدولية. وفي الطائف حلّت الحكومة الكويتية ضيفًا على المملكة العربية السعودية إبان حرب الخليج الثانية.

يقال إن المدينة كانت تُسمى قديمًا بـ«وج» نسبة إلى وج بن عبد الحي أحد أبناء العماليق، وان القبائل العربية كانت تحج إليها من قبل الاسلام لتطوف حول صنم «اللات» الذي هدمه المغيرة بن شعبة عند الفتح الاسلامي في عهد النبوة. وكانت الطائف أول مدينة قصدها الرسول عندما قرّر الخروج من مكة.

وترتبط ذاكرة الطائف التاريخية أكثر ما ترتبط بـ«سوق عكاظ»، أشهر أسواق العرب التجارية والأدبية عبر التاريخ، وكانت ملتقى القبائل العربية، تعقد سنويًا في مطلع شهر ذي العقدة ويستمر حتى العشرين منه.

«ثار جدل كبير بين أدباء الطائف ومؤرخيها حول تحديد موقع عكاظ استمر أكثر من عامين إلى ان عقد محافظ المدينة بالنيابة فهد بن عبد العزيز بن معمر في شهر تموز (١٩٩٦) اجتماعات لعدد من كبار المؤرخين وعلماء الآثار والأدباء والمحققين والباحثين خرجوا منها باتفاق على تحديد موقع السوق (سوق عكاظ) ووضع حد للادعاءات والمزاعم. وقد اعتمدوا في تحديد الموقع على تطبيق المعلومات والشواهد المنصوص عليها في أرجوزة «الحج» لعيسى بن أحمد الرادعي التي تحدد موقع السوق على أرض الواقع، وبالاعتماد ايضًا على أقوال الأصمعي وتاريخ الهمذاني والبكري وغيرهم من العلماء والمؤرخين القدامى، والمحدثين من أمثال حمد بن بليهد، ومحمد الجاسر، وعاتق بن غيث البلادي، واتفق الجميع على ان السوق (سوق عكاظ) كانت في الموقع الذي يحده من الشمال جبل الخلص والمبعوث والعرفاء شمال شرقي الحوية، ومن الشرق الحريرة ومن الغرب وادي الأخيضر ووادي شرب وجبال الصالح ومدسوس، والعبيلاء والسرايا من الجنوب، وان مساحته تقدر بنحو ٤×٢كلم في مكان يبعد نحو ٤٠كلم شمالي الطائف» («الوسط»، العدد ٢٤٢، تاريخ ١٦ ايلول ١٩٩٦، ص٥١-٥٢).

* **الطوير:** راجع «الجوف» في هذا الباب.

قلعة تاريخية في الشفا (الطائف).

حيث اتفق العلماء والمؤرخون انه موضع سوق عكاظ.

قصر شبرا.

أحد ميادين الطائف.

نموذج من العمران التقليدي في عسير.

رسوم داخل منزل عسيري...

... وعلى الجدران الخارجية لمنزل آخر.

أطلال سوق الفاو القديمة.

* **الظهران**: راجع «المنطقة الشرقية» في هذا الباب.

* **عسير**: تعتبر عسير، المنطقة الواقعة جنوب غربي السعودية والتي تعد أكثر من أربعة آلاف بلدة وقرية، (قاعدتها مدينة أبها)، من أكثر المناطق السكنية كثافة في شبه الجزيرة العربية. وهي تتميز بجبالها الشاهقة التي تصل إلى ارتفاع ٣ آلاف م، وسهولها المنبسطة وسواحلها، علاوة على كونها تسجل أعلى معدلات سقوط الامطار في أنحاء المملكة.

ويرجع بعض المؤرخين إسم «عسير» إلى مسالكها العسيرة، والبعض الآخر يرجعه إلى قبيلة عسيري التي حكمت المنطقة طويلاً. والقبيلة من أصول حبشية، إذ كانت عسير في ما مضى محطة تجارية للقوافل. وهي عرفت سابقًا بأنها بلاد السراة. وتتميز عسير بسمات خاصة سواء في العمارة والزي والموروثات الشعبية، واعتمدت في عمارتها على مواد أولية من الطين والحجر والخشب. وثمة اعتقاد ان هذه المنطقة كانت جزءًا من القارة الافريقية قديمًا قبل تكوّن البحر الأحمر، ويظهر ذلك في منطقة تهامة عسير حيث تنتشر الأكواخ شبه الافريقية مصممة من اللبن والأغصان اليابسة ومسقوفة بالاعشاب المجففة ومصقولة على شكل البيضة. لذا فإن تواجد هذه الأكواخ لم يكن مستغربًا نظرًا إلى الوجود الأفريقي المزمن، إذ يذكر البعض ان الحبشيين ظهروا في المنطقة في القرن الثاني ق.م. وميزة عسير عن سواها من أرجاء المملكة لا تتوقف عند الفن المعماري سواء للبيوت التي كثيراً ما تطرز بالألوان سواء من الخارج أوالداخل وتبدو فريدة وجميلة، أو الابراج والحصون، بل تتعداها إلى عادات أهلها وتقاليدهم.

* **الفاو**: قرية سعودية تبعد نحو ٧٠٠كلم جنوب غربي الرياض في المنطقة التي يتداخل فيها وادي الدواسر ويتقاطع مع جبال طويق على حافة الربع الخالي، عند فوهة مجرى قناة تسمى الفاو نسبت المدينة إليها. وهي في ملتقى طرق القوافل حيث الطريق التجاري الذي يربط بين جنوبي الجزيرة وشماليها الشرقي.

كشف الحاج عبدالله فيلبي (راجع «معالم تاريخية») عنها، في ما كشف عن مواقع أثرية في الجزيرة العربية أثناء عبوره الربع الخالي وكتب عنه في المجلة الجغرافية الملكية البريطانية. و«عند عودتي من بريطانيا (يقول الدكتور عبد الرحمن الطيب الأنصاري، عالم الآثار السعودي وعميد كلية الآداب في جامعة الملك سعود في الرياض) في العام ١٩٦٦ فكرت في اختيار موقع للتنقيب يكون بداية انطلاقة للآثار في المملكة، وبعد قراءات عدة اخترت الفاو».

نقوش احدى مقابر مدائن صالح.

وقد أظهرت «عمليات البحث والتنقيب التي تمت بطاقات عربية مئة في المئة» حتى اوائل ١٩٩٣ عن ان الفاو كانت عاصمة لدولة قوية لعبت دورًا في تاريخ الجزيرة العربية حوالي ستة قرون هي دولة كندة (بين القرن الثاني ق.م. والخامس بعده). وبنيت سوق الفاو بالقرب من الحافة الغربية للوادي وشرقي المنطقة السكنية ويحيط بها سور. واكتشف معبد الفاو، أول معبد يكشف عنه داخل المملكة. أما المقابر فمتنوعة، وهي ثلاثة أنماط: الأمراء، النبلاء وعامة الناس. وعثر في مقابر الملوك على مقبرة معاوية بن ربيعة ملك قحطان. ومن مقابر النبلاء مقبرة عجل بن هفعم المجاورة لمقبرة الملك. أما مقابر عامة الناس فتقع شمال شرقي المدينة على حافة الوادي الغربي، ويشبه بعضها المقابر الاسلامية.

وتميزت المنطقة بوجود أزقة وشوارع بين المنازل. ولوحظ اهتمام كبير بالخانات ووجود عدد كبير منها، وشيوع استعمال الادراج.

وأتاح ما عثر على نقوش معرفة عدد من القبائل ومعبوداتها: كهل معبودهم الأعظم، وإل واللات والعزي ومناة وود وشمس، ما يعني ان المدينة كانت مجتمعًا سمح بتعدد المعبودات. وعثر على تماثيل معدنية وحجرية وطينية وخزفية، ويعدّ أهمها تمثال من البرونز لطفل مجنح على رأسه تاج مزدوج ويمسك بيده اليسرى قرن الخير به عنقود عنب... وهي صفات رجحت ان يكون التمثال للطفل هار بوكراتيس ابن إيزيس في أسلوب هلليني-روماني.

وعثر كذلك على تمثال نصفي من البرونز لامرأة يمكن ان تكون المعبودة «مينرفا» رمز الحكمة عند الرومان، وعلى أواني وأدوات خشبية وعظمية وعاجية، وعلى مسكوكات ضربت في بلاد مختلفة، إضافة إلى ما ضرب منها في الفاو ويحمل رسم معبودها الرئيسي «كهل» (عن تحقيقين لعماد الغزالي، «للحياة»، العددان ١٠٩٢٦ و١٠٩٣١، تاريخ ١٠ و١٥ شباط ١٩٩٣).

* **القطيف**: راجع «المنطقة الشرقية» في هذا الباب.

* **الكعبة الشريفة**: راجع «مكة المكرمة» في هذا الباب.

* **المخض**: إسم لقرية تبعد ٨كلم غربي مدينة أبها (في عسير)، وتمثل نموذجًا للقرى الحصينة في هذه المنطقة والتي كانت مستقرًا لأبنائها، فكان تحصينها ضروريًا لحمايتهم. فشيدت الأبنية والدور من الحجر القوي، ويتفاوت سمك الجدار الواحد بين ١١٠ و٢٧٠سم مما يؤكد نية توفير الحصانة.

في القرية عدد من الحصون والقلاع. وتاريخ إنشاء القرية ما زال مجهولاً، ولكن يمكن الاستدلال عليه من خلال التاريخ المثبت على مسجدها المتميز، فهناك لوحة جدارية محفور عليها تاريخ إنشاء المسجد في العام ٢٥٣هـ أي قبل نحو ١١٦٢ سنة.

خادم الحرمين الشريفين الملك فهد يضع حجر الاساس للمسجد النبوي الشريف.

مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة.

منظر عام للمدينة في القرن التاسع عشر.

المسجد النبوي الشريف في المدينة.

من آثار مسجد في ضواحي المدينة منسوب الى عم الرسول.

معلم من معالم تاريخ الدعوة في المدينة.

* **مدائن صالح وثمود:** آثار مدن في منطقة الحجر الواقعة على بعد ٣٧٠كلم إلى الشرق من المدينة المنورة. هذه المنطقة التي يعتبرها كثير من الدارسين أهم منطقة أثرية متكاملة في السعودية لأنها تحتوي مدائن صالح الشهيرة التي لم ينته الجدل حولها بعد. فهناك من يعتقد بأنها من أقدم المدن التي سكنها الانسان، وانها ارتبطت بعلاقات قوية مع حضارات الجوار سواء البابليين والأشوريين أو الفراعنة. كما اختلفت الآراء حول تسمية الآثار الموجودة فيها في ما إذا كانت بيوتًا أم مدافن.

«لكن الذي لا خلاف عليه هو أن مدائن صالح تعود إلى آثار قبيلة ثمود التي يقال إنها هلكت منذ أكثر من ٣ آلاف عام، وهي من العرب العاربة. وجاء في الاعلام للزركلي «إن ثمود بن عامر بن أرم من بني سام بن نوح، رأس قبيلة من العرب العاربة في الجاهلية الأولى، كانت إقامته في بابل ورحل عنها بعشيرته إلى الحجر (بين المدينة والشام) ثم انتشروا بين الشام والحجاز وبقيت آثارهم في الحجر المعروفة بمدائن صالح». لكن بعض المؤرخين يرى انهم عاشوا وبادوا قبل زمن موسى، وإن الكتابات الآرامية الموجودة على بعض القبور كتبت بعدهم. والقرآن الكريم يؤكد ذلك في قوله تعالى: «ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين، وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين. وكانوا ينحتون من الجبال بيوتًا آمنين» (سورة الحجر: آية ٨٠-٨٢). واختلف في أصل ثمود فقيل: هم من بقايا عاد لأن القرآن الكريم ذكرهم مرادفين لعاد، وقيل إنهم من العمالقة الذين شيدوا لهم مملكة في مدين والبتراء في وادي موسى، الخ... وتتشابه مدافن مدائن صالح مع مقابر البتراء الواقعة جنوبي الاردن، كما تتشابه مع مدافن الاهرامات في مصر على رغم الاختلاف الواضح بين سرية الدفن عند الفراعنة وعلنيته في مدائن صالح. والتواريخ المثبتة على واجهات القصور والمقابر تتراوح بين سنة ١ق.م. و٧٥م، ويلاحظ ان أكبر عدد منها تمّ بناؤه وتزيينه في عهد الملك النبطي حريثات الرابع المعروف باسم «حريثات المحب لشعبه» مع أن أساس هذه المدائن كان لقوم النبي صالح، وهم الذين نحتوا البيوت والقبور كما هو ثابت في القرآن الكريم» (أحمد مرتضى عبده، «الحياة»، العدد ١١٤٤٣، ١٧ حزيران ١٩٩٤، ص٢١).

أما «صالح» فقد جاء بصدده في «المنجد» (دار المشرق، بيروت، ١٩٨٤، باب الاعلام، ص٤٢٠): «نبي عربي بعثه الله إلى قومه ثمود لهدايتهم، فقال لهم أعبدوا الله ما لكم من إله غيره، فكذبوا. فزلزلت بهم الارض. ورد ذكره في القرآن».

وإضافة إلى القرآن الكريم، فقد أوردت المصادر العربية، عن الثموديين، الكثير من التفاصيل، وكلها تدور حول ان الله أرسل النبي صالح، وكان ثموديًا، ليبلغهم دين الله غير ان دعوته جوبهت بالرفض. و لم يكن الثموديون على استعداد لترك دين أجدادهم وطلبوا برهانًا على صحة أقواله فأخرج لهم الناقة من قلب الصخر، غير ان هذه المعجزة لم تنفع القبيلة في شيء، وقام أحد أبنائها بعقرها، فأمهل الله الثموديين ثلاثة أيام. وكانت بعدها العاصفة والزلازل التي أبادتهم وهدمت بيوتهم. وهذه الرواية كررت في معظم كتب المؤرخين العرب أمثال ابن بطوطة والطبري وياقوت الحموي.

وتقدم المصادر العربية، إجمالاً، «ثمود» على أنهم قوم مستقرون يسكنون منطقة تمتد من الحدود السورية حتى المدينة المنورة. ويذكر الملك الآشوري سرجون الثاني، في حولياته، عددًا من القبائل العربية التي هزمها، ومن بينها ثمود.

* **المدينة المنورة:** كانت يثرب، وهذا إسم المدينة قبل الاسلام وهو إسم لموضع فيها سميت كلها به، تقع في واحة خصبة، وتتألف من مجموعة من المنازل البسيطة تحيط بها الحدائق والحقول. ونظرًا إلى وفرة المياه فقد صارت محطة لإمداد القوافل بالخضار والفاكهة والماء مما ساعد في زيادة عدد النازحين إليها وكانت الأشجار والنخيل بمثابة سور لها.

كان سكان يثرب الأوائل من العمالقة، ثم سكنتها فئات من اليهود، وجاءها الأوس والخزرج من اليمن. وكانت قبيلة قينقاع من أشهر القبائل اليهودية وأغناها، وقد سكنت في الجزء الجنوبي الغربي من المدينة، فيما سكنت بنو نضير عند وادي بطحان، أما بنو قريظة فسكنت وادي مهزور. وكانت يثرب، قبل الاسلام، فيها حياة مدنية لها شيء من الاستقرار، فيها زراعة ولها تجارة ولو كانت أقل من تجارة مكة.

سمّى الرسول يثرب بـ«طابة»، والطاب والطيب مشتقتان من الشيء الطيب. وشهرت بـ«مدينة الرسول» بعد الهجرة النبوية (١هـ-٦٢٢م) تمييزًا لها عن المدن الأخرى. ثم اكتفى بعلها باسم «المدينة» منفردًا، وألحقت بها الصفة فصارت «المدينة المنورة». كما تعرف بأسماء كثيرة أخرى، أشهرها: طيبة، مدينة الرسول، دار الهجرة (لنصرتها الرسول حينما هاجر إليها من مكة المكرمة).

أهم معالم المدينة على الاطلاق هو المسجد النبوي الشريف الذي مرّ بأطوار عديدة لعمارته عبر العصور الاسلامية بدءًا من أول مراحل بنائه عندما هاجر الرسول إلى المدينة (٦٢٢) وحتى يومنا هذا حيث شهد أكبر توسعة في التاريخ وهي توسعة خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز التي بدأت في ١٩٨٤، والتي أصبحت بفضلها مساحة المسجد هي مساحة المدينة المنورة بحدودها القديمة في عهد الرسول.

عندما وصل الرسول إلى يثرب (كان يسميها «طيبة») مهاجرًا من مكة، رحّب به الانصار وتسابقوا على استضافته، كل منهم يسعى للأخذ بخطام ناقته، فكان يدعوهم لإخلاء سبيلها قائلاً «إنها مأمورة». وواصلت الناقة سيرها حتى استقرت في أرض تعود ملكيتها لغلامين يتيمين في حجر أسعد بن زرارة الأنصاري هما سهيل وسهل من أبناء نافع بن عمر بن ثعلبة بن النجار، وكانت هذه الارض مربدًا لتجفيف التمر. فما ان بركت الناقة في هذا المكان حتى أعلن الرسول انه سيبني مسجده في هذه الارض. فابتاعها وأمر بقطع النخيل وإزالة ما كان بها من قبور وخرائب، وبدأ بناء المسجد النبوي على مرحلتين: الاولى في السنة الاولى للهجرة وكانت مساحته نحو ٧٠ ذراعًا طولاً و٦٠ ذراعًا عرضًا. وقد شارك الرسول في البناء حيث كان ينقل الحجارة واللبن مع الصحابة، والمرحلة الثانية بعد فتح خيبر في السنة السابعة من الهجرة حيث أعاد الرسول عمارة المسجد واستخدام الحجارة للأساس، واللبن للمسجد وجذوع النخيل للأعمدة، وأصبحت مساحة المسجد ١٠٠×١٠٠ ذراع وارتفاع سقفه ٧ أذرع. ولم يكن في عهد الرسول ولا في عهد الخلفاء الراشدين مآذن. وأول من أقام المآذن في المسجد هو عمر بن عبد العزيز في عهد ولاية الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموي، فقد أقام أربع مآذن في كل ركن واحدة (أواسط القرن الثامن). وقد أقام الرسول بيته (قبره الآن) على مقربة من المسجد، وتفصل بينهما «الروضة الشريفة» التي يبلغ طولها ٢٢م وعرضها ١٥م. وقد أولى خلفاء المسلمين وحكامهم الروضة جل عنايتهم وذلك خلال التوسعات العديدة التي مرّت على المسجد: الأولى في أيام عمر، الثانية في أيام عثمان، ثم توسعات أخرى في أيام الأمويين في خلافة الوليد بن عبد الملك (٧١٥) الذي طلب من ملك الروم ان يبعث إليه ببنائين للمساعدة في العمل، فعمل في البناء سوريون، كما كان ثمة صناع أقباط، وقد أرسل امبراطور بيزنطية أربعين ألف مثقال من الذهب وفسيفساء وسلاسل معدنية للقناديل. ومن أهم ما أضيف إلى المسجد في أيام الوليد أربع مآذن، كما أضيف محراب في جدار القبلة (كان قد تمّ تغيير القبلة، على ما يقوله المؤرخون من بيت المقدس إلى مكة بعد سنتين من الهجرة تقريبًا). وفي أيام الخليفة العباسي المهدي (٧٧٨) أضيفت منازل بعض كبار الصحابة إلى المسجد الذي جعل له عشرون بابًا.

في ١٢٥٧، شب حريق في المسجد أتى على أكثره. فاهتم الخليفة المعتصم بالأمر وبدأ حالاً القيام بالبناء. لكن احتلال المغول لبغداد في السنة التالية حال دون إتمام العمل. وعاد العمل وتمّ كاملاً على أيدي السلطانين المملوكيين بيبرس وقلاوون. ثم عمل ابن قلاوون في الزخرفة. لكن صاعقة ضربت إحدى المنارات (١٤٨١)، وأعيد البناء ايام السلطان قايتباي، وأدخل الرخام في بعض أجزائه وزُين جدار القبلة بالألوان الجميلة. وفي أيام العثمانيين، قام السلطان سليمان القانوني بتوسعة وتحسين كبيرين للمسجد النبوي (١٥٤٠)، كما انه بنى أقوى تحصين لأسوار المدينة، وفيه ثلاثة أبواب (كان أول سور بني في ٨٧٦). وظل العثمانيون يهتمون بالمسجد النبوي إصلاحًا وتوسيعًا وزخرفة، وأصبح للمسجد في أيامهم ثلاثة محاريب.

في أيام السعوديين، وبعد نجاح الملك عبد العزيز في توفير الأمن والاستقرار لحجاج بيت الله الحرام، رأى انه من الضرورة البدء في توسعة الحرمين الشريفين وإعادة إعمارهما لكي يستوعبا الزيادة الكبيرة في إعداد الحجاج، وأمر بأن يبدأ العمل في المسجد النبوي خاصة بعد ظهور بعض التصدعات في الأعمدة والجدران. وبدأ العمل في ١٩٥١ وشمل عملية الهدم للأبنية المحيطة بالمسجد والتي تدخل في إطار مخطط التوسعة. واستغرقت المرحلة الأولى ثلاث سنوات، وشارك فيها أكثر من ألفي مهندس وفني وعامل، وبلغت فيها مساحة المسجد ١٦٣٢٧م.م.، وأصبح للمسجد ٢٣٢ عمودًا مدورًا و٤٧٤ قاعدة و٦٨٩ قوسًا، وأصبح طوله ١٢٨م وعرضه ٩١م. وأضيفت إليه مئذنتان ارتفاع الواحدة ٧٠م.

وفي عهد الملك فيصل بن عبد العزيز تمت المرحلة الثانية من مشروع توسعة المسجد النبوي حيث تمّ هدم وإزالة الاماكن الواقعة غربي المسجد وتم تغطيتها وتجهيزها لاستيعاب الاعداد المتزايدة من المصلين. وقد بلغت المساحة التي شملتها التوسعة جزأين: الاول مساحته ٣٥ ألف م.م.، والثاني ٥٥٥٠م.م.

وفي عهد الملك خالد، تمت المرحلة الثالثة والتي شملت ضم مساحة ٤٣ ألف م.م. إلى المسجد عن طريق إيجاد ميدان فسيح يتصل بشارع المناخة.

وفي ٢٩ تشرين الاول ١٩٨٤، قام خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز بوضع حجر الأساس لمشروع توسعة المسجد النبوي التي تعد أكبر توسعة في التاريخ مقارنة بكافة التوسعات التي شهدها المسجد على مدى الأربعة عشر قرنًا الماضية، وقدرت تكلفة المشروع بحوالى ٦ آلاف بليون ريال. وبعد أشهر قليلة بدأ العمل في تنفيذ المشروع (وأصبح الآن قيد الانجاز) الذي تضمن إضافة مبنى جديد وميدان جديد بحيث تصبح المساحة الاجمالية ١٦٥٥٠٠م.م. وتتسع لأكثر من ٢٥٧ ألف مصل. وتشمل التوسعة إنشاء سبعة مداخل رئيسية، فيصبح إجمالي البوابات ٥٩ بوابة، ويصبح للمسجد ١٠ مآذن (٦ مآذن جديدة ارتفاع كل منها، مع الهلال، ١٠٥م، ويزن هلال كل مئذنة ١٥ طنًا من النحاس المطلي بالذهب). كل ذلك في إطار مشروع تطوير المناطق المحيطة بالمسجد بل والمدينة برمتها. وتم في مشروع توسعة المسجد النبوي إقامة ١٢ مظلة ضخمة يتم فتحها وغلقها أوتوماتيكيًا لوقاية المصلين من وهج الشمس والامطار، إضافة إلى نظام كهربائي متكامل لتوفير التهوئة (أكبر نظام في نوعه في العالم).

وعند أطراف المدينة المنورة يقوم معلم ديني وثقافي فريد في نوعه في العالم، وهو «مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف». وهو ليس مؤسسة طباعة فقط، وإنما هو مؤسسة متكاملة تحوي الكثير من الهيئات والمؤسسات العلمية الأخرى، مثل مركز الدراسات القرآنية، ومركز الترجمات، ومركز خدمة السنّة والسيرة بالتعاون مع الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة، ومركز البحوث والدراسات الاسلامية.

أما صالة الطباعة في المجمّع فتعمل من دون توقف، وطاقتها الانتاجية تبلغ ٣٠ مليون كتاب في السنة. وإصدارات المجمع منذ افتتاحه (٣٠ تشرين الاول ١٩٨٤) حتى اليوم (تموز ١٩٩٨) تبلغ ١٢٠ مليون نسخة تقريبًا. وتم، على مدار السنوات الماضية، توزيع أكثر من ١٠٥ ملايين نسخة، نالت قارة آسيا منها الحصة الرئيسية (٧٦ مليون نسخة) تليها قارة أفريقيا (٧ ملايين نسخة)، كما تهدى نسخة لكل حاج وحاجة، وما وزع على الحجاج حتى الآن (١٩٩٨) فاق ١١ مليون نسخة. ويبلغ عدد العاملين في المجمع ١٨٠٠ موظف، منهم ٧٠٪ من السعوديين.

الجدير ذكره، اخيرًا، أن معالم إسلامية كثيرة في المدينة جرى الحرص على إبقائها على تاريخيتها بالاكتفاء بترميمات ضرورية عليها، مثل آثار مسجد حمزة بإحدى ضواحي المدينة، وغيرها.

*** مكة المكرمة:** «بيت الله الحرام، وسميت مكة لأنها تمك الجبارين أي تُذهب نخوتهم، ويقال إنما سُميت مكة لازدحام الناس بها. ومكة إسم المدينة، أما بكة فهو إسم البيت. وقال بعضهم: سميت مكة لأنها بين جبلين مرتفعين عليها، وهي في هبطة بمنزلة المكوك. وقال بعضهم: بكعة الكعبة والمسجد، ومكة ذو طوىً». وهو بطن الوادي الذي ذكره الله تعالى في سورة الفتح، ولها أسماء شتى: مكة وبكة والنساسة وأمّ رُحم وأم القرى ومعاد والحاطمة لأنها تحطم من استخفّ بها، وهي البيت العتيق لأنها عتق من الجبابرة...

«يبلغ عدد سكانها حوالي ٢٠٠ ألف نسمة (حاليًا حوالي نصف مليون نسمة) وهي عاصمة الحجاز. تقع على بعد حوالى ٨٠كلم من جدة، يرجع تاريخها إلى أيام سيدنا ابراهيم. ولد بها النبي محمد، وكانت مركزًا هامًا لتجارة القوافل منذ ما قبل الاسلام، كما كانت في زمن الجاهلية مهدًا لعبادة الأوثان. هاجر منها النبي محمد إلى المدينة ٦٢٢م، فاعتبر هذا العام بدء السنة الهجرية عند المسلمين. ثم استولى عليها الرسول بعد عودته. لكنها فقدت أهميتها التجارية بعد استيلاء الأمويين عليها ٦٩٢م. خرّبها القرامطة ٩٣٠م، واستولى عليها العثمانيون ١٥١٧م. يقصدها الحجاج المسلمون كل عام (راجع «الحج» في باب معالم تاريخية)، وتشتهر بأسواقها في ايام الحج، حيث تعرض الحرائر والعطور والأحجار الكريمة» (عن «موسوعة السياسة»، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ج٦، ط١، ١٩٩٠، ص٢٩٠-٢٩١).

في مكة مركز هو الأكثر قداسة والأكثر شهرة في الاسلام، وهو «الكعبة الشريفة» الواقعة في وسط المسجد الحرام. إليها يتوجه المسلمون في العالم خمس مرات في اليوم أثناء تأديتهم الصلاة، كما تقصدها ملايين المسلمين من جميع أنحاء العالم لتأدية فريضة الحج (راجع «الحج» في باب معالم تاريخية) أو في مختلف ايام السنة لأداء العمرة. وعلى هذا الأساس فهي رمز لوحدة العالم الاسلامي (راجع «العالم الاسلامي» في هذا الجزء).

والواقع ان الكعبة كانت تحتل مثل هذا الموقع

المركزي بالنسبة إلى القبائل العربية منذ العصر الجاهلي. فعليها كانت تعلق أشهر القصائد التي سميت «معلقات»، وعلى أستارها كانت تعلق الصحف التي تتضمن اتفاقات القبائل وقرارات شيوخها، منها صحيفة قريش التي تضمنت قرارًا بمقاطعة آل هاشم (قبيلة الرسول) مقاطعة تامة على كل المستويات على أمل أن تؤدي هذه المقاطعة إلى ضرب الدعوة الاسلامية الوليدة. وقرب الكعبة كانت تعقد منتديات قريش، لكل قبيلة أو فخذ مكان يلتقي فيه الشيوخ ويتنافسون في قضاياهم الحياتية والسياسية والعسكرية، وقد بنيت بقربها دار الندوة.

وفي الأيام الأولى للاسلام كان حرف القبلة التي يتوجه إليه المسلمون من بيت المقدس إلى الكعبة تكريسًا لقدسية هذا المكان. وقد تمّ حرف القبلة إلى الكعبة بعد انقضاء عام ونصف العام على هجرة الرسول إلى المدينة وكان الرسول يصر على أداء صلاته علانية في الكعبة، وبذلك كانت الكعبة بمثابة المنبر لدعوته، أما بقية المسلمين فلم يجرؤوا على القيام بذلك إلا بعد إسلام حمزة بن عبد المطلب (عم النبي) وعمر بن الخطاب (الخليفة الثاني في ما بعد)، فإنهما تحدّيا قريشًا و لم يترددا في ان يعلنا اسلامهما أمام الكعبة وعلى مسمع ومرأى من قادة قريش ورجالاتها.

وظل الدور السياسي للكعبة يتجدد في العهود الاسلامية المتعاقبة رغم ان عاصمة الحكم الاسلامي لم تكن في أي وقت في مكة بل تنقلت بين المدينة والكوفة ودمشق وبغداد والقاهرة... ورغم ذلك فمكة والمدينة ظلتا مركز الفقهاء والمشرعين والعلماء الذين لا تستقيم ولاية سلطان دون موافقتهم. ومن هنا كانت الكعبة في أحيان كثيرة ومكة خصوصًا وبلاد الحجاز عمومًا مركزًا للمعارضات الاسلامية للخلفاء سواء في دمشق أم في بغداد. وبسبب ذلك كان الخلفاء يضطرون مرارًا لخوض معارك حربية للحصول على بيعة من يعتصم من القادة المعارضين بالحرم الشريف، و لم تنج الكعبة من الآثار السلبية، فقد شهدت أكثر من حرب، أشهرها حرب عبد الملك بن مروان ضد عبدالله بن الزبير في العهد الأموي.

وفي ايام السلطنة العثمانية ظلت الكعبة ومعها مكة رمزًا للثقل العربي في السلطنة حيث بقيت بيد الأشراف منهم مسؤولية خدمة الحرم وولايته، وليس صدفة ان يعلن الشريف حسين ثورته ضد السلطنة ومن أجل قيام مملكة عربية من الحجاز ومن مكة بالذات، وكذلك ليس صدفة ان تشهد مكة، في ايام السعوديين، ميلاد أول مؤتمر

مفتاح الحرم الشريف وهو من صنع الياس بن أحمد المكي يحمل تاريخ ١١٦٠هـ (١٧٤٥م)
يوجد بمتحف توبكابي باسطنبول، تركيا.

اسلامي (١٩٥٤) والذي انبثقت منه منظمة المؤتمر الاسلامي الحالية (راجع «العالم الاسلامي» في هذا الجزء).

أما من الناحية الفنية، فقد أخذت الكعبة إسمها من شكلها، وهو مكعب منتظم تقريبًا، ومن المعروف ان في زاويتها الشرقية يستقر الحجر الأسود، وهو حجر مقدس عند المسلمين، وقد ظل من الصعوبة بمكان تحديد طبيعته ومصدره، وقطره نحو ٣٠سم لونه أسود مع ميل إلى الاحمرار وفيه خطوط صفراء. وتغطي الكعبة ستارة مخملية سوداء موشاة بآيات من القرآن الكريم. أما حرمها فقد شهد عدة توسيعات منذ بنائه إلى اليوم.

وهيئة الحرم الحالية، والأساسية، تعود إلى ايام السلطان سليمان القانوني، وكان تصميمه الأصلي من وضع المهندس العثماني المعروف سنان باشا، كما قام بنقش الرسوم مصور مشهور هو عبدالله لطفي. وإذا كانت الكتابات والزخارف بخط الثلث المذهب فإن الأرضية زرقاء وهو اللون المعروف عند الفنانين المسلمين بـ«الاستبرق».

خادم الحرمين الشريفين الملك فهد يستمع الى شرح عن توسعة الحرم المكي...

... ويضع حجر أساس توسعة المسجد.

الكعبة المشرفة.

مقام ابراهيم.

المسجد الحرام

المركز العالمي للتعليم الاسلامي في جامعة أم القرى

ومن المعروف انه كل مرة كان يحافظ على الحجارة الأصلية للكعبة للاعتقاد بأن بعضها يعود إلى أيام الرسول كما ان هناك اعتقادًا بأن هذه الحجارة هي نفسها التي بنى بها ابراهيم الكعبة أول مرة.

وإذا كانت الكعبة من الداخل مبطنة بالحرير الأحمر فإنها من الخارج مكسوة بالحرير الأسود. وقد كانت العادة طوال حقب من ا لتاريخ ان تأتي الكسوة كل عام من مصر في موكب مهيب. وكان لهذا التقليد دلالات سياسية تتصل بولاء الحاكم في مصر إلى الخليفة الاسلامي، وبمركزية الكعبة وقدسيتها في السياسة الاسلامية عمومًا والمصرية-الشمال الافريقية خصوصًا حيث غالبًا ما كان حجاج شمال افريقيا يلتحقون بالمحمل الذي ينقل الكسوة من مصر إلى مكة (عن «الكعبة الشريفة»، موسوعة السياسة، ج٥، ص١٢٣-١٢٥).

عن بناء الكعبة الشريفة، أعاد فتحي فوزي عبد المعطي (في كتابه «الكعبة والمسجد الحرام، من عهد ابراهيم عليه السلام إلى الآن»، دار الراتد، القاهرة، ١٩٩٧) الرواية الدينية القائلة بأن بناء الكعبة تمّ على يد ابراهيم واسماعيل. ففي إحدى زيارات ابراهيم لمكة أخبر ولده ان الله قد أمره أن يبني له بيتًا فوق الربوة الحمراء القائمة قرب بئر زمزم، وارتفع البناء، وتولى ابراهيم خدمة الكعبة والحجاج، وأكمل المهمة من بعده ابنه اسماعيل. وتستمر مسيرة التاريخ وتتوالى الأحداث على مكة والكعبة حتى تصل ريادة الكعبة وسقاية الحجيج إلى عبد المطلب، جد النبي، الذي شرع في حفر بئر زمزم بعد ان ردمت.

وشهد الحرم المكي عددًا من عمليات التوسعة نتيجة التزايد المتوالي في أعداد الحجاج. وكان أهم هذه التوسعات (كما وردت في كتيب أصدرته وزارة الاعلام السعودية-الشؤون الاعلامية، إعداد مؤسسة نهران، بدون تاريخ):

- توسعة الخليفة عمر بن الخطاب في ٦٣٨ بعد ان اقتحم سيل جارف المسجد الحرام واقتلع مقام ابراهيم، فقام عمر بإعادته إلى مكانه بعد أن أمر بتوسعة المطاف.
- توسعة الخليفة عثمان بن عفان (٦٤٦).
- توسعة عبدالله بن الزبير (٦٨٤).
- توسعة الوليد بن عبد الملك بن مروان.
- توسعة أبو جعفر المنصور.
- توسعة الخليفة محمد المهدي.
- توسعة المقتدر بالله العباسي.

وطيلة حكم الفاطميين والأيوبيين والمماليك والعثمانيين لم يشهد المسجد الحرام أية توسعة تذكر. ولكنه شهد جملة من الاصلاحات وأعمال الترميم في عهود متوالية كان أهمها عهد السلطان سليم العثماني حيث تمّ تجديد عمارة المسجد تجديدًا كاملاً وجعلت سقوف الأروقة قبابًا، وهي الشكل القائم حتى الآن. وفي ١٨٩٧، قام السلطان عبد الحميد بأعمال ترميم في المسجد. وظل الحرم المكي حتى قيام المملكة العربية السعودية يحتفظ بنظام البناء العثماني التقليدي.

- التوسعات السعودية التي بدأها الملك عبد العزيز، في ١٩٠٥، بأعمال الترميم داخل الحرم وخارجه وبوضع الخطط اللازمة. وفي عهد الملك سعود بن عبد العزيز بدأت المرحلة الأولى (١٩٥٥) التي شملت عمارة المسجد، ثم المرحلة الثانية (١٩٥٩) وشملت بناء أساس الرواق الجنوبي، ثم الثالثة (١٩٦١) حيث ألحق بمساحة المسجد ٨ آلاف م.م. في الطابق العلوي، و٨ آلاف م.م. في الطابق السفلي.

وفي عهد الملك فيصل بن عبد العزيز، تواصلت عمليات البناء والتطوير حتى بلغت الساحة الكلية للحرم المكي حوالي ١٩٣ ألف م.م.، فيما لم تكن تتجاوز قبلها ٢٩ ألف م.م.، وبلغ عدد المآذن سبع مآذن وعدد الأبواب ٦٤ بابًا. وكان اهتمام الملك فيصل كبيرًا بمقام ابراهيم.

وفي عهد الملك خالد، تم تجديد تصميم باب الكعبة وباب التوبة، واستخدم في صناعتهما وتزيينهما أكثر من ١٨ كيلو من الذهب الخالص.

وفي ١٣ ايلول ١٩٨٨، قام خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز بوضع حجر الأساس لمشروع توسعة الحرم المكي. وانتهى العمل في هذه التوسعة (والتطوير الذي استخدمت فيه أرقى وأحدث وأدق التكنولوجيا) في نهاية ١٩٩٣. وما انتهى إليه المشروع هو ان مساحة الصلاة في الحرم المكي أصبحت ٣٦٥٨٠٠م.م. يمكن ان تؤمن الصلاة لـ٨٢٠ ألف مصل في الأحوال العادية، ولمليون منهم في أيام الحج؛ هذا مع وجود مخططات لتوسعة جديدة تمكّن مليونين من إقامة الصلاة في أوقات الحج.

وشمل مشروع التوسعة هذا مرسومًا ملكيًا اتخذ في ١٩٨٨ ويقضي بالموافقة على تأسيس شركة مكة للإنشاء والتعمير (شركة مساهمة سعودية) بهدف تعمير الاماكن المقدسة المجاورة والمحيطة بالمسجد الحرام. ووضع الملك فهد حجر أساس هذا المشروع في ١٩٨٩.

وأسست في مكة، «جامعة أم القرى» في

غار حراء «حيث أنزل الله على محمد بن عبد الله العربي الأمي أول ما أنزل «إقرأ». وحراء جبل يقع شمال شرقي مكة يعرف كذلك بجبل النور. فيه غار كان النبي يتحنّث فيه قبل بعثته، وبات فيه قبل هجرته الى المدينة يصحبه ابو بكر («المنجد»، ص ٢٣١).

١٩٨١، وهي تضم كلية الشريعة والعلوم الشرعية (التي كانت تعمل منذ ١٩٦٩) وكلية التربية في مكة (التي تأسست في ١٩٥٢). وقد عملت الكليتان لفترة، حتى ١٩٧٢، تحت الاشراف المباشر لوزارة المعارف، ثم أصبحتا جزءًا من جامعة الملك عبد العزيز قبل أن تغدوا جزءًا من جامعة أم القرى. ومنذ تأسيسها توسعت الجامعة في مجالات عدة شملت كليات التربية والعلوم التطبيقية والهندسية واللغة العربية وكلية العلوم الاجتماعية وكلية العلوم الزراعية.

* **المنطقة الشرقية:** أكبر مناطق السعودية وأكثرها غنى بالبترول. تمتد من الحدود مع العراق والكويت إلى الحدود مع قطر والامارات العربية المتحدة وعمان واليمن، وترتبط بجسر عبر الخليج بالبحرين. وتحتل صحراء الربع الخالي القسم الأكبر من المنطقة الشرقية من حيث المساحة. يطل ساحلها على الخليج العربي بطول ٦١٠كلم من رأس الخفجي شمالاً إلى سلوى جنوبًا مع متوسط عرض يبلغ ٦٠كلم للسهل الساحلي. وتبلغ مساحة المنطقة الشرقية ٧٧٨ ألف كلم مربع (نحو ٣٦٪ من المساحة الاجمالية للملكة)، ويبلغ عدد سكانها نحو ٢،٢ مليون نسمة. وإمارة المنطقة الشرقية تتكون من ١٠ إمارات رئيسية تتبع جميعها لأمير المنطقة، وهي الإحساء والخُبر والخفجي ورأس تنورة وقريّة والقطيف وحفر الباطن والجبيل والعتق والنعيرية. وعاصمة المنطقة مدينة الدمام.

وإذا ما ذُكرت المنطقة الشرقية يذكر معها البترول. فالبترول المستخرج منها يشكل ٩٪ من إنتاج العالم و٢٨٪ من إنتاج دول الشرق الأوسط. والاحتياطي البترولي في باطنها يشكل ٢٠٪ من الاحتياطي العالمي و٦٣٪ من إحتياطي المنطقة العربية ويبلغ ١٦٩ بليون برميل وعوائد تصديره تشكل ٧٠٪ من إيرادات المملكة.

عن النفط والعلم والتاريخ يقدم «معرض أرامكو، دار الاستكشاف العلمي» القائم على سفح جبل الظهران والمطل على طريق الخُبر-الظهران السريع، معلومات بالغة الأهمية، نستقي أهمها من استطلاع مجلة «العربي»، (العدد ٤٠٢، ايار ١٩٩٢، ص٣٨-٤٢):

«في جناح التراث العربي الاسلامي نماذج حية من إنجازات المفكرين العرب المسلمين التي أسهمت في إرساء قواعد العلم الحديث والدور الذي تلعبه التقنية في عالمنا اليوم. هنا نكتشف ان البيروني استنتج قبل تسعة قرون أن أجزاء من شبه الجزيرة العربية كانت في ما مضى بحرًا، وندرك من خلال الفرضية المعروضة في ركن أصل البترول (في المعرض) لماذا تركز النفط في المنطقة الشرقية. كما نتابع كيف أن البيروني تمكن من حساب محيط الأرض بدقة بلغت ٩٨٪.

«ونتعرف على واحد من أقدم الكتب الهندسية، كتاب «في معرفة الحيل الهندسية للجزري»، ونشهد بعض منجزاته من الادوات والآلات الميكانيكية، ونتلمس العبقرية الاسلامية وراء جهاز الإسطرلاب، وكيف طبق المسلمون علم حساب المثلثات... ونستطلع كيف ان الكيميائيين المسلمين طوروا أساليب التقطير التي نستخدمها اليوم في مصافي النفط الحديثة...

المنطقة الشرقية وساحلها.

«الفيلم (في المعرض، معرض أرامكو) يعرض لحظات تاريخية متتابعة تبدأ في رأس تنورة في أول ايار ١٩٣٩ حين أدار الملك عبد العزيز آل سعود الصمام إيذانًا بتدفق أول شحنة تجارية من النفط الخام السعودي إلى العالم... (وفي جناح أصل البترول) نماذج حية تبين كيف انه منذ ملايين السنين أصبحت النباتات والأحياء الصغيرة في محيطات الارض هي اللبنات التي قامت عليها ظاهرة التحول الكيمائي الذي أدّى في النهاية إلى نشوء المواد الهيدروكربونية، وهي ذرات من الهيدروجين والكربون تتحد لتكوّن البترول والغاز الطبيعي... (وفي المعرض) جناح لعروضات الحفر والانتاج وادارة مكامن النفط لنتعرف على العمل التقني المعقد لاستخراج الزيت والغاز من باطن الأرض...».

تاريخيًا تعود دلائل الاستيطان البشري بالمنطقة، إلى نحو ٥ آلاف سنة ق.م. والكنعانيون أول قوم يذكرهم التاريخ كسكان لها منذ نحو ٣ آلاف سنة ق.م. وقد نزحوا من أواسط شبه الجزيرة حيث اجتذبتهم ينابيع المياه العذبة المتفجرة بسواحل المنطقة، ومن سلالتهم كان العمالقة والفينيقيون. ويرجح المؤرخون ان مملكة «دلمون» (راجع «البحرين»، ج٥) التي قامت في المنطقة واستمرت من ٣٢٠٠ق.م. إلى ١٨٠٠ق.م. هي دولة فينيقية المنشأ أسسها الفينيقيون أحفاد الكنعانيين قبل نزوحهم إلى شواطىء البحر المتوسط.

وقد تواصلت هجرات القبائل العربية بعد ذلك وكان أغلبهم من أغنى العرب يتمتعون بكل أسباب الرخاء والترف وكانوا مسالمين إلى أبعد الحدود، فكان منهم الجرهائيون ثم قبائل قضاعة والأزد وإياد، ثم تربع بنو عبد القيس في المنطقة وسكن معهم أبناء عمومتهم قبيلة بكر بن وائل، وبنو عبد القيس هم أشهر القبائل العربية التي سكنت المنطقة قبل الاسلام، وازدهرت في عهدهم الحياة الفكرية والأدبية، إذ كانت تقوم فيها الاسواق التي تعتبر مؤتمرات أدبية موسمية. ولما ظهر الاسلام سارع أهل المنطقة فبعثوا وفدهم إلى الرسول. وقد أسلم كثير من أهل المنطقة، كما أسلم واليهم المنذر بن ساوي، ثم ولّى الرسول عليهم العلاء بن الحضرمي، فانقاد له جميع السكان (عن «العربي»، المرجع المذكور أعلاه، ص٤٣).

الدمام: في التاريخ المعاصر، وحتى بداية الثمانينات، كانت الدمام حاضرة المنطقة الشرقية، مدينة قائمة بذاتها، تقع على مسافة غير بعيدة منها كل من

«الخُبر» و«الظهران» بحيث لا يحتاج التنقل بينهما إلى أكثر من دقائق معدودة. ولكن الوثبة الحضارية التي تحققت (الثورة الصناعية البترولية) جعلت المدن الثلاث تتصل بعضها ببعض، وأطلق عليها إسم «منطقة الدمام».

في ١٩٣٢، حل قسم من قبيلة الدواسر على ساحل الدمام بعد انتقالهم من البحرين، وأقاموا لأنفسهم مساكن من سعف النخيل والطين، واستمروا في الاقامة ١٥ سنة انصرف الناس خلالها إلى الغوص بحثًا عن اللؤلؤ، فتحسنت أحوالهم بحيث بنوا بيوتهم من اللبن. وحين انهارت أسعار اللؤلؤ عالميًا بعد ظهور اللؤلؤ الياباني المزروع، هجر كثير من السكان مهنة الغوص، واتجهوا إلى مهنة أهم وأجدى هي صناعة النفط التي كانت قد بدأت تعكس آثارها على مختلف جوانب الحياة في المملكة، وفي المنطقة الشرقية بوجه خاص.

وسرعان ما تحولت الدمام إلى مدينة عصرية صناعية. وفيها ميناء عبد العزيز، أهم الموانىء على الخليج، ويربط الميناء بالرياض شبكة من السكك الحديدية لنقل البضائع والركاب. أما منطقتها الصناعية فتحتل مساحة من الارض تبلغ ٣٥كلم م..

وأبرز ما تحقق في مجال المواصلات في الدمام هو الجسر (جسر الملك فهد) الذي يمتد من الساحل إلى البحرين بطول ٢٥كلم، ويحتوي في كل اتجاه على ثلاثة مسارات، وتم افتتاحه في تشرين الثاني ١٩٨٦.

أما أبرز آثار الدمام (والمنطقة) التاريخية فتقع في جزيرة تاروت الواقعة على بعد ٨كلم إلى الشمال الشرقي من مدينة الدمام. والرأي الغالب في مدلول إسمها أنه في الأصل «عشتاروت»، وانها كانت معبدًا فينيقيًا. وقد عثر في أحد بساتين الجزيرة على تمثال من الذهب الخالص للألهة عشتاروت، كما يوجد في الجزيرة مرتفع صخري رأى بعض الباحثين انه هيكل للبعل ولعشتاروت.

ذهب حمد الجاسر في «المعجم الجغرافي للمنطقة الشرقية» (وهو جزء من عدة أجزاء تتناول أمكنة ومواقع المملكة) إلى ان آثارًا مهمة اكتشفت في الجزيرة يرجع بعضها إلى فترة عصر السلالات الأولى للبلاد ما بين النهرين، وبعضها يعود إلى فترات مختلفة معاصرة للحضارة العيلامية الفارسية وحضارة الماهنغودارو على نهر السند وحضارة أم النار في المنطقة الجنوبية من الخليج التي تم اكتشاف بقاياها في أبو ظبي بواسطة البعثة الدانماركية سنة ١٩٦٦.

تبدو مدينة تاروت التاريخية في صورة تل تعلوه قلعة بناها البرتغاليون (١٥٢٠). وقد شيدت القلعة على أنقاض مستوطنات سابقة تعود إلى خمسة آلاف سنة مضت (وهو ما أثبتته البعثة الدانماركية). وتراجعت أهمية تاروت في القرن السادس عشر بعد ظهور الموانىء المنافسة لها، فأصبحت مجرد بلدة تكثر فيها الكروم وتنتج أفضل الأعناب. وتقع القلعة حاليًا في ما يشبه قلب المدينة بعد النمو العمراني المضطرد (بالنسبة إلى تاروت وقلعتها، عن أحمد مرتضى عبده، «الحياة»، العدد ١١٧٦٦، ٩ ايار ١٩٩٥، ص٢١).

الخُبر: الخُبر الحديثة توأم للدمام. فقد نشأتا في ما بين الحربين العالميتين عندما جاءهما الدواسر الذين عملوا في تجارة اللؤلؤ. لكنها سبقت الدمام في الاستفادة من الثروة النفطية لكونها أقرب المراكز السكانية إلى الآبار المنتجة للنفط في الظهران. سكانها والعاملون في مؤسساتها خليط من جنسيات عديدة (آسيويون، أوروبيون وأميركيون، إضافة إلى العرب).

الظهران: فيها المقر الرئيسي لشركة أرامكو، تبعد عن الخُبر نحو ١٠كلم. ارتبط وجودها باكتشاف النفط، فكان إنشاؤها على يد شركة أرامكو وعلى الطراز الحديث. وأسس فيها الجامع الكبير. وسرعان ما أصبحت مركزًا للتكنولوجيا والصناعات الحديثة. وأنشئت فيها «جامعة الملك فهد للبترول والمعادن». مطارها من أهم المطارات في العالم، وهو البوابة الشرقية الجوية للملكة، ويربطها بمختلف أقطار العالم (نحو ألفي مسافر في الساعة).

القطيف: تبعد عن مطار الظهران نحو ٣٠كلم. تضم مدنًا تاريخية قديمة، أهمها مدينة القطيف نفسها التي يعود تاريخها إلى آخر عهد من عهود النحاسي (٣٥٠٠سنة ق.م.).

في الأصل بلدة صغيرة (قبل الازدهار النفطي). والقلعة أبرز معالمها التاريخية وبجانبها مسجد يعود إلى بداية القرن الخامس عشر. وفي القطيف بئر أراد القرامطة ان يجعلوها بديلاً لماء زمزم وموقعًا للكعبة التي حاولوا اصطناعها بدلاً من مكة المكرمة. ومن المعروف تاريخيًا انهم تمكنوا من اقتلاع باب الكعبة وخلع الحجر الأسود فحملوه معهم إلى الإحساء، وبقي الحجر الأسود في كعبتهم المزعومة نحو ٢٢ سنة.

وشهرة القطيف الزراعية لا تقل قدمًا عن تاريخها

الدمام حاضرة المنطقة الشرقية.

جسر الملك فهد، من شاطئ المنطقة الشرقية الى البحرين.

العريق. وقد أقيمت في منطقة القطيف واحدة من أكبر محطات التجارب الزراعية في المملكة. وكما كانت القطيف تشتهر في الماضي بزراعة العنب، وقد أخذ إسمها من قطف العنب، فقد عادت زراعته تزدهر، ومعها ازدهرت زراعة الخضراوات والزهور.

الإحساء: في «المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية»، لحامد الجاسر (القسم الاول أ-ض، منشورات دار اليمامة، ١٩٧٧، ص٦٥): «الإحساء أشهر مدينة في شرق الجزيرة، قبل عهد النفط، ونقلت القاعدة منها إلى الدمام في عشر السبعين من هذا القرن، وشهرتها تغني عن وصفها».

تبعد منطقة الإحساء نحو ٧٥ كلم عن شواطىء الخليج العربي، وهي من أكبر الواحات في المملكة. وفي التاريخ انها كانت موطنًا لحضارة زراعية. وشهيرة بعيونها الطبيعية، وأشهر معالمها جبل قارة، وهو جبل صخري أحدثت فيه عوامل التعرية شقوقًا ومغارات داخلية.

ظلت الإحساء، على مر العصور، منطقة جذب للطامحين إلى استيطانها لوفرة ما تنعم به. وكانت المدينة نفسها قد قامت على أنقاض مدينة «هجر». ومن أبرز القبائل التي استوطنت الإحساء قبيلة بني عبد القيس، وهم من أوائل من دخل الاسلام في السنة السابعة للهجرة. وكانت الإحساء وقتها تضم قرية «جواثا» التي أنشىء فيها ثاني مسجد تقام فيه صلاة الجمعة بعد مسجد الرسول. وعلى مر الزمان زحفت الرمال على هذا المسجد ثم أعيد الكشف عن أجزائه المتبقية في السنوات الأخيرة (المرجع الرئيسي لهذه المادة «المنطقة الشرقية»، مجلة «العربي»، العدد ٤٠٢، ايار ١٩٩٢، ص٣٦-٥٦).

الجبيل: راجع «الجبيل» في هذا الباب، مدن ومعالم.

* **نجران:** راجع «الأخدود» في هذا الباب.

* **الوسوم:** ليس هذا إسم مدينة أو موقع أثري. بل هي رسوم صخرية (إن صح التعبير) منتشرة في أماكن متعددة من المملكة، أطلق عليها مصطلح «وسوم» للشبه بينها وبين ما يوضع بالكي على أجسام الحيوانات، ويكون عادة على أشكال مختلفة لكل قبيلة أو عشيرة كعلامات رمزية. ويمكن إرجاع استخدام الوسم القبلي إلى آلاف السنين في شبه الجزيرة العربية.

توجد الوسوم الصخرية على نطاق واسع في أنحاء المملكة، وهي أكثر وجودًا في الغيران الصخرية ومواقع مضارب البادية وأماكن الآبار والينابيع ومصادر المياه. ومن خلال مسح أولي برعاية وزارة المعارف بين ١٩٨٥ و١٩٩٣ سجل وجود نحو ٣ آلاف وسم صخري يعود بعضها إلى العصر الحجري الحديث (٦٥٠٠ق.م.).

* **يثرب:** راجع «المدينة المنورة» في هذا الباب.

* **ينبع:** سمي كذلك لكثرة ينابيعه الجارية. ويطلق على منطقة متسعة من الحجاز غربي المدينة المنورة. ورد الاسم في مؤلفات المقريزي والنابلسي وغيرهم. وكان يقصد بها ينبع النخل لأن ينبع الميناء أو ينبع البحر لم يكن قد عرف بعد. والمدينتان متجاورتان، وينبع النخل هي الجزء الأعلى من المنطقة، وينبع البحر (البحر الأحمر) هي الجزء الأسفل. ولينبع النخل شهرة واسعة في تاريخ صدر الاسلام لوقوعها على طريق القوافل التجارية بين الحجاز والشام، كما كانت ميدانًا لأحداث عديدة بين قريش والرسول وبعض القبائل التي تقطن المنطقة.

في العام ١٢٢١، وبعد اضمحلال ميناء الجار (ايضًا على ساحل الحجاز، وكان مزدهرًا حتى عرف البحر الأحمر ببحر الجار)، أقامت الدولة الأيوبية أول منشآتها في ميناء ينبع حيث كانت تبعث السفن المحملة بالمؤن لتوزيعها على أهل المدينة المنورة.

في أوائل القرن السادس عشر، خرّب ميناء ينبع

نماذج وسوم صخرية في منطقة نجران.

بسبب اختلال الأمن في الحجاز. وعاد إلى عهده الزاهر في عهد السلاطين الجراكسة عندما أقاموا اصلاحات واسعة في الحرمين الشريفين (مكة والمدينة) كما اهتموا بطريق الحج وتأمين قوافل الحجاج، وكذلك توفير ما تحتاجه قافلة المحمل (راجع «الحج» في باب معالم تاريخية) من الحاجيات اللازمة ترسل بحرًا من السويس إلى ينبع.

في عهد السلطان العثماني سليمان القانوني قررت الجرايات لأهالي الحرمين فكانت ترسل بواسطة ميناء ينبع. وجرى توسيع الميناء ورصفه رصفًا محكمًا في عهد السلطان مراد (١٥٧١).

في القرن التاسع عشر، عرف الميناء نشاطًا كبيرًا عندما احتلته قوات محمد علي باشا، فأنزل به المعدات الحربية والأمتعة والعتاد. وفي ١٩٠٣، استقبل الميناء أول قافلة لبواخر الحجاج، واستمر ذلك حتى بداية الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩) وإغلاق البحر الأحمر. وكان الميناء قد شهد عدة إصلاحات وبنيت فيه عدة أرصفة مع بداية العهد السعودي.

ومع بدء تنفيذ توسعة الحرم النبوي الشريف (١٩٥٠-١٩٥١) استعاد الميناء حيويته حيث كان يستقبل البواخر المحملة بالحديد والأسمنت والأخشاب ومواد البناء اللازمة. وجاء اهتمام الدولة ليكون ميناء ينبع الحديث من أهم الموانىء، وقد افتتحه الملك خالد بن عبد العزيز-يوم كان وليًا للعهد- في ١٩٦٤، فأصبح جاهزًا لاستقبال أنواع السفن على اختلاف حمولاتها، كما حرصت الدولة على تقديم تسهيلات كبيرة للسفن فأعفتها من كثير من الرسوم.

على بعد ١٩كلم من ينبع الميناء أقيمت مدينة «ينبع الصناعية» التي ارتبطت بالصناعات الأساسية والثقيلة. و لم يكن الموقع الحالي لهذه المدينة الصناعية سوى شريط صحراوي، فأصبح يأوي الصناعات الثقيلة في المملكة، ويقيم فيه نحو ٥٧ ألف شخص ويتوقع ان يرتفع عددهم إلى نحو ٩٠ ألفًا في العام ٢٠٠٠. وكانت المملكة قررت في منتصف السبعينات بناء مدن صناعية جديدة، واختارت لأسباب استراتيجية وتجارية منطقتي الجبيل على الخليج العربي وينبع على البحر الأحمر. وتأسست لهذا الغرض «الشركة السعودية للصناعات الأساسية» (سابك). وقد أقيم ميناء خاص بمدينة ينبع الصناعية هو «ميناء الملك فهد» المعتبر من أضخم الموانىء في العالم، كما يعد أكبر مجمع لشحن النفط على ساحل البحر الأحمر ويمتد لمسافة ١٥كلم على طول الساحل، وهو محمي بسلسلة من الصخور المرجانية في عرض البحر.

وإذا كانت عبارة «مدينة صناعية» ترتبط في الغالب بالمدن الشديدة التلوث، فإن الهيئة الملكية للجبيل وينبع، وهي السلطة المكلفة تطوير المدينتين، تعلن في كل مناسبة حرصها على تخطيطهما بدقة وعناية شديدتين، بحيث تكون بيئتهما مثالية بما يساعد على تحسين مستوى حياة سكانهما. وقد حظيت البرامج البيئية التي نفذتها هذه الهيئة الملكية باهتمام دول العالم ومنظماته المتخصصة في مجال المحافظة على البيئة، وتكلل هذا الاهتمام بفوز الهيئة بجائزة «ساساكاوا» الدولية لحماية البيئة عام ١٩٨٨ مناصفة مع اللجنة الدولية للبيئة والتنمية المنبثقة عن الأمم المتحدة.

صومعة الغلال في ينبع القديمة.
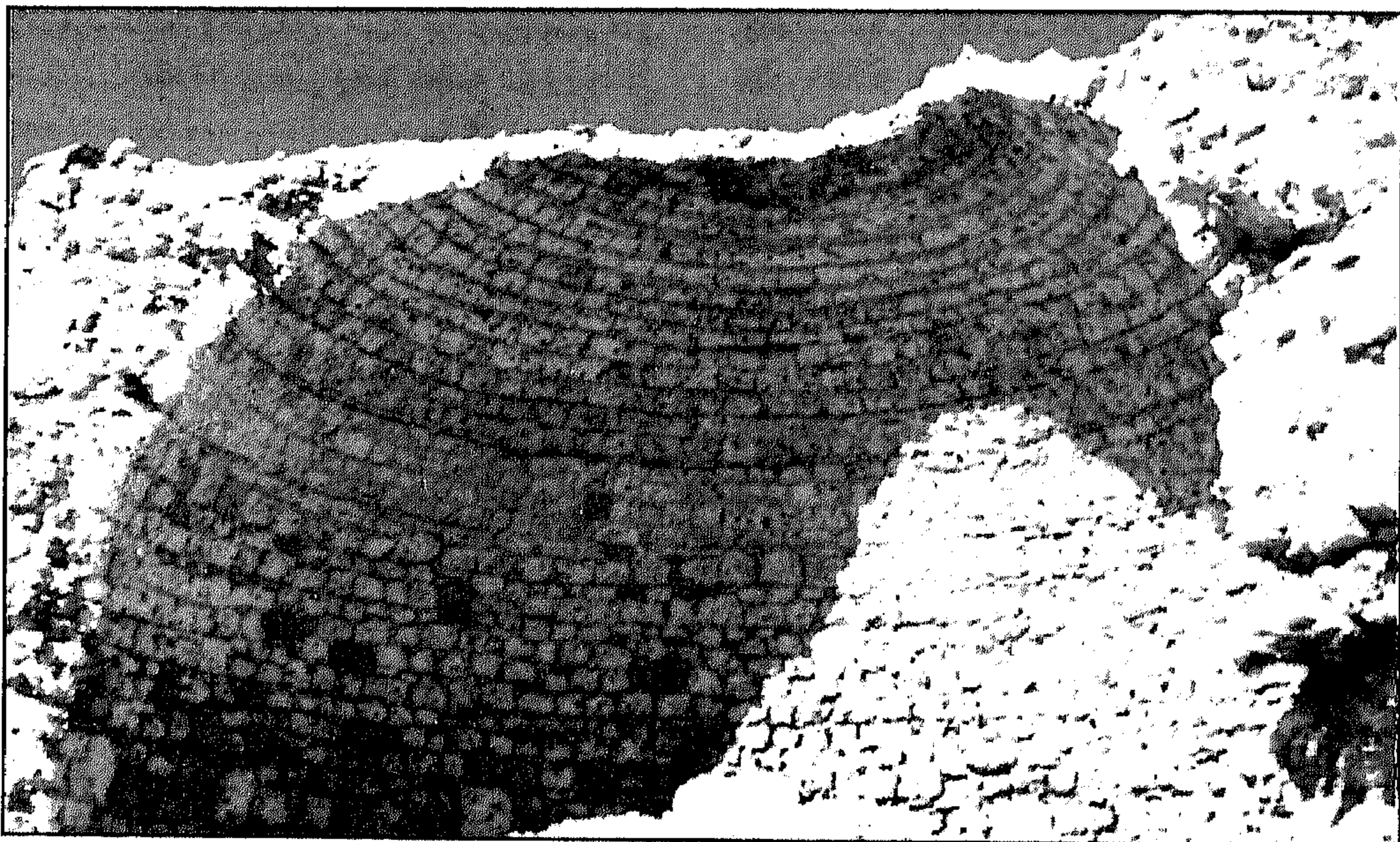
زعماء، رجال دولة وسياسة

(المراجع الأساسية لهذا الباب الموزع على ثلاثة عناوين، «الأسرة المالكة» و«الملوك» و«وزراء وشخصيات سياسية»: «الدين والدولة في المملكة العربية السعودية»، مؤلفه د.أيمن الياسيني ونقله إلى العربية د.كمال اليازجي، دار الساقي، ط٢، ص٩١-٩٧، بالنسبة إلى العنوان الأول «الأسرة المالكة»، والعنوان الثالث «وزراء وشخصيات سياسية»-باستثناء جميل مراد بارودي وكمال أدهم اللذين استُقيت سيرتهما من «موسوعة السياسة»، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ج٢، ط١، ١٩٨١، ص٢٦؛ وج٥، ط٢، ١٩٩٠، ص١٣٨-؛ وعدد من الكتب التي أشير إليها في مواضعها بالنسبة إلى العنوان الثاني، «الملوك»).

الأسرة المالكة

إن تعداد الأسرة المالكة السعودية غير معروف بالضبط (بعض التقديرات يشير إلى أنها مئات من الذكور، وبعض الآخر يجعلهم ٣-٥ آلاف). لكن المعروف، بشيء من التحقق، ان اتساع نطاق الأسرة بالامكان رده إلى كثرة عقود زواج عبد العزيز بن سعود، وهي الوسيلة التي اعتمدها في ترسيخ حكمه. مثال ذلك ان ابن سعود، على أثر هزيمة ابن الرشيد، «استضاف جميع مَن بقي من أعضاء الأسرة الرشيدية في الرياض، حيث عاشوا حياتهم على حسابه... وعقد لنفسه على ارملة منافسه الأول، وأنزل أيتامه بمقام أولاده»، وأخذ يتزوج من كبريات القبائل، أخصها قبائل السدير، ومطير، وعنزة ودواسر.

وللروابط العائلية أهمية قصوى في العربية السعودية. فيساند أفراد الأسرة واحدهم الآخر في السعي وراء السلطة. مثال ذلك ان مكانة الأمير عبدالله في بنية السلطة السعودية يعززها انتسابه إلى قبيلة شمّر، وهي من أقوى قبائل البلاد. ومكانة الملك فهد وإخوته الستة من أبويه-وهم المعروفون بـ«السبعة السديريين»-تعتبر الأقوى بين أفراد الأسرة المالكة وليس ذلك فقط لانتساب هؤلاء إلى قبيلة السدير عن طريق والدتهم (حيا ابنة أحمد السديري)، بل لأنهم كذلك إخوة لأبوين.

إن مكانة الفرد في الأسرة المالكة، ودوره في الحكومة، رهن باعتبارين: الاول، قرب صلته بأسرة الملك الخاصة؛ والثاني، الجيل الذي هو منه. فمنذ وفاة ابن سعود (١٩٥٣)، انتقل الملك منه إلى ابنه سعود، وابتداء من ١٩٦٤، اصبح من الأخ إلى أخيه. فقد كان سعود الأخ الأكبر، فتلاه فيصل. وكان ينبغي على الأمير محمد ان يخلف فيصلاً، لكنه تنازل عن حقه لأخيه الأصغر خالد. وتنازل محمد عن حقه لأخيه فرضه كبير أعضاء الأسرة وقرار من «العلماء».

إن حجم الأسرة المالكة الكبير مكّنها من توحيد القبائل الكبرى في البلاد عن طريق شبكة محكمة من عقود الزواج. فتمكن آل سعود، عبر المناصب السياسية والادارية من ضم مناطق البلاد المتباعدة في ادارة مركزية واحدة، وأمّنوا للأسرة السلطة على المجتمع.

ثم إن قدرة الأسرة السعودية على الحكم وضبط المجتمع بصورة لا نظير لها بين مجتمعات العالم عائدة كذلك إلى التطور والتكيف مع الأحوال المستجدة، والاستعداد لسدّ الحاجات الطارئة، وعدم معارضتها للتغيير مع قدرتها على ضبطه وتوجيهه. وقد تجلّى هذا الأمر، في العقود الثلاثة الأخيرة، بإقبال أبنائها على النهل من العلوم المدنية وحيازة أعلى الشهادات الجامعية (بعد أن كانت الثقافة، أو التربية والتعليم، موقوفة على ما درج تسميته بـ«ثقافة القصر»). فأخذت تعتمد على أفرادها، الحائزين على الشهادات الجامعية في تولي المناصب القيادية والادارية في المؤسسات المستحدثة التي يتطلبها التطور والتقدم العلمي. ففضلاً عن الاستئثار بالمناصب الرئيسية إلى جانب النيابة الأولى والثانية لرئاسة الوزراء، ووزارة الدفاع، والحرس الوطني، والشؤون الخارجية، فإن أفرادًا آخرين من الأسرة المالكة يُقبلون إقبالاً متزايدًا على ملء دون ذلك من المناصب، وصولاً إلى بعض المراكز الثانوية في ادارة الدولة. فمحمد بن عبدالله، مثلاً، نائب مدير في وزارة الزراعة؛ وعبد الرحمن بن سعود، وبندر بن فهد، وفهد بن سلطان... هم إما مديرون أو نواب مديرين في بعض دوائر الدولة.

وكذلك عكف الحكم على إنشاء مؤسسات إدارية عصرية اقتضت إعداد موظفين إداريين ذوي خلفيات ثقافية ومهارات مهنية لا توجد عند أحد من «العلماء» (أي في المدارس التقليدية). ولئن كانت الثقافة الدينية في الثلاثينات مطلبًا ضروريًا في الاعداد للادارة الحكومية، فقد استبدلت بالثقافة المدنية منذ الخمسينات. فمن أصل ٤٤ موظفًا من المستوى الرفيع جرى إحصاؤهم في ١٩٧٢، فإن ٦٥٪ منهم تثقفوا ثقافة مدنية، وكان ٤ من

شجرة النسب المبسّطة لآل سعــود

سعود بن محمد بن مقرن

- محمد ١١٣٩ - ١١٧٩هـ / ١٧٢٥ - ١٧٦٥م (أمير الدرعية الذي تحالف مع ابن عبدالوهاب)
  - عَبدالعزيز ١١٧٩ - ١٢١٨هـ / ١٧٦٥ - ١٨٠٣م
    - سعود ١٢١٨ - ١٢٢٩هـ / ١٨٠٣ - ١٨١٣م
      - عبدالله ١٢٢٩ - ١٢٣٤هـ / ١٨١٤ - ١٨١٨م
      - مشاري ١٢٣٦هـ / ١٨٢٠م
      - خالد ١٢٥٥ - ١٢٥٧هـ / ١٨٣٩ - ١٨٤١م
  - عبدالله
    - تركي ١٢٤٠ - ١٢٥٠هـ / ١٨٢٤ - ١٨٣٤م
      - فيصل ١٢٥٠ - ١٢٥٥هـ / ١٨٣٤ - ١٨٣٨م / ١٢٥٩ - ١٢٨٢هـ / ١٨٤٣ - ١٨٦٥م
        - عبدالله ١٢٨٢ - ١٢٨٨هـ / ١٨٦٥ - ١٨٧١م / ١٢٩١ - ١٣٠٧هـ / ١٨٧٥ - ١٨٨٩م
        - عبدالرحمن ١٢٩١هـ/١٨٧٥م / ١٣٠٧ - ١٣٠٩هـ / ١٨٨٩ - ١٨٩١م
          - عبدالله
          - عبدالعزيز (بن سعود) أبو المملكة العربية السعودية ومؤسسها
            - سعــود ١٣٧٣ - ١٣٨٤هـ / ١٩٥٣ - ١٩٦٤م
            - فيصل ١٣٨٤ - ١٣٩٥هـ / ١٩٦٤ - ١٩٧٥م
            - خالد ١٣٩٥ - ١٤٠٢هـ / ١٩٧٥ - ١٩٨٢م
            - فهد ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م
            - عبدالله
            - سلطان
          - مساعد
        - سعــود ١٢٨٨ - ١٢٩١هـ / ١٨٧١ - ١٨٧٥م
      - جلوي
        - أمراء
- ثنيان
  - عبدالله ١٢٥٧ - ١٢٥٨هـ / ١٨٤١ - ١٨٤٢م

المصدر: د. ناصر ابراهيم الرشيد، د. اسبر ابراهيم شاهين، «الملك فهد، مسيرة الانجازات الحضارية في المملكة العربية السعودية»، نقله عن الانكليزية أحمد شفيق الخطيب، بدون تاريخ ص ٢٢.

عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود

↓

١٤ زوجة منهن

- ودة بنت حزم
  - سعود (١٩٥٣ - ١٩٦٤)
- طرفة بنت آل الشيخ
  - فيصل (١٩٦٤ - ١٩٧٥)
    - ٣ زوجات
      - سلطانة بنت أحمد السديري
        - عبدالله (١٩٢٣)
      - منى بنت تركي الجلوي
        - خالد (١٩٤١) (حاكم عسير)
        - سعد (١٩٤٢)
      - عفت آل ثنيان
        - محمد (١٩٣٧)
        - سعود (١٩٤١) (وزير الخارجية)
        - عبد الرحمن (١٩٤٢) (قائد المدرعات)
        - بندر (١٩٤٣) (قائد الطيران)
        - تركي (١٩٤٥) (رئيس المخابرات)
- جوهرة بنت مساعد الجلوي
  - محمد خالد ١٩٧٥-١٩٨٢
- حسا بنت أحمد السديري
  - فهد (١٩٢١) (ملك : ١٩٨٢)
  - سلطان (١٩٢٤) (وزير الدفاع)
  - عبد الرحمن (١٩٢٦)
  - نايف (١٩٣٣) (وزير الداخلية)
  - تركي (١٩٣٤)
  - سلمان (١٩٣٦) (حاكم الرياض)
  - أحمد (١٩٣٧) (نائب وزير الداخلية)
- الفهدة بنت عاصي الشريم
  - عبد الله (١٩٢٣) (ولي العهد)

المصدر: «موسوعة السياسة» المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ج٣، ط١، ١٩٨٣ ص ١٩٤.

الوزراء ثقافتهم تقليدية، في حين ان ٦ منهم كانت ثقافتهم مدنية. أما نواب الوزراء (أيضًا في وزارة ١٩٧٢) وعددهم ١٤ نائب وزير، فإن ثلاثة منهم لا غير (إثنان من العائلة المالكة) كانت ثقافتهم تقليدية، أما الـ١١ الباقون فثقافتهم مدنية، و٨ منهم حصلوا على علومهم من جامعات اميركية. ومن أصل ٢٣ وزيرًا في الوزارة اللاحقة، أي وزارة الملك خالد-باستثناء أعضاء الأسرة المالكة-٣ لا غير زاولوا تحصيلهم العلمي في المعاهد الدينية، بينما باقي أعضاء الوزارة حصّلوا تعليمهم العالي في جامعات الولايات المتحدة وبريطانيا ومصر ولبنان. واستمر اتجاه «الشهادة» و«الكفاءة» العلمية المدنية متصاعدًا، واستمرت دائرتهما تتسع في حقل المسؤوليات والمهمات السياسية والادارية، وقد لحظتهما أنظمة الحكم الأساسية الصادرة في السنوات الأخيرة (راجع «الحكم» في باب بطاقة تعريف).

الملوك
الأمير ولي العهد النائب الاول لرئيس الوزراء
الأمير النائب الثاني لرئيس الوزراء وزير الدفاع والطيران
الأمير وزير الخارجية

*** عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود، الملك (١٨٨٠-١٩٥٣): مؤسس المملكة العربية السعودية.**

ولد الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل بن تركي بن عبدالله بن محمد بن سعود في مدينة الرياض في ٢٩ ذي الحجة سنة ١٢٩٧هـ الموافق ٢ كانون الاول عام ١٨٨٠م (أمين الريحاني، تاريخ نجد الحديث، ص١٠٧).

نشأ في ظل والده الإمام عبد الرحمن، حيث تعلم القراءة والكتابة، ثم عهد به والده إلى بعض العلماء والفقهاء الذين تلقى عنهم مبادىء الدين الاسلامي الحنيف وحفظ القرآن الكريم وهو ابن عشر سنين. وكان منذ صغره حاد الذكاء، دقيق الملاحظة، فوعى ما كان يحيط بوالده وأسرته من أجواء مشحونة بالعداء والمطامع والمؤامرات التي اضطر معها الإمام عبد الرحمن إلى مغادرة عاصمة حكمه الرياض (١٨٩١) إلى جوف الصحراء حيث استقر به وبأسرته المقام، بعدها، في الكويت. وكان عبد العزيز في الثانية من عمره، فتركت هذه الاحداث في نفسه ذكريات موجعة، وترسخت في ذهنه وقلبه فكرة العزم على استرداد مُلك آبائه وأجداده مهما كانت الظروف ومهما بلغت التضحيات.

الملك عبد العزيز آل سعود.

ومضت قرابة عشر سنوات وهو يعيش في الكويت متألمًا حزينًا. وعندما بلغ العشرين من عمره برزت فيه ملامح زعامة سديدة الرأي ومتعددة المواهب، وكان فارع الطول بارعًا في الفروسية وركوب الخيل. واتخذ عبد العزيز قراره الحاسم باسترداد الرياض، وكان قد استفاد من تجربته السابقة في الاستيلاء على الرياض إبان وقعة «الصرّيف» التي انهزمت فيها قوات الشيخ مبارك أمير الكويت (وكان عبد العزيز يقاتل في صفوفها) أمام قوات ابن رشيد، حيث اضطر عبد العزيز لمغادرة الرياض بطلب من والده الإمام عبد الرحمن.

وفي ظروف قاسية، عاد عبد العزيز وانطلق من الكويت إلى الرياض عبر الصحراء بجيش صغير قوامه ٦٠ رجلاً. وفي صبيحة ١٥ كانون الثاني ١٩٠٢، تمكن، بعد مغامرة بطولية، من فتح مدينة الرياض التي عمد، لتوه، إلى تحصين المدينة ووضع الخطط لتوحيد أجزاء البلاد. فضم القصيم، ثم الإحساء، ثم عسير، ثم حائل معقل ابن رشيد.

وواصل عبد العزيز انتصاراته في معارك عديدة حيث تمّ له فتح الطائف ودخول مكة المكرمة (١٩٢٤)، وبعد نحو سنة استسلمت مدينة جدة (١٩٢٥)، وبذلك أصبحت جميع منطقة الحجاز ومدنها تحت حكمه دون منازع.

وبعد أن أصبح عبد العزيز الحاكم الوحيد لنجد والحجاز نودي به ملكًا على البلاد. وفي ٢٣ ايلول ١٩٣٢، أعلن تأسيس المملكة العربية السعودية، وأصبح هذا اليوم هو اليوم الوطني للمملكة.

لم يضع الملك عبد العزيز الوقت بعد مرحلة الجهاد، بل بدأ مرحلة أخرى من البناء والتنظيم وتوطيد الأمن وتأمين طرق الحج وتعمير البلاد وتشجيع الزراعة وتوطين البدو، وتثبيت كيان المملكة. ثم عمد إلى تسوية مشاكل الحدود وتحسين العلاقات مع الدول العربية والاسلامية.

واتجه الملك عبد العزيز إلى الاصلاح الداخلي، فجعل القرآن الكريم والسنّة دستور المملكة، وأسس مجلس الشورى، وهيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ثم شرع في فتح المدارس واستقدام المدرسين، كما أرسل البعثات من أبناء المملكة إلى عدد من الكليات والمعاهد في الخارج لتستفيد المملكة من علمهم في النهوض بها لدى عودتهم إليها. كما قام بطباعة الكتب الدينية والعلمية وتوزيعها مجانًا، وعمل على الانتفاع بالمخترعات الحديثة.

وعندما تمّ اكتشاف البترول في المنطقة الشرقية من المملكة وبدأ الانتاج والتصدير (١٩٣٨)، أخذت المملكة تتقدم بسرعة في النواحي التعليمية والصحية وإنشاء الطرق والسكك الحديدية.

وواصل ا لملك عبد العزيز تنظيم أجهزة الدولة. فقام بتأسيس مجلس الوزراء، وأمر بسك النقود السعودية، ووضع موازنة للدولة الفتية، وبدأ في تنفيذ مشروعات توسعة الحرمين الشريفين.

وفي المجال السياسي، عقد الملك عبد العزيز المعاهدات مع الدول بما يحقق مصلحة المملكة، وساهم في تأسيس جامعة الدول العربية، كما أصبحت المملكة عضوًا في الأمم المتحدة وفي كثير من المنظمات والهيئات الدولية المنبثقة عنها (عن «ثوابت السياسة السعودية، إعداد إدارة الأبحاث والنشر بدار الأفق للنشر والتوزيع، ١٩٩٥، ص١٤-١٧).

لا تزال سيرة الملك عبد العزيز وسياسته-خاصة المتصلة منها بالقضية الفلسطينية-موضوع دراسات تركّز غالبيتها على اجتماع الملك بالرئيس الاميركي روزفلت

أول صورة لعبد العزيز في الكويت (١٩١٠).

وعلى مراسلاتهما، وعلى اجتماعه برئيس الوزراء البريطاني تشرشل، ومن خلال ذلك إظهار تمسك الملك بالحقوق العربية، في فلسطين والبلدان العربية، وقوة شكيمته في الموقف، وذكائه الحاد في تقديم الحجج.

عن اجتماع الملك عبد العزيز بروزفلت-وإضافة إلى ما جاء في النبذة التاريخية-كتب آلان راش، وهو باحث وكاتب بريطاني في تاريخ العالم العربي وشؤونه («الحياة»، العدد ١١٦٨٩، ٢٠ شباط ١٩٩٥، ص٧)، في جُملة ما صدر من دراسات، في الموضوع، في السنوات الأخيرة:

«... حاول روزفلت تقديم حجة جديدة، بالحديث عن القدرة الزراعية التي برهن عليها المستوطنون الصهاينة، وما في ذلك من الخير لليهود والعرب على حد سواء. لكن الملك عاد إلى الرفض. وكان جوابه، حسب شاهد عيان آخر هو الاميركي هاري هوبكنز، «لم ينجح اليهود في تحويل الصحراء في فلسطين إلى مزارع يانعة إلا بفضل تدفق رؤوس الاموال الاميركية والبريطانية عليهم بالملايين. ولو أعطيت تلك الملايين إلى العرب لنجحوا بالقدر نفسه». وهنا يستمر هوبكنز ليقول: «لا شك ان الرئيس (روزفلت)، عندما وجه الدعوة، لم يكن يدرك أي نوع من الرجال هو ضيفه، إنه رجل ذو وقار وتقشف وقوة عظيمة وجندي بالفطرة، وفوق كل ذلك فهو عربي». وأكد ذلك أميركي آخر، هو أليوت روزفلت نجل الرئيس، الذي قال في كتابه الذي كان بعنوان «كما رأيت»، إن والده اعتبر ان ذلك «العاهل الحديدي الارادة كان الرجل الذي حصل منه على أقل ما يمكن من بين كل الرجال الذين قابلهم في حياته. وبرهن العاهل على قوة شكيمته في قضايا أقل أهمية، عندما حصل من الاميركيين، مقابل السماح للبحرية الاميركية بالإرساء في موانىء العربية السعودية والتزود منها، على تعهدات بعدم احتلال أي من اراضي المملكة لأي سبب كان، وان تتسلم السعودية بعد خمس سنوات كل المنشآت العسكرية والمعدات الحربية الاميركية، والأهم من كل ذلك ان تساند الولايات المتحدة، حسب شرعة الاطلسي كل المبادرات التي تتخذها الدولة السعودية لصالح تحرير الشعوب العربية الرازحة حاليًا تحت السيطرة الأجنبية...».

وعن لقاء الملك عبد العزيز تشرشل وسياسته إزاء بريطانيا والحلفاء، يتابع راش:

«... تصرف تشرشل بجفاء (في لقاء عبد العزيز به) ولم يبد أي تفهم لوضع الفلسطينيين أو استعداد لمواجهة المشكلة التي كان لها ان تتفاقم عبر العقود اللاحقة.

وكانت نشاطات الصهاينة أقلقت العاهل السعودي طوال الثلاثينات، ولا بد أنها كانت المشجع الرئيسي على الاتصالات التي قام بها مع المانيا (...) وبقيت الاتصالات بالضرورة مكتومة وغير رسمية نظرًا إلى رغبته المخلصة في الحفاظ على تحالفه مع بريطانيا التي كانت على وشك دخول الحرب ضد المانيا. ويرجح ان تشرشل كان على علم بتلك الاتصالات، ولعل ذلك يفسر سلبيته أثناء اللقاء... (ومما قاله عبد العزيز لتشرشل): «ساعدتك وسوف أساعدك وأدعم موقف الحلفاء دومًا لكن لا يمكنني تدمير روحي وشرفي كمسلم بالتوصل إلى تسوية مع الصهيونية...».

وفي كتاب «لسراة الليل هتف الصباح، الملك عبد العزيز: دراسة وثائقية» (دار رياض الريس للكتب والنشر، بيروت ١٩٩٧) خصّص المؤلف، الشيخ عبد العزيز بن عبد المحسن التويجري، الفصل السابع للحديث عن قدرة الملك عبد العزيز الفائقة في التعامل الحذر مع السياسة البريطانية، وكيف تلافى المجازفات، ما دعا سير بيرسي كوكس، الخبير في سياسات الخليج لأكثر من ثلاثين سنة ان يقول إنه «لم ير ابن سعود ينزلق إلى خطوة خاطئة»؛ كما قال عنه غلوب باشا «إنه شخصية مذهلة كما ولو كان رئيس أعظم دولة في العالم»، إضافة إلى رسائل تبادلها الملك عبد العزيز مع عبدالله فيلبي والكابتن شكسبير تضمنت جميعًا مواقف الساعة خصوصًا العلاقة مع الشريف حسين وأولاده إضافة إلى تقارير بريطانية عن الملك عبد العزيز. أما الفصل الثامن فتضمن موقف الملك عبد العزيز من قضية فلسطين التي اعتبرها قضيته الأولى حيث يقول في إحدى رسائله إلى البريطانيين: «لو قلت لكم إن هناك ذرة واحدة في جسدي لا تدعوني إلى قتال اليهود لكنت أكذب، لو ذهبت كل أملاكي وتوقف نسلي لكان أسهل عليّ من أن أرى موطئ قدم لليهود في فلسطين».

*** سعود بن عبد العزيز آل سعود، الملك (١٩٠٢-١٩٦٩)**: الأبن البكر لعبد العزيز، تولى العرش عقب وفاة والده في ١٩٥٣، واستمر عليه حتى ١٩٦٤.

داخليًا، بدأ نهضة تعليمية بفتح مدرسة أنجال ولي العهد الأهلية التي تعد من أوائل مدارس البنين في نجد بعد مدرسة الأمراء والمدارس التذكارية التي أنشأها الملك عبد العزيز. وحوّل مديرية المعارف العامة (أنشأها عبد العزيز في ١٩٢٦) إلى وزارة المعارف، وكان الأمير (الملك حاليًا) فهد بن عبد العزيز أول وزير لها، وتركزت أهدافها على

الملك سعود بن عبد العزيز.

الملك فيصل بن عبد العزيز.

الاهتمام بالتعليم العالي ومعاهد المعلمين ومجانية التعليم ومكافحة الأمية والتعليم الفني المتوسط، وجرى تخصيص رواتب شهرية تراوح بين ١٠٠ و٣٠٠ ريال سعودي للتلميذ الواحد. كما قام الملك سعود بإهداء عشرة قصور ملكية في محلة الرويس لوزارة المعارف وسميت «مدينة الملك سعود العلمية»، ثم أنشئت جامعة الملك سعود في الرياض وهي أول جامعة على مستوى المملكة (١٩٥٧)، والجامعة الاسلامية في المدينة المنورة (١٩٦١). وفتحت أول مدرسة لتعليم البنات في ١٩٦١. وفي مجال الصحة العامة، أسس الملك سعود المستشفيات في أنحاء المملكة، وأنشأ المحجر الصحي (١٩٥٦)، والمستشفى المتنقل في البادية.

خارجيًا، عقد الملك سعود معاهدة عسكرية مع مصر (١٩٥٥)، ثم ابتعد عن السياسة المصرية، واتهمته القاهرة بتمويل مؤامرة لاغتيال الرئيس جمال عبد الناصر. زار القاهرة رسميًا في ٣١ آب ١٩٥٩، واشترك في مؤتمر القمة العربي الاول (١٩٦٤).

تنحى عن العرش في مطلع تشرين الثاني ١٩٦٤، وسافر إلى الخارج؛ ثم أقام في القاهرة من أواخر ١٩٦٦ وحتى وفاته في ١٩٦٩ (راجع «النبذة التاريخية»).

*** فيصل بن عبد العزيز آل سعود، الملك** (١٩٠٦-١٩٧٥): الأبن الثالث لعبد العزيز. ولد في مدينة الرياض. شارك في سن مبكرة في المعارك والأحداث التي واكبت نشؤ المملكة، فكان له في كل ذلك خير إعداد لما تمرّس بعد من مهمات.

قام بأول زيارة له إلى بريطانيا، كممثل لوالده، في تشرين الاول ١٩١٩، ملبيًا الدعوة (كما لبّاها معه الشيخ أحمد الجابر الصباح الذي أصبح في ما بعد حاكمًا للكويت) التي وجهت إليه كبادرة تقدير للموقف السعودي أثناء الحرب العالمية الأولى. وكانت رحلته الثانية (إلى الخارج) عام ١٩٢٦ عندما جاب انكلترا وفرنسا وهولندا وبلدانًا أخرى، والثالثة عام ١٩٣٢ (وكان عبد العزيز قد عينّه أول وزير خارجية للمملكة منذ ١٩٣٠) عندما رأس بعثة سعودية إلى معظم عواصم اوروبا، والرابعة عام ١٩٣٧ عندما شهد تتويج الملك جورج السادس، والخامسة عام ١٩٣٩ عندما مثل المملكة في المحادثات الخاصة بفلسطين التي عقدت في لندن. وفي تشرين الثاني ١٩٤٣، كانت زيارته السادسة لبريطانيا بصحبة أخيه الأمير (الملك في ما بعد) خالد. وأجرى الأميران محادثات في وزارة الخارجية البريطانية.

الامير فيصل يوقع ميثاق الامم المتحدة ومعه الوفد السعودي المؤلف من الامير فهد بن عبد العزيز، والامير عبدا لله الفيصل، والامير نواف بن عبد العزيز والسيد علي رضا.

وزير الخارجية السعودية الامير فيصل يلقي كلمته في الامم المتحدة.
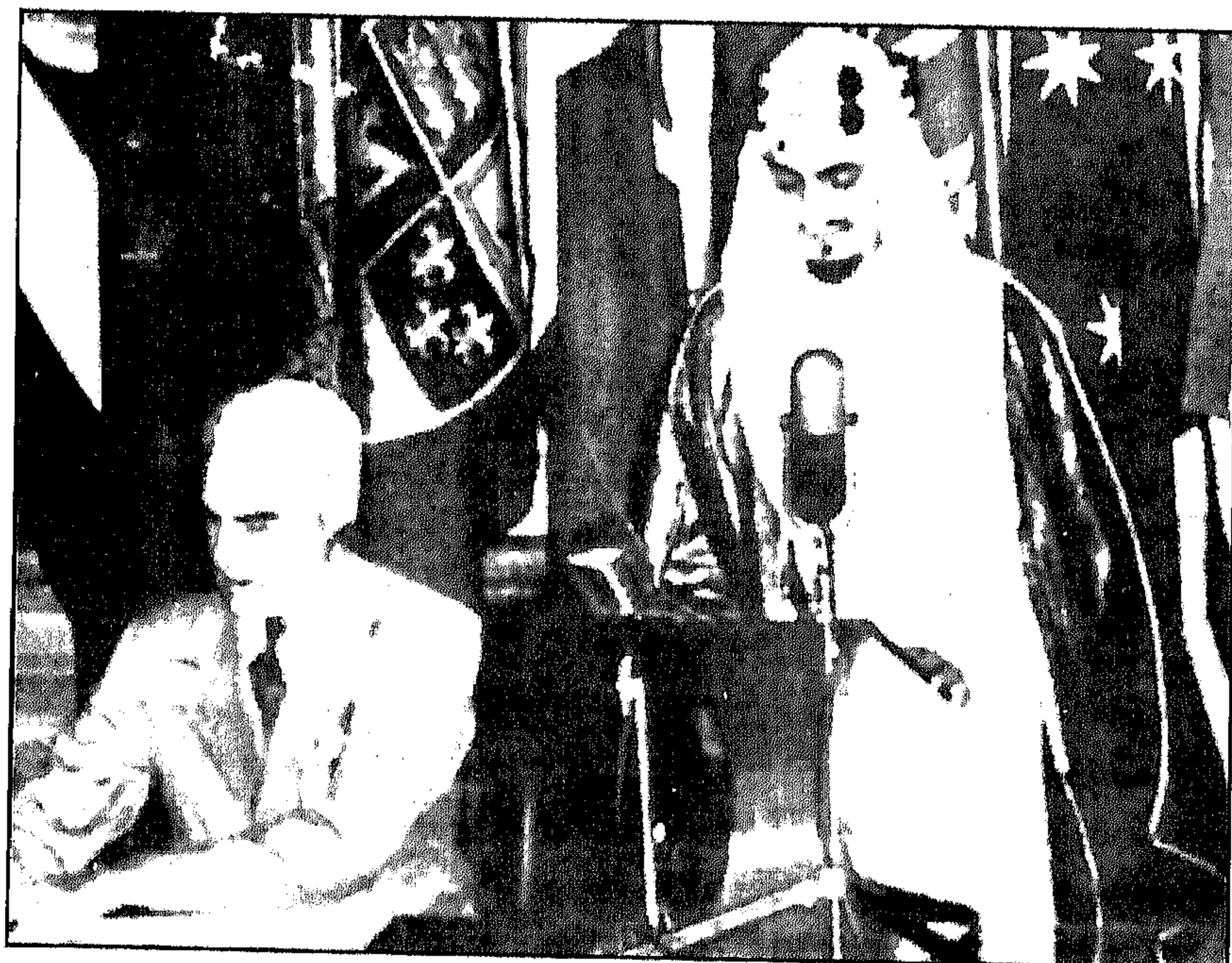
وعلى رغم اعتبار هذه الزيارة إلى لندن (تشرين الثاني ١٩٤٣) ناجحة، فهي تعد قليلة إذا قورنت بالزيارة التي قاما بها إلى الولايات المتحدة قبل شهر واحد (تشرين الاول ١٩٤٣). فعشية وصولهما إلى واشنطن عاملهما الرئيس روزفلت معاملة رؤساء الدول، وأقام لهما حفلة استقبال رسمية في البيت الأبيض. وركّز الأميران، في مباحثتهما وأحاديثهما، على النقاط الرئيسية في برنامجهما السياسي، مثال ذلك أهمية تأمين الاستقلال التام لسورية ولبنان واقتراح إقامة «الولايات المتحدة العربية» التي كان يفترض ان يكون والدهما زعيمًا لها. وعلى الرغم الجهود المبذولة للتقليل من أهمية المشكلة الفلسطينية التي كانت بالغة الحساسية في ذلك الحين، فقد أوضح الأمير فيصل الموقف السعودي من المسألة مركزًا على ان «اليهود، أو بالأحرى الصهيونيين هم الذين يتسببون بخلق جميع المصاعب، وطالما نجحوا في تحقيق أهدافهم فستبقى المشاكل قائمة دائمًا».

ومما كان له أهمية خاصة، إبان هذه الزيارة للولايات المتحدة، الاهتمام الذي أبداه الأمير فيصل في شأن الاتحاد السوفياتي خلال محادثاته. ففيما أظهر فيصل تفهمًا للحاجة إلى الدعم السوفياتي في الحرب الدائرة ضد المانيا، حذّر في الوقت نفسه من التبعات المحتملة البعيدة المدى لمثل هذه المساعدة. وإذ توقع فيصل التوسع السوفياتي في الارض وانتشار الشيوعية في أعقاب هزيمة الالمان، فإنه كان ايضًا بين الأوائل الذين استشرفوا الملامح البارزة لفترة الحرب الباردة التي تلت.

إلا ان مسألة تعزيز التحالف بين العربية السعودية والولايات المتحدة طغت على المسائل الأخرى خلال زيارة الأميرين. ويعود تاريخ هذا التحالف إلى عام ١٩٣٣ عندما فازت شركة «ستايت أويل كومباني أوف كاليفورنيا» بأول امتيازاتها النفطية السعودية، ثم عندما عثر على مخزونات نفطية ضخمة في المنطقة الشرقية من السعودية (١٩٣٨)، وبدأت هذه العلاقات التحالفية تترسخ مع حاجة الولايات المتحدة إلى مزيد من النفط إبان الحرب من جهة، ومع ما شهدته السعودية من تراجع اقتصادي نتيجة هذه الحرب (العالمية الثانية) فتراجعت الايرادات من الحج التي كانت لا تزال مصدر الدخل الرئيسي للملكة إضافة إلى ما عانته البلاد من حالة جفاف وتعطل الواردات من الطعام والحاجات الضرورية الأخرى بسبب القيود على التجارة التي فرضتها البلدان المجاورة من جهة ثانية.

وبعد سنتين على هذه الزيارة، اتضح انها مهّدت الطريق للحظة التاريخية التي شهدت الاعتراف بالملك عبد العزيز، في شباط ١٩٤٥، كرجل دولة عالمي عندما سافر إلى مصر لعقد محادثات مع روزفلت وتشرشل. وفي السنة نفسها، رأس وزير الخارجية، الأمير فيصل، البعثة التي مثلت المملكة في مؤتمر تأسيس منظمة الأمم المتحدة في سان فرنسيسكو بالولايات المتحدة الاميركية.

وعندما تأسس مجلس الوزراء السعودي (١٩٥٣)، اختير فيصل نائبًا لرئيس مجلس الوزراء. وعند وفاة عبد العزيز بعد ذلك بأسابيع أصبح فيصل وليًا للعهد. وكان تسلمه العرش، في تشرين الثاني ١٩٦٤، فاتحة السبيل نحو الخطوات الأساسية لتحديث المملكة وإلحاقها بركب الحضارة. وكان فيصل قبل ذلك بعامين قد أعلن مبادئه العشرة التي ارتبطت تاريخيًا ببرنامجه في الحكم (راجع «النبذة التاريخية» و«معالم تاريخية»).

في ٢٥ آذار ١٩٧٥، اغتال أحد افراد العائلة المالكة الملك فيصلاً لدوافع لم يكشف النقاب عنها بعد. والتحليل السياسي الأبرز لحادثة الاغتيال هذه، الذي انتشر على نطاق واسع جدًا، عربيًا ودوليًا، صحافيًا وأحاديث الخاصة والعامة، هو الذي ربط بين حادثة الاغتيال والموقف الصلب الذي كان يتخذه الملك فيصل من القضية الفلسطينية على وجه العموم وقضية القدس التي كان يصر على عروبتها على وجه الخصوص. فكان لا ينفك يردد انه لن يرتاح له بال إلا حين يصلي في القدس.

لعب الملك فيصل واحدًا من الادوار الكبرى في التاريخ السياسي للملكة ولمنطقة الشرق الاوسط في تلك السنوات الحافلة، بعد ان لعب طوال نحو ثلث قرن دورًا كبيرًا في المجال الدبلوماسي، ليس فقط بوصفه وزيرًا للخارجية السعودية، بل ايضًا بوصفه واحدًا من مهندسي وصانعي السياسة الخارجية العربية بشكل عام.

*** خالد بن عبد العزيز آل سعود، الملك** (١٩١٣-١٩٨٢): ولد في الرياض. تلقى تعليمه في المدارس القرآنية في المملكة، ولم يتلق أي تعليم في الخارج بخلاف العديد من إخوته. وعندما أصبح في الرابعة عشرة من عمره، أرسله والده عبد العزيز إلى الصحراء ليمثل الدولة لدى قبائلها ويستمع إلى شكاواهم ومظالمهم. وكان يرتاح إلى حياة الصحراء وتوليه مختلف قبائل المملكة ثقة فائقة. وقد ساعد والده في عدة مهمات خلال الكفاح من أجل توحيد البلاد، وأصبح حاكم الحجاز (١٩٣٢)، ثم وزيرًا للداخلية (١٩٤٣)، وكانت له اهتمامات بالزراعة.

ترك خالد البلاد لأول مرة في ١٩٣٩ ليشارك، مع أخيه فيصل، في مؤتمر لندن حول فلسطين، ثم اصطحبه فيصل إلى الولايات المتحدة وإلى عدد من البلدان الاوروبية (راجع «فيصل...»، أعلاه). ولكنه عاد إلى المملكة، وفضل الاهتمام بأوضاع البدو، وتحديدًا بمشاريع استصلاح الصحراء من خلال استخدام المياه الجوفية. وفي الرياض كرّس وقته لأعمال الخير والاحسان. وساعده في ذلك شخصيته المتواضعة ومنطقه الهادىء وسمعته المحببة التي جعلت منه وسيطًا دائمًا في الخلافات التي تبرز احيانًا داخل العائلة المالكة. عين نائبًا لرئيس مجلس الوزراء ووليًا للعهد (١٩٦٢).

حين نُودي بفيصل ملكًا أصبح خالد وليًا للعهد. ثم ارتقى العرش بعد مقتل فيصل (١٩٧٥)، فاختار الملك خالد الأمير فهد وليًا للعهد ونائبًا أول لرئيس مجلس الوزراء كما عين الأمير عبدالله نائبًا ثانيًا لرئيس مجلس الوزراء ورئيسًا للحرس الوطني.

انتهت خطة التنمية الخمسية الثانية في عهده وكانت ركزت على تنويع القاعدة الاقتصادية. كما عقد في عهده مؤتمر القمة الاسلامي التاريخي في الطائف ومكة (١٩٨١)، وفي السنة نفسها وقع بالأحرف الأولى على تأسيس مجلس التعاون الخليجي.

ألف الملك خالد وولي العهد فهد فريق عمل، وأنيطت بولي العهد الأعمال الادارية. وكانت حركتا التطور الصناعي والتربوي سائرتين قدمًا حين توفي الملك خالد (حزيران ١٩٨٢)، وكان أصيب أكثر من مرة بنوبة قلبية.

*** فهد بن عبد العزيز آل سعود، خادم الحرمين الشريفين الملك (١٩٢٤ -):** ملك المملكة العربية السعودية الحالي. ولد في مدينة الرياض في كنف والده مؤسس المملكة.

«كان الفهد معروفًا منذ طفولته بالهدوء والاتزان والبعد عن لهو الاطفال والميل إلى الصمت والتفكير وإجادة الاصغاء والاستماع والاهتمام بما يدور من حوله رغم صغر سنه، وقد لاحظ الملك عبد العزيز في ولده فهد تلك المناقب فقربه منه وأجاز له حضور مجلسه الخاص حيث كان يجتمع إلى ابنائه الكبار في السن ورجال دولته مما أكسبه خبرة في مختلف الأمور السياسية والادارية التي كانت تبحث في مجلس الوالد وطريقة معالجتها واتخاذ ما يلزم بشأنها...» (عادل رضا، «فهد بن عبد العزيز الانسان

الملك خالد بن عبد العزيز.

الملك»، مؤسسة أخبار اليوم، القاهرة، ١٩٩٤، ص٧٣-٧٤).

«وكانت أمه تتمتع بشخصية قوية مما كان لها الأثر الكبير في تربية أبنائها. ويذكر ان هذه السيدة القادرة الجليلة ظلت حتى وفاتها سنة ١٩٦٩ تداوم على جمع أبنائها يوميًا حولها وتسدي إليهم النصح والتوجيه. كما انها حرصت على دفعهم نحو العلوم الحديثة العصرية الأمر الذي أهّل الملك فهد وأخوته الستة إلى تبوء مراكز أساسية في الدولة» («موسوعة السياسة»، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ج٤، ط١، ١٩٩٠، ص٦١١).

وكان فهد قد تلقى علومه الأولية في المدرسة التي أنشأها والده الملك عبد العزيز لتعليم أولاده (مدرسة الأمراء في الرياض)، ثم التحق بالمعهد العلمي السعودي (في مكة المكرمة) الذي يولي التعليم الديني وعلوم اللغة العربية اهتمامًا كبيرًا، ثم تلقى دراسات مختلفة في الخارج إلى جانب قيامه برحلات زار خلالها معظم دول أوروبا وآسيا وافريقيا والولايات المتحدة.

أوفده والده، الملك عبد العزيز، إلى الخارج في مهمات رسمية عديدة وعهد إليه في كثير من الاحيان أن

خادم الحرمين الشريفين
الملك فهد بن عبد العزيز.

ينوب عنه في حضور بعض المناسبات الداخلية وبخاصة الاجتماع إلى رؤساء القبائل وأعيان البلاد، وقد أكسبه ذلك خبرة واسعة في شؤون القبائل وأهل البادية بدت نتائجها الايجابية في ما بعد عندما تولى وزارة الداخلية (١٩٦٢). وكان، قبل وزارة الداخلية، عين وزيرًا للمعارف عند إنشائها في ١٩٥٣. وعين نائبًا ثانيًا لرئيس مجلس الوزراء في ١٩٦٧ علاوة على قيامه بمسؤوليات وزارة الداخلية، وقد أصبح بحكم هذا المركز يرأس جلسات مجلس الوزراء. ومن المهام المبكرة التي شارك فيها في عهد والده اختياره عضوًا في وفد المملكة برئاسة الملك فيصل (وقد كان أميرًا ووزيرًا للخارجية) وذلك بمناسبة افتتاح هيئة الأمم المتحدة في نيويورك، كما رأس وفد بلاده إلى اجتماع جامعة الدول العربية في الدورة الـ٣٣ الاستثنائية في شتورا (لبنان، ١٩٦٠).

في ١٩٧٠، رأس فهد وفد المملكة إلى بريطانيا للمشاركة في المحادثات المتعلقة بمستقبل منطقة الخليج العربي بعد قرار بريطانيا الانسحاب من المنطقة، كما ترأس وفد المملكة إلى مؤتمر قمة الدول المصدرة للبترول (أوبك) الذي عقد في الجزائر في ١٩٧٥، وقام بسلسلة من الزيارات لعدد من الدول العربية والاسلامية والصديقة.

في آذار ١٩٧٥، عين وليًا للعهد (في عهد أخيه الملك خالد بن عبد العزيز) ونائبًا لرئيس مجلس الوزراء ورأس عددًا من المجالس والهيئات المشرفة على أمن القطاعات بالمملكة وهي: المجلس الأعلى للبترول والمعادن، المجلس الأعلى للجامعات، الهيئة الملكية للجبيل وينبع، المجلس الأعلى لسياسة التعليم، الهيئة العليا لشؤون الحج، الهيئة الملكية لتطوير المدينة المنورة، وترأس وفد المملكة بالانابة عن الملك خالد إلى مؤتمر القمة العربية الذي عقد في بغداد (١٩٧٨)، كما ترأس وفد المملكة بالانابة عن الملك خالد ايضًا إلى مؤتمر القمة العربية الذي عقد في مدينة فاس (المغرب) في ١٩٨٠ حيث طرح المشروع العربي للسلام الذي عرف في ما بعد بمشروع فاس للسلام. وترأس وفد المملكة في ١٩٨١ إلى المؤتمر الاقتصادي الذي عقد في كانكون (المكسيك) وحضره معظم رؤساء دول العالم لبحث مشكلات العالم الاقتصادية ووضع الحلول للعلاقات الاقتصادية بين الدول الغنية والدول الفقيرة.

وفي ٢١ شعبان ١٤٠٢هـ (١٣ حزيران ١٩٨٢) بويع فهد ملكًا للمملكة العربية السعودية إثر وفاة الملك خالد، كما بويع الأمير عبدالله بن عبد العزيز آل سعود وليًا للعهد. وفي أول خطاب ملكي وجهه إلى المواطنين

السعوديين بعد تسلمه مقاليد الحكم، قال: «إنني أشعر بعظم المسؤولية وثقل الأمانة التي شاء الله سبحانه وتعالى أن أحملها راجيًا منه جلّ وعلا أن يعينني على حملها وانني أعاهد الله ثم أعاهدكم بأن أكرس كل جهودي من أجل العمل على راحتكم وتوفير الرخاء والأمن والاستقرار لهذا البلد العزيز، وأن أكون أبًا لصغيركم وأخًا لكبيركم فما أنا إلا واحد منكم يؤلمني ما يؤلمكم ويسرني ما يسركم» (عادل رضا، المرجع المذكور أعلاه، ص١٦١).

وفي طليعة ما يسجل للملك فهد من إنجازات في الفترتين، فترة ولايته للعهد وفترة عهده، أنه قاد، سياسة فضّ المنازعات الاقليمية العربية وتشجيع سياسة التضامن العربي والاسلامي، فسعى منذ العام ١٩٧٥ إلى تحسين العلاقة مع العراق واليمن الجنوبية بعد ان كانت علاقة السعودية بهذين البلدين محكومة بتأزمات قديمة، دون ان يهمل تطوير العلاقة مع كل من سورية واليمن الجنوبية. كما حافظت السعودية على علاقة متطورة بالنسبة إلى القضية الفلسطينية وذلك بمواصلة دعمها لمنظمة التحرير الفلسطينية على مختلف الصعد. وقد استطاع فهد أن يتجاوز الازمات التي نشأت في ١٩٧٩ سواء تلك المتمثلة في منطقة المسجد الحرام أم في المناطق الشرقية من المملكة.

وإذا كان الملك فيصل قد افتتح عهده ببناء المملكة السعودية الحديثة فإن الملك فهد، ومنذ اعتلائه العرش، وضع المناهج الرئيسية لاتمام هذا البناء وفرض حضوره الداخلي والعربي والعالمي وإليه تعود تحديدًا بلورة الاتجاهين الرئيسيين لتطور المملكة: الاول ويتصل ببناء القاعدة الصناعية وفق نظرة تسعى لتوسيع مشاركة كل أهالي البلاد في هذه العملية وجعلهم يستفيدون إلى أبعد مدى من الثروة النفطية، والثاني يقوم على بناء تجمع خليجي قوي في إطار مواجهة التطورات المحتملة، خصوصًا بعد أحداث أفغانستان والحرب الايرانية-العراقية.

وقد رسّخ الملك فهد سياسة الملك فيصل بالنسبة إلى قضية فلسطين وأهمية استعادة القدس مرتكزًا على الدور المتزايد للعامل البترولي بوصفه من عوامل تقرير السياسات الدولية في المنطقة. وفي هذا السبيل اقترن أكثر من مبادرة ومشروع باسم الملك فهد حتى في الفترة التي كان فيها ولي عهد أهمها المشروع الذي اشتهر باسم «مشروع فهد» ثم صار يعرف رسميًا باسم «مشروع قمة فاس» بعد أن اقرت خطوطه الأساسية في مؤتمر القمة العربية في فاس ١٩٨٢ (راجع «النبذة التاريخية»).

أما عن لقب «خادم الحرمين الشريفين» الذي اتخذه الملك فهد لنفسه فقد جاء بصدده في كتاب «أضواء على منجزات التنمية في المملكة العربية السعودية» (دار الأفق للنشر والتوزيع، فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٩٩٥، ص٥٧):

ألقى خادم الحرمين الشريفين خطابًا في حفل افتتاح مركز تلفزيون المدينة المنورة مساء الاثنين ٢٤ صفر ١٤٠٧هـ الموافق ٢٧ تشرين الثاني ١٩٨٦ قال فيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم، يطيب لي أن أعلن لكم اليوم من مدينة الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام عن رغبة ملحة تخامرني منذ شاء الله أن أتسلم زمام الحكم في وطني العزيز باستبدال مسمى صاحب الجلالة بلقب أحبه ويشرفني أن أحمله وهو خادم الحرمين الشريفين وسوف يعمد هذا رسميًا منذ الآن في الخطاب وفي الكتاب وسوف تصدر من الديوان الايضاحات اللازمة لاستخدام الصيغة الجديدة».

وبعد خمسة ايام (أي في ٢ كانون الاول ١٩٨٦)، صدر توجيه ملكي من الملك فهد إلى ولي العهد نائب رئيس مجلس الوزراء ورئيس الحرس الوطني يطلب إحلال عبارة «خادم الحرمين الشريفين» محل عبارة صاحب الجلالة في كل المخاطبات والمكاتبات وان يمنع استعمال كلمة «مولاي» أو كلمة «المعظم» أو أي عبارة أخرى تدل على التبجيل والتعظيم.

*** عبدالله بن عبد العزيز آل سعود، الأمير ولي العهد** (١٩٢٤-): عاش الأمير عبدالله، ككل أخوته، في ظل ورعاية والده الملك عبد العزيز. في ١٩٦٢، عين رئيسًا للحرس الوطني فعمل على إعادة تنظيم وتطوير هذا الجهاز وتجهيزه بالعلم والسلاح المتقدم والتدريب والتأهيل وتزويده بالثقافة الدينية والعسكرية حتى أصبح، خلال عقدين، قوة لا يُستهان بها، فأثبت وجوده وكفاءته في كل مهمة كلف بها وخصوصًا في حرب الخليج الثانية.

وعُني الأمير عبدالله بإنشاء المستشفيات والمستوصفات في الحرس الوطني والمدن السكنية الخاصة لمنسوبيه وتوفير الرعاية الصحية لأفراد الحرس الوطني وعائلاتهم.

وفي ١٩٧٥، عُين الأمير عبدالله نائبًا ثانيًا لرئيس مجلس الوزراء إلى جانب مسؤولياته كرئيس للحرس الوطني. وأصبح بحكم هذا المنصب يرأس بعض جلسات مجلس الوزراء.

وفي ١٩٨٢، اختاره الملك فهد وليًا للعهد،

الامير ولي العهد عبدالله بن عبد العزيز.

وصدر أمر ملكي بتعيينه نائبًا أول لرئيس مجلس الوزراء إلى جانب رئاسته للحرس الوطني.

كان الأمير عبدالله دائمًا العضد القوي والساعد الأيمن لأخيه الملك في تصريف شؤون الدولة وفي السهر والمتابعة لمشروعات التنمية الشاملة. وعلاوة على ذلك فله دور كبير وملحوظ في إنهاء الخلافات التي كانت تنجم بين الدول العربية وتقريب وجهات النظر بينها وخدمة القضية الفلسطينية وإيجاد الحلول للمشكلة اللبنانية بتوجيهات من أخيه الملك. وله ايضًا عناية خاصة بالجوانب الثقافية والاجتماعية، فقد تبنى إقامة مهرجان سنوي ثقافي واجتماعي في الجنادرية تحت إسم «المهرجان الوطني للتراث والثقافة» الذي تشارك فيه كل الفعاليات الثقافية والاجتماعية والتراثية من داخل المملكة، ويحضره جمع كبير من الأدباء والمثقفين والمفكرين من معظم البلاد العربية والاسلامية. وحرصًا منه على إحياء التراث والتقاليد العربية الأصيلة فقد أنشأ «نادي الفروسية» الذي يرعى رياضة الفروسية العريقة، حيث تقام السباقات اسبوعيًا وشهريًا وسنويًا وذلك من أجل وصل ماضي المملكة بحاضرها (عن كتاب «أضواء على منجزات التنمية في المملكة العربية السعودية»، إعداد إدارة الأبحاث والنشر بدار الأفق للنشر والتوزيع، ١٩٩٥، ص٥٩-٦٠؛ راجع كذلك «كرونولوجيا» في باب «النبذة التاريخية»).

* **سلطان بن عبد العزيز آل سعود، الأمير** (١٩٢٨-): النائب الثاني لرئيس مجلس الوزراء ووزير الدفاع والطيران والمفتش العام. نشأ الأمير سلطان في رعاية والده الملك عبد العزيز. في ١٩٤٧، عينه عبد العزيز أميرًا لمدينة الرياض. وعند تشكيل أول مجلس وزراء في المملكة عُين سلطان وزيرًا للزراعة (١٩٥٣)، وكان أهم المشروعات التي عُني بها إذ ذاك هو مشروع توطين البادية الذي يعد أحد التوجهات الأساسية للدولة في خطواتها التطورية؛ وفي ١٩٥٥ عُين وزيرًا للمواصلات، وفي ١٩٦٢ وزيرًا للدفاع والطيران ومفتشًا عامًا. ومنذ ذاك التاريخ شهدت القوات المسلحة البرية والجوية والبحرية تطورات واسعة تهدف إلى إعادة تنظيمها وتحديث سلاحها وإنشاء الكليات والمعاهد والمدارس العسكرية في مختلف التخصصات (عن «أضواء على منجزات التنمية...»، المرجع المذكور أعلاه، ص٦١-٦٢؛ وراجع كذلك «كرونولوجيا» في باب «النبذة التاريخية»).

الامير سلطان بن عبد العزيز.

* **سعود الفيصل، الأمير**: ابن الملك فيصل بن عبد العزيز. وزير الشؤون الخارجية. ولد في الرياض. درس في «هون»، وواصل تحصيله، وتخرج عام ١٩٦٥ بشهادة ب.ع. في الاقتصاد من جامعة برنستون الاميركية، وعمل مدة عشر سنوات نائبًا عن الشيخ أحمد زكي اليماني في منظمة النفط والمعادن، ثم في وزارة الثروة النفطية والمعدنية، ثم وزير دولة للشؤون الخارجية (١٩٧٥) قبل ان يصبح وزيرًا للخارجية في العام نفسه. ترأس وفد بلاده إلى عدد كبير من المؤتمرات العالمية والعربية. كلّفه الملك خالد ببذل الجهود الدبلوماسية لحل النزاع الجزائري-المغربي حول الصحراء الغربية، والحرب الأهلية في لبنان. شارك في وفد بلاده إلى مختلف مؤتمرات القمة العربية منذ ان تولى وزارة الخارجية وأصبح شخصية سعودية وعربية معروفة وبارزة. لكن، لوحظ في السنوات الأخيرة تراجعًا في دوره ومهماته الخارجية، وبرز في أكثر هذه المهمات ولي العهد الأمير عبدالله، والنائب الثاني لرئيس الوزراء الأمير سلطان. ومن بين أبرز الأدوار العربية التي لعبها سعود الفيصل في آخر الثمانينات دوره التوفيقي في «وثيقة الوفاق الوطني» اللبنانية المعروفة ايضًا بـ«اتفاق الطائف».

الامير سعود الفيصل.

وزراء وشخصيات سياسية

* **أحمد زكي اليماني** (١٩٣٨-): ولد في الدمام. أتمّ تحصيله الابتدائي والثانوي في العربية السعودية. نال رتبة (ب.ق.) بكالوريوس في القانون من جامعة القاهرة وLLM ماجستير في القانون من جامعة هارفرد.

أشار في كتابه: «القانون الاسلامي والقضايا المعاصرة»، كراتشي ١٩٥٨، إلى ان ليس من معارضة بين الشريعة والأوضاع الحديثة. وأكد ان التقدم والنمو إنما يتمان عن طريق تطبيق الشريعة لا غير. وأوصى، انسجامًا مع آراء ابن قيم الجوزية القاضي الحنبلي البارز، أن الشريعة نظام قائم على أساس راحة الفرد في المجتمع في حياته اليومية وفي توقعاته في الحياة الأخرى. فالشريعة كما يرى «كلها عدل، وكلها رحمة، وكلها منافع».

وزير الثروة النفطية والمعدنية في حكومة الملك خالد، وأبرز وزراء النفط في الأوابك والأوبك.

* **جميل مراد بارودي** (١٩٠٥-١٩٧٩): دبلوماسي سعودي، لبناني المولد. ولد في سوق الغرب (لبنان) وتوفي في نيويورك. كان سفيرًا للمملكة السعودية في الأمم المتحدة وعميد السلك الدبلوماسي في المنظمة الدولية. كان عضوًا في الوفد السعودي إلى الأمم المتحدة (الذي كان برئاسة الأمير فيصل-الملك في ما بعد) في

الاجتماع الاول عام ١٩٤٥ في سان فرنسيسكو، واشتهر بمواقفه الوطنية الحادة ضد الصهيونية ودفاعه عن سياسة المملكة العربية السعودية وعن القضايا العربية.

ومن المعروف ان البارودي لم يكن يتردد في الاصطدام مع الكثير من الوفود الغربية وفي أكثر من مناسبة وقد مُنح صلاحية واسعة من وزير الخارجية السعودي سعود الفيصل لطرح أو اتخاذ الموقف الذي يريد دون الموافقة المسبقة من وزارة الخارجية. والجدير بالذكر انه كثيرًا ما كان يستشهد في خطبه بأقوال للسيد المسيح وبكثير من كبار السياسيين وعظماء الغرب بهدف ترك أكبر الأثر في الغرب. ويمتاز أسلوبه بجرأة لا تتوافر عادة لدى الدبلوماسيين.

* **حسن عبدالله آل شيخ** (١٩٣٣–): ولد في مكة. تعلم على والده الشيخ عبدالله وأتم التحصيل الثانوي في مكة. نال شهادة (ب.ع.) في اللغة العربية والدراسات الاسلامية من كلية الشريعة في مكة. عينه والده عضوًا في اللجنة التنفيذية القضائية في منطقة الحجاز (١٩٥٦–١٩٥٨)، وبعد وفاة والده (١٩٥٨) أصبح رئيسًا لهذه اللجنة. في ١٩٦٢، عينه ولي العهد الأمير فيصل وزيرًا للثقافة. وفي ١٩٧٥، عينه الملك خالد وزيرًا للتعليم العالي. وإلى جانب منصبه الوزاري عينه الملك فيصل رئيسًا للمجلس الأعلى لمركز أبحاث الملك عبد العزيز.

* **سليمان عبد العزيز السُليم** (١٩٣٨–):أتم تحصيله الابتدائي والثانوي في البصرة بالعراق. تخرج برتبة (ب.ع.) في العلم السياسي في جامعة القاهرة ١٩٦٢ و(م.ع.) في العلاقات الدولية ١٩٦٦ في جامعة جنوبي كاليفورنيا، و(د.ف.) في القانون في جامعة هوبكنز ١٩٧٠.

عين بوزارة العمل والشؤون الاجتماعية بمنصب مدير العلاقات الخارجية ١٩٦٢، وأصبح (١٩٦٣) عضوًا في البعثة السعودية إلى مؤتمر الأمم المتحدة حول «تطبيق العلم والتقنية لمنفعة الدول الأقل نموًا». عين (١٩٦٨) موفدًا إلى مؤتمر وزراء الشؤون الاجتماعية في الأمم المتحدة. عينه الملك خالد وزيرًا للتجارة (١٩٧٥).

يذكر السُليم في أطروحة الدكتوراه «التنظيم الدستوري والقضائي في المملكة العربية السعودية»: «إن الشريعة وافية بحاجة العالم المعاصر. وإنما المشكل في وجود في الاتصالات بين العلماء من جهة، والتقنيين والمفكرين من جهة أخرى. وهؤلاء الآخرون يبدو أنهم غافلون عن فضل العلماء في الاستقرار والاستمرار في مجتمع تقليدي، ولا هم يتحسسون دائمًا غنى القضاء الاسلامي. أما العلماء من جانبهم، فلم يعثروا بعد على الصيغة الصالحة لنقل هذه المناقب إلى المفكرين».

* **عبد العزيز عبدالله الخويطر** (١٩٢٧–): ولد في نجد. حصّل الدروس الابتدائية والثانوية في العربية السعودية، والدكتوراه (د.ف.) في التاريخ في بريطانيا. رئيس مديرية الأشراف والمتابعة (١٩٦٥)؛ وبعد سنة عين نائب رئيس لجامعة الرياض بقرار من وزير الثقافة. عين في ١٩٦٧، وزيرًا للصحة في وزارة فيصل، وفي ١٩٧٥، أصبح وزيرًا للثقافة.

* **عبدالله محمد العمران** (١٩٣٥–): أتمّ تحصيله الابتدائي والثانوي في العربية السعودية، ونال شهادة (د.ق.) دكتور في القانون من الولايات المتحدة. شغل منصب مستشار قانوني لمجلس الوزراء بين ١٩٧٠ و١٩٧٥. عين وزير دولة في ١٩٧٥.

* **علوي درويش كيال** (١٩٣٢–): ولد في جدة. أتمّ التحصيل الابتدائي والثانوي في العربية السعودية. ونال شهادة الدكتوراه (د.ف.) من الولايات المتحدة في العلم السياسي. شغل بين ١٩٥٩ و١٩٧٠ منصب مدير عام البريد ثم وزير البريد والبرق والهاتف في وزارة فيصل وبقي كذلك في وزارة خالد (١٩٧٥).

* **غازي القصيبي** (١٩٤٠–):ولد في إقليم الحساء. أتمّ تحصيله الابتدائي والثانوي في العربية السعودية. نال (LLB) بكالوريوس في القانون من جامعة القاهرة، و(م.ق.) في العلاقات الدولية من جامعة جنوبي كاليفورنيا، و(د.ف.) في العلاقات الدولية في جامعة لندن. في عام ١٩٦٥ انضم إلى جامعة الرياض محاضرًا في العلم السياسي. ثم أصبح عميدًا لكلية العلوم الادارية في الجامعة نفسها (١٩٧١). وفي ١٩٧٣، عين مديرًا عامًا لمنظمة القطارات الوطنية السعودية برتبة نائب وزير. وبعد سنة عين رئيسًا لحاكمية مرفأ الدمام. وعين في ١٩٧٥، وزيرًا للصناعة والكهرباء.

* **كمال أدهم**: (١٩٢٩–): ولد في مكة

المكرمة. تلقى دراسته الثانوية في مصر، والعليا في جامعة كامبريدج في المملكة المتحدة. عمل مستشارًا سياسيًا خاصًا للملك فيصل بن عبد العزيز منذ ان كان فيصل وليًا للعهد، واستمر في هذا المنصب حتى بعد اغتيال الملك فيصل وارتقاء الملك خالد العرش. كلف بمهمات دبلوماسية دقيقة على الصعيدين العربي والدولي وكان من أبرز ممثلي السياسة الخارجية «الصامتة» والهادئة التي كانت تتبعها المملكة خاصة في عهد الملك فيصل. وعرف عنه، إلى جانب دوره السياسي والدبلوماسي، اهتمامه بالاعمال وتطويره لمصالح اقتصادية كبيرة خاصة في مجال النفط. ارتبط إسمه بالاتفاق النفطي السعودي-الياباني في المنطقة المحايدة على الحدود بين السعودية والكويت عام ١٩٥٨.

* **محمد ابراهيم مسعود** (١٩١٩-): ولد في جدة. أتمّ تحصيله الابتدائي والثانوي في العربية السعودية. نال بكالوريوس في التجارة من الجامعة الوطنية اللبنانية. في ١٩٣٦-١٩٣٧، علّم في مدرسة الفلاح في جدة. في ١٩٤١، عين رئيس قسم في دائرة المعادن والأشغال العامة. في ١٩٤٣-١٩٤٨، عين رئيس دائرة التموين في وزارة المالية. أصبح، في ١٩٥٨-١٩٥٩، وزيرًا مطلق الصلاحية، ومفتشًا للسلك السياسي والقنصلي في وزارة الشؤون الخارجية. في ١٩٥٩-١٩٦١، أصبح وزيرًا مطلق الصلاحية في السفارة السعودية في بغداد. شغل منصب سفير بين ١٩٦١ و١٩٦٨، ومنصب نائب وزير الخارجية بين ١٩٦٨ و١٩٧٥، وأصبح وزير بلا وزارة في حكومة الملك خالد.

* **محمد أبو الخيل**: ولد في نجد. نال درجة (ب.ع.) في التجارة عام ١٩٥٦ من جامعة القاهرة. عين، بين ١٩٥٦ و١٩٦٢ مساعد مدير في مكتب وزير المواصلات ثم أصبح مديرًا لهذا المكتب. في ١٩٦٢، كلفه فيصل بإنشاء معهد للادارة العامة في الرياض وكان رئيسًا له (١٩٦٢-١٩٦٥). وفي ١٩٧٠ أصبح نائب وزير دولة للمالية والاقتصاد الوطني، ثم في ١٩٧٥ عين بوزارة الملك خالد وزيرًا للمالية والاقتصاد الوطني.

* **محمد عبده اليماني** (١٩٣٩-): ولد في مكة. أتمّ تحصيله الابتدائي والثانوي في العربية السعودية. نال (ب.ع.) في العلم الطبيعي في الجيولوجيا من جامعة الرياض و(د.ف.) في الحقل نفسه من جامعة كورنل. حاضر، في ١٩٧٢ و١٩٧٣ في جامعة الرياض، وفي ١٩٧٣ أصبح نائب وزير الثقافة، وفي ١٩٧٤-١٩٧٥ تولى رئاسة جامعة الملك عبد العزيز. في ١٩٧٥، عين وزيرًا للاعلام.

* **هشام الناظر** (١٩٣٢-): ولد في جدة. أتمّ تحصيله الابتدائي والثانوي في العربية السعودية، ثم في كلية فكتوريا في الاسكندرية. في ١٩٥٧، نال (ب.ع.) في العلاقات الدولية من جامعة كاليفورنيا، ونال (م.ع.) في العلم السياسي من جامعة كاليفورنيا في ١٩٥٨. في ١٩٥٩، عين مستشارًا في المديرية العامة لشؤون النفط والمعادن. وفي ١٩٦٠، عين مديرًا عامًا للوزارة. وأصبح، في ١٩٦٨، رئيسًا للمنظمة المركزية للتخطيط، وفي ١٩٧١، وزيرًا بقرار من الملك فيصل، ووزيرًا للتخطيط في ١٩٧٥.

عرفت عنه رغبته في الاستفادة من مستشارين أجانب، وأشهر فريق استشاري له هو معهد ستانفورد للبحث في كاليفورنيا الذي اعان في إعداد مسودة المخطط السعودي لخطة السنوات الخمس للتنمية، الأولى والثانية. كما عُرفت عنه آراؤه حول عدم وجود تعارض بين الاسلام والعصرنة، بل بالعكس، لأن التنمية الاقتصادية ينبغي ان تتحقق وتستمر لخدمة المجتمع الاسلامي.

Encyclopédie Historique et Géographique

Continents, Régions, Pays, Nations,
Villes, Sujets, Signes et Monuments

Tome XII

PAR
Massoud Khawand

تمّ طبع الجزء الثاني عشر
في تشرين الاول ١٩٩٨
وتليه الأجزاء الأخرى تباعًا
Ed. Octobre 1998